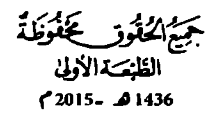

نهج البيان
في تفسير القرآن
سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا
الجزء الأول









ISBN: 978-9938-14-188-7

I.R.A

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn



# المقدّمـــــــــة :

إلى الله نرفع آيات الحمد كما علمنا في فاتحة الكتاب ؛ الكتاب الذي أنزله هدى ورحمة وذكرى لأولي الألباب؛ أولي الألباب الذين اهتدوا بهديه واتبعوا رضوانه فتفتحت لهم الأبواب؛ أبواب الأمن والتقوى فسعدوا في حياتهم الدنيا وفازوا يوم الحساب بحسن الثواب. نحمده ونثني عليه تفرد بالعزة والكمال؛ وتقدس في علاه متعاليا عن الشبيه والضد والمثال. توالت علينا نعمه وأياديه، وما بكم من نعمة فمن الله ومن فضله، وأجلها ما شرفنا به من إنزال كلامه إلينا وجعلنا من أهله. كتاب أخرجنا به من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الصراط المستقيم المسطور. قائدنا في الحياة الدنيا وهادينا إلى ما يفوزنا برضوانه سبحانه في يوم البعث والنشور.

ونصلي أفضل صلاة وأزكاها، وأشرقها وأعلاها، مقرونة بالسلام التام الرضي، على أفضل رسول وأكرم نبي، خاتم الرسل الكرام، وداعي الله إلى دار السلام، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وأزواجه وعترته وحزبه. اللهم ضاعف أرسال فضلك عليه، كما يرضيك ويرضيه، وآته الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة والمقام المحمود كما وعدته . إنك لا تخلف الميعاد.

أما بعد. فقد وجه رب العزة خطابه لمحمد ﷺ بقوله: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب )[1] هو الفرد الذي تخيره العليم الخبير من بين خلقه ليكون المتلقي للقرآن من جبريل عليه السلام، الأمين على نشره في العالمين، وعلى إبلاغه للناس قاطبة. إبلاغا يحفظ نصه ويشرح لفظه، ويبين معناه، وينبه العقول والأرواح إلى أهدافه العالية، وليقيم لهم ﷺ من سلوكه في الحياة، الصورة

[1] سورة ص آية 29

العملية لما تضمنه من هداية وتشريع واستقامة وفعل في الكون، وفي المجتمع الإنساني عامة.

وصفه بأنه مبارك، كثيرة خيراته، تتجاوز بركاته زمن نزوله إلى الأجيال البشرية المتعاقبة، كيفما اختلفت أجناسهم ولغاتهم وثقافاتهم، ومستواهم الحضاري. هو كتاب الدهر، الذي يقتبس منه الفرد منهجا يفتح له مسالك الهداية، ويؤمنه في حياته الدنيا بالرضا والصلاح، ويربط بينه وبين الخير بأمتن الأسباب، ويحجزه عن الشر والفساد. ويقيم له من دنياه ما يسعده في آخرته، ويفوزه برضوان ربه ووراثة جنته، والنعيم المقيم.

كما تقتبس منه المجموعات البشرية دستورها الذي يحكم الروابط بين أعضائها، لتكون علاقاتهم علاقات البناء والتعاون، لا الهدم والبغي والتسلط والاستبداد. هو دستور يقيم للعدل سلطانه، وللكرامة سيادتها في التصور والفعل، سيادة تتطبع بها نفس الحاكم والمحكوم، وولي الأمر وكل عضو من أفراد الأمة، وتتغرس في المجتمع: الأبوان وذريتهما، والزوج وزوجه، والجار وجاره، والموظف والشعب، والعامل وصاحب العمل. مما يجعل كل فرد يشمئز من الظلم والتعالي، ويأنف من الرضا بانتهاك أي حق من حقوقه، الرضا الذي يطوع النفس للذل والمهانة .قال تعالى :( ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[1] وقال سبحانه: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا)[2]. وصرحت الآية معلنة صورة العلاقة التي تحقق للبشر استفادتهم من هذا الكتاب، العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب الدهر الذي يتجاوز زمن الوحي إلى الآماد الضاربة في مستقبل البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول سيد قطب رحمه الله: وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات؛ ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر سورة الأحزاب[3] .

يجب أن تقوم هذه العلاقة على تدبره، [ليدبروا آياته ] والتعمق في مفاهيمه الثرية البعيدة الأعماق البالغة أغوار النفس، والمنبئة عن سنن الله في الكون وفي المجتمعات. تدبر اياته بفهمها الفهم الواعي لأغراضها وأبعادها، وطريقة تطبيقها. التدبر الذي يحرك العقل فينظر في النص نظرة من يجمع بين آيات الكتاب فيزيده كل مورد غوصا في إدراك الحقيقة القرآنية والهداية الربانية. قال تعالى: (ولو كان

---

[1] سورة المنافقون آية8

[2] سورة فاطر آية 10

[3] مجلد 6ص13/212

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[1] ويوقظ الروح فيجمع إشعاعها بين الحياة والموت، والدنيا والآخرة. قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء-)[2]

التدبر انفعال بين التالي وبين النص القرآني، يستبطنه ويعيش معه في قرارة فكره ومشاعره. وتستشف به روحه، وقد يبلغ من مراتب يقظتها ما ينسيه في أعلى درجات التجلي المحيط الذي يعيش فيه، فتستولي الروح على الحواس وتمتص ما لها من نشاط طبيعي .وهو فتح من الله وجهاد من الذات لتنغمس في النص القرآني وتنفعل به.

وشتان بين ما دعت إليه الآية الكريمة من التدبر، وبين التلاوة التي تحرك السامعين بالوزن الذي يصنعه القارئ بما مُرِّن عليه، وبما أوتيه من الحبال الصوتية المساعدة، فيهزهم ظانين أنهم يعيشون في الجو الرفيع الذي كتبه الله للمتدبرين، وهيهات. يتلو آية العذاب كما يتلو آية الرحمة والنعيم، ويتلو آيات القيامة وانفجار الكون، كما يتلو فوز المنعمين بالجنة، ويهدد القرآن وينذر، أو يعد ويبشر، ويطرب السامعون على جميع الأحوال للصوت الشجي، والنغمات المرتبة ترتيبا فنيا مصنوعا. دون أن تخشع قلوبهم وأرواحهم لمضامين الآيات. فما أبعدهم عن قوله تعالى: (ويدبروا آياته ). والتدبر الواعي هو التأمل الذي يتمثل للتالي معه سلوكه في الكون، وتصرفه في الحياة، وعلاقته بالخالق وبما خلق. فيتأثر بالقرآن تأثرا يقوم ما اعوج، ويعدل ما جار، ويحمد الاستقامة، وتقوى عزيمته على اتباع طريق الخير .

وليذكر أولو الألباب .نزل القرآن ليكون مع أصحاب العقول الذكية في جميع المواقف، يسعدهم بمعرفة الحقيقة في كل شأن من شؤون حياتهم. وإذا عرفوا الحقيقة أعانهم على اتباع الهدى، وقمع بما انبنى عليه، من إحياء للضمير وصقل للروح، دواعي الشهوة ومس طائف الشيطان. يتذكر فإذا هو مبصر يمزق حجاب الغفلة، ونقادٌ لا يغتر بالبهرج، ولا يُخدَع بلمّاع الزيف المغشوش.

تكرر في القرآن الإشارة بقوله تعالى: [هذا] إلى القرآن أربع عشرة مرة كقوله: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. تثبيتا وتأكيدا ليكون حاضرا في الذاكرة غير منسي، ولا بعيد عن حياة المؤمن. يصحبه في عبادته، وفي عمله، و في يقظته

---

[1] سورة النساء آية 82

[2] سورة الزمر آية 23

ونومه، وفي جده وراحته. وعندما تشتبه المسالك ، وتعظم الحيرة وينطلق داعي البحث عن المعين والمسدد للرأي.

يقول الأستاذ الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: (ابتعث الله بالقرآن نبيه الأمين محمدا ﷺ لهذا العالم الإنساني كله، حين بلغ رشده الاجتماعي، واستعد للكمال، واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سندا له إذا زل، وهاديا له إذا ضل، ومصححا لخطئه إذا أخطأ، ومخرجا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة، ومفسحا له في آماله إذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال، ومحررا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونا، مرشدا إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها)[1]

هو كلام رب العزة تستمد منه العقول والضمائر والأرواح ما يتلاءم مع مستواها الفكري والحضاري، وكلما تقدمت البشرية حضاريا وجدت في القرآن المعين الذي لا ينضب، تقوم آياته مساعدة لهم كأنها أنزلت لهم، لتحل مشاكلهم وتستجيب لتطلعاتهم، وتهديهم سواء السبيل .قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[2] رجع إليه العلماء فدونوا أفهامهم في التآليف التي فاقت الحصر .وما يزال القرآن يفيض من عطائه، ولا يزال الناس في حاجة إلى تجديد النظر، ومواصلة البحث، واستكشاف أسراره .نعم هو كلام رب العزة الذي وسع علمه كل شيء، وإن النظر الإنساني مبني على محدودية علم الناظر، ونقصانه، وقصوره .لنضرب لذلك مثلاً ما دونه الإمام محمد فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في المقدمة، إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة [ سورة الفاتحة] يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة .فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني .فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول. فنقول وبالله التوفيق: إن قولنا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لاشك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات، ولا شك أن المنهيات إما أن تكون من باب الاعتقادات، أو من باب أعمال الجوارح. أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم: ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة. وهذا يدل على أن الثنتين والسبعين موصوفون بالعقائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة. ثم إن الضلال في كل

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1ص320

[2] سورة فصلت آية 53

واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة بل هو حاصل في مسائل كثيرة، من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته وبأحكامه، وبأفعاله وبأسمائه، وبمسائل الجبر والقدر، والتعديل والتجويز، والثواب والمعاد، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والإمامة .فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة وهو الاثنان والسبعون على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغا عظيما. وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة في فرق الأمة .وأيضا فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يقربون من سبعمائة. فإذا ضمت ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في فرق الأمة، في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات ، والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغا عظيما في العدد. ولا شك أن قولنا: أعوذ بالله يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع. والاستعاذة من الشيء لا تكون بعد معرفة المستعاذ منه....ويختم بقوله: فثبت بهذا الطريق أن قولنا أعوذ بالله مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل من المسائل المهمة المعتبرة[1].
ثم إن شخصية كل من قام بتفسير القرآن، وثقافته وسعة مداركه، والغرض الذي يهدف إليه قد طبع أثره بطابعه الخاص. اعتنى بعضهم بتسجيل ما روي من الأخبار في توضيح معنى النص. وعني آخرون بالمقارنة بين الآثار وترجيح ما اطمأن إلى أنه أولى بحمل النص عليه .وعني بعضهم بإبراز الإعجاز القرآني، وجعله غايته الأولى وعظم قصده، كما فعل الزمخشري ، ومن سار على نهجه .
واهتم أبو حيان فيما اهتم به، بالكشف عن الوظائف النحوية وبيان ما يشكل من ناحية الإعراب. وبرز في القرن الأخير من توجهت عنايته إلى هداية القرآن في التأثير على المجتمعات لتقتبس من سنن الله التي أفصح عنها في كتابه ما ينهض بالأمة من وضعها ويدفعها إلى تبوئ مكانتها، مكانة العزة والريادة .وإسهامهم في هذا الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه.

ويكاد كل المفسرين الذين تروج مؤلفاتهم ويعود المسلمون إليها لفهم كتاب الله منجذبين إلى ربط النصوص بالقواعد اللغوية :ما يدخل تحت علم النحو مما يعود إلى الإعراب، ووظيفة الكلمة في الجملة، أو محل الجملة من غيرها، والعطف والتأكيد وبقية التوابع. أو ما يدخل تحت علم البلاغة، كعلم المعاني، ومباحثه من التأكيد وتنزيل المنكر منزلة غير المنكر والعكس، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، ونحو ذلك. ومباحث البيان كالمجاز المرسل والمجاز العقلي والاستعارة الأصلية والتبعية، والتمثيلية، والمكنية والترشيح ونحو ذلك.

والبديع كالسجع والجناس الكامل والناقص. وما يدخل تحت علم أصول الفقه كقواعد الاستنباط التي حققها علماؤه، كدلالة الألفاظ من الأمر والنهي، والعموم

---

[1] ج1ص3/2

والخصوص، والإطلاق والتقييد. ودلالة الاقتضاء، ومفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة، والقياس بأقسامه، ومسالك العلة ونحو ذلك. وبدخول المفسرين في تفاصيل تلك العلوم التي تشعبت فروعها وارتبطت بمصطلحات لا يفهمها إلا من درس تلكم العلوم الأصولية واللغوية وحذقها، بدخولهم في تلك التفاصيل أقاموا حاجزا بينهم وبين من لم يتهيأ معرفيا لإدراك تلكم المصطلحات، فاستغلق ما كتبوه لبعد تلكم المصطلحات وعدم رواجها في لغة العصر وطرقه ومناهجه، فعسر تبعا لذلك فهم كلامهم، و إدراك أغراضهم. وتوالت صدمات عدم الفهم على القارئ لكلامهم، فلم يقدر على متابعة ما حرروه من التفسير. وانصرف وهو حسير؛ متبرما لعدم فهمه، يلتهب شوقه لينفذ إلى إدراك المراد من النص القرآني، وتقوم تلكم المصطلحات حاجزا منيعا.

ومن ناحية أخرى فإنه إذا نظرنا إلى المجتمعات اليوم، فإنا نجد أن التعليم قد انتشر، فغزا الأمية ودحرها. وأن عددا غير قليل من المتعلمين يرغبون رغبة صادقة في فهم القرآن وجمع التأنس بتلاوته إلى إدراك معانيه إدراكا سليما ينفذ إلى عقولهم فيهديها سواء السبيل، وإلى مشاعرهم فيهذبها ويعليها، وإلى أرواحهم فيوقظها ويجليها بنوره، فتشع على حياتهم طمأنينة ورضوانا، وسعادة وسلاما. لا أقصد بتفصيل هذه الصعوبة التوهين من أمر العناية بالنواحي البلاغية والنحوية والقواعد الأصولية. ذلك أن من درس تلكم العلوم، يتعمق إحساسه بمعجز كلام الله، ويدرك حق الإدراك سر تحدي القرآن للبشرية أن يأتوا بعشر سور أو بسورة من نسج القرآن. ويكون فهمه أعمق وكذلك شعوره بكون كلام الله أعلى وأكمل. ويتبين ما اختص به القرآن ويشرق في مشاعره إشراقا بينا كاملا، قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا)[1] ولتقريب ذلك أنقل ما روي عن أبي العباس المبرد إمام اللغة.

روى ابن خلكان : أن أبا العباس كان في مجلس بالبصرة فغنت جارية من وراء ستارة :

وقالوا هذا حبيبك معرض *** فقالت ألا إعراضه أيسر الخطب

فما هي إلا نظرة فابتسامة*** فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب كل من حضر إلا المبرد. فقال له صاحب المجلس: كنت أحق بالطرب! فقالت له الجارية : دعه يا مولاي، فإنه سمعني أقول هذا حبيبك معرض، فظنني

---

[1] سورة الإسراء آية 88

لحنتَ . ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ [وهذا بعلي شيخٌ] قـال فطـرب المبـرد مـن قولها إلى أن شق ثوبه[1].

هذه القصة توضح أن من حذق علـوم العربيـة: النحـو والبلاغـة، ودرب ذوقـه علـى البيان العربي، فأدرك أسرار العربية وما تفيض به مـن جمـال ودقـة، يجـد كـل شـرح للنص القرآني لا يتعرض لخواص التركيب مستندا إلـى القواعـد المضـبوطة فـي علـوم العربية، يجده شرحا منقوصا بل مشوها للإعجاز الذي وقع التحدي به .

ثم إنه قد طلب مني كثيـر ممـن اتسـعت آفـاق تفكيـرهم، وبلغـوا فـي اختصاصـاتهم المتنوعة حدا مرموقـا، مـن المهندسـين والأطبـاء والصـيادلة والحقـوقيين، وتعلقـوا تعلقا كبيرا بالقرآن يتلونه، ويشـعرون شـعورا مجمـلا بجلالـه ؛ سـألوني هـل يوجـد تفسير يصل بينهم وبـين القـرآن، يهـتم ببيـان معانيـه، وهديـه الراشـد، لا يعجـزهم متابعته، ويندمجون بواسطته في الجو القرآني لاتبـاع هديـه، وتعميـق إيمـانهم بطريقتـه في الدعوة إلى الله، وفـتح أبـواب الخيـر، ويقومـون سـلوكهم علـى أصـوله، وينيـر أرواحهم ومشاعرهم ما تميز به . ولم أجد فيمـا أعلـم مـن راعـى فـي تفسـيره ذلـك؛ وألحوا علي في الطلب لأقوم بهذه المهمة.

وحضرتني وأنا أفكر في الأمر، ما ذكره الإمـام ابـن عرفـة فـي شـرح الحـديث الـذي رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضـي الله عـنهم، أن رسـول الله ﷺ قـال: (إذا مـات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا مـن صـدقة جاريـة، أو علـم ينتفـع بـه، أو ولـد صالح يدعو له. يقول الأبي : وكان شـيخنا أبـو عبـد الله [ابـن عرفـة] يقـول : تـدخل التآليف في ذلك إذا اشـتملت علـى فوائـد زائـدة ،وإلا فـذلك تخسـير للكاغـذ. ويعنـي بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليـه. وأمـا إذا لـم يشـمل التـأليف إلا علـى نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه : إنه تخسير للكاغذ[2].

كما حضرني ما ذكره ابن خلدون فـي فصـل ( المقاصـد التـي ينبغـي اعتمادهـا فـي التأليف وإلغاء ما سواها) لما قـال إن النـاس حصـروا مقاصـد التـأليف التـي ينبغـي اعتمادها وإلغاء ما سواها فعدوها سبعة:

أولها : استنباط العلم بحيـث يكـون المؤلـف قـد اسـتبان لـه الموضـوع، وعناصـره الأساسية ومسائله. فيدون ما حصل في ذهنه ليستفيد منه من يأتي بعده.

ثانيها: أن يتأمل فيما كُتب في الفن من السابقين، فيجـد أن الإفـادة منهـا لا تتـأتى لكثيـر من الناس، فيعمد إلى إيضاحها وتقريبها.

---

[1] وفيات الأعيان ج4 ص317

[2] إكمال الإكمال ج4 ص346

ثالثها: أن يعثر على خطأ وقع فيه من تقدمه ممن له المقام العلمي الرفيع الذي يجعل الناس يتابعونه ويثقون بما كتبه، فيعمد إلى تصويب الخطأ والتنبيه عليه لينتفع به من سيأتي.

رابعها: أن يهديه تأمله في الموضوع أن من سبقه أغفل بعض الأبواب والمسائل، فيكملها ويكون استيعاب من يأتي بعده للموضوع أتم.

خامسها: أن يلحظ أن مسائل العلم غير مرتبة ترتيبا منطقيا، يسهل على طالبها الظفر بها، فيعمد إلى تنظيمها وترتيبها.

سادسها: أن يجد مسائل العلم مفرقة داخلة في علوم أخرى، فينتبه إلى الجامع بينها، ويقوم بذلك فيضمها ويكملها ويرتبها؛ فتأخذ مكانها في أصناف العلوم.

سابعها: أن يعمد إلى اختصار المطولات التي انساب فيها قلم المؤلفين السابقين، فكرروا، وتوسعوا في التعبير. مع الحرص على الاحتفاظ بما هو ضروري [1].

إن ما نقلته عن هذين العالمين الكبيرين جعلني أقدم رجلا وأؤخر أخرى. وضاعف تهيبي من أن يسجل قلمي في كتاب الله فهما غير سديد يؤثر في غيري. وهداني ربي أن أستفتح بالاستخارة السنية في يوم مبارك يسر لي فيه أن أكون في الروضة الشريفة و المنبر النبوي عن يميني. توجهت إلى علي ذاته أن يخير لي ما فيه خير، فشد عزمي على المضي فيما قصدته، وشرعت مستعينا برعايته وتسديده، وجميل عونه، أتأمل كل آية تأملا عميقا، وأنظر فيما تبلغه يدي من أنظار علماء الأمة رضي الله عنهم، وجازاهم عنا أجمل الجزاء. وأقارن بين مدلول الآية وبين نظائرها، ثم أسجل ما فهمته، باذلا جهدي ليكون التعبير عما استقر في ذهني تعبيرا سهلا، دون أن أصرح بالارتباط بين دلالة النص والقواعد اللغوية والأصولية التي أراعيها. فمثلا، لا أقول إن المخاطبين بالآية منكرون لمضمونها إنكارا شديدا مما أوجب التأكيد رفعا لإنكارهم، أو هم بسلوكهم منزلون منزلة المنكر فجاء التأكيد تبعا لذلك التنزيل، بل أقول في تقديم الآية مثلا: بكل تأكيد. ويسر لي سبحانه أني ما كتبت كلمة في هذا الكتاب، طيلة السنوات التي محضتها لتفسير كلامه جل وعلا، إلا وأنا على وضوء . وكلما توقفت في فهم الآية، ولم أجد فيما كتب حولها ما يقنعني توجهت إلى الله بالصلاة ليفتح على بصيرتي، فما كتبت إلا ما أنا مقتنع به ظان أنه المقصود .ولله الشكر على ما أسعفني به من الطمأنينة . وما لم أصل فيه إلى رأي راجح مقبول أنبه عليه وأكله إلى العليم الخبير. كقوله تعالى: **{وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم}**[2] إنه بعد التأمل ومراجعة ما

---

[1] المقدمة ج2ص441/442/443- بتصرف.

[2] سورة النمل آية82

كتبه السابقون لم أجد تصورا مقنعا في تعيين المـراد مـن الدابـة، ففوضـت الأمـر إلـى عالم الغيب.

وسيجد الناظر في هذا التفسير أنني فسرت بعض الآيـات علـى وجـه مـا رأيـت أحـدا سبقني إليه. فمثلا قوله تعالى فـي سـورة البقـرة: (إنّ الـذين آمنـوا والـذين هـادوا والنصارى والصابين من آمن بالله واليوم الآخـر وعمـل صـالحا فلهـم أجـرهم عنـد ربهم ولا خـوف علـيهم ولا يحزنـون)[1] يصـرح المفسـرون بـأن الصـابئة يعبـدون الكواكب .ولم أقبل ذلك. إذ كيف يستقيم أنهـم عبـدة كواكـب ونـص الآيـة : مـن آمـن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا. فمنهم قطعـا مؤمنـون بـالله. وهـذا مـا اسـتحثني لمواصلة البحث حتى ظفرت بما يزيل الإشـكال، وعلمـت مـن الدراسـات التـي عنيـت بهذه الطائفة، أنهم يؤمنـون بـالله ويعتقـدون أن شـريعتهم أوحـى الله بهـا إلـى سـيدنا يحي، وينفون نبوة ما عداه من الرسل كما تجد تفصـيل ذلـك فـي تفسـيري للآيـة .ولـذا اخترت أن ألحق الفهارس بحول الله، بفهرس خاص بالآيات التـي لـم أتـابع فـي فهمهـا غيري من المفسرين السابقين .وهم كما يقول ابن مالك في ابن معطي :

وهو بسبق حائز تفضيلا *** مستوجب ثنائي الجميـلا

والله يقضي بهبات وافرة *** لي وله في درجات الآخرة .

واعتمدت في تفسير النص علـى روايـة قـالون عـن نـافع رضـي الله عنهمـا. ولـم أتعرض لاختلاف القراء، تيسيرا على القـارئ حتـى يحصـر فهمـه فـي الـنص علـى وجه واحد. ولمن يرغب في تتبع القراءات وما يترتـب علـى ذلـك مـن اخـتلاف فـي فهم للآية، أن يعود إلى تفسير ابن عطية رحمه الله، فقد عني بذلك وأجاد.

ومنهجي في هذا الكتاب أيضا أني:

1- أعتني أولا، بشرح الألفاظ التي أتوقـع أن التـالي فـي حاجـة إلـى بيانهـا. وحتـى ألبي رغبة المُعْجل الباحث فقط على معنى الكلمات.

2- ثم أقوم بشرح إجمالي للوحدة القرآنيـة دون تفصـيل .ليجـد فيهـا القـارئ الأصـول التي تدل عليها.

3- أفصل ما تدل عليه الوحدة بطريقـة تجعـل الـنص واضـحا، ومقسـما تقسـيما قـد يكون بالأرقام ليكون أعون على المتابعـة الواعيـة لظـاهر الـنص القرآنـي. وأريـد أن أنهي هذه المقدمة بما ذكره الشيخ محمد الطـاهر ابـن عاشـور رحمـه الله فـي تفسـيره لقوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلنـاه مبـارك). والقـرآن مبـارك لأنـه يـدل علـى الخيـر العظيم .فالبركة كائنة به، فكأن البركـة جعلـت فـي ألفاظـه. ولأن الله تعـالى قـد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة. ولأنـه مشـتمل علـى مـا فـي

---

[1] سورة البقرة ،آية 62

العمل به كمال النفس وطهارتها بالمعارف النظرية، ثم العملية. فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه. قال فخر الدين:( قد جرت سنة الله بأن الباحث عنه، [القرآن ]المتمسك به يحصل له عزّ الدنيا، وسعادة الآخرة. وأنا نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدنيا مثل ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم[ يعني التفسير ])[1]

وختاما أتوجه إلى الرحمن الرحيم، العلي القدير، مبتهلا ابتهال المخبتين، داعيا في ضراعة أن ينفع به المؤمنين والمؤمنات، وأن يرحم والدي ومن علمني . وأن يكتب لي ولكم حسن الخاتمة .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

[1] التحرير والتنوير ج 7ص370

# ســـــورة الفـــاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

أسماء السورة:

فاتحة الكتاب، أم القرآن السبع المثاني. سميت بفاتحة الكتاب لأنها أول سورة في ترتيب المصحف المحفوظ عن رسول الله ﷺ، فمن يكتب المصحف يفتتح بها ومن يقرأ القرآن كله يفتتح قراءته بها. وهي سورة مكية وهي من أوائل السور نزولا. واختلف في رتبتها بين أن تكون الثالثة تقدمها نزولا اقرأ باسم ربك الذي خلق وسورة المدثر. فتكون هي الثالثة. وذهب بعضهم إلى أنها الخامسة تقدمها أيضا المزمل والقلم.

وسميت أم القرآن لأنه عند التأمل فيها، تجدها تشتمل على الأصول التي عني القرآن ببيانها وتفصيلها، كما سيتبين لك ذلك في تفسير معاني آياتها.

وسميت السبع المثاني لما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني).

البسملة (بسم الله الرّحمن الرّحيم ).

**بسم الله الرّحمن الرّحيم**: ثبتت كتابتها في أول سورة الفاتحة، وفي أوائل السور ما عدا سورة براءة. وأجمع فقهاء الأمة على أنها آية من سورة النمل في قوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرّحمن الرّحيم)

وأداهم اجتهادهم في عدها آية في فواتح السور غير سورة براءة إلى الآراء الثلاثة التالية:

- أنها ليست آية في أوائل السور لا في الفاتحة ولا في غيرها.
- أنها آية في سورة الفاتحة فقط.
- أنها آية في فاتحة كل سورة ما عدا سورة براءة.

تنبيه:

كل واحد من الذين رجحوا رأيا من هذه الآراء الثلاثة على هدى من الله، وهو مأجور. ولذا فعلى المؤمن أن لا يعترض على غيره إذا سمعه يترك قراءة البسملة مع الفاتحة في الصلاة كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك، ولا على من يقرؤها كما هو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل.

### بيان معاني الألفاظ :

اسم الله: هو العلم الدال على الذات العلية.

الرّحمــــن: صفة لله تدل على كمال لطفه بمخلوقاته وإعانتهم وتيسير أمرهم.

الرّحيــــم: صفة ثانية لله تعالى، تدل على أن رحمته تعم الكائنات جميعا كما قال تعالى: (ورحمتي وسعت كل شيء)

### بيان المعنى الإجمالي :

أفتتح قراءتي للقرآن مستعينا باسم الله الذي برحمته يسعدني بتلاوة كتابه على الطريقة التي يرضاها، ويفتح قلبي على هدايته، ويُفهمني مقاصده، وييسر عليّ اتباع أحكامه والتأدب بآدابه، وينفعني به في الدنيا والآخرة.

والبسملة يقرن المؤمن بها شريف أعماله، ويكتسب منها الأمن الباطني، وتتنزل بها عليه البركات.

والافتتاح بها هو الأدب الذي علمه النبي ﷺ للمؤمنين في مناسبات عدة، منها عند قصد الطهارة، وعند الأكل، وعندما يأوي المؤمن إلى فراشه، وعندما يستيقظ من نومه، وعند الاتصال الجنسي بالزوجة، فقد قال ﷺ: لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّرْ بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان، وعندما يخرج من بيته، وعندما يعود إليه، وعندما ما يركب، وعندما ينزل، وعندما يشرع في العمل، وعندما يغلق بابه أو يفتحه، وعندما يذكي، وعندما يصطاد...

## 1-2، الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم

### بيان معاني الألفاظ

الحمد لله: الكامل في ذاته وصفاته مستحق للحمد، وأهل للثناء عليه بما فيه من كمالات.

رب العالمين: هو الذي أثر لطفه في جميع الكائنات ورباهم من بداية أمرهم حتى بلغوا كمالهم.

يوم الدين: هو يوم الجزاء في الآخرة

**بيان المعنى الإجمالي:**

نثني عليك ربنا، ونعبر لك عما استقر في عقولنا وأرواحنا من تعظيمك وتقديسك لما اتصفت به من الكمالات، ونشهد أنك رب كل كائن في هذا الوجود لا شريك لك. وأنك الموصوف بالرّحمة التي لا تحدها حدود، وأنك وحدك المالك لكل أمور يوم القيامة.

**بيان المعنى العام:**

1-أثنى الله على نفسه، وفي ذلك تعليم للبشر طريقة ثنائهم على ربهم، فعلى القلوب أن تستشعر دوما عظمة الله وكماله، وأن تتحرك الألسنة بالتعبير عن ذلكم الكمال. وتقصر اللغة عن الثناء على الله بما هو أهله، فعلّمهم ربهم ما يقبله منهم في حدود طاقتهم بأن يقولوا **(الحمد لله رب العالمين)**

اعتنى الله بهم في جميع أطوار خلقهم، ورباهم حتى بلغوا كمالهم، يستوي في ذلك عالم البشر وعالم الحيوان وعالم النبات، والأرض وما تحويه، والكواكب والمجرات، فهو الذي لطف بها في كلياتها وجزئياتها، وفي حركاتها، وفي كل طور من أطوار وجودها .على المؤمن أن يتأدب بهذا الأدب، وينطلق لسانه وقلبه بالتّوجه إلى الله بالحمد كلما تأمل في الكون، وكلما باشر أمرا من أمور حياته التي أذن الله له في مباشرتها، مستشعرا عناية الله به وتيسيره.

2-وعلى المؤمن أن يعتقد اعتقادا جازما، بأن الله موصوف بالرّحمة الكاملة التي تظهر آثارها في الرّفق واللطف والإحسان والعون والتّوفيق والجزاء على ما يصدر من الإنسان من خير. وما كان ليحصل كل ذلك لولا رعايته وعنايته **(الرّحمن)** الذي تصل رحمته إلى جميع المخلوقات **(الرّحيم)** قال تعالى **(ورحمتي وسعت كل شيء)**.

**3 -مالك يوم الدين:**

قرأها النبي ﷺ **(مالك)** بالألف بعد الميم، وقرأها **(ملك)** بدون ألف. وأقر من قرأها على الوجهين جميعا.

وصف الله نفسه أولا بأنه رب الكائنات جميعا العاقل منها وغير العاقل، وثانيا أنه تولى الجميع برحمته وألطافه، فلا يخرج عن ملكه شيء ولا يحرم من رحمته كائن. وثالثا أنه من كمال رُبوبيته وألطافه وإحسانه أن شرف الإنسان بالخلافة في الأرض، ورحمه فلم يهمله بدون هدايته التي بلغها إياه بواسطة رسالاته. إنه لا يصلح العالم إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولذا نبهه أنه مجْزِيٌّ عن أعماله في يوم لا يملك أحد أي أمر من الأمور، تخضع فيه الكائنات البشرية لعدله فيلقى كل فرد جزاء أعماله الخيرة ثوابا وتكريما، وجزاء عصيانه ومخالفته شرع ربه مهانة

وعقابا أليما، إذا لم يغفر له ربه ذنوبه. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

### 4-إياك نعبد وإياك نستعين

**بيان معاني الألفاظ:**

**إياك:** أنت لا غيرك.

**نعبد:** نقوم بما يقتضيه الخضوع.

**نستعين:** نطلب العون على تحقيق الخير.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نخصك ربنا بالعبادة فلا نعبد غيرك ولا نطلب العون إلا منك.

**بيان المعنى العام:**

4-لما كان الخلق والعناية بالكائنات، في جميع أطوارها، من فضل الله ورحمته، وأن تصرُّف الإنسان فيها تكليف وشرف له سيحاسب عليه يوم القيامة: هل كان ملتزما بما شرعه الله أو مفرطا؟ ولا ينجح في حياته هذه ولا يحققّ الفوز يوم القيامة إلا إذا طبق ما شرعه الله له في تصرفاته. وأول ما تُقوّم به أعمال الإنسان الإخلاص لله، الإخلاص الذي يوجب أن لا يُقدّمْ رضا أي كائن على مرضاة ربه. فالمؤمن لا يعبد إلا الله، ولا يُقدّمْ على مرضاته ولدا ولا مالا ولا زوجا ولا سلطانا. هذا معنى لا نعبد أحدا إلا أنت. (إياك نعبد)

وقدرة الإنسان محدودة لتحقيق سعادته. فالاهتداء لما هو أسلم في العاقبة، وقوة تأثير شهوات النفس والمعوقات المختلفة، تجعل المكلف لا يستطيع بما أوتي من قدرات أن يتغلب عليها، والقادر المتصرف المساعد برحمته وفضله هو الرّب الكريم، فيطلب المؤمن منه أن يعينه، ويبعد عنه المعوقات ويسعده بالألطاف.

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞

**بيان معاني الألفاظ:**

**اهدنا:** أعنا بلطفك على الخير معرفة وعملا.

**الصراط:** الطريق الواسع.

**المستقيم:** غير المعوج.

**أنعمت عليهم:** مكنتهم من خيرات الدنيا والآخرة التي لا يصاحبها ولا يعقبها ما يكدرها.

**المغضوب عليهم:** ضد المرضي عنهم

الضالين: الضالين جمع ضال، والضال مــن عــرف الطريــق الصــحيح ثــم حــاد عنــه حتى نسيه وكذلك من جهله وتلقفه الضياع.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أعنا ربنا واهدنا لاتباع الطريق القويم الــذي يبلــغ بــه ســالكه الغايــة ولا يضــل. هــذا الطريق القويم الذي أكرمت بالهداية إليه الذين تفضــلت بالإنعــام علــيهم، فــلا هــم مــن الذين غضبت عليهم، ولا هم من الذين اختلطت علــيهم الســبل وكتبَــت علــيهم الضـــلال والضياع والحيرة.

**بيان المعنى العام:**

5←7: تختتم سورة الفاتحة بإرشاد المؤمنين أن يتوجهوا إلــى ربهــم، وقــد أعلنــوا عــن إخلاصهم فــي العبــادة (إيــاك نعبــد) وعــن اعتــرافهم بالحاجــة إلــى عونــه (وإيــاك نستعين)، أن يتوجهوا بقلوبهم وأرواحهم وعقــولهم إلــى الله العلــي الأعلــى الــذي بيــده الأمر كله في خضوع وإنابة، أن يلطف بهم فيُبصــرهم بــالطريق المســتقيم الحــق الــذي لا عوج فيه. المتميز بالوضــوح مــن بدايتــه إلــى غايتــه ونهايتــه. الطريــق الــذي لا يجدون فيه منعطفات ولا مجامع طرق محيــرة، يتحيــر الســالك فيهــا أيهــا الموصــل. هو طريق مستقيم بدايته الإيمان وغايته رضوان الله.

ويتميز هذا الطريق مع استقامته ويسره وسهولته، بأنــه طريــق واضــح يــنعم مــن ســار عليه فــي الحــال والمــآل بالطمأنينــة والرّضــا، لا يتحيّــر فــي مســاره ولا يقلــق ولا يضطرب منشرح الصدر آمل لا ييأس. وهــو الــذي مهــده وبينــه المصــطفى ﷺ بمــا بلغه من وحي، وبما أقام عليه الحياة الفردية والاجتماعية مــن قــيم هــي الحــق الــذي لا يختلف باختلاف الأزمنة والظــروف، وهــو مــا يتفــق فــي أصــوله مــع رســالات الله المتعاقبة للبشرية. قال تعالى(قل إنني هداني ربي إلى صــراط مســتقيم دينــا قيمــا ملــة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)[1]. هو الطريق الــذي يختلــف عــن الطــرق التــي هلك من اتبعها فحل عليه غضب الله بما يتبعه مــن عذابــه ونقمتــه. مــن الــذين جــاءهم الهدى من الله على لسان رسله فغيروا عــن عمــد وبــدلوا وحرّفــوا الحــق عــن قصــد، وحكّموا أهواءهم ومصالحهم العاجلة، فرفضــوا منكــرين الحــق الــذي أمــروا باتباعــه. ويشمل المغضوب عليهم اليهود ومن جرى على شاكلتهم من أهل الديانات السابقة.

كما يختلف عن طريق الــذين آتــاهم الله هــداهم فقصــروا فــي فهمــه وحفظــه فــاختلط عليهم الحق الذي جــاءهم بــه رســل الله، فحكمــوا تــأويلاتهم وآراءهــم فضــلوا عــن

[1] سورة الأنعام آية 161

الطريق المستقيم المنجي. ومن هؤلاء النصارى الذين كرموا رسولهم حتى جعلوه إلها، وسنوا الرّهبانية، ورفضوا ما خلقه الله للناس وامتن عليهم به من مباهج الحياة واستخلافهم في أرضه. قال تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ) .

### من مـــزايا سورة الفاتحة:

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي سعيد بن المعلى ﷺ عنه أن رسول الله ﷺ قال له (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه)[1]. وأخرج الإمام مسلم في صحيحه الحديث القدسي بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عنه والأربعة وأحمد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله ﷻ : حمدني عبدي، وإذا قال: الرّحمن الرّحيم، قال الله ﷻ: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[2].

---

[1] فتح الباري ج 9 ص223.

[2] فيض القدير ج 4 ص475.

# سورة البقرة

هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة. وتتابع نزول آياتها سنين عديدة. وسميت سورة البقرة لذكر قصة بقرة بني إسرائيل في أثنائها ولم تذكر في غيرها من سور القرآن. وهي السورة الثانية حسب ترتيب المصحف ورتبتها حسب ترتيب النزول السابعة والثمانون نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (1) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يُكَذِّبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (14) ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

عشرون آية افتتحت بها السورة، رسمت بدقة ملامح الأنماط البشرية في الحياة، في عهد الرّسالة وفيما يتلوه من أزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

النمط الأول: المؤمنون – النمط الثاني: الكافرون– النمط الثالث: المنافقون

**بيان معاني الألفاظ:**

**الكتاب:** القرآن.

**لا ريب فيه:** لاشك فيه، صحيح على الدوام.

**هدى:** الهدى: الإرشاد لما هو أصلح في الحاضر والمآل في الدنيا والآخرة.

**المتقين:** جمع: واحده المتقي، وهو الذي اتخذ لنفسه وقاية من المكروه، فتحصن بذلك ليحقق لنفسه السلامة والنجاح في عاقبته.

**الغيب:** ما لا تدركه الحواس من الحقائق كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر وكل ما أخبر عنه النبي ﷺ مما لا يدرك بحاسة من الحواس.

**يقيمون الصلاة:** يتكرر منهم أداء الصلاة كاملة.

**الآخرة:** الحياة بعد الموت.

**يوقنون:** يعلمونها ويعتقدون بها اعتقادا جازما لا شك فيه.

**المفلحون:** جمع مفلح: الفائزون بصلاح الدنيا والآخرة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ذلك الكتاب العظيم الذي عصمه الله من التبديل والتغيير. والحق الذي ورد فيه ثابت على مر الدهور والعصور، لا يلحق الشك نصه ولا ما يدل عليه، يهدي من لم يكن على دين سماوي فصدّق بما جاء به وحصّن نفسه من الخسران فآمن بالله وبرسله وبكل ما أخبر به الرّسول من الأمور التي لا ينفيها العقل ولا يستطيع الوصول إليها بمفرده (**الغيب**) ويواظبون على أداء صلواتهم كاملة ويبذلون أموالهم في سبل الخير مع سماحة نفس. ويهتدي به أيضا أهل الكتاب الذين واصلوا إيمانهم برسلهم فآمنوا

بما أنزل إليك. مع يقينهم بالبعث واليوم الآخر. فهؤلاء الفريقان هم الذين اهتدوا بما بلغه الرّسول من وحي وهم الذين تحقق فوزهم في الدنيا والآخرة.

**بيان المعنى العام :**

**1-1الم.**

## الحروف المقطعة في أوائل السور

الم: تقرأ هكذا_ ألفْ _ لامْ _ ميمْ _

لفتت هذه الطريقة المبتكرة في القرآن أنظار المتأملين في القرآن العظيم، إذ لا يوجد في شعر العرب ولا في نثرهم موضوع مفتتح بحروف لا تتكون منها كلمة، والقرآن نزل بلغة العرب وعلى طريقتهم في التخاطب. وقد تكرر ذلك في فواتح تسع وعشرين سورة، ثلاث منها نزلت في المدينة ( البقرة وآل عمران والرّعد) وباقيها نزلت بمكة.

تجد في كتب التفسير محاولات تلتمس وجها لذلك. ومعظمها ذاتي غير موضوعي. وأقربها: أن ذلك لإبراز أن القرآن مركب من هذه الحروف التي يجد كل فرد منكم أنه مُمكّنٌ منها، ومع ذلك فلن يستطيع البشر مجتمعين ولا مفترقين أن يأتوا بمثله، ولا بسورة تبلغ مستوى أقصر سورة منه. ولعل من ذهب إلى هذا قد استأنس لذلك بأن السور التي افتتحت بهذه الحروف قد ورد ربط تلك الحروف المفتتح بها بالقرآن وتنزيله. لكن هذا حكم أغلبي فأربع من السور المفتتحة بالحروف المقطعة لم يذكر لفظ الكتاب ولا القرآن ولا التنزيل ولا الوحي بعدها ( مريم- العنكبوت – الرّوم وظاهر سورة القلم). والطريقة الأسلم والأرجح أن نوقن بأن لهذه الحروف مزايا في افتتاح السور التي بدئت بها، وأن علمها عند الله، وأنه لا يتعلق بها حكم ولا تشريع ولا بيان عقيدة. وكما أن حاسة البصر لا تستطيع أن تدرك كثيرا من المحسوسات مع أنها موجودة تقابل عدسة عينه ولا يراها وتلمس جلده ولا يحس بها، فكذلك العقل البشري رغم واسع آفاقه، وعظيم قدراته، يضعف عن إدراك جميع الأسرار.

**1-2، الم ذلك الكتاب....... للمتقين**

ورد في سورة الفاتحة اهدنا الصراط المستقيم. والصراط المستقيم تكفل ببيانه الكتاب العظيم الكامل (القرآن) الذي ضمن الله بقاءه على نقائه لا يدخله التحريف ولا الزيادة ولا النقصان ولا يحدث في الوجود ما يزعزع الثقة به. يجد فيه المؤمن

الطريق الأمن الموصل للنجاة في عصر نزوله وفي الأزمنة التالية إلى يوم القيامة. وهذه خاصية للقرآن لا يشاركه فيها كتاب آخر، فنصه لم يدخل فيه أي تغيير يقينا.
هذه صورة الفريق الأول وهو نوعان:
**النوع الأول:** المسلمون الذين آمنوا بما جاء به النبي ﷺ ولم يكونوا متدينين قبل ذلك بدين سماوي، ممن نفذ القرآن إلى أرواحهم وعقولهم فهداهم إلى الطريق المستقيم، كل فرد منهم قد أبعد القرآنُ، عن فكره الضلالات والأوهام، وكشف له ما ينجيه وحذره مما يفسد عليه أمره ويهلكه في حاضره وعاقبة أمره، فحصّن نفسه بالعقيدة الصحيحة الواضحة، وتبعا لذلك أجرى أفعاله على ما يوافق أوامر ربه وابتعد عن نواهيه وما حرّمه، هؤلاء هم المتقون الذين اهتدوا بهداية القرآن.

## 3-الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

ثم عمق القرآن بيان المهتدين.
**أولا:** إنهم يؤمنون بكل ما جاء به الكتاب الحكيم، وصدّقوا رسول الله في جميع ما أخبر به عن الله مما لا تستطيع حواسهم أن تصل إليه، يؤمنون بما اتصف به المولى سبحانه من صفات الكمال والجلال، ويؤمنون بالملائكة ورسله الذين بعثهم الله متتابعين لهداية الناس، وبالبعث واليوم الآخر، وما أخبر به عن أحوال يوم القيامة، وبكل ما أثبته القرآن، فاطمأنوا بإيمانهم هذا، ووجدوا في ذلك ما يجيبهم عن التساؤلات التي حيرت غيرهم ورمت بهم في الضلال. إنه بالإيمان بالغيب يسمو الإنسان عن مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما يصل إليه بحواسه وينكر ما وراء ذلك؛ فيرتقي إلى الأنس بعالم الكمال والتجرد.
**ثانيا:** إنهم يحافظون على الصلاة عماد الدين، ويؤدونها على أكمل وجه خاشعين لله، ينعمون بلذة المناجاة والوقوف بين يدي ربهم. إنه بالصلاة تصفو الأرواح ويتعمق الإيمان، وتلين القلوب.
ثالثا: إن إيمانهم أقنعهم بالحقيقة التي يغفل عنها كثير من البشر هذه الحقيقة هي أن ما بأيديهم من مال ومن متاع ومن خيرات هي فضل الله عليهم ورزقه الذي مكنهم منه، وهذا ما يقتلع من النفوس جرثومة الشح والأنانية وشدة الحرص واستبداد الخوف من الفقر، فشعورهم بالتضامن مع المجموعة يُطَوِّعُهُمْ للبذل والإنفاق.

## 4-والذين يؤمنون بما أنزل أليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون

**النوع الثاني:** أهل الكتاب: الذين آمنوا برسالة النبي الذي كانوا يظنون أنهم يقيمون شريعته، كحال اليهود مع سيدنا موسى، والنصارى مع سيدنا عيسى، عليهما

السلام. ثم أضافوا إلى إيمانهم السابق قبول القرآن وما أنزل على سيدنا محمد ﷺ وقوّموا عقائدهم السابقة بحقائق الإسلام. وضبطوا علاقاتهم بالبشر وبخالق البشر، على الأسس التي بينها منهج الدين الحق، **الكل عبيد الله**، فطهروا عقائدهم مما ترسخ فيها من الضلال والزيف، وما علق بها، كعقيدة اليهود والنصارى: أن الله فضلهم على غيرهم، كما حكى القرآن عنهم: **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**[1].

### 5 -أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون

الفريقان من النوع الأول، من الذين لم يكونوا على دين فانشرحت صدورهم للإسلام، فآمنوا بالغيب وحافظوا على الصلاة، وأنفقوا مستحضرين أن ما ينفقونه هو في الحقيقة رزق الله الذي رزقهم، ومن الذين كانوا ينتسبون إلى رسالة من الرّسالات السماوية، واتقوا ربهم على هذا النحو وجمعوا بين الإيمان برسالة الإسلام وما سبقها من الرّسالات. يبشرهم ربهم بأمرين:

**أولا:** أن الله حكم لهم بأنه قد تمكنت هداية الله في قلوبهم تمكنا أوضح لهم الطريق، وترسخت صلتهم بهدايته واستقرت في أرواحهم ومشاعرهم.

**ثانيا:** بشارة اختصوا بها، هي الفوز في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وما أعظمها بشارة من عالم الغيب والشهادة. وكما قال ابن أبي إسحق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

**النمط الثاني: الكافرون .**

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝

### بيان معاني الألفاظ:

**الذين كفروا:** المجاهرون برفض ما جاء به رسول الله ﷺ سواء أكان هذا الرّفض بالقول أو بالفعل أو بهما معا.

**سواء عليهم أأنذرتهم:** لا يختلف حالهم بين إعلامهم بما يحصل لهم من مكروه في المستقبل يخاف الإنسان أن يصيبه، وبين عدم إنذارهم به.

**ختم الله على قلوبهم:** الختم طبع وتغطية تمنع من الفتح كالختم على الرّسالة والطبع على الباب.

---

[1] سورة المائدة آية18

**غشاوة:** ما يُغطى به الشيء حتى لا ينفذ إليه ما يرد عليه من الخارج.

**العذاب:** الألم الذي يُذهب حلاوة العيش.

### بيان المعنى الإجمالي

إن المصممين على الكفر يستوي تحذيرك لهم وعدم تحذيرك فهم لا ينفذ نور الوحي إلى عقولهم، عليها قفل محكم لا يزول. وكذلك أسماعهم لا يصل إليها صوت الوحي، وحجبت أبصارهم حجب غليظة فهم لا يبصرون ما في الكون من دلائل على الحقيقة، وحكم الله عليهم تبعا لذلك بأنهم سيعذبون عذابا عظيما.

### بيان المعنى العام:

### 6-7، إن الذين كفروا سواء...ولهم عذاب عظيم

**النمط الثاني:** هم الكافرون الذين صمموا على رفض ما تدعوهم إليه وما تحذرهم منه، بلغ رفضهم وعنادهم أن منعوا عقولهم من التفكر فيما تتلوه عليهم وما تحذرهم منه، فسواء وعظك وعدم وعظك، لا ينفذ لعقولهم المقفلة أي شعاع من نور الوحي. وأصموا آذانهم وأقفلوا أسماعهم فلا تصل إليها كلمات الوحي، وغطوا أبصارهم فهم لا يتأملون في آيات الله في الكون الدالة على كمال علمه وقدرته.

والله قد رزقهم عقولا يتأملون بها وينفذون بها إلى الحقيقة فيدركونها حسب ما تقتضيه قوانين التفكير، ويستعينون بحواسهم من سمع وبصر ليكون ما تدركه الأسماع والأبصار هاديا ودليلا للعقل على المعرفة البعيدة عن الخطأ. فإقفال عقولهم عن التأمل وعدم انتفاعهم بأسماعهم فيما خلقت من أجله، وعنادهم بالتزام الرفض، هو الذي منعهم من الإيمان ومن الانتفاع بما أودعه الله في كونه من آيات بينات. وقد صرحت الآية الخامسة من سورة فصلت بذلك قال تعالى: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب).

كفروا بإرادتهم، رفضوا التفكير فيما جاءهم به عن الله بإرادتهم، وانصرفوا عن سماع الوحي بإرادتهم، ولم يعملوا أبصارهم فأغمضوا أعينهم عن مشاهد الخلق والحكمة في كل جزء من أجزاء الكون بإرادتهم. فهم مسؤولون عن ذلك جزاؤهم عذاب عظيم. وما أشد هول هذا العذاب الذي وصفه ذو الجلال بالعظمة (عذاب عظيم) فهو فوق ما يتصوره البشر أعاذنا الله من الخزي والعذاب.

**النمط الثالث المنافقون:**

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**يخادعون الله:** يظهرون من أقوالهم وأفعالهم وجها حسنا وهم يخفون ضد ذلك تضليلا وتمويها.

**مرض القلوب:** النفاق.

**ألا:** حرف يؤتى به في أول الكلام لينبه السامع على ما سيسمعه من المتكلم كما يتنبه بالنداء.

**المفسدون:** جمع مفسد وهو الذي يحول النافع إلى ضار.

**السفهاء:** جمع سفيه وهو وصف لمن كان ضعيف العقل لا يحسن التدبير.

**يمدهم:** يمهلهم ويملي لهم ويزيدهم.

**الطغيان:** مجاوزة الحد والمبالغة في الشر، ومنه الكفر.

**يعمهون:** يتحيرون لانطماس بصائرهم.

**الشيطان:** مخلوق مَحَضَ قدراته جميعها للشر، والتلبيس على الناس، وإضلال من يتبعه.

**الاستهزاء:** السخرية.

**الصيب:** سحاب تصحبه أمطار.

**أصابعهم:** أناملهم.

**الصواعق:** جمع صاعقة، النار التي تقذف بها السحب.

**حذر الموت:** خوف الموت.

**الخطف:** الأخذ بسرعة.

**أضاء لهم:** أنار البرق لهم الطريق.

**أظلم عليهم:** عمهم بظلامه فأخفى عنهم معالم الطريق.

**قاموا:** وقفوا عن المشي.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ثلاث عشرة آية توالت لكشف حال المنافقين، هذه الفئة الثالثة الخطيرة في المجتمع. أول صفاتها الكذب فهي تعلن الإيمان وهي كاذبة بشهادة الله، والصفة الثانية هي الخداع، والصفة الثالثة هي الغباء بظنهم أن كذبهم يروج ويكتب لهم السلامة، وغفلوا عن علم الذي لا تخفا ه خافية. وذلك نابع من نفسية فسدت ورضيت بالفساد التي هي عليه، ورابعا أن عقولهم منحرفة مريضة تمكن منها المرض الذي يتفاقم مع الزمن، والوصف الخامس المكابرة الوقحة حتى إذا تقدم إليهم من يُعرّف مناكرهم ونهاهم عما يقومون به من فساد، قالوا: إنما نحن مصلحون. ويُلبسُهُمْ الله بكلمته الفصل: الوصف السادس وهو الفساد. **ألا إنهم المفسدون**. وتكشف الآية عن تلونهم تبعا للظروف، فهم مع المؤمنين يدعون الإيمان، ومع قادتهم الكفرة يؤكدون ثباتهم على الكفر وأنهم يستهزئون بالمؤمنين. وتكون عاقبة هذا التلون أن الله لا ينبههم، بل يتركهم يجولون جولات قصيرة المدى وهم معجبون بأنفسهم، مع أنه يعلم ما يترصّدُهُم من دمار وإذلال، فصورتهم صورة من يُستهزأ به. وهم كمن عقد صفقة خاسرة. ومثّلهم القرآن بمثلين:

**المثل الأول:** أنهم كجماعة سائرة في ليل مظلم فأوقد أحدهم نارا تهديهم للطريق الذي يبلغهم غايتهم. وما إن أضاء نورها حتى انطفأت وأطبق عليهم الظلام الموحش فتحيروا كأنهم فقدوا جميع حواسهم: السمع والبصر والنطق. وهكذا حال المنافقين بعد أن بعث الله نور الإسلام في العالم الذي أشرقت به معالم الحقيقة، فبمجرد ما بلغتهم أنوار كلمات الله أعموا بصائرهم وأبصارهم وأقفلوا أسماعهم وجعلوا بينهم وبينه سدا بعنادهم، فبقوا في ظلامهم تائهين.

**والمثل الثاني:** جماعة سائرة في ظلام دامس، غشّت السماء سحب كثيفة فلا ضوء لكوكب، ولا أثر للنجوم الهادية. والرّعد يزمجر وفرقعته تصم الآذان، قد استولى الخوف من الموت على النفوس، يفرون إلى وضع أصابعهم في آذانهم وإن كانت لا

تغني، ويلمع البرق بين الحين والآخر فيضيء لهم ما حولهم، ولكن ما إن يتحركوا حتى يتوقفوا عن المسير لعودة الظلام والرّعود والأمطار. والله محيط بهم لا ينفلتون من قضائه العدل. ولو شاء الله أن يقتلع أبصارهم وأسماعهم لفعل، فهو القادر الذي لا يعجزه شيء. وهكذا حال المنافقين فهم في وضعهم وقد نزل القرآن في بيئتهم الضالة وخيراته كالمطر المحيي للأرض، وما هم فيه من شرك هو كالظلام الدامس وهُداهُ أنوار دائمة ولكنهم ما إن ينظروا فيها حتى يغمضوا بصائرهم عنها فتعود بالنسبة إليهم كالبرق الذي يخطف الأبصار ولا يستفيدون منه إلا الخوف والحيرة.

**بيان المعنى العام:**

**النمط الثالث** من البشر هم المنافقون. إنه إذا كان أمر النمط الأول واضحا تتحد ظواهرهم وبواطنهم على الإيمان، يستوي في ذلك من لم يكونوا مؤمنين بأي دين ثم نظروا في الدعوة المحمدية فآمنوا وطبقوا، ومن كانوا على دين سماوي وإن كان محرفا، ثم سمعوا ما أنزل على الرّسول ونظروا في آياته فآمنوا بكل ما بلغه عن ربه على أنه نبي ختم الله به رسالاته للعالمين، وأنهم سيجزون عما قدموا من الأعمال يوم القيامة.

**والنمط الثاني من البشر:** المعاندون الذين رفضوا أن ينظروا في الدعوة المحمدية وفي الآيات البينات التي تؤيد دعوته واختاروا الثبات على الكفر. وأمرهم واضح أيضا. ونظرا لوضوح أمر الفريقين المؤمن والكافر، اقتصر القرآن في بيان ملامح كل فريق منهما، باعتبار أنه لا تعقيد في تركيبهما النفسي، اقتصر على أقل ما يكفي لإبراز حقيقتهما.

**أما النمط الثالث:** فهو فريق المنافقين، أخطر نمط في البشر في عهد الرّسالة وفي الأزمان التالية؛ فاعتنى القرآن بالكشف عن تركيبهم النفسي المريض، وطرقهم في التعامل فخصص لذلك ثلاث عشرة آية. انطوت بواطنهم على سلسة مترابطة من الفساد والخسة والكفر، وكانت صورتهم الظاهرة وسماتهم المعلنة تغالط المتعاملين معهم، وتطمئنهم تبعا لذلك فلا يَحْذَرُونَهُمْ، ويظهرون كأنهم من جماعة المؤمنين : إنه إذا كان المؤمنون يعرفون القسم الثاني المصرح بكفره الذي كانت له من الجراءة ما واجه به صريح الحق، وأعلن عن دخائل نفسه فإن المنافقين يندسون في المجتمع الإسلامي وهم يكيدون له دون أن يتفطّن لمكرهم أو يأخذ المؤمنون الحيطة منهم.

**8-9، ومن الناس من يقول آمنا... وما يشعرون.**

جماعة من البشر متخفية متسترة مندسة في المسلمين، تعلن أنها تؤمن بالله واليوم الآخر، وينبئ عن خداعها وكذبها أنها لم تذكر إيمانها برسول الله ﷺ، واقتصرت على إعلان إيمانها بالله واليوم الآخر.

ولما كان الإيمان أمرا مستورا في القلوب والعقول صرح الله المطلع الذي لا تخفاه خافية بتكذيبهم فقال: وما هم بمؤمنين. وبرز بهذا، الوصف الأول للمنافقين، وهو (الكذب).

كما دلت الآية على أن الإيمان لا يعتبر إلا إذا كان القلب مطمئنا والعقل متيقنا بالعقيدة التي شرحها رسول الله ﷺ، من الإيمان بالله وبرسوله وبالغيب حسبما فصّله. وأن الإقرار باللسان إذا لم ينبع من العقل والقلب هو إقرار لا يترتب عليه أي أثر ولا يطمع صاحبه في النجاة. وهم بغبائهم يتوهمون أنهم بإعلانهم الإيمان بما يخالف عقائدهم قد تمكنوا من مغالطة المؤمنين وخداعهم، ويشنع عليهم القرآن بأن محاولتهم خداع المؤمنين هي خداع لله الذي يتولى المؤمنين، ولذلك جمعت الآية بين الله والمؤمنين(يخادعون الله والذين آمنوا).

ومعظم المنافقين يظنون أنهم أذكياء وأن قدراتهم في التضليل هي لفرط نباهتهم، وفي الحقيقة هم قد خدعوا أنفسهم لمّا خُيّل لهم أنهم ضمنوا لأنفسهم النجاة بكذبهم. فالله مطلع عليهم ويعلم ما تخفي صدورهم ولا يفلتون من الجزاء الذي يترصدهم، وهم ذاهلون عن المصير الذي سينقلبون إليه. وتقرر تبعا لذلك الصفة الثانية والثالثة للمنافقين: وهي الخداع والغباء.

## 10-في قلوبهم مرض... ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.

كلما جاء ذكر القلب في القرآن فهو لا يدل على القلب المادي الذي يتقبل الدم ثم يضخه في الجسم، ولكن يقصد به العقل والروح. فالوصف الرابع للمنافقين أن قلوبهم مريضة غير سليمة، مريضة بلوثة الفساد الذي رضوا به وأخفوه وتحيلوا على إخفائه ليغروا به غيرهم. ومن سنن الله في الكون أن الفرد إذا تخير طريقة في الحياة وألفها وواظب عليها، ولم يعد إليها بالتهذيب والنقد، أنها تصبح ملكة راسخة فيه، تزداد وتنمو مع الزمن. فالكاذب مثلا إذا تعود على الكذب ينقلب الكذب له عادة راسخة متمكنة منه، وكذلك المخادع والسارق وأمثالهما. يستشري الانحراف كلما عمل صاحبه على إخفائه ومواصلة حياته عليه رضا به. كالمرض البدني إذا أخفاه صاحبه ولم يستعن بالطبيب الخبير ولم يتناول ما يوصف له من الدواء، فإن مرضه يستشري وينتشر في البدن إلى أن يفتك بصاحبه.

ومآلات أهل النفاق ثابتة، منها ما يظهر أثره في الدنيا، ومنها ما هو مدخر ليوم الجزاء. والمنافقون ما أقدموا على نفاقهم وإضرارهم بالمجتمع وبث الفتنة إلا بتكذيبهم بالبعث والجزاء، فحق عليهم العذاب بتكذيبهم.

### 11-12، وإذا قيل لهم لا تفسدوا... ولكن لا يشعرون.

الصفة الخامسة من صفات المنافقين، التضليل بتبديل الحقائق والمكابرة عند تنبيههم على فسادهم، ونكران الواقع. والقرآن لم يحدد اسم من ذكّروهم ونهوهم، عن الفساد الذي نذروا أنفسهم إليه، ومحضوا له مكرهم وتحركوا في إطاره، من الدس وترويج الأخبار الزائفة، والتشكيك، وبذر الفتنة بين الجماعة، والاستهزاء بالمؤمنين إلى آخر المناكر التي يدبّرون لها، ويبثونها سموما في المجتمع. قد يكون هؤلاء النّاصحون بعض المؤمنين الذين تربطهم بهم قرابة أو جوار من المطلعين على خفايا أمرهم، والذين ربُّوا التربية الصالحة الإيمانية من النهي عن المنكر. كان جوابهم لهؤلاء الأخيار إمعانا في التضليل: إنما نحن مصلحون. وتغمرهم ضلالاتهم وفقدوا الميزان، فيرتفع صوت الحق من القرآن: ألا إنهم هم المفسدون، وقد أطبق الضلال على عقولهم ومداركهم فأفقدهم الشعور بما هم عليه من فساد. وهو الوصف السادس من صفاتهم الشنيعة.

### 13-وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن...ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

الصفة السابعة والثامنة: الكبر وخفة العقل. يحرص على هدايتهم، من يعرف دخائلهم، فينصحهم بأن ينسجموا مع الجماعة وأن يؤمنوا برسالة النبيﷺ التي وحدت الكلمة وأزالت كوامن التنازع والبغضاء. فيبدو منهم عند ذلك ما ينطوون عليه من كبر وتعال، وهو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، يظنون أنهم أعلى من أن ينضموا إلى الجماعة الضعيفة العقل المحدودة المدارك في زعمهم. وينزل الجواب من رب العزة مؤكدا منبها أنهم قد اختصوا بضعف العقل وأفن الرأي، وأن عقولهم محجوبة بكبرهم وعنادهم. ولذلك فهم لا يعلمون، فجهلهم من الجهل المركب الذي يجهل صاحبه الحق ويجهل أنه جاهل.

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

### 13-16-وإذا لقوا الذين آمنوا... وما كانوا مهتدين.

هذه صورة ثالثة للمنافقين مركبة من ثلاثة أحوال: حالتهم مع مجتمع المؤمنين الذين يعيشون معهم: وحالتهم إذا كانوا في مجامعهم الخاصة مع أمثالهم وقادة إضلالهم: وحالتهم وهم مفضوحون محكوم عليهم من رب العزة.

**فالحالة الأولى** يبدون فيها وقد صرّفوا الأمور تصريفا محكما، في ظنهم، يحقق لهم تنفيذ مخططاتهم. إذا التقوا بالمؤمنين في المجامع العامة أو الخاصة أوهموهم أنهم متفقون معهم، أنهم مؤمنون صادقون، حتى لا يحذرهم المؤمنون، ولا يأخذوا الحيطة منهم فيتمكنون بذلك من الاطلاع على نقط الضعف ومداخل المكر بهم.

**والحالة الثانية**: إذا كانوا في مجالسهم الخاصة مع أشياعهم وقادتهم في النفاق، فيؤكدون لهم بأن ما صدر عنهم في مجالس المؤمنين، إنما هو خداع للمؤمنين واستهزاء بعقولهم.

**والحالة الثالثة**: بعد جولاتهم القصيرة التي ظنوا أنهم خدعوا المؤمنين بها ونجوا من رفض المجتمع لهم وقووا لحمة التناصر بينهم، وأنهم ثابتون على معاداة المؤمنين والاستهزاء بهم. يصرح القرآن بأن الله يمهلهم قليلا حتى إذا ظنوا أنهم قد فازوا في مكرهم تأخذهم يد القدرة إلى مصيرهم وتنفذ فيهم الوعيد. وينادي في ضمائر الناس عامة إعلانا عن خيبتهم بأن المنافقين قد مكنهم الله من الهداية ببعثة النبي ﷺ وما أعطاه من قدرة فائقة في بيان الحق، فكأنهم ملكوا الهداية بذلك، ولكنهم باعوا هذا الهدى واشتروا به الضلالة لقلة رأيهم وسوء نفوسهم، فهم بذلك ممن يبيع عزيز الهدى الذي ينفعه في الدنيا والآخرة ويستبدله بالضلال الذي يخسر به دنياه لأنه يعيش على تلون قبيح وحقد مقيت وخوف من ظهور أمره، ويخسر الآخرة من باب أولى. فكانت تجارتهم هذه خاسرة وفقدوا الهداية التي هي أعز ما يملكه الإنسان.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

يتواصل تتبع كشف حال المنافقين السيّء ومكرهم وما ينتظرهم في تسع آيات، من قوله تعالى {ومن الناس من يقول آمنا} إلى قوله {وما كانوا مهتدين} ويختم القرآن حديثه عنهم في هذا الموقع بجمع صفاتهم وتشبيهها بأوضاع تكشف أمرهم بصفة أوضح، شأن الأمثال. فضرب لهم مثلين:

## 17-18، مثلهم كمثل الذي استوقد... فهم لا يرجعون.

**المثل الأول:** قافلة في صحراء مظلمة وليل يحجب كل شيء عن الأبصار، فأوقد أحدهم نارا وأضاء لهبها ما حوله وأبصر كل واحد ما حوله. وفي لحظة تنطفئ النار، ويذهب النور الذي هتك أستار الظلام، فأطبق عليهم سواد الليل وعادوا متحيرين، عُمّي عنهم كل ما حولهم. وبالغ في وصف حيرتهم في ذلك الظلام الدامس: كأنهم فقدوا جميع حواسهم، فقدوا سمعهم ونظرهم ونطقهم. وهذه حالة المنافقين، فما أبعدهم عن الرّجوع إلى الحق.

## 19-20، أو كصيب من السماء... إن الله على كل شيء قدير.

**المثل الثاني:** وضع يشبه الوضع في المثل السابق. سحاب متراكم يحجب السماء والضياء والنجوم الهادية، ظلام في ظلام، تصحبه زمجرة الرّعود التي تهزهم هزا، تهددهم بالموت، ويحاولون تخفيف وقعها بوضع أصابعهم في آذانهم، ويتخلل طبقات السحب الكثيفة خيوط من البرق تكاد تخطف الأبصار. والجهات مختلطة لا يُدْرى شمال من جنوب ولا شرق من غرب، حيرة وخوف وأمطار مع الظلام تقيد السائرين، لا يتحركون إلا إذا ومض البرق وميضه الذي لا يمكنهم مع قوة ضيائه من المضي بعيدا لأن قوة نوره تكاد تخطف أبصارهم، فهم كلما أضاء لهم هموا بالحركة ولكنهم لا يمضون بما انكشف لهم من نور، لأن البرق في سرعته يذهب عاجلا، فلا هم سائرون ولا هم جالسون مطمئنين، بل هم قائمون يهمون بالحركة ولا يستطيعون. وهذا شأن المنافقين مع الأنوار الإيمانية. اختاروا الظلام الذي هم فيه، ورفضوا الإسلام الذي أثر في المجتمع فأصلحه وبث في أرجائه العدل والأمان، لا ينتفعون منه إلا كانتفاع القافلة من ضوء البرق.

وتختم الآية بأن الله لو أراد أن يرتب على هذا البرق والرّعد ذهاب الأسماع والأبصار لفعل، وفيه تهديد للمنافقين بأن إعراضهم عن الحق ومكرهم بالجماعة الإسلامية يعرضهم لانتقام الله منهم وفقدانهم حواسهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**اعبدوا:** اخضعوا متقرّبين إليه.

**لعلكم:** رجاء.

**تتقون:** يحصل لكم ما يحميكم من عقاب الله.

**الند:** المساوي المماثل.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يدعو الله جميع الناس، من كان مؤمنا ومن كان يدين بديانة من قبل ثم اهتدى بدين الإسلام، ومن أصر على الكفر ومن نافق من الذين عرّفت الآيات السابقة ملامحهم، ومن غيرهم ممن كانوا في عصر الرّسالة ومن يأتي بعدهم، دعوة عامة لجميع البشر أن يعبدوا الله متيقنين أنه هو الذي جعل الأرض كالفراش لهم، وجعل السماء بناء واقيا لهم. ولا أحد غير الله يتصرف في قليل أو كثير من هذا النظام الذي أقام عليه الكون ويسره للإنسان. فاحذروا أن تجعلوا لله أمثالا تخضعون لهم، والحال أنكم تعلمون أنه لا يستطيع أحد غير الله أن يحفظكم في هذا الكون.

**بيان المعنى العام:**

**21-22، يا أيها الناس اعبدوا... وأنتم تعلمون.**

دعا الله الناس جميعهم أن يخضعوا له، ولا يخضعوا لأحد سواه خضوعا ينسيهم ربهم، فبالنسبة للمؤمنين هو نداء لهم أن يواصلوا يقظتهم فلا يغفلون عنها. فكم من مؤمن تراه يتعلق بمخلوق مثله إلى حد أن يرى أن لا مفرج لكربته ولا محقق لآماله ولا معين له على ما يسعى لبلوغه إلا هو، وكم من مؤمن يضعف فيهون ويخضع لشهوة أو رغبة ويستهين بما أمره به رب العالمين كما قال تعالى **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**[1]. وبالنسبة للكافرين رحمة الله تبدو واضحة بهذا النداء، فالله يستحثهم ليعودوا إليه، وليتعلقوا به، وينبههم إلى أن ما يخضعون له عاجز عن التأثير، ويدعو المنافقين إلى أن يقلعوا عن نفاقهم وأن لا يخضعوا لأوهامهم وأهوائهم وأن ينظفوا بواطنهم بإفراد الله بالعبادة.

---

[1] سورة الجاثية آية23

إن تحريك القرآن لجميع البشر يعتمد على تذكيرهم بحقيقة أقرب ما تكون إليهم ولكنهم يغفلون عنها. هذه الحقيقة تتمثل:

**أولا:** أن الله هو المتفرد بالخلق. فكل من يتنبه ويكشف حجب الغفلة عن عقله، يدرك أنه غير كامل لا في مواهبه العقلية، ولا في تركيبه النفسي، ولا في جسمه، ولا يملك أن يبقى على الحال التي هو عليها. ولا أحد غير الله مكنه مما مكنه ولا أحد غيره يبقي على ما مكنه منه. فكل قلب إذا تُرك لفطرته يحس بالنداء العميق بأن الله وحده هو الخالق الذي بيده الأمر.

**ثانيا:** إن حياة الإنسان على هذه الأرض تسير في يسر وتوافق بينه وبين محيطه. فمثلا لو زادت جاذبية الأرض لتسمّرَ الإنسان في مكانه أو لثقل عليه الانتقال ثقلا بالغا يجعله عاجزا عن السعي في هذه الأرض. ولو خفت هذه الجاذبية لما استطاع أن يثبت، بل يكون كالريشة التي تتطاير في الهواء. فكما يستقر الإنسان على فراشه ويجد راحته فيه، فكذلك هو على وجه البسيطة يجد أنها تلائمه كما يلائمه فراشه.

**ثالثا:** هذا الغلاف المحيط بالأرض الذي بُني بناء محكما يحمي الإنسان والأرض من الأشعة الواردة من الفضاء الأعلى. ويذكُرُ العلماء أن سوء تصرف الإنسان في الكون وما يبثه من عناصر مفسدة تعلو إلى ذلك البناء فتخرقه (الأوزون)، هو ما يهدد البشرية والنبات والحيوان بالفناء.

**رابعا:** السر الكبير في الارتباط بين الماء والحياة في نزوله من السماء، ثم في سريانه في طبقات الأرض القريبة والبعيدة، ثم في القوانين التي بها تنشأ عنه ثمار الأرض المتنوعة الأشكال والمنافع والطعوم والألوان. ثم في ارتباط حياة الإنسان بذلك سواء في ذلك ما يتناوله منها مباشرة أو ما يتحول عن طريق الحيوان إلى ألبان ولحوم. ينادي القرآن البشر تبعا لذلك أن يتأملوا، بأن يحركوا مداركهم وعقولهم تحريكا يتبعه حتما أن يفردوا الله بالعبادة والتوجه إليه والاعتماد عليه وحده.

عجبا كيف يعميهم ما هم سادرون فيه من غفلات فينصبون قوى وهمية، يطلبون منها عونا أو قضاء أمر، أو يتقربون إليها استدرارا لعطفها عليهم ورضاها عنهم! رغم أن شواهد العقل تنفي نفيا قاطعا أن يكون لله مساو أو شريك يعطي أو يمنع. أليس الشرك بعد التأمل في ذلك بمقتضى الفطرة لا يليق بمن يدعي أن له عقلا؟

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**الرَّيب:** الشك.

**عَبْدنا:** رسول الله محمد ﷺ .

**سورة:** مجموع آيات من القرآن تكون وحدة بينها تفتتح بالبسملة.

**مثله:** مشابه مساو .

**شهداء:** جمع شهيد يراد منه النصير، وهو في الآية آلهتهم.

### بيان المعنى الاجمالي:

إذا كان الإشكال الذي يعترضكم ،هو شككم في أن صاحب الرِّسالة محمدا ﷺ مبعوث من عند الله، فتأملوا في الوحي الذي أُيِّد به تأملوا في القرآن، إنكم قد رزقتم قوة في البيان، وفصاحة وبلاغة تتصرفون بها في مختلف الأغراض، وتأتون بالنسج البديع، وهذا القرآن من جنس الكلام الذي تدّعون أنكم حزتم فيه قدم السبق، وطوّعتموه لمختلف أعراضكم فأْتوا بسورة لها مثل بلاغة القرآن، واستعينوا بآلهتكم التي تدعونها لنصرتكم حسب زعمكم.

### بيان المعنى العام:

### 23 - وإن كنتم في ريبه... إن كنتم صادقين.

من لطف الله بعباده أنه يساعدهم على الإيمان، فبعد أن لفت أنظارهم إلى خلق أنفسهم وخلق الأرض والسماء، وتنظيم العلاقة بينهما، وبينهما وبين الإنسان. ذلك التنظيم المحكم الذي أحصى كل كبيرة وصغيرة وانتظم الكل، وهو ما لا يستطيع من له أدنى مسكة من عقل أن يرتاب في أن الجميع من خلق الله وتقديره تبعا لعلمه الشامل الباقي. بعد أن أبرز الحجة التي لا يمكن رفضها من أن الله هو الخالق ولا خالق ولا رب سواه، عطف على ذلك أن لفت أنظارهم إلى الركن الثاني في هذا الدين، وهو الإيمان بأن محمدا رسول من عند الله، فيقول لهم القرآن عناية بهدايتهم، إن حصل لكم شك في أن هذا القرآن وحي من عند الله، فالدليل بين أيديكم على صدقه: إنكم تمتازون بالفصاحة والبيان والبلاغة، وإن قدراتكم على إدراك ما في الكلام من قوة وإحكام معلومة لكم ومعترف بها من غيركم والقرآن أمامكم فإذا كان من كلام غير الله فأْتوا بسورة واحدة تكون مساوية له في البلاغة وروعة البيان وجمال الأسلوب، والصدق الأبدي، واستعينوا على ذلك بمن شئتم حتى بالأرباب التي تدعونها للنصر والتأييد.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (24)

**بيان معاني الألفاظ:**

**اتقوا:** احموا أنفسكم

**الوقود:** ما يوقد به كالحطب والنفط والفحم.

**أعدت :** هيئت ، هيأها الله.

**بيان المعنى الإجمالي:**

لم تستطيعوا في الماضي أن تأتوا بسورة مثل القرآن ولا تستطيعون في المستقبل أبدا ذلك، فاحموا أنفسكم من آثار رفضكم وتكذيبكم فالله أعد للكافرين نارا مادة اشتعالها أجسام الكافرين من الناس ومن الحجارة.

**بيان المعنى العام:**

**24-فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا... أعدت للكافرين.**

لفت القرآن أنظار الرافضين تصديق الرسول ﷺ إلى أن دليل صدقه هو القرآن، فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ذلك أن قوتهم في التعبير البديع وتجويد الكلام والتصرف فيه، قد أعطتهم ميزة لا يشاركهم فيها أحد وقت نزول الوحي، ثم أخبرهم أنهم عاجزون عن ذلك وقت نزول الوحي وعاجزون أيضا عجزا أبديا فيما يستقبل من الأزمان. وهذا التحدي مفتوح للبشرية في عمرها الطويل، وثبت عجزها، فكان القرآن بذلك حجة الله على العالمين في جميع الأزمنة والظروف على صدق رسوله محمد ﷺ.

والله رحيم بعباده فنبههم إلى أن إصرارهم على العناد، رغم عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بسورة مثله يعرضهم قطعا للعقاب يوم القيامة، فناداهم كي يحموا بالإيمان أنفسهم من النار التي تشتعل بأجسام الكافرين وبالحجارة. وفي تصريح القرآن بأن الحجارة وقود إعجاز علمي، فقد تبين اليوم أن الطاقة الحرارية التي تتولد من ذرات حجارة اليورانيوم مثلا من أقوى الطاقات المعروفة للبشرية.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (25)

### بيان معاني الألفاظ:

**البشارة:** إخبار بأمر محبوب للمخاطب.

**الصالحات:** جمع صالحة، الفعلة الحسنة.

**جنات:** جمع جنة وهي المكان الكثير الشجر الملتف.

**الأزواج:** جمع زوج يطلق على الرّجل وعلى المرأة بعد اقترانهما.

**مطهرة:** لا عيب فيهن.

**خالدون:** باقون بقاء أبديا.

### بيان المعنى الإجمالي:

أخبر يا محمد المؤمنين الذين قرنوا الإيمان بصالح العمل بأن الله أعد لهم جنات تتخللها الأنهار الجارية، وأن ثمارها وإن تنوعت فقد بلغ كل نوع من أنواعها كمال اللذة حتى إنه ليُخيّلُ للآكل أنها نفس الثمار التي كان تناولها من قبل، مع أن لكل واحدة منها مذاقها ولذتها. وأن الله قد أعد لهم أزواجا مطهرة من العيوب والنقائص. وفوق هذا لا خوف من الزوال والفناء، فهم خالدون في الكرامة التي أنعم الله بها عليهم.

### بيان المعنى العام:

25. التربية التي تفضل بها ربنا على عبيده تربية تحرك نواحي التركيب الفكري والعاطفي للبشر، فسبحانه لا يقتصر على التحذير الذي يرمي بهم في اليأس والخوف الذي يشل تطلعاتهم إلى التحول إلى ما هو خير، ولا يملي لهم في البشارات التي تتراخى معها العزائم وتتواكل النفوس، فكان من شأن القرآن أنه يجمع بين البشارة والإنذار، يُطمع ويخوّف. فبعد أن حذر الكافرين من النار التي تلتهم البشر والحجارة ووقوده منهما، بشر المؤمنين بجنات تكاثفت أشجارها وجرت خلالها المياه في أنهارها، وأثمرت أشجارها ثمارا، طعم كل نوع منها بلغ الغاية في اللذة وحسن المذاق وسهولة التناول، يكاد آكلها يظن أنها نوع واحد. ولكنها في الحقيقة مختلفة. وفي هذا الجو البديع يتم النعيم والأنس بأزواج طهرت منهن النفسيات والأجسام من النقائص التي كانت ملازمة لهن في الدنيا. وفوق كل ذلك إن نعيمهم هذا لا يكدره خوف انقطاعه، فقد تحقق لهم الخلود الدائم السرمدي إلى أبد الآبدين.

• إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا

مَثَلاً يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**استحيى:** احتشم، وذلك إذا أتى بأمر لا يليق بمنزلته.

**بعوضة:** حشرة صغيرة، ولها أنواع.

**الفاسق:** الخارج عن الطاعة وهو على مراتب، وأرذله ما بينته الآية بعد.

**نقض:** خالف وأبطل ما التزمه.

**عهد الله:** ما أمر بالتزامه ورعايته.

**ميثاقه:** تأكيده.

**الإفساد:** تحويل ما هو نافع إلى ما هو ضار.

**بيان المعنى الإجمالي:**

مكائد يهود لا تنتهي، فبعد أن تحدى القرآن البشرية قاطبة بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن وعجزوا، أثار اليهود مكيدة جديدة فقالوا: إن الله في عظمته وجلاله لا يليق به أن يضرب الأمثال بالحشرات كالنمل والعنكبوت والنحل، فطعنوا: بأن ذلك يدل على أن القرآن ليس منزلا من الله، وبهذا روجوا على عقول الضعفاء من الكافرين لينصرفوا عن الدعوة الإسلامية. فسجل الله في كتابه أنهم أغبياء عندما ظنوا أن القدرة لا تظهر إلا في الأجرام الكبيرة، ذلك أن أصغر مخلوق فيه من أسرار الخلق وكمال التقدير ما يرفعه لأن يضرب الله به المثل. وقد تقدم العلم التجريبي فأبرز بعض أسرار الخلق في البعوض في جينومه، وطريقة تكاثره، وخصائص ذكرانه وإناثه، وما يزال يواصل البحث لاستكشاف كثير من الجوانب التي ما تزال خفية، يدرك العلماء وجودها دون حقيقتها ونظامها. ولذا يكون ضرب المثل بهذا المخلوق الضعيف يزيد الذين آمنوا إيمانا، ويتأكد عندهم صدق الرّسول فيما يخبر به عن ربه، وأما الكافرون فيزيدهم إمعانا في الضلال وبعدا عن الحق. وما رفضهم للتمثيل بالمخلوقات الصغيرة وتكذيب الرّسول ﷺ إلا جريا على ما التزموه في حياتهم من نقض العهود التي أخذ منهم الميثاق المؤكد على احترامها، التي منها عدم تغيير ما شرعه لهم وعدم إخفاء بعضه، وتأييد الرّسل الذين يأتون بعد موسى عليه السلام. وقطعوا ما أمرهم الله أن يصلوه. إن هدايته للمرسلين خيط واحد، فرفضُ قبول ما نزل على سيدنا محمد ﷺ هو قطع لما نهوا أن يقطعوه. ويفسدون في

أرض الله التي أمر الله بإعمارها ونشر الخير في جنباتها، ولذلك أنبأهم عالم الغيب والشهادة بأنهم هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

## بيان المعنى العام

## 26-27، إن الله لا يستحي...أولئك هم الخاسرون.

قرب الله لعباده المعاني البعيدة لطفا بهم وعناية بهدايتهم وذلك بمقارنتها وتشبيهها بما هو قريب منهم مألوف لديهم. مثل تشبيه الإيمان الراسخ بالشجرة المثمرة الضاربة عروقها في الأرض، ومثل تشبيه الذين يتخذون آلهة من دون الله بالعنكبوت ووهن ما تبنيه، ونحو ذلك من الأمثال المنتشرة في القرآن. ولما تحدى القرآن البشرية في جميع عصورها الحاضرة والتي تأتي بأن يأتوا بسورة تشبه القرآن، وثبت عجزهم عن ذلك، كان ذلك أوضح دليل على أن القرآن من عند الله.

عمل اليهود على تشكيك المغفلين من الكافرين بمكيدة سخيفة، فأوهموهم بأن القرآن قد جاءت فيه الأمثال بالمخلوقات الضعيفة التي ليس لها عظيم شأن في الوجود، كالبعوض والنمل ونحو ذلك، والله في عظمته وجلاله لا يليق به أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء التي لا خطر لها وليس لها قيمة كبيرة وبنوا على ذلك أن القرآن ليس من عند الله.

نبه سبحانه بهذه الآيات أن كل كائن من خلق الله له أسرار لا يعلم جميعها إلا خالقها، فالبعوض على صغر حجمه تمثل خريطته الوراثية (جينومه) دقة عجيبة، وضبطا محكما لجميع تحولاته وتوجهاته في الحياة. إنه من الجهل والغباء أن يستهين الإنسان بأسرار الخلق في أي كائن، هذه الأسرار التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[1] إن عددا غير قليل من العلماء المتميزين عكفوا على دراسة البعوض، وما هو أصغر منه من الكائنات الحية، لكشف أسرار الخلق، ورغم ما بذلوه من جهود، فإنه ما يزال قسم منها غير معلوم، ومن ذلك سر الحياة فيها.

فالله العظيم في عزته وجلاله قد أحكم خلق كل شيء، ولا يختلف عنده خلق الكبير عن خلق الصغير، أو ما يعتبره بعض المغفلين الضالين تافها. والتمثيل به منسجم الانسجام الكامل مع عظمة الخالق سبحانه.

وينبني على ذلك أن هذه الأمثال تزيد المؤمنين سعة في آفاق إيمانهم، إذ بمجرد ما يأتي المثل بهذه المخلوقات الضعيفة تتفتح بصائرهم على النظام الكوني العجيب، ويدركون ارتباط الكائنات كلها في هذا الكون بتقدير من الخلاق العليم، كلها شاهدة

---

[1] سورة طه آية 50

على عظمة الخالق وعلمه وقدرته وإرادته النافذة. وفي المقابل تزداد حيرة الكافرين الذين فصلوا الكون عن خالقه، فيعمى عليهم سر التمثيل بهذه الكائنات الصغيرة، فتتضاعف حيرتهم، ويمضون في ضلالهم وعصاهم، ويتبين خروجهم عن صراط الله. فهم (الفاسقون) من اليهود الذين استحكم الضلال فيهم، وذلك بسبب نقضهم العهود التي أخذها الله عليهم أن لا يحرفوا ما أنزل عليهم وأن يحترموا الأنبياء، وأن يتبعوا رسالة الإسلام، ولكنهم نقضوا كل المواثيق التي أخذها عليهم موسى عليه السلام، وقطعوا سلسلة الهداية التي أراد الله أن تتابع حلقاتها لتُختَم بمحمد ﷺ، فأوقفوها على موسى بل قطعوها حتى عن موسى بما حرفوا من الوحي الذي استحفظوا عليه. وتبعا لانفصالهم عن هدي الله كانوا دائما يسعون لتأويل الحق فتربّت عقولهم على الانحراف. وليضمنوا لأنفسهم التواصل رغم ذلك، برعوا في المؤامرات التي تؤجج الحروب والعداوات، وتهتك الوحدة الإنسانية. وإنك لتجد في كل أزمة يمر بها العالم إصبعا يهوديا يحرك الشرفي الخفاء، وسنة الله في الكون أن مآل المفسدين الخسران في الدنيا والآخرة.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**كيف:** سؤال مع إنكار، كقولك كيف تضرب صديقك؟

**تكفرون بالله:** تنكرون تفرد الله بالألوهية (لا إله إلا هو)

**استوى إلى السماء:** قصد إلى خلق السماء.

**سواهن:** أتم خلقهن على أكمل وجه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إنه من العجب بعد أن ذكّر البشر بمظاهر قدرته من تيسير الأرض، أن يكفر الإنسان بربه ويجعل له شريكا. ويحقق القرآن قدرة الله الدالة على وحدانيته في تصرفه في البشر، فلينظر كل إنسان إلى ذاته: إنه كان غير موجود فمن أوجده ونفخ فيه الرّوح؟ وإن عمره مضبوط لا يستطيع أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه، فالمحيي والمميت هو الله. ومن قدر على الإيجاد بعد العدم، وعلى الإعدام بعد الإيجاد، هو القادر وحده على الإحياء ثانية. وليس هذا الإحياء عبثا ولكنه ليجزى كل فرد عما قدم. وليتأمل الإنسان في الكون الذي حوله، فإنه سيتبين له أن القدرة

المبدعة هي التي خلقت للبشر كل ما تحويه الأرض فوق ظهرها وفي باطنها. وفوق ذلك أن الله هو الذي خلق السماوات السبع. والسماوات بأسرارها وحكمة خلقها لا يحدثها إلا من وسع علمه كل كبيرة وصغيرة.

**بيان المعنى العام:**

**28-29-كيف تكفرون بالله... وهو بكل شيء عليم.**

أيقظ القرآن بسؤاله (كيف) العقول، وأثارهم لأمر عجب، ذلك أن الآيات السابقة ذكّرت البشر بمظاهر القدرة المبدعة من أن كل فرد هو مخلوق له من مضى ومن سيأتي وأنه يسر لهم الحياة في الأرض وربط بينها وبين السماء ربطا محكما أخرج به للناس ثمراتهم وفاكهتهم. وعجبٌ كيف يكفر الإنسان ويجحد الخالق، وفي ذاته ما يرفع هذا الضلال الذي وقع فيه.

كل فرد كان معدوما فتعلقت القدرة الإلهية فأخرجته من العدم إلى الوجود، ونفخت فيه الرّوح، وسرت فيه الحياة بذلك، وكل فرد سينتهي أجله ويموت، ومن قدر على الإيجاد بعد العدم قادر على الإحياء ثانية، الإحياء الذي يعود به كل فرد إلى من أبدعه أولا فكلّفه، وثانية ليحاسبه عن عمله فيما كلفه به. وفي محيطه أيضا من المظاهر ما يوجب العجب من إنكار الخالق سبحانه. فباطن الأرض وما على ظهرها يتلاءم مع البشر ويستفيدون منه في حياتهم هذه. لاءم بينهم وبين ما تخرجه الأرض على وجهها من خيرات وما يحويه بطنها من مختلف المعادن وما يعمرها من الطاقات. فالعقل إذا رفع عنه حجاب الغفلة يعجب من إنكار الخالق الذي لا يستطيع أحد سواه أن ينسب لنفسه خلق أي شيء من ذلك.

وارتقى القرآن من تحريك نظر الإنسان إلى نفسه إلى نظره في الأرض ثم حركه إلى القدرة الباهرة في خلق السماوات. وأسرارُ السماوات لا تحيط بها القدرات البشرية. الأبعاد بينها تقدر بالسنوات الضوئية. وما تحويه كل سماء منها مقدر تقديرا محكما من العليم الذي وسع علمه كل كبيرة وصغيرة. (وهو بكل شيء عليم).

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**الملائكة:** جمع ملك. والملك مخلوق من غير المادة لا يعلم حقيقته إلا الله خالقه. من طبيعته أنه غير قادر على فعل الشر فهو ممحض للطاعة. ولكل ملك مقامه ومهامه الموكولة إليه ينفذها حسب طبيعته تلك. وجماع ذلك وصف القرآن لهم **(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)**[1].

**خليفة:** هو آدم وذريته. وأطلق عليه لفظ الخليفة بالنظر إلى أن قوى الأرض سخرت له فهو المتصرف فيها.

**يفسد:** يحول النافع فيها إلى ضار.

**يسفك الدماء:** يقتل غيره.

**نسبح:** التسبيح هو ما يصدر من الكائن من قول أو عمل يدل على تعظيم الله وتنزيهه عن النقص.

**نسبح بحمدك:** نعظمك تعظيما مقرونا بحمدك.

**نقدس:** التقديس تنزيه الله سبحانه عن كل نقص باعتقاد كماله المطلق والتعبير عن ذلك.

**أنبئوني:** أخبروني.

---

[1] سورة التحريم آية6

**سبحانك:** نعظمك وننزهك.
**غيب:** خلاف المُشاهد.
**الحكيم:** الذي لا يلحق ما فعله ولا ما دبره نقص بسبب خفاء بعض الجوانب.
**تبدون:** تظهرون.
**تكتمون:** تخفون.
**أبى:** امتنع.
**استكبر:** امتنع عن قبول الحق تكبرا ظانا أنه أرفع.
**رغدا:** أكلا هنيئا وافرا لا يتعب في تحصيله.
**أزلهما:** الزلل الانزلاق، ومعناه في الآية فعل ما نهى الله عنه.
**مستقر:** مكان استقرار.
**متاع:** ما يستمتع به الإنسان من ملذات.
**حين:** الوقت يصح أن يكون وقت فناء العالم أو وقت موت كل شخص.
**تاب:** تاب العبد رجع عن المعصية إلى الطاعة نادما عما صدر منه وتاب الله على التائب قبل توبته وأعاد رضاه عنه.
**التواب:** القابل لتوبة المذنبين على كثرتهم، وتكررها منهم.
**الآيات:** جمع آية وهي ما يدل على أمر من شانه أن يخفى، وتطلق الآية على الحجة لأنها تظهر وجه الحق إذا خفي على المخاطب.

**بيان المعنى الإجمالي:**

بينت الآيات السابقة أن الله مكن الإنسان من الأرض ويسرها له، ثم انتقل القرآن لعرض قصة خلق الإنسان لعمارتها.

أعلم الله ملائكته أنه سيجعل في الأرض من هو متصرف فيها مكلف بعمارتها. ولم يتبين لهم كيف إن المستخلف هذا يستطيع أن يحقق الإرادة الإلهية مع أن فيه جوانب تنافي التصرف الرّشيد. فمن طبيعته أنه يغضب فيقتل خصمه وتستبد به شهواته فيفسد ويحول الصالح إلى ضار. فأعربوا عن استغرابهم مع ما يليق بهم من الأدب نحو الله قائلين نحن ننزهك ونحمدك ونقدسك.

كان الجواب مختصرا: إني أنا الله أعلم ما لا تعلمون.

ثم عرفهم بحكمته في استخلاف آدم وذريته في الأرض. وذلك بأن أعان آدم على معرفة أسماء الأشياء كلها. والتسمية مرحلة فوق معرفة الأشياء، إذ لا يستطيع أحد أن يسمي الشيء تسمية صحيحة، إلا بعد التمييز بين المتشابهات ومعرفة الخصائص. ثم أحضر آدم معهم وأحضر شريط الأشياء التي علّمها لآدم. وقال

لملائكته: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي هي حاضرة أمامكم، إن كنتم صادقين في تصوركم أن هذا المخلوق لا يصلح لعمارة الأرض. فأجابوا قائلين: ننزهك ربنا لا نعلم إلا ما علمتنا. إنك أنت العليم الذي وسع علمه كل شيء، البالغ الحكمة فيما قدره وأنجزه.

وبعد أن تبين عجز الملائكة عن الإجابة، قال الله تعالى: يا آدم أخبرهم بأسماء جميع الأشياء الحاضرة. وفعل ادم، فبين ولم يخطئ. فعندها قال الله تعالى لملائكته: ألم أقل لكم إني أعلم ما ظهر وما هو خفي مستور في السماوات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما هو كامن في بواطنكم.

ويتابع القرآن العرض بمشهد آخر: هو أمره سبحانه للملائكة بالسجود لآدم، لما ظهر من مزاياه. ويبدو المشهد وقد خر جميع الملائكة سجدا تنفيذا لأمر ربهم، يبقى كائن واحد رافعا هامته كان مأمورا مع الملائكة لما توجه الله بالأمر، وهو إبليس أبو الجن، امتنع من السجود استكبارا، ظانا أنه أعظم من ادم وأكرم منه، ويقول الله عنه إنه كافر قد استحكم منه جحود حق الخالق.

المشهد التالي في هذه القصة العجيبة التي ستتكرر في القران يتمثل في الجمع بين أمر الله ونهيه: أمر الله آدم أن يسكن مع زوجته الجنة. وأباح لهما أن يأكلا ما شاءا من ثمارها من أي مكان أرادا، ثمارا لا تنقطع، ولا يتعب آكلها لا في التحصيل عليها ولا في هضمها.

نهاهما عن شجرة في الجنة عرفهما بها وأحضرها أمامهما، وحذرهما أن يقتربا منها قربا يمكنهما من الأكل منها.

سكن آدم وزوجته الجنة ونعما ما شاء لهما النعيم، يعيشان في أفضل حال وأتم كرامة.

والشيطان يغلي حقدا للتكريم الذي خُصا به فمكر بهما، وسيأتينا في آيات أخرى كيف نفذ مكره. فارتكبا الخطيئة وأكلا من الشجرة التي مُنعا من الأكل منها. ونالا جزاءهما العاجل فأُخرجا من الجنة محرومين من النعيم الذي عاشا في رخائه الأمد الذي قدر لهما.

أصدر الله أمره لهما أن ينزلا من دار الكرامة والنعيم ويتحولا عن تلك الحياة الرّغيدة الهنيئة إلى نوع آخر من الحياة، هي أقل منزلة وأكثر عناء. وهي دار مغالبة نابعة من حب كل فرد إيثار نفسه بالخير، وما يترتب على ذلك مما يوجب انتشار العداوات بين ذريته أو إن العداوة مستحكمة بين البشر وإبليس.

آدم في موقف رهيب وتحول مزعج، والمحنة عظيمة، والخوف من العقوبة بالسخط الدائم تحرك عقله وقلبه لتصور المصير المجهول.

لم يبق آدم طويلاً على هذه الحال حتى جاء اليسر بعد العسر تفضلا من الله، إذ ألهمه ربه كلمات لم يبينها القرآن، قالها آدم فتاب الله عليه. فانتهت أزمة آدم الكبرى.

وبعد أن أعلمه الله بتوبته عليه أمره ثانية أن يهبط من الموقع الذي هو فيه بعد خروجه من الجنة. وهو نزوله إلى الأرض التي سبق في علم الله أن يُسْكِنَهُ وذريته فيها ليعمروها مساعدين بما ينزله عليهم من هداية على لسان رسله حتى يكون سعيهم فيما استخلفوا فيه سعيا محققا لحسن الخلافة. وأنه من تبع الهدى الذي ينزله الله يحقق لنفسه الطمأنينة فهو لا يخاف من المستقبل، ولا يحزن على ما فاته. وفي المقابل فإن الذين يرفضون ما جاء عن الله ويجحدون، ويكذبون الرّسل وما أقامه الله على الحق من أدلة بينة، فأولئك الملازمون لنار جهنم لا يفارقونها خالدين فيها لا مطمع لهم في العفو.

**بيان المعنى العام:**

هذه أول قصة في القرآن، موضوعها خلق آدم أول الناس وجودا وأب البشر جميعا. حدث عظيم اعتنى به القرآن وفصله في أكثر من سورة. واتصالها بالآية السابقة التي بين فيها أن الله خلق للبشر ما في الأرض جميعا، بيّنٌ.

وما ذكر في هذا الموقع من سورة البقرة يشمل المشاهد التالية:

**30-وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... ما لا تعلمون.**

**المشهد الأول:** يجمع الله الملائكة ويعلمهم أنه سيجعل في الأرض من يقوم على عمارتها ويتصرف فيها.

**المشهد الثاني:** تحير الملائكة حيرهم تركيب هذا المستخلف وخصائصه رأوا فيه أنه قادر على التعمير كما هو قادر على التخريب وأنه مؤهل للطاعة كما هو مؤهل للمعصية، وهكذا... فتوجهوا إلى الله طالبين أن يكشف حيرتهم وسألوا سؤال استفسار لا سؤال اعتراض: أتجعل عمارة الأرض بيد من هو قادر على الإفساد، واندفاعه لتحقيق مصالحه قد يصل به إلى قتل من يقف دون ذلك ؟ ويؤكدون مع الأدب الكامل معلنين ما استقر في عقيدتهم بقولهم: نحن نعظمك ربنا ونعتقد أنك الحكيم العليم وثناؤنا عليك ربنا متصل بنا لا يفارقنا (نسبح تسبيحا مقترنا بحمدك) وننزهك عن كل نقص لكمالك الذاتي. (ونقدس لك) ويجيبهم الله

جوابا قاطعا لسؤالهم: إني أعلم ما لا تعلمون. فنهاية المشهد حيرة لمعت في الأفق. خيوط حلها مُستَكِنَّةٌ في علم الله الذي لا يغيب عن علمه شيء.

### 31- وعلم آدم الأسماء كلها...إن كنتم صادقين.

المشهد الثالث: قرب الله آدم، وحرك ما أودعه في باطنه من حب المعرفة، وأعانه على تبين الأشياء، ثم التحول بما حصل في باطنه من صورها إلى مرتبة وراء ذلك هي التعبير عن ذلكم الحاصل الذهني بالكلام الدال عليه. وذلك سر من أسرار استخلافه: الذي هو المعرفة واختزان ما عرفه في ذهنه ثم القدرة على إبلاغ الحاصل الذهني لغيره. واستقرت المعلومات في عقل آدم، وارتبطت المعرفة بالنطق والتعبير.

### 32-33-قالوا سبحانك لا علم لنا...تبدون وما كنتم تكتمون.

المشهد الرّابع: أحضر الله سبحانه الملائكة وعرض عليهم شريطا للموجودات التي علمها لآدم، وطلب منهم أن يُعلّمُوه بأسماء ما قدم لهم بما يميز بعضها عن بعض في التعبير كتميزها في الواقع.

وكان جوابهم: ننزهك سبحانك، لا نعلم إلا ما علمتنا إياه، وفتحت لنا باب معرفته. لسان حالهم يقول إننا نجهلها وما عندنا من علم هو لا يتجاوز ما تفضلت علينا فعلمتنا إياه.

ويبرز هذا المخلوق الجديد آدم، ويخاطبه ربه في الجمع الحاشد: عـرِّفهم يا آدم بأسماء جميع الأشياء المعروضة. ويتقدم بما سبق له من تعليم إلهي لا خطأ فيه فيقرن بين كل شيء واسمه. وهي مرحلة النضج البشري. فإن الطفل يعمم في صغره الباكر، فكل مستدير قد يطلق عليه كرة. ثم كلما ارتقى ذهنه يخرج من التعميم إلى التدقيق فالتفاحة غير الكرة مثلا. ثم يسمو في معرفته فيفرق بين أنواع التفاح، ثم يسمي كل جزء مما تركبت منه التفاحة، ثم يسمو فيتعرف على خصائص كل جزء ويطلق عليه اسمه وهكذا.

وينبهر الملائكة من مزايا هذا الكائن المستخلف، ويخاطبهم ربهم عندها: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ؟ إن هذه الأشياء التي حوتها الأرض والسماوات أنا خلقتها وأنا أعلم بها ويتضمن ذلك أني أعلم من هو أقدر على تنفيذ إرادتي فيها. وأعلمُ قبل تعبيركم ظواهر ما تعلنونه وما لم تعلنوه مما هو مكتوم عندكم.

### 34-وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...وكان من الكافرين.

المشهد الخامس: أدرك الملائكة مزايا آدم التي أهلته للخلافة في الأرض، وتبين لهم مقام العلم للتأهل لشرف الاستخلاف، بما كشف لهم ربهم في المشهد السابق، فصدر الأمر الإلهي لجميع الحاضرين كي يعبروا عن هذا التقدير للعلم بأن يسجدوا لآدم. وبدا مشهد التكريم الرّائع بسجود الملائكة جميعهم، وبقي كائن واحد شذ في المشهد وانحرف ولم ينفذ الأمر، هو إبليس الذي كان من الجن من غير جنس الملائكة وكان يعيش معهم وشمله الأمر. ويشهّر القرآن بعصيانه ويشرح علة فساده بأنه رأى نفسه أعظم من آدم، وحمله طغيانه على عصيان الله. وفي امتناعه من السجود، زيادة عن المعصية ورفض الاستجابة للأمر، أن مؤدى استكباره نفي الحكمة عن الله في أمره بالسجود لآدم، فهو مُعرّض بنفي الحكمة عن الله، وذلك كفر يوجب أن يكون إبليس من جملة الكافرين بالله، لا يختلف عنهم لأن الكفر كما يُطْبَعُ به صاحبه بالرّفض لوحدانية الله يطبع به أيضا بالاعتراض عليه وتحكيم الرّأي في أوامره ونواهيه برفضها أو قبولها.

## 35- وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك... فتكونا من الظالمين.

المشهد السادس: افترق في هذا المشهد الحاضرون إلى ثلاثة أقسام:

1) الملائكة المنفذون لأمر ربهم وقد أدركوا سر استخلاف آدم وسجدوا له.

2) إبليس المتعاظم المستكبر، وقد نزل عن المرتبة التي كان عليها من رفقة الملائكة ودخل في زمرة الكافرين.

3) آدم وزوجه وقد كرم آدم بالعلم ثم بسجود الملائكة ثم بالإذن له في سكنى الجنة، مع زوجه وهو حسب طبيعة خلقه محتاج لتستمر حياته أن يأكل ويشرب ويوفر لبدنه مقومات بقائه. ويطلق الله لهما الحرية في الانتفاع بما حوته الجنة من نعيم لا ينفد من متنوع أشجارها وسوائلها ومنتجاتها، لا يلحقهما في ذلك تعب ولا جوع ولا عطش. ومن بين أشجار الجنة، التي لا يبلغها التعداد، يعين لهما شجرة ويحضرها لهما فيتعرفان عليها تعرفا يجعلها لا تختلط بغيرها من شجر الجنة وينهاهما ربهما أن يقرباها أو يأكلا منها. ويؤكد النهي بأن القرب منها يدخلهما في زمرة الظالمين، بعصيان الأمر وبظلم النفس بالحرمان من النعيم.

## 36- فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما...مستقر ومتاع إلى حين.

المشهد السابع: آدم وزوجته وقد ألفا الجنة ونعيمها، فارتخت عزيمتهما واقتربا من الشجرة التي حرمها الله عليهما وأكلا منها. ويكسى آدم وزوجه ثوب الخطيئة ومخالفة الأمر بفعل المنهي عنه، وللشيطان دور كبير فيما قام به من وسوسة

وتزيين الأكل منها. وتبرزهما الآية وهما خارجان من الجنة لا يستطيعان البقاء فيها لحظة بعد ذلك، كأن الجنة قذفتهما إلى الخارج. وما أشد حسرتهما عندما يأتيهما النداء الجازم يتضمن ثلاثة أمور:

**الأول:** أمر بالهبوط والنزول، أمر ينهي ما خولهما عندما قال: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة. وهو حرمان لهما ولعقبهما من الذرية من دخول الجنة في الدنيا.

**الثاني:** أن العلاقة بين ذريته لا تكون علاقة ود دائم ومحبة مسترسلة وإخاء. إنهما لما كانا في الجنة ما كان تحصيل الرزق يهمهما ولا الخوف من النقص يخطر على بالهما، فلما أخرجا من الجنة وتبعهما الذرية فإن الحياة الدنيا يرافقها التغالب وحب الاستئثار بالخير، والخوف من المستقبل، وكل ذلك مما يثير التنازع والتنافر.

**الثالث:** أن كوكب الأرض هو المتسع الحيوي الذي يعيش فيه وذريته، يستمتعون بالخيرات المنبثة فيه. فليست الأرض التي مكن من الحياة فيها دار عذاب بل فيها من المتاع ما قدره الله فيها لبني الإنسان، وذلك إلى الأجل الذي قدره الله في سابق علمه.

**ملاحظة:**

سوى القرآن بين آدم وحواء ولم يُلْق بالمسؤولية على حواء، ولم يلق باللائمة عليها وحدها، على أنها استدرجت زوجها لارتكاب المعصية بل حملهما معا جريرة المخالفة للأمر بالأكل من الشجرة ، وخاطبهما معا بالخروج من الجنة كما خاطبهما عندما أدخلهما الجنة. وفي هذا رفض لما نقله اليهود والنصارى من أنها هي التي طوّعت زوجها للأكل وأنها سبب البلاء.

**فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾**

**37-فتلقى آدم...الرّحيم.**

**المشهد الثامن.**

يذهب التصور ما يشاء في تقدير حالة آدم ﷺ وهو خارج من الجنة، محروم منها، لابسا ثوب المعصية النازلة به عن مرتبة الكرامة التي كان عليها من تقدير

الملائكة له، يجهل مصيره وتتحرك نفسه اللوامة. وسنة الله أنه يعقب الضيق بالفرج، فتتفتح روح آدم ليتلقى من ربه كلمات هي مفتاح لرضوانه عليه، وهي كلمات لم يفصلها القرآن في هذا الموضع ولكنها تشير إلى إعلان التوبة والندم والابتهال إلى الله أن يغفر له.

أي فرحة تهز آدم وقد أعلن الله أنه تاب عليه! وهو فضل الرّحمن الرّحيم لا يختص به آدم، فالله هو التواب يعفو عمن أذنب ورجع إلى باب فضله سائلا، ولنفسه الآثمة مؤنبا ولائما. إنه هو الرّحيم الذي شملت رحمته خلقه، فتحها لمن زل ثم التزم طريق الهدى وأوى إلى ربه تائبا.

## 38-قلنا اهبطوا منها جميعا...يحزنون:

مع الفرحة العارمة التي يظهر فيها آدم وقد تقبل الله توبته ورفع عنه إثم خطيئته، يأمره الله تعالى بالمضي إلى الأرض التي سيعمرها وتعمرها ذريته من بعده، ويعلمه أن بقاءهم فيها مقرون بثقل التكليف والمسؤولية، مع بيان أن هذا التكليف يرفقه اللطف ببعثة الرّسل يبينون لذريته الطريق الذي يرضى عنه خالقهم ويساعدهم على النجاح في تحمل ثقل المسؤولية. مؤكدا أنهم يضمنون باتباع الهدى الذي يبين معالمه رسل الله أمرين كبيرين:

أ- أنهم يفوزون بالطمأنينة في الحياة الدنيا والآخرة، فلا يقرب الخوف قلوبهم ولا يشل حركتهم،.

ب- وأنهم لا يحزنون على ما فاتهم إذ أن سلوكهم كان على وضاء المنهج الإلهي.

## 39-والذين كفروا وكذبوا...خالدون.

وفي المقابل فإنه يحذر من يرفض قبول ما يبلغه رسل الله جاحدا لما تقتضيه العبودية لله مكذبا بالآيات البينات التي تحرك القلوب والعقول الدالة على أن الله هو وحده الخالق المتصرف، وعلى صدق المرسلين من المعجزات. فيكون التحذير لذرية آدم من يوم نزل آدم إلى الأرض وما لحق نزوله بواسطة رسالات الله للبشر، وإيماء إلى رسالة النبي محمد ﷺ ، المؤيد بالقرآن هذا الكتاب الذي اختص بأن كل وحدة من وحداته آيةٌ. التكذيب بها كفر. ويستحضر الكفرة المكذبون بآياته في ختام المشهد بأنهم مسوقون في النهاية إلى النار التي ارتبطت بهم وارتبطوا بها (أصحاب النار) لا ينفك عنهم مهانتها ولا يخفف عنهم من عذابها خالدون فيها أبدا.

وإذا كانت المشاهد السابقة تعرض علينا خلق الإنسان وما حف به، فإن هذه الآية تدخلنا معشر البشر في المشهد. إنه بين البشارة والإنذار يتحرك القلب ويستيقظ

العقل، وينتبه كل تال ليرى منزلته ومآل سلوكه في هذه الحياة مقررا يتحقق نفاذه يوم القيامة.

**من عبر القصة:**

هذه القصة تسجل قيمة العلم فبالعلم تقدم آدم للاستخلاف في أرض الله، وبالعلم سجد الملائكة لآدم، وهذا ما يفرض على المؤمنين أن يحترموا العلماء، وأن يتقدموا في التخصص العلمي إلى أبعد مقامات التخصص. كما تُنبّهُ إلى أن الاستكبار أساس الخطايا وجالب البلايا. أن باب التوبة مفتوح لبني ادم، وأن المؤمن لا يقنط من روح الله.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

**بيان معاني الألفاظ**

**إسرائيل:** يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام.

**اذكروا:** لتكن حاضرة في أذهانكم.

**أوفوا:** حققوا.

**العهد:** ما التزم به اليهود من التوحيد وتطبيق شرائع موسى والإيمان بمحمد ﷺ. وعهد الله إليهم بالتكريم والعون.

**ارهبون:** خافوني

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعا الله بني إسرائيل (اليهود) إلى أن يستحضروا دائما فيض النعم التي أنعم بها عليهم وعلى أسلافهم، وأن يحققوا في الحياة ما أخذ عليهم من مواثيق التزموا بها، وأنهم إن وفّوا بعهودهم أنجز لهم ما وعدهم. وشدد عليهم أن لا يرهبوا أحدا إلا الله مهما اختلفت الظروف والأحوال.

**بيان المعنى العام:**

**4-يابني إسرائيل اذكروا....وإياي فارهبون.**

تكرر في القرآن دعوة بني إسرائيل ليكفوا عن الكيد للإسلام، وتذكيرهم بما أنعم الله على آبائهم، وتقريعهم بمتنوع مظاهر عنادهم وجراءتهم وبمختلف المكائد التي كانت ديدنهم في التعامل مع الآخرين، وبما صنع آباؤهم مع رسول الله إليهم سيدنا موسى عليه السلام ومع الأنبياء الذين توالوا فيهم، مما سيأتينا تفاصيله في سور القرآن الكريم.

**صلة خطاب بني إسرائيل بالآيات السابقة:**

دعا الله البشر جميعا لعبادته في الآيات السابقة ( يا أيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات 25/21 - ثم قص عليهم قصة خلق أبيهم آدم وأنه سيبعث لهدايتهم رسله. وأقدم وحي باق عند البعثة المحمدية هي التوراة التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام . وقد استحفظ عليها بني إسرائيل. ولكن التوراة قد اختلط فيها صادق الوحي بإضافات بشرية، وحرف اليهود عبر القرون ما حرّفوا وكتموا منها ما كتموا. وهم يدعون أنهم وحدهم الماسكون للحقيقة. فتوجهت عناية القرآن إليهم ليقرعهم بالحقائق التي أخفوها، وبالتحريف الذي غيروا به ما استحفظوا عليه، ويدعوهم إلى معاضدة الحق الذي جاء على لسان محمد رسول الله ﷺ، فينصروا دينه ويتبعوا شريعته. وتتابعت الآيات في هذه السورة مفصلة ما ذكرناه. النداء في هذه الآية من الله إلى بني إسرائيل يوقظهم ليكونوا على ذُكر للأمور الهامة التالية:

**أولا:** أن يكونوا مستحضرين دائما للنعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم حاضرة في قلوبهم جارٍ ذكرها على ألسنتهم. لم يفصل النعم هنا في هذه الآية، وسيرد تفصيلها في مواقع كثيرة من القرآن.

**وذكرهم ثانيا:** بالعهود التي قطعوها على أنفسهم، وسيأتي تفصيلها أيضا، كالمحافظة على شريعة موسى وعدم تغييرها، والإيمان بمحمد ونصرته، وقبول ما أتى به من ربه وافق رغباتهم ومخططاتهم أو خالفها.

**وذكرهم ثالثا:** بأن ما ضمنه لهم من النجاة والفوز مرتبط بالوفاء بعهودهم، مشعرا لهم أنهم إذا قصروا ضاع عنهم ما كانوا يرجون.

وحرك مشاعرهم في ختام هذا النداء بأن عليهم، مهما اختلفت بهم الظروف والأحوال وبرزت دواعي الإقدام والإحجام، عليهم أن لا يرهبوا ولا يخافوا أحدا إلا الله. وما ذلك إلا لأن خوف الله أساس صلاح الإنسان في عقيدته وسلوكه.

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**المصدق:** الدال على صدق ما في كتبهم.

**تشتروا:** تستبدلوا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يا بني إسرائيل آمنوا بالوحي الذي أنزلته على قلب محمد المؤكد لما تؤمنون به في جوهره، ولما كان مصدقا لما معكم ،فالواجب يقتضيكم أن لا تكونوا مسارعين للكفر به ورفضه، ولا تبيعوا ما تقرر من الهدى بثمن قليل من الحظوظ العاجلة.

**بيان المعنى العام:**

**41-وآمنوا بما...فاتقون.**

يترتب على دعوتهم للوفاء بالعهود أن يؤمروا بالإيمان بما أنزله الله من وحي على لسان رسوله محمد ﷺ ، لأن ما جاء به يؤكد في جوهره ما معهم من وصايا أنبيائهم. ويشنع على من سبق منهم إلى الكفر به ورفضه. ثم تشير الآية إلى أنه لا يبرر الاستعجال بالكفر به، إلا حظوظ دنيوية خسيسة يستبدلون بما عندهم من صريح الحق وشريف الإيمان وعزم العهود، يستبدلون بذلك ثمنا بخسا من متاع الدنيا وحظوظها الرّخيصة، سواء أكانت مالا أو رئاسة وتحكما، فجميعها لا وزن لها أمام ما وعدهم الله من الثواب والنصر والكرامة **(وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)**. وجماع ذلك هو ما ينبغي أن يعمر به قلوب المخاطبين من تقوى الله التي بها يحمي المكلف نفسه من غضب الله وعقابه.

**وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾**

**بيان معاني الألفاظ:**

**لا تلبسوا:** لا تستروا الحق بالباطل حتى يخفى.

**كتمان الحق:** إخفاؤه وعدم إظهاره.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يا بني إسرائيل لا تخلطوا الحق بالباطل حتى يسبق الباطل ويخفى الحق لا تقصدوا لذلك وأنتم تعلمون الحق.

**بيان المعنى العام:**

**42-ولا تلبسوا الحق...تعلمون.**

نهى الله بني إسرائيل عن تضليل الناس بخلط الحق بالباطل حتى يسبق الباطل ويضيع الحق. إن مما بلغهم إياه موسى عليه السلام من الوحي: ما أوصاهم به وشدد عليهم من نشر كلمة الله وعدم كتمانها **(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)**[1]. إن إيقاع الناس في الضلالة تعظم شناعته إذا كان ...

[1] سورة آل عمران آية 187

عمد، بحيث يعلم المضل الحقيقة ويغش غيره فكريا ليضله. إن في نهي بني إسرائيل عن التمويه والتدليس والتلبيس فيما يعلمون حقيقته، إيقاظا للمؤمنين حتى لا يسيروا في طريق الضلال بتزييف الحق والترويج للباطل.

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**إقامة الصلاة:** الإتيان بها كاملة.

**الركوع:** انحناء الظهر ليُكوّن مع الرّجلين زاوية قائمة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يا بني إسرائيل اقرنوا الإيمان بمحمد بإقامة الصلاة وأداء زكاة أموالكم والاندماج مع المؤمنين في العبادة.

**بيان المعنى العام:**

**43- وأقيموا الصلاة...الراكعين.**

أمر بني إسرائيل بعد أن فرض عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في الآية السابقة (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) أمرهم أن يقرنوا الإيمان الباطني بالقيام بشعائر الإسلام: فأمرهم بالصلاة على الطريقة التي يؤديها عليها المسلمون فيركعون مع الرّاكعين، وأن يقوموا بواجبهم في التضامن الاجتماعي بإبلاغ زكاة أموالهم لمن يستحقها.

۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**البر:** جماع الخير في العقيدة وفي الفعل.

**النسيان:** ذهاب ما في الذاكرة.

**تتلون الكتاب:** تقرأون التوراة .

**بيان المعنى الإجمالي:**

ينكر القرآن على يهود دعوة غيرهم إلى الاستقامة وفعل الخير والتزام طريق الفضيلة عقيدة وسلوكا وقولا، وهم يخالفون ما يبينونه للناس مع أنهم يتلون التوراة التي تنهاهم عن الخداع.

**بيان المعنى العام:**

**44-أتأمرون الناس...أفلا تعقلون.**

صورة الخطاب صورة سؤال وجهه الله إلى بني إسرائيل. وهذا السؤال لا يقصد منه تلقي الجواب، ولكن يراد منه توبيخ يهود وإنكار منهجهم، ذلك أنهم يدعُون إلى فعل الخير والاستقامة والتحلي بالفضائل، ثم إنهم في حياتهم يمثلون صنوفا من الشر والرّذيلة والخداع. ويفضح تناقضهم هذا بأنهم يقدمون على الشر وهم يتلون التوراة التي تنهاهم عن ذلك، وتذكرهم بالعواقب الخاسرة لهذا الخداع. كأنهم فقدوا عقولهم فأصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

ونظير هذا الاستفهام أن تقول لمن أهان والده: أتهين والدك وقد حنا عليك ورباك صغيرا؟! فأنت تقصد إلى توبيخه ولا تطلب منه جوابا.

وفي هذا الإنكار والتوبيخ ما يوقظ المؤمنين أن لا يسلكوا مسالك يهود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم فعل المنكرات وترك المعروف.

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**الاستعانة:** طلب ما يتأيد به الإنسان ويتقوى به.

**الصبر:** قوة في النفس تثبّت بها عزيمة الإنسان على تحقيق ما هو خير له في العاقبة وإن كان مخالفا لرغباته العاجلة وكذلك تقبل الواقع المؤلم أو المزعج دون شكاية ولا ضجر.

**الصلاة:** الركن الثاني من أركان الإسلام.

**لكبيرة:** ثقيلة شاقة.

**الخاشعين:** الخشوع حالة باطنية تجعل الخاشع متذللا مطمئنا للعبادة تظهر آثارها في سكون الجوارح وعدم الاشتغال بغير ما هو مقبل عليه في تلك الحال.

**يظنون:** يتيقنون.

**ملاقوا ربهم:** راجعون إليه ليحاسبهم ويجزيهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أرشد القرآن بني إسرائيل أن يستعينوا للثبات على الدين الحق (الإسلام) بالصبر عليه وإن فاتهم بذلك بعض الحظوظ العاجلة، وبإقامة الصلاة، رغم أن المواظبة عليها أمر شاق إلا على الذين سكنت قلوبهم لذكر الله متيقنين أنهم سيقفون بين يديه ويعودون إليه ليحاسبهم ويجزيهم.

**بيان المعنى العام:**

**45-46، واستعينوا بالصبر...راجعون.**

اليهود حسب تربيتهم وما عمرت به أدمغتهم شديدو التعصب ليهوديتهم، ألفوا ذلك ورسخ فيهم حتى صار ملكة. فلكي يطمئنوا بالإسلام الذي دعاهم القرآن إليه، أرشدهم ليستعينوا بأمرين هامين:

**أولهما:** الصبر، بمعنى أن تكون عزيمتهم قوية ماضية، إن دواعي بقائهم على دين اليهودية قائمة من التكتل اليهودي وتعصبهم لبعضهم، ومن الرّئاسة التي لرجال الدين منهم والولاء لهم والطاعة، ومن اثر الإلف لما تعودوا عليه منذ بواكير صباهم من الطقوس والأعياد، ومن شدة المتمسكين باليهودية على من دخل منهم في الدين الإسلامي ورفضهم له. يهزم كل هذه الدواعي قوةٌ في النفس ومضاءٌ في العزيمة وتغليبُ الفوز في الآخرة على كل شيء، وبالإرادة الصلبة يتميز الرّجال في مقامات السمو الإنساني.

**ثانيهما:** إقامة الصلاة، وهو تكرير لما سبق في قوله تعالى **(واركعوا مع الرّاكعين)** ولما كانت الصلاة هي العبادة التي تتخلل فترات اليوم خمس مرات فهي التي تبقي الإنسان على صلة دائمة بربه، فتصقل روحه كلما أصابها غبشٌ من مخالطة المادة واللهث وراء المطالب العاجلة. وفي الصلاة أسرار عظيمة تدرك آثارها في يقظة الرّوح، والاستقامة، والسمو عن الدنايا وحظوظ النفس في دَرَكِ الخَطيئة والإثم.

عبادة الصلاة نظرا لتكررها خمس مرات في اليوم والليلة، وما تقتضيه من طهارة بالوضوء أو الغسل، ومن طهارة المكان والثياب ومن إعداد الباطن ليتفرغ للمناجاة والإقبال على الله. لا ينهض بها إلا من استقر الإيمان في قلبه فاستمتع بالخضوع لمولاه، وبدا على جوارحه وأعضائه السكينة والانقياد فكان مستحضرا دوما موقنا جازما بأنه سيلقى ربه ويرجع إليه مجردا من كل قوة ومن كل نصير، وأنه سيحاسبه ثم يجزيه.

**يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾**

**بيان معاني الألفاظ:**

**اذكروا نعمتي:** لتكن النعم التي أنعمت بها على آبائكم حاضرة في أذهانكم لا يتطرق إليها النسيان.

**اتقوا يوما:** احذروا عذاب يوم.

**لا تجزي نفس عن نفس:** لا تقوم نفس بقضاء حق عن غيرها.

**ولا يقبل منها شفاعة:** لا يقبل منها أي وسيط يظن أن له مكانة لجلب نفع، أو لدفع ضر.

**و لا يؤخذ منها عدل:** ولا يؤخذ منها فدية تفدي بها نفسها من عذاب الله.

### بيان المعنى الإجمالي

يكرر تنبيه بني إسرائيل إلى النعم الكثيرة التي أنعم بها على آبائهم، ويفرد منها نعمة تفضيلهم على العالمين في عصرهم، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة اليوم الذي تتحدد فيه مسؤولية كل شخص عما قدم فلا شفاعة في ذلك اليوم ولا يقبل أي عوض عن التقصير، أو ما تعلق بالنفس من مظالم.

### بيان المعنى العام:

### 47-48، يا بني إسرائيل...ولا هم ينصرون.

يتواصل توجه القرآن إلى بني إسرائيل ليطوعهم لقبول الإسلام والدخول في دين الله الخاتم. يوقظهم ليكونوا ذاكرين ما أنعم الله به على آبائهم، ذلك أنه من المعلوم أن الانتساب إلى المميّزين من البشر يعطي للأخلاف مكانة وعزة بذلك الانتساب ومن النعم التي خصها بالذكر أنه فضل آباءهم على جميع معاصريهم. وتفضيلهم كان ببعث الرّسل والأنبياء منهم وتمييزهم بحمل هداية الله، وبالكتاب المنزل (التوراة) وبأن التوراة التي أوتوها بقيت المرجع للهداية حتّى في عهد عيسى عليه السلام. وتأثّرُ بني إسرائيل بتلك النعم أعدهم للتعمق في فهم الوجود مما كان له مدخل في خروجهم عن الأمية وشرفوا بمخاطبة القرآن لهم أنهم أهل الكتاب. ويقصد القرآن بهذا التذكير نزع ما توهمه بنو إسرائيل أن ذلك التكريم هو لأمر ذاتي فيهم، فأيقظهم ليخلصوا أنفسهم من الغرور بتلكم النعم. وإن مما يقتضيه الإكرام والتفضل بالنعمة أن يكونوا أوفياء لما نزل على لسان موسى ﵇ بما أمرهم به من اتباع الرّسالة الخاتمة. والتكريم لا يقتضي الانفلات من تحمل المسؤولية، بل بالعكس فكلما ارتفع مستوى الإنسان كلما كان ذلك مما يقتضي منه أن يكون أحرص على الكمال والبعد عن التّسيُّب، فحذرهم من عذاب يوم القيامة. هذا اليوم الذي يتحمل فيه كل فرد نتائج عمله فلا يقوم أحد مقام غيره ولا شفاعة تخرج الكافر من العذاب، ولا يقدم أي بديل ولا فدية عما يكون الفرد مطلوبا به، ومن أين الفدية وكل الناس فقراء في ذلكم اليوم. لا يملكون إلا ما قدموه من الأعمال الصالحة.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**آل فرعون:** الآل بمعنى الأهل، وفرعون حاكم مصر، وآله قومه وأعوانه وخاصته وأتباعه.
**يسومونكم سوء العذاب:** يذيقونكم أسوأ العذاب ويعتبرونكم حقيقين بذلك.
**يستحيون:** يبقون نساءكم أحياء.
**البلاء:** الامتحان والاختبار، ويكون بالخير ليظهر الممتحَن بالنعمة شكرها أو كفرانها، وتكون بالشر ليظهر المبتلى مقدار صبره وتحمله أو جزعه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يوالي القرآن على بني إسرائيل تعداد النعم التي أنعم بها على آبائهم فيقول: اذكروا إذ نجينا آباءكم من ظلم فرعون الذي نفذت أحكامه فيكم، يسلط عليكم أسوأ العذاب: يذبح ذكوركم ويبقي نساءكم. لقد كان امتحانا شديدا.

**بيان المعنى العام:**

**49- وإذ نجيناكم... عظيم.**

يعدّد القرآن ذكر النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ويحفزهم إلى الوفاء بما تقتضيه. فقد نجاهم من بطش فرعون لما كانوا في مصر تابعين لحكمه، سلط عليهم زبانيته الذين بلغ بهم التنكيل ببني إسرائيل أنهم كانوا يذبحون أبناءهم كما تذبح الخراف، ويبقون على النساء.

عزم فرعون على استئصال بني إسرائيل وإذلالهم، فسلط عليهم أتباعه كلما ولد ذكر ذبحوه حتى ينقطع نسلهم، وسخروا الرّجال للأشغال الشاقة، واستبقوا النساء بدون رجال وفي ذلك إيماء إلى ما كانوا يريدونه من الاستمتاع بهن أو الخدمة. ولو لم تدركهم عناية الله للحقهم الفناء، ومن نجا منهم من الذبح فإنه يتأصل الذل فيه ويورثه ما يتناسل منه. وإنه امتحان عظيم بشهادة رب العزة.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**فرقنا:** فصلنا بعضه عن بعض.

**بكم البحر:** بسببكم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

واذكروا يا بني إسرائيل نعمة فرق البحر بكم فنجوتم من طلب فرعون ونجوتم من الغرق، ونعمة إغراق عدوكم وإطباق البحر عليه وعلى أتباعه. وأنتم قد شاهدتم النعمتين.

**بيان المعنى العام:**

**50-وإذ فرقنا...وأنتم تنظرون.**

تفصيل للمنة السابقة في قوله تعالى (وإذ أنجيناكم من آل فرعون) أنجاهم الله لما أوحي إلى سيدنا موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البحر الأحمر فيعبره. وتبعه فرعون بجنوده حتى لم يبق بينهم وبينه كبير مسافة. وانزعج بنو إسرائيل، فأوحى الله إلى سيدنا موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه وانفلق البحر وسار موسى بقومه على يبس قاع البحر، ولما تبعه فرعون أطبق عليه وعلى جنوده البحر فغرقوا. وبنو إسرائيل يشاهدون الآيات المتتالية المؤيدة لنبيه سيدنا موسى ﷺ.

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**واعدنا موسى أربعين ليلة:** حددنا له موعدا أربعين ليلة.

**اتخذتم العجل:** جعلتم العجل معبودا.

**عفونا:** عدم المؤاخذة بالذنب.

**بيان المعنى الإجمالي:**

وعد الله موسى ﷺ أربعين ليلة ليمكنه من الشريعة الهادية، وفي هذه الفترة صنع السامري لهم عجلا من ذهب، له خوار، فعبده بنو إسرائيل على أنه إلههم، فكان ذلك منهم أعظم تجاوز للحق. وتظهر المنة إثر ذلك فيعفو الله عن هذه الجريمة رجاء أن يقدروها حق قدرها ويشكروا ربهم.

**بيان المعنى العام:**

**51-52، وإذ واعدنا موسى...تشكرون.**

بعد أن من الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وإغراقه، أعلمهم موسى أن الله سيمكنهم من الشريعة التي تبين لهم المنهج الذي يضمن لهم الهداية في علاقاتهم الاجتماعية وفي علاقاتهم بالكون. وأن الله ضرب له ميعادا أربعين ليلة يتقرب فيها إلى ربه ويناجيه ليظفر بالشريعة الموثقة. وأقام عليهم مدة مغيبه أخاه هارون، وفي فترة مغيبه عنهم اتخذوا عجلا من ذهب على أنه إلههم، وتوجهوا إليه بالعبادة بالرّغم من أن هارون عليه السلام عمل على أن يثنيهم عن هذا الضلال المبين. (وسيفصل الله هذا الأمر في سور أخرى). ولكن الله بفضله وكرمه لم يطرد بني إسرائيل من رحمته، ولم يعجل لهم العقوبة الماحقة، بل تاب عليهم وعفا عنهم. وهي منة عظمى تثير في نفوسهم حياء مما اقترفوه وتقديرا لفضل الله عليهم مع أنه

لا عذر لهم في هذا الذنب العظيم، وذلك مما يوجب إيقاظهم لشكره سبحانه، على عظيم فضله.

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**الكتاب:** التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى ﷺ .

**الفرقان:** المعجزات التي فرق الله بها بين الحق والباطل .

**بيان المعنى الإجمالي:**

اذكروا يا بني إسرائيل نعمة إنزال التوراة على موسى مع المعجزات التي أظهرت الفرق بين الحق وبين الباطل.

**بيان المعنى العام:**

**53-وإذ آتينا موسى...تهتدون.**

النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وعددها عليهم في هذه الآيات تقتضي أن يشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم، ويحتّم عليهم أن يؤيدوا الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ. فمن هذه النعم أن الله جعلهم أهل كتاب منزل من عنده، وأن الله أيّد رسولهم بالآيات المعجزة، رجاء أن تتفتح قلوبهم لهداية رب العالمين فيقومون بتأييد الحق ولا يرفضونه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**قوم موسى:** هم الذين خلفهم لما ذهب لقبول الشريعة.

**ظلمتم أنفسكم:** عصيتم ربكم وجنيتم على أنفسكم.

**توبوا:** ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة.

**البارئ:** هو الخالق بتقدير محكم، ينقل المخلوق من حال إلى حال.

**تاب:** عفا عن الذنب.

### بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما دار بين موسى وقومه بعد أن وجدهم يعبدون العجل، فأمرهم أن يقتلوا أنفسهم ليطهروها من الخطيئة، وقاموا بذلك، إلى أن أنزل الله توبتهم، فرفع عنهم القتل، والله هو التواب الرّحيم بعباده.

### بيان المعنى العام :

### 54-وإذ قال موسى لقومه... إنه هو التواب الرّحيم.

نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها الله على بني إسرائيل نكرهم بها. وهي أن الله أوحى إلى موسى عندما رجع من ميعاد ربه يحمل ألواح التشريع، ووجد قومه عاكفين على عجل من ذهب يعبدونه. أوحى الله إليه أن يخاطب قومه مسجلا عليهم أنهم قد ظلموا أنفسهم ظلما كبيرا بعبادة العجل، إذ قطعوها عن خالقها وباريها وربطوها بذلكم العجل. وأمر قومه أمرا جازما أن يطهروا أنفسهم من هذه الخطيئة الشنيعة، وأن يتوبوا على الطريقة التي يقبل الله بها توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضا. وقاموا بذلك وقبل أن يفنوا بالقتل تداركهم لطف الله فعفا عنهم ورفع القتل عنهم، على أن من قُتل كان شهيدا، ومن بقي حيا مُحيت زلته وقبلت توبته. وهذه الرّحمة الإلهية العظيمة ليست غريبة عن الله، فهو التواب الرّحيم، يغفر الزلات، ثم يعود بالرّحمة على التائب. الرّحمة التي يتبعها محو آثار الخطيئة والإثم، ثم التفضل والتكريم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**جهرة:** رؤية ظاهرة واضحة.

**أخذتكم الصاعقة:** استولت عليكم صاعقة، نار كهربائية تنزل عادة من خلال السحب المتراكمة وخاصة البركانية.

**بعثناكم:** أرجعنا لكم الحياة.

### بيان المعنى الإجمالي:

بكل رقاعة واجه بنو إسرائيل موسى بقولهم: إنا لا نؤمن برسالتك في المستقبل حتى تمكن أبصارنا من النظر إلى الله بكل وضوح، فأخذتهم نار أزهقت أرواحهم لعظم الوقاحة والذنب الذي صدر منهم، ثم عفا الله عنهم وأحياهم، رجاء أن يشكروا هذه النعمة الكبرى نعمة الإحياء.

### بيان المعنى العام:

### 55-56، وإذ قلت ياموسى...لعلكم تشكرون.

واقعة أخرى ظهرت فيها المنة وأسعفهم الله بعفوه. ذلك أن بني إسرائيل واجهوا موسى عليه السلام بصفاقة غريبة، فقالوا له: لن نؤمن برسالتك حتى تمكننا من النظر بأبصارنا إلى الله رؤية واضحة بينة، لا يدخلنا فيها شك أن الذي نبصره هو الله الذي تدعونا لعبادته. وهذا تجاوز للحدود وصفاقة بعد ما رأوا من المعجزات المتوالية المؤيدة لسيدنا موسى‍ﷺ. وعندها عاقبهم الله بأن سلط عليهم قوى كهربائية خطفت أرواحهم في الحين - قد تكون من نوع الصواعق التي تحملها السحب الكثيفة السوداء-ثم إن الله بعد ذلك عفا عنهم وأرجع لهم أرواحهم، فعادوا للحياة كما كانوا. ولو لم يدركهم عفوُ الله ورحمته لانقطع وجود بني إسرائيل. إنه لنعمة يفضي إدراكها لشكر المتفضل عليهم، من الذين أحياهم وممن يأتي بعدهم لمَّا لم يستأصلوا استئصالًا يمحقهم ونسلهم من الوجود.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

### بيان معاني الألفاظ:

الغمام: سحاب أبيض يلطف حرارة الشمس ولا يظلم الأرض.

المنّ: مادة صمغية فيها حلاوة، تنزل في بعض البوادي مع الصباح، تجمع وتعالج، صالحة لأن تقتات.

السلوى: طائر دون الحمام طيب اللحم.

كلوا من طيبات ما رزقناكم: إذن بالأكل مما رزقوا مع وصفه بأنه لذيذ الطعم

### بيان المعنى الإجمالي:

يوالي القرآن تذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعم بها على آبائهم، ومنها أنهم لما كانوا في صحراء سيناء تائهين لطّف عليهم حرارة الصحراء بسحاب أبيض رقيق وأنزل عليهم المن فكانوا يلتقطونه كل صباح ويطبخونه، وسخّر لهم طيور السُّماني، يمسكونها ويستمتعون بلذيذ لحومها، وأذن لهم في الانتفاع بذلك.

### بيان المعنى العام:

### 57-وظللنا عليكم الغمام...يظلمون.

تتوالى آيات سورة البقرة مذكرة بني إسرائيل بالنعم التي أنعم الله بها عليهم وعلى آبائهم، وبما أن القرآن سيفصلها في مناسبات أخرى كان ذكرها هنا مختصرا. كان

بنو إسرائيل في صحراء سيناء تائهين، وشأن الصحراء أن تكون شديدة الحر في النهار قاحلة. لطف الله بهم في وضعهم هذا من نواح ثلاث: غطى سماء الصحراء بسحب بيضاء تتكسر على طبقتها العليا أشعة الشمس فتحميهم من حرها، دون أن تظلم عليهم الرّؤية. أنزل عليهم مع الصباح مادة حلوة تلتصق بأوراق الشجر يمكن جمعها وتعالج كما يعالج الدقيق، ويصنع منها خبز الملة. فضمن لهم أقواتهم بدون تعب. بعث لهم طيور السمانى (السلوى) وسخرها لهم يمسكونها بسهولة، يذبحونها ويأكلون لحومها ذات الطعم اللذيذ. ومن تمام النعمة أنه أذن لهم في الانتفاع بكل ذلك حتى يكونوا مطمئنين إلى أن الله أباحها لهم. توالى موقف بني إسرائيل المستخف بالنعم التي افتتحت آيات سورة البقرة بتذكيرهم بها (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)[1] وتوالى فضل الله عليهم. فكان موقفهم هذا لا يضر الله شيئا، ولكنهم ظلموا أنفسهم بإفساد فطرتهم وتعرضهم للعقوبات التي لا تستأصلهم، ولكنها تفصح عن خروجهم عما يقتضيه الإنعام.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

القرية : البلدة المكونة من مجموع مبان. تطلق على المدينة الكبيرة وعلى البلدة الصغيرة .

من حيث شئتم: من كل مكان فيها.

رغدا: عيش رغد: طيب واسع.

سجدا: جمع ساجد، أي أن يدخلوا على هيئة السجود شكرا لله.

قولوا حطة: قولوا هذه الكلمة.

بدل: غير دون إزالة الأصل.

رجزا: عذابا.

يفسقون: يخرجون من الطاعة إلى المعصية.

[1] سورة البقرة ، آية 40

**بيان المعنى الإجمالي:**

قال الله لبني إسرائيل ادخلوا هذه القرية التي هي حاضرة أمامكم، وقد أبحت لكم أن تأكلوا من ثمارها وغلاتها من أي مكان شئتم، ادخلوا من بابها سجدا لي وقولوا (حطة) وإضافةً إلى ذلك سأغفر لكم جميع ما ارتكبتم في السابق من آثام، وسنزيد المحسنين فوق ذلك فضلا مني. ولكن بني إسرائيل ظلموا أنفسهم فبدلوا الكلام الذي أمروا أن يقولوه «فأنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب خروجهم عما حدده الله لهم.

**بيان المعنى العام:**

**58-59، وإذ قلنا ادخلوا...بما كانوا يفسقون.**

من الوقائع التي حصلت في عهد سيدنا موسى ما جاء في هذه الآية: توجهت إليهم عناية الله فقال لهم: هذه القرية التي أمامكم ادخلوها فقد ملكتكم خيراتها، كلوا من أي مكان منها ما شئتم رزقا طيبا واسعا، ادخلوها من بابها مستحضرين نعمة الله وفضله معبرين عن ذلك بالسجود لله.**(وقولوا حطة)**

فرض المفسرون لبيان مدلول هذه الكلمة فروضا كثيرة، والذي أنا مقتنع به: أن بني إسرائيل قد أمروا بأن يقولوا ما تؤديه هذه الكلمة (حطة) بلغتهم العبرانية، وقد يكون مفهومها ما يدل على الخضوع المناسب للسجود والتوبة إلى الله، لقوله بعد ذلك تغفر لكم خطاياكم، إذ الشأن في الفضل الإلهي أنه يعفو عمن طلب العفو، وخاصة إذا كان كلامه موافقا لما أذن فيه الله، كما رأينا في قصة آدم أن الله تاب عليه لما توجه إليه بالكلمات التي تلقاها منه. ثم فتح لهم باب الأمل ليستحثهم على الاستقامة بأنه سيزيد المحسنين منهم ما يرقى بهم عن منزلة الغفران للذنوب إلى مقامات أرفع غير محدودة. ولكن بني إسرائيل لغلظ أكبادهم، وتعودهم التمرد على الأوامر الإلهية، وإلفهم للعصيان وظلم أنفسهم بالخروج دوما من الطاعة إلى المعصية، غيروا ما أمروا به إلى كلام آخر قريب منه لا يؤدي نفس المعنى. وكان جزاؤهم أن الذين ظلموا فغيروا سلط عليهم عذابا نزل عليهم من السماء لم يستطيعوا منه توقيا ولا ردا. جزاء خروجهم عن الطاعة إلى المعصية. وفي هذه القصة ما ينبه المؤمنين إلى التزام التعبير الذي جاء عن الله في كل المناسبات التي قصر المكلفين على ذلك. كألفاظ القرآن، والدخول للصلاة وما يذكر فيها.

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**استسقى:** طلب الماء الذي يسقي به قومه.

**انفجر:** انفتح بقوة.

**لا تعثوا في الأرض مفسدين:** لا تفسدوا في الأرض فسادا كبيرا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نعمة أخرى ذكر بها القرآن بني إسرائيل وإن كانوا يعرفونها: عطشوا في برية لا ماء فيها فطلب موسى ﷺ أن يسقيهم، فأمره الله أن يضرب حجرا بعصاه التي كانت إحدى معجزاته، فضربه فانفجرت من الحجر الصلد اثنتا عشرة عينا، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل مشرع يروى منه. ثم أعلن سبحانه لهم أنه أحل لهم أن يأكلوا هنيئا مما رزقهم الله، وأن يشربوا من ماء تلك العيون. ونبههم كي يتذكروا فضل الله عليهم ولا ينسوا هذه المنة فيفسدوا في الأرض أشد الفساد.

**بيان المعنى العام:**

**60-وإذ استسقى موسى...مفسدين.**

كان موسى عليه السلام حريصا على سلامة قومه، شأن الرّسل بما جبلهم الله عليه من الرّأفة والرّحمة، ولما كان في الصحراء أدرك قومه العطش، فتوجه متوسلا إلى الله أن يسقيهم، فأمره ربه أن يضرب الحجر بعصاه، التي جمع الله فيها أسرارا كثيرة وكانت مظهرا لكثير من معجزاته. ضرب موسى بعصاه، فتدفقت بقوة من الحجر الصلد اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل، وألهم الله كل سبط من أسباطهم، فعرف المشرع الذي يشرب منه، لطفا بهم حتى لا يتدافعوا وقد أدركهم العطش، وتدفق الماء أمام أنظارهم صافيا شأن ماء العيون التي تنفجر من الصخور. ثم أذن لهم أن يأكلوا وأن يشربوا من الخيرات التي رزقهم الله، ونبههم بنهيه أن يفسدوا في الأرض أشد الفساد.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ

أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

**بيان معانى الألفاظ:**

**لن تصبر:** لن نطيق الاستمرار.

**طعام واحد:** نوع واحد من الأطعمة لا يختلف.

**البقل:** نبات عشبي يتغذى به الإنسان دون علاج.

**القثاء:** نبات قرعي أطول من الخيار.

**الفوم:** الثوم ويطلق أيضا على الحب الذي يخبز.

**الذي هو أدنى:** الذي هو أقل قيمة وأخس.

**مصرا:** كل مدينة هي مصر ويمكن أن يراد منها مصر فرعون.

**ضربت عليهم الذلة:** قضي عليهم بالذل .

**المسكنة:** الفقر.

**باؤوا:** رجعوا وقد لزمهم.

**يكفرون بآيات الله:** يكذبون بها.

**بيان المعنى الاجمالي:**

مما عاناه سيدنا موسى من قومه أنهم قالوا له بكل صفاقة وتبرم من الخيرات التي ينعمون بها. إنهم لن يستطيعوا الاستمرار على المن والسلوى، أكل غير متنوع. ولذا فادع ربك أن يخرج لنا البقول والقثاء والثوم والعدس والبصل. أجابهم سيدنا موسى: عجبا لكم! أتطلبون الأقل قيمة وتبذلون في مقابله الأرفع والأفضل. انزلوا إلى أي مدينة فستجدون فيها هذه الشهوات الدنيئة. فانزلوا إلى أي مدينة من المدن فإنه يتوفر فيها ما تعلقتم به. وكان جزاؤهم أن ألزمهم الله الذل والفقر. وانقلبوا يصحبهم غضب الله عليهم. وفضحهم بما كانوا يقترفون من شناعات. فقد كانوا يكذبون الرّسل ويرفضون قبول معجزاتهم ويقتلون الأنبياء وهم الخيرة من البشر، بدون مبرّر يحق به قتلهم وإنما هو ظلم شنيع. ذلك الغضب والذلة والمسكنة استحقوه بسبب عصيانهم وتجاوزهم للحدود التي حدها الله.

**بيان المعنى العام:**

**61- وإذ قلتم ياموسى...وكانوا يعتدون.**

كان حرص سيدنا موسى ﷺ لتوفير ما يضمن لبني إسرائيل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة حرصا كبيرا، شأن رسل الله الذين عمرت قلوبهم بحب الإنسانية وخاصة بالذين أرسلوا إليهم ؛ وكان يلقى من قومه صنوفا من العناد. قلوبهم قاسية سريعة التبرم كثيرة المطالب. أنقذهم من ظلم فرعون وزبانيته ورفع عنهم الذل، وأراهم من الآيات والمعجزات ما أكرمه الله به. وفي صحراء التيه حماهم من شواظ الحر الشديد، من شمس الصحراء الحارقة، بواسطة الغمام الذي تتكسر عليه الأشعة ويبقى النور المساعد. وفر لهم الله بدعائه الأكل الهني يصلهم دون عناء ولا جهد، ولا يعتريهم الخوف من انقطاعه، وتدفقت المياه صافية موزعة على أسباطهم. وفي كل مرة يذكرهم بأن ما أكرمهم به ربهم هو رجاء أن يشكروا نعمه كما ختمت به الآيات السابقة. وأول مراتب الشكر الشعور بالنعمة وبفضل مسديها والاجتهاد في طاعته. ولكن بني إسرائيل فسدت نفوسهم وهبطت هممهم بالرّغم مما بذله موسى ﷺ من جهد ليرفع مستواهم، ويهيئهم لتحمل الحفاظ على الرّسالة وعلى الكتاب المنزل (التوراة)، فسجل القرآن في هذه الآية وقاحتهم وجزاءهم.

قالوا: يا موسى لقد سئمنا هذه الحياة ولن نستطيع أن نستمر عليها في المستقبل. صرحوا بأن صبرهم، ولا يكون الصبر إلا على مكروه، صبرهم على ما توفر لهم من لحوم الطيور (السلوى) وما يتنزل جديدا كل يوم مع الصباح ما يطبخونه ويعملون منه خبز الملة. صبرهم نفد وطلبوا منه على ما تعودوه من أن الله يستجيب دعاءه، طلبوا منه أن يدعو ربه، وهي وقاحة أخرى إذ نسبوا الله لموسى فقط، ولم يقولوا ربنا. ما هو طلبهم؟ أن يخرج الله لهم من الصحراء البقول والثوم والعدس والبصل.

قال لهم موسى منكرا عليهم: أترغبون أن يتوفر لكم الأقل قيمة والأحط في الموازنة، بدل ما أنتم ممكنون منه مما هو خير وأزكى طعما ومذاقا مع الاطمئنان على توفره؟ إذا كان همكم في تنوع الأكل، وهممكم متعلقة بالأشياء الهابطة نازلة بكم عن عزمات المصلحين، فانزلوا إلى المدينة التي تتوفر فيها هذه الأشياء، وقد روي أن المراد بها أي مدينة أرادوا، وحمله بعضهم على مصر فرعون التي كانوا يقاسون فيها أنواع الذل والمهانة. ولما كانوا قد خرجوا بذلك عن التفضل الذي عودهم به، فلذا كان الظاهر أن يحمل الأمر بدخول مصر على غير الإباحة أو الإذن ولكن على التوبيخ أو التعجيز، لأنهم في الصحراء بعيدين عن الأمصار، وكذلك لا يتصور رجوعهم إلى مصر فرعون التي أنقذوا بالخروج منها. ويسجل القرآن ما ألزمهم به الله إلزاما لا ينفك، من الذلة والمسكنة، وأنهم رجعوا بأشد خيبة

أن غضب الله عليهم. وأن الله ما ظلمهم فقد دأبوا على الفساد والعمل على ما يوجب عقابهم، مما هو ديدنهم وهم مع موسى، وبعد ذلك في الأزمان المتلاحقة، من الكفر بالمعجزات المؤيدة للرسل، وحبك الدسائس الكاذبة لقتل الأنبياء، فهم العصاة وهم المتجاوزون لحدود الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الذين آمنوا:** المؤمنون بمحمد ﷺ.

**الذين هادوا:** اليهود.

**النصارى:** أتباع السيد المسيح عليه السلام.

**الصابين:** جمع صابئ، فرقة دينية تؤمن بيحيى عليه السلام وتنفي النبوة عمن جاء بعده، استوطن معظمهم العراق، كما يوجد عدد منهم بجنوب إيران وفي فلسطين يوحدون الله. تقوم ديانتهم على التوحيد والتعميد والصلاة والصوم والصدقة. سنزيد تفصيل بعض ما يتعلق بهم عند شرحنا للآية 69 من سورة المائدة إن شاء الله.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ينصف الله المؤمنين به فطمأن المؤمنين بسيدنا محمد ﷺ، وكذلك أهل الديانات السابقة من اليهود والنصارى والصابئة، من الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر وبمحمد ﷺ وجمعوا إلى ذلك صالح العمل، طمأنهم بالفوز بثواب الله الذي ينتفي معه الخوف من المستقبل، والحزن على ما مضى.

**بيان المعنى العام:**

**62-إن الذين آمنوا...ولاهم يحزنون.**

طريقة القرآن في إصلاح البشر أنه يفتح لهم أبواب الأمل في رحمة الله فلا يطبق عليهم كابوس اليأس والقنوط، ولا يهملهم منفلتين من الضوابط التي بها صلاح أمرهم، فيقرن البشارة بالنذارة ووصف عذاب النار والمهانة، بوصف نعيم الجنة والرّضوان ويطلقها قاعدة تجعل الإنسان في ميزان الحذر والأمل "إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا". ولما كانت الآية السابقة قد ختمت بأن الله حكم على بني إسرائيل بالذل والمسكنة والغضب الذي يحرمهم من كل أمل في الرّحمة وهو حكم ترْعذ له القلوب ويلقي في النفس أشد ما يكون من الخشية والخوف من سخط الله، عقب ذلك بفتح الأمل في قلوب الصالحين فقال تعالى: "إن الذين آمنوا بمحمد ممن

كانوا في عهده وممن سيلحقون بهم في بعيد الآماد، وكذلك اليهود والنصارى، والصابئين" وهم فرقة كانت تؤمن بالله خالق الكون ويلتزم أصحابها في حياتهم بالقيم الخلقية الجامعة للفضائل الأربع (العفة والشجاعة والحكمة والعدالة) ومنهم من لم يكن على هذه الحال. ولما كانت فرق الصابئة مختلفة، والمنقول عنهم أنهم يتخفّوْنَ ولا يعلنون عن عقائدهم، لذلك اختلف الفقهاء في إجراء أحكام أهل الكتاب عليهم فذكرت هذه الآية أن الذين آمنوا: الذين اتبعوا دين الإسلام وكذلك اليهود والنصارى والصابئين ممن جمع إلى الإيمان ما يقتضيه الإيمان من قبول كل ما جاء به النبي ﷺ، وطبق ما بلغه من تشريع فعمل الصالحات. هؤلاء يحقق الله لهم أجرهم تحقيقا مؤكدا بأن ذلك الأجر هو عنده سبحانه، وكفى بذلك دلالة على تيقنه وثباته. هذه الآية تقرر حقيقة كبرى تنادي في ضمير البشرية أن المسؤولية بما يتبعها من ثواب أو عقاب، هي مسؤولية فردية ترتبط أساسا بصلاح العقيدة، ثم بالوفاء لما تقتضيه وتهدي إليه من العمل الصالح الذي يرضي المعبود. وبهذا يكون بنو إسرائيل لا يشفع لهم نسبهم إلى إسحق ويعقوب وإبراهيم، كما لا يضر من آمن منهم وعمل صالحا بما فرط من أسلافهم من كفر وفساد وجراءة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أخذنا ميثاقكم:** العهد الذي أخذ منهم بعد رفع الطور عليهم.

**الطور:** جبل.

**خذوا ما آتيناكم بقوة:** الزموا ما آتيناكم من التشريع بعزم على التطبيق.

**واذكروا ما فيه:** تدبروا ما تضمنه.

**توليتم:** أعرضتم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يذكر القرآن بني إسرائيل بالعهد الذي أخذه الله من آبائهم على العمل بالشريعة ثم نقضهم للعهد رغم ما شاهدوه من المعجزات وتوجه الله لهم مؤكدا عليهم بالعمل بذلك ثم إنهم رغم ذلك لم يعملوا به، وأنه لولا أن الله تفضل عليهم فعفا عنهم لكانوا من الخاسرين خسرانا أبديا.

### بيان المعنى العام:

### 63-64، وإذ أخذنا ميثاقكم....لكنتم من الخاسرين.

اذكروا يا بني إسرائيل أنا أخذنا الميثاق بالعمل بالوصايا العشر من آبائكم الذين كانوا حاضرين عندما أتى موسى بالشريعة بعد تردد منهم، وما أذعنوا إلا عندما شعروا أن الجبل سينقض عليهم ويسحقهم إن لم يستجيبوا، وقلنا لهم خذوا هذه الشريعة بعزم على تطبيقها فما أنزل عليكم هو السبيل لحصول التقوى. ثم إنه بعد هذا الميثاق الذي أذعنوا إليه وصحب قبولهم له من الآيات ما جعلهم يستسلمون ويعاهدون على العمل به، ثم إنهم بعد كل ذلك نقضوا ما التزموا به. ثم خاطبهم بقوله: ولولا فضل الله عليكم بشمول رحمته لكم وإسعافكم بعفوه لكنتم من الخاسرين خسرانا أبديا.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

### بيان معنى الألفاظ:

اعتدوا: جاوزوا الحق بمخالفة ما أمروا به.

السبت: اليوم التالي ليوم الجمعة.

خاسئين: أذلاء حقيرين.

النكال: العقاب الشديد الرّادع للجاني ولغيره.

ما بين يديها: ما قارنها.

ما خلفها: ما سبقها.

موعظة: ما يرهب به للتحذير من الوقوع في الشر.

### بيان المعنى الإجمالي:

حرم الله على قرية من قرى بني إسرائيل أن يعملوا يوم السبت فاحتالوا بأن نصبوا مصايد للأسماك يوم الجمعة ويجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد. فعذبهم الله بمسخهم قردة إما في خلقتهم وإما في مداركهم، فكان عقابهم تنكيلا بهم لما صدر منهم في الحال ولما سبق، وموعظة للمتقين حتى لا يحتالوا على حدود الله.

### بيان المعنى العام:

### 65-66، ولقد علمتم الذين اعتدوا...موعظة للمتقين.

أمر الله أهل قرية من قرى بني إسرائيل على البحر الأحمر أن يخصصوا يوم السبت لعبادة الله ولا يعملون فيه، وأن يأمن فيها كل الأحياء، فلا يحل لهم الصيد

في البر ولا في البحر. ولا حظوا أن الأسماك تظهر بكثرة في هذا اليوم، فاحتالوا لصيدها يوم السبت بأن نصبوا مصائد لها يوم الجمعة، ثم يجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد. ويأتي الأمر التكويني من الله الذي أمرُهُ: **(إذا قال للشيء كن فيكون)** فمسخهم الله قردة. فهِمَ كثير من المفسرين أن الله حول خلقتهم إلى خلقة القردة. ويرى آخرون أن الله سلبهم قوة التفكير التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، جزاء من جنس العمل، إذ هم بمكرهم صرفوا ذكاءهم للاحتيال على ما يريد الله تحقيقه منهم ليتمكنوا من تحصيل ما يرغبون فيه. وأرجح هذا التخريج استنادا إلى نظيره في قوله تعالى في الآية السابقة من سورة البقرة: **(يخادعون الله وهو خادعهم)** فنكّل الله بهم جزاء ما قاموا به. وكانوا بذلك عبرة للمتقين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل هذه القرية.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**هزوا:** السخرية مع الاستخفاف.

**لا فارض ولا بكر:** ليست كبيرة سقطت أسنانها، ولا هي صغيرة.

**عوان:** متوسطة بين الكبر والصغر.

**صفراء فاقع لونها:** صفراء شديدة الصفرة.

**تسر الناظرين:** تدخل السرور على من ينظر إليها شأن النظر إلى الجميل من كل شيء.

**تشابه البقر علينا:** وجدنا ما وصفت لنا في أكثر من بقرة ولم تتبين لنا البقرة المقصودة التي كلفنا بذبحها.

**لا ذلول:** لم تستخدم لا في حرث الأرض ولا في سقيها.

**مسلمة لا شية فيها:** سليمة من العيوب نقية لا علامة فيها.

## بيان المعنى الإجمالي:

يواصل البيان القرآني عرض قصص موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، تضمنت هذه القصة: أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة. والأوامر الإلهية تقتضي أن يسرع المأمور بالطاعة بتنفيذ ما طلب منه إظهارا للعبودية له سبحانه. ولكن بني إسرائيل كشأنهم في الدوران والمماطلة والبحث عما يمكنهم من الانفلات من المطالب، واجهوا نبيهم بوقاحة فقالوا له: أتهزأ بنا وتسخر منا؟ فأجابهم عليه السلام واعظا، إن الاستهزاء بالبشر والإخبار عن الله بما لم يأمر به لا يليق بالأنبياء. فقالوا له: اطلب من ربك إذن أن يبين لنا ما هي صفتها ؟ فراجع ربه فأعلمه أنها بقرة وسط لاهي متقدمة في السن حتى سقطت أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل، وعوض أن يستجيبوا عاودوا السؤال: اطلب من ربك أن يبين لنا ما لونها؟ فأجابهم: إنها بقرة صفراء خالصة الصفرة لونها عجيب يسر الناظر إليه. ولم يسرعوا بالاستجابة فقالوا: اطلب من ربك أن يبين لنا بيانا أتم لصفاتها ؟ فأجابهم إنها بقرة كريمة عند مالكيها، لم تذلل للخدمة فلم تحرث الأرض ولم تسق الحرث، صفاؤها واضح لا عيب فيها، ولا علامة خاصة على ظاهرها. عندها توقفوا عن الأسئلة وقالوا: الآن وضح ما طلب منا. فبحثوا عن البقرة الجامعة للصفات المذكورة وذبحوها. وحرمهم الله التيسير في القيام بالمطلوب لتعنتهم وتباطؤهم.

## بيان المعنى العام:

### 67-71، وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم...وما كادوا يفعلون.

هذه قصة مما لاقاه سيدنا موسى عليه السلام من تعنت بني إسرائيل وسوء أدبهم، تشمل القصة المشاهد التالية:

أولا: أوحى الله إلى سيدنا موسى أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة. والأوامر الإلهية لا خيار للمأمورين في الاستجابة لما أمروا به. ولكن بني إسرائيل عوض أن يبادروا إلى الطاعة فيذبحوا بقرة من البقر ويظهرون بذلك الطاعة، قابلوا الأمر بسوء الأدب، واتهام موسى عليه السلام أنه يسخر منهم ويستهزئ بهم. **(قالوا أتتخذنا هزؤا)** ويتبرأ موسى من هذه التهمة ويستعيذ بالله منها، فإن السخرية بالبشر من فعل الجاهلين بالعواقب، الذين لا يقدرون أنهم مسؤولون. ومن أعظم المنكر أن يعمد الأنبياء عليهم السلام إلى الاستهزاء أو الإخبار عن الله بما لم يبلغهم بواسطة الوحي.

**ثانيا:** وقد قُرّعوا لسوء أدبهم مع نبيهم رجعوا فطلبوا أن يبين لهم ما هي صفات هذه البقرة؟ يتلقى موسى الوحي المبين: فيبين لهم أن عليهم أن يذبحوا بقرة لم تهرم فتفقد أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل قواها، بل هي وسط نشيطة وشأن من يريد التعرف على الدابة أن يبحث أولا عما يدل على سنها. وأكد عليهم أن يسارعوا بالاستجابة.

**ثالثا:** شأن بني إسرائيل أنهم يتلكؤون في أداء الحق، ويماطلون ما أمكنهم أن يماطلوا، ويخفون طبيعتهم هذه بالظهور بمظهر المطيع الرّاغب في أداء ما هو مطالب به، فبرزوا في هذا المشهد بوقاحتهم يسألون موسى أن يدعو ربه، ومن سوء أدبهم لم يقولوا ربنا كأنهم يتبرؤون من العبودية لجلاله، فسألوا أن يبين لهم ما هو لونها ؟ ويضيق عليهم بأن البقرة المأمور بذبحها: بقرة صفراء واضحة الصفرة لا يخالط لونها ما يكسر نقاءه، على خلاف عادة الصفرة في البقر، إذ يخالط صفرتها حمرة، وهي لذلك تسر من ينظر إليها وتدخل على نفسه الرّاحة.

**رابعا:** لم يسرعوا بالاستجابة فسألوا وبنفس الطريقة الفجة، ادع ربك أن يبين لنا شيئا من صفاتها معتذرين بأن البقر الجامع للأوصاف السابقة لم تتميز منها واحدة عن بقية جنس البقر. أتى الوحي لسيدنا موسى: إنها بقرة كريمة عند أهلها لم يذللوها لا لحرث الأرض ولا للسقي، بل بقيت على نضارتها وجمالها، وهي سليمة من العيوب، ولا يظهر عليها علامة خاصة.

**خامسا:** بعد هذا البيان المعرف بالبقرة تبعا لمواصلة الأسئلة منهم. أعلنوا بأن موسى عليه السلام قد بلغ في البيان كماله وبه ظهر الحق الذي طلب منهم. فوجدوا البقرة المعينة بتلك الأوصاف وذبحوها. وكان تنفيذهم للأمر شاقا عليهم، فكادوا يعجزون عن تحقيقه. لأنهم في أول الأمر لو أسرعوا لكفاهم ذبح أي بقرة، وروي بسند غير قوي: أن النبي ﷺ قال (لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم).

### الموعظة من هذه القصة:

على المكلف أن يسارع بالاستجابة بتنفيذ ما أمره به ربه، وعلى العالم أن يبحث عما يؤثر في الحكم ليكون موجها لمعرفة المقصود من الحكم ليبني عليه غيره، أما الأوصاف غير المؤثرة فالعناية بها والتوقف عندها لا يفيد توسعا في الاستنباط، ولا عمقا في الفهم والتعليل. فكون البقرة مثلا صفراء أو أي لون كانت، وكونها صغيرة أو كبيرة، وكونها عاملة أو غير عاملة، كل ذلك مما لا يؤثر في الطاعة لما أمر به الله.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**نفسا:** شخص، إنسان.

**ادارأتم:** تدافعتم، كل واحد يتنصل من جريمة القتل ويرمي بها غيره.

**مخرج ما تكتمون:** مظهر ما تخفونه من الحقيقة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

وجد قتيل -في بني إسرائيل- قام أولياؤه يطالبون بدمه وأنكر المتهمون. وكان ذلك في زمن ذبحهم للبقرة. فأوحى الله إلى موسى أن يضرب القتيل ببعض أجزاء البقرة، فضربوه بها فحيي وأخبر بقاتله. إن إحياء هذا القتيل دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى، ولقد أظهر لكم يا بني إسرائيل مظاهر قدرته، وتحقق ما تحقق أمام أبصاركم لعلكم تحركون عقولكم وتستفيدون من التأمل في دلالات النبوة الصادقة.

**بيان المعنى العام:**

**72-73، وإذ قتلتم نفسا... لعلكم تعقلون.**

اتصل بقصة ذبح البقرة جريمة قتل. ذلك أن يهوديا وجد مقتولا في محلة حي من اليهود، فاتهمهم بنو عمه بأنهم قتلوه. وتبرأ المتهمون من الجريمة ورموا بها بني العم لأن والد القتيل ثري والقتيل وحيد والديه وماله سيؤول إلى بني عمه . فوجود القتيل في محلة المتهمين ترجح براءة بني العم. وكون بني العم هم المستفيدين من الجريمة ليذهبوا بالمال يرجح براءة المتهمين الذين لا يستفيدون من الجريمة شيئا. فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يضربوا الميت ببعض من البقرة، فضربوه بذلك البعض فحييّ ، وأخبر أن قاتليه هم بنو عمه. ولفت الله نظر بني إسرائيل ليتأملوا فيما تم، ليتبينوا أولا: يسر إحياء الله للموتى وبعثهم يوم القيامة ليجزوا عما قدموه في حياتهم. وثانيا: قدرة الله على إظهار آيات صدق رسوله موسى. فإنهم كما تقدم شكّوا في صدق نبيهم لما أمرهم بذبح البقرة. وكل ذلك مما يحتم على المشاهدين لما تم أمام أبصارهم أن يحركوا عقولهم، ويكفّوا عن اللجاج.

وتشير الآية: أن إحياء الميت بضربه ببعض من البقرة غير مرتبط بكون البقرة كبيرة أو صغيرة صفراء أو سوداء، مكرّمة أو مبتذلة. وهذا التأمل يهدي إلى الإسراع بالطاعة، وقصر السؤال والبحث عما يمكن أن يكون علة في الحكم أو

مظهرا لحكمة فيه. لأن ما عدا ذلك مضيعة للوقت وتعويد للعقل على الاهتمام بالتوافه.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**قست:** القسوة ضد اللين. والجسم القاسي يصعب التأثير فيه، وكذلك القلب القاسي لا يقبل الهداية، ولا يتحول عن الوضع الذي هو عليه.

**خشية الله:** الخوف منه.

**ما الله بغافل:** الله عالم لا يغيب عن علمه شيء.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أبرزت هذه الآية قسوة قلوب بني إسرائيل رغم الآيات والألطاف التي تفضل الله بها عليهم، فقلوبهم صلبة جافة كقسوة الحجر الذي لا ينفذ إلى باطنه نور ولا ماء، بل إن قلوبهم أشد صلابة من الحجارة، إذ أن بعض الحجر تتفجر منه الأنهار الجارية، وبعضها ينشق فيخرج منه الماء، وبعضها إذا توجه إليه الأمر الإلهي تحرك وتحول ونزل إلى المكان الذي أمره الله أن يستقر فيه. وهدّد بني إسرائيل بأن الله مطلع الاطلاع الكامل على ما تعمر به قلوبهم وتنطق به ألسنتهم وما يحيكونه من مكر.

**بيان المعنى العام:**

**74-ثم قست قلوبكم...ما الله بغافل عما تعملون.**

توجه الخطاب لبني إسرائيل مؤنبا لهم أنهم بعد ما أراهم الله من آياته وتلطف بهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بعد كل ذلك تفاقم عنادهم مما تبعه قسوة قلوبهم قسوة شديدة، فهي صلبة كصلابة الحجارة التي لا ينفذ إلى باطنها شعاع من النور، ولا لين من الرّواء، وأكد الله وهو العليم بتلكم القلوب المتحجرة أنها أشد قسوة من الحجارة، إذ أن بعض الحجارة يتفجر منه الأنهار فتجري دافقة بالمياه الغزيرة، وبعضها يتشقق فيخرج الماء من ثناياه، ومن الحجارة ما يتوجه إليه الأمر التكويني بالتحول من مكانه فيخضع ويطيع ويستقر في المكان الذي حدد له. لقد قست قلوب بني إسرائيل فالمتتبع لتمردهم وتماديهم على معصية الله، إن وضعهم وضع من يظن أن الله غير

مطلع عليه يحصي كل ما صنع وما دلس به ومكر. فختمت الآية بإعلان أن الله الذي أمهلهم لا يخفى عنه شيء.

• أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أفتطمعون:** الطمع ترقب حصول شيء محبوب يرادف الرّجاء، وضده اليأس.

**يحرّفونه:** يخرجون به عن المراد منه بالتبديل أو التأويل الهادم للمقصود من الكلام.

**بيان المعنى الاجمالي:**

لا تترقبوا إيمان يهود فقد طبعوا على مصادمة الحق، إذ كان فريق منهم يبلغ أسماعهم ما أوحى الله به، ثم يعملون على تحريفه عن قصد.

**بيان المعنى العام:**

**75-أفتطمعون أن يؤمنوا لكم...وهم يعلمون.**

إن ما قصه الله بلسان الوحي القرآني يجعل انتظار إيمان بني إسرائيل أمرا مستبعدا لا يقع. ذلك أن تربيتهم التي نشأوا عليها، طبعتهم على المراوغة، فقد كان فريق من علمائهم يسمعون كلام الله المنزل على موسى أو المنزل على محمد، وهم يعرفون جيدا ما يقصد إليه، وما يرمي إليه من خير، ومع ذلك يكدّون عقولهم ليحرفوه فيخرجوه عن ظاهره، ويغيروا معناه والمراد منه.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**إذا خلا بعضهم إلى بعض:** كانوا وحدهم لا يسمع ما ينطقون به إلا من حضر معهم.

**فتح الله عليكم:** بما بينه لكم في التوراة.

**ليحاجوكم به:** ليكون حجة للمسلمين عليكم يوم القيامة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

بعض اليهود رفضوا الدخول في الإسلام، وبعضهم أظهروا نفاقا أنهم آمنوا برسول الله وما أنزل عليه، فلام الكافرون منهم المنافقين في خلواتهم لأنهم في ظنهم قد سربوا معلومات توراتية تكون حجة عليهم يوم القيامة، ورموهم بالبله وضعف العقل. والله عليم لا يخفى عليه شيء.

**بيان المعنى العام:**

**76-77، وإذا لقوا الذين آمنوا...وما يعلنون.**

تفضح الآية سلوك المنافقين من اليهود الذين إذا كانوا في المجامع الإسلامية كانوا يظهرون أنهم آمنوا وتركوا اليهودية وراءهم. فهذا وجههم مع المسلمين وجه كاذب، والمنافق لا يكون إلا كذابا جبانا. ووضع هؤلاء المنافقين مع اليهود عندما لا يحضر أحد غير يهودي، وضعهم أنهم يُؤنّبون من رؤساء يهود فيقرعونهم لأنهم أخبروا المسلمين ببعض الحقائق الواردة في التوراة، ظنا منهم أن تلكم المعلومات اختصوا بها فاطلاع المسلمين عليها لا بد أن تكون من فلتات ألسنة المنافقين الذين أظهروا الإسلام. ويؤدبونهم بأنهم بإخبار المسلمين عن الحقائق المثبتة في التوراة سيجده المسلمون حجة عليهم يوم القيامة لأنهم ما كانوا ليعلموا ذلك، لو أن المنافقين الذين يخالطونهم تحفظوا وراقبوا ما ينطقون به. ويبالغ رؤساء يهود في تقريع المنافقين، بأن ما فعلوه يدل على غباوتهم وضعف عقولهم، لأن المسلمين سيحتّجون على اليهود يوم القيامة بما علموه منهم.

كل ذلك كان من فساد عقيدة اليهود بظنهم أن الله لا يعلم حقائق الأمور وتخفى عليه دخائل نفوسهم وما تحدثهم به نفوسهم الخبيثة. فعلم الله علم شامل لا ينتظر إخبار اليهود حتى يعلم الحقيقة.

**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾**

**بيان معنى الألفاظ:**

**الأمي:** من لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

**الكتاب:** التوراة.

**الأماني:** جمع أمنية وأولى ما تحمل عليه: أنهم لا يعلمون مقاصد التوراة ومفاهيمها الحقيقية. وما ترمي إليه، بل كل ما عندهم خليط غير محقق شأن ما يتمناه الإنسان مما لم يحصل بعد.

**الويل:** لفظ يدل على الشر والهلاك.

### بيان المعنى الإجمالي:

من اليهود طائفة تزيت بزي العارفين بالتوراة، والحال أنهم جهلة لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون كتابهم وإنما يحملون ظنونا لا أساس لها من الصحة. ومنهم من يدعي العلم ولكن لا أصل عنده يعتمده فيما ينشئ، بل هو يوثق ظنونه وأوهامه ثم يفتري على الله الكذب ويقول: إن ما كتبه هو كلام الله. وتوعد الله هؤلاء بسبب ما كتبوا، وبسبب ما ربحوه من كذبهم على الله من الرئاسة وحطام الدنيا.

### بيان المعنى العام:

### 78-79: ومنهم أميون...وويل لهم مما يكسبون.

فضح الله اليهود وكشف حقيقتهم التي ستروها بمظاهر زائفة كاذبة. فبعضهم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، جاهل ليس له حظ من العلم. وهم على جهلهم هذا يخيلون للناس أنهم على حظ من المعرفة، وعلى ميراث من الكتاب. ويكشف الله حقيقتهم أنهم لا يعرفون من الحق شيئا وإنما عمرت أدمغتهم مجموعة من الأماني، كإعلانهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله لا يعذبهم، فصرح القرآن بأن أمانيهم هذه بنيت على ظنون كاذبة وأوهام خادعة. ومنهم من ارتفع عن مستوى الأمية فهو يقرأ ويكتب. ولكن ما ذا يكتب وماذا يشيع في الناس؟ إنهم يسودون كتابات من نسج خيالهم، ويبلغ بهم الكفر أنهم ينسبون ما كتبوه بأيديهم متيقنين أنه نتاج أوهامهم، ينسبونه إلى الله، فيجمعون إلى ضلالهم، العمل على إضلال الآخرين. فحق عليهم الويل والعذاب بسبب ما كتبوه من أباطيل وبسبب الدافع لهم على ذلك، من حب الرئاسة والظهور بمظهر الحاملين لوحي الله فيكتسبون به مقاما اجتماعيا وما يتبعه من حطام الدنيا.

وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**مس النار:** احتراقهم بها لوصول لهبها إليهم.

**أياما معدودة:** أياما قليلة تحسب، شأن الشيء القليل.

**أتخذتم عند الله عهدا:** هل عندكم وعد مؤكد من الله ؟

### بيان المعنى الإجمالي

مما أشاعه اليهود أن الله لا يعذبهم إلا أياما قليلة، فرد عليهم القرآن بأنهم كاذبون في دعواهم لأن الله لم يعدهم بذلك، ووبخهم بنسبتهم أمرا إلى الله بدون علم. وردّ عليهم بأن من سعى لارتكاب السيئات حتى أحاطت به خطاياه من كل جانب وأطبقت عليه، فإن هؤلاء هم الذين يصحبهم عذاب النار. هم على خلاف وضع المؤمنين الذين عملوا صالحا يُرضي الله، الذين سيخلدون في نعيم الجنة.

### بيان المعنى العام:

### 80 - وقالوا لن تمسنا النار...ما لا تعلمون.

من افتراءات اليهود وضلالاتهم التي يشيعونها ويروجون لها، أن الله لا يؤاخذهم بما يقترفونه من آثام وما يفسدون به في الأرض، وما يعتدون به على أموال الناس وأعراضهم، وذلك لأن الله في دعواهم، كتب أن يعذبهم فقط بمقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو يوما عن كل ألف سنة من عمر الكون. وهذا افتراء وقح على سنة الله ونكران لعدله الكامل الذي يليق بجلاله. فرد الله عليهم وأسقط دعواهم ونبّه المؤمنين إلى كذبهم، لأن ما يدعونه لا يستند لسند يثبت لهم ما يدعون. إن هذا لا يتحقق إلا إذا وعدهم الله بذلك، وهم كاذبون فالله لم يعدهم، والله لا يخلف وعده. والله سبحانه بسط ميزان العدل، تجري أحكامه على البشر جميعا، وهو اللائق بجلاله وكماله، فدعوى التمييز بين البشر وتفضيل جنس على آخر وقبيلة على غيرها هو قول على الله بغير علم.

### 81 - بلى من كسب...خالدون.

ويصرح القرآن بما يقتضيه ميزان العدل الإلهي، فينفي ادعاء يهود، وأن من سعى إلى الخطيئة بتصيدها راضيا بها محبا لها حتى تقوقع في داخلها، وأحاط به الشر من كل جانب، وليس له منفذ لنور ينفذ منه الخير والاستقامة إلى روحه، فهؤلاء هم الذين كتب الله عليهم أنهم ملازمون لعذاب جهنم لا يجدون عنها حولا.

### 82 -والذين آمنوا وعملوا الصالحات.. خالدون.

ومما يؤكد ذلك أن الله كتب لمن خالف منهج الكفر اليهودي، فآمن بالله وأيد إيمانه بصالح العمل، أن الله كتب له الجنة خالدا فيها لا يخرج منها فضلا من الله ونعمة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الميثاق:** الوعد المؤكد.

**توليتم:** نقضتم ما التزمتم به.

**معرضون:** تاركون قصدا.

### بيان المعنى الإجمالي:

من الوقائع التي سجلها القرآن: أن الله أخذ على بني إسرائيل الوعد الموثق بأن يفردوه بالعبادة، وأن يكرموا والديهم، ومن تجمعهم بهم صلة القرابة، ومن يعاملونهم من المستضعفين كاليتامى والمساكين، وأن يتحفظوا فيما يجري على ألسنتهم فلا يجهرون بالسوء من القول، وأن يقيموا الصلاة بأدائها على أفضل الوجوه، وأن يؤدوا ما أوجب الله عليهم من مساعدة بأموالهم للمحاويج، وفي أوجه البر، وبعد أن وَعَدُوا بالالتزام بكل هذه الأمور، وأن يُوصوا بها أخلافهم، نكث العهدَ فريق من الماضين وكثير ممن جاء بعدهم.

### بيان المعنى العام:

#### 83- وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل...وأنتم معرضون.

أبرز القرآن الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل والعهد الحقيقي الذي التزموا بتطبيقه هم وذريتهم من بعدهم، يتضمن هذا العهد حسبما صرحت به هذه الآية: العقيدة بأن يفردوا الله بالعبادة ولا يشركوا به شيئا. أن يحسنوا معاشرة والديهم، وكذلك ذوي القربى ممن تجمعهم بهم آصرة النسب أو الصهر، وأن يرعوا حقوق اليتامى ويتلطفوا بهم وكذلك بالمساكين أهل الحاجة، وأن يراقبوا ألسنتهم ويبتعدوا عن الإذاية بالسوء من القول، فيحسنوا الخطاب، وأن يجددوا تذكرهم وصلتهم بالله فتتيقظ أرواحهم بالصلاة وتصفو من الشح بالبذل من أموالهم بواسطة الزكاة حسبما كانوا مأمورين به في شريعتهم. هذا هو الميثاق الذي أخذه الله عليهم، والذي يضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة. أعرض عنه معظمهم ولم يحافظ عليه إلا قلة منهم ،وهم في عهد الرّسالة، الذين آمنوا بسيدنا محمد ﷺ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**السفك:** أصل معنى السفك الصب والمراد به القتل.

**تظاهرون عليهم:** تتعاونون ضدهم، بغير الحق.

**الأسارى:** جمع أسير وهو الموثوق في الحرب من الأعداء.

**تفادوهم:** تبذلون المال لإخراجهم من الأسر.

**الخزي:** الذل.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يذكر الله بني إسرائيل بما أخذه الله عليهم من مواثيق وعهود ونكرهم في هذه الآية بالعهود الآتية: أن لا يقتل اليهودي أخاه، أن لا يؤذيه بالاستحواذ على منزله، أو المكر به ليخرجه منه. ويقيم عليهم الحجة بأنهم يقرون بذلك ويشهدون به فهم لم ينسوا هذا الميثاق. ولكن سلوكهم على خلاف ما يقرون به فقد تنازعوا واقتتلوا قسطا بعضهم على بعض بعد موسى ﷺ وفي المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها. وشنع عليهم موبخا لهم على انحرافهم بتناقضهم. إذ هم بعد القتل والأسر يبذلون الأموال لفداء الأسرى باعتبار أن التوراة تفرض عليهم ذلك. فشاركوا في قتل بعضهم وتمسكوا بالإسهام في بذل الفدية لإطلاق الأسارى، فجازاهم الله عن سوء أفعالهم ذلاً في الدنيا وعذابا في الآخرة. وقد خسروا لأنهم باعوا نعيم الآخرة الباقية بحظوظ دنيوية فانية.

**بيان المعنى العام:**

**84-85: وإذ أخذنا ميثاقكم...تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.**

يُذكر الله بني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهود ومواثيق لم يحترموها، ومضوا في نقضها مع أنها تحفظ لهم كيانهم وتحميهم من الضعف والتلاشي وتجلب رضا الله والفوز في الدارين. أخذ عليهم عهدا أن لا يقتل اليهودي أخاه، وأن يحمي حياته ولا يعين عليه عدوا، معتبرا أن من يستهين بحياة أخيه فكأنما استهان بحياته. ولذا قال تعالى: لا تسفكون دماءكم. وقد تكرر في التوراة هذا العهد. كما أخذ عليهم المواثيق أن يحموا إخوانهم ولا يخرجوهم من ديارهم بالمكر أو بالتعاون مع الأعداء. فالعهدان حاضران من زمن موسى ﷺ ماضيان مع الزمن يقرُّ بهما بنو إسرائيل خلفا عن سلف حتى في عهد الرّسالة المحمدية ويشهدون بهما. ومع ذلك فقد مضوا في عهود سابقة، كما ذكره القرآن وكما تذكره أسفار التوراة التاريخية، على محاربة بعضهم بعضا، واستمر ذلك في حرب قبائل المدينة المنورة قبل الهجرة فتحالفت قبيلتا قريظة والنضير اليهوديتان مع الأوس؛ وانحازت قبيلة بني قينقاع اليهودية مع الخزرج. وكان كل حليف يقاتل مع حليفه من كان يهوديا أو غير يهودي. ويستولي الفريق المنتصر على مكاسب المغلوب، فعطلوا ما أخذ عليهم من العهود التي كانت حاضرة في أذهانهم يشهدون بأنهم ملزمون بها. وكان ذلك في حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات. فهم قد أهملوا ما أخذ عليهم من عهود ومواثيق، ومع ذلك فإنهم لما انتهت الحرب جمعوا الأموال لفداء الأسرى، تمسكا بما تأمرهم به التوراة. فوبخهم القرآن على تناقضهم والعمل ببعض ما جاء في التوراة ورفض البعض الآخر، وأعلن توبيخهم على صنيعهم الذي دل على غباء في التصرف وقلة فقه، ذلك أنهم تآمروا على قتل بعضهم بعضا واستباحة دمائهم وديارهم، ثم هم يدفعون الأموال لإطلاق أسراهم عملا بالتوراة، فهلاّ عملوا بها وكفوا أيدهم عن دماء إخوانهم وديارهم.

وعقب القرآن على موقف يهود من المواثيق التي أخذت عليهم بإبراز جزاء سوء أفعالهم في الدنيا والآخرة. إذ سلط عليهم المذلة والهوان في الدنيا، والنكال في الآخرة بأشد العذاب الذي لا يوصف ولا يبلغ الخيال تحديد مداه. ويهددهم بأن مضيهم على العمل ببعض ما نزل عليهم ومخالفة البعض الآخر، وتحكيم هواهم فيما أنزل عليهم، يهدّدهم بأن الله مطلع على حقائق عبثهم لا تخفى عليه خافية.

### 86-أولئك الذين اشتروا...ولا هم ينصرون.

ويدخلون في قسم المغضوب عليهم الذين باعوا آخرتهم وما أعده الله فيها من نعيم مقيم وكرامة ورضوان، بثمن بخس من الحظوظ العاجلة في الدنيا، فخسروا الدنيا

والآخرة، فلا أمل لهم في تخفيف العذاب عليهم يوم القيامة ولا أمل لهم في نصر الله.

**الحكمة:**

تسجيل القرآن على بني إسرائيل نقضهم للعهود وتعاونهم على التنكيل بإخوانهم، وجزاؤهم على ذلك بخسارة الدارين ؛ فيه تنبيه للمسلمين أن ينظروا في سنن الله في الكون وأن يحذروا أن يكون سلوكهم كسلوك يهود فيحل بهم ما حل باليهود من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة. وفيه تحريض على الوحدة وترك أسباب النزاع.

**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾**

**بيان معنى الألفاظ:**

**قفينا:** أرسلنا رسلا بعد موته.

**عيسى:** رسول الله لبني إسرائيل ولد سنة 620. قبل الهجرة.

**البينات:** المعجزات البينة الواضحة.

**أيدناه:** قويناه.

**روح القدس:** الرّوح المطهر يحتمل أن يكون الرّوح الذي نفخ في عيسى وهو في بطن أمه، ويصح أن يكون معناه الملك جبريل عليه السلام .

**استكبرتم:** ظننتم أنفسكم أرفع من قبول ما جاء به المرسلون.

**مالا تهوى أنفسكم:** ما ترفضونه لأنه خلاف ما يميل إليه هواكم من التحلل من ضوابط الشريعة وحب الملذات الهابطة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

استحضر القرآن من جديد بعثة موسى عليه السلام لبني إسرائيل مؤيدا بالتوراة، ليواصل فضله عليهم بإرسال الرّسل من بعده وآخرهم عيسى قبل البعثة المحمدية. ونوه بعيسى بما أيده به من المعجزات الواضحة التي أظهرها لهم، تبعا لما قواه به من صفاء روحه وطهارتها أو بجبريل. ثم يوبخ بني إسرائيل أن العناد استقر في تركيبهم النفسي. فكلما جاءهم رسول من عند الله قابلوا هدايته بالرّفض بين التكذيب أو الاعتداء بقتل الرّسول المبعوث لإصلاحهم.

### بيان المعنى العام:

### 87- ولقد آتينا موسى...وفريقا تقتلون.

في هذه الآية توبيخ لبني إسرائيل وإبراز لانحرافهم ورفضهم للحق، فهم يذكرون أنه لما جاءهم موسى بكتاب من عند الله يأخذ بعقولهم وأرواحهم إلى مستوى رفيع من الكمالات، قابلوه في حياته ﷺ بالعصيان والتحايل للتنصل من التكليف ونظام شريعة الله، وبمطالب مادية هابطة. وتقررُهم الآية على أن هذا كان دينهم مع أنبياء الله الذين توالوا في بني إسرائيل يجددون لهم أمر دينهم، ويحكمون صلتهم بالزمان الذي يعيشون فيه، وذلك من أكبر النعم إذ لم يهملهم الله لأنفسهم يتضاعف تخبطهم مع الزمن. ولكن عوض أن يشكروا نعمة ربهم عليهم واصلوا تعنتهم وأظهروا الترفع عن الانصياع لهدايتهم.

وكان آخر رسول بعثه الله إليهم عيسى ابن مريم عليه السلام. وكانت معجزاته ظاهرة بينة متنوعة تتحدى المكابرين والمعاندين تحديا لا يستطيعون مجاراته ولا إنكار تلكم المعجزات لما اتصفت به من الوضوح والظهور. إنها معجزات أيده الله بها، وهيأه لها بما نفخ في روحه من طهر وإشراق يسرت له إبراز مؤيداته تلك. كما أنه تأيد بالملك جبريل، وهو روح: موجود غير مادي لا تدركه الحواس التي من طبعها أن لا تتبين إلا ما كان مجسما، وروح عيسى وجبريل ﷺ كلاهما لا صلة له بالمادة، كلاهما قد بلغ من الصفاء والنقاء الحد الأعلى فتنزه عن النقص الملازم للمادة. ولقد كان موقف بني إسرائيل من عيسى وممن تقدمه من الرّسل الذين ظهرت المعجزات على أيديهم مصدقة لهم، كان موقفهم منهم الرّفض لاعتقادهم أنهم أعظم من أن يتبعوا المرسلين، ووصل بهم هذا الاستعلاء ،إلى تكذيبهم أو إلى الاعتداء على حياتهم بالقتل للتخلص منهم.

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**غلف:** جمع أغلف، وهو ما وضع عليه حاجب (غلاف) يمنعه من وصول ما في الخارج إليه.

**لعنهم الله:** طردهم من رحمته وحرمهم فضل ألطافه.

### بيان المعنى الإجمالي

واجه اليهود النبي ﷺ لما دعاهم لما يحييهم أن على قلوبهم غلافا، فلا ينفذ إليها شيء من كلامه ولا من دعوته. فرد الله عليهم: كذبوا بل إن سبب إعراضهم هو

عنادهم، وجازاهم على فسادهم: أن لعنهم فطردهم من رحمته. ولذا فإن الإيمان لا يكاد يصدر منهم، ولا يؤمن منهم إلا نفر قليل.

**بيان المعنى العام:**

**88-وقالوا قلوبنا غلف...فقليلا ما يؤمنون.**

سجلت هذه الآية ما كان يواجه به يهود الدعوة المحمدية ، تلكم الدعوة التي قامت على تحريك العقول وفتح القلوب للتأمل في مضامينها، المستجيبة للفطرة ولما يقتضيه العقل وينشرح له الضمير، واجهوا رسول الله ﷺ وسلم بأن قلوبهم مغلفة بغلاف، فلا تنفذ معه أي كلمة من كلماته ولا يحرك فيهم ساكنا، فسواء أتوجه إليهم بالخطاب أم لم يتوجه، وسواء أتلا عليهم ما نزل عليه أم لم يتله فقلوبهم عليها غلاف سميك . ورد الله عليهم بأنهم كذبوا في قولهم: إن على قلوبهم غلافا به لم ينفذ نور الإسلام إلى قلوبهم، رد عليهم بأن الله لعنهم جزاء تمردهم على رسل الله بدءا بموسى ووصولا إلى محمد ﷺ، وطردهم من رحمته وحرمهم من ألطافه فطبع على تلكم القلوب الزائغة، وهو الحجاب الذي به لم تلن قلوبهم للإسلام، ولذا فإنه لا يؤمن منهم إلا عدد قليل.

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**من عند الله:** مصدر القرآن هو الله.

**مصدقا لما معهم:** محقق لما ورد في التوراة من الحقائق الثابتة في العقيدة والأخلاق والمغيبات التي لا سبيل إلى إدراكها إلا بالوحي.

**يستفتحون:** يطلبون الفتح أي النصر.

**البغي:** الظلم.

**فباؤوا:** رجعوا بغضب مضاعف.

**بيان المعنى الإجمالي:**

كان اليهود كلما قاتلوا المشركين يدْعُونَ الله أن ينصرهم بالنبي الموعود المؤيد بوحيه. ولكنهم عندما جاءهم كتاب من الله على لسان رسوله الصادق تنكروا لما صدر عنهم قبل ذلك وكفروا به، فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله. وما كان رفضهم للإيمان إلا ناتجا عن حسدهم لمن اختاره الله للرسالة من غير بني إسرائيل.

**بيان المعنى العام:**

**89-90، ولما جاءهم كتاب...عذاب مهين.**

هذا نص جامع لما ورد في الآيات السابقة موضح لمضامينها. ذلك أن اليهود كلما دخلوا في حرب مع المشركين في المدينة المنورة هددوا أعداءهم بأن الله سيبعث نبيا سينتصر لهم ويتغلبون بتأييده على الكافرين. فهم حسب ما تلقوه من وعود الأنبياء وما ورد في التوراة يعلمون أن نبيا سيبعث ينتصر للمظلومين ويظهر الحق، وأنه مؤيد بكتاب من الله. ما هو موقف اليهود بعد ذلك مع رسول الله ﷺ؟

يسجل القرآن أنهم عرفوا من الكتاب (القرآن) أنه يصدق ما يؤمنون به مما جاءت به التوراة من التوحيد والعقيدة الحق والغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا بالوحي، وكذلك القيم الخلقية السامية التي يرتفع بها مستوى الإنسان، وأخبار الماضين مما لا قبل للنبي ﷺ بمعرفته إلا من طريق الوحي، فلما قامت هذه الأدلة مجتمعة على صدقه كفروا به حسدًا أن تخرج النبوة من بني إسرائيل. فاستحقوا بهذا الكفر أن تتسلط عليهم اللعنة والطرد من رحمة الله وأن يحرمهم ألطافه وفضله، وأن يذيقهم عذابا يهينهم ويكسر كبرياءهم. وكانت حصيلتهم أنهم رجعوا بغضب مضاعف. والغضب من الله معناه أن الله لا يمنحهم رحمته ولا تأييده. لقد اعترضوا على الإرادة الإلهية وعلى عدل الله وحكمته فلم يقبلوا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل. فجمعوا بين رفض الحق الذي أتاهم به رسول الله، وبين الاعتراض على الله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا

ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**ما وراءه:** ما جاء بعده.

**أشربوا:** اختلط بقلوبهم ومشاعرهم كما يمتزج الماء بما يتحلل فيه.

**خالصة من دون الناس:** لا يظفر بنعيمها إلا اليهود.

### بيان المعنى الإجمالي:

تسجل هذه الآيات الدعاوى الباطلة التي كان اليهود يروجونها للتشكيك في الإسلام. وعلّم الله نبيه كيف يدحض شبهاتهم. فكانوا إذا دعوا إلى الإيمان قالوا: لا نؤمن إلا بالتوراة المنزلة علينا ونرفض كل ما جاء بعد ذلك مع أنه لا تناقض بين هذا وذاك. وهم كاذبون لأنهم قتلوا أنبياء التوراة وآخر من عملوا على قتله وهو منهم عيسى عليه السلام. وهم من ناحية أخرى قد تنكروا لما قرره موسى من الوحدانية فعبدوا العجل، ثم إن انحدارهم من سمو التوحيد إلى عبادة عجل من ذهب قد نفذ إلى قلوبهم واستولى على عقولهم ومشاعرهم فأصبحوا لا يهمهم إلا المال. فإيمانهم لذلك هو أفسد إيمان. كما يشيعون في إصرار أنهم شعب الله المختار الذين كتب لهم وحدهم نعيم الآخرة، ولو كانوا صادقين موقنين به لكانوا يحبون أن يموتوا ليفوزوا بالنعيم، ولكن اليهود هم أشد الناس خوفا من الموت لفساد أعمالهم.

### بيان المعنى العام :

#### 91- وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله...إن كنتم مؤمنين.

تكشف هذه الآيات عن تحريف اليهود للشريعة التي أُلزموا باتباعها ويدحض القرآن تعلاتهم التي يخفون بها مكرهم. ويشمل ذلك الأمور التالية: أنهم عندما دعوا للإيمان بما هو حق منزل من عند الله، رفضوا متعللين بأنهم لا يؤمنون إلا بما أنزله الله عليهم وهم يكفرون بكل ما جاء بعده، فتوقف التشريع الإلهي على التوراة بزعمهم، رغم أن ما أنزل على موسى وما جاء به محمد يتفقان في الأصول العامة وفي مبادئ التوحيد والأخلاق بصدق التالي ما جاء في الأول ،ويصحح بعض الأخطاء التي تسربت من تناول البشر للتوراة، ومن اختلاف الزمن وما يقتضيه من

تحوير في التشريع بما يناسب تطور البشرية. ثم يكشف القرآن عن كذبهم في دعواهم هذه، فيجابههم أنهم لو كانوا فعلا يؤمنون بالتوراة المنزلة على أنبياء بني إسرائيل فلماذا تجرأوا فقتلوا بعض الأنبياء المكملين للتوراة ؟ هذا ما ينادي بكذبهم: أنهم يؤمنون فقط بأنبياء التوراة.

## 92-ولقد جاءهم موسى...ظالمون.

يعري القرآن كذبهم ودعواهم احترام التوراة وموسى ﷺ ، بأنهم لما جاءهم سيدنا موسى عليه السلام بالحجج الظاهرة والمعجزات المؤيدة والعقيدة الواضحة بالإيمان بالله الواحد الأحد. كان موقفهم من كل جهود نبيهم الصادق المصدوق، أن عبدوا العجل بمجرد ما غاب عنهم فارتكبوا أكبر الظلم وهو الشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم.

## 93-وإذ أخذنا ميثاقكم...إن كنتم مؤمنين.

إنهم لما أخذ الله عليهم الميثاق الذي فصلته الآيات السابقة ورفع فوقهم الطور ليذعنوا ويشاهدوا أن الأمر جد لا هزل، بما صحب ذلك من أوامر جازمة أن يلتزموا بما أنزل عليهم وبصفة لا ترتخي فيها عزائمهم ، وحرك أسماعهم وأيقظهم إلى الاستماع لما يرد عليهم من ربهم ليمتثلوا، كان جوابهم أن أخذوا بالظاهر الذي لا يمكنهم إنكاره فقالوا سمعنا، وفي نفس الوقت الذي صرحوا فيه بالسماع الموجب للامتثال أضمروا العصيان والمخالفة.

استولت المادة عليهم، فقد دخل العجل الذهبي في تفكيرهم ومشاعرهم واستولى على قلوبهم، فعمر كل مجرى من مجاري تفكيرهم، فغدا الذهب الذي صيغ منه العجل الذي عبدوه يأخذ بقلوبهم فلا يلتفتون إلى المعاني السامية ولا إلى المعايير الخلقية، وهمهم الوحيد في الدنيا هو جمع المال. يقول الشاعر الحبيب جاء وحدو رحمه الله.

فهل بين النقود وقوم موسى *** معاهدة توثقها العهود
فلولاهم لما كانت نقود *** ولولاها لما كانت يهود
إذا جاء المخاض وجر شرا *** لحبلاهم ولم يفد الحديد
رموا بالأرض تحت الأم فلسا *** فينزل عند رنته الوليد

ومع ذلك هم يدعون أنهم مؤمنون. فقل لهم يا محمد: إن إيمانكم هو أقبح إيمان وأفسده لو كنتم مؤمنين، مما يرمي إلى أنهم لا يملكون من الإيمان شيئا.

## 94-95، قل إن كانت لكم الدار...عليم بالظالمين.

إنهم يبذرون الشك في المجتمع بادعاتهم المستمر مع الزمن أنهم شعب الله المختار المفضل، وأن الله لا ينجي يوم القيامة إلا بني إسرائيل، يتبجحون بهذا، ويكررونه في إصرار، فيلجئهم القرآن بأن يأمر النبي ﷺ أن يتحداهم إن كانوا صادقين في دعواهم أن الله خصهم بالجنة من دون البشر وأن ما ينتظرهم من نعيم هو أعظم مما أوتوه في الدنيا، يتحداهم بأن يتمنوا الموت ليظفروا بذلك النعيم. ومعلوم من طبائع يهود، في القديم والحديث، أنهم أشد الناس خوفا من الموت. فلو كان ما يقولونه بألسنتهم معتقدا لهم ما وجدت فيهم هذا الإصرار على حب الحياة والحذر من الموت وشدة الخوف منه. وتختم الآيات بإعادة تقرير أن الله لا يخفى عليه أمر الظالمين، ولمّا كان أمرهم مفضوحا معلوما عنده سبحانه فهو يهددهم بالعقوبة التي يقتضيها العدل الإلهي.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أحرص:** أشد تعلقا.

**يود:** يحب.

**يعمر:** يبقى حيا.

**مزحزحه:** مبعده.

**بصير :** عليم بحقيقة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إن قوة حرص اليهود على الحياة تتجاوز ما فطر عليه البشر من حب الحياة. فهم أشد حرصا حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر تجد اليهودي يحب أن يعيش ويستمر في الوجود ولو بلغ أرذل العمر وأحدق به الذل وهل ينتفع بحياته ؟ فحياته لا تبعده من العذاب الجزاء المحتوم إن الله عليم بأفعالهم.

**بيان المعنى العام :**

**96- ولتجدنهم أحرص الناس...بما يعملون.**

هذه الآية تجسم حب اليهود للحياة. إنهم أشد الناس تعلقا بالحياة، فحبهم للحياة يتجاوز حتى حب المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا أمل لهم

في كرامة بعد الحياة الدنيا. إنهم يحبون أن تستمر بهم الحياة، إنهم يودون أن يبقوا أحياء ألف عام وإن كان هذا الأمد غير متوقع حصوله، وإن كانوا يعلمون أن الهرم يلحق كل إنسان فينقلب بعد القوة إلى حياة شقاء وعذاب، حياة أرذل العمر. ويلحقهم التهديد بأن الله عليم العلم الكامل بما يصدر عنهم وبما يفعلونه

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**عدو:** مبغض.

**جبريل:** الملك الموكل بإبلاغ وحي الله.

**قلبك:** قواك التي تتقبل بها الوحي وتعيه.

**ما بين يديه:** ما سبقه.

**بشرى:** إخبار بخير حاصل لمن توجه له الخبر.

**ميكائيل:** ملك من الملائكة المقربين.

**عدو للكافرين:** يفعل بهم ما يفعل العدو بعدوه.

### بيان المعنى الإجمالي:

قل يا محمد من أبغض جبرائيل فإنه ما أبغضه إلا لأنه أبلغك ما أمره الله بإبلاغه إليك حتى وعيته عنه، وهو تنزيل شاهد بصدق رسالات الله جميعها، يرشد إلى الطريق المنجح في الحياتين، ويُطمئن من يؤمن به بأنه سيُجزَى خير جزاء من رب العالمين. ومن أبغض جبريل فقد أبغض الله، لأنه هو الذي أرسل جبريل، وأبغض ميكائيل إذ لا فرق بينهما، وأبغض ملائكته لتساويهم في الصفات والعبودية لله. ومن أبغضهم فهو حقيق بأن يجزيه الله من جنس ما علق بنفسه ولا مطمع له في العفو ولا في الرّحمة .

### بيان المعنى العام:

### 97-98، قل من كان عدوا...عدو للكافرين.

يروّج اليهود من الأكاذيب ما يلبسونه لباس الحق مدعين أنه من علم الكتاب الذي اختصوا بعلمه ،فكان مما نشروه من زيف: أنهم لا يتبعون رسول الله، لأن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدوهم لأنه الذي يأتي بالعذاب، فأوحى الله لنبيه

ما يدحض به قولهم، بأن الناظر في مضمون ما أتى به جبريل إلى الرّسول من وحي يجده جامعا لأمور كلها تنبئ عن كونه حقا :

1) أنه صادر بإذن من الله العلي الحكيم وليس لجبريل دور إلا إبلاغه لك كما تلقاه من رب العالمين.

2)أنه يصدق الرّسالات السابقة ويؤيدها، فلا خلاف بين ما جاء به إلى محمد وبين ما أنزل على رسُل الله الماضين.

3) أن من يتأمل فيما جاء به يتبين له أنه يهدي إلى الصراط المستقيم الذي ينعم سالكه بالرّضا الموصل إلى النجاح.

4) أنه يبشر ولا ينفر ويدعو ولا يطرد ويجمع ولا يفرق.

ثم يلقن نبيه أن يعلن أن من أعلن عن بغضه لجبريل فهو معلن لعداوته لله رب العالمين ولميكائيل وللملائكة، لأن الملائكة مؤتمنون على ما يكلفهم الله به لا فرق بينهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فمن عاداهم لما نفذوه فإنما عادى من أمرهم. وبما أنه لا فرق بينهم في تنفيذ ما يأمرهم الله بتنفيذه فهم سواء. وبغض أحدهم هو بغض للآمر والمنفذ، إن ما روجوه كان بسبب اتباعهم لهواهم، واعتمادهم له في الحكم على الأشياء فكانت نتيجته أن الله قرر أن يعاملهم معاملة العدو لعدوه، لا عفو ولا رحمة.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الفاسقون:** جمع فاسق، وهو المتمرد الخارج عن الحدود التي حددها الله.

**نبذ:** طرح العهد ولم يوف به.

**الذين أوتوا الكتاب:** اليهود.

**كتاب الله:** القرآن.

**وراء ظهورهم:** متجاوزين عنه لا يلتفتون إليه.

**اتبعوا:** عملوا بما تتلو الشياطين.

**الشياطين:** كفرة الجن أو خبثاء البشر المضللون.

**سليمان:** هو سليمان بن داود عليه السلام ولي ملك يهود سنة1. 14 ق م.

**السحر:** عمل نوع من الأشرار له تأثير سيء على القابلين لتمويههم وحيلهم الماكرة. ويطلق على ما علم ظاهره وخفي سببه.

**الفتنة:** معناها قريب من الابتلاء، تطلق على الوضع الذي يكون فيه المفتتن مدعوا إلى التمييز بين موقفه من داعية الخير والشر مع قوة داعية الشر.

**خلاق:** نصيب وحظ.

### بيان المعنى الإجمالي:

أنزل الله الآيات البينات التي تفرض من ذاتها الإيمان بها لوضوحها وصدقها، وما يكفر بها إلا الأشرار الخبثاء المتمردون على الحق. والآية تقصد اليهود الذين طبعوا على نكث العهود، وهذا هو شأنهم إلى اليوم، فكلما وجدوا أنفسهم ملزمين بعهد تنصل منه فريق منهم إسقاطا للعهد عن جميعهم. وما ذلك إلا لفقدهم صدق الإيمان. ولما جاءهم الحق بواسطة الرّسول المصدق للتوراة من عند الله، أعرض فريق من الذين أعطاهم الله التوراة، عن القرآن، مع أن ما جاء به القرآن يشهد بصحته ما أنزل على موسى فكان صنيعهم هذا كصنيع الجاهلين. وعملوا بما تقول الشياطين: إنه كان على عهد سليمان زاعمين أنه كفر. وكذبوا لأن ما تتلوه الشياطين كفر. وسليمان ﷺ نبي معصوم. فالشياطين يعلمون الناس السحر ويدعون أن الساحر له من القدرة ما يؤثر به، فهم قد كفروا بنسبتهم التأثير لغير الله. كما يعلمهم الشياطين ما يدعون أنه أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. والشياطين لا يهمهم إلا إغواء البشر وإضلالهم. وفرق بين ما يصنعه هاروت وماروت وبين ما يهدف إليه الشياطين. ذلك أن الشياطين يعلمون الناس السحر

قصد إفساد عقيدتهم وإفساد روابطهم الاجتماعية، وإدخال الخلل على نواح كثيرة من حياتهم؛ بينما هاروت وماروت كانا يعلمان الناس حقيقة السحر بالكشف عن خفايا ه وعن تمويهات السحرة، ولذا كانا عند الكشف عن أسرار السحر يحذران الناس ويوقظانهم إلى أن الله بعثهما في ذلك العهد الذي استشرى فيه فساد السحرة ليعلّموا الناس حقيقة السحر، ويزيحا ما يتخفى وراءه السحرة من المكر، فيكون من تعلم منهما السحر ليرد كيد السحرة ناجيا، ومن تعلم منهما قصد العمل به وإغواء الناس يؤول به تعلمه ذلك إلى الكفر. وهو معنى الفتنة. كما يقال: فتنة المال، فمن أنساه المال حقوق الخالق غوى وهلك، ومن صرف المال في مرضاة الله سلم. ومع التحذير والتنبيه من الملكين على ما في السحر من فتنة، فإن كثيرا من المتقبلين لتلك المعارف يصرفونها في التفريق بين الزوجين. ويحقق القرآن أن نفاذ السحر ليس من طبع السحر وحده، ولكن الله هو الذي يقدر حصول آثاره. ثم إن الذين تعلموا السحر للعمل به لا للتحصن من شرور السحرة يكون تعلمهم هذا يضرهم ولا ينفعهم. وقد جاء في التوراة: النهي عن السحر، وعلم يهود منها أن كل من تملك السحر ليس له نصيب يوم القيامة من فضل الله. فحقا أن من باع نفسه بالعمل بالسحر ارتكب أعظم حماقة وظهر بمظهر الجاهل. إنه لو امن اليهود بما أنزل على محمد ورسخت في نفوسهم خشية الله وتلبسوا بتقواه لتحقق لهم الثواب الصادر من الله، الثواب من الكريم الذي ليس لمقدار ثوابه حد.

## بيان المعنى العام:

### 99-100، ولقد أنزلنا إليك آيات ...لا يؤمنون.

تفتح هذه الآيات بتقرير حقيقة يشهد بها رب العالمين أنه هو الذي أنزل على قلب رسول الله آيات القرآن بالغة أعلى درجة من البيان تثبت الإيمان في القلوب، فما ينكرها إلا الفسقة الخبثاء المتمردون على شريعة الله، وهذا يشير أولا إلى يهود المدينة الذين أنكروا ما جاء به محمد ﷺ. وكشف القرآن عن طبائعهم الخبيثة التي منها أنه كلما عاهدوا عهدا وأعطوا مواثيقهم، أسرعت طائفة منهم لنقض ما التزموا به، فيتحللون جميعا من عهودهم. وهذه طبيعة لازمة لليهود إلى اليوم. وعرفنا القرآن أن أكثرهم معاندون لا يدخل الإيمان قلوبهم.

### 101، ولما جاءهم رسول...لا يعلمون.

ثم أبرز ما يؤكد ذلك بأنه لما جاءهم رسول مبعوث من عند لله تشهد معجزاته بصدقه، ويشهد مضمون ما جاء به بصدقه أيضا ، لأنه لا يختلف ما قرره من حقائق التوحيد والقيم، عما جاء في التوراة. واجهوا القرآن بأن نبذ مُعْرضا فريق

من اليهود الذين يدعون أنهم أهل كتاب، نبذوا القرآن وتجاوزوه لا يلتفتون إليه، شأنهم شأن الجاهلين الذين لا يعلمون ما في القرآن من صدق وحق، فهم أسوأ حالا من الجاهلين، لأن الجاهلين ما عرفوا الحقيقة، أما اليهود فهم رفضوا ما يعلمون أنه الحق، وتبريرهم أنهم لا يؤمنون إلا بالتوراة لا غير هم كاذبون فيه.

### 102 -103، واتبعوا ما تتلو الشياطين... يعلمون.

أبرز القرآن كذبهم بأن التوراة منصوص فيها أن على اليهودي أن يرفض السحر ولا يأخذ به. واليهود مع ذلك قد اتبعوا وعملوا بما تتلوه الشياطين على عهد سليمان، إذ يدعون أن سليمان ما بلغ ما بلغه من السلطان وسعة الملك إلا لأنه كان ساحرا أخضع بسحره البشر فدانوا له. ورد الله عليهم أن سليمان من عباد الله المقربين أبعد الناس عن الكفر، إذ لو اعتمد السحر لتثبيت ملكه وإكسائه ثوب الحق الوارد من الله لكان كافرا، وحاشاه من هذا. والشياطين هم الذين كفروا بتعليم الناس السحر ونشره قصد هدم العلاقات الاجتماعية وبث الفتنة وتضليل الأفراد المهيئين لتقبل تأثيرهم والاستحواذ عليهم. ويُعلّمون ما أنزل على الملكين هاروت وماروت. والذي أنزل على هذين الملكين أنه لما شاع السحر في العالم واستولى به السحرة على عقول الناس وأرواحهم، وخيلوا لهم أن لهم قدرات يستطيعون بها أن يتحكموا في الكون ويقلبوا أموره حسب إرادتهم، وأصاب الناس منهم بلاء إذ كان لتمويهاتهم من القوة ومن ظاهر التأثير ما خلخل الإيمان ووهن المقاومة الذاتية. فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس حقائق السحر ويكشفا ما خفي منه، هذا الجانب الخفي هو الذي بواسطته حقق السحرة من الفساد ما حققوه. فكان الشياطين قد استفادوا من هذا التعليم الذي قارنه، أن الملكين عندما كانا يعلمان الناس لتحصينهم من أضرار السحر، ينبهان المتعلمين أن تعليمهم هذا ليدرك الناس حقيقة السحر. وتصرفهم فيه هو من الفتنة، أي الخير المشوب بالشر، هو كالمال الذي هو في أصله نعمة ولكن الناس قد يتصرفون فيه تصرفا يثبت إيمانهم ويحقق صلاحهم، وقد يتصرفون فيه تصرف الفساد والتسلط على الناس والرّشوة وما إلى ذلك من أنواع الشر، فالمال فتنة. وكذلك السحر، فالملكان ينبهان من يتعلم منهما السحر أنه فتنة، فمن استعمله ليبطل عمل السحرة وينقذ إيمانه من اعتقاد أن للسحر قدرة مؤثرة في الدنيا بما يصفون له أن الله هو الخالق لكل شيء، كان تعلم السحر بالنسبة له نعمة وخيرا، ومن تعلمه ليفسد به العقيدة والكون ويلحق الضرر بغيره، فهو شر وفساد، كمن يستعمل السحر الذي يتعلمه منهما لتخريب البيوت والتفريق بين الزوجين اللذين جمع الله بينهما وقوّى أصرة التقارب بينهما بعاطفة الود

والمحبة، وبمشاعر الرّحمة والرّعاية. وقد صرح القرآن بالتأثير في إفساد العلاقات الأسرية بالسحر لأنه معظم ما يشتغل به السحرة. بعد أن سجل الله على يهود انحرافهم وكفرهم وعملهم على نشر الفساد، صرح القران بالحقائق التالية: أن السحر لا تأثير ذاتي له، وأن الفاعل في الكون والمتصرف فيه هو الله وحده، ولا يستطيع السحرة أن يضروا بسحرهم أحدا إلا إذا أراد الله أن ينفذ فيه ضررهم، فالقدرة لله وحده والخلق له. أن ما يتعلمه الناس من السحر لا يحقق للمتعلم ولا للبشرية خيرا بل هو باب للضر والشر والفساد. أن من باع تقواه وخوفه من الله للتحصيل على السحر والعمل به ليس له أي نصيب يوم القيامة مما أعده الله لعباده الصالحين. أن هذا الذي قاموا به من تعليم السحر ومباشرته هو أسوأ ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان في نشاطه الدنيوي. أن هؤلاء المعلمين والمباشرين للسحر لو تركوا هذا الطريق السيء، وصفا إيمانهم وحلت الخشية قلوبهم، لتعرضوا للثواب العظيم الذي يتجاوز التصور، لأنه ثواب من لا يحد مُلكهُ حدود. ولكنهم جهلوا وعموا عن الحقيقة.

## هل للسحر حقيقة؟

إن أغلب من يدعون معرفتهم بطلاسم السحر ويوهمون ضعاف الشخصية واليائسين، والمتعلقين بالأوهام، بقدرتهم على تحقيق مطالبهم هم دجالون، يبتزون أموالهم، ويمدون لهم في الآمال الكاذبة. وقليل منهم قد استولى عليهم الشر وفساد العقيدة، وانفصلوا في باطنهم عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وكانت لهم قوة عظيمة في الجانب اللامادي من كيانهم، قد يبلغون إلى حد من درجات الإيذاء كما يتضرر المحسود من الحاسد. **ولكن على المؤمن أن يوقن أن السحر لا يترتب عليه لذاته ضرر إلا إذا قدر الله ذلك وجعل الساحر الخبيث وسيلة للضرر. هو كالميكروب والفيروس ينتشر في الكون ولا يضر إلا من أراد الله له أن يؤثر فيه.** وليس من السحر في شيء ما يقوم به البهلوانيون من حركات درسوها وتفننوا فيها، تقلب العاديات التي ألفها الناس، وقد اتخذوا من ذلك موردا للرزق. يحضر عروضهم للترفيه كثير من الناس، **وليست من السحر الذي تتحدث عنه الآية في شيء.** ذلك أن هؤلاء البهلوانيين لهم مؤسسة تجمعهم في مؤتمر سنوي يعرض المشاركون مهاراتهم وما وصلوا إليه ويتأيد بعضهم ببعض، وغايتهم الترفيه لا الإضرار بالناس.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**راعنا:** فعل أمر من رعاه أي رفق به.

**انظرنا:** من النظر في أمر غيره مراعاة لمصالحه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يعلم الله المؤمنين طريقة خطابهم لرسول الله ﷺ ، فإذا كانوا في مجلسه وهو يبين لهم أحكام الدين وأسراره، وأحسوا بعمق ما يعرض عليهم وما يقتضيه من التأمل فيه، أن يقولوا له: انظر إلينا، ولا يقولوا له: راعنا، لأن اليهود اتخذوا هذه الكلمة وسيلة مبطنة لإيذائه ﷺ .

**بيان المعنى العام:**

**104-يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا...أليم.**

عملُ اليهود في مجتمع المدينة على إيذاء رسول الله وصحابته متنوع. فمما كانوا يؤذون به أنهم تخيروا في خطاب النبيء ﷺ كلمات مؤذية في باطنها تبعا لقصدهم الخبيث وإن كانت في ظاهرها مقبولة، وغطاؤهم أن المؤمنين يخاطبون النبي ﷺ بها، ومن هذه الكلمات قولهم: راعنا، التي تفيد في أصل استعمالها ارفق بنا واحرسنا. ولكن وزان هذه الكلمة: راعنا هي أيضا اسم فاعل من رعن فهو راعن وأرعن وهو الأهوج في منطقه. فكان اليهود يخاطبون النبي ﷺ وهم يقصدون سبّهُ ويتسترون بأن خطابهم كخطاب صحابته. أطلع الله نبيه على ما تنطوي عليه ضمائرهم من خبث وقطع عليهم تعلتهم، فأمر المؤمنين أن يستبدلوا راعنا بانظرنا. وقرن دعوتهم إلى أدب الخطاب بأمرهم أن يحسنوا الاستماع حتى تنتقش في عقولهم وقلوبهم ما يخاطبهم به. وختمت الآية بأن الكافرين والمقصود بهم اليهود، أعد الله لهم عذابا أليما جزاء فساد نياتهم وسخفهم.

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**يود:** يحب الحب المفضي إلى تمني حصول المحبوب.

**ينزل:** يبلغ من اللوح المحفوظ شيئا فشيئا.

**خير:** النبوة وما صحبها من فضل إلهي على المؤمنين.

### بيان المعنى الإجمالي:

يعاديكم الكافرون من اليهود والنصارى والمشركين، ويحسدونكم على ما آتاكم الله من الهداية، فلذلك تجدهم لا يحبون أن يحصل لكم خير ولا يتمنونه لكم. والخير بيد الله يهبه لمن يشاء، وفضل الله لا يحد ولا يؤثر فيه حسد الحاسدين.

### بيان المعنى العام:

### 105-ما يود الذين كفروا...الفضل العظيم.

استحكم الحسد في قلوب الكفار من اليهود والنصارى والمشركين في العهد النبوي، وكلما تتابع الوحي ازدادوا غيظا ونقمة تبعا للشحنة العفنة من البغض التي التهمت كل معاني الإنسانية من نفوسهم المريضة. فهم يكرهون أن ينزل الله على المؤمنين بمحمد آياته البينات، وتشريعاته المحكمة، وحقائق الكون البعيدة والقريبة. مرضت نفوسهم فلا يتمنون لكم أي خير ولا يحبون أن يصلكم أي فضل من ربكم الذي عُنيَ بكم وتتابعت عليكم هداياته.

ويسْخَرُ القرآن من تلكم العواطف المريضة ويعلن الحقيقة التي غفلوا عنها: إن الفضل بيد الله يمكن منه بحكمته من يشاء من عباده، فليس لبغضهم ولا لحبهم أي تأثير ولا أثر. إن لله هو صاحب الفضل الذي لا تحده حدود ولا يبلغ مداه التصور القاصر الهزيل.

● مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**ما ننسخ:** النسخ إزالة شيء وإثبات شيء آخر مكانه.

**ننسها :** مضارع أنسأها، والإنساء هو التأخير.

**الولي:** القريب المناصر.

### بيان المعنى الإجمالي:

يقرر الله سبحانه أنه إذا أبطل حكما من الأحكام التي أنْزلَها للعمل بها في الحدود الزمنية التي فيها مصلحة العباد، أو أخر تنزيلها، فإن تصرفه سبحانه لحكمة ومصلحة للناس رحمة بهم. وذلك بناء على ما ثبت في العقيدة من أن الله قادر القدرة المطلقة، التي من آثارها تحويل أوضاع الناس، ومن تمام قدرته أنه يهديهم

إلى ما هو خير لهم في كل حال. وكما أحسن التقدير في ملكه في السماوات والأرض، فقدرته على ضبط ما يصلح البشر أولى، واعلموا أنه لا ينصركم إلا الله القريب منكم.

### بيان المعنى العام:

### 106-107-ما ننسخ من آية...من ولي ولا نصير.

تشكيك يهود وقدرتهم على التمويه لزعزعة العقائد، وبث المغالطات في المجتمعات لخلخلة وحدتهم، من الأمور التي تتابعوا عليها خلفا عن سلف، وقاست منهم الدعوة الإسلامية منذ بداية نشأتها في العهد النبوي وإلى اليوم ما قاست.

أنصف القرآن التوراة، شأنه في بيان الحقيقة، وتحدث عنها باعتبارها كتابا حقا أنزل من عند الله على بني إسرائيل كقوله تعالى:(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون)[1] فقابل يهود المدينة هذا الإنصاف بالدس، واتخذوا من ذلك مطعنا في صدق رسول الله ﷺ ، فزعموا أن محمدا يشهد بأن التوراة نور، ثم يدعي أنه أوحي إليه ما يرفع أحكامها ويلزم الناس بتركها واتباعه. وما كان حقا يبقى حقا ، لأن نسخ ما هو حق وإبداله بغيره ينادي بأن الله قد ظهر له في زمن أمرا ثم بدا له وظهر له أمر آخر وعبروا عن هذا (بالبداء) وهو نقص لا يتصف به الله. وانتهوا من هذه المغالطة أن دعوى الرّسول سيدنا محمد ﷺ أنه موحى له من عند الله يقضي إلى اتصاف الله بالتغير ونقض الحقائق التي أثبتها. فرد الله تشكيكهم هذا، وكشف عن جهلهم وتعصبهم، بما وضحته هذه الآية: إن الله خلق الكون وأجرى خلقه على سنن، ومن تلكم السنن أن العالم وما يحويه من بشر وغيره، متطور متغير، غير ثابت. وهذا التغير يجري بقدرة الخلاق العليم الذي ينسق بين الإنسان وظروفه المادية الجديدة، كما ينسق بينه وبين أوضاعه الاجتماعية، بما يمكنه منه من تشريع يستجيب لتحولاته تلك. ويربي المجتمعات تربية الرّفيق الذي يلطف بها، فلا يحولها دفعة واحدة من وضع استحكم وتقرر في عوائدها وفي نمط حياتها، بل يأخذها برحمته حتى يطوّعها إلى المقام الرّفيع الذي يريد أن تصل إليه لتحقق الخلافة التي مكن منها الإنسان. فاليهود الذين أذلهم فرعون، ثم نصرهم الله عليه بقيادة سيدنا موسى ﷺ أنزل الله عليهم التشريع الذي يصلح من شأنهم ويرعى تركيبهم النفسي وعاداتهم التي نشأوا عليها وأصبحت لاصقة بعقولهم وبمشاعرهم. ومما يوضح ذلك ما سبق أن ذكر به القرآن من تركيبهم النفسي

---

[1] سورة المائدة، آية 44

المادي الهابط في سورة البقرة ، أنهم قد أكرمهم الله ويسر لهم العيش بدون عناء وأجرى لهم رزقهم ورسول الله موسى معهم، سئموا وقالوا: يا موسى إنا اشتقنا إلى الثوم والبصل والبقول والقثاء، فادع لنا ربك يخرج لنا ذلك من الأرض. مع أن أرض سيناء أمامهم أرض صحراء قاحلة جدباء لا تنبت هذه البقول. لذا كان تشريع التوراة يعمل على تحويلهم والسمو بهم شيئا فشيئا. فأوضاع يهود غير أوضاع الإنسانية. ولقوة عنادهم شدد الله عليهم ليستقيموا. وقصة ذبح البقرة تريك أن نفسيتهم المريضة المادية لا تلين إلا بالشدة. كما قال ابن عباس شددوا فشدد الله عليهم. فنبه الله المؤمنين أن لا ينخدعوا بتضليل يهود. فإن الله إذا نسخ شريعة بشريعة أخرى، فإن ذلك مراعاة منه، وهو الرّحيم الرّؤوف بعباده، لتحقيق ما يصلح أمر البشر المتغير المتقلب حسب ظروفهم الاجتماعية وتطور أوضاعهم الاقتصادية والمعرفية. فقد تطورت البشرية من مستوى إلى مستوى حتى أصبحت قابلة لهداية تنظر إلى التركيب الإنساني والاجتماعي في قواعد عامة تحقق الخير والسعادة للإنسانية. وفي الأحكام التي تتصف بالثبات وعدم التغير. كالنهي عن الجهالة في المعاوضات أو التغرير، أو ضبط العبادات التي تحقق معنى العبودية والطاعة التي يرضاها الله من عباده، أو تحريم الزنا والمخادنة، أو نسبة الأولاد إلى آبائهم ونحو ذلك. فلما بلغت البشرية هذا المستوى ختم الله رسالاته إلى البشرية برسالة الإسلام الصالحة لكل زمان ومكان.

وعلى هذا القياس جرى التشريع الإسلامي، فلم ينزل على رسول الله ﷺ دفعة واحدة، بل تتابع الوحي ثلاثة وعشرين عاما، ربى الجماعة الإسلامية شيئا فشيئا. بعض التشريعات سبق كتشريع الصلاة مثلا، وبعضها تأخر كتشريع الحج. وما تأخر تشريع إلا أنزل الله من هديه ما هو مساو في الثواب والصلاح لما تأخر تنزيله أو يكون أصلح بالجماعة في ذلك الوقت، حتى إذا تهيأوا لقبول التشريع المضمر، نزل جبريل على الرّسول ﷺ بالوحي المبين. وكذلك في تثبيت ما يريد الله أن يحول عنه الجماعة مما ألفوه وجرى عليه أسرهم، ويصعب قسرهم عليه دفعة واحدة، وقطع الأسباب الرّابطة بالواقع على ما فيه من سوء، مما جعل إلفهم ذلك لا يشعرهم بفساده، كشرب الخمر الذي تتابع النهي عنه في أحوال خاصة إلى أن انتهى إلى تحريمه تحريما قاطعا. فالله المالك للسماوات والأرض، هو الذي يحولها من حال إلى حال ويحركها في مساراتها بقدرته الحكيمة، وهي في كُلٍّ مُقَرٌّ لها في الظرف التي هي فيه هو ما يضمن بقاءها وانتظامها، حتى إذا حولها كان ذلك مساويا في الفضل لوضعها الأول أو هو أفضل لانتظام الكون. وكما يرتبط

بقاء الكون بما يحويه من كواكب وسماوات ومجرات بلطف الله، فكذلك أنت أيها الإنسان الضعيف لا تجد وليا يرعاك ونصيرا ينصر ضعفك ويؤيدك إلا الله.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**ود:** أحب.

**العفو :** ترك العقوبة.

**الصفح:** الإعراض عن المذنب.

**بصير :** عليم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يحذّر القرآن صحابة رسول الله من التأثر بسلوك اليهود في علاقتهم بسيدنا موسى عليه السلام ، فقد أكثروا من الأسئلة وبلغت بهم الوقاحة مثلا أن سألوا موسى أن يروا الله رؤية واضحة، مما يدل على عدم استقرار الإيمان في نفوسهم. فحذر المسلمين من فرض الفروض والسؤال عنها حتى لا يحل بهم ما حل بيهود. فإن من يبذل إيمانه ليتيه في متاهات الكفر ، ويتبع محصحصا عن الأوهام، فقد ضل وسط الطريق المنجى. إن معظم اليهود يحبون ويتمنون أن تعودوا كفارا، لا محبة فيكم ولا رغبة في الخير لكم، ولكن قلوبهم امتلأت بالحسد ونفوسهم بالكبر ، فهم يحسدونكم على ما فتح الله عليكم وينفرون من أن يدخلوا في دين الإسلام استكبارا عن أن يخضعوا للحق. فيرشد الله المؤمنين أن لا يسارعوا بعقوبتهم على ما هو مضمر في نفوسهم، وليتحلوا بما رباهم عليه الإسلام من عليّ الأخلاق بالعفو عنهم، بترك عقوبتهم وعدم لومهم على ما استبطنوه من الشر . وانتظروا أيها المؤمنون نصر الله الذي وعدكم به من إظهار دينكم وخزي أعدائكم، فالله لا يعجزه شيء ولكنه سبحانه يسير الأمور وفق حكمته التي تَعْجُزُ العقول عن إدراك مسارها الخفي البعيد. ثم هداهم إلى ما يقويهم في مواجهة حسد الحاسدين وبغض الكافرين، وذلك بالمداومة

على الصلاة التي تصقل أرواحهم وتقوي إيمانهم، وببذل الزكاة عن طواعية وحب للقيام بها الأمر الذي يدعم رابطة الأخوة، ويؤكد اللحمة الجامعة بينهم.

**بيان المعنى العام:**

### 108 - أم تريدون أن تسألوا...سواء السبيل.

كان مجتمع المدينة قد اختلط فيه المسلمون بالمنافقين وباليهود، وقد كان اليهود يمدون المنافقين بإشكالات يلقونها إليهم ليبثوها في صفوف المسلمين ويحركوا عقولهم حركة مضطربة لزعزعة الإيمان. وكانوا يجرئونهم على التوجه بمتتابع الأسئلة لرسول الله ﷺ . وشأن السؤال أن يُبقي في باطن السائل تدافعا حتى يستقر بالجواب المقنع. وتوالي مثل هذا الوضع، مما يهز الإيمان ويجعل صاحبه مترقبا لما يطمئنه، فأرشدتهم الآية إلى أن يطردوا الإشكالات التي تُلْقيها إليهم يهود أو يلقيها الشيطان في نفوسهم حتى يكون الثبات على ما استقر في نفوسهم من الإذعان واليقين هو وسط الطريق المؤدي بسالكه إلى النجاة، وأن لا يقعوا فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من مواصلة الأسئلة حتى أطبق عليهم الكفر، وحل عليهم غضب الله.

### 109 - ود كثير من أهل الكتاب...على كل شيء قدير.

وينبه المؤمنين إلى أن كثيرا من اليهود يحبون ويتمنون أن تعودوا إلى الكفر. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت عقب واقعة حاصلها:أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضي الله عنهما ذهبا إلى المدرسة التي يتعلم فيه أبناء يهود التوراة (المدْراس) فقال لهم المعلمون: إنه لو كنتم على الحق ما أصابكم يوم أحد ما أصابكم، فاتركوا دينكم إلى ديننا فنحن أهدى منكم. فثبتا على الإسلام ولم يؤثر كلام اليهود فيهما.

وكان عامة يهود يتمنون لو يعود المسلمون إلى الشرك، حملهم على ذلك حسدهم الذي تطور تبعا لما يفتح الله كل يوم من القلوب للإسلام، ولسرعة انتشاره بين قبائل العرب، ولتمسك أتباعه به تمسكا كان به مقدما على حياتهم وعلى كل ما أوتوه من متاع الحياة الدنيا.

سما الإسلام بأخلاق المؤمنين، وتبعا لذلك أمرهم الله أن لا يعاجلوا بالعقوبة حاسديهم وأن يصفحوا فلا يؤنبوهم. إن حسدهم لا يضيركم، فرجاؤكم في فضل الله ثابت، ووعد الله لكم بأن يظهركم على أعدائكم سيتحقق. والله الكامل الكمال المطلق لا يعاجل بالعقوبة مع تمام قدرته. فعفوكم من الكمال .

### 110 -وأقيموا الصلاة...بصير.

ويرشد الله المؤمنين إلى ما يقوي عزائمهم ويثبتهم على المستوى الرّقيع الذي تحولوا له بعد أن خالطت بشاشة الدين قلوبهم وعقولهم، بأن يُرَسّخوا ما بلغوه من كمالات بإقامة الصلاة على خير وجوهها من خشوع لله ومواظبة عليها في أوقاتها، وهو معنى إقامتها، وأن يعملوا على تأكيد آصرة الأخوة الإيمانية، وتمكين المحاويج من المسلمين من حقهم في الزكاة على وجه لا يظهر فيه المزكي ترفعا ولا منة، وهو معنى الإيتاء، أي فعل المرء ما يفعله محبا له طائعا به.

ويثبت الله المؤمنين على الالتزام بهذين الركنين بتقرير قاعدة تزرع الطمأنينة والرّجاء في قلوب المؤمنين: إن الله يسجل عنده، التسجيل الذي لا يضيع منه شيء، ما يقدمه الإنسان في حياته الدنيا، ليجد جزاءه عند رب العالمين، الله الذي لا يغيب عن علمه كبيرة ولا صغيرة ولا تنقلب حقائق الأفعال بالمظاهر. فالخير المجزيُّ به هو ما صلح فيه الباطن والظاهر.

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**برهان:** دليل مقنع.

**أسلم وجهه:** خضع .

**الذين لا يعلمون:** مشركو العرب الذين لا يسندون أقوالهم إلى كتاب.

### بيان المعنى الإجمالي:

قال اليهود: لن يفوز بالجنة إلا اليهود وكذلك قالت النصارى الجنة للنصارى وحدهم. والجنة لا تُنال بالأماني. وكل دعوى لا تستند إلى دليل باطلة ومرفوضة يكذب مدعيها. لكن الحقيقة الصادقة التي يقبلها العقل، هي أن من أخلص لله بكليّته، وقرن العقيدة بالعمل الصالح الحسن، هو الذي ضمن الله له أجره عنده وطمأنه،

فلا هو يخاف من آت ولا يحزن على ماض. وكما جازفوا في المآل قال كل فريق: إن الفريق الآخر لا أساس له ولا حقيقة، مع أن اليهود يشهد كتابهم الذي يتلونه وهو بين أيديهم بصدق المسيح والأنبياء وكذلك النصارى فإن كتابهم يعترف بالتوراة ويشر بمحمد. فكانوا يتعمد كل منهم رفض الدين الآخر لا يختلفون عن مشركي العرب الذين رفضوا الأديان الثلاثة. ويهددهم الله بأنه سيفضحهم، ويحكم عليهم جزاء ما تجنوا بتكذيبهم رسالات الله

**بيان المعنى العام:**

## 111-112، وقالوا لن يدخل الجنة...ولاهم يحزنون.

يظهر اليهود في المجتمع بأنهم أهل كتاب يعلمون مالا يعلمه غيرهم، فما يبثونه من أخبار يتميز بمصداقية في زعمهم، وكذلك النصارى فسجل القرآن من أباطيلهم: دعوى عريضة كاذبة من اليهود بادعائهم أن الجنة لهم وحدهم، ومن النصارى بأنهم يفوزون وحدهم بالجنة. ويرد الله دعاويهم هذه لأنها دعاو فارغة لا تستند إلى دليل يصدقها. ويبرز الحقيقة التي يقبلها العقل والمنطق: أن الفوز ليس بالأماني، ولكن الفوز لمن جمع بين أمرين:

**أولا:** إسلام الوجه لله، الذي مؤداه أنه أقبل مطيعا راضيا، بعقيدته ومشاعره مخلصا بها جميعا لله لا يشرك به أحدا.

**وثانيا:** أحسن في عمله وفي سلوكه وفي نشاطه في الكون وفي علاقاته بخلق الله. يبغي أن يرتفع بسلوكه عن القيام بالواجب، إلى أدائه على أفضل الوجوه وأتمها وأحسنها. فهؤلاء الذين اهتدوا ففازوا بالطمأنينة الراضية. أجرهم أمانة مستودعة عند ربهم عند من لا تضيع الودائع عنده، لا يحزنون على ما فات ولا يخافون من مخبآت المستقبل، كما قال تعالى أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

## 113- وقالت اليهود...فيما كانوا فيه يختلفون.

ويضيف كل فريق أنه يزدري الفريق الآخر، فاليهود يقولون: إن دين النصارى ليس له أساس ولا يتضمن حقيقة معقولة. والنصارى يرمون دين اليهود بنفس ما رمى به اليهود النصرانية. وكل واحد منهما مجازف متنكر لما يقتضيه كتابه الذي يؤمن به، إذ أن التوراة تنص على أن الله سيبعث أنبياء أخذ موسى على بني إسرائيل العهد أن يتبعوا الحق الذي أنزل معهم. وكذلك النصارى قد نص الإنجيل على أن الله أنزل التوراة، وبشر بمحمد. إن اليهود والنصارى بمجازفتهم هذه، لا يختلفون عن مشركي العرب(الذين لا يعلمون) الذين رفضوا اليهودية والنصرانية والإسلام، وقالوا: ما أنزل على بشر من شيء. فالثلاثة اليهود والنصارى ومشركو

العرب تشابهت أقوالهم، وتشابه مستندهم الذي لا يخرج عن الرقص تبعا للهوى، وإغماض البصيرة عن الحقائق الثابتة، وسيأتي القول الفصل في إثبات الحق ودحض دعاواهم، عندما يوقفون وقد تجردوا من خيلائهم وبان ضعفهم ، ويصدر القول الحق من رب العالمين في يوم لا يملكون فيه شيئا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الظلم:** الاعتداء على حق الغير والتسلط عليه بغير رضاه.

**الخزي:** الذل والهوان.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يقرر القرآن أن من أشد الظلم، من بلغ به عتوه أن منع رواد المساجد التي لا ملك عليها إلا لله، منعهم من أن يذكروا الله ويطهروا أرواحهم بالعبادة ، ثم لم يكتف بذلك بل عمل على تخريبها. إنهم طغوا وتجبروا مع أنه لا يحق لهم أن يدخلوها إلا مستشعرين لعظمة رب تلك المساجد وقدرته خائفين من التسلط الظالم عليها. توعدهم القرآن بالخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

**بيان المعنى العام:**

**114-ومن أظلم ممن منع...ولهم في الآخرة عذاب عظيم.**

ذكرت الآية السابقة أن المشركين تجاوزوا جراءة اليهود والنصارى فكذبوا جميع الرسل، وأنكروا الديانات كلها، وعطفت هذه الآية نوعا آخر من فسادهم وسوء تصرفهم. إن المشركين يسكنون حول المسجد الحرام وفي الأماكن التي فضلها الله بأداء العبادة فيها كالمسعى بين الصفا والمروة، والمزدلفة وعرفة، وهم لا يملكون شيئا منها، وإنما هي أماكن للعبادة يملكها المعبود بحق الله رب العالمين. ولكن تسلطوا وتجرؤوا وظلموا فمنعوا المسلمين من عبادة الله في تلكم الأماكن المقدسة، وحرموهم من التقرب فيها مخلصين لله. فكانوا بتسلطهم هذا ظالمين ظلما شديدا. لأنهم لو كانوا يعقلون لعمرت قلوبهم الخشية والخوف، وما تجاوزوا حدود الأدب فيها فضلا عن منع المؤمنين من العبادة فيها. يتوعدهم الله بأن جراءتهم هذه وظلمهم سيلقون جزاءه ذلا في الدنيا، وعذابا شديدا مهما تخيل البشر شدته هو

أعظم من ذلك، لأن الله الذي سيسلطه عليهم وصفه بالعظمة وهو لا يعظم لديه شيء، ولكنه أعظم مما يتخيله المتخيلون. أعاذنا الله من مقته وعذابه.

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**المشرق والمغرب:** الأرض كلها.

**وجه الله:** ذاته العلية.

**بيان المعنى الإجمالي:**

كل الأرض من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ملك لله لا لأحد سواه فإلى أي جهة وفي أي مكان قام الإنسان بعبادته فالله معه يعلم قصده ويقبل خالص عمله ويجزيه عنه. إن سعة ملك الله تشمل كل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

**بيان المعنى العام:**

**115- ولله المشرق والمغرب...إن الله واسع عليم.**

لما منع مشركو مكة المسلمين من أداء عبادتهم في الأمكنة التي فضلها الله وحرموهم من البيت العتيق والمسجد الحرام، وقد ألفوا تلكم الأماكن المقدسة وأنسوا بها في عباداتهم، طمأن المولى سبحانه المؤمنين، بأن سر العبادة هو في التوجه الخالص لله، وتعلق القلب به والخضوع لجلاله، وكل مكان يقوم فيه العابد بأداء العبادة مخلصا فذلك المكان هو ملك لله يستوي ملكه تعالى في كل جزء من أجزاء الأرض من مشرقها أو مغربها. لأن قاعدة العقيدة السليمة أن الله وسع ملكه كل شيء، فالأمكنة بالنسبة له تعالى متساوية، وهو المطلع على القلوب، فلا يخفى عليه سبحانه ما تكنه ولاما تظهره.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**سبحانه:** تنزيه له. أي إن اتخاذ الولد ينافي الألوهية فلا تتصور فيه.

**الولد:** يقال على الابن والبنت كقوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.

**القنوت:** الخضوع والانقياد.

**بديع:** المبدع هو المنشئ على غير مثال سابق.

**بيان المعنى الإجمالي:**

كشف القرآن عن فساد عقيدة غير المسلمين وعما يقولونه مما هو غير معقول. فمن ذلك إشاعتهم أن الله قد اتخذ ولدا، وهو باطل غير معقول لأن المالك لكل شيء الذي يتوجه إليه كل مخلوق بالخضوع والانقياد، لا يتصور فيه أن يطلب الولد. والذي أنشأ المجرات السائرة في الأبعاد الفسيحة، والأرض على غير مثال سابق فإيجاده يتحقق بتعلق إرادته التي لا يستعصي عليها أي شيء.

**بيان المعنى العام:**

## 116-117: وقالوا اتخذ...كن فيكون.

سجل القرآن على اليهود والنصارى والمشركين ما صدر عنهم من أقوال أشاعوها مما لا يقبله العقل ولا يقره المنطق. قال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله. وذلك من الجراءة على الله، وقول عظيم فساده ، فلذا عقبه بقوله سبحانه، أي هو منزه عن هذا الذي لا يليق ولا يتصور ممن اتصف بالألوهية والخلق، تنزه أن يكون له ولد مما يتنافى مع حقيقة الألوهية. ولفت العقول إلى الأدلة المنزهة على أخصر طريق:

**أولا:** التعجيل بقوله (سبحانه) إبرازا لشناعة هذا القول، لأن الرّغبة في الولد ناشئة عن نقص في الوالد، لأن الوالدين لما كان الفناء يلحقهما رغبا في الولد للبقاء في الفرع، ولأن الوالد يرغب في الولد ليسعفه عند كبره وضعفه، والله منزه عن ذلك

**ثانيا:** إن كل الكائنات العاقلة وغير العاقلة في الأرض والسماوات مملوكة له، وهي أيضا خاضعة له يتصرف فيها تصرف المالك المطلق. كل له قانتون، وكلاهما مما ينفي الولدية ،لأن الولد جزء من أبيه لا مملوك له، وشأن الولد أن تكون صلته بوالده صلة بر وقرب لا صلة خضوع وانقياد.

**ثالثا:** إن الله أبدع خلق السماوات فلم يسبق لها وجود ولا مثل، وأبدع خلق الحيوانات على غير مثال سابق، وأبدع خلق الإنسان كذلك. فكل كائن هو مخلوق لله أنشأه مصورا كما أراد بحكمته، وشأن الولد أن يكون نسخة من أبيه لا مختلفا عنه اختلافا جوهريا.

**رابعا:** قرب الله لعباده إنشاء الكون الذي ضلت فيه عقول البشر، وخبط فيه الفلاسفة ما خبطوا دون أن يصلوا إلى نتيجة يقبلها العقل. وذلك ببيان الفرق بين الخالق والمخلوق، فإذا كان عمل المخلوق متوقفا على أسباب ومقدمات ، فإن شأن الخالق أمر آخر، إنه إذا تعلقت إرادته بإحداث أي شيء مادي أو روحي فإن إرادته يتصل بها اتصالا مباشرا الانجاز، بدون مقدمات ولا ترتيب، ولا مواد أولية. أما كيف يتم ذلك فإن عقول البشر تقصر عن تصوره دون دعوى استحالته.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الذين لا يعلمون:** المشركون.

**آية:** علامة على الصدق.

**البشير:** هو المخبر بأمر سار.

**النذير:** المخبر بأمر مخوف.

**بيان المعنى الإجمالي:**

قال المشركون إنا لا نؤمن إلا إذا كلمنا الله، أو نرى بأعيننا شيئا ينادي بصحة ما تقول، فلا تعجب يا محمد من عنادهم فهي الطريقة التي سار عليها الكافرون قبلهم. فعقولهم وتفكيرهم يشبه بعضه بعضا، وما أنزلناه عليك بين واضح لمن فتح بصيرته لقبول الهدى. وكن واثقا أنا أرسلناك مؤيدا ملابسا للحق، تبشر الصالحين وتنذر الكفار والفاسقين. وإن ما أعددته للكفرة من عذاب الجحيم هو فوق الوصف.

**بيان المعنى العام:**

**118- وقال الذين لا يعلمون...لقوم يوقنون.**

كما سجل مقالات اليهود والنصارى سجل مقالة المشركين. أرادوا أن يقذفوا باليأس في قلب رسول الله الحريص على هدايتهم، فقالوا له: إننا لا تؤمن بما جئت به إلا إذا كلمنا الله مباشرة ، وسمعنا صوته يعرفنا بأن ما تقوله حق، أو أن تأتينا معجزة مادية نراها بأعيننا. كما ذكره القرآن في سورة الإسراء **(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)**[1].

ثبت الله نبيه بأن ذلك هو شأن المعاندين مع المرسلين، فقد طلب اليهود من موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلها كما للمشركين آلهة، إلى غير ذلك مما قصه الله في القرآن. وكذلك الأمر مع عيسى ﷺ ، فقد سألوا أن تنزل عليهم مائدة من السماء. فعقولهم متشابهة كلما جاءتهم آية اقترحوا آية أخرى. وفيما أنزل

---

[1] سورة الاسراء، الآيات 90-92.

الله من القرآن ما يقوم حجة على صدق رسول الله ﷺ، فمضمونه وطريقته وأسلوبه، وما أخبر عنه من المغيبات التي لا تتأتى للعقل البشري، وكون كل ما جاء فيه يشهد العقل بصدقه ويؤكده، كل ذلك شواهد صدق لقوم فتحوا عقولهم لتقبل الحق .

**119-إنا أرسلناك...ولا تسأل عن أصحاب الجحيم .**

يزيد الله سبحانه تثبيتا لنبيه، فيخاطبه مخاطبة مباشرة، (إنا أرسلناك) ضمير المتكلم " إنا "من الله، وضمير المخاطب الحاضر رسول الله "أرسلناك" ومضمون اختلط بالرّسول واختلط به حتى أصبحا شيئا واحدا "بالحق" فهو الحق والحق معه. ويرفعه إلى المقام الذي أراده له فكل الخلائق مخاطبون من قبله ﷺ، من آمن ومن كفر (بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين) ثم يسليه عما يلقاه من رفض الكافرين لدعوته فيقول له: ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. هم أهون من أن تسأل عنهم، وهوانهم يتجاوز الحد الذي يسأل عنه لمعرفته.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الملة:** ما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ولا تضاف إلا للنبي ﷺ الذي تسند إليه فلا يقال ملة الله ولا ملة فلان ويقال ملة محمد وملة إبراهيم.

**هدى الله:** ما يقدره الله للشخص من التوفيق.

**الهوى:** رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل.

**الولي:** القريب المؤيد.

**النصير:** المعين على رد الضر.

**بيان المعنى الاجمالي:**

أخبر الله نبيه بأن تعصب اليهود والنصارى حجب عنهم تبين صدق الرّسول ﷺ ، وأنهم علّقوا مهادنته على ترك دينه واتباع ما هم عليه. قل لهم يا محمد: إن التوفيق من الله وحده، والهدى الحق الوحيد هو ما أنزله الله عليّ. ثم يؤكد تأكيدا مبالغا فيه أن من اتبع ضلالاتهم النابعة من أهوائهم هو خاسر لأن الله لا يكون له مؤيدا ولا ينصره.

### بيان المعنى العام:

### 120- ولن ترضى عنك...ولا نصير.

تعصب اليهود ليهوديتهم، وتعصب النصارى لما هم عليه تعصبا حجب عنهم النظر في دلائل صدق الرسول وما في دين الإسلام من هداية تجمع بين البشر وتهديهم سواء السبيل، وبلغ بهم التعصب أن أعلن كل فريق أنه لا يهادن محمدا إلا إذا اتبع ملته وتخلى عن دينه. قل يا محمد بكامل الشجاعة والقوة:

إن هدى الله ووحيه هو الهدى الحق لا ما أنتم عليه من أوهام تراكمت، وتلفيقات اخترعتموها، وإني لا أملك هدايتكم لأن الألطاف التي تحيط بالإنسان حتى يسلم في دنياه وآخرته هي من الله وحده. ويؤكد القرآن أن من اتبع تلكم الأهواء المخترعة، والضلالات التي ألحقوها بما أنزله الله على رسله وحرفوا بها هداية الله، من اتبع ذلك فقد تخلى عن رابطته بالله الرابطة التي يتبعها تأييد الله له ونصرته عند الشدائد، ومن تخلى عن تلكم الرابطة هلك. وتوجه القرآن للرسول ﷺ فيه تحذير من الطمع في هدايتهم، فاسترضاؤهم طمعا في دخولهم للإسلام طمع فيما لا مطمع فيه، لشدة ما استقر في قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم من حقد وبغض للإسلام.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**يتلونه حق تلاوته:** التلاوة المتأملة الواعية لمضامين المقروء.

### بيان المعنى الإجمالي:

الذين مكنهم الله من التنزيل الموحى به لرسله ، يقرأون القرآن قراءة المتفهم الواعي لمقاصده، وهؤلاء هم المؤمنون به لأنه يأخذ بعقولهم وقلوبهم إلى الإيمان بك وبالمنزل على قلبك.

ومن يكفر بالحق ويتبع هواه هو الخاسر الذي لا يجد من عمله شيئا.

### بيان المعنى العام:

### 121-الذين آتيناهم الكتاب...ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون.

هذا هو شأن القرآن في الإنصاف، فلما أبرز تعصب اليهود والنصارى في الآية السابقة، بين أن من يتلو التوراة من اليهود ومن يتلو الإنجيل من النصارى تلاوة متأملة متفهمة مدركة لمضامينه، متوقفا في كل ما ورد فيهما مما لا يقبله العقل

ولا يمكن أن يكون وحيا، هؤلاء التالون التلاوة الحقيقية الذين رفعوا حجاب التقليد وعمى التعصب، هؤلاء يؤمنون بالرّسول وبالقرآن. وهم بذلك قد ربحوا في حياتهم الدنيا ربحا هو الفوز عند الله والطمأنينة في الدنيا بأنهم على صراط مستقيم. ومن كفر فأولئك الذين كان عملهم باطلا لا يلْقوْن منه أي نفع فهم الخاسرون.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**اذكروا:** ذكر استحضار للنعم.

**اتقوا:** اجعلوا لنفسكم وقاية من عذاب الله.

### بيان المعنى الإجمالي:

يكرر القرآن دعوة اليهود أن يستحضروا ما أنعم الله عليهم وأنه فضلهم على أهل زمانهم ببعث الأنبياء فيهم، وأنقذهم من ذل فرعون وغير ذلك من النعم. ثم أمرهم أن يحصنّوا أنفسهم من العذاب في يوم لا يتحمل أي فرد عن غيره شيئا، ولا يقبل منه فداء لأنه لا يملك شيئا في ذلك اليوم، ولا تنفعه شفاعة لأنه لا يستطيع أي شخص في ذلك اليوم أن يقوم شفيعا، ولا يجد له نصيرا.

### بيان المعنى العام:

### 122-123 ، يا بني إسرائيل...ولاهم ينصرون.

بعد أن كشف القرآن في هذه السورة عن مكائد اليهود وعنادهم وحسدهم ومكرهم في الآيات السابقة أعاد دعوتهم ليقرع أسماعهم من جديد لييأسوا من أن الله سيغفر لهم لأنه فضلهم على العالمين ببعث الأنبياء فيهم وما أفاضه عليهم من نعم كثيرة، فأكد ما جاء في مفتتح خطابهم أن الأخرة لمن اتقى وأنه لا ينجي الإنسان فيها إلا عقيدته الصالحة وعمله المرضي.

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا

بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

## بيان معنى الألفاظ

**الابتلاء:** اختبار المكلف في وفائه بما كلف به.

**الكلمات:** الكلام الموحى به لإبراهيم.

**فأتمهن:** أتى بجميع ما أمر به دون أن يبطئ.

**الإمام:** القدوة الهادي.

**الذرية:** نسل الرّجل وما توالد منه.

**ينال:** يحصل على الشيء وهنا العهد.

**العهد:** وعد الله.

**الظالمون:** مرتكبو الكبائر وأعظمها الشرك بالله.

**البيت:** يطلق بالغلبة على الكعبة.

**مثابة:** مثابة مقصد يرجعون إليه.

**مقام إبراهيم:** يصح أن يكون المراد به الحجر الذي كان يعلو عليه لما ارتفع بناء البيت (وهو الحجر الموضوع قبالة باب البيت الآن تحت قبة من الزجاج حفظا له) ويحتمل أن يكون مقامه البيت كله باعتبار أن إبراهيم كان يقوم عند البيت يفرد الله فيه بالعبادة ويدعو الناس للتوحيد.

**عهدنا:** أوصينا وصية مؤكدة.

**العاكفين:** جمع عاكف وهو المقبل الملازم على سبيل التعظيم.

**البلد:** المكان من الأرض المعروف حدوده، وغالبا ما يطلق على المأهول.

**القواعد:** جمع قاعدة وهي الأساس الذي يقوم عليه البناء.

**الأمة:** الجماعة العظيمة التي يجمعها ما له قيمته من نسب أودين أو زمان.

**أرنا:** من رأى بمعنى عرف أي عرفنا.

**مناسكنا:** جمع منسك ما نتعبد به، أرنا مُتَعَبَّداتنا.

الآيات: جمع آية جملة دالة على صدق التالي لها لما اشتملت عليه من البلاغة والإعجاز في النظم، والسعة والصدق في المضمون.

**بيان المعنى الإجمالي:**

كلف الله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف فأداها على أفضل الوجوه وأتمها، جازاه ربه فقال له: إني جاعلك إماما للناس يقتدون بك، فطلب إبراهيم من ربه أن تستمر الإمامة في ذريته، فأجابه ربه لما طلب مع التحقيق أنه لا يبلغ تلك المرتبة ولا يستحقها من كان ظالما. ومن المقرر عند العرب في وقت البعثة صلة إبراهيم عليه السلام بالكعبة، فنوه الله بهذا البيت، بأن جعل تعلق الناس به تعلقا كبيرا، يخلف زواره بعضهم بعضا، ومن زاره يكون عند مغادرته متشوقا إلى العودة إليه، وجعل سبحانه في قلوب الناس حرمة له تحقق بها الأمن لزواره والقاصدين للعبادة فيه. وأمر سبحانه تبعا لذلك أن يتخذوا من المقام الذي كان يعبد فيه إبراهيم ويدعو إلى الله، ومن الحجر الذي كان يرتفع عليه لبناء البيت، مكانا يكون التقرب فيه إلى الله بالصلاة أعظم ثوابا. وأوصى إبراهيم وابنه أن يحرصا على إعداد الكعبة للعبادة بتطهيرها من كل ما يؤذي العابد، ومن الأصنام المنافية للتوحيد، حتى يتوفر للطائفين حول البيت والمقيمين فيه والعابدين الراكعين الساجدين، يتوفر لهم ما يمكنهم من أداء العبادة لله على أفضل الوجوه وأتمها.

وينوه القرآن بإبراهيم إذ توجه إلى الله داعيا أن يقدر لهذا المكان الأمن الذي تتحقق به العمارة، وأن ييسر لسكانه المؤمنين أسباب الرخاء فيرزقهم من مختلف أنواع الثمار وإن كان في طبيعته مكونا من جبال جرداء، ويلقن الله نبيه بأن رحمته تسع المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، إن متاع الكافر في الدنيا هو متاع محدود فان، ثم يلجئ الكافر إلى عذاب النار وبئس المصير.

كما ينوه بإبراهيم وهو يرفع الأسس التي تستند إليها جدران الكعبة مع ابنه إسماعيل بجمعه بين تنفيذ ما أمره الله به من بناء البيت، وبين الابتهال بأن يتقبل الله عملهما، والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما نُفذ بإخلاص على أفضل الوجوه وأتمها، فيُعقّب إبراهيم دعاءه بأنه سبحانه يعلم صدقهما في الإخلاص. كما يبتهل إلى ربه أن يجعلهما مسلمين له روحهما ومشاعرهما وأعمالهما، وأن يستمر هذا الإخلاص في قسم من ذريته، وأن يتفضل عليهم بمعرفة ما يرضيه من طرق العبادة، وأن يغفر للجميع غفلاتهم أو تقصيرهم، مقدما بين يدي دعائه اقتناعه بأن الله هو التواب الرّحيم بعباده. ويختم ابتهالاته بأن يحقق الله ما دعا به وذلك بأن يبعث في ذريته نبيا منهم يثبت كل ما جاء في ابتهالاته بأن يصحبه بكتاب معجز في بلاغته وفي

مضمونه ،يعلمهم الكتاب الذي يملأ قلوبهم من الحكمة ويزكي مداركهم وأفعالهم لتجري على صراط مستقيم. ويصرح برجائه في قبول دعائه بأنه يدعو ربه العزيز القادر الذي لا يعظم عليه أي شيء الموصوف بالحكمة البالغة.

**بيان المعنى العام:**

**124- وإذ ابتلى إبراهيم ربه...الظالمين.**

واذكر ما حدث مما سأتلوه عليك: كلف الله إبراهيم بالقيام بمجموعة من التكاليف مضبوطة، هو مأمور أن يكملها على الوجه الذي أمر به، ومنهي أن يدخل فيها ما لا يلائمها. ولما كان التكليف ظاهره أن النتيجة تظهر بعد تنفيذ المطلوب، عبر القرآن عن هذا التكليف بالاختبار (الابتلاء) ولم يفصل القرآن ما كلف به إبراهيم، لأن ذلك لا يهم، إنما المهم هو أن يقتدي البشر بأبي الأنبياء إبراهيم فيحرصوا على امتثال ما يطلب منهم خالقهم لينالوا الجزاء والتكريم. ويظهر أن هذه التكاليف تقتضي يقظة وجدا وذكاء في التنفيذ، لأن الله رتب على وفاء إبراهيم بما كلف به أن جعله قدوة للبشر جميعا في كمال الطاعة وحسن الامتثال، فقال له إني جاعلك إماما مقتدى به لجميع البشر. ويحرص إبراهيم لصفاء روحه وما طبع عليه من فضل، ولأن ذلك من الفطرة السليمة، أن يتكرم الله أيضا على بعض ذريته بالإمامة، حتى لا تنقطع هذه الميزة، القيادة للخير من نسله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الإنسان ينتفع بعد موته بدعاء ولده له. فهي وشيجة بين الأصول والفروع ينتفع الآباء بصلاح ذرياتهم وتنتفع الذرية بصلاح الآباء. ويجيب الله إبراهيم بأنه لا يحرم الصالحين من ذريته من هذه المرتبة ويحجبها عن الظالمين. وأعظم أنواع الظلم وأشده، الكفر بالله، ومن الظلم تعدي حدود الله بارتكاب الكبائر والبغي على الناس، (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)[1] وتقرر الآية حقيقة: هي أن الإمامة التي يكون صاحبها مُتَّبَعا سواء أكان لتحمله لرسالة من الله أو لتحمله قيادة مجموعة بشرية في شؤون الحياة أو لقيادتهم في العبادة كإمامة الصلاة، أساس توليه تلكم القيادة: هو العدل والبعد عن الظلم. وتهدي الآية إلى مبادئ تنتفع منها البشرية في حياتها الاجتماعية إن هي راعتها، فإسناد الولايات والمناصب لا بد أن تتقدمه تجربة تظهر الكفاءات وتبرز ما عند الشخص من قدرات، وصفاء نفسه وروحه ببعده عن الظلم والانحياز للهوى.

**125-وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا...السجود.**

---

[1] سورة النساء آية 31

ذكر إبراهيم ﷺ يثير في نفوس السامعين بناءه البيت الحرام. فيقول الله لرسوله واذكر لتُجدد ما حدث ليكون حاضرا في ذهن الناس ما تعاقبت العصور والأزمان، اذكر رفع إبراهيم أسس البيت الذي أمر ببنائه ليكون خالصا لله لا ملك لأحد عليه، وقرن هذا التذكير بمزايا الكعبة وما حولها، إذ خصها الله قبل البعثة بأنها المكان الذي يقصده الناس طائفة بعد طائفة كلما أتمت طائفة مناسكها خلفتها طائفة في دورة لا تنقطع، رتبها خالق الكون ترتيبا ثابتا، وهي مثابة للناس يتعلق زائرها بحبه العودة إليها، وهذا ما يدركه كل من طاف بالبيت وأقام في مكة إقامة تطول أو تقصر، فإنه يجد في نفسه شوقا للعودة إليها بمجرد ما يغادرها. وجعل لهم في هذا المقام أمنا يوم كان الأمن يكاد يكون مفقودا إذ وقر في قلوب العرب عدم التعدي لا على النفوس ولا على الأموال في جوار البيت. فإذا فارق الضعيف الحرم تعرض للاعتداء والتسلط عليه.

### 125-واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم...

قرئ واتخذوا فعل ماض إخبار عن اتخاذهم البيت وما حولها موضعا للصلاة الخالصة لله فيه، بما قذفه الله في قلوبهم من الاهتداء إلى هذا الأمر، أو باعتبار أن إبراهيم أمر الناس باتخاذ البيت وما حوله مصلى، فاستجابوا واتخذوا. قرئ واتخذوا (فعل أمر) على أن القرآن أدمج في تنويهه بالبيت الأمر بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. على معنى وقلنا لهم اتخذوا ، فاتخذوا.

وأوصى الله سبحانه إبراهيم وابنه إسماعيل وأكد تلكم الوصية المتضمنة بأن يثبتوا في قلوب الناس أمورا تتعلق بهذا البيت وما حوله: تطهير البيت من القاذورات والأنجاس والأوساخ، فيكون البيت وما حوله نظيفا مساعدا ومحببا لإقامة العبادة حوله فلا يتأذى العابد بما يكرهه.

تطهير البيت من كل الأوثان ومظاهر الشرك ، تهيئة جميع الظروف المادية والرّوحية للطائفين حوله، إذ قد شرع الطواف حول البيت عبادة مرعية عند الله بمجرد ما تم بناؤه. تيسير العبادة فيه التي منها الركوع والسجود.

### 126-وإذ قال إبراهيم رب اجعل...وبئس المصير.

اذكر ذلك المشهد، مشهد إبراهيم وهو متجه لربه بالدعاء ضارعا إليه أن يقدر لهذا المكان الذي بنى فيه الكعبة: العمارة والسعة وطيب العيش. فيدعو أن يتحقق فيه الأمن الذي يقوم على العدل والرّخاء، وواصل إبراهيم دعاءه بأن يرزق ساكنيه من الثمرات المختلفة، إذ البلد الحرام بواد لا زرع فيه ولا سهول حوله وإنما هي

جبال صخرية سود. وبدون ما تنبته الأرض من خيراتها لا بقاء للإنسان ولا إقامة ولا هناء. فطلب إبراهيم أن يرزق أهله المؤمنين من ثمرات الأرض ما يقيم حياتهم فيه. فخص دعاءه بالمؤمنين، إذ أن الكُمّل من البشر تصفو مداركهم صفاء يتبعه أنه إذا نبهوا لأمر أجروا نظائره عليه. وإبراهيم قد سبق له أن دعا باستمرار الإمامة في ذريته دون تفصيل، ونُبه أن الإمامة لا تكتسب للظالمين. ولذا خص الرّزق بالمؤمنين، فلقنه ربه أن سنته في الخليقة أن لا يُقصر مرافق الحياة وأسباب الرّزق على المؤمنين، بل رحمته وسعت خلقه مؤمنهم وكافرهم في الدنيا. وأن ما يصل إليه مما يستمتع به هو متاع قليل، باعتبار أن متاع الدنيا لمدة قليلة لا تزيد على أقصى تقدير عن عمر الإنسان المحدود، والفناء يلاحقه، وما يستمتع به زائل غير باق ينتهي الإحساس به سريعا. فلا يغتر من يصل إليه ما هو محبوب من أمور الدنيا، فمتاعها قليل، ومن لم يؤمن مُلجأ لا مفر له من عذاب النار. ولا مصير أسوأ ولا أشنع ممن تكون خاتمته العذاب فيها مع ما يصحبها من خزي.

## 127-وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل...السميع العليم.

مشهد يسجل القرآن صورته لتبقى حية يتملاها البشر سائرة مع الدهر، بعد أن هيأ لها بتنويهه بإبراهيم.

مشهد إبراهيم وهو يرفع البناء مثبتا على الأسس التي أقام عليها الكعبة ويعلو بها، يساعده ابنه إسماعيل تنفيذا لوحي الله. ويندمج العمل المادي في الشعور الرّوحي، فيجهر صوته داعيا: ربنا تقبل منا؛ مبرزا أن الجانب المادي من البناء ورفع جدران البيت لا قيمة له إلا إذا تقبل الله منهما العمل، وهي مرتبة يتعلم منها المؤمنون أن ارتفاع العمل إلى المستوى الذي يرضى الله عنه فيتقبله هو ما ينبغي أن يطلبه العابد بعبادته والعامل بعمله. فإنه وإن كان إبراهيم ﷺ وولده ينفذان ما طلبه الله منهما، وهما مستحضران أن ما يقومان به ليس له أجر في الدنيا، وأن ذلك المكان ما أمر الله بعمارته بهذا البيت إلا لحكمة يعلمها، وأن الله شرفهما باختيارهما لتنفيذ أمره؛ ومع ذلك فقبول العمل منهما لا يدرك يقينا لأنه في علم الله المكنون. ومن حكمة إبراهيم أن وصل بقوله إنك أنت السميع العليم، فهو سبحانه المتفرد بسماع دعائهما وابتهالهما، وهو المتفرد بعلم بواطنهما وما انطويا عليه من إخلاص يقترن به حضور صلتهما بالأمر حضورا موصولا واعيين به أتم الوعي وأكمله.

## 128-129، ربنا واجعلنا...الحكيم.

ويصل عرض المشهد لسيدنا إبراهيم متضرعا لربه مع ولده إسماعيل بالدعاء: ربنا قدّرْ لنا الثبات على الانقياد لك فلا نغفل عن حقك، وقدر هذه الهداية لبعض ذريتنا. وإنما خص الدعاء بالهداية ببعض ذريتهما لعلمه أن من ذريتهما المؤمنين والكافرين الضالين، ووصل ذلك بأن يمن عليهما بمعرفة الطريقة التي تكون عليها العبادة محققة للرضا والقبول، ويبدو في هذا المشهد وهو مدرك بأن الإنسان مهما بذل من جهد هو مقصر، إذ كل لحظة تمر يغفل فيها عن استحضار جلال الله في النفس، تقصير من العابد في حق المعبود، فيدعو أن لا يؤاخذهما بما يصدر عنهما من تقصير، معتمدا على ما وصف الله به نفسه بأنه التواب الرّحيم. ويختم دعاه بابتهاله أن يبعث في ذريته رسولا منهم؛ ويلهم في دعائه توصيف هذا الرّسول زيادة على كونه منهم، أنه يكون مؤيدا بنص يتلوه عليهم، يكون معجزا، يتولى هذا الرّسول تعليمهم الكتاب المنزل عليه بتبليغه ثم بيانه، فتمتلئ قلوبهم بالحكمة التي تعصمهم من الضلال في العقيدة وتردهم إلى الحق إذا غفلوا.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**رغب:** رغب في الشيء إذا أحبه ورغب عنه إذا رفضه كما في الآية.

**سفه نفسه:** أهانها ولم يعطها وزنا.

**اصطفاه:** اختاره بالنبوة وجعله للناس إماما وباختياره لبناء بيته وتسلسل النبوة في ذريته.

**أسلم:** أسلم نفسك لي.

**شهداء:** جمع شهيد وهو الحاضر عند حدوث الأمر.

**بيان المعنى الإجمالي**

هل يمكن أن يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم إلا من أهان نفسه ولم يعطها وزنا. إن إبراهيم قد اختاره الله من بين البشر لتحمل الرّسالة وبناء الكعبة بيت الله الحرام. واستجاب له فجعل النبوة سائرة في ذريته إلى أن ختمها بمحمد ﷺ. وقد حقق القرآن أنه في الآخرة من عباد الله الصالحين المميزين. إن ما ناله كان جزاء

إسراعه لتنفيذ ما طلب منه فقد قال له ربه: أسلم وجهك لي فأسرع إلى الاستجابة. ثم إنه حرص على بقاء هذه الهداية في ذريته فوصى بها ذريته وكذلك حفيده يعقوب، مؤكدين على أن الله قد اختار لهم دين التوحيد فليثبتوا عليه إلى الموت. وكذبت يهود في دعواهم أنهم ملتزمون بوصية يعقوب فهم لم يشهدوا وصيته التي ما كانت تختلف عن وصية إبراهيم وإسحق فإنه عندما حضرته الوفاة شدد على بنيه أن يلتزموا بعبادة الله الواحد الأحد.

**بيان المعنى العام:**

### 130-131، ومن يرغب عن ملة إبراهيم ...أسلمت لرب العالمين.

تميز إبراهيم عليه السلام بإسراعه إلى الطاعة وتنفيذ الأمر الإلهي على خير الوجوه وأتمها إخلاصا وإنجازا باطنا وظاهرا، فكان ﷺ بما بلغه من وحي الله وبسلوكه الطاهر قد سن للبشرية من بعده الطريقة التي يرضى الله عنها في العقيدة والسلوك ،واستقر هذا في ضمائر التابعين للديانات الباقية. فاليهود والنصارى يعترفون بأنهم على خُطى إبراهيم والعرب كذلك، فالاستفهام الإنكاري في محله هل يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم؟، فيقدر الجواب لا يوجد إلا من أهان نفسه ولم يعطها قيمتها. ذلك أن إبراهيم عليه السلام هو الرّجل المختار من الله، الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، وقد حقق إبراهيم في حياته الدنيا مراتب من السمو والنباهة والفضل لم يبلغها أحد من أهل زمانه بجمعه بين وضوح العقيدة والإخلاص في العمل، والاجتهاد في تنفيذ ما أمر به من ربه، وحسن قيامه على تربية أسرته، فكان مثلا للكمال البشري، فلا يتصور أن يوجد من يرفض منهجه ويتبع طريقا غير طريقه الرّاشد، إلا من لا يحترم نفسه ولا يفكر في عزتها. ثم يزيد القرآن تأكيدا لمزاياه بالتنصيص على أن الله قد اختاره في الدنيا، وأنه يوم القيامة سيكون مكرما مع عباده الصالحين. ثم يبرز مزيته الكبرى أن الأمر أتاه من الله بأن يسلم قلبه وروحه وحياته كلها لله فلا يشغله عن ربه أي شاغل، فأسرع بالاستجابة وقال بلسان مقاله ولسان حاله (أسلمت لرب العالمين) فأدمج في جوابه المستند الذي استند إليه والدليل الذي اعتمده وهو حضور الحقيقة الأولى بأنه مطمئن إلى أن الآمر هو رب العالمين الحقيق بأن يسلم كل فرد كل أموره إليه.

### 132-133، وأوصى بها إبراهيم...مسلمون.

ويعقب القرآن الموقف الإبراهيمي بتذكير أصحاب الديانات السماوية عند نزول هذه الآيات بالعهد الذي أخذه يعقوب على ذريته، هذا العهد الذي لم يحضره اليهود الذين ينتسبون إليه. الله هو العليم وحده بما جرى في ذلك المشهد، فقد سأل يعقوب بنيه

ما تعبدون من بعدي ؟ كان همه في آخر لحظة من حياته أن يطمئن على أن ما وقر في قلوبهم وأرواحهم وعقولهم هو التوحيد الخالص الذي كان عليه كما كان ورثهُ إياه إبراهيم وإسماعيل وإسحق، هو الله الواحد الأحد، ثم إسلام الوجه له وحده في العقيدة والعبادة وجميع شؤون الحياة. وإذ استبان منهج إبراهيم عليه السلام الذي هو ما التزمه إسماعيل وإسحق ويعقوب، رد القرآن دعوى يهود: أنهم ملتزمون بوصية يعقوب عليه السلام أن يثبتوا على دين يعقوب كما يتصورونه بعد ما تراكم على وصيته عبر القرون من أوهام وما لابسها من ضلالات. وأبان أن وصية يعقوب هي التوحيد الخالص وأنه في تلكم اللحظة التي فارق فيها الدنيا، قد صرح ذريته أمامه بأنهم أسلموا عقولهم وأرواحهم وأعمالهم لله الواحد.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**خلت:** مضت.

**حنيفا:** هو وزن فعيل بمعنى فاعل، والحنف أصله ميلان في الرّجل يجعل صاحبه ينحرف في سيره عن المصاحبين له في المشي، ولما عم الشرك والضلال في عهد

إبراهيم وخالف هو ﷺ قومه جميعا وانفرد بطريق غير طريقهم عبر عن دينه بالحنيفية، وبأنه حنيف، ثم كثر استعمال حنيف في وصف الممدوح باتباعه طريقا غير طريق الضلال.

**الأسباط:** جمع سبط ابن الابن وهم اثنا عشر ولدا ليعقوب بن إسحق، كل واحد منهم أوحي إليه وكان نبيا. ومنهم تفرعت قبائل يهود.

**بمثل ما آمنتم به:** الإيمان واحد فالمراد بمثل ما آمنتم به إيمان مساو لإيمانكم.

**شقاق:** مخالفة قوية شديدة.

**صبغة:** واحدة من الصبغ.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إن إبراهيم ومن آمن به قد مضوا في التاريخ لهم أجر ما وطنوا عليه أنفسهم وقاموا به من صالح الأعمال، وللحاضرين في زمن البعثة المحمدية جزاء أعمالهم. ولا ينتفع أحد بما قام به سلفه من خير، ولا يسأل أحد عما قدم غيره وإن كان من نسله. فتقرر أن المسؤولية متعلقة بالفرد الفاعل.

وقال اليهود: كونوا يهودا لتتحقق لكم الهداية والسلامة في العاقبة، وقال النصارى: كونوا نصارى لتحصلوا على الهداية، قالوا ذلك اعتقادا منهم أنهم ورثة الهدى الذي جاء به إبراهيم.

قل لهم يا محمد وليقل ذلك كل من اتبعك: إني على المنهج الإبراهيمي الرافض لكل التصورات التي كانت في زمنه والمعلن للوحدانية الخالصة. وبهذه الخاتمة (وما كان من المشركين) رد القرآن على مشركي العرب الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم. ثم فصل القرآن هذه الحنيفية، فأمرهم أن يواجهوا تلكم الدعوات التي يروج لها أهل الكتاب ومشركو العرب، فيقولون: نحن مؤمنون بالله، ومؤمنون بشرائعه التي نزلت علينا وهي خاتمة للشرائع وناسخة لكل ما يخالفها، دون أن ينافي هذا الإيمان ما أنزل على إبراهيم وعلى ولديه إسماعيل وإسحق، وعلى حفيده يعقوب بن إسحاق وعلى أبناء يعقوب (الأسباط) وما أنزل على موسى وعيسى، وكل هداية جاءت من الله فتلقاها أنبياؤه وبلغوها. فهي واحدة في أصولها. فنحن المسلمين: إيماننا بأن الحق واحد وهو كل ما جاء عن الله ونعلن أنا منقادون إليه. ثم يقوي القرآن ويثبت المؤمنين بأنه لا يوجد إلا طريق واحد هو ما بينه رسول الله ﷺ واستقر في قلوب صحابته، فمن آمن بذلك فهو المهتدي ومن خالفه ضل وخسر، وهو خارج عن طريق الله. ويثبت الله نبيه بأن ما يدبره الكفرة للكيد للدعوة وتألبهم على باطلهم، وتعصبهم ضد الإسلام، كل ذلك لا يفيدهم؛ وأن الله ناصر دينه سيرد

مكائدهم في نحورهم. فليثق كل مؤمن أن الله ناصر للحق على الباطل، فإن ما تنطوي عليه بواطنهم، وما يتهامسون به في الخفاء، فالله يسمع سرهم وجهرهم، وهو العليم بما تنطوي عليه نفوسهم فيحبط ما يخططون له من شر وأذى. إن هذا الإيمان الساري فينا مع ما أوحى الله به لأنبيائه، هو الصبغة التي صبغنا الله بها فكانت ميزتنا التي أصبحت ظاهرة فينا. ولا يوجد صورة أرقى ولا أحسن ولا أجمل منها. ولقن القرآن حجة دامغة لرد ادعاءات وجدل الكفار لجماعة المسلمين، فهم يدعون أن الله هو إلههم فقط. فاليهود أنهم شعب الله المختار والنصارى على أن عيسى ابن الله وأنهم اتحدوا به فهم أقرب إليه، فكان الرّد أن الله هو رب البشر جميعا، وعزله عن خلقه هو نفي لكمال الألوهية. فإنصاف العقيدة يقتضي رد ادعاءاتهم وإثبات أن الله تولى كل كائن فخلقه وأحاطه بألطافه حتى بلغ ما بلغ. وأن عدله لكماله يقتضي أن كل فرد مجزي بعمله، فلنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم. ثم يترقى في إبطال تصوراتهم بأن المؤمنين بالرّسالة المحمدية يتميزون بالإخلاص الذي به تتفاوت الخلائق.

ويواصل القرآن تسجيل ضلالات أهل الكتاب وما يروجونه من أباطيل ليدحضها، فمنها أن اليهود قالوا: إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على اليهودية، وقالت النصارى: بل كانوا على النصرانية. كان الرّد حاسما أن الله قد أعلم المسلمين أنهم ما كانوا يهودا ولا نصارى وأنهم واهمون فيما يزعمون، والله هو العليم. وأشار إلى أن هذه الضلالات قد أقرهم عليها أحبارهم ورهبانهم، إن هؤلاء الأحبار والرّهبان هم من أشد الناس ظلما لأتباعهم لأنهم لم يغيروا عليهم ما تراكم عبر التاريخ حتى اطمأنت له العامة إرضاء لهم واستدرارا لمحبتهم ونوالهم. ويهددهم القرآن بأن الله لا يفلت شيء عن علمه، فسيجازيهم بسكوتهم عن الحق حتى أمعن بسكوتهم هذا أتباعهم في الضلال.

### بيان المعنى العام:

### 134 - تلك أمة قد خلت...عما كانوا يعملون.

انتظمت هذه الآيات بين دفتي إطار حاصر من البداية إلى النهاية. هذا الإطار الذي يقرر حقيقة كبرى هي من الأسس التي بنى عليها رب العزة الإسلام، فبلغ بالإنسانية درجة الرّشد. هي تأصيل أن كل فرد من أفراد الجنس البشري له شرف المسؤولية عن أعماله، لا ينتفع بصلاح أصوله ولا يتحمل جريرة ما اقترفوه. فأعلاه المفتتح به ، **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** – وخاتمته النهائية نفس الآية. وما بين دفتي الإطار تثبيت المؤمنين

على الإيمان ومحاجة للمعاندين الكفرة وإسقاط ما يستندون إليه مما يروجونه ويعملون على إقناع الناس به، فتهاوى ما بنوه بساطع الحجة وصادق البراهين، وثبّت القرآن المسلمين ولقنهم ما يسقطون به بهرج أراجيفهم.

### 135-وقالوا كونوا هودا...وما كان من المشركين.

**أولا:** روج أهل الكتاب دعوى مبناها عند اليهود أن الله لما بعث موسى بالهدى وأيده بالمعجزات، فمن أراد لنفسه النجاة والاطمئنان على أنه على هدى الله فليلزم دين اليهودية، ومبناها عند النصارى: أن الله قد اصطفى عيسى، وأنه ابنه، ولا سبيل لسلامة العاقبة إلا لمن التزم بدينه واتبع ما جاء به. ويرد الله عليهما معا، ويُضمِّنُ إسقاط حجتهم الرّد على مشركي العرب فيقول: إن الذي جاء به محمد وأمرنا باتباعه هو ملة أبينا إبراهيم الملة التي طهرت العقيدة من كل لوثة شرك، فمال بالبشرية عن الطريق الذي كانت تسلك ونقّى أرواحها من الشرك والوثنية، واتخذ طريقا مجافيا منحرفا عما كان سائدا (حنيفا) ويتضمن هذا أن ما اعتقده اليهود من أنهم أبناء الله، وقبولهم لما يشرعه أحبارهم على أنه تشريع الله ينأى بهم عن الحنيفية التي أسسها إبراهيم والتي يدعون أنهم أتباعها الحقيقيون. وكذلك النصارى في تأليههم لعيسى وما قبلوه من رواسب الوثنية في عقائدهم ومعابدهم، كله مما يتنافى مع التوحيد الواضح النقي الذي كان عليه إبراهيم ويتضمن هذا، الرّد على مشركي العرب أيضا، الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم مع شيوع الوثنية فيهم. ويسقط حجج اليهود والنصارى والعرب بقوله تعالى: **وما كان من المشركين**. وكلهم على نصيب من شرك ظاهر أو خفي.

### 136-قولوا آمنا بالله...مسلمون.

**ثانيا:** يلقن الله المؤمنين، بأن يعلنوا في اعتزاز ووثوق كامل: أنهم يعتبرون طريق الهدى طريقا واحدا لا اختلاف فيه، هو الخضوع لله وإسلام الوجه له. فكل ما جاء عن الله نؤمن به، وكل من اختاره الله لإبلاغ رسالته هو محل التصديق والتقدير؛ فكما نحترم نبينا محمدا ﷺ نحترم جميع رسل الله، ونصلي ونسلم عليهم كإبراهيم وإسماعيل أبي العرب وإسحاق جد أسباط بني إسرائيل، ويعقوب (إسرائيل) وكل ما أنزل على البشرية بواسطتهم نؤمن به على أن صلاح الإنسانية باتباعه، وقد أسلمنا وجوهنا وخضعنا لله، وارتبطت قلوبنا به سبحانه وتعلقت أرواحنا بهداه.

### 137- فإن آمنوا بمثل...السميع العليم.

**ثالثا:** بعد أن وضح القرآن محتوى الدين الإسلامي في هذه النظرة الشاملة لكل هدايات الله عبر القرون المتطاولة والأحقاب، أكد أن هذا هو طريق الهدى لا طريق غيره، وأن الطوائف الثلاث، يهود ونصارى وعرب، إن آمنوا إيمانا يتساوى مع ما تقرر في الآية السابقة فقد اهتدوا، ولا يضرهم ما كانوا عليه من كفر. وإن أعرضوا فما ذلك إلا لإصرارهم على معاندة الرّسالة الخاتمة فهم لا يبغون إلا مخالفة المسلمين. وقد تمكن الشقاق منهم فلا رجاء في اهتدائهم مادامت قلوبهم في غطاء مقفل لا يتأملون ولا يلينون للحق.

**رابعا:** عقد ت الطوائف الثلاث عزمها على الكيد للإسلام وتربص الدوائر به والاستعداد لممالأة وعون كل من يبغي بالجماعة سوءا، فطمأن الله نبيه بأن الله يحبط ما يحبكونه من خطط ماكرة وأنه حافظه وناصره، فمهما تخفّوا في نصب مؤامراتهم فالله يسمع ما يمكرون به، ويعلم ما تنطوي عليه صدورهم، وسيحبط أعمالهم. وهذه السنة من سنن الله، أن الباطل لا يهزم الحق، تعطي للمؤمنين في عصر الرّسالة وما يأتي بعده قوة على المصابرة وأملا في نصر الله ولينصرن الله من ينصر دينه ويلتزم بما شرعه.

## 138-صبغة الله...ونحن له عابدون.

**خامسا:** بهذه الصورة الجامعة من وحدة الإيمان بالحق، واحترام رسل الله، والتصديق والعمل بما شرعه، والوثوق بنصر الله، حلت السكينة قلوبهم، وأضاءت وجوههم أنوار الإيمان، وخلصت فعالهم وبواطنهم من الرّياء والنفاق والفساد، هذا لون جديد لون صبغ الله به المؤمنين فوحد صورتهم بهذه الملامح التي ذكرناها، فاختفى كل ما كان يخالف بينهم من أعراق وأنساب وألوان وفقر وثراء. فهي الإنسانية الواحدة متجهة إلى رب واحد تحكمها قيم واحدة وتشريع واحد وإحساس بأخوة دينية جامعة. وهل يوجد في الكون واقعا أو متخيلا صورة أجمل أو أنقى وأكمل من هذه الصورة التي صبغ بها المولى سبحانه البشرية المؤمنة بهداية خاتم المرسلين.

## 139-قل أتحاجوننا...مخلصون.

**سادسا:** يخاطب القرآن رسول الله ومن ورائه كل المؤمنين أن يعلنوا في قوة واعتزاز، وأن ينكروا على الكافرين أباطيل حججهم. فليقولوا لهم: أتحاجوننا في حكمة الله من بعثة الرّسل متتابعين، وتنكرون هذا الذي هو عين الحكمة وتدعون أن الله لما بعث رسولا فقد قصر الهداية على ما جاء به في عصره وما يتلوه من

أعصار إلى أبد الأبدين. وهو لا يبعث برسول بعد رسولهم الذي يؤمنون به؟ فيعلمهم أن يعلنوا أن الله ليس رب الإسرائيليين وحدهم ولا رب من يعتقد أن المسيح ابن لله ولكنه رب الناس جميعا، وهذا ما يقتضي أن يكون سبحانه لحكمته يراعي تحول الأعصار والأزمان وتحولات البشرية المتلاحقة فيشرع لهم ما هو مناسب لأوضاعهم فهو رب اليهود راعى ظروفهم ومستواهم وما يصلحهم في عهد موسى وكذلك في عهد عيسى، وكذلك الآن هو رب البشرية راعى ما يصلحها ببعثة محمد ﷺ. وأن ميزة الإسلام هو الإخلاص لله في عبادته وفي قبول ما شرعه وقرره من أمور العبادة أو المعاملات والعلائق بين البشر.

**140-أم يقولون إن إبراهيم...وما الله بغافل عما تعملون.**

سابعا: من المغالطات التي كان أهل الكتاب يروجونها، أن اليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهوديا وكان النصارى يقولون: إنه كان نصرانيا، وما لهم بذلك من علم، بل هي مبالغات أملاها التعصب فأشاعوها ثم تناقلوها حتى وثقوا بها وما ألهم علماؤهم من أحبار ورهبان بسكوتهم عن تصويب خطئهم استترارا لضمان بقاء الاستيلاء على عواطفهم وخضوعهم لهم.

يعلن القرآن، ويطلب من المؤمنين أن يعلنوا: أن هذه المغالطة تناقض ما أثبته الله من أن إبراهيم ومن عطف عليه ما كانوا يهودا ولا نصارى، وقد تكرر هذا أكثر من مرة في القرآن. فمن العناد والإصرار على الباطل أن يواصلوا إعلان ما قرر الله خلافه وأقام عليه الحجة كما سيأتي في قوله تعالى (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) [1]. ويُقَرِّعُ علماءهم بأنه بسكوتهم وممالأتهم للجهلة المتعصبين يكونون من أشد الناس ظلما بكتمانهم ما عرفوا من الحق وإقرارهم أتباعهم على الضلال، ثم يهددهم بأنهم سيلقون جزاءهم حتما، لأن الله عادل ولا يغيب عن علمه شيء ولا تلحقه غفلة في لحظة من اللحظات فهو الحي القيوم.

**141- تلك أمة قد خلت...ولا تسألون عما كانوا يعملون.**

ويختم الإطار بنفس الآية التي ابتدأ بها. آية 134

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

---

[1] سورة آل عمران آية 65

لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ
ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾
وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ
مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ
مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى
وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**السفهاء:** الجَهلة ضعاف العقول.

**ولاهم:** صرَفهم.

**قبلتهم:** الوجهة التي كانوا يتجهون إليها.

**الصراط المستقيم:** أقرب طريق يصل بواسطته سالكه إلى غايته.

**وسطا:** خيارا.

**ينقلب على عقبيه:** يرتد.

**لكبيرة:** شاقة على النفوس.

**ليضيع:** ليبطل آثار أعمالكم.

**رؤوف:** رحيم الرّحمة القوية التي يتبعها دفع المكروه وإزالة الضر.

**تقلب وجهك في السماء:** تحويل نظرك في جهات السماء.

**شطر المسجد الحرام:** جهة المسجد الحرام، أو الكعبة باعتبار أنها واقعة في وسط المسجد الحرام ( شطره).

**الأهواء:** جمع هوى وهو الحب الشديد الذي يحجب العقل عن النظر في العواقب.

**الممترين:** جمع مُمْتَر، وهو الشاك.

**وجهة:** ما يجعله الإنسان قصده الذي يتّوجه إليه.

**الحجة:** ما يؤيد به المتكلم رأيه لإلزام مخاطبيه به.

**الخشية:** خوف يقارنه تعظيم.

**يزكيكم:** التزكية: تطهير النفس من الرّذائل لتنطلق إلى نيل الكمالات.

**الحكمة:** يعلمهم ما يصان به العقل عن الضلال وعن التأثر بالشبه.

**اذكروني:** اذكروني بألسنتكم من الذكر. واستحضروا عظمتي وهو من الذُكر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

اتجه النبي ﷺ والمسلمون بعد الهجرة، أكثر من سنة، في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم أمره الله أن يتحول فيستقبل الكعبة. فطعن المنافقون في هذا الأمر الإلهي، وروّجوا أنه لا يوجد أي مبرر لهذا التحول. رد القرآن عليهم بأن الله هو مالك الكون بجميع جهاته، وأنه يهدي إلى الطريق المستقيم الموصل إلى السلامة والنجاة، وهو الطريق الذي تكون غاية السائر فيه مرضاة رب العالمين. فمن غباء المنافقين الطاعنين تلبيسهم بأن بعض الجهات أفضل من بعض، وقد شاء الله لهذه الأمة الهداية لذلك الطريق. ويصرح القرآن بأن منزلة هذه الأمة عند الله منزلة سامية رفيعة فيقول: على هذا النحو من الكمال جعلناكم أمة أفضل من جميع الأمم، أنتم خيار، لأني قد أعددتكم لتكونوا شهداء على الناس في هذه الدنيا ويوم القيامة، ورسولكم شاهد لكم. وإني تخيرت لكم القبلة التي تتجهون إليها في صلاتكم ،فما شرعته لكم أولا من الاتجاه إلى بيت المقدس وما أمرتكم به من التحول إلى جهة الكعبة، فيه خير لكم بترويضكم على الطاعة، فيظهر من أسلم وجهه لله بالرّضا بكل

ما يبلغه عن الله فيواصل مسيرة الإسلام، وينكشف المنافقون... إنه اختبار كبير لا ينجح فيه إلا من هداه الله لطاعته. والله سبحانه برأفته ورحمته قبل ما مضى من صلاتكم متوجهين فيها إلى بيت المقدس كما يقبل صلاتكم إلى قبلتكم الجديدة.
هذا التوجه إلى الكعبة، كان النبي ﷺ لصفاء روحه ينتظر ورود الأمر به. فكان يحول نظره في آفاق السماء ينتظر الوحي المؤكد لما سمت أشواقه إليه، وعين الله تحوطه ورعايته متواصلة لنبيه، فبشره بأنه سيأمره بالاتجاه إلى قبلة تطمئن نفسه وما تعلقت به مشاعره. وصدر الأمر بأن يتوجه في صلاته إلى المسجد الحرام، كما صدر للمؤمنين في شتى بقاع الأرض أن يتجهوا إلى الكعبة في صلاتهم. ويثبت الله المؤمنين بأن استقبال الكعبة أمر يعلم صدقه علماء أهل الكتاب، وتشكيكهم هو من عملهم على تضليل المؤمنين، ويتهددهم الله بوعيده بأنهم لا يفلتون من قبضته فهو لا تخفى عليه خافية. ويحقق القرآن عناد أهل الكتاب بأنك لو حاولت تحريك عقولهم وقلوبهم بكل الأدلة على أن استقبال الكعبة، هو الحق، ما قبلوا ولا اتبعوا قبلتك (الكعبة) وقد ثبتك ربك فما أنت بتابع وجهتهم. إنهم قد التزموا الخلاف والمكابرة، فشأنهم معك في أمر القبلة هو كشأنهم فيما بينهم، فلا النصارى يأخذون بقبلة اليهود مع أنهم مأمورون باتباع ما جاءت به التوراة، ولا اليهود يأخذين بما هو عند النصارى مع أن عيسى ﷺ جاء متمما للتوراة. ثم يقول الله لنبيه تيئيسا لأهل الكتاب من العودة إلى استقبال بيت المقدس، بأن هذا التحول نهائي، ولو فرض كما يفرض المحال أن تتبع ما يدعو إليه هواهم الضال من استقبال بيت المقدس، فإنك تكون محشورا في زمرة الظالمين الذين تعدوا حدود الله وغيروا شرعه.
ويثبت الله المؤمنين بإظهار ما طبع عليه أهل الكتاب أنفسهم من العناد، وذلك بتأكيده، أنهم يعرفون معرفة يقينية مكما يعرف الآباء أبناءهم، أن ما جاءك من ربك هو الحق. وينصف الله أهل الكتاب بأن فريقا منهم يكتمون ما يعلمون ولا يظهرونه، وأن فريقا آخر أدرك صدق الرسول وآمن به وكان من المسلمين الأخيار. الحق الذي أكرمك الله به هو منزل من ربك الذي تولاك بعنايته. فلا تكونن من الممترين أي الشاكين. والمقصود والله أعلم إيقاظ المسلمين حتى لا تروج عليهم مكائد أهل الكتاب فيداخلهم الشك.
ثم يقرر القرآن حقيقة يدركها الناظرون وإن كانت قد تخفى: أن الناس مختلفون في مقاصدهم وبالتالي في اتجاهاتهم، فبعضهم يُوفَّق لقصد ما هو خير ومنهم من يحرم هذه الهداية فيتجه إلى الشر، ويُرتب على هذه الحقيقة تحريض المؤمنين أن

يتسابقوا في إدراك الخيرات التي هي كثيرة وميسورة، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. ويلفت القرآن نظر المؤمنين إلى حقيقة يغفل عنها كثير من الناس أيضا، وهي صمام الأمان، هذه الحقيقة هي أن كل إنسان سيعود إلى ربه، ويأتيه محملا بما قدم من خير أو شر، إن الله قادر على كل شيء. إن تشريع تحويل القبلة تشريع عام في جميع الأحوال والظروف، يستوي في ذلك المقيم والمسافر، فالواجب على المؤمن حيثما كان أن يجتهد ليتوجه بصلاته إلى الكعبة. فإن هذا التوجه هو الحق الذي يرضى عنه المعبود الذي يعلم ما تقومون به من أعمال ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة. يعيد القرآن أمر الرّسول بالتوجه إلى الكعبة المشرفة عند الصلاة ليرتب عليه أن المؤمنين هم أيضا مطالبون ببذل الجهد في كل مكان، في الحضر والسفر بالتوجه إلى القبلة في الصلاة. إن هذه العناية بأمر القبلة وإنزال هذا التشريع الواضح المؤكد يبطل ما يحتج به الكفرة ليصدوكم عن القبلة، فأمر الله واضح، وإذا تحقق ورود الأمر من الله واضحا بينا، فكل ما يرد عليكم من حجج الكافرين لا قيمة له إذ هي مغالطات لا حجج. والذين تمكن الظلم من نفوسهم بتحديهم على أوامر الله وإنكار حقائق وحيه، هم ضعاف مهزومون، فلا تخافوهم وامضوا على الالتزام بما أمرتكم، واخشوا التفريط فيه، أو عدم العناية بتحقيقه، فقد أردت أن أكمل عليكم نعمتي بهذا التشريع. إنه بذلك يرجى أن تفوزوا بالهداية إلى ما يحقق قبول أعمالكم.

شبه القرآن نعمة الهداية بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة بالنعمة الكبرى التي من الله بها على المؤمنين ببعثه محمدا ﷺ مقيما فيهم، يبلغهم ما ينزله عليه ربه من الآيات البينات، ويسمو بهم مطهرا لهم من كل ما ينحرف بعقولهم وأرواحهم إلى مهاوي الرّذيلة والفساد، ويعلمهم الكتاب المنزل فيحفظون عنه لفظه، ويكشف لهم أسراره، وما جاء فيه من تشريع هاد، ويعلمهم تعليما يحميهم من الخطأ والضلال والوقوع في حبائل الشُبه. ويرشد القرآن المؤمنين بعد تفصيل هذه النعم المتتابعة: أن عليهم أن يذكروا ربهم باليقظة لنعمه وكمال فضله، وأن يعبروا عن ذلك بألسنتهم، وأن يشكروه شكر المعترف بالفضل الرّاغب في المزيد. وليحذروا أن يجحدوا نعمه، أو أن يغفلوا عنها، أو أن يستولي على عقولهم تواصلها فينسبوها لأنفسهم.

**بيان المعنى العام:**

**142-سيقول السفهاء...إلى صراط مستقيم.**

سجل القرآن مصابرة الرّسول ﷺ والسابقين من المؤمنين، ومعاناتهم في المدينة المنورة من مكائد المنافقين الذين كان أغلبهم من اليهود أو من المتأثرين بهم. فقد

كانوا يترصدون ما يتتابع من وحي مميز للإسلام عن بقية الأديان. وكلما نزل تشريع أسرعوا إلى التشكيك في صلاحه، أو إلى ادعاء أنه لم يأت بجديد. ومعظم المسلمين كانوا ممن رسخ الإيمان في قلوبهم، وبعضهم دخل في الإسلام حديثا، وهؤلاء ربما يروج عليهم مكر المنافقين. وقد حدث في السنة الثانية من الهجرة أمر عظيم هز المجتمع المدني هزة كبرى، ذلك أن النبي ﷺ أمره ربه بأن يتوجه بصلاته إلى الكعبة المشرفة، بعد أن كان يتجه إلى الشام إلى بيت المقدس، أين أقام سليمان عليه السلام دولته، وأين ولد السيد المسيح عليه السلام . فكبُر على أهل الكتاب هذا التحول بما يدل عليه من استقلال المسلمين عنهم استقلالا تاما. فأخذوا في نشر الأراجيف، وبذر الشكوك في صحة هذا التوجه. ولذا افتتح القرآن ما يتعلق بهذا الأمر بتثبيت المؤمنين، والرّد على الكائدين فقال تعالى: **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ؟ السفهاء من الناس هم المنافقون كما يدل عليه قوله في فاتحة سورة البقرة **(ومن الناس من يقول آمنا)**[1] وقوله **(ألا إنهم هم السفهاء)**[2] . حركوا المؤمنين لرفض تشريع استقبال الكعبة بإثارة السؤال التالي: ما الذي حدث حتى يترك المسلمون القبلة التي كانوا عليها ؟ وهو سؤال مبطن فيه أنهم ينكرون وجود أي مصلحة في ذلك، وبالتالي فهم يطعنون في صدق النبوة. وأعلن القرآن عن حقيقة تبرز غباءهم فقال تعالى: قل يا محمد: وليجب أيضا بذلك المسلمون لرد هذا المطعن: إن الجهات جميعها شرقها وغربها مملوكة لله وحده. وهو الذي يشرع ما يعلم فيه المصلحة التي يرضى عنها للتقرب لعلى ذاته، فيهديهم لها ليفوزوا برضوانه. وليس ذلك لأمر ذاتي وإنما بجعل إلهي.

## 143- وكذلك جعلناكم أمة وسطا...لرؤوف رحيم.

يقرن القرآن هداية المسلمين للتوجه إلى الكعبة: البيت الذي بناه إبراهيم بوحي من ربه كما فصل ذلك في الآيات 125←128 من سورة البقرة. يقرن ذلك بإبراز عناية أخرى خص بها أمة الإسلام فجعلها أمة وسطا، عزيزة، خيارا. كواسطة العقد لأنفس جوهرة فيه، في أخلاقها وموقفها من الكون والحياة والمخالف والموافق، وهي بعيدة عن التطرف والتفريط، فلا المسلمون موغلون في التشديد على أنفسهم، ولا التشريع الذي كلفوا بتطبيقه عسير تطبيقه، وما جعل عليكم في الدين من حرج. كما أنها ليست منحلة متراخية العزيمة تتشرب كل المؤثرات،

---

[1] سورة البقرة ، آية 8

[2] سورة البقرة ،آية 13

وتفقد ذاتيتها وخصائصها مع تقلبات الظروف والأحوال. جعل منها أمة لا تترك الدنيا وتعتبرها رجسا والكمال في عدم الالتفات إليها، ولا تقبل عليها إقبالا يوهن الطاقات الرّوحية، وبالتّالي تستولي عليها المادة ومباهج الحياة الدنيا؛ بل ينعدم التناقض بين المادة والرّوح الذي حير كثيرا من الناس فتم بينهما التكامل بالإسلام فكانت به أمة وسطا. إنهم بهذه المنزلة السامية قد تهيأوا ليكونوا شهداء على الناس بتبليغ الإسلام وتوضيح أحكامه ثم الشهادة عليهم تبعا لذلك بأنهم مؤمنون أو كفار. وكذلك يوم القيامة، هم يشهدون للرسل بالتبليغ يوم ينكر أقوامهم. أخرج البخاري بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب ، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرّسول عليكم شهيدا. فذلك قوله ﷻ: **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرّسول عليكم شهيدا**- والوسط العدل[1]. وإن ما شرعته لكم من الاتجاه قبل ذلك إلى بيت المقدس، ثم ما شرعته لكم من التحول إلى الكعبة فيه خير لكم، بترويضكم على الطاعة، وتمحيص المؤمنين المسارعين للامتثال وقبول ما ينزل عليهم من ربهم، وكشف من في قلوبهم مرض الرّاجعين إلى الكفر بأدنى سبب. وينوه الله بإسراع المؤمنين بالاستجابة لأوامر الله، فيعلن أن ذلك ليس بالأمر الهين، إنه بعد التوجه إلى بيت المقدس أكثر من سنة ثم في لحظة يأتي الأمر بالتحول فتبرز الطاعة الرّاضية، وقبول ما جاء عن الله، هو أمر ينبئ عن عمق الإيمان والخضوع للرحمن، حلول الهداية في القلوب وخلوص الأرواح من الشوائب. والله قد كتب ثواب صلواتكم التي توجهتم بها إلى بيت المقدس فلا يذهب جزاء أعمالكم. ويؤكد ذلك بأن الله رؤوف والرّأفة الرّحمة البليغة التي تختص بالمرضيّ عنهم وهو رحيم أيضا رحمته التي وسعت كل شيء.

## 144 -قدنرى تقلب وجهك في السماء...يعملون.

كان النبي ﷺ لصفاء روحه، وإشراقها اللامع متهيئا بإحساس خاص أن الله سينزل عليه أمره بالتحول إلى الكعبة، وكان يقلب نظره في السماء لعل الوحي سيأتيه قريبا بذلك. وفي اللحظة التي اختارها الله بحكمته، نزل عليه الأمر بأن يتوجه إلى الكعبة التي هي في وسط (شطر) المسجد الحرام. ويكرم أمته بخطابها بأن يتوجهوا شطر

---

[1] فتح الباري ج9 ص39/238

المسجد الحرام في الحضر والسفر في صلاتهم. إن هذا التحول يعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى صدقه، وأنه هو الحق المنزل من رب العالمين. ولكنهم يواصلون تضليلهم ومحاولة صد المؤمنين عن الإيمان. وخبثهم هذا مسجل عليهم تسجيلا لا يفلتون من عقابه.

### 145- ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب...إذا لمن الظالمين.

إنهم وطنوا أنفسهم على العناد ومقاومة الإسلام، لا تنفع فيهم الحجج، ولا ينصاعون لواضح الأدلة. لو جمعت لهم كل الأدلة البينة، ما تبعوا قبلتك. ويصرح بما يقتضي يأسهم من رجوع المسلمين إلى استقبال بيت المقدس **(وما أنت بتابع قبلتهم )** وهذا شأن أهل الكتاب فيما بينهم فما اتبع اليهود قبلة النصارى ولا اتبع النصارى قبلة اليهود.

-ويحذر الله المؤمنين من أن يروج عليهم ما يشكك به المنافقون، فإن أمر القبلة ليس أمرا مما يتسامح فيه أو يقبل الاجتهاد في المقصود منه، وعلى سبيل الفرض كما يفرض المحال، أن الرّسول ﷺ لو اتبع ما تذهب إليه عواطف أهل الكتاب بعد ما نزل عليه من العلم اليقيني فإنه يكون واحدا منهم من زمرة الظالمين. والمقصود والله أعلم شدة تحذير المؤمنين من التراخي في أمر القبلة.

### 146-الذين آتيناهم الكتاب...وهم يعلمون.

ثم بين القرآن إدراك أهل الكتاب لأمر التوجه إلى الكعبة فأكد أنهم يعرفون أحقية التوجه للكعبة معرفة بلغت من الوضوح أنها معرفة تساوي معرفة الوالدين أبناءهم. كما أنصف في الحكم عليهم فإن انصياعهم إلى ما تقتضيه هذه المعرفة اليقينية كانوا فيه على قسمين: فريق وطنوا أنفسهم على كتمان ما يعرفون، وقسم أشرقت نفسه للحق الوارد على لسان رسول الله ﷺ فأعلن إيمانه وانضم إلى حزب المؤمنين.

### 147- الحق من ربك فلا تكونن مكن الممترين.

ويصدع القرآن تبعا لذلك بأن ما جاء به هو الحق فلا تجعل للشك على قلبك سبيلا. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ، فإن المراد والله أعلم، هم أمته حتى يحسوا بخطر الشك.

### 148- ولكل وجهة هو موليها...على كل شيء قدير.

ويذكر القرآن بحقيقة من الحقائق التي قد يغفل عنها: أن الله لم يخلق البشر نمطا واحدا كما تقذف به المصانع الصماء، ولكنهم مختلفون. ومن قدرة الخلاق العليم أن

ميز بينهم فلا يوجد إنسان نسخة كاملة من سلفه أو من جنسه فضلا عن غيره من الأجناس. فكل فرد له وجهة هو متجه إليها تبعا لما اقتنع به واختاره. ويرشد الله المؤمنين أن يرفعوا حجب الغفلة فينتبهوا إلى المآلات ويختاروا الطرق التي تبلغهم الخيرات التي لا مطمع لبلوغها إلا برضا الله، إن الله يجمع البشر جميعا من كان مقبلا عليه فيزيده قربا وكرامة ومن كان معرضا عنه فيسلط عليه عذابه ولا يفلت أي فرد من قبضة الله إنه القادر على كل شيء.

## 149 - 150، ومن حيث خرجت...ولعلكم تهتدون.

ويزيد أمر التوجه للكعبة تأكيدا فيأمر النبي ﷺ وكذلك أمته، أن يرعوا هذا الاستقبال في صلواتهم بالحضر والسفر، هي قبلة تجمع من كان شرق الكعبة أو غربها أو شمالها أو جنوبها. إن ما يحتج به المنافقون وأهل الكتاب والمشركون هي حجج مدخولة لا قيمة لها فإياكم أن تتأثروا بها. إن أمر الله في استقبال الكعبة واضح لا مجال فيه للتأويل، وإذا أمر الله فليس هناك إلا الطاعة والتنفيذ. فسقط كل ما يحتج به المشككون والمعاندون. لكن الظالمين قد تعدوا أقدارهم واعترضوا على الحق، وتعصبوا، فلا يزعجكم تمالؤهم على الباطل ولتكن ثقتكم في الله الثقة التي تكسب قلوبكم القوة والثبات والشجاعة في الرّأي فلا تخافوهم واخشوني خشية توجب زيادة القرب مني بامتثال أوامري. فهذا هو السبيل الذي تبلغون به ما تبحثون عنه، وهو الاهتداء إلى الطريق الذي يرضيني. لقد أردت أن أتمم عليكم نعمتي، وتمام النعمة في الدنيا بما يحصل في نفس المؤمن من الطمأنينة والرّضا وفي الآخرة بالفوز بالجنة.

## 151- كما أرسلنا فيكم رسولا...تعلمون.

ويطمئن القرآن المؤمنين بتذكيرهم بنعمة عظيمة أخرى ينظر بها منّة عليهم بالتوجه إلى القبلة، هي أن الله بعث فيهم رسوله يعيش بين أظهرهم، ويرقب أحوالهم، ويجمع كلمتهم، ويتلو عليهم ما ينزله الله عليه من آيات القرآن ، ويطهر نفوسهم من الشرك والفساد والرّذيلة، ويسمو بها فتتصل بالله تناجيه وهي مطهرة من الأدناس فارقت الجانب الطيني المظلم وأشرقت بأنوار الحق. ويعلمكم الكتاب تعليما يرفع ما أشكل عليكم وينهج لكم طريقة الإستقامة عليه ظاهرا وباطنا، ويعلمكم ما يحصن نفوسكم من الوقوع في الخطأ والضلال، أو أن تفعل فيكم الشبه الحيرة فتقودكم في مسارب الضلال والظلام. إنها الحكمة التي ينزلها الله في القلوب فتضيء لها مسارب الحق وتحميها من الزيف. إنها مستويات ما كانت تخطر ببالكم قبل ذلك.

## 152-فاذكروني أذكركم...ولا تكفرون.

أتم الله علينا نعمته وأرسل فينا رسوله فأنقذنا من الضلال وهدانا إلى ما يرضيه علينا وإلى ما يفوزنا يوم القيامة. كما شرع لنا ما يصلح كل فرد في ذاته وفي علاقاته الاجتماعية وما يقيم الأمة على أصول تكسبها العزة. وتكر الله يكون باللسان ليكون اللسان رطبا بالتسبيح والتحميد والتمجيد والصلاة على رسوله وتلاوة القرآن. ويكون الذكر بالقلب باستحضار المؤمن في كل لحظة ومع كل فعل أن الله يرقبه ليحاسبه وهي البوصلة التي تجعل المؤمن ملتزما الصراط المستقيم طريق النجاة في الدنيا والآخرة. وليكن المؤمن شاكرا لنعم الله عليه النعم التي تتابع ولا تحد. وليحذر كفرانها فينسبها لنفسه ولذكائه أو للظروف المواتية فالأسباب لا ننكرها ولكن المؤمن يوقن ويتذكر أنه سبحانه هو خالق الأسباب وهو الذي يجعل الأسباب لا يصحبها ما يعطل تأثيرها. قال تعالى: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)[1].

ويرشد الله المؤمنين بعد أن فصل لهم النعم السابقة، التي تتابعت عليهم بفضل من الرّحمن الرّحيم، أن عليهم أن يذكروا نعم الله ويتأملوا فيها وأن تكون حاضرة في أذهانهم وقلوبهم وأرواحهم لا يغفلون عنها. إن تذكر نعم الله يفرغ في النفس نعيما لا يدانيه نعيم اخر، فأية كرامة وأي نعيم أرقى من شعور الإنسان أن رب العزة قد اعتنى به فأكرمه ونعمه وأحبه حبا مؤكدا. والذكر التأملي يساعد عليه الذكر اللساني. فقد ختم الإمام البخاري صحيحه بالحديث الذي رواه بسنده إلى أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: كلمتان حبيبتان إلى الرّحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[2] وجزاء هذا الذكر القلبي واللساني صرح القرآن بجزائه بوعده الذي لا يخلف: أنه سيذكر الذاكرين، وذكره يتبعه مواصلة العناية بهم بما يواصل عليهم من أمداده ورضوانه. ومع الذكر يرشد المؤمنين إلى الشكر بصرف نعم الله فيما خلقت من أجله لا في المعصية ولا فيما يضاد النعمة، أو الغفلة عن فضل المنعم ﷻ فيستولي على العقول تواصل الخير فينسبوا النعم إلى مهارتهم وذكائهم، وحسن تأتيهم للأمور. إن الكفر يتبعه زوال النعمة، والشكر يتبعه نموها وثوابها.

---

[1] سورة إبراهيم آية 7

[2] فتح الباري ج 17 ص427/426

*** التوجه إلى القبلة أول تشريع تفصيلي في القرآن. وقد أشرنا إلى مقدار الاهتمام به. والتوجه إلى عين الكعبة لمن كان مُمكنًا من رؤيتها فرضٌ تبطل الصلاة بالانحراف عنها، وبعض المصلين في المسجد الحرام قد يغفلون فيكون موقفهم إلى غير سمت الكعبة مما يترتب عليه بطلان صلاتهم. وأما من كان بعيدا عنها لا يتمكن من تحقق الاتجاه إلى عين الكعبة فالمطلوب منه الاجتهاد وما أداه إليه اجتهاده يكفيه في تحقق الامتثال.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**في سبيل الله:** في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

**لنبلونكم:** نمتحنكم.

**الخوف:** الخوف من مباغتة أعداء الإسلام وحربهم.

**الجوع:** الأصل أن يطلق على الجدب، وتوسع فيه فيطلق على الحاجة الشديدة للأكل.

**ونقص من الأموال والأنفس والثمرات:** ما يصيب هذه الثلاث أو بعضها، بما نتعرض له من المصائب، فتزيل بعضها.

**صلوات:** ضروب من التطهير والمغفرة والتكريم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نداء للمؤمنين وإيقاظ لهم بأنهم مكلفون برسالة إصلاح في نفوسهم وإصلاح للبشرية وإصلاح لكوكب الأرض وما يحويه. ولنجاحهم في هذه المهمة عليهم أن يستعينوا بالصبر وعدم العجلة وأن يعملوا على تقوية أنفسهم وتزكيتها بالمحافظة على الصلاة. وذلك أن الله معين للصابرين. إن الإيمان لا يمنع من جريان سنن الكون على جميع البشر. فسيختبرهم ربهم في صدقهم بما يلاقونه في مسيرتهم من مصاعب كالخوف من غدر الأعداء ومكرهم، ونقص في الأموال والأنفس والثمار، بالحروب والجوائح ونحو ذلك. ويأمر الله نبيه أن يبشر الصابرين الصبر الإيجابي، الذي يكون من آثاره أن يستشعر المصاب بأنه مملوك لله، وأنه يعود إلى

خالقه في السراء والضراء. إن الصابرين الذين يستشعرون هذه المعاني ويصرحون بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، تنصب عليهم من خزائن الفضل الإلهي تزكية لنفوسهم وجبر لكسرهم، ورحمة تمسح جراحهم. وهم بذلك يستحقون شرف وصفهم من ربهم بأنهم الذين فازوا بالهداية لطريق الحق.

**بيان المعنى العام:**

### 153- يا أيها الذين آمنوا استعينوا...مع الصابرين.

ينادي القرآن المؤمنين نداء يوقظهم ويحرك عقولهم ليكونوا دائما مستشعرين مهمتهم في هذا الكون، إنها مهمة شرفهم الله بها، إنها مهمة الصلاح والطاعة لله وتنفيذ أوامره. وهي مسيرة طويلة يلاقي صاحبها الصعاب والمعوقات. والإنسان ضعيف فيرشد الله المؤمنين أن عليهم أن يطلبوا مدد القوة بأمرين:

**أولا:** الصبر الإيجابي وهو غير صبر الاستسلام والانطواء على الذات، بل هو العزيمة التي تُضعف قدرات المعوقات ومضاء المثبطات، فيعود المؤمن على خطته بالمراجعة وسد الثغرات التي كانت منها مداخل الضعف، وأن يصرف سنن الخالق في الفوز أو الهزيمة تصريفا يكون به فيما يستقبله أشد مضاء وأبلغ اقتدارا.

**ثانيا:** مع هذه الشحنة للعزيمة لتمضي في سبيلها غير واهنة، يقرن القرآن الصبر بتحريك القوة الرّوحية، بأداء الصلاة على وجهها حين يتصل المصلي بربه فيسمو على الكون كله ويجد نفسه في صلة مباشرة بخالق الكون وما يحويه، فيتمشى في قواه الرّوحية والعضلية مدد يستسهل به الصعاب، ويفتح له المغالق، ويؤكد صموده وعزته. روى الإمام أحمد أنه ﷺ كان إذا حزبه (اشتد) أمر فزع إلى الصلاة. ويُقرّ القرآن قاعدة من قواعد سنن الله في الخلق: أنه يؤيد الصابرين فيكون معهم مساعدا ومقويا. ويظهر اتصال الآية بما سبق من أمر القبلة بحث المؤمنين على الصبر على الحق الذي جاءهم من ربهم، وأن يواظبوا على الصلاة التي من أركانها استقبال الكعبة. وأن الله مع المؤمنين سيظهر دين الإسلام وتتحلق حول الكعبة دوائر تحيط بكوكب الأرض في كل لحظة من لحظات الزمن.

### 154-ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله...ولكن لا تشعرون.

و لما ذكر الصبر وما ينتظره الصابرون، ناسب أن يصرح القران بالمنزلة العليا من الصبر وهي صبر الجهاد، فمن يصبر على المضي في الذب عن عزة الإسلام حتى يستشهد ويصبر على القتال حتى يظفر بإحدى الحسنيين فيلقى ربه ودماؤه تشهد بصدقه لتكون كلمة الله هي العليا، إن هؤلاء الشهداء يثبت القرآن خطأ من يظن أنهم بمفارقة الرّوح الجسد والقبضة من الطين قد ماتوا، بل هم ينعمون بحياة

روحية لا نستطيع نحن إدراك نعيمها. إن الشهيد قد سما عند ربه إلى منزلة كريمة، ومن كرامته أنه لا يغسل ولا يصلى عليه، لأن الله ضمن بتزكيته له الطهارة والغفران.

## 155-156، ولنبلونكم...إليه راجعون.

إن بعض المؤمنين يظنون أنهم بإيمانهم قد حققوا لأنفسهم ولممتلكاتهم حماية من كل الأضرار، وهذا خطأ كبير في التصور، فإن سنن الله في الخلق تجري على ما قدره لها سبحانه. فالله سبحانه يختبر صدق المؤمن ويمتحنه بما يسلط عليه من مكاره فيتعرض للخوف من مباغتة الأعداء، والتهديد بالاعتداء من الظلمة والجبابرة والكفرة، وتأتي سني الجدب التي تأكل كل ما تقدمها من خيرات، وقد لا يجد المؤمن ما يجيب نداء بطنه وقد خوت من الطعام، وقد تصيب الجوائح أمواله بالضياع أو الفساد أو النقص، وكل نفس أو عزيز من الأصول والفروع معرض للموت. هذه سنن كونية تجري على البشر مؤمنهم وكافرهم على من يصبر وعلى من يجزع. يمتحنون جميعا فمن يفوز في الامتحان؟ يبشر الله الصابرين بأنهم هم الذين يفوزون في هذا الامتحان. والصابرون هم الذين إذا أصابتهم مصيبة لم تستول عليهم فتغطي إيمانهم أو عقولهم. بل يفزعون عند هول المصاب إلى ربهم فزعا يُجري في أرواحهم ثقة في الله واعترافا بأن ما ذهب ليس ملكا لهم، بل إنهم وما يملكون الكل ملك لله، وأنه لا اعتراض على المالك عندما يقضي باستعادة ملكه متى أراد، فهو الله العزيز الحكيم، ما ظلم فيما فعل، ورحمته تبقى. هي الباب الفسيح الذي يأتي منه الرَوْحُ إلى القلوب المكلومة. إن هذا التذكر ثم التصريح به (إنا لله وإنا إليه راجعون) يعقبه ما وعد الله به أن الله يرحمهم ويزكيهم ويجعل لهم من كربتهم فرجا ومخرجا. ويفوزون بأنهم من القوم المهتدين للطريق المستقيم.

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ

وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الصفا:** ربوة يبدأ منها الساعي أشواط السعي.

**المروة:** ربوة ينتهي إليها الساعي في كل شوط.

**شعائر الله:** جمع شعيرة معلم على موضع العبادة في الحج والعمرة.

**حج:** الحج أصله القصد، وغلب في قصد المؤمن البيت الحرام للقيام بالمناسك.

**اعتمر:** زار، وغلبَ في قصد البيت الحرام للقيام بالمناسك المخصوصة.

**الجناح:** الإثم.

**يطوف:** يصل إلى الصفا ثم يدور قاصدا المروة وهكذا.

**تطوع:** فعل طاعة، وتطلق بمعنى تبرع.

**شاكر عليم:** يبذل الثواب لمن صلحت نيته التي لا تخفى عليه.

**يكتمون:** لا يخبرون بما ينبغي الإعلام به.

**البينات:** ما أنزله الله من التشريع الواضح، وفصله من أمر العقيدة ومنها الإيمان بمحمد ﷺ.

**الكتاب:** التوراة والإنجيل.

**يلعنهم:** يبعدهم من الرّحمة مع إذلال.

**أصلحوا:** في أقوالهم وأفعالهم.

**ينظرون:** يؤخرون.

**بيان المعنى الإجمالي:**

شعر الأنصار بالحرج من السعي بين الصفا والمروة لأن الجاهليين نصبوا على كل منهما صنما يتمسحون به، فنفى الله هذا الحرج عن الساعين بينهما في الحج والعمرة. وعقبه بقاعدة عامة أن كل من تطوع بفعل الخير فإن الله يثيبه حسب قصده الذي لا يخفى عليه. وتوعد الله من يكتم ما أمر به من التعريف بآياته التي أنزلها بينة واضحة تهدي البشرية للخير، توعده بأنه سيبعده من رحمته ويذله ويهينه. وهو بذلك عدو للصالحين فيتوجهون إلى الله بأن يلعنه. ويفتح الله باب الرّجاء لمن أقلع عن الكتمان وتاب وأصلح ما أفسده، فنشر ما يعلمه من الحق بأن الله يتوب عليه. من مظاهر الكمال الإلهي أن الله، مع كثرة تجاوز البشر الحدود

ووقوعهم في الخطيئة، فإنه يقبل توبة التائبين. فسمي التّواب لذلك وهو الرّحيم بعباده.

## بيان المعنى العام:

### 158 - إنّ الصفا والمروة...شاكر عليم.

في الآيات السابقة صور القرآن الهزة الكبرى التي حصلت عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وما ثبّت به المسلمين. وقد حدث أمر شبيه لذلك، فإن النبي ﷺ لما بين مناسك الحج والعمرة ،التي منها السعي بين الصفا والمروة ، وجد بعض من المسلمين حرجا في القيام بهذا الركن. ذلك أنه قد نصب في الجاهلية على الصفا صنم هو إساف، ونصب على المروة صنم اسمه: نائلة. وكان الساعون يتمسحون بهما، ويعتقدون أن السعي هو إجلال لهما. فبينت هذه الآية أن الصفا والمروة من المواضع التي عينها الله ليقوم المحرم فيما بينهما بعبادة السعي، ولذا فإنه لا حرج على الساعي بينهما بما التصق بذلك في عرف الجاهلية الملحدة، إذ المؤمن يسعى بينهما باعتبارهما من المواضع التي حددها الله لأداء عبادة مخصوصة وخالصة لوجهه، فهذا هو الرّابط بين آيات تحويل القبلة. وهذه الآية، وإن كان وقت نزول هذه الآية قد تأخر عن وقت تحويل القبلة، فالجامع بينهما أن القرآن وطن قلوب المؤمنين على قبول التشريعين . ونَفْيُ الجناح معناه نفي الإثم الذي توهمه بعضهم باعتبار أن الإسلام هدم الشرك وما يتصل به، وما يحيي طرائقه في العبادة. فحقق، أن نصب الأصنام والتمسح بها هو من الشرك المهزوم، وأن هذين المكانين قد شرع الله الطواف بهما سبعة أشواط للتوجه إليه بالعبادة، وهو من الأسرار التي شرعها للبشرية ولا يعلم خصائصها إلا الله، والمظهر الأول في إصلاح النفس بذلك هو الطاعة لله وتطبيق ما شرعه على النحو الذي شرعه. ثم أكد هذا المعنى بتقرير قاعدة عامة: أن من تطوع فقام بفعل خير، فإن الله يثيب صاحبه على حسن قصده وصلاح فعله، إن ربنا يشكر للصالحين أعمالهم بتحقيق المثوبة والجزاء عنها، ولا يخفى عنه ما يصدر عن أي إنسان، لا عمله الظاهر، ولا نيته الباطنة وقصده.

### 159 - إن الذين يكتمون ما أنزلنا...ويلعنهم اللاعنون.

إن تشريع الله يجب أن يبلغ ولا يكتم. كان التبليغ عن الله مهمة الأنبياء والمرسلين، ثم هو مهمة العلماء، فإن الله لما فتح على بصائرهم ويسر لهم تلقي العلم والتفقه فيه ، فإن واجبهم أن يبلغوا ما يسره الله لهم من الهدى. والعالم يحرم عليه أن يكتم ما الناس في حاجة إلى معرفته من الحق في العقيدة ووحي الله. وكذلك ما وصل إليه

من التشريع الإلهي سواء أكان مستندا إلى دليل منصوص من الكتاب أو السنة أو كان حصيلة اجتهاده، وعلى العالم أن ينظر في مآلات اجتهاده وما يترتب عليها من صلاح أو فساد. وكتمانُ ما يفضي إلى مفسدة واجب، كما هو حال بعض الظلمة الذين يصرفون النص بما يهدم الإسلام أو يظلم العباد، فقد كان بعض الحكام يُعد لتحويل مسلمي بلده عن صوم شهر رمضان. فلقن ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه خاطب الجيوش التي كانت معه قاصدة فتح مكة في رمضان وقال لهم: أفطروا لتقووا على عدوكم. فاتخذه حجة لصرف المسلمين عن الصوم، وقاس جهاد الناس في الحياة لتحصيل أرزاقهم على جهاد الحرب وقطع مفاوز الصحراء. وكما بلغ الحسن البصري أن الحجاج طلب من أنس بن مالك أن يحدثه بأشد عقوبة عاقب بها النبي ﷺ فحدثه بحديث العرنيين، فقال الحسن: وددت أنه لم يحدثه، لما عرف به الحجاج من الإسراع إلى سفك الدماء. والعالم إذا انفرد بمعرفة تشريع فالواجب عليه عينيا أن يبين ما يعلمه لطالبيه. وإن تعدد العلماء بذلك فهو واجب عليهم وجوبا كفائيا، من قام به أجر، ولو لم يقم أحد منهم أثموا جميعا. وأشنع أنواع الكتمان ما فعله أحبار يهود وعلماء النصارى من كتمان ما سطر في كتبهم من أن عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينصروه. وجزاء الكتمان مصرح به في الآية: هو أن الله يطردهم من رحمته، ويخزيهم، ويظهر ذلهم وهوانهم. كما يلعنهم الناس لأنهم ظلموهم بكتمانهم ما يعلمون، فعملوا بكتمانهم ذلك على بقائهم في الضلال.

### 160 -إلا الذين تابوا...وأنا التواب الرّحيم.

وشأن القرآن أن يعرف دوما بسعة الرّحمة الإلهية، وأن الله يحب من المذنبين أن يعودوا إلى الخير والهدى، وأن يقلعوا عن فسادهم، فيبشر الذين يتوبون ويظهرون ما عرفوه من الحق ومن الأدلة البينة عليه، بأنه يتوب عليهم ويطهر ما علق بهم من قذارة الكتمان. فالذين تاب الله عليهم وقبل توبتهم لا يحصون عددا وهو أرحم الرّاحمين لا تضيق رحمته بكثرة التائبين ولا بجيوش المستغيثين.

### 161-162 إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار...ولاهم ينظرون.

وكما استحق اللعنة من كتم العلم من أهل الكتاب وضلل أتباعه من أهل ديانته، فكذلك صرح القرآن بلعنة الكافرين المشركين الذين أشركوا بالله وماتوا على كفرهم. وبما أن الشرك أعظم أنواع الظلم، وأخس ما يمكن أن ينحدر إليه الإنسان عرفنا الله بأن اللعنة تحل عليهم من الله ﷻ ومن الملائكة ومن الناس الذين

يشمئزون من الشرك. وأنهم خالدون في جهنم في عذاب متواصل لا يجدون لحظة يخفف عنهم مقاساة آلامه ولا يؤخر نزول العذاب بهم.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**اختلاف الليل والنهار:** تعاقبهما.

**الفلك:** السفن.

**بث:** فرق.

**دابة:** كل أنواع الحيوانات المتحركة.

**السماوات:** جمع سماء ما يرى أنه يعلو الكواكب ويحيط بها.

**الند:** المساوي، والمماثل.

**الحب:** ميل النفس لما تستحسنه.

**التبرؤ:** تكلف البراءة من الأمر الذي من شأنه أنه مضر.

**تقطعت:** الانقطاع الشديد.

**الأسباب:** جمع سبب وأصله الحبل الذي يرتقى به إلى ما هو عال من سطح أو نخلة... كمن مد حبلا ليرقى به فتقطع قبل بلوغ غايته.

**الكرّة:** الرّجعة إلى المحل الذي كان فيه الرّاجع، والمراد به في الآية الرّجوع إلى الدنيا.

**حسرات:** جمع حسرة وهي الحزن المقرون بندم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

خطاب للمؤمنين يحدد ما يجب أن تكون عليه العقيدة الصحيحة، فيقرر أن الله واحد لا مثيل له ولا شبيه ولا مشارك، وأنه واحد لا يتصور مركبا من أجزاء، وكل من نسبت إليه الألوهية، غير الله، هو إله زائف باطل ليس له من الألوهية أي معنى ولا صلة له بها بأي سبب. هو الرّحمن بعباده العظيم الرّحمة تقوم الدلائل على تفرده بالخلق من كتاب الكون: في النظام والإبداع الذي قام عليه خلق السماوات والأرض. وفي التكامل والتواصل بينهما. وفيما يشاهد كل يوم من تعاقب الليل والنهار، يخلف هذا ذاك، ويخلف ذاك هذا، في نظام مضبوط بحساب هو أدق حساب. وفيما هدى له الإنسان من تسخير البحر للتواصل بين الأقطار بواسطة السفن التي تحمل ما ينفع الناس، وبها يتم التبادل التجاري. وفي الأمطار التي تنزل من السماء فتتمشى مياهها العذبة في الأرض القاحلة الميتة فتحيي، وتخرج من صنوف الخيرات للناس والحيوان غذاء ومتاعا. وفي حركات الرّياح في اتجاهات مختلفة، الرّياح التي تصفي الجو وتلقح زهور الثمار، ويرتبط بحركتها تلك، نتائج جد مفيدة للحياة. وفي السحاب الخاضع للتقدير في وضعه في الجو، بين السماء والأرض ومسيره ونزول المياه منه. كل هذه الصفحات من كتاب الكون تهديك إلى أنه لو لم يكن الله واحدا لما سارت على هذا النظام المحكم الذي تجري قوانينه على طريقة واحدة يكشف العقل البشري عن بعضها كلما تقدم في ميادين سبر الحياة والتعمق في دراستها. ومع هذه الأدلة الساطعة فإن بعض الناس تعمى بصائرهم عنها ويرفعون بهواهم آلهة يحبونهم ويقدسونهم، كما يحب المؤمنون ربهم، في الظاهر، وإن كان حب المؤمنين لله المستند للأدلة اليقينية والمبني على النظر العقلي لا يدانيه حب الكافرين لأربابهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله.

ويعرض القرآن مشهد هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك، الظالمين لمن عبدوهم، الظالمين لمن أتى بعدهم فقلدهم، كأنك يا محمد تراه رأي العين يوم القيامة وكذلك كل من يصح منه الرّؤية، ما ذا ترى ؟ تراهم حين يرون هول العذاب الذي يحيط بهم ويدفعون إليه دفعا، وقد فقدوا النصير والمعين، وبرزت قوة الله القوة الكاملة التي لا يشاركه أحد فيها. وحين تذوب صلات القربى والانتصار، حين يتبرأ المعبودون من دون الله ممن عبدوهم وحين تفر الأصنام ممن عبدها، يوم يجد المشرك نفسه وحيدا ذهبت القوى التي كان يُخيّل إليه أنها تنصره وتؤيده، وتمزقت كل الصلات بينهم، في ذلك اليوم تتفجر قلوب المشركين من الحسرة ويقولون: يا ليت لنا أن نعود إلى الحياة الدنيا، لنعلن لهؤلاء الأرباب أنا كنا مخطئين في

تعظيمهم ، وأنهم ليسوا أهلا للعبادة ولا صلة لنا بهم. هي حسرة تقترنُ إلى عذابهم الجسمي عذابهم النفسي. ولا ينفعهم إعلان توبتهم وانفصالهم عن آلهتهم، فهم مقيمون في العذاب إقامة دائمة لا تنقطع.

**بيان المعنى العام:**

### 163 -وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرّحمن الرّحيم.

تعلن هذه الآية العقيدة الإسلامية واضحة وضوحا تاما، وسوف يتكرر في القرآن التأكيد على هذا الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين الإسلامي كله. هذه الحقيقة هي اعتقاد أن الله واحد. هو واحد في ذاته وفي صفاته، فلا يشاركه أحد في ذاته ولا في صفاته. هو واحد ليس مركبا من أجزاء، هو واحد في الخلق فلا خالق غير الله هو واحد في ملكه للكون وما يحويه فلا يملك أحد معه شيئا، هو واحد في تشريعه فلا تشريع إلا لله. ومن عظمته وكماله أنه المتصف بالرّحمة الكاملة التي وسعت كل شيء، كما سبق بيانه في سورة الفاتحة.

### 164 - إن في خلق السماوات والأرض...يعقلون.

ثم يهدي القرآن إلى ما يزيد هذه العقيدة تمكنا في العقول والقلوب، فيدعو إلى النظر في كتاب الكون، هذا الكون الفسيح الذي تتكرر علينا مشاهده، التكرار الذي قد يجعلنا لا نتأمل الحكمة فيه، وقد تغطي هذه الرتابة والتوالي على مداركنا، فتحجبنا عن التفطن لأسرار القوانين التي تحكمه. يهز القرآن عقولنا هزا يحرك الانتباه لما هو أمام أنظارنا. فيعرض علينا في هذه الآية مشاهد من هذا الكون العجيب، ويتكرر لفت أنظارنا فيما سيأتي من آيات القرآن. فلنتابع ما جاء في هذه الآيات: إن السماء التي تعلو أي موقع نسير فيه، نراها بأبصارنا في كل لحظة نرفع فيها رؤوسنا، والسماوات الأخرى(المجرات) التي وصل العقل بمتابعة القوانين المحكمة إلى وجودها والتي تضعف حواسنا عن رؤيتها. وإن الأرض التي استخلفنا الله فيها، نسير في أرجائها ونتغذى منها، وننمو مما تخرجه، والتي تتحرك بسرعة مضبوطة دقيقة لا تزيد ولا تنقص عما قدر لها، التأمل في ذلك كله يثير أسئلة: من خلقهما من أي شيء تم ذلك ؟ ما هي القوانين المودعة في هذا الخلق الذي كشف العلم قديما وحديثا أنه لا أثر في ذلك للصدفة العمياء؟ ما يجري في السماء المحيطة بنا وفي السماوات الأخرى؟ ما تحمله هذه الأرض في بطنها، وما هي أسرار ثباتها وزلزالها، ويابسها وبحارها. وما هي العلاقة بين السماء والأرض، وأثر هذه العلاقة على حياة الإنسان والحيوان والنبات ؟ يتعاقب علينا الليل والنهار. يأتي الليل فيظلم ظلاما مطبقا أجزاء من الأرض. ويعقبه النهار فيخلفه ويضيء ما

كان مظلما. وفي كل من الليل والنهار حكمة تستمر بها الحياة. وكل ذلك بحسبان لا يختلف ، تصرح التقاويم بوقت طلوع الشمس ووقت مغيبها، وبعدد ساعات ودقائق وثوان، كل ليلة وكل نهار من العام. السفن تجري على سطح الماء وتمخر البحار والمحيطات، محملة بما ينفع الناس من غذاء ومعادن ومصنوعات، هدى الله الإنسان لصنعها، ثم أعانه على تطويرها بمراعاة القوانين المضبوطة من الخلاق العليم الحكيم. فما هي هذه القوانين؟ التفاعل الذي يحدث بين الأرض اليابسة والبحار المتلاطمة، وحرارة الشمس، والرّياح المختلفة الاتجاهات والقوة، فتنشأ السحب المحملة بالرّطوبة التي تتجمع وتنزل مياها عذبة من السماء ، فتستجيب الأرض القاحلة بما ينزل عليها من رحمة، وتتحول من مساحات جرداء أو ذابلة إلى خضرة يانعة، وتتمشى في عروق الأشجار والنبات فإذا هي الغذاء والزهور وصلاح الهواء. وكما تجري الحياة في الشجر والنبات، فكذلك تجري الحياة في الحيوانات المختلفة التي تدب على وجه البسيطة، فتتوالد وتنمو، إن هذا الارتباط العجيب بين هذه الظواهر يثيرنا القرآن ويوقظنا حتى لا نمر عليه غافلين.

ظاهرة الرّياح، الهواء المحيط بالأرض، في حركته المختلفة بين القوة والضعف وبين مختلف الاتجاهات، يجب أن نتعمق في هذه الظاهرة ، لنعرف العوامل التي تؤثر في هذا الهواء اللطيف الذي لا يكاد الإنسان يحس به، كيف يتحرك حركته المختلفة في اندفاعها واتجاهاتها، وما ينشأ عن ذلك في الأرض والحياة بصفة عامة؟

ظاهرة السحب التي لم ترتفع في طبقات الجو ارتفاعا يعطل نزول الغيث منها، ولم تنخفض فتلامس سطح الأرض مما تصعب معه حياة الناس، وسخرت معلقة في مسارها بين السماء والأرض بمقدار يتحقق معه توفر القوانين لتحولها إلى مطر. ولماذا تمر على أراض عطشى فلا تنزل منها قطرة، وتفيض من خيراتها على مناطق أخرى فتحييها ؟

في هذه الظواهر مجتمعة. ومنفردة، ما ينادي بلسان حاله، لأصحاب العقول الرّاجحة التي تتجاوز الظواهر إلى الحقائق، أنه لا يُقبل أن تكون نتيجة الصدفة العمياء. فيتأكد بالنظر فيها أنه لا يمكن أن يتصور حصولها ولا استمرارها على هذا النحو من الدقة والضبط إلا بتقدير وترتيب من العالم المحيط علمه بكل دقيقة وكبيرة وصغيرة. فهي دليل شاهد على وجود الله. كما تقوم أيضا شاهدة على وحدانية خالقها، إذ لو تعددت الآلهة فانفرد كل إله بخلق واحدة منها، لما تحقق الانسجام فيما بينها في البناء العجيب للكون، فانتظامها فيما بينها دليل قاطع على

أن خالقها واحد أعطى بحكمته القوانين لكل واحدة منها، ثم التناسق فيما بينها بما حصل منه التكامل والنظام والاستمرار. منح الله كل إنسان عقلا يفكر به، كلما حركه للتأمل انكشفت له جوانب هامة قد يكون خفاؤها بسيطا وقد يكون عميقا، ولكنها جميعها قابلة للانكشاف والتبيّن، وكلها تنادي بأن الله هو الذي خلقها. ومع ذلك فإن بعض الناس يغمضون بصائرهم ويقمعون ومضات عقولهم فيحبسونها عن التفكر، ويتيهون تبعا لذلك في متاهات تفسد فطرتهم فتضل عقولهم وتنحرف عواطفهم، فيتخذون من الوهم ما يرفع بعض المخلوقات من الأصنام إلى مرتبة العبادة فيخضعون لها، ويتحرون فعل ما يرضيها، ويحبونها كما يحب المؤمنون ربهم، فيتعصبون لها ويعلنون الولاء لها، ولكنه حب قاصر ومهتز إذا ما قورن بحب المؤمنين لله فحبهم لذاته العلية حب متأصل يعلو على كل ما يعمر قلوبهم من مشاعر، وإنك لتجد المؤمن يبذل في سبيل مرضاته تعالى كل عزيز حتى نفسه التي بين جنبيه.

## 165- ومن الناس من يتخذ...شديد العذاب.

عجيب هو أمر فريق من الناس تقوم أدلة التوحيد أمام أبصارهم وبصائرهم تناديهم إلى الإيمان. ولكنهم يعرضون عما تقتضيه وينحرفون فينشؤون من خيالاتهم آلهة مساوية لله في ألوهيته. ثم يتضخم خيالهم فيتعلقون بأوهامهم ويخلصون لها كأنها شيء حقيقي ويحبونها كما يحب المؤمنون الله رب العالمين. واحترس القرآن من هذا التشبيه ليحدد أن حبهم هذا لا يرقى لحب المؤمنين لله. فالمؤمن مع ربه في السراء والضراء لا ينفصل عنه استجاب لدعائه عاجلا أو أجل الاستجابة تبعا لعلمه وفضله. بينما هؤلاء المشركون يقطعون صلتهم بآلهتهم إذا اكتشفوا عجزها. وإذ كشفت الآية عن سخافتهم باتخاذهم آلهة من دون الله فإنها واصلت تهديدهم بما سيلقونه يوم القيامة. فقال تعالى: ولو ترى.... يُعْرَضُونَ يوم القيامة :فإنك لو ترى الذين ظلموا بإشراكهم وهم يُرعدون على أشد ما يكون من الخوف والبأس لو تراهم وهم يائسون نادمون على ما حصل منهم حين يرون بأبصارهم أن القوة العظيمة انفرد بها الله وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئا. وأن مظاهر العذاب التي يوقنون أن الله أعدها لهم. أنها على درجة من القوة والشدة فوق متصوراتهم.

## 166-167، إذ تبرأ الذين اتبعوا...وما هم بخارجين من النار.

استحضر القرآن مشهد هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا أخلصوا لهم، فلفت نظر كل من يمكن منه الرّؤية إلى الصورة التي يكونون عليها يوم القيامة كأنهم

يشاهدونها اليوم، وأي صورة! صورة الظالمين بعبادة الأنداد الذين ظلموا معبوديهم الصالحين كما عُبد عيسى عليه السلام وعبد بعض الصالحين بتخيّل أنهم آلهة بعد موتهم، ونصب أصنام ممثلة لهم. كما ظلموا من اتبع أهواءهم وخيالاتهم من الدهماء فأضلوهم، صورة ضعفهم وتخبطهم وقد تحققوا مصيرهم، ورأوا رأي العين ما هم قادمون عليه من العذاب، فخارت عزائمهم وتبدد ما كانوا يعتزون به، وأن ما توهموه قوة تهاوى، وأن القوة المؤثرة قد تفرد بها الله ﷻ جميعها، وليس لأحد من تلك الأنداد ما يغني عنهم في قليل ولا كثير. هي صورة يذهب فيها التصور كل مذهب من مظاهر الذل والمهانة والخسران. وتتواصل الصورة مبرزة حالة أخرى لصيقة بالحالة الأولى: أن الرّوابط التي كانت تجمع العابدين والمعبودين قد انهارت وتبددت كما يتقطع الحبل الذي شد به المرتقي نفسه ليحميه من السقوط، فيتقطع قطعا صغيرة ، ويهوي المعتمد عليه ليتحطم. عندما يتبرأ المعبودون من الذين عبدوهم، وينكرونهم، ويذوب ما كان بينهم من صلات، وترتفع في هذا المشهد أصوات المخذولين من الأتباع الذين كانوا يلوذون بمعبوديهم خاضعين، ترتفع أصواتهم معلنين أمنيتهم: أن يعودوا إلى الحياة ليواجهوا الذين كانوا يعبدونهم، بأنهم لا قيمة لهم ولا يستحقون أن يخضعوا لهم ولا أن يكون بينهم وبينهم أي صلة. على هذا النحو من الخيبة والألم النفسي والعذاب، يظهر الله ﷻ بكمال قدرته وعدله، أعمالهم لهم، أحزانا تصحبها لهفة على ما فات، وينتهي المشهد بأن النار محيطة بهم من كل جانب، مطبقة عليهم، لا يجدون منفذا للخروج منها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الطيب:** ما يستلذه الإنسان.

**خطوات:** جمع خطوة وهي المسافة التي بين قدمي الماشي، وهي هنا بمعنى المسالك التي يدعو إليها الشيطان ويقررها في نفوس أتباعه.

**مبين:** ظاهر العداوة.

**النعيق:** الصياح بالغنم لزجرها.

**بيان المعنى الإجمالي:**

الآيات التي سبقت هذه الآيات لفتت الأنظار إلى بديع الصنع الإلهي وما قدره فأحكمه وما أجرى في هذا الكون من منافع للبشرية، وعرّت المشركين كاشفة عن غباء من اتخذ من دون الله أربابا أخلصوا لهم، وهددتهم بما سينتهي إليه أمرهم. ثم أشار في هذه الآيات إلى انحراف نابع من إعراضهم عن عبادة الله، ذلك أنهم توهموا تحريم بعض الأشياء بدون مبرر، فناداهم الخالق موقظا لهم فاتحا لهم مظاهر كرمه وفضله، نافيا أن يكون ما ينفع الناس محرما عليهم، فقال تعالى بما يفيد الإذن والعتب على من تجاوز: كلوا مما هو موجود على هذه الأرض مما أحللته لكم، وكل حلال هو طيب. وأيقظهم إلى:أن الشيطان يمهد لكم طريق الضلال بوسوسته فلا تتبعوا ما يزينه بمكره الخفي في نفوسكم إن الشيطان عدو لكم ظاهر العداوة. تأملوا فيما يزينه لكم فلا تجدون فيما يوسوس به ويأمركم بفعله إلا ما يضر وما هو قبيح. ثم يبرز القرآن، على طريقته، منبع الانحراف في تفكير الكافرين وعقيدتهم وسلوكهم، هذه الآفة هي التقليد الأعمى المقترن بالتعصب، وإغلاق المنافذ على العقل والتفكير، حجتهم أنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم، والعجب أنهم يتبعونهم، وإن كان هؤلاء الأباء لا حظ لهم من التفكير ولا عقل لهم. ومن فقد العقل فقد الهداية. ثم ضرب القرآن مثلا يجسم حالتهم ليقرّب تصورها تقريبا عاما، فقرن بين صورة الكافرين، وآيات الله تتلى عليهم، ورسول الله ﷺ يبين لهم الحق، ومشاهد الكون تلفت الأنظار وتؤكد صدق الإسلام، وهم لا يلقون لذلك بالا ولا ينتفعون، قرن صورتهم تلك بصورة راعي القطيع الذي يدعو قطيعه إما للشرب أو الأكل أو الاجتماع، بأصوات لا يدرك الغنم منها إلا أصواتا، لا يتبينون من حقيقتها ولا مدلولها إلا كونها أصواتا. ولما كانت الدلائل التي عرضت في القرآن وكتاب الكون، لما كانت من قوة الوضوح باستنادها إلى الفطرة، ومن الصدق باستنادها إلى شاهد البصيرة والعقل، فالذي حرم الكافرين من الانتفاع بها، هو ما اختاروه لأنفسهم بسكوتهم عن الحق سكوت الأبكم، وبما أصموا آذانهم حتى لا ينفذ صوت الحق إلى أسماعهم، وبإغماض أعينهم فلا تنتقل مشاهد الكون إلى قلوبهم، هم صم بكم عمي. والعقل المكتسب ينمو ويكتسب فعاليته مما يرد عليه من الحواس. ولذا فإن فاقد الحواس لا يكون له العقل المكتسب، فهم لا يعقلون.

**بيان المعنى العام:**

**168-169، يا أيها الناس كلوا...مالا تعلمون.**

في الآيات السابقة تم عرض بعض المظاهر الدالة على تفرد الله بالوجود الواجب وتفرده بالخلق والتنظيم بما يلفت الأنظار إلى إدراك الأسرار وراء ذلك ليهتدي الناظر، إلى الإيمان اليقيني عن تدبر واقتناع. وسجل أن بعض الناس لم ينتفعوا بذلك ومضوا على كفرهم تقليدا لآبائهم وطمسا لوهج الفكر أن تنفذ أنواره لإدراك الأسرار وما وراءها. ختم على أنظارهم التقليد لمن كان قبلهم. ترسب من فساد عقيدتهم أن قسموا ما في الكون الذي يملكه رب العالمين إلى حلال وحرام، فحرموا على أنفسهم بعض ما منحه الله لعباده بناء على أوهام، فناداهم القرآن عارضا عليهم فضل الله على البشرية، أن الله أحل لخلقه أن ينتفعوا بما أودعه في هذه الأرض، وإن كانت الآية نصت على الأكل، فإن ذلك بالنظر إلى أن الغذاء هو أول ما يعنى به الإنسان في حياته ولذلك خص بالتنصيص عليه، فبينت الآية أن الله خلق ما في هذه الأرض لينتفع به الإنسان مما كان حلالا تستطيبه النفس المرسلة على فطرتها. وحذر البشرية من الشيطان الذي يعمل بوسوسته فيهيج العواطف ويزين لها الفساد، والعبث بالثوابت فيخلخل نظام التفكير البشري، فيتبع ذلك الفوضى في القيم للذين يتأثرون بوسوسته وتضليلاته فيُحرِّمون ما أذن الله فيه، ويحرض على ما هو شر للإنسان في حاضره وعاقبته، وذلك لأنه انتصب في الحياة الدنيا عدوا للإنسان، نجاحه في إغوائه حتى يغير ما أمر الله به ونهى عنه، و يخيل لمن يغويه أنه بذلك على طريق الهدى، حتى يخسر دنياه وآخراه.

### 170- وإذا قيل لهم اتبعوا...لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

يثور سؤال: ما الذي يزيغ بالإنسان حتى يتبع طريق الشيطان ويبتعد عن الحق الذي جاء واضحا بينا على لسان محمد ﷺ؟ جرثومة الفساد الأولى هي التقليد الأعمى، فالله أعطى للإنسان العقل ليفكر به وهذا العقل متى اعتمده واتبع ما يقتنع به هو نور وصمام أمان، ولكن الضياع والهلاك عندما يعطل الإنسان العقل ويقمعه ويبعده عن التفكير وتقرير الحق، ويحكم العادات وما ورثه عن الآباء ويتعصب لذلك. يعميه التعصب لما كان عليه آباؤه ولو كانت عقولهم سخيفة ضعيفة وبالتالي هم عاجزون عن تبين الحق وطريق الهداية إليه.

### 171- ومثل الذين كفروا كمثل الذي...لا يعقلون.

يجسم القرآن صورة الكافرين الذين رسم مظاهر عنادهم وغبائهم وتعصبهم فيمثل موقفهم من دعوة الرّسول ﷺ بالرّاعي الذي يدعو غنمه للأكل أو الشرب أو يناديها لتجتمع الشاردة إلى القطيع، لا يدرك القطيع من الرّاعي إلا أصواتا تحرك سمعه لا

يفهم دقائق معانيها ولا مضامينها. إن القصور ليس من ناحية الداعي الرّسول ولا في آيات كتاب الكون، ولكن الخلل جاء من أن الكافرين أخرسوا ألسنتهم عن النطق بالحق، وأصموا آذانهم عما أنزله الله من آيات بينات، وأغمضوا أبصارهم عن النظر في كتاب الكون البديع وما تنطق به شواهد الخلق المحكم من دلائل الألوهية والوحدانية، فعطلوا عقولهم باعتبار أن العقل ينمو بالرّصيد الذي يستقبله من الحواس، فتعطيل الحواس تعطيل للعقل.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الميتة:** ما ذهبت حياته من غير تذكية.

**أهل لغير الله:** ما ذكر عليه عند الذبح غير اسم الله.

**غير باغ ولا عاد:** غير مجاوز الحد ولا متعد.

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعا الله المؤمنين مبرزا منته عليهم بإذنه لهم أن يأكلوا الطيبات التي أحلها لهم، وأن يقرنوا ذلك بالتوجه بالشكر لله على ما أنعم عليهم، الشكر الذي هو مقتضى الإيمان. ولما كان الحلال هو الكثير قصر البيان على المحرمات القليلة وهي: ما مات من الحيوانات بغير تذكية، والدم، وكل أجزاء الخنزير، وما ذكر عليه عند الذبح غير اسم الله. ثم إن منهج الشريعة الإسلامية في التكليف أنه يرتفع الحرج عند الضرورة، فالجائع الذي يخشى على نفسه الموت يرتفع عنه إثم تناوله لهذه المحرمات ليُبقي على حياته، فالآخذ بهذه الرّخصة لا إثم عليه إذا كان تناوله للمحرم بمقدار الضرورة مستشعرا فضل الله عليه، وذلك لأن الله غفور للسيئات رحيم بعباده.

**بيان المعنى العام:**

### 172-يا أيها الذين آمنوا كلوا...تعبدون.

ينادي القرآن المؤمنين نداء يرتب عليه فارقا آخر بين المؤمنين والكافرين، فإذا كانت الآية السابقة لما أذن فيها للكافرين بأن يأكلوا الحلال الطيب ليرتب على ذلك أن لا ينساقوا فيما يزينه لهم الشيطان من التحليل والتحريم، فإن المؤمنين معصومون بفضل إيمانهم من هذا الانحراف، ولذا فإن تخصيصهم بالإذن في الأكل

من خيرات الأرض عقّب بتذكيرهم أن عليهم أن يشكروا الله على ما رزقهم، وأن لا يغفلوا عن ربط النعم بمنعمها، وذلك لأن الإيمان الواضح هو الذي يجعل الإنسان متصلا بربه في كل شأن من شؤون حياته، مما يسمو بالأعمال العادية إلى مرتبة العبادة، وعلى هذا فالمسلم عندما يأكل ويذكر إنعام المنعم شاكرا يصير أكله عبادة مأجورا عليها.

### 173-إنما حرم عليكم الميتة...إن الله غفور رحيم.

ولما أمروا بأكل الحلال فقد اقتضى المقام بيان ما هي الأشياء التي أحلها الله ؟ ولما كان الحلال هو الأصل وأنه منتشر في الطيبات الكثيرة المتنوعة، ولما كان الحرام مقصورا على ما اعتبره الشارع الحكيم خبيثا، وهو قليل جدا بالنسبة للحلال، عدد سبحانه المحرمات ليُفهم أن ما سواها مأذون في الانتفاع به، وأول أنواع الانتفاع هو الأكل. فعدد هذه المحرمات التي هي:

أ-**الميتة**: وهي كل حيوان مات من دون تذكية. والتذكية تختلف باختلاف الحيوانات، فالحيوانات البرية الأهلية كالبقر والغنم والإبل والطيور الداجنة ذكاتها بالذبح أو العقر للإبل، مع تسمية الله. وما لا يقع في قبضة الإنسان كالغزال والطيور فذكاتها برميها بما تقتل به مع التسمية، وما كان من الحيوانات التي لا دم لها كالجراد والحلزون فذكاتها بما يزهق حياتها مع التسمية. وقد اختلف الفقهاء في طريقة تذكية بعض الحيوانات ليحل أكلها. وعلى المسلم أن يتفقه في دينه ويراجع العالم بالأحكام الشرعية ليطمئن على حلية ما يأكله.

ب -**الدم**: الدم الخارج من الحيوان عند ذبحه نجس وعلى المؤمن أن يغسل مكان الذبح بما يزيل آثار الدم. وكذلك دم الجراح من الأحياء، إنسانا كان المجروح أو حيوانا.

جـ -**لحم الخنزير**: الخنزير يحرم أكل أي جزء من أجزائه، لا فرق بين اللحم والشحم والجلد والغضاريف والعظام، وعبر القرآن باللحم لأنه المقصود الأعظم من الحيوان لا لقصر التحريم عليه.

د- **ما أهل لغير الله به**: هو كل ما ذكي وذكر عليه غير اسم الله، يستوي في ذلك ما كان يذبحه الجاهليون باسم أصنامهم، وما يذبحه بعض الجهلة باسم من يظنون أنه من الصالحين. إن هذه المحرمات تحقق هدفا من أهداف تربية الإسلام لهذه الأمة، الأمة التي تقود البشرية للخير، ويثق بهم غيرهم، فيبعدهم تدينهم عن الخبائث والمستقذرات، ويطبع بذلك نفوسهم بالعزة ويحميهم من الوقوع في الرذائل. ولذا فإن الإنسان في حال الضرورة القصوى التي يجد فيها وضعه أنه لا خيار له

إما أن يتغذى بالمحرم أو يموت من الجوع. فهنا يقوم عاملان: عامل نفسي داخلي هو رفضه لهذه المحرمات ونفرته منها، وعامل جسماني، حياته معرضة للموت بعدم الأكل. ففي هذا المقام سلمت روحه ومشاعره وضعفه الجسماني يزول بأكل المحرم، فأذن له الشارع الحكيم في الأكل، وحدد له بأن يكون غير ظالم بأكله، وغير متعد حد الضرورة التي ألجأته للأكل. وحد الضرورة تقدر عند مالك بالتزود من الميتة إذا ظن عدم وجود ما يأكله في المستقبل ففي هذه الحالة يجوز له أن يتزود حتى إذا وجد الحلال طرحه وحرم عليه أكله، ونقل عن الحنفية والشافعية أن الشبع من العدوان وللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ملحظ ذكي فقد أوضح أن قوله تعالى:**(غير باغ ولا عاد)** هو تفسير لحد الضرورة أي إن المضطر هو الذي يصل به حد الإحساس بالجوع إلى مستوى يحمله على ظلم غيره أو الاعتداء عليه. على معنى أن الآية وردت لقطع كل تعلة للظلم والعدوان في المجتمع. ثم إن الله طمأن قلبه وهو يهتز قطعا عند أكله لما حرمه الإسلام عليه، بأن الله غفور رحيم بعباده.

**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾**

### بيان معنى الألفاظ:

**يكتمون:** يخفون.

**لا يكلمهم الله:** تعبير عن غضب الله عليهم.

**يزكيهم:** لا يثني عليهم.

**شقاق:** خلاف.

**بعيد:** كبير.

### بيان المعنى الإجمالي:

يتوعد القرآن الذين يخفون أحكاما وآيات مما أنزله الله في كتبه، ويفعلون ذلك مقابل ما يأخذونه من الرشا التي لا تساوي شيئا له قيمته في مقابل ما أخفوه، يتوعدهم بأن ما قبضوه سيكون نارا تهتك أحشاءهم، وأنه سيحل غضبه عليهم يوم القيامة

فيهملهم ولا يكلمهم ،وأنه سيعذبهم عذابا أليما. إن هذا الجزاء هو جزاء عدل، لأنهم بكتمانهم ما أنزل الله قد أخفوا الحق والهدى الذي بإخفائه يحل الباطل والضلال، وبإخفائه باعوا ما كتبه الله من التكريم والمغفرة للعلماء الذين ينشرون ما استحفظوا عليه من العلم، باعوه وثمنه في النهاية العذاب في الآخرة وانقلابهم إلى أئمة للضلال. وختمت الآية بصورة تهكمية تعجبية من طول صبرهم على عذاب النار. إن ما عرض في الآيتين هو العدل الكامل لأن الله نزل الكتاب يحمل الحق، فالذين اختلفوا فيه، والحق لا يقبل الاختلاف، هم قد ابتعدوا عن منهج الكتاب وذهبوا في طريق يختلف عن طريق الله اختلافا كبيرا. فحق عليهم وعيد الله.

**بيان المعنى العام:**

**174-175، إن الذين يكتمون ما أنزل الله...فما أصبرهم على النار.**

الأمانة التي حملها العلماء في جميع الديانات، والتي بها كان لهم المقام الرفيع عند الله، هي بيان ما أنزله الله وتبليغه للناس ورد الشبه التي تعرض للناس. ولذا فإن خيانة الأمين لما اؤتمن عليه أمر فظيع مستنكر. فإذا فسد العالم فأخفى ما أنزله الله وباع الثقة والأمانة فغير وبدل، مقابل ثمن من متاع الدنيا سواء أكان مالا أو جاها، أو استدرارا لعواطف الحكام أو الجماهير، فإن جرمه عظيم، هو قد اختل عنده الميزان وانقلبت القيم رأسا على عقب، توعده الله بأن ما استمتع به في العاجل هو في العاقبة نار تمزق أحشاءه وتقطع أوصاله، وغضب من الله، فهو يستغيث ولا يغاث ويسأل المغفرة فيضيع توسله ولا يسمع، ويفقد مرتبة العلماء الذين يحظون عند ربهم بالثناء عليهم، فالكاتم المرتشي لا يثنى عليه في ذلك الموقف، وجزاؤه عذاب أليم معنويا وجسميا. هؤلاء الكاتمون المرتشون قد باعوا ما ورّثهم الله من كتابه، وما كلفوا به من نشر ما عرفوه، باعوا ذلك الهدى فأخفوه، وباعوا المغفرة التي وعد الله بها العلماء، باعوا ذلك وقبضوا ثمنا زهيدا فانيا. هذه الصفقة من نتائجها أن الحق لما خفي ظهرت مكانه الضلالة، وغطي على الأتباع الحق الذي كتموه بالباطل الذي أظهروه، فكان جزاؤهم نارا يتقلبون في حرها، وتختم الآية بتعبير تهكمي فيتعجب من صبرهم على عذاب النار.

**176 - ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق...اختلفوا في الكتاب لفي شلال بعيد.**

كل ما جاء في الآيتين السابقتين هو العدل الذي لا تشفي فيه وإنما هو الجزاء الوفاق: لأن الله أنزل الكتاب مقترنا بالحق ليظهره وليجري الحياة عليه، فالكاتمون قد انحرفوا وأخذوا طريقا مختلفا اختلافا كبيرا يبتعد عن الهدى كلما أوغل السائر فيه بسبب كتمان علماء السوء.

• لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

## بيان معنى الألفاظ

**البر:** كلمة جامعة تشمل سعة الإحسان وجملة من أنواع الخير.

**قبل:** المكان الذي يقابلك.

**الرقاب:** جمع رقبة ومعناها هنا الرّقيق العبد.

**البأساء:** الفقر.

**الضراء:** شدة الحال على الإنسان ويقابلها السراء.

**البأس:** القتال والحرب.

## بيان المعنى الإجمالي:

نفت الآية أن يكون الخير كله محصورا في الاتجاه إلى جهة من الجهات إلى المشرق أو إلى المغرب، ولكن جماع الخير في هذه المجموعة التي تبين منهجا متكاملا لطريق الهدى التي تشمل: الإيمان الجازم بوجود الله وبصفاته العلية – الإيمان بأن كل إنسان سيلقى جزاءه يوم القيامة – الإيمان بأن الله خلق ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – الإيمان بالنبيين الذين بعثهم الله بوحيه لإصلاح البشر وهدايتهم إلى طريق الحق الذي يرضاه – من تطهر قلبه من الشح فسمح بالمال الذي يحبه، فنال منه ذوو قرابته، واليتامى، والفقراء، والبعيد عن بلده ومركز أمواله، والمحتاجون الذين يسألون العون، والأرقاء ليتحرروا من أسر العبودية، ـــ من أقام الصلاة ركن الدين العملي الأول، وأدى زكاة أمواله طائعا بها، وأوفى بعهده إيفاء يأمنه به من عاهده ويستثيقه، ومن نزع من قلبه الخوف فثبت عند نزول الضر به ولم يظهر التشكي من الألم الذي يصيبه، ولم يجبن عند الحرب. انظر إلى هؤلاء في سُمُوِّهِمْ بما جمعوه، فهمُ الصادقون، قد تتوجوا بصفة التقوى الكاملة.

## بيان المعنى العام:

**177-ليس البر أن تولوا وجوهكم...هم المتقون.**

كان التحول عن التوجه من بيت المقدس إلى المسجد الحرام (الكعبة المشرفة) بعد أكثر من سنة قد اتخذ منه المنافقون مغمزا للتشكيك في صدق الرسول ﷺ، كما بيناه في الآيات السابقة من هذه السورة . وما أظنهم قصروا في الترويج لهذا المطعن حسب تصورهم. وقد فضحتهم الآيات السابقة وكشفت عن سوء دخيلتهم وعن تبديلهم وتحريفهم لكتبهم وإخفاء كثير مما استحفظوا عليه، مما أثار حقدهم فواصلوا طعنهم في تحويل القبلة، بتأكيدهم أن الخير كله في التوجه إلى بيت المقدس، فقطعت هذه الآية تمويهاتهم بتفصيل هذه القيمة الكبرى التي هي (البر) جماع الخير والإحسان. فكانت هذه الآية قاطعة لمطاعنهم مقررة للقيم التي بني عليها الخير والصلاح عند الله. نفت الآية أولا كل ما عملوا على الترويج له، ببيان أن البر ليس محصورا في التوجه إلى جهة معينة كما يدعون ، وأثبتت عقب ذلك أصول البر مفصلة في ثلاث وحدات كبرى:

**الوحدة الأولى:** الإيمان: الإيمان بالله إلها واحدا متصفا بصفات الكمال منزها عن النقص - والإيمان بأن الله سيبعث الخلائق كلها يوم القيامة لا يفلت من جزاء ذلك اليوم أحد - والإيمان بملائكته الكرام إجمالا على أنهم مخلوقات مكرمة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وتفصيلا فيما أخبرنا الله عنه من خصائص لبعضهم - والإيمان بأن الله وثق وحيه في كتب بلغها الرسل لأقوامهم - والإيمان بأن الله بعث النبيين يهدون البشر إلى صراط الله الذي يرضاه، وأنهم منزهون عن النقائص التي توجب الريبة فيهم.

**الوحدة الثانية:** المال والمجتمع: البار هو المطهر نفسه من الشح بالمال، الذي غرس في نفوس البشر حبه، فآتاه طائعا غير آسف، وبذل منه لذوي قرابته فقوى تماسك الروابط بين أعضاء أسرته ، وعمق حب بعضهم لبعض- ورق قلبه لليتامى الذين فقدوا العائل الذي كان يعنى بهم فنظر إليهم وأكرمهم-والمساكين الذين هدم الفقر كبرياءهم - ونال من فضله من اغترب عن موطنه ونفد ماله - والسائلون للمعروف فصدقهم وأعانهم دون التنقيب على أحقية احتياجهم- وأعان الأرقاء على نيل حريتهم وخروجهم من ذل العبودية إلى كرامة الحرية.

**الوحدة الثالثة:** المزكي نفسه بالتسامي في مراتب الكمال الذي يساعد عليه: إقامة الصلاة الركن العملي الأول في الإسلام، وكفاك إدراكا لمرتبة الصلاة في السمو بالنفس أن المصلي يناجي ربه - وإيتاء الزكاة وإخراجها طائعة بها نفسه راغبا في قبولها من الله بلا منة - ومراعاة الرباط الاجتماعي ، بالمحافظة على العهد الذي وثق به التزامه نحو الطرف الآخر، فيأمن كل فرد على الوفاء بالالتزامات كأنها

حاصلة بمجرد العهد- والذي روض نفسه على الثبات في الأزمات بتحمل الخصاصة وحرمان الفقر لا يتبرم ولا يشكو حظه ولا يضعف عن القيام بما يمكنه القيام به في عزة نفس وثقة في ربه - وكذلك عدم الخوف والشجاعة في ساحات القتال والدفاع عن الجماعة وعن الحق. إن هؤلاء الذين فُصّلت ملامحهم وصفاتهم الأساسية في هذه الآية هم الكمّل الذين شهد الله لهم أنهم استحقوا أن يخلع عليهم صفتي النبل: هم الصادقون لا زيف في شخصياتهم، وهم المتقون الذي كان قربهم من الله حيا في نفوسهم يهديهم ويحصنهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (178) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (179)

### بيان معنى الألفاظ:

**كتب:** فرض وألزم به.

**القصاص:** جزاء الجاني بما يعادل جنايته.

**العبد:** المملوك الذي يتصرف فيه مالكه حتى بالبيع والشراء.

**عفي:** أسقط التتبع.

### بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله المؤمنين أن يطبقوا شريعة القصاص لحفظ حياتهم. والخطاب للحكام كي يطبقوا شريعة القصاص، ولأولياء القتيل حتى لا يطالبوا بأكثر من القصاص، وللقاتل كي يسلم نفسه للحاكم ليقتص منه. والقصاص حكم لازم إذا طلبه أولياء القتيل. والقيمة الإنسانية لا تفاوت فيها، فلا يوجد ذكر، مهما سمت قيمته الاجتماعية ومستوى علمه أو ثرائه، أن تعتبر قيمته أرفع من قيمة فقير جاهل، وكل امرأة حياتها مساوية لبقية النساء. وكذلك كل رقيق مع غيره من الأرقاء وإن اختلفت أثمانهم اختلافا كبيرا.

وحددت الآية أن القصاص ليس متعينا إذا عفا أولياء القتيل ورضوا بالتعويض المالي (الدية)، وعلى أولياء القتيل إذا تنازلوا عن القصاص أن يطلبوا بحقهم دون إعنات وتضييق على القاتل. وعلى القاتل، وقد تسامح معه أولياء القتيل، أن يدفع ما عليه من تعويض مالي (الدية) دون تلكؤ ومماطلة. إن في تمكين أولياء القتيل من

أخذ الدية بدل القصاص هو تخفيف من الله على الناس ورحمة بهم. وإذا رضي أولياء القتيل بالدية، أو طالبوا بالقصاص فالحكم بات لا تراجع فيه، وليس لهم بعد القصاص أن يعتدوا على أهل القاتل ولا أن يعتدوا على القاتل بعد أخذ الدية. إن تشريع القصاص فيه حفظ حياة الجماعة الإسلامية لأن من يدور بخلده الانتقام بالقتل إذا علم أنه لا مفر له من القصاص وأنه لا مطمع له في البقاء حيا بعد إزهاق روح خصمه، إنه مع تصور ذلك، ينْكَفُّ عن القتل. فتسلم حياة المقتول وحياة القاتل معا. ويحرك القرآن قوتين حاميتين من الإقدام على القتل: قوة العقل البشري الذي يوازن بين إشفاء غليله وبين غريزة حب الحياة التي طبع عليها البشر. وعامل تقوى الله الذي هو من مقتضيات الإيمان.

**بيان المعنى العام:**

**178-يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص....عذاب أليم.**

حددت الآية السابقة آية البر الملامح الأساسية للمسلم، بما يصور الصلاح الفردي لأتباع هذا الدين. واعتنت هذه الآية بركن عظيم من الصلاح الاجتماعي وهو حفظ الحياة. إن الركن الأول في بقاء المجتمع هو احترام الحياة الإنسانية وتحقق الأمن على بقائها. هانت حياة الآخر عند العرب قبل البعثة المحمدية، فكان من أوقد غيظه يقتل خصمه، وكانت القبيلة تغير على الأخرى لتملك نساءها ولتستحوذ على أموالها، ويقتل في هذه الغارات كثير من الناس. فلما جاء الإسلام حمى حياة البشر وشرع القصاص، فمن يقتل غيره عمدا عدوانا يكون لوليه حق المطالبة بقتله. كما كان من عرف الجاهلية أن قيمة الحياة متفاوتة، فإذا كان القتيل ممن له مكانة اجتماعية رفيعة، أو كانت قبيلته ترى نفسها أعز من قبيلة القاتل فإنه لا يقنعها أن تقتل القاتل. روي أن رجلا من قبيلة غني قتل شاس بن زهير فقال لزهير من يمثّل قبيلة غني:سل ما تريد في قتل شاس؟ فقال: إحدى ثلاث لا يرضيني غيرهن، فقال: ما هن؟ قال: تحيون شاسا، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعون غنيا بأسرها فأقتلها، ثم لا أرى أني أخذت عوضا. فقرر الإسلام أن المسلمين تتكافأ دماؤهم، بمعنى أن قيمة الحياة واحدة، وأخذ في التفصيل لتمكين تلكم القاعدة بتمام الوضوح، فكل رجل هو كفء لأي رجل في قيمة الحياة وكذلك كل امرأة هي مساوية لأي امرأة مسلمة كانت زوجة الملك أو ابنته أو بنت راعي الغنم أو الفقير المعدم. وكذلك كل رقيق هو مساو لأي رقيق وإن اختلفت قيمهم في السوق. ولما كان قوله تعالى (كتب عليكم) يقتضي بظاهره أنه لا بد من قتل القاتل نفت بقية الآية (فمن عفي له من أخيه شيئا) هذا الظاهر وبينت أن ولي

القتيل مخير بين أن يطلب بالقصاص، أو أن يطلب أخذ دية القتيل ويعفو عن القصاص. وهذا التخيير أكملته الآية بما يلي: أن تكون مطالبة ولي الدم بحقه مطالبة ليس فيها غلظة ولا إعنات، حتى لا يظهر أنه يرغب في التشفي. ثم إنه إذا رضي بالدية فلا يتجاوز ذلك إلى قتل قاتله بعد أن رضي بأخذ الدية. وعلى المعفو عنه أن لا يتلكأ في دفع ما عليه من الدية أو يماطل ويراوغ. وينبه القرآن أولياء القتيل والقاتل، ينبههم جميعا أن تشريع قبول الدية مع العفو هو تخفيف من الله ورحمة بالناس، هذه الرّحمة التي بتشريعه تسري في قلوب الناس فتسل من النفوس الغلظة وحب الانتقام. وختمت الآية ببيان أمرين :

**الأول:** رفع ما يمكن أن يستقر في الذهن: أن الرّجل يقتل بالرّجل لا بالمرأة والعكس، وأن الحر لا يقتل بالعبد، فقال تعالى: ولكم في القصاص حياة فأفاد بهذا أن القتل العمد العدوان يوجب حق المطالبة بالقصاص سواء أتساوى القاتل والمقتول في الجنس (الذكورة والأنوثة ) والحرية أو اختلفا. فكل قاتل عمدا عدوانا غيره معرض للقصاص منه إذا لم يعف ولي القتيل.

### 179- ولكم في القصاص...لعلكم تتقون.

**الثاني:** تعليل تشريع القصاص بما يتبع هذا التعليل من قوة الاقتناع به والدعوة له من جميع المؤمنين. فبين سبحانه أنه إذا رسخ في نفوس البشر أن كل من تعدى على غيره بالقتل سيقتص منه، ولا ينعم بالبقاء حيا بعد قتل غريمه، وليس للقاضي أن يجتهد في هذا أو أن يخفف من العقوبة، فإذا علم أن رقبته ستقطع حتما، ففي معظم الأحوال يقوم في باطنه داعي حب الحياة وغريزة حب البقاء، فلا يقدم على القتل، وبهذا تسلم حياة من كان معرضا للاعتداء عليه، وحياة من كان عازما على القتل، فحفظ أصل الحياة في المجتمع. وحركت الآية الناظرين فيها إلى أن ما قررته يستجيب له كل من له عقل، إذ لا يرضى أي إنسان أن يكون فعله قاضيا بجنونه وبفقدان عقله. وبأن تقوى الله التي هي شارة الإيمان تقتضي حرص كل إنسان على حياة الآخرين.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**حضر أحدكم الموت:** ظهور قرب الموت بتبيّن العلامات التي يعقبها الموت.

**الخير:** المال.

**الوصية:** ما يعهد بتنفيذه بعد الموت.

**بدله:** التغيير بنقص أو إبطال.

**بالمعروف:** ما تقبله النفوس ولا ترفضه وهو ما اتسم بالعدل.

**جنفا:** الجنف الميل عن العدل بدون قصد الأذية.

**بيان المعنى الإجمالي:**

قررت الآية أن على كل من تبين له قرب أجله أن يوصي فيما سيخلفه من أموال. وأن هذه الوصية ينتفع بها الوالدان والأقارب، ولم تحدد الآية نصيب كل نوع من الموصى لهم، وأوكلته للموصي بأن يراعي أن تكون وصيته متسمة بالعدل، فلا يرى الموصون لهم فيها حيفا ولا يعترض عليها الناس حسبما استقر في نفوسهم من العدل في مثل هذا. والإيصاء مؤكد باعتباره حقا على كل من يخشى الله ولا يكون المؤمن إلا متقيا. وتحذر الآية من تغيير وصية الموصي العادلة ممن شهد عليها أو قام بتنفيذها، وأنه يتحمل إثم التبديل، والله مطلع على الحقيقة لا يخفى عليه شيء فإنه سبحانه قد سمع ما أوصى به الموصي، وهو عليم بحقائق الأمور وخاصة في الطريقة التي نفذت بها الوصية . وقررت الآية أيضا أن من توقع من الموصي ميلا عن العدل بدون قصد إضرار، أو علم منه الحيف وقصد الإضرار بالتوزيع البعيد عن العدل أو الحرمان لبعض المتساوين، فقام بإصلاح ما جار فيه الموصي بالتأثير عليه ليعود إلى العدل، أو إصلاح ما فعل بعد موته، قصد أن لا تكون الوصية سببا في الفرقة والعداوة، فعمله مرضي عند الله لأن الله يغفر للعائد إلى الخير ما سبق وهو الرّحيم بعباده فهو يشرع لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

**بيان المعنى العام:**

**180 -كتب عليكم إذا حضر...المتقين.**

اعتنت الآية السابقة بحفظ الحياة. وقررت هذه الآية بعض أحكام المال الذي هو دعامة الحياة. وخصت ما يتعلق بمال الإنسان إذا ظهرت أمارات الموت وقرب أجل المالك، وذلك لوقوعها عقب قتل النفس.

وقد كان العرب يتحكمون في توزيع أموالهم بعد موتهم حسبما تمليه عليهم عواطفهم، الأمر الذي جعل الارتباط العائلي مهتزا. فقررت هذه الآية في بداية التشريع أن تخرج المسلمين من الفوضى التي كانوا يتصرفون بها في أموالهم بعد موتهم وهيأتهم لتشريع الميراث الذي عزلهم عن التصرف في قسمة أموالهم

وتولاها الله بعدله لأنه هو مالك المال حقيقة. فكان موقع هذه الآية في التشريع بين الحرية الفوضوية في توزيع التركات، يحرم الثري أهله ويعطي ماله للأباعد ولا يعدل بينهم إن خصهم بجانب من أمواله، وبين التشريع الدقيق الذي أعطى لكل وارث حقه. ولذا فإن المعتمد أن هذه الآية لم يبق العمل بها بعد أن نزلت الآية المحددة لنصيب كل وارث من تركة الميت. تفيد الآية أن الله أوجب على من كان له مال وظهر من وضعه الصحي أنه قد قرب أجله، أن عليه أن يوصي في ماله فيوزعه، ويخص كلا من والديّه ومن أقاربه بنصيب من التركة، وأن يراعي في توزيعه مالهُ عليهم بعد موته، أن لا يكون فيه حيف كبير يرفضه الموصى لهم ويعترض عليه المجتمع. وأثارت الآية ما استقر في قلوب المؤمنين من التقوى التي يصحبها دوما تنفيذ الأوامر على أعدل وجه وأتمه.

### 181 - فمن بدله بعد ما سمعه...سميع عليم.

وشددت الآية على الذين يتولون تنفيذ الوصية، أن عليهم أن يحترموا وصية الموصي وأن ينفذوها كما أوصى، وأن من بدل الوصية يتحمل إثم التبديل وإثم الحيف الذي ترتب على تدخله. والله قد سمع ما أشهد به الموصي على وصيته، وهو عليم بحقيقة طريقة تنفيذها لا يخفى عليه تغيير المنفذ وتبديله. وفي ذلك تهديد لمن يخون الموصي فيغير وصيته.

### 182 - فمن خاف...غفور رحيم.

وبجانب هذا التهديد لمن يبدل ، تَعْـرِضُ الآيـة الوجه الآخر، وهي صورة المنفذ الفاضل التقي، الذي ظن أن الموصي حاد عن العدل ولم يعتدل ميزان التوزيع عنده ففضل بعض المتماثلين أو حرمهم إما بقصد الإضرار الموجب للإثم أو مع عدم قصد الإضرار لسوء تقديره، فقام بإصلاح الوضع بأن أقنعه قبل موته بالرّجوع إلى العدل، أو قام بالإصلاح بعد موته، فإنه إذا كان التبديل بقصد إقامة العدل المأمور به في الوصية، فلا يخش من التهديد السابق فإنه لا يشمله، والله غفور للموصي إذا رجع، رحيم بعباده فلا يؤاخذ من عمل على إقامة العدل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ

فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أياما معدودات:** قليلة يعدها الناس.

**فعدة من أيام أخر:** قضاء أيام بعدد ما أفطر.

**يطيقونه:** يستطيعون الصوم بجهد ومشقة.

**فدية:** هي طعام مساكين بعدد أيام الفطر.

**تطوع:** زاد على الواجب بإطعام أكثر من مسكين أو أطعم وصام.

**شهد الشهر:** كان حاضرا غير مسافر، وكذلك من علم بدخوله.

**لتكملوا العدة:** تكملوا صيام الشهر.

**تكبروا الله:** تستحضرون عظمة الله في قلوبكم، وتعبرون عن ذلك **بكلمة الله أكبر.**

**فليستجيبوا لي:** فليجيبوا دعوتي بالطاعة.

**يرشدون:** يهتدون ويستقيمون.

**الرفث:** كلمة جامعة لكل ما يريده الزوج من زوجته مما يتعلق بالجنس كلاما أو مباشرة.

**تختانون:** تعبير عن تفاعل داخلي بين الإقدام على ما لا يرضي وبين الإحجام مع شدته. فهو تنازع باطني.

**عاكفون:** جمع عاكف وهو من تطوع بالبقاء في المسجد بنية التقرب يوما وليلة على أقل تقدير مع الصوم.

**حدود الله:** الحواجز التي لا يحل تعديها كالحد بين الشيئين إذا تجاوزه دخل في غيره. فإذا تجاوز الحلال دخل في الحرام.

## بيان المعنى الإجمالي:

نادى القرآن المؤمنين ليثير فيهم داعي الاستجابة لما فرض عليهم، والآية بينت أن الله فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السابقة، باعتباره طريقا ينال به الصائم رضى الله ويُعده للتحلي بالتقوى، والصيام في الإسلام ليس شاقا إذ الواجب لا يتجاوز أياما معدودات، وشأن العادّ أن يعد القليل، وأن من كان مريضا مرضا يشق معه الصوم فله أن يفطر ويقضي الأيام التي أفطر فيها، وكذلك المسافر يجوز له أن يفطر أيام سفره ويقضي، كما خفف أيضا على الذين يطيقون الصوم لكن بجهد ومشقة كأصحاب الصنائع الشاقة والهرم وكبار السن أن يفطروا ويطعموا عن كل يوم محتاجا مسلما، ومن تطوع بالزيادة على الحد الأدنى في الإطعام أو أطعم وصام فقد قدم خيرا وما قدمه من خير لا يضيع فسيجد ثوابه عند الله. وأكد على القيام بفريضة الصيام على الصحيح القادر بأن في ذلك خيرا عظيما. وذكر المسافر أيضا بأن الصوم أفضل إذا كان لا يجد مشقة زائدة في الصيام، وكذلك المريض الذي لا يبلغ به المرض حد الخطر في الصيام، فكل هؤلاء الصوم خير لهم من الفطر ثم القضاء وليس الصوم واجبا عليهم في تلك الحال. ونوه الله بالصيام فأخبر سبحانه أنه تخير له الشهر الذي أكرم فيه البشرية بإنزال القرآن فيه، القرآن الذي يهدي الناس للحق. وبما جاء فيه يفترق الحق عن الباطل ولا يبقى لَبسٌ. وأكد الأمر بصيامه لمن علم بدخوله أو كان حاضرا غير مسافر، بعد ما ربط ممتنا، بفرض الصيام في مثل الشهر الذي ابتدأ فيه إنزال القرآن، وذكر بأن ترخيصه للمريض والمسافر في الفطر هو جري على ما تفضل به من أنه لا يريد أن يشق على البشر وإنما يريد أن ييسر عليهم. هذا التيسير الذي يساعد على القيام بصوم كامل أيام الشهر بقضاء ما فات إذا تعسر الأداء في شهر رمضان. وهذا ما يثير في نفس المؤمن شعورا بعظمة الخالق سبحانه، فهو المطلع العليم بأحوال عباده يرفق بهم، مما يقتضي أن يعظموه تعظيما يعبرون عنه بكلمة الله أكبر أثناء صيامهم وعند إتمام العبادة في نهاية الشهر، وإذا عمرت النفس بذكر الله واستحضار عظمته، انطلق لسان العابد وجوارحه بالشكر للخالق العظيم المتفضل. وتوجه الخطاب لمحمد ﷺ في هذا الجو من الصلة بين الخالق

والمخلوق فيقول الله لنبيه: إذا سألك عبادي عني فأخبرهم بأمرين: الأول أني قريب منهم بما يدل عليه القرب من اطلاع ورعاية وتشريف، والثاني أني أعلم أنهم فقراء لكرمي فأنا الله العظيم أجيب دعوة الداعي إذا ابتهل بسؤال مطالبه. فليكن هذا حاضرا في أذهانهم وليجتهدوا في إجابتي لما أمرتهم به ومنه الدعاء، فهذا هو الذي يحقق لهم الهداية والاستقامة. ثم بين القرآن بعض أحكام الصوم، فصرح بأن الزوج قد أحل الله له في ليالي الصيام أن يستمتع بزوجته، إذ الرّابطة الزوجية قوية كأن كل واحد منهما لباس للآخر. والله مطلع على ما يجري في نفوسكم فمن كان يغالب غريزته وتغالبه في ليالي شهر رمضان، ويظن أنه آثم إن غلبته شهوته في الليل، أعلنت الآية بأن الله قد تاب عليه ولا يؤاخذه. وصرح التصريح الذي ينفي كل احتمال: أن الصائم يحلّ له أن يجامع زوجته ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر. وتصرح الآية بأن الأولى أن لا يمتنع الرّجال من الاتصال الجنسي ليالي شهر رمضان حتى يتضاعف نسل الأمة. وحددت الآية وقت الصوم بأنه ما بين طلوع الفجر الصادق (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) وبين غروب الشمس. وكان من سنة رسول الله ﷺ أنه يلازم المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ولما كان الصائم يباح له في الليل الأكل والجماع، نبهت الآية أن المعتكف يحرم عليه أن يجامع زوجته وهو معتكف في المسجد. وختمت الآية بتنبيه المؤمنين أن ما عرضته آيات الصيام هي حدود لا يجوز تجاوزها. فثبوت الشهر يوجب الصيام ونهار الصيام يمنع فيه الإشباع الجنسي والأكل والشرب والمعتكف يمنع من قربان زوجته حتى في الليل. وعلى هذا النمط من البيان يجري بيان الله للناس أحكامه مما ينفي اللبس، لأنه سبحانه يريد أن تستقر التقوى في قلوبهم.

### بيان المعنى العام:

### 183. يا أيها الذين آمنوا...لعلكم تتقون.

دعت هذه الآيات، من سورة البقرة، المؤمنين ليقوموا بصيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، وحثتهم على أدائه بالطرق التالية:

أولا: بندائهم بوصف الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) على أن الاستجابة هي من مقتضيات الإيمان.

**ثانيا**: نصت على أن الصيام واجب مؤكد بما تدل عليه كلمة كُتب من توثق.

**ثالثا**: ببيان أن الصيام طريق العبادة لله، فرضه سبحانه على الأمم السابقة، وإن كان مظهره في الدين الإسلامي يختلف عما طلب من غيرنا لأن التشريع بلغ قمته في هذا الدين.

**رابعا:** أن الصيام يؤثر في القلب تقوى الله، ذلك أن التركيب الإنساني من الروح والجسد، صلاحه في التوازن بين قوتيه هاتين، فصيام رمضان يُعَدِّل من ضراوة القوى المادية في الإنسان، ويطوعها للفضيلة، وبذلك تعلو تقوى الله في اختيارات الإنسان وسلوكه.

## 184- أياما معدودات...إن كنتم تعلمون.

**خامسا:** أن مدة فريضة الصيام لا مشقة فيها كبيرة لأنها لأيام معدودات، وشأن من يعُد أنه لا يحسب إلا القليل. وفعلا فأيام الصيام يكاد المؤمنون صغارهم وكبارهم يعدونها ولا يخطؤون فيها، ولا تجد هذا في أي شهر آخر من أشهر العام.

**سادسا:** أن تشريع الصوم راعى أحوال المؤمنين الخاصة، فمن كان مريضا مرضا يشق عليه الصيام فيه، ومن كان مسافرا، فقد فتح له باب التخفيف بأن يفطر في أيام مرضه وسفره ثم يقضي ما فاته بعد شفائه وبعد عوده إلى بلده. .

**سابعا:** من كان يطيق الصوم بمشقة كالمرأة الحامل، والمرضع التي يتأثر ولدها بنقصان لبنها، والكبير الذي لا يستطيع الصيام إلا بمشقة كبيرة، ومن كان عمله الذي يحصل منه على معيشته شاقا يضعفه الصيام عن القيام به على وجهه، فإنه يجوز له أن يفطر ويطعم مسكينا عن كل يوم أفطر فيه. ثم إنه على من يتمكن من الصيام بعد رمضان أن يقضي ما فاته. ولفتت الآية قلوب المكلفين بالصوم إلى أنهم إذا تطوعوا بأن صاموا وأطعموا فهو خير مدخر لهم عند الله وكذلك من زاد على إطعام مسكين، أو تخير في الإطعام الأجود والأفضل. ومن باب الإرشاد إلى الأكمل بينت الآية أن من تحمل المشقة الزائدة التي لا تضر به وصام مع الناس فالصيام خير له بما يدل عليه من كثرة الثواب.

## 185- شهر رمضان ...تشكرون.

**ثامنا:** أن الشهر الذي تخيره الله للصيام، له مزية خاصة، فهو الشهر الذي في مثله أنزل على رسول الله ﷺ القرآن لما كان في غار حراء، ومن المقرر أن المناسبات التي تفضل فيها الله على البشر بالخير الكثير يرجى أن يعظم فيها الثواب.

**تاسعا:** أنه لما يرجى من عظم ثواب الطائعين المنفذين لأوامر الله في مثل نزول شهر القرآن، تأكد الأمر لكل من كان حاضرا وقت دخول الشهر، وعلم به أن يصومه مستحضرا ذلكم الظرف الفاصل بين عهدين، عهد ضياع الإنسان، وعهد انبثاق الهدى الذي فرق بين ظلام الشرك وأنوار الوحدانية.

**عاشرا:** رغم الرّبط بين نزول القرآن وتشريع الصوم ، فإن التخفيف ماض لمن كان معذورا ، دون أن ينقص من ثوابه، إذا هو أفطر وعوض ما فاته بعد ذلك بمقدار ما فاته عددا.

**حادي عشر:** أن التخفيف والرّخصة التي شرعها سبحانه في الحدود التي بينتها الآية تؤكد فريضة الصيام باعتبار أن الله يريد أن ييسر على المؤمنين أمر عبادته إذا كانوا معذورين ،لا أن يشق عليهم. **(يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)**.

**ثاني عشر:** أن هذا التخفيف لا يعفي من أخذ برخصة الله من صيام عدد الأيام التي أفطر فيها حتى يكمل عدة أيام الصيام التي قام بها المؤمنون. **(ولتكملوا العدة)**.

**ثالث عشر:** أن صيام رمضان يزكي النفس، ويصقل الرّوح فتنطلق المشاعر والألسنة بالتكبير. والتكبير الجاري في الضمير، والجاري على اللسان بكلمة **((الله أكبر))** يمثل قمة من التصور والفعل الإيماني. إن مؤدى التكبير أن المكبر يشهد على نفسه أنه يعتقد أن الله ﷻ أكبر من كل ما يدخل في نطاق التصور فيثبت لله بذلك الوحدانية وجميع صفات الكمال، ولذا كان مما سنه النبي ﷺ يوم العيد بعد إكمال الواجب، التكبير. يكبر الساعي للصلاة ويكبر الإمام في صلاة العيد سبع تكبيرات في الركعة الأولى ويكبر في الركعة الثانية خمسا ويخلل الخطبة بالتكبير **(ولتكبروا الله على ما هداكم )**

**رابع عشـر:** أن الصيام يطوع اللسان والجوارح للشكر، الشكر الذي ينطلق من تقدير الشاكر لنعم الله عليه التي يزيد إحساسه بها عندما يلاحظ ألطاف الله بإقداره على مشاركة المؤمنين القيام بهذه الفريضة، وعندما يحرم نفسه من شهوات البطن والفرج بالصيام فتخرج من حلقة الرّتابة التي يغفل الإنسان معها عن تقدير قيمتها فيوقظه الحرمان إلى تقديرها حق قدرها، وعندما ينظر فيما حف الله به أوامره في هذه العبادة من تيسير وصالح وعد. وعندما يشعر بارتباطه بالقرآن ارتباطا أوثق **(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)**

## 186- وإذا سألك عبادي...لعلهم يرشدون.

تثير هذه الفيوض الإلهية التي أشرنا إليها طاقة كبيرة في الشعور بنعم الله ولطفه، كأن النفس أصبحت متطلعة أكثر لمزيد تفصيل لمنزلة المؤمن عند ربه إثر هذه التجليات التي هزته فقربته من القرآن كلام رب العالمين وهدته إلى العبادة التي ارتضاها للتقرب منه عبر الشرائع التي شرعها على لسان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، فقال تعالى: **(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)**، فوجه

الخطاب لرسوله وبادر بإبراز الصلة بينه وبينهم (عبادي) وكان المفهوم الذي أراد تقريره: أنه قريب منهم، بما يفيده القرب من إعزاز لهم، ومن اطلاعه الكامل على أحوالهم فهو لا يتركهم للظروف تعمل فيهم عملها. وفوق ذلك أنه يجيب دعاءهم لتفريج كُربهم وتحقيق مطالبهم، فقُربُهُ منهم هو قرب عناية لا قرب مكان تعالى الله عن ذلك. ولذا فإن عليهم أن يجيبوا داعي الله بالإخلاص لعبادته وتطبيق أوامره في ضوء الإيمان ، فعلى هذا النحو من الصلة بين الخالق الكريم والمخلوق المنفذ المؤمن، ينفتح باب الرّشد في السلوك وإصابة العابد الحق في مسيرته في الحياة. وفي ذلك ما ينبه المؤمن إلى التوجه بالدعاء إلى الله، وأنه مرجو الإجابة أثناء صيامه وعند إفطاره وعند ما يقبل على صيام اليوم القادم. أخرج ابن ماجة بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد. وكان عبد الله بن عمرو يدعو عند فطره: الله إني أسألك برحمتك، التي وسعت كل شيء، أن تغفر لي[1]

## 187- أحل لكم ليلة الصيام... لعلهم يتقون.

ثم نصت الآية على ضبط ما يحل للصائم، فبينت أن الصيام تنسحب أحكامه ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس، وأنه يحل له فيما بينهما ما كف نفسه عنه أثناء النهار تقربا لله، وأن الله عليم بما يجرى في نفوسكم مما تحرج منه بعضكم من الاتصال الجنسي في الليل التحرج الذي صحبه تدافع بين تلكم الرّغبة وبين أداء الصيام على أتم الوجوه وأنقاها، فاعلموا أنه يحل للصائم أن يجامع زوجته في الليل، وأن من سنن خلقه أن قوّى الامتزاج بين الزوجين قوة مثلها بأن كل واحد منهما لباس لصاحبه، بما يوحي به كلمة اللباس من ستر ومن شدة قرب ومن حاجة. بل إن الإشباع الجنسي مرغب فيه رجاء تكثير النسل (وابتغوا ما كتب الله لكم) كما أحلت الآية الأكل والشرب كامل الليل إلى أن يظهر خيط الضوء الأول في الأفق مؤذنا بطلوع الفجر.

والإذن بالمباشرة، التي كان يتحرج منها في ليلة الصيام، لا يتجاوز ذلك الإذن إلى الاعتكاف، فإن الاعتكاف الذي هو نية الصائم العبادة بالتزام البقاء في المسجد لمدة أقلها أربع وعشرون ساعة، لا يحل فيها الاستمتاع بالزوجة. وتختم الآية بالتأكيد على أن ما شرعه الله في الصيام هي حدود، والخروج عن الحد يوقع في الإثم فعلى المؤمن أن يكون يقظا يقظة تامة فلا يقرب من تلكم الحدود حتى لا ينزلق إلى

[1] ج 1 ص 557ح1753

المحرم. وعلى هذا النحو من البيان الذي فصلته آيـات الصـوم يجـري بيـان الله لآياتـه للناس جميعا. لتحل، تبعـا للوضـوح وتحريـك العقـول والمشـاعر، التقـوى صـمام الأمان، في الحاضر والمآل.

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (188)

### بيان معنى الألفاظ:

**لا تأكلوا:** أخذ المال مع قصد عدم إرجاعه لصاحبه.

**الباطل:** بدون رضا صاحبه.

**تدلوا بها:** تدفعوها.

### بيان المعنى الإجمالي:

نهي صريح واضح مجسم يحرم أن يستولي أي فـرد علـى مـال غيـره بغيـر رضـاه، كما نهت الآية عن الرّشوة التي يتوسل بها الرّاشـي لتبريـر مـا أخـذه بحكـم الحـاكم الذي هو في الحقيقة ما كان ليحكم له لولا الرّشـوة، فهـو مـن أكـل الأمـوال بالباطـل. وشنع على المتسلطين على أموال غيرهم بأنهم يعلمون أنهم ظالمون.

### بيان المعنى العام:

### 188 - ولا تأكلوا أموالكم...تعلمون.

فيما سبق من سـورة البقـرة أذن الله للنـاس قاطبـة أن يـأكلوا الحـلال الطيـب ممـا تنتجه الأرض، وحذرهم من اتباع طريق الشـيطان. وفـي الآيـة السـابقة حـذرهم مـن الاقتراب من الحدود التي حـددها حتـى لا يقعـوا فـي الحـرام. وحـب النـاس للمـال وتملكه غريزة قوية، قد تسـوغ للقـوي بسـلطانه، أو بمكـره، أن يسـتولي علـى مـال غيره ظلما بدون وجه شرعي، ويدخله في مكاسـبه فـلا يظهـر لـه أثـر يميـزه عـن ماله، كأنه يهضمه في معدته فلا يتُفطنُ له. فأضـافت هـذه الآيـة التحـذير الشـديد مـن أكل المال بالباطل، كما نهاهم أن يتوسلوا إلـى أكـل المـال بالباطـل بواسـطة الرّشـوة، ويكون حكم الحاكم مبررا ظاهريـا، مـع أن الرّاشـي يعلـم أنـه باطـل وظلـم. وهـي شناعة أبرزتها الآية توجب النفرة منها لمن كان مسـتقيم الفطـرة. وسـيأتي فـي القـرآن مزيد تحليل وتنفير من أكل المال بالباطـل الظـاهر منـه كالغصـب والسـرقة، والخفـي كالرّبا وبيع الغرر ونحو ذلك.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الأهلة:** جمع هلال وهو القمر في الأيام الثلاثة الأولى من الشهر.

**المواقيت:** جمع ميقات وهو الوقت.

**البر:** كما تقدم هو جماع الخير.

### بيان المعنى الإجمالي:

سأل بعضهم النبي ﷺ عن حكمة تحول القمر إلى هلال، فأنزل الله أن الحكمة من ذلك، أن يتمكن الناس من ضبط أوقاتهم، ومن ضبط وقت الحج. كان أهل الجاهلية إذا أحرموا بالحج أو العمرة امتنعوا من دخول بيوتهم من أبوابها، اعتقادا منهم أن من كمال فعل الخير بعد الإحرام أن لا يدخل المحرم بيته من الباب. فبين الله زيف هذا الاعتقاد وأنه لا صلة له بالخير. وأن الخير في تقوى الله، ولا حرج في دخول المحرم من الباب. وأمرهم بالتزام التقوى سبيل الفلاح.

### بيان المعنى العام:

### 189-يسألونك عن الأهلة...لعلكم تفلحون.

سجل القرآن سبعة أسئلة توجه بها الصحابة إلى رسول الله ﷺ في سورة البقرة. وردت في الآيات التالية: 189 - 215- 217-219- 220 -222.

السؤال الأول في هذه الآية : سأل بعضهم النبي ﷺ عن الحكمة التي أظهر الله بها منزلة الهلال في مسيرة القمر، فأجابهم ﷺ بهذه الآية أن الحكمة من ذلك هي ضبط الأوقات. ذلك أن الأيام تتوالى لا يختلف يوم عن غيره، فكانت الحكمة أن يضبط ما مضى من الأيام وما هم ملتزمون به في المستقبل بوضع الهلال فتعلم الأشهر، والحساب الشمسي حساب تقديري لا يصلح أن يكون معرفا لجميع البشر، بينما وضع الهلال هو مدرك حسي من جميع الناس. وكما هو ضابط لأوقات الناس هو أيضا ضابط لوقت أداء فريضة الحج التي يجتمع فيها المؤمنون على صعيد عرفة في يوم واحد هو التاسع من ظهور هلال شهر ذي الحجة.

وعقب القرآن هذا البيان بتحقيق الحق في أمر آخر من أمور الحج. ذلك أن العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أن من أفعال الخير التي هم مطالبون بها بعد إحرامهم أن لا يدخلوا بيوتهم من أبوابها بثياب إحرامهم، ومن اضطر لدخول بيته فإن كان مبنيا

صعد إلى السقف ثم نزل أو أحدث ثقبا في السقف منه يدخل ويخرج، وإن كان من سكان الخيام دخل من خلف الخيام. وهي عقيدة باطلة لا صلة لها بالخير. فرفع القرآن هذا الوهم وصرح أنه ليس من فعل الخير في شيء دخول البيوت من ظهورها، وأن البر والخير هو في تقوى الله، التقوى التي هي سبيل الفلاح ، فمن اتقى الله حق تقاته فإنه يرجو أن يكون ناجحا في حياته الدنيا والأخرى.

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**سبيل الله:** الطريق الموصل إلى مرضاته. ومعظم وروده في القرآن الجهاد في نصرة الإسلام.

**الاعتداء:** مجاوزة الحد.

**ثقفتموهم:** حيث تمكنتم منهم ظفرتم بهم، أو أدركتموهم.

**الفتنة:** التسلط بوسائل القهر لإخضاع المتسلط عليه.

**الحرمات:** حرمة النفس، وحرمة المكان(المسجد الحرام) وحرمة الزمان (الأشهر الحرم).

**بيان المعنى الإجمالي:**

أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الدين الذين يقاتلونهم أو يستعدون لقتالهم، وذلك تحت راية نصرة الدين وحرية الاعتقاد، لا تسلطا على الآخرين ولا رغبة في مكاسبهم وخيراتهم. وأن لا يتجاوزوا الحدود بالاعتداء على العدو بأكثر مما يردعه. إن الله لا يساعد المعتدين ولا يقربّهم منه. ولا تترددوا في قتلهم حيث أدركتموهم إذا كانوا يعدون لقتالكم أو يقاتلونكم فعلا، ولا تتحرجوا من إخراجهم من مكة التي أخرجوكم منها، إن ما صنع معكم المشركون هو أشد فظاعة من قتالهم

وقتلهم، لأنهم عملوا على إرغامكم على الكفر بشتى أنواع التسلط المادي، والتعذيب، وهو (الفتنة) وإرغام الإنسان بالقهر ليترك معتقده، أشد من القتل. وأكدت الآية على حرمة المسجد الحرام. وهذه الحرمة إن انتهكها المشركون فقاتلوكم فيه فلا تترددوا في قتالهم فيه. وهو الجزاء العدل للكافرين الذين اعتدوا على حرمة المسجد الحرام. واعلموا أنهم إن كفوا عن تجاوزاتهم واحترموا حرمته فكفوا عنهم. وإعلام عام للبشرية جميعا أن الله غفور رحيم بعباده حتى من كان على الشرك ثم آمن فإن توبته من كفره يغفر بها له ما تقدم له من كفر ويرجو رحمة الله. وبينت الآية الأمد الذي ينتهي فيه القتال: وهو أن تضمن الحرية في العقيدة ولا يتسلط على أي أحد لإرغامه على تبديل دينه. وأنهم إن انتهوا عن سلوكهم في محاربة الناس في عقائدهم فلا تتسلطوا إلا على من بغي على ظلمه يعمل على تحويل الناس عن الإيمان، إن ذلك من أشد أنواع الظلم. وقد يحدث أن يتسلط المشركون على المؤمنين بالقتال أو الإعداد له في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، غدرا بالمسلمين، فحاربوهم ولا بأس عليكم فإنه هم الذين انتهكوا حرمة الأشهر، فأنتم بقتالكم إياهم تعملون على حصانة تلكم الأشهر. وكونوا في جميع أحوالكم مستحضرين لخشية الله واتقاء غضبه وعذابه، وهذا الاستحضار هو قوة عظمى لكم، لأن الله ناصر ومؤيد للمتقين. وحرضت الآيات في ختامها على الإنفاق في سبيل الله. فكان الأمر واضحا أن يستعدوا الاستعداد الكامل، وأن يبذلوا المال الذي منحهم ربهم، ليكون وضع المسلمين في مستوى يردع أعداءهم عن التفكير في التسلط عليهم، فإن التقصير في الإعداد لا يكون إلا بغفلة عن المآل الذي يترتب عنه ضياع المال والنفوس والعزة، وهو التهلكة.

**قاعدة عامة:** أمر المؤمنين أن يتجاوزوا أداء الواجب إلى إرادة السمو في كل ما يصدر منهم إلى درجة الإحسان، فإن الله يحب المحسنين، ينصرهم، ويثيبهم، ويكتب لهم العزة في الدنيا والآخرة.

## بيان المعنى العام:

## 190 - وقاتلوا في سبيل الله...المعتدين.

يذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآيات هي التي أذن الله بواسطتها للمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم وأن يقاتلوا المشركين. وهذا الإذن أحاطه القرآن بجملة من القواعد والأحكام التي تخرج بالمؤمنين عما ألفه العرب في حروبهم.

**أولا:** أن القتال يجب أن يقوم به المؤمنون لتحقيق غاية سامية لاحظ لأنفسهم فيه، فلا قتال مأذون فيه للاستيلاء على أموال الآخرين ولا على ممتلكاتهم، ولا على ما

تحويه أرضهم من ثروات، ولا لقهرهم واستعبادهم والتحكم في مصائرهم. ولا للتظاهر بالقوة والبطش، والنكاية الماحقة للقيم الإنسانية للتحصيل على مرتبة أعلى في الجيش ونحو ذلك.

**ثانيا:** أن لا يكون القتال مبادرة، ولكن يقاتلون من قاتلهم فعلا أو أخذوا في الاستعداد للإغارة على بلاد الإسلام وترويعهم.

**ثالثا:** أن يكونوا في قتالهم منضبطين، فلا يعتدون على الأعداء بقتل من لا يقاتل من الأطفال والشيوخ، أو الإفساد في الأرض بقتل الحيوانات انتقاما من أصحابها، أو حرق المزارع وقلع الأشجار ونحو ذلك من أنواع الفساد في الأرض.

**رابعا:** أن يكونوا دوما ذاكرين أنهم يفقدون التأييد الإلهي بالاعتداء. إن الله لا يحب المعتدين سواء أكان الاعتداء في الحرب أم في السلم.

## 191-+193 - واقتلوهم حيث ثقفتموهم...كذلك جزاء الكافرين.

**خامسا:** أن لا يفهموا من النهي عن الاعتداء التهاون بتتبع الأعداء ومعاملتهم بالمثل، بل هم مأمورون بتتبع الأعداء أينما كانوا حتى لا ينقلبوا عليهم **(واقتلوهم حيث ثقفتموهم)**. وأن لا يتحرجوا من إخراجهم من مكة، فإن المشركين سبقوا في هذا الأمر، إذ ضيقوا على المسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم. بل إن ما صنعه المشركون كان أقسى، إذ هم تسلطوا على المؤمنين ليقهروهم على الكفر ويرتدوا عن الإسلام، بالتعذيب المادي وبالحرب النفسية. فالفتنة أشد من القتل الذي تنتهي به الحياة، إذ الفتنة تعذيب متواصل، وقهر للإرادة، وتحويل البشر من نور الإيمان إلى ظلام الكفر

**سادسا:** أن الإذن بقتال الكفار لا يبيح تحليل ما حرمه الله وقرره من أن يكون مكانا أمنا لا قتال فيه. وهو المسجد الحرام من تاريخ بناء سيدنا إبراهيم له. **(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا)**[1] لكن إذا اعتدى الكفار على حرمة المسجد الحرام فقاتلوكم فيه أو قتلوا بعضكم، فلا تتحرجوا من القتال فيه بل عليكم أن تقتلوهم فيه حتى تضمنوا للمسجد الحرام حرمته.

وكذلك القتال في الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب) فلا تتحرجوا من قتالهم إذا قاتلوكم فيها. فقتال المشركين هو انتهاك للحرمة التي حرمها الله، وقتالكم هو ضمان للحرمة. وهكذا يكون جزاء الكافرين أن لا ينفلتوا من جرائمهم بدون عقاب.

---

[1] البقرة ،آية128

**سابعا:** أن الأمر بالقتال له حد وليس دفعا للمؤمنين أن يكونوا في حالة حرب مستمرة، بل إنه عندما تتحقق الغاية من القتال يتحتم الكف، والغاية أن تضمن للناس حريتهم الدينية فلا يفتنوا في دينهم بإلجائهم إلى الكفر.

**ثامنا:** أنه إذا انتهى الكافرون وخضعوا، وانحرف قسم منهم فاستمروا في الاعتداء فقابلوا اعتداءهم بما يردعهم حتى يكون العابد آمنا غير خائف ولا مضطهد.

## 194 -الشهر الحرام...أن الله مع المتقين.

تاسعا: إن الشهر الحرام الذي أحل لكم القتال فيه هو مقابل انتهاك المشركين له، والتعدي على الحرمات في المسجد الحرام أوفي الشهر الحرام لا يحمي المعتدي من استحقاقه القصاص، فحرمة البشر مقدمة على حرمة الأمكنة والأزمنة . فهذا هو العدل الذي قرره الإسلام: أن من اعتدى علينا نجازيه بمثل ما فعل انتصافا لا تشفيا، فلا يتجاوز المؤمنون في أخذ حقوقهم ممن ظلمهم ميزان العدل.

**عاشرا:** وجهت الآية المؤمنين إلى التمسك بالقوة الخفية المؤيدة، وهي التقوى. هذه التقوى التي ينبغي أن تكون حليفة المؤمن في أرجاعه في السلم والحرب. ذلك أن الله ينصر المتقين ويقيهم بأس أعدائهم.

## 195 - وأنفقوا في سبيل الله... المحسنين.

حادي عشر:. كما قررت الآيات السابقة أحكام الحرب والحدود التي حددها الله بما لا يصحبه وهنُ المسلمين ولا ضعفهم ولا تجاوزهم لحدود الله، ختمت بقاعدة كبرى في ضمان قوة الأمة ومناعتها. فأمر تعالى المؤمنين أن لا يبخلوا بالإنفاق في سبيل الله، بما يشمله الإنفاق من آلات الحرب والعتاد، ودراسة فنون الحرب، وحماية الثغور. وتحقيق كل ذلك مما يتطلب إنفاقا لا تقتير فيه. فاحذروا أيها المؤمنون أن يدخل الشح بأموالكم في تقدير العواقب فتُقَصّروا في الإنفاق، فإن التقصير في ذلك ينتهي بالذل والهلاك. كالذي يمد يديه ليوثق في ذل الأسر.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أتموا:** الإتمام الإتيان بالشيء كاملا، أو إكمال ما نقص منه.

**أحصرتم:** منعتم.

**استيسر:** ما كان الإتيان به لا مشقة فيه لأنه سهل.

**الهدي:** الحيوان المتقرب بذبحه لله في الحج.

**محله:** مكان حلوله وهو مكة أو منى.

**النسك:** الذبيحة المقصود بها التعبد.

**الأمن:** ضد الخوف، السلامة مما يخاف منه.

**حاضرو المسجد الحرام:** المقيمون في مكة وما حولها داخل الحرم.

**فرض الحج:** نواه وعزم على فعله.

**الرفث:** الكلام اللغو، والكلام الفاحش، قضاء الشهوة الجنسية.

**الجدال:** الخصام، والمفاوضة الكلامية على سبيل المنازعة والمغالبة.

**التزود:** إعداد المسافر ما يقتاته في سفره.

**الألباب:** جمع لب وهو العقل الرّاشد، ويطلق على الخالص من كل شيء.

**ابتغاء الفضل:** التجارة، والفضل: المال.

**الإفاضة:** الخروج بسرعة.

**عرفة:** عرفة وعرفات: المنبسط من الأرض الـذي يجتمـع فيـه الحجـيج يـوم التاسـع من شهر ذي الحجة. والوقوف به جزء من الليل هو أعظم أركان الحج.

**المشعر الحرام:** مزدلفة، وهي من الحرم.

**الخلاق:** النصيب من الخير.

**بيان المعنى الإجمالي:**

الحج ركن من أركـان الإسـلام، والعمـرة سـنة مؤكـدة ، وعلـى المحـرم أن يخلـص بعمله لله، وأن يتمه إذا شرع فيه وأن يؤديه كاملا كمـا بينـه القـرآن ووضـحته السـنة. وإذا منع العدو، أو المرض، أو العجز، المحرم من إتمـام مـا شـرع فيـه (وهـو المـراد بالمحصر) فيتحلل بعد أن يذبح هديه أو ينحـره. ومـا يجـب علـى المتحلـل المحصـر تفصيله في كتب الفقه. الهدي هو ما يذبحـه المحـرم مـن الغـنم أو مـن البقـر أو مـن الإبل. ولا يتكلف المحصر إلا ما هو في طوقـه بـدون حـرج. مـن كـان مريضـا أو محتاجا إلى حلق رأسه وهو محرم، فالواجـب عليـه إذا حلـق أن يقـدم فديـة. والفديـة: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مسـاكين أو ذبـح نسـك مـن الغـنم أو البقـر أو الإبـل. المتمتع وهو الذي يقوم بعمرة في أشهر الحج، وهـو مـن غيـر أهـل مكـة، ثـم يتحلـل منها ويحرم بحجة عن نفسه في عامه ذلك دون أن يعود إلـى بلـده. فهـذا هـو المتمتـع، وعليه أن يقدم هديا يذبح بمكة أو بمنى على تفصيل مذكور فـي كتـب الفقـه. مـن كـان من غير أهل الحرم وتمتع ولم يجد هديا إمـا لفقـره أو فقـدان مـا يجـزئ فالواجـب عليه أن يصوم عشرة أيام: ثلاثـة منهـا فـي الحـج، وسـبعة إذا رجـع إلـى بلـده. وحركت الآية ما في قلوب المؤمنين من صلتهم بـالله ليكونـوا يقظـين إلـى مـا يرضـيه حتى يحصنوا أنفسهم من غضبه وعقابه، فإن الله شديد العقـاب لمـن أمعـن فـي ضـلاله وبعد عن طريق الحق. نصـت الآيـة علـى أن الحـج وقتـه محـدد، وهـو شـوال وذو القعدة وذو الحجة. واختلف الفقهاء فـي اعتبـار ذي الحجـة كلـه مـن أشـهر الحـج أو الأيام التسعة الأولى منه أو العشرة أو الثلاثة عشر. وهـذه الأشـهر هـي مـن الأشـهر الحرم، تتأكد حرمتها على من أحرم بالحج، فعليه أن يحفـظ لسـانه مـن الكـلام الفـاحش والباطل واللغو، وعليه أن يحفظ جوارحـه ولسـانه مـن الآثـام، وعليـه أن لا يتعـرض في مخالطته للناس إلى الجدال المحرك للنـزاع. وعـدَ الله مـن التـزم بهدايتـه وفعـل الخير، وذلك كأدائه لمناسك الحج على الوجه الأكمل كمـا أرشـدت إليـه الآيـة، وحفـظ

لسانه وجوارحه، أنه يثبت عنده ما قام به من الخير ويثيبه عليه. وذكّر المؤمنين بأن يعدوا زادهم الذي يجدونه في سفرتهم الكبرى- الموت -الزاد الذي ينفعهم في الحياة الباقية، وهذا الزاد هو تقوى الله، هي الزاد الذي لا يفنى، والزاد الذي لا يقوم غيره مقامه عندما ينفصل عنه كل عزيز كان متصلا به. إن من له عقل صائب ذكي، يدرك أن عليه أن يكون دوما على صلة بربه بما يقترن بذلك من الاستقامة والعمل بما يرضيه. وأعلم المؤمنين أن عقد صفقات تجارية لا يتنافى مع أداء مناسك الحج أو العمرة. ووحد بين جميع المؤمنين في الحج بأن الواجب عليهم أن يقفوا بعرفات وأن يتوجهوا منها إلى المشعر الحرام الذي هو المزدلفة، وأن يذكروا الله في هذا المكان. وأمرهم بذكره ذكر الاعتراف بفضل هدايته التي هي أعز وأكرم ما يحصل عليه المؤمن في حياته. فإنكم إن نظرتم في وضعكم قبلها تجدون أنفسكم تائهين ضالين عن الطريق المؤمن لكم في الدنيا والآخرة. كما ذكرهم بأن عليهم بعد قضاء مناسك الحج أن لا يغفلوا عن ذكر الله، هذا الذكر الذي يصدر عن حب كما يذكر أحدكم أباه، فمن فطرة البشر أنهم إذا ذكروا أباءهم ذكروهم بما يعبر عن حبهم وعن التنويه بكمالاتهم، بل المطلوب منهم أن يكون ذكر الله أتم وأكمل من ذكرهم آباءهم. ولما كان ذكر الله ينتهي بالذاكر لسؤال ربه حاجاته، قسمت الآية السائلين إلى قسمين:

- قسم همه في الدنيا فقصر دعاءه على نيل حظوظ الدنيا وغفل عن الآخرة، فلا يكون له بغفلته عنها أي حظ.
- وقسم المؤمنين الصالحين الذين يتوجهون إلى ربهم أن يؤتيهم من فضله في الدنيا الخيرات الطيبة السالمة من النكد ، وفي الآخرة ما وعدهم من الفضل الذي لا يشوبه نقص ولا شعور بالحرمان، وأن يعجل لهم بدار الكرامة فيدخلون الجنة مع السابقين الذين لا يعذبون بالنار .

وختمت آيات الحج بأمرهم أن يذكروا الله ولا يغفلوا عنه في أيام منى، وهي الأيام المعدودات: الثلاثة التالية ليوم العاشر من ذي الحجة. وقررت الآية أن من أقام بمنى يوم الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ونفر بعد رمي جمار اليوم الثاني فلا إثم عليه بالتعجل، ومن تأخر فلم يخرج من منى إلا بعد رمي الجمار في اليوم الثالث فلا إثم عليه. واستواؤهما تعبير عن التخيير. وتلك لمن كان دليل اختياره التقوى. وقاعدة عامة يذكر بها القرآن دائما هي، أن على المؤمن أن يكون مستحضرا تقوى الله بصفة دائمة، ومستحضرا أنه سيحشر مع الناس بين يديه.

## بيان المعنى العام:

## 196-وأتموا الحج والعمرة...أو نسك.

الحج عبادة بقيت منه صورة عند العرب من شريعة سيدنا إبراهيم ﷺ. فاهتمت آيات الحج بإقامة أمور مما انحرفوا فيه عن شريعة إبراهيم. ومن ذلك

**أولا:** التوجه لله وحده في الحج والعمرة. ذلك أن العرب أقاموا أصناما في الكعبة وعلى الصفا والمروة، فكان التوجيه الأول للمؤمنين أن يجعلوا حجهم وعمرتهم خالصة لله، وعلى هذا كان الذكر الذي يصحب الحاج والمعتمر مع إحرامه: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

**ثانيا:** أن تؤدى مناسكهما تامة كما بينه رسول الله ﷺ الذي قال: خذوا عني مناسككم.

**ثالثا:** أن على من شرع في عمل من أعمالهما أن يتمه ويبلغ به غايته، ولا ينقطع عنه حتى يتمه. وهذا ما أرشد إليه قوله تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله. ويسر على من شرع في أداء الحج أو العمرة ومنعه مانع من عدو أو مرض أو عجز (وهو المحصر) أن يقدم هديا: من الغنم أو البقر أو الإبل. ويبقى على إحرامه حتى يذبح الهدي أو ينحر.

كما يسر الله على المحرم الذي أصابه ما يحتم عليه حلق رأسه أن يحلق رأسه ويفتدي، والفدية إطعام ستة مساكين لكل واحد منهم نصف صاع، أو صيام ثلاثة أيام، أو ذبح هدي.

**رابعا:** بجانب هذا التيسير شرع للمؤمنين من غير أهل الحرم (حاضروا المسجد الحرام) إذا قصدوا أداء فريضة الحج أن يقوموا بالحج والعمرة في سفرة واحدة، وفي أشهر الحج، وذلك على خلاف ما كان يعتقده المشركون أن العمرة لا تكون في أشهر الحج. والطريقة في ذلك أن يحرم بالعمرة، ثم يتحلل منها ويحرم بالحج بعد ذلك (وهو التمتع) ويقدم المتمتع هديا، فمن لم يستطع لفقر أو لعدم وجود ما يهديه ، فرخص له سبحانه أن يصوم عشرة أيام، ثلاثة في الحج وسبعة عند رجوعه إلى بلده. ونصت الآية على عشرة أيام لـئلا يتوهم أنه يصوم سبعة أيام إذا لم يصم الثلاثة.

أحيت الآية ما أمر به المؤمنون دوما من تقوى الله حتى تصحبهم في جميع أعمال الحج والعمرة، من ناحيتين: أداء المناسك كما شرعها، والحذر من المعاصي، فلا يتكل على ما فتحه الله له من فضل فيتهاون وتتراخى عزيمته، فليكن المؤمن دوما على حذر فإن الله شديد العقاب.

### 197 -الحج أشهر معلومات...الألباب.

**خامسا:** ضبط للمؤمنين وقت الحج في شهر شوال وذي القعدة وذي الحجة، وهل جميع شهر ذي الحجة أو التسعة الأيام الأولى منه أو العشر أو الاثني عشر؟ خلاف بين المفسرين في التحديد.

**سادسا:** أن من عزم على الحج فأحرم فليكن منضبطا في سلوكه، فالمحرم عليه أن يكون حذرا من الكلام الفاحش ومن الخروج عما حدده الله بارتكاب المنهيات وأن يتجنب الخصام والجدال المفضي للنزاع. ويعد الله من التزم بآدابه وطبق شرعه بأنه سيجزيه عما قدمه من خير، جزاء وافيا فلا يضيع من عمله شيء، لأن الله عليم بحقيقة ما يعمله كل فرد في حياته. ولذا فإن على المؤمن أن يستعد للحياة الآخرة، فهو في حياته الدنيا على سفر ليتحول من الدار الفانية إلى الدار الباقية، وزاده في سفرته هو التقوى. ولذا تصرح الآية بدعوة رب العزة لمن كان له عقل راجح ذكي أن يلتزم سبيل التقوى.

### 198 -ليس عليكم جناح أن تبتغوا...من قبله لمن الضالين.

**سابعا:** أبطل القرآن ما كان يتحرج منه المشركون من التجارة في أيام الحج. فرخص لقُصاد بيته أن يقوموا بصفقات يجنون منها أرباحا (أن تبتغوا فضلا من ربكم)

**ثامنا:** كان بعض المشركين يقفون بعرفة، وكان الحُمْس وهم (قريش ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة) يقفون بالمشعر الحرام تأويلا منهم بأنهم لما كانوا أهل الحرم فهم لا يتجاوزونه في مناسكهم. فسوت هذه الآية بين جميع الحجاج بأن يقفوا بعرفات ويدفعوا منها إلى المشعر الحرام، وهو المزدلفة. وفي المشعر الحرام يُوالُونَ ذكر الله، بتمجيده وتكبيره وتحميده . ومنته على خلقه توجب عليهم أن يذكروه بما مَنّ عليهم من الاهتداء إلى ما ينفعهم في دنياهم ومعادهم، وقد كانوا قبل أن تبلغهم هداية ربهم يشاركون بقية الأقوام في سلوك مسالك الضلال والضياع.

### 199 -ثم أفيضوا...إن الله غفور رحيم.

**تاسعا:** كان المشركون بمجرد ما يدفعون من المشعر الحرام إلى منى يتحللون من الانضباط، وإذا هو التفاخر والتشبيب بالنساء ومجالس اللهو، فأرشد الله المؤمنين أن يوالوا ذكره ذكرا صادرا عن حب خالص وإكبار كما يذكر المرء أباءه. إنه من فطرة البشر أن يذكروا آباءهم ذكرا منبعثا عن حب، معبرا عن تقدير بالغ،

يرتاحون لهذا الذكر وينشطون له، بل طلب منهم أن يكون ذكرهم لله أكمل وأتم من ذكرهم آباءهم، فالله أعز من أنفسهم وآبائهم.

## 200- فإذا قضيتم مناسككم...وما له في الآخرة من خلاق.

**عاشرا:** كان المشركون إذا توجهوا بالدعاء بعد أدائهم لمناسك الحج يسألون حظوظا من الدنيا، ومتاعا من الحياة العاجلة، فكان قصْرُ همهم على ذلك موجبا لحرمانهم من الكرامة يوم القيامة فلا نصيب لهم منها.

## 201-ومنهم من يقول...عذاب النار.

ونوه بالمؤمنين الذين، بعامل ما رسخه هذا الدين في عقولهم وقلوبهم، من التزاوج بين الدنيا والآخرة ، يسألون ربهم من خيرات الدنيا وثواب الآخرة، ويدعونه أن يكونوا مع السابقين للجنة، بمغفرة وفضل دون أن تمسهم النار، فأخبر القرآن أنهم مميزون بأن نصيبهم مما اكتسبوه من صلاح وتقوى يجزيهم به ربهم ولا يطيل حسابهم، ذلك أن من نوقش الحساب عُذب.

## 202-203، أولئك لهم نصيب...تحشرون.

**حادي عشر:** في هذا الجو من التأكيد على دوام الذكر يزيد القرآن تفصيلا لما أجمله في قوله: كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا، وذلك ببيان زمن الذكر في الأيام المعدودات التي هي أيام منى يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة. ثم رخص للحجاج أن يقتصروا على اليوم الحادي عشر والثاني عشر يرمون في كل يوم الجمار ثم ينتهي باليوم الثاني عشر كل أعمال الحج. كما يمكن لمن أراد الإقامة بمنى يوم الثالث عشر أن يواصل.

**ونصت الآية أولا:** على أن من تعجل فقد عمل بالرّخصة فلا إثم عليه بالتعجل، نفيا لما يتوهم أن التعجل، وإن كان لا يبطل الحج، فإن فيه نقصا عن التمام قد يأثم به المتعجل.

**ونصت ثانيا:** أن من أقام بمنى اليوم الثالث عشر ولم يتعجل لا إثم عليه أيضا إذا كانت إقامته بمنى، وهو ملتزم فيها تقوى الله وآداب أيام منى. ونفي الإثم لدفع ما يتوهم أن من لم يأخذ بالرّخصة، معرض عن التيسير الذي تكرم الله به على الحجاج. فأفادت الآية بهذا التنصيص على الصورتين أن الحاج مخير بين التعجل وعدمه، وأنه لا مزية لأحدهما على الآخر.

**ثاني عشر:** تتوج آيات الحج بأمر ما كان له دخل في تصور المشركين، وذلك بالوصية الجامعة التي على الحاج أن يكون حريصا على مراعاتها بعد أن طهر

نفسه بأداء الركن الخامس من أركان الإسلام. **تقوى الله. التقوى التي يكون بها المتقي مستحضرا أن الحياة الدنيا قصيرة وأن الناس جميعا سيحشرون بين يدي رب العالمين، لا يتخلف منهم أحد في الحشد الجامع الذي يعطيهم صورة منه ما كانوا عليه عند أداء المناسك.**

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**من الناس:** بعض الناس.

**يعجبك:** يحسن عندك.

**يشهد الله:** يقول: الله يعلم أن ما أقوله حق.

**ألد:** شديد الخصام.

**الحرث:** شق الأرض للزراعة وسمي الزرع حرثا وكذلك ما يغرس من الشجر.

**النسل:** ما خرج متتابعا كنتاج الحيوانات.

**الفساد:** إتلاف ما هو نافع نفعا محضا أو راجحا.

**أخذته العزة:** استولت عليه العزة بسبب تكبره.

**فحسبه:** يكفيه جزاء.

**المهاد:** ما يهيأ من الفراش.

**يشري:** يبيع نفسه.

**السلم:** يطلق على الإيمان وعلى السلام.

**كافة:** جميعا.

**زللتم:** أصل الزلل انزلاق الرّجل، والمراد في الآية عدم الثبات فانزلقتم واتبعتم الشيطان.

**بيان المعنى الإجمالي:**

لا تغتر أيها المؤمن بكل ما تسمعه. ذلك أن بعض الناس يبطن الشر والخبث، ومع ذلك يعطيك من طرف لسانه حلاوة، ويعمل على تغريرك بقوله: الله يشهد أن باطني لا يختلف عن ظاهري. وهو في الحقيقة يقلب الحقائق شديدُ الخصومة. ويفتضح أمره إذا ابتعد عنك أو تمكن من السلطة، فإنه في الحالة الأولى يظهر ما انطوى عليه من فساد وإفساد، وفي الحالة الثانية يفسد بظلمه في الأرض بما يصحب الظلم من الخوف فينكمش الناس عن الإنتاج، ويتراجع العمران، وتقصر الأرض تبعا لذلك عن إبراز خيراتها، ولا يتشجع العمال فينحط الاقتصاد، ويذهب الأمل فيعيش الناس ليومهم بلا مخططات يتتابع إنجازها في المستقبل. والله لا يحب من يتسبب في الإفساد. وهذا الصنف من الناس مطبوع على الكبر، فإذا توجه له من ينصحه ويذكره بأن عليه أن يخشى حساب الله فيتقي غضبه، شمخ بأنفه وتكبر. ويكفيه جزاء أن الله سيهينه بإدخاله جهنم التي تكون له فراشا، وما أسوأه من فراش. ومن الناس من باع نفسه لله ابتغاء مرضاته وطمعا في الفوز برضوانه، وليأمل من سلك هذا المنهج كل خير، فإن الله رؤوف بعباده المؤمنين. وبناء على ذلك يصدر النداء لجميع البشر أن يدخلوا جميعا في الإسلام عقيدة وتطبيقا لشرائعه، وأن يتجنبوا المسالك التي يدعو إليها الشيطان. فتذكروا أن الشيطان هو عدوكم، عداوته واضحة بينة. وليعلم من تبع نداء الشيطان وانحدر إلى الرذيلة وارتكب إثما، بعد ما تبين له طريق الهدى، ليعلم أنه لم يضر إلا نفسه، فإن الله في عزته وحكمته لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية.

**بيان المعنى العام:**

**204- ومن الناس من يعجبك قوله ...وهو ألد الخصام.**

في آيات الحج ذكر القرآن أن بعض الناس قصروا همهم على الحياة الدنيا: (آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق) وهم الكافرون. وبعض الناس، وهم المؤمنون يتوجهون إلى ربهم أن لا يحرمهم من فضله في الدارين (آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة...). وذكر في هذه الآية نمطا آخر من الناس وهو الذي يظهر الإيمان، ويتكلم في الإسلام وعن المسلمين ما يسر المستمع له، وهو يبطن خلاف ما يقول. فصلت الآية ملامح هذا النمط من الناس حتى يحذره المسلمون ولا تروج عليهم حيله ومحاولاته الاندساس في الجماعة الإسلامية.

**أول ملامحه:** أنه يغر المستمع له بالتنويه بالإسلام، وإبراز مزاياه، وخصت الآية الاستحسان لأقواله في الدنيا، لأنه سيفضح يوم القيامة ويظهر نفاقه ويلقى جزاءه مهانة في جهنم.

**ثاني ملامحه:** أنه يشهد الله على أن نفسه عمرت بحب الله ورسوله والمؤمنين.

**ثالثها:** أنه إن عرضت خصومة تجده شديدا جدا في الخصام يقلب الحجج ويعتمد الجوانب البعيدة ليدعم بها باطله.

**رابعها:** أنه إذا انصرف عنك وابتعد، ومكنته الفرصة، تجده متحركا حريصا على إفساد الأرض، لا يشفي مرضه النفسي وما امتلأ به من حقد وبغض للناس إلا الإفساد بإهلاك ما به قوام حياة الناس كالزروع والثمار والأشجار والحيوان والدور. ومن ذلك في عصرنا أسلحة الدمار الشامل كالأسلحة الذرية والجرثومية والحارقة والصواريخ الماحقة لكل ما يقوم أمامها.

قاعدة: (إن الله لا يحب الفساد) فالمفسد خسر رضا الله عنه، ومن سخط عنه لا يفلت من عقوبته.

## 205-206 ، وإذا تولى...ولبئس المهاد.

**خامسها:** أنه متكبر لا يخضع للحق، فإذا وعظه واعظ، استولى عليه تكبره واعتزازه بما صدر عنه من إثم ورذيلة وظلم واستبداد، وأصم أذنيه عن الحق.

والظالم المتعالي المفسد المعتز بما يصحبه من إثم، يدفعه لذلك كبره وظنه أنه قوي مقتدر، لا يفلت من منزلة الهوان يوم القيامة في جهنم. وجهنم هي أسوأ فراش يهيأ يجمع بين العذاب الذي يتجاوز الوصف والإذلال الذي لا حد له. وقد تجتمع هذه الصفات وقد يظهر بعضها، والعاقبة واحدة.

## 207- ومن الناس من يشري...والله رؤوف بالعباد.

شأن القرآن أنه يذكر الشيء وقسيمه ليستوفي كل شأن من شؤون الحياة. إنه بجانب النمط الأول المفسد يتألق نمط آخر: وهو الذي يبيع نفسه، النفس التي هي أغلى ما يملكه الإنسان، يبيعها ويُسلمها لنصرة دين الله وابتغاء رضوانه، هذا الرِّضا الذي لا يناله الإنسان إلا إذا كان سُلَّم القيم عنده مرتبا على أن طاعة الله وتحقيق ما ينصر دينه وينفع عباده أولى أولياته. يبشر الله هذا النمط بأنه رؤوف بهم فييسر عليهم أمرهم ويرحمهم ويعينهم، ولا يكلهم إلى نفوسهم فهم في رعاية الله ورحمته.

## 208- يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم...إنه لكم عدو مبين.

نداء من الله للمؤمنين كي يستيقظوا للامتثال لما سيأمرهم به، ويبتعدوا عما سينهاهم عنه: أمرهم أن يلتزموا الثبات على العقيدة الإسلامية وطاعة أوامر الله، إذا فسر السلم بالإسلام، وأن يلتزموا السلام بينهم بما تقتضيه أخوة الإيمان ورابطة الدين الحق التي استلت من النفوس ما ترسب فيها من آثار العداوات التي كانت مستحكمة بين القبائل العربية وحولتها إلى تناصر ووحدة. وهذا الأمر يشمل كل مسلم وهو معنى (كافة). ونهاهم عن اتباع ما يدعو إليه الشيطان، وما يرسمه من طرق الضلال والفساد. وحذرهم من تلبيسه ليكونوا يقظين دائما إلى أنه عدو واضح العداوة، لا يغريهم إلا بما يعقبه خسرانهم.

### 209- فإن زللتم...حكيم.

وأكد التحذير بأن من تراخت يقظته فانزلق متبعا للشيطان، فليكن حاضرا في علمكم دائما: أن الله عزيز لا يغلب ولا تعترض إرادته ولا تحد قدرته، حكيم محكم للأمور، بما يترتب على هذين الوصفين، أن من اتبع خطوات الشيطان بعد التحذير، وبعد أن بلغت بينات الحق ،فإنه معرض للعقوبة التي لا ظلم فيها .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**ينظرون:** ينتظرون.

**الظلل:** جمع ظلة: ما يستر ويحجب ما فوقه.

**الغمام:** أرق السحاب وأصفاه.

**القضاء:** الفراغ من الأمر وإتمامه.

### بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن جاءت الأدلة البينة على صدق الرّسول ﷺ ، فالتلكؤ عن الدخول في الدين لا عذر فيه، إلا أن ينتظروا بإيمانهم أن يشهدوا الله في ظلل من السحب يخاطبهم مباشرة مع الملائكة تعالى الله عن ذلك. وقد قضي الأمر وتقرر الحكم، وسوف يعود الجميع إلى ربهم، وينفرد سبحانه بالسلطان ظاهره وباطنه ولا يملك أحد منهم شيئا (والأمر يومئذ لله ).

### بيان المعنى العام:

### 210- هل ينظرون إلا أن تأتيهم...وإلى الله ترجع الأمور.

ذكرت الآية السابقة أن الأدلة البينة الواضحة قد عرضت على الناس (من بعد ما جاءتكم البينات) ، ولا عذر لمن يتلكأ ويسوف ولا يبادر بالاستجابة. إن شواهد صدق الرّسول ﷺ قد قضت على كل ما يوجب التردد ونفت الحيرة، فما الذي ينتظرونه ليدخلوا في دين الله؟ هل ينتظرون أن ينكشف عنهم الحجاب فينظروا بأبصارهم الذات العلية وقد جاءتهم في كتل من الغمام ؟ هذا أمر قد سجله الله على الكافرين المعاندين المستكبرين في سورة الفرقان: وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا[1]. وإذ وصلوا إلى هذا الحد من العناد وغلظ الرّوح وفساد التفكير، فقد قضي الأمر وصدر القرار العام الشامل الذي لا مثنوية فيه. فكل الخلائق يصير أمرها إلى الله وقد قضى الله على كل نفس جزاءها جزاء وفاقا.

سَلْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

### بيان معنى الألفاظ:

سل: أمر من سأل.

كم: اسم للعدد المبهم يستفهم بها.

الآية البينة: المعجزة والدليل الواضح.

يبدل: يجعل شيئا عوضا عن آخر.

نعمة الله: الآيات البينة الهادية للحق المزيلة للشك.

### بيان المعنى الإجمالي:

أمر الرّسول أن يتوجه بالسؤال لليهود الذين كانوا حاضرين في المدينة عند نزول الآية: كم يسر الله لهم من الآيات البينة. التي هي نعم توجب الطمأنينة والثبات، ولكن بني إسرائيل بدلوا تلك النعم بعدم تقديرها حق قدرها واستمروا على مواصلة الطلبات وعدم الرّضا بها. واستحق بنو إسرائيل، كما يستحق كل من لم يعرف حق نعم الله عليه، العقوبة من الله الذي لا يفلت من أراد عقوبته من تسليط ما يستحقه عليه. إن مباهج الحياة الدنيا وما كساه الله بها من جمال وحسن، هو المدخل الذي ينفذ منه الشيطان إلى قلوب الكافرين، حتى يصل بهم الأمر إلى اعتبار تلك

[1] سورة الفرقان آية21

المباهج هي الحياة ولا قيمة وراءها ومن كان حظه منها ضعيفا ينظرون إليه بازدراء على أنه نازل في المقام الاجتماعي. وعلى هذا كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين. وعمر الدنيا قصير فهؤلاء الصالحون من المؤمنين سيرفع الله مقامهم يوم القيامة، ويذل الكافرين. وعطاء الله للصالحين عطاء واسع لا تحده حدود.

### بيان المعنى العام:

### 211- سل بني إسرائيل...فإن الله شديد العقاب.

أمر النبي ﷺ أن يسأل اليهود عما مكنهم الله منه من الآيات البينات، وما أظهره لهم موسى عليه السلام من المعجزات النافية لكل ريب في صدقه، وقد قص القرآن في غير ما آية أن اليهود كلما آتاهم الله آية قابلوها باقتراح الممكن والمستحيل، طلبوا بعد ما يسر الله لهم في أرض التيه، المن والسلوى، طلبوا الثوم والبصل والبقول. وطلبوا مرة أخرى أن يروا الله جهرة. وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كعبدة الأصنام (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) والآيات يؤتيها الله عباده لينفي عن قلوبهم الحيرة، ويبعد من قلوبهم الشك ، وهي بذلك من أكبر النعم، فقابلوها بما يدل على عنادهم وقسوة قلوبهم، وبدلوا ما ينبغي أن يصدر عنهم، بعد إيتائهم إياها، من الطاعة وسلوك طريق الهداية الواضح، بدلوا ذلك بتلكم المطالب المتلاحقة، سلسلة بنت سلسلة. ويصدر الحكم العدل كقاعدة في معاملة العصاة من هذا النوع بأن الله شديد العقاب لا يفلت الجاني منه. وترتبط الآية بقوله تعالى في الآية السابقة، (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) بالتذكير بما سلط على بني إسرائيل بعد إعراضهم عن الانتفاع من الآيات البينات.

### 212-زين للذين كفروا...يرزق من يشاء بغير حساب.

لقد زين الله الحياة الدنيا زينة رتب عليها اختبار البشر، فأما الذين كفروا فقد أغرتهم الحياة الدنيا بما أودع فيها من حسن وجمال يستهوي النفس فيستولي عليها ولا يترك فيها مدخلا لدفق نور الإيمان وجمال العبادة، والشيطان يركب ما في الحياة من زينة ليحصر نظر من يتبعه في ذلك الوجه الحسن من القوة ومختلف أنواع الشهوات والاستكبار بغير حق. إلى أن يصل إلى احتقار النواحي الروحية والسلوكية، فتتبدل القيم، ويعتبر التسامح ضعفا والفقر خسيسة، والصدق بلاهة، والعفة فقد حساسية بالجمال. فيلف الظلام على قلوبهم وأرواحهم ويرفضون ما آتاهم الله من الآيات، بل يتجاوزون بصلفهم ذلك إلى احتقار ضعفاء المؤمنين والسخرية منهم. إن المتاع الذي استولى عليهم ونفخ الشيطان به في مشاعرهم فهبطت، هو متاع زائل. يدرك المتأمل أن جميع متع الحياة الدنيا لا تتجاوز لحظة

ظهورها وتفنى عندها. أما ما أعده الله لعباده المتقين في الآخرة فطبيعته تختلف عن طبيعة متاع الحياة الدنيا، إذ تتزاوج فيه المتعة الرّوحية والعقلية والجسدية بصفة تسمو عن كل تصور. ومن الكرامة لهم والنكال بالكافرين، شعورهم بمنزلة المتقين التي تعلوهم (فوقهم) وشتان بين عاقبة الكافرين الذين يلقون جزاءهم من المهانة والحرمان والهوان، وبين عاقبة المتقين الذين يعلي الله سبحانه أقدارهم، فيرفعهم إلى منازل الكرامة والرّضوان والقرب. وتعبر الآية عن ذلك تعبيرا يذهب فيه التصور ما شاء بقوله (من غير حساب) إذ ما يحسب هو المحدود أما ما تجاوز الحد والعد فخاصته أنه لا يحسب. وترتبط الآية بقوله تعالى (والله رؤوف بالعباد) ومنزلة المتقين من رأفته وبقوله تعالى (وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور) فهذه هي صورة من صور رجوع الأمر إليه.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الأمة:** اسم للجماعة التي يجمعها موطن أودين أو لغة.

**واحدة:** أمرها واحد في الدين.

**بعث:** أرسل لتبليغ شريعته.

**النبي:** من أوحى الله إليه فإن أمر بتبليغ الوحي والقيام على تنفيذه فهو الرّسول.

**مبشرين:** من البشارة وهي الإعلام بخير (الوعد).

**منذرين:** من النذارة، وهي التحذير من شر ( الوعيد).

**بغيا بينهم:** ظلما وحسدا.

**بإذنه:** بتيسيره.

**بيان المعنى الإجمالي:**

مضت البشرية زمنا، يعلمه الله، مؤمنة بالله على الفطرة السليمة، ثم برز الخلاف بينهم في العقيدة واختلط الحق بالباطل، واستمر ت الأوضاع على هذا النحو، بين الإيمان والضلال، ومن رحمة الله بعباده أنه كلما اختلط الأمر وعميت الحقيقة يبعث رسولا. طريقة المرسلين أنهم يبينون الحق ويزيلون الشبه وما داخل العقول

والعوائد من ضلالات، يعِدُون الطائعين بالنجاة والفوز ويحذرون العصاة المنحرفين وينذرونهم إن لم يرتدعوا بعذاب الله. وأنزل على كل رسول كتابا يكون المرجع لتبين الحكم الذي يرضاه الله. ثم إن الناس، بعد ما يجمعهم الرّسول والكتاب الذي أوحي إليه وبلغه، يعودون بعد ذلك إلى الاختلاف في فهم الكتاب وفيما تضمنه من الحق الجامع للكلمة، وما كان هذا الاختلاف إلا بعامل الحسد وتجاوز الحق إلى الهوى. واستمر هذا الخلاف المشين إلى أن ظهر في الكون المؤمنون بمحمد ﷺ الذين ميزهم بهدايتهم لوجه الحق الذي لا يلتبس كما التبس على الأمم السابقة فاختلفوا. وذلك فضل الله خص به أمة محمد، يؤتي سبحانه فضله من يشاء.

**بيان المعنى العام:**

**213-كان الناس أمة واحدة...صراط مستقيم:**

(ومن الناس من يعجبك ...)[1] والآية (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم)[2] والآية (سل بني إسرائيل...)[3] تلكم الآيات كشف فيها القرآن مواقف بعض الناس في العقيدة والسلوك. وكشف في هذه الآية عن حالة البشرية عامة من بداية الخلق إلى البعثة المحمدية. فمضمون الآية من الغيب. ذكر القرآن أن الناس كانت تجمعهم عقيدة واحدة، تبعا لقلة عددهم، وسلامة فطرتهم، وقربهم من التربية الصالحة التي قام عليها آدم وزوجه، ثم اختلفوا بما يركبه الوهم من صور في العقيدة والعبادة وما يزينه الشيطان من ضلالات، وهذه الصور الوهمية والشيطانية من طبيعتها أن لا يتفق البشر على قبولها، وأن يختلفوا بسببها اختلافا يذهب بوحدتهم ويبعدهم عن ربهم. ويتكرر هذا الأمر في مسيرة الخليقة، وتدارك الله البشر بإرسال الأنبياء، فكلما فسد أمر البشر في حقبة من الأحقاب، وانطمس الحق وشاعت الضلالات يبعث رسولا يدعو إلى الحق ويبين المنهج الصحيح في العقيدة والعبادة ويَعِدُ من اتبعه ويبشره بسلامة الحاضر والمآل، ويحذر المخالف الرّافض للدعوة وينذره بسوء المصير. وإن أمر البشر لعجب، يأتي الرّسول ويبين ويترك في القوم الذين بُعث فيهم كتابا من عند الله، مسجل فيه الحق والمنهج الرّاشد فيفرطون في الاحتفاظ بنص ما تلقوه من الوحي، ويضيفون إليه من أهوائهم ما يطمس نوره ويوهن تأثيره، وذلك من أشد الظلم إذ اعتدوا على كلمة الله فقوي الاختلاف بينهم،

---

[1] سورة البقرة ،آية 203

[2] سورة البقرة ،آية 208

[3] سورة البقرة ،آية 211

واشتد التعصب بين طوائفهم، وكلما أوغلوا في طريقهم ذاك تأكدت الفرقة وازدادوا بعدا عن الحق. وبعث الله محمدا ﷺ ليعود بجميع أهل الديانات السائدة عند البعثة، يعود بهم إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم. فقد اختلف اليهود في التقديس والتقرب من بعض الصالحين منهم، ونسبوا لأنبيائهم مناكر تحط من مقامهم واختلفوا في مصيرهم يوم القيامة، وكذلك النصارى اختلفوا في ماهية المسيح ﷺ وفي ميلاده وفي ضبط ما شرعه لهم بإذن من ربه. فهدى الله المسلمين بفضل ما بينه محمد ﷺ إلى الحق الذي غاب عنهم. فكانوا الآخرين زمنا، المقدمين في إدراك الحق بتيسير من الله ﷻ. وهذه المزية هي فضل من الله ﷻ، والله يخص من يشاء بالهداية إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، الواضح المهيمن على جميع الشرائع السابقة.

**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (214)**

**بيان معنى الألفاظ:**

**مثل الذين خلوا من قبلكم:** شبيه ما حصل للأمم السالفة قبلكم.

**البأساء:** الفقر وما يصيب الإنسان في ماله.

**الضراء:** شدة الحال على الإنسان ويقابلها السراء.

**زلزلوا:** الزلزلة حركة عنيفة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أتظنون أن تفوزوا بدخول الجنة دون أن تتعرضوا لما يختبر به صدق إيمانكم في ظروف وأحوال فيها شدة، على سنة الله في الأمم التي سبقتكم. فقد ابتلوا في أموالهم وأبدانهم وعانوا من الضيق ما عانوا، حتى يجأروا إلى ربهم يسألونه أن يعجل بنصرهم عند اشتداد الأمر وضيق الصدر والخوف من الفناء العام. ويبشر الله المؤمنين بأن الله سينصرهم وأن ساعة الفرج، والخروج من الضيق وتبين الفوز، قريبة وليست بعيدة.

**بيان المعنى العام:**

**214- أم حسبتم...ألا إن نصر الله قريب.**

كانت منة الله على أمة محمد في ختام الآية السابقة منة عظمى خصهم بها **(فهدى الله الذين آمنوا إلى ما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى**

صراط مستقيم) وينبه القرآن المسلمين إلى أن الكرامة التي خصوا بها تدعوهم إلى اليقظة والصبر ومغالبة الصعاب، وتحدي مؤامرات وإذايات الكافرين، ينبههم إلى أن ذلك هو سنة الله في الذين مضوا من الأمم، فقد ابتلوا في أجسامهم وفي أموالهم، ووقعوا في الشدائد، فقدوا الطمأنينة فكانوا في رجة تتبعها رجة، حتى يقول رسولهم والمؤمنون معه عند قوة الكرب وإطباق الشدائد إطباقا بحيث لا يظهر في ظلام النفق بصيص من نور ينبئ عن المخرج من الوضع، يقولون: متى يأتي نصر الله؟ بعد أن عرض على أتباع الرّسول سيدنا محمد ﷺ هذه الصورة للمجاهدة الشديدة، يخرجهم من غزو اليأس ويعجل القرآن ببشارتهم: إن نصر الله قريب منهم. فمهما اشتد بأس الكافرين، ورغم ما دبروه ونفذوه من استيلاء على الأموال وتعذيب وإخراج من الديار ومفارقة للأهل والموطن، فإنه بصبرهم واعتمادهم على ربهم وثقتهم في الحق الذي هم عليه، يأتي قريبا نصر الله. وما النصر إلا من عنده.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الخير:** المال.

**ابن السبيل:** المسافر الغريب.

**بيان المعنى الإجمالي:**

هذا هو السؤال الثاني في سورة البقرة: سأل بعض المسلمين النبي ﷺ عن الذين هم أولى بالإنفاق عليهم الإنفاق الذي حض عليه. كان الجواب أن أحق الناس بذلك الوالدان والأقارب واليتامى والفقراء المحتاجون، والمسافر الغريب. وختم الآية بأن الله لا يخفى عليه ما تفعلونه من خير، فهو يجازيكم عن صالح ما قدمتموه.

**بيان المعنى العام:**

**215-يسألونك ما ذا ينفقون...به عليم.**

عُرف العرب بكرمهم، وبفخرهم بتبذير المال، ودعاهم الرّسول ﷺ أن ينفقوا من أموالهم ما يقوي لحمة التآخي بين الجماعة الإسلامية، وأن إنفاقهم سيلقون جزاءه عند الله متى التزموا بمنهج الإسلام في الإنفاق، ولذا طلبوا منه ﷺ أن يبين لهم أوجه الإنفاق التي تقربهم من رضوان ربهم. فسجل القرآن السؤال، وسجل الإجابة التي جاء بها الوحي، فافتتحه بقل، حتى يكون أبلغ في الدعوة إلى الإسراع بتنفيذه.

عدت الآية خمسة أنواع من المقدمين عند الإنفاق، إذا تأملت فيهم تقتنع بأن ملحظ مراعاة تقوية أصرة الترابط الاجتماعي واضحة. وهم على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** الأسرة: الوالدان والأقارب.
- **القسم الثاني:** ذوو الحاجة في المجتمع، المساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة الكريمة.
- **القسم الثالث:** رابطة الإيمان بين المقيم في بلده والغريب الوارد، الذي قد يكون بسبب بعده عن بلده في ضيق، فهو جدير بأن يعان، وإن كان غنيا في بلده. ثم أرجعت المؤمنين إلى ما استقر في نفوسهم من التربية العالية التي رباهم عليها النبي ﷺ ، فذكرهم بأن الله يعلم ولا يفوته أي عمل خير يقوم به المؤمن، وفي ذلك إشارة إلى أنه يتولى جزاءه، وأن عمل الخير أوسع مما عد في الآية.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**القتال:** الجهاد بالحرب.

**كره لكم:** تكرهونه.

**الشهر الحرام:** ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

**قتال فيه كبير:** إثمه كبير.

**أهله:** المستوطنون بمكة.

**الفتنة:** التسلط بالظلم لإكراه المظلوم على التخلي عما يؤمن به.

**يردوكم عن دينكم:** يرجعونكم إلى الكفر بعد الإسلام.

**حبطت أعمالهم:** ذهبت آثارها.

**بيان المعنى الإجمالي :**

خاطب الله المؤمنين بأن الله أوجب عليهم القتال وخوض الحرب دفاعا عن الدين، والله يعلم أن النفوس تكره الحرب لما فيها من تعرض للمخاطر وانشغال عن الأهل وعن الأعمال التي كان يقوم بها المحارب ، ولكن التشريع الذي يحصن الأمة ويحميها لا يتبع رغبات الناس وميولهم فصرحت الآية بأن ما فرضه الله على المؤمنين فيه الخير لهم. والغيب محجوب عنهم، فقد يكون ما يحبون حصوله فيه ضرهم، وقد يكون ما يكرهونه الآن فيه الخير في المستقبل لهم. فالله متفرد بعلم الغيب، والبشر لا يعلمون من الغيب شيئا. سئل الرسول ﷺ عن حكم القتال في الشهر الحرام، فأوحى الله لنبيه ما يجيب به وأمره أن يقول لهم: إن إثم القتال فيه إثم كبير، ولكن منع من شرح الله صدره للإسلام من الإيمان، وإجباره على الكفر بالله، والحيلولة بين المعظمين للمسجد الحرام وبينه، وإخراج المهاجرين: أهل مكة من ديارهم، هذه المظالم والتعديات التي قام بها كفار مكة، أعظم إثما وأشد نكارة من القتال في الشهر الحرام. وأيضا فإن التسلط بالقهر والظلم والنكاية بالمؤمنين ليرتدوا عن الإسلام أكبر إثما وأقبح من القتل في الشهر الحرام. ونبه الله المؤمنين بأن الكافرين يستعدون لمحاربة المسلمين وجبرهم على التخلي عن إسلامهم وإن كان ذلك مستبعدا، فليحذروهم، وليعلموا أن من يرتد عن الإسلام سيحرم من جزاء ما قام به من صالح الأعمال قبل ارتداده، فيذهب كل ما قدمه سدى، ويفقد في ضربة واحدة جميع المزايا الخاصة بجماعة المسلمين في الحياة الدنيا كالتناصر، ورعاية بيت المال، والدفن في مقابر المسلمين، والتوارث إلى آخره. وكذلك يلقى نفس المصير في الآخرة فيحبط ثواب جميع ما قام به من صالح الأعمال. وينوه القرآن عقب ذلك بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل نصرة الإسلام، بأن الله ينزل في قلوبهم الطمأنينة، فهم في جميع ظروف العسر واليسر على رجاء في رحمة الله. ويتأكد رجاؤهم بإيمانهم أن الله عظيم المغفرة واسع الرّحمة.

**بيان المعنى العام:**

**216-كتب عليكم القتال...والله يعلم وأنتم لا تعلمون.**

يحرك الله المؤمنين ليستيقظوا، وليشدوا عزائمهم على الامتثال لما يأمرهم به باعتبار أنه من مقتضيات الإيمان. أخبرهم بأن الله أوجب عليهم الجهاد (القتال) والله يعلم أن خوض غمار الحروب شديد على الإنسان لا يحبه، لما يمكن أن يتعرض له المقاتل من مخاطر بالموت أو الجراح، ولانشغاله به عن نشاطه الاقتصادي،

ويعده عن أهله وتركه لهم، والإنسان بطبيعته يكره ذلك. ويدعو القرآن المؤمنين إلى تجاوز النظرة العجلى، القاصرة على الحاضر القريب، بحكم أن البشر محجوبون عن معرفة الغيب، ذلك أن ما سيحدث في المستقبل ليس كما يتوقعه البشر في حاضرهم، فكم رغبوا في أمر فكانت عاقبته هلاكا وخسرانا، وكم كرهوا أمرا جعل الله فيه خيرا كثيرا يظهره في إبانه. يحقق هذا أن الله هو المتفرد بعلم الغيب وأن الناس لا يعلمون من الغيب شيئا. في الآيات 194/190 السابقة في هذه السورة تبين بعض أحكام القتال زمانا ومكانا. وهذه الآية وقد نفذت إلى الغيب البعيد وحركت المؤمنين بأنه فرض عليهم ممن يعلم عواقب الأمور فلا تردد في القيام به.

## 217-يسألونك عن الشهر الحرام... خالدون.

وفي هذه الآية سجل القرآن السؤال الثالث في سورة البقرة. سئل رسول الله ﷺ عن حكم القتال في الشهر الحرام، وقد ذكر أنها نزلت في سرية سيدنا عبد الله بن جحش الذي تعرض لقافلة فقتل منها شخصا وأسر اثنين آخرين في آخر يوم من شهر جمادى الثانية، فكان ذلك اليوم هو أول يوم من رجب الشهر الحرام، فشغب الكفار وسألوا عن القتل في الشهر الحرام وأن ما وقع يؤذن بأن محمدا ﷺ نقض حرمة الأشهر الحرم. نزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ أمرا له بأن يجيبهم بالوحي المنزل: ان القتال في الشهر الحرام إثمه كبير لمن قصد انتهاك حرمته، ولكن 1- صد الناس ومنعهم من اتباع سبيل الله وطريقه الذي يرضاه لعباده. 2 - وكفر الكافرين بالله. 3- -ومنع القاصدين للمسجد الحرام من الطواف بالبيت وأداء المناسك . 4-وإخراج أهل المسجد الحرام (سكان مكة) منه قسرا والاستيلاء على ديارهم وأموالهم، وهذا ما قام به المشركون المعترضون على خطأ عبد الله بن جحش في معرفة أول الشهر. ان هذه المناكر هي أعظم إثما وأشد شناعة عند الله. وفوق ذلك ما صنعه المشركون بالمسلمين من تدبير أنواع التسلط والقهر وتنفيذها، ليخرجوا المسلمين من الإسلام الدين الذي ارتضوه، وهو ما عبر عنه بأن الفتنة أشد إيلاما وأبلغ أذى من القتل. فمواصلة التعذيب والسخرية أشد إذاية وألما من القتل. ويؤكد العزم على المضي في الاستعداد للقتال والقيام به عند الحاجة بأن المشركين مصممون على مواصلة التسلط عليكم وشن الحروب على دياركم، لا يشفي غليلهم منكم إلا شيء واحد (هو أن ترتدوا عن دينكم وتولّوا ظهوركم للإسلام) وبعيد أن يبلغوا ما عزموا عليه.

إن أمر الارتداد عن الإسلام فظيع جدا، فمن يرتد عن الإسلام ويظلم قلبه بحجاب الكفر حتى يدركه الموت، يخسر الدنيا والآخرة. ففي الدنيا يخرج من الجماعة، فتنقطع جميع أسبابه التي كانت تصل بينه وبين المؤمنين في أسرته وفي المجتمع، في التعامل وفي العبادة، وليس له حظ في بيت مال المسلمين ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، إلى آخر خصائص المسلم في المجتمع الإسلامي. وحظه أسوأ من ذلك في الآخرة، فصلواته وصدقاته وما قام به من صالح الأعمال لا يبقى منها أثر في ميزانه عند حسابه. وجزاؤه العدل أن يقترن بالنار وتقترن به فلا ينفك أحدهما عن الآخر (أصحاب النار) وهو خالد فيها إلى أبد الأبدين.

### 218-إن الذين آمنوا...والله غفور رحيم.

وينوه القرآن بعد أن وصف فظاعة مآل المرتدين، ينوه بالمؤمنين الذين توالت منهم مشاهد الفضل والثبات، الذين تركوا أموالهم وديارهم فهاجروا من مكة إلى المدينة تقديما لإيمانهم على كل شيء من حظوظ النفس في الدنيا، وقاموا بالاستعداد والذود عن سلامة الجماعة الإسلامية بجهادهم وخروجهم لحرب أعداء الإسلام، إن هؤلاء قد رزقهم الله نعمة عزيزة، هو أن اليأس لا يدخل قلوبهم فهم في حالتي العسر واليسر يرجون رحمة الله التي وسعت كل شيء، ذلك أن الله عظيم المغفرة واسع الرّحمة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الخمر:** عصير العنب المختمر الذي يحجب عقل شاربه .

**الميسر:** قمار كان لعرب الجاهلية.

**الإثم:** معصية الله بفعل سيء لا يرضى عنه الله.

**العفو:** ما زاد عن الحاجة من المال ولا يرهق المعطي.

**العنت:** المشقة.

**بيان المعنى الإجمالي :**

سجل القرآن سؤال المؤمنين لسيدنا محمد ﷺ عن أمرين كانا شائعين عند عرب الجاهلية، سألوا عن حكم شرب الخمر، وعن حكم لعب الميسر فأوحى الله لنبيه قرآنا يتلى: إن في الخمر والميسر إثما كبيرا، هذا الإثم يعلو على ما فيهما من بعض المنافع. وسألوا أيضا عما ينفقون، فبيّن لهم أن ما هم مكلفون به هو أن يكون الإنفاق بما لا يجهدهم ولا يثقل عليهم، ونبههم إلى أن فيما أجيبوا به ما يدعوهم إلى التأمل فيه ليدركوا أن فيه السلامة والنجاح لكل فرد منهم ولمجتمعهم، والفوز بالرّضوان يوم القيامة. وسألوا عن الطريقة التي يتعاملون بها مع اليتامى فأجابهم ، قل: العناية بإصلاح أمورهم التربوية والبدنية والمالية خير من إهمالهم وتركهم وشأنهم. والذي ينبغي أن تستحضروه عند مخالطتكم لهم في كفالتهم أو القيام على أموالهم أو عقد رابطة الزواج معهم ونحو ذلك من أنواع المخالطة، أن تستحضروا أنهم إخوانكم، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ويوقظهم القرآن إلى أن المظاهر قد تكون زائفة وقد تكون حقيقية، والذي يراقبكم ولا يخفى عليه الواقع ولا حقائق الأمور هو الله عالم الغيب والشهادة. ويذكرهم بهذه النعمة التي أحل لهم بها مخالطة اليتامى في حدود الصلاح، فلم يوقعهم في مشقة البعد عن الضعفاء من أقربائهم وأهليهم. فهو العزيز الذي لا يرد أمره راد، وهو الحكيم الذي يُجري أمر التشريع على مقتضى الحكمة دون إيجاب عليه.

**بيان المعنى العام:**

سجل هذا المقطع السؤال الرّابع والخامس والسادس التي سألوا عنها رسول الله ﷺ والتي تولى القرآن الإجابة عنها مفتتحا بكلمة: قل.

## 219-يسألونك عن الخمر...لعلكم تتفكرون.

**السؤال الرّابع:** سألوا عن حكم شرب الخمر وعن الميسر معا. وصلتها بالآية السابقة أن الله نوه فيها بالمؤمنين وفتح لهم باب الرّجاء وذكرهم فيها بأنه **(غفور رحيم)**[1] مما يشعر بأن تعاليم الإسلام أثرت في أرواحهم وعقولهم فأكسبتها صفاء جعلهم يعودون إلى ما ألفوه بالنقد والتساؤل، وإذا اهتز ما اعتادوه وتحيروا في الأمر فزعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه ليبين لهم ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة. قرن بين الخمر والميسر الذي هو نوع من القمار الذي كان من مستتبعات مجالسهم الخمرية على ما سيأتي بيانه. أما الخمر فهو شراب يحتوي على نسبة

[1] سورة البقرة آية 218

من الكحول من شأنه أن يدفع شاربه إلى متابعة احتسائه إلى أن يؤثر فيه نشوة تصل إلى فقدان سلطانه العقلي على تصرفاته. ولا فرق بين أن يكون من عصير العنب المختمر أو من غيره. ويختلف المسكر عن المخدر، فالمسكر يُكوّن في شاربه اندفاعا، والمخدّر يوهن متعاطيه ويتركه في أحلام وتصورات خيالية توهمه بأنه في نعيم. وقد كانت الخمر من أحب الأشياء للعرب في جاهليتهم، تكاد تكون أكبر متنفس لهم ينغمسون بشربها في حياة اللهو، فهاموا بها لما طبعوا عليه من شجاعة وكرم، والخمر تعينهم على ذلك. ما كان الجانب العقلي التأملي يستهويهم في حياتهم الموسومة بالعاطفة المشبوبة. وفي مجالسهم الخمرية التي أجادوا وصفها في أشعارهم. كانوا يقرنون شرب الخمر بأكل اللحم المشوي، وإذا لم يحضرهم اشتروا جزورا(من الإبل) بثمن مؤجل ثم استهموا عليه، ليدفع ثمنه الخاسر. وطريقة ذلك: أنهم يُعدُّون عشرة قداح (والقدح سهم صغير ليس في رأسه سنان) يضعون علامة على كل واحد من السبعة ويتركون الثلاثة الباقية غفلا، ثم يجلس أحد المقامرين بجانب من يوكل إليه إجالة السهام في خريطة وإخراجها واحدا بعد واحد، يسمى كل واحد عند إخراج القدْح، فإذا خرج السهم المكتوب عليه انحاز صاحبه إلى جهة ثم يخرج قدح آخر فثالث وهكذا، والذين يخرج لهم السهم الغفل يتحملون ثمن الجزور. والنبلاء الرّابحون لا يأكلون من لحم الجزور ولا يأخذون منه شيئا بل يعطونه تكرما للفقراء واليتامى والمحاويج. ثم أطلق لفظ الميسر على كل قمار. وما كان من القمار على رهان فهو محرم إجماعا وما كان بدون رهان كالشطرنج واللعب بالورق ونحو ذلك فما حمل على المحرم فهو محرم إجماعا كالاشتغال به إذا أدى إلى الغفلة عن الصلاة واستغراق الوقت في اللعب وترك التكسب والقيام على العيال والتعصب والخصام. وما لم يحمل على محرم فمعظم المذاهب السنية على تحريمه.

**وأما الخمر فهو حرام**. ومُنْكِرُ حرمة السكر مُنْكَرٌ لما علم من الدين بالضرورة. واختلف الفقهاء في النص المحرم لشرب الخمر فرأى بعضهم أن الآية المحرمة لشرب الخمر هي قوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)[1].

---

[1] سورة المائدة الآيتان 90-91

والذي يترجح عندي أن هذه الآية مفيدة للتحريم لما جاء فيها بأن في الخمر إثما كبيرا ولا يعقل أن ينص على مقارنة الإثم الكبير عقابه على شيء حلال، إذ الحلال لا يقارنه إثم. خاصة إذا وصف الإثم بكونه كبيرا أي شديدا. ونصت الآية على أن فيهما منافع للناس، وهذا شأن الحياة الدنيا يختلط فيها الخير بالشر، والصلاح بالفساد، وما غلبت مفاسده حرم وما غلبت مصالحه أذن فيه، ففي الخمر منافع لمن يُعدها ويتاجر فيها وقد تؤثر بعض التأثير الحسن على الصحة، ولكن مضارها الجسمية أقوى على الكبد وعلى القلب والشرايين كما كشف عنه علم الطب، وهي تعطل العقل الذي به شُرّف الإنسان وكُلّف وكُرم. وفيها تبديد للمال، وتثير العداوة، وتذهب الحياء، وتوهن التزام شاربها بالقيم والأخلاق. وأما الميسر، القمار ففيه من المنافع أن النبلاء كانوا يمكنون الأيتام والمحاويج ومن يلم بساحتهم من الضيوف، من لحم الجزور. وأما الإثم فهو ما يوقعه من العداوة والبغضاء والتلهي عما كلف به الإنسان من عمارة الكون، وعن القيام بما فرض عليه من التكاليف. من الاستيلاء على مال الخاسر بالباطل.

**السؤال الخامس:** سألوا: ماذا ينفقون؟ عقب السؤال عن الخمر والميسر والجواب عنه بذكر هذا السؤال. والمناسبة أن المحتاجين كانوا ينتفعون من المجالس الخمرية ومما يذبح فيها، فحضر بعد تحريم الخمر والميسر سؤالهم عما ينفقون، كما أن الإسلام سما بتفكيرهم، وفتح لهم مناهج من السلوك ما كانوا يفكرون فيها، الأمر الذي حملهم على التوقف والسؤال ليدركوا الحق والكمال. وأجابهم أن عليهم أن ينفقوا بطريقة لا تشق عليهم ولا تحملهم عبئا ثقيلا يقطعهم عما هداهم إليه من منازل الكرامة والفضل. ذلك أن الإنسان إذا حمل ما يشق عليه فإن عوامل الرفض لما يشق على النفس تنتهي به إلى ترك ما يثقل. فالمصلحة أن تكون النفقة غير مقطوعة، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع. وعلى هذا النحو من البيان تولى القرآن الأخذ بعقول المؤمنين إلى مستويات رفيعة من النظر والتدبر، فذكر ما في الخمر والميسر من مصالح ومفاسد، ومضار ومنافع، وتخصيص الإنفاق بما تجود به النفس دون مشقة، كل ذلك يمكن المؤمنين من التدبر في صلاحهم في الدارين.

### 220-في الدنيا والآخرة...إن الله عزيز حكيم.

**السؤال السادس:** سألوا عن علاقتهم، وعن الطريقة السليمة في تعاملهم مع اليتامى. قد يكون صلة الآية بما سبقها ما أشرنا إليه من أن اليتامى كانوا يحصلون على نصيب من اللحم في الميسر. فهم حاضرون في أذهان السائلين عن الخمر والميسر، وقد يكون ما ذكر من الإنفاق يثير في النفس علاقة المؤمن بقريبه اليتيم،

وكان التعرض لليتم، بسبب الحروب والمرض، يصيب كثيرا من الأطفال، مما يجعل مشكلتهم تدعو إلى البحث عن الطريق لحلها حسب ما يرضي الله. وكان الجواب قرآنا يتلى:

**أولا:** أنهم مأمورون بإيصال اليتامى كل ما يصلح أمورهم، إصلاح نفوسهم بحسن القيام عليهم في تربيتهم، وإصلاح لهم بإعزازهم، وإصلاح لهم في أموالهم بتنميتها وحفظها لهم، وإصلاح في زواجهم فلا يرغب عنهم ليتمهم، ولا يرغب فيهم للاستيلاء على أموالهم. ونبهت الآية إلى أن النظر في شؤون اليتامى بما يحقق ما هو أصلح لهم، هو خير من التعفف والتورع باعتزال مباشرة تلك الأمور، وذلك لما يرجوه الناصح لهم من المثوبة .

**ثانيا:** أنهم إذا تجاوزوا هذه المرحلة إلى مرحلة أشد اتصالا فخالطوهم في أموالهم بشركة أو مصاهرة في تزويج اليتيم أو اليتيمة، أو استأجروهم للعمل أو كانوا أجراء في أرزاقهم، أو اختلطوا بهم في أكلهم وشرابهم، فالضابط الذي تجب مراعاته هو أن لا يغفلوا عن العلاقة التي غرسها الإسلام وأكد عليها **علاقة الأخوة الإيمانية** ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

**ثالثا:** ذكّر القرآن بحقيقة هي من مقومات الإيمان حتى لا يغفل عنها من يتعامل مع اليتامى، وهي شمول علم الله واطلاعه سبحانه على حقائق الأمور، فالله سبحانه لا يخفى عليه ما يبطنه المتعامل مع اليتيم، فالمظاهر لا تخفي الحقيقة عنه، فهو يعلم من قصد إلى إيصال الإصلاح لليتيم ومن قصد التسلط عليه مقدما حظوظه. فالله سبحانه يعلم المفسد من المصلح.

**رابعا:** ذكر المؤمنين بأن عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم فيما شرعه لهم في مخالطة اليتامى، فهذا التشريع حقق لليتامى صلاح أمورهم والحفاظ على شخصيتهم وأموالهم، ويسر على أعضاء أسرتهم الكبار أن يخالطوهم ولا يعزلوهم. فهو التشريع من العزيز الذي لا يرد أمره ولا يعترض عليه وأن عزته هي عزة الحكيم الذي لا يصدر عنه إلا ما هو خير للبشرية.

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**العبد:** الذكر المملوك غير الحر.

**الأمة:** الأنثى المملوكة غير الحرة.

**بإذنه:** بإرادته وتقديره.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نهى الله المؤمنين عن الزواج بالأنثى المشركة، فإذا آمنت حل للمؤمن أن يتزوج بها، وذلك لبعد ما بينهما في تصور الوجود والقيم المبنية على ذلك، مفضلا الزواج من أمة مملوكة، منزلتها الاجتماعية نازلة لرقها، على الزواج من المشركة الحرة ولو كانت جامعة لصفات تُرغب فيها كالجمال والثراء والجاه. وكذلك نهى عن تزوج المسلمة من مشرك، وأن العبد المملوك المسلم خير من المشرك الحر ولو كان على حظ من الجمال والثراء والجاه. ذلك أن فاسد العقيدة بالشرك يدعو إلى ما يتلاءم مع عقيدته من الفعال والأخلاق التي تقود إلى النار، فهو بذلك يناقض مناقضة كاملة ما يدعو إليه المولى سبحانه ويهدي إليه، الذي هو الصراط المستقيم الذي يقود إلى الجنة، ويتعرض به المؤمن إلى غفران ذنوبه بإرادة الله وفضله ، وناحية أخرى هي أن ما يدعو إليه بين واضح لا غبش فيه ولا ظلام، مفتوح للتفكر فيه ينسجم مع الفطرة ومع مقتضيات العقل الرّاشد.

**بيان المعنى العام :**

**221-ولا تنكحوا المشركات...يتذكرون.**

لما تعرضت الآية السابقة إلى الوصية بمخالطة اليتامى وعدم عزلهم، وكان بعض اليتامى قد يختلفون في دينهم، فناسب أن يفصل القول في الزواج مع اختلاف الدين. فبين الأحكام والعلل:

**أولا:** نهى أن يتزوج المسلم مشركة تدعو مع الله إلها آخر أو علمانية لا تؤمن بالله الواحد الأحد. والأمة المملوكة المؤمنة وإن كانت فاقدة لحريتها فإن الاقتران بها أفضل في الحاضر والعاقبة من الحرة المشركة وإن توفر فيها ما يدعو إلى الإعجاب بها كالمال والجمال والجاه، وكذلك العكس فلا تتزوج المسلمة من مشرك ولو أعجبت بماله أو بجماله أو بمركزه الاجتماعي. وأن العبد المسلم المملوك الفاقد لحريته خير من المشرك.

**التعليل:** إن الله قدر أن يحصل بالزواج امتزاج وود وقبول كل طرف للتأثر بالطرف الآخر. فمن لا يخص الله بالوحدانية ويشرك به آلهة أخرى أو العلماني الذي ينفي وجود الله تكون تصوراته ونظرته للوجود وعلاقاته بالكون وبالناس

جارية على خلاف المؤمن بالله ، الأمر الذي ينتهي بالشقاق والاختلاف بين الزوجين، ويكون الأثر سيئا جدا، مع التضاد بين الوالدين، على سلامة نفسية الذرية وسلوكهم وبالتالي نجاحهم في الحياة.

**ثالثا:** خطر الزواج بالمشركة والزواج بالمشرك على العاقبة يوم القيامة، ذلك أن المشرك حسب تصوراته وتأثيره يحمل قرينه على سلوك لا يُقدّر فيه أبدا مرضاة الله ولا يعطي لأوامره ونواهيه أي أثر على اختياراته وأعماله، الأمر الذي ينتهي بالقرين إلى الانحراف ويؤدي في النهاية إلى عذاب النار.

**رابعا:** إن الله بما لطف به من إرسال الرّسل وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، ييسر بذلك على الناس أن يفوزوا بالجنة وأن يحصلوا على مغفرته ورضوانه بإرادته سبحانه.

**خامسا:** إن ما نهى الله عنه أو أمر به أو أرشد إليه، جار على طريقة واحدة من الوضوح والبيان، ينسجم مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها، ويبعد بهم عن الغموض، فتنفتح عقولهم للتأمل وبالتالي التفكر في النظام الفكري الشامل للوجود والتشريع.

**ملاحظة أولى:** نصت الآية على أنه يحرم على المؤمنة أن تتزوج بمشرك. وكذلك يحرم عليها أن تتزوج بكتابي.

أما المؤمن فقد نصت الآية عليه أنه يحرم عليه أن يتزوج بمشركة. أما تزوجه بكتابية فحلال. وربما يسأل سائل لماذا لم يحرم على المؤمن الزواج بكتابية نظير حكم المؤمنة؟ والجواب عن ذلك يتبين بإبداء الفرق بينهما. ذلك أن الرّجل إذا تزوج الكتابية فإنه يحترم دينها والنبي الذي تتبعه، أما الكتابي فهو على خلاف ذلك لا يحترم دينها ولا النبي الذي تتبعه وينفي في اعتقاده أن يكون رسولا. فمن البداية يكون مقوم من مقومات الحياة الزوجية ضائعا. ثانيا أن الزوج يستطيع أن ينهي عقد الزواج إذا بدر من زوجته الكتابية ما تقدح به في دينه أو تسخر منه، أما المسلمة لو تزوجت بكتابي وسخر من دينها أو قدح فيه فإنها لا تستطيع أن تنهي عقد زواجها به، وتكون مجبرة على تحمل الإهانة.

**ملاحظة ثانية:** الكتابية التي يحل التزوج بها ليست التي ولدت في بلد بعض سكانه كتابيون. فعدد غير قليل من الجيل التالي ممن كان على دين النصارى أو دين اليهودية خلع إيمانه وانضم إلى صف العلمانيين الرّافضين للتدين. وهذا يجري حتى في البلاد الإسلامية فإذا كانت الأنثى التي ولدت في بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن أسرة مسلمة ولكنها فارقت الإسلام وأنكرت الألوهية فإنه لا يحل للمؤمن أن

يتزوج بها. وكذلك إذا كان الرّاغب في الزواج من المؤمنة إذا كان قد رفض التدين بالإسلام فإنه يحرم على المسلمة أن تتزوج به ولوكان والداه مسلمين.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**المحيض:** دم الحيض أو زمانه أو مكانه.

**الأذى:** الضر غير الفاحش.

**اعتزلوا:** اتركوا مجامعتهن.

**تقربوهن:** تجامعوهن.

### بيان المعنى الإجمالي:

سأل بعض الصحابة عن حكم الجماع زمن الحيض فأنزل الله على رسوله هذه الآية مجيبة عما سألوا عنه بأنه يترتب عن مجامعة المرأة في الحيض ضرر. وهو ما يوجب الامتناع عن المخالطة الزوجية حتى تطهر المرأة، فإذا انقطع الحيض حل الجماع الذي كان ممنوعا. وتشير الآية إلى أن من لم يجر على ما بينته الآية ووقع في الإثم فشأنه شأن كل من تجاوز حدود ما أحل الله، وعليه أن يسرع إلى التوبة، إن الله يحب التائبين كما يحب السائرين على طريق الهدى. وأكدت الآية على أن المخالطة الزوجية هي الطريقة لنمو الجماعة الإسلامية كما تنمو خيرات الأرض بحرثها وزرعها، فأحل الله أن يتم الاتصال بين الزوج وزوجته على أي وجه يتم به الاستمتاع الذي يرجى منه حصول النسل، وذكرهم بأن عليهم أن يقدموا الخير الذي يجدون ثوابه يوم القيامة، وأن يكونوا دوما مراعين ما يقيهم منزلة الهوان عند الله الذي هم آئلون إليه وسيلقون جزاءهم منه. ويختم التوصيات والأحكام بطلبه تعالى من نبيه أن يبشر المؤمنين بفضل الله ورعايته

### بيان المعنى العام:

#### 222- ويسألونك عن المحيض...ويحب المتطهرين.

صلة الآية بما تقدمها هو أن الآية السابقة اعتنت بقضية من قضايا بناء الأسرة. وهذه الآية تجيب عن تساؤل عن بعض ما يتعلق بعلاقة الرّجل بامرأته.

وهذا هو **السؤال السابع** في سورة البقرة. سألوا رسول الله ﷺ عن المحيض أي الحيض. وبما أن مجتمع المدينة المنورة يشمل المهاجرين والأنصار، واليهود، والنصارى، والمشركين، والدهريين، على نسب تقل أو تكثر، فمن الإشكالات التي حدثت والتي أخذت حسب الظاهر اهتماما ونقاشا، قضية علاقة الرّجل بامرأته وقت حيضها. وطرفان كانا متناقضين وبينهما مراتب تقرب من هذا الطرف أو من الآخر، فاليهود لا تدخل الحائض البيت أيام حيضها، والنصارى لا يتحرجون من معاشرة المرأة أيام حيضها والمشركون والدهريون لهم عادات مختلفة يقرب بعضهم من اليهود ويقرب آخرون من النصارى لأنهم لا شريعة لهم جامعة. وكذلك طريقة الاستمتاع دخلت فيها عادات مختلفة أوجبت أيضا تساؤلات. ونظرا إلى أن المؤمن حريص على أن يكون سلوكه تحت راية الإسلام وأحكامه في القليل والكثير والصغير والكبير، رجعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الإسلام. فكان الجواب متضمنا الآداب والأحكام التالية:

**أولا:** نبه أن الحيض يتسبب في ضرر وإذاية للأسرة لم يفصل نوع الأذى الذي يحصل لأمرين: أحدهما أنه مدرك بالفطرة لما في دم الحيض من عفونة ورائحة كريهة، وثانيهما أنه من إعجاز القرآن أن لا يحصر الأذى في الحدود التي بلغها علم المُنزّل عليهم الوحي وقت نزوله، بل يذكره عاما ليكشف العلم عن أنواع من الضرر يشملها العلم الالهي ويقصر إدراك علم البشر عن جميعها في تلك الظرف. وبهذا التنبيه في البداية لما في جماع الرّجل لامرأته أيام حيضها من الضرر يكون القرآن قد أعد المؤمنين لقبول ما يأتيهم من ربهم معللا يستجيبون له بداعية الإيمان وبداعية الفطرة.

**ثانيا** الحكم: تحريم الجماع أيام الحيض. وهذا أمر مجمع عليه. أما الاستمتاع بالملاعبة فقد اختلف الفقهاء في حدود ذلك. والذي يترجح عندي أن لا يقرب الفرج ولكل منهما أن يبتغي من قرينه ما أحله الله له فيما سواه.

**ثالثا:** ضربت الآية حدا لحل الجماع، **(ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن)** والذي عليه جمهور الفقهاء أن الرّجل لا يجامع امرأته إلا بشرطين ــ1) أن ينتهي نزول دم الحيض ــ 2) أن تتطهر ــ طهارة الغسل بالماء الرّافع للحدث وللقذارة ــ ويرى بعضهم أنه يكتفى بغسل المرأة فرجها ــ

**رابعا:** أذن الله للرجل أن يجامع امرأته بعد تطهرها في الموضع الذي أحل الله له فيه ذلك. فكلمة ــ من ــ بمعنى ــ في ــ نظير قوله تعالى: إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، أي في يوم الجمعة.

## 223-نساؤكم حرث لكم...وبشر المؤمنين.

**خامسا:** أكد حكم الإذن في مجامعة الرّجل امرأته بقوله تعالى(نساؤكم حرث لكم)[1] -الحرث في القرآن أطلق على القدر المشترك بين العمل الذي يبغي منه صاحبه الإنتاج . فحرث الأرض زرعها بعد تهيئتها لتنتج، وحرث الآخرة العمل الصالح الذي ينتج ثوابا قال تعالى: من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه. وحرث الدنيا ما ينتج للإنسان مما يبغي الحصول عليه في الدنيا دون نظر إلى الآخرة قال تعالى: ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب[2].

والقصد الأول في الزواج هو تحقيق ما أراده الله من استخلاف الإنسان في الأرض، هذا الاستخلاف الذي لا يتم إلا إذا بقي النوع الإنساني بالتناسل الذي سبيله الوصال الجنسي ، فعبر عن ذلك بقوله تعالى ( **حرث لكم** ) وصرح بأن الكيفية التي يتم بها الجماع مأذون فيها في جميع الأوقات التي لم يحرمها الله كحالة الصوم وحالة الاعتكاف. وفي كل مكان لا يحرم فيه الجماع كالمساجد.

**سادسا:** عقب ما بينه من أحكام وآداب بالتوجيه الذي يعتني به القرآن دائما، وهو إحياء مراقبة الله واستحضار أن أي عمل يقوم به المؤمن في الحياة يربطه بربه، فعلى هذا تُذَكّره الآية بأن الله يحب المؤمن المستحضر دوما صلته بربه الاستحضار الذي يترتب عليه أنه إن حصلت منه غفلة أو تجاوز يعود سريعا إلى ربه ليجد في ساحة القرب هذه المغفرة والمحبة، كما يجدها الذي لم يغفل ولم يذنب. وفي هذه الخاتمة إشارة إلى أن من لم يلتزم قبل نزول الآية بما قررته وبمجرد ما سمعها أقلع عن كل ما يخالفها هو مهنأ بأن الله يحبه.

**سابعا:** حرض المؤمنين أن يكونوا دائما مستعدين ليوم القيامة استعدادا يجعلهم يحرصون على إعداد زادهم للسفرة الكبرى التي سيلقون فيها ربهم، وينبغي أن يصل هذا الشعور إلى درجة اليقين الذي لا يدخله شك ولا ارتياب. وماذا سيكون حالهم يوم اللقاء؟ عجل القرآن بالبشارة آمرا نبيه ﷺأن يتولى إبلاغهم هذه البشارة. (وبشر المؤمنين)

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

[1] سورة الشورى آية20

[2] سورة الشورى آية 20

### بيان معنى الألفاظ:

**ولا تجعلوا الله:** ولا تجعلوا اسم الله.

**عرضة:** معروضا، أو قوة.

**تبروا:** البر جماع الخير.

**لا يؤاخذكم:** لا يعاقبكم.

**اللغو:** الكلام الخطأ الذي لا يعتد به.

**كسبت قلوبكم:** عقدتم عليه النية.

**حليم:** الحليم الذي يقبل العذر.

### بيان المعنى الإجمالي:

نهى الله المؤمنين أن يحلفوا بالله لتكون يمينهم تعلة للامتناع من فعل الخير ومما يرضي الله. وهذا القصد الخفي الذي لا يدركه الناس هو على حد سواء مع النطق، فالله سميع لما تقولون، عليم بنياتكم. ثم بينت الآية حكم اليمين بعد الحلف، فذكرت أن الله لا يؤثم الحالف ولا يلزمه كفارة في يمين اللغو. وهي اليمين التي تجري على لسان الناس دون أن يقصدوا القسم ولا الالتزام، كقول أحدهم: والله إن هذا لأمر عجيب. ولكنه يؤاخذ ما عقد عليه الحالف النية القصد في المستقبل. وبما أن الناس قد تَنَقَلتْ ألسنتهم بالأيمان دون قصد إلى التهاون بالقسم، ثم يقعون في الحرج في المستقبل ختم الآية بأن الله غفور رحيم.

### بيان المعنى العام:

### 224- ولا تجعلوا الله عرضة...والله سميع عليم.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى:(وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) فجمعت وصايا للمؤمنين تدعو لليقظة والاستعداد وملازمة التقوى، مما هيأ للبشارة المطلقة العامة. ومما يحرج المؤمن أن يكون قد حلف يمينا على عدم فعل أمر صالح ثم يجد نفسه بين الوفاء بقسمه وبين الاستجابة لدعوة القرآن: (وقدموا لأنفسكم الآية...) فارتبطت هذه الآية بسابقتها. والوجه الأول في فهم الآية أنها نهت المؤمن أن يحلف على ترك ما هو خير، من أنواع البر ومن التقوى ومن الإصلاح بين الناس، ثم يجعل يمينه تعلة للامتناع. كما تحتمل الآية أن يكون النهي عن جعل اسم الله والحلف به جاريا على ألسنتكم بكثرة، مما يترتب عنه أن تسبقوا للحلف به على ترك الصالحات (البر والتقوى والإصلاح بين الناس) وختمت الآية بأن الله لا يغيب عنه شيء مما تتلفظون به لأنه سميع، كما

يعلم قصدكم وما تحركت به مشاعركم الباطنة وأنتم تحلفون لأنه موصوف بالعلم عليم .

## 225- لا يؤاخذكم الله باللغو...والله غفور حليم.

وثنى القرآن ببيان ما يترتب على الحلف بالله فقصل الحكم على النحو التالي: أن الله لا يؤاخذ الحالف على يمين اللغو. ويمين اللغو عند مالك هي اليمين التي ينطق بها الحالف غير قاصد الحنث ولا الكذب. كمن يظن شيئا ويقرن إخباره بالقسم ثم يتبين أن الواقع على خلاف ما يظن (كأن يرى شخصا قادما من بعيد فيسبق إلى القسم أنه فلان) ثم يظهر أنه شخص آخر. ومثله ما يجري على الألسنة دون قصد للحلف نحو: لا والله، بلى والله. أن الله يؤاخذ الحالف على ما قصده ونواه عند الحلف. واختلف الفقهاء في المقصود بالمؤاخذة:

فعند الإمام مالك أن المؤاخذة قد تكون بالإثم في الآخرة وقد تكون بالكفارة في الدنيا ومن ترك التكفير آثم. فمن حلف يمينا غموسا يعتقد عند حلفه أنه كاذب فهذه يمين مؤاخذ صاحبها يوم القيامة، ولا كفارة عليه في الدنيا. وكذلك من ألزمه القضاء لرد دعوى خصمه أن يحلف فحلف يمينا هو فيها كاذب وهي اليمين (المصبورة).

ولما اليمين التي تكون المؤاخذة فيها بالكفارة فهي اليمين على ترك فعل شيء ثم يفعله أو على فعل شيء ثم لا يفعله.

وعند الشافعية اليمين التي يؤاخذ حالفها بالكفارة هي يمين الغموس، واليمين على شيء يظنه ثم يتبين خلافه، واليمين المعلقة على الفعل أو عدم الفعل.

وعند أبي حنيفة: يمين الغموس فيها الإثم ولا كفارة لها. واليمين المقصودة سواء أبنيت على الظن فلم يصدق، أو كانت معلقة، الواجب فيها الكفارة.

وختمت الآية بأن الله يغفر لعباده زلاتهم، والتذكير بهذه الصفة ليسرعوا إلى الالتزام بما تقتضيه الآية في الأيمان وأن يحفظوا ألسنتهم من الحلف.

والصفة الثانية هي لغسل ما يمكن أن يعلق بالنفس من أن ذنب الجراءة على الحلف بالله أمر عظيم قد يدفع إلى اليأس، بأن الله متصف بالحلم الذي هو العفو وقبول عذر المقصرين.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يؤلون:** الإيلاء هو حلف الزوج على ترك مجامعة زوجته أربعة أشهر فأكثر.

**تربص:** انتظار.

**فاؤوا:** رجعوا إلى مباشرة الحياة الزوجية الطبيعية.

**بيان المعنى الإجمالي:**

من حلف على عدم وطء زوجته أربعة أشهر (هو مُـول) ويمينـه هـذه هـي (الإيـلاء). والإيلاء حرام لأنه إضـرار بالزوجـة. والمـولي مخيـر بـين أن يعـود إلـى جمـاع زوجته وبين أن يطلقها.

**بيان المعنى العام:**

**226-227: للذين يؤلون من نسائهم...فإن الله سميع عليم.**

من أنواع اليمين التي كانت شائعة في المجتمع العربـي أن الـزوج قـد يريـد الإضـرار بزوجته فيحلـف أن لا يجامعهـا السـنة والسـنتين، ويبقيهـا معلقـة لا تعـيش العيشـة الزوجية ولا هي حرة تتزوج زوجا آخر يُعفُّهـا، فكـان ممـا هـدى إليـه الإسـلام رفـع هذه المظلمة في الرّابطـة الزوجيـة. فبـيّن أن حكـم الإيـلاء الحرمـة إذا كـان لقصـد الإضرار بالزوجة. وأبطل هـذا التسـلط الظـالم بإيقـاف الـزوج بعـد تمـام الأشـهر الأربعة، فيجبره القاضي، أو يعود هو من نفسه إلى مجامعـة زوجتـه. ومـا سـبق منـه من يمين أكد بها عزمه لا تكون مانعا مـن الإصـلاح بينهمـا ورفـع الظلـم والتحلـي بالتقوى، فإن الله يغفر ما سبق لـه مـن اليمـين بـإخراج الكفـارة. وإن أبـى فعليـه أن يطلق، والله يسمع ما تبين به زوجته منـه، علـيم بمـا صـدر منـه. وإن أبـى فالحـاكم يطلق عليه وينفصم النكاح وتعتدُّ زوجته، فإن راجـع رأيـه وأراد أن يعـود إلـى الحيـاة الزوجية العادية أثناء عدتها فله ذلك لأن الطلقة طلقـة رجعيـة. وعنـد أبـي حنيفـة أنـه ببلوغ تمام الأربعة الأشهر تبين منه بدون رفع إلى القاضي.

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا

تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**يتربصن:** ينتظرن.

**قروء:** جمع قرء، يطلق على الطهر وعلى الحيض.

**بعولتهن:** البعولة جمع بعل والمراد به أزواجهن.

**تسريح:** حسم صلة الزوجية.

**حدود الله:** أحكامه الفاصلة بين الحلال والحرام، هي كالفواصل بين أملاك الناس.

**الضرار:** المبالغة في الضر.

**العضل:** منع المرأة من الزواج.

**أزكى:** أكثر خيرا.

### بيان المعنى الإجمالي:

لما ذكر في الآيتين السابقتين أن الإيلاء قد ينتهي إلى طلاق بينت هذه الآيات الخمس آداب الطلاق وأحكامه، فذكرت: لا يحل للمرأة إذا طلقها زوجها أن تتزوج غيره إلا بعد أن تدخل في الحيضة الثالثة بعد الطلاق. ويحرم عليها أن تكتم من أسرار رحمها، فتعلن خلاف الواقع، مما يؤثر في تمكنها من التزوج. ولتتّق الله فإن التغليط في هذا أمره عظيم عند الله، فهي مسؤولة عن قول الحقيقة بمقتضى إيمانها بالله الذي أمرها، وبمقتضى إيمانها باليوم الآخر الذي ستحاسب فيه. وفي مدة الانتظار هذه يحق للزوج أن يراجع زوجته إن أراد إصلاح هذا البيت الذي تهدم بالطلاق. وتقرر الآية قاعدة عظيمة في بناء المجتمع والأسر: هي أن للمرأة

من الحقوق مثل ما عليها مــن الحقــوق، فإنســانيتها كاملــة ودورهــا فــي بنــاء الأســر والمجتمع دور أساس. ومكن الله الرّجل، فــي مسـيرة الأســرة، مــن قيادتهــا لمــا فيــه خيرها وهي الدرجة. والله الذي نظم شؤون الحيــاة الأســرية عزيــز لا يغلــب، حكــيم لا يأمر إلا بما فيه خير. ويمكن للزوج أن يطلق زوجته مــرة أولــى ومــرة ثانيــة علــى أن تبنى العلاقة على قاعدة: هي أن الزوج إمــا أن يمســك زوجتــه ويمضـــي علــى حياتــه الزوجية بالأمر المعروف الــذي ينسـجم مــع الفطــرة: مــن تقــديرها والإنفــاق عليهــا ومشاركتها في أمور الأسرة، وإما أن يفترقا ،مع الإحسان فــي هــذا الفــراق بمــا أوجبــه الله على الزوج لمطلقته في العدة، ومــن عــدم إيــذائها بالحــديث الســوء عنهــا أو عــن أهلها، فكما هو مطالب بالإحسان في حال الزواج هــو مطالــب بــه فــي حــال المفارقــة. ويحرم على الزوج أن يضطر زوجته لطلب فراقه بإذايتهــا حتــى تفــدي نفســها بشــيء من المال الذي أخذته منه صداقا أو هدية. ولكن إذا كرهــت الزوجــة المقــام معــه، بمــا يترتب على البغض من التفريط فــي حقــوق الزوجيــة، وإثــارة المشــاكل التــي تقلــب حياة البيت جحيما لا يطاق، فإنه لا إثم على الــزوج فــي أخــذه مــا يتفقــان عليــه مــن المال لينهي العلاقة الزوجية بينهما.

إن ما قررته الآية حدود حــددها الله فــي الفــراق، فــلا يحــل لأحــد مــن الــزوجين أن يتعداها فلا يظلم الزوج زوجته حتى تفتدي منــه، ولا تظلــم الزوجــة زوجهــا لتضــطره إلى طلاقها. وليعلمْ كل مؤمن ومؤمنة أن مكــر أحــدهما بــالآخر لينفــذ أغراضــه ظلــم. وكفى بالإنسان إثما وتحذيرا أن يعلن الله أنه ظالم.

إذا طلق الزوج زوجته بعد الطلقــة الثانيــة فطلقهــا للمــرة الثالثــة فإنهــا تحــرم عليــه بمجرد تلفظه بالطلاق. ولا يحــل أن يعــود إلــى حياتــه الزوجيــة إلا إذا خرجــت مــن عدتها ثم تزوجت زوجا آخر ثم يطلقها الزوج الثاني ثــم تخــرج مــن عــدتها منــه. فــإذا تحقق ذلك، كان له أن يتزوجها من جديــد بعقــد جديــد مســتوف للشــروط والأركــان إذا كانا قد تأثرا بهذه التجربــة، وأثّــرت فيهمــا تــأثيرا يظــن معــه أنهمــا سيعيشــان فــي المستقبل حياة زوجية حسبما قررته الشريعة الإســلامية، يســكن فيهــا كــل منهمــا إلــى قرينه. إن هذه الأحكام هي كالحدود في الأســلاك لا يتجــاوز الحــد إلا ظــالم. وقــد بــين الله الحدود التي لا يجوز تجاوزها. ليحذر مــن يعلــم أن الله حقيــق بــأن يطــاع وحقيــق بأن يحذر الإنسان موقفه بين يديه يوم القيامة.

وصية أخرى لمن يطلق زوجته: أنها مــا دامــت فــي عــدتها، مــن الطلقــة الأولــى أو الثانية، أن له أن يراجعها إذا كان قد تأثر بطلاقهــا تــأثرا يبنــي معهــا الحيــاة الزوجيــة في المستقبل على المعروف دون إضرار مع الوفاء للميثــاق الغلــيظ. كمــا لــه أن يتــرك

سبيلها لتتزوج بزوج آخر إن أرادت. وإياكم أن يتسلط الرّجل على المرأة تسلطا ظالما فيه تعسف بقهرها وإهانتها أو إضرار بها. إنه من يتسلط على المرأة تسلطا فيه تعد على حقوقّها وكرامتها، قد ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله وعقابه. وحذار، أيها المؤمنون أن تستخفوا بما أنزله الله عليكم شأن المستهزئين الكافرين. وأمرهم أن يكونوا مستحضرين دائما نعم الله عليهم، ومن أجلّها ما أنزله عليهم في كتابه وما ثقّف به عقولهم بحكمة الوحي. وجماع الخير هو تقوى الله، تقوى من هو موقن مستحضر أن الله لا تخفى عليه خافية. ونهي الرّجال عن أمر آخر. وهو أن لا يمنع الرّجل من هي تحت نظره من الرّجوع إلى زوجها إذا خرجت من العدة إذا رضيا بالعودة إلى حياتهما الزوجية على الأصول التي جرى بها العرف ولا ينكرها المجتمع. كل ما سبق من الأحكام والآداب أنزل ليتعظ به المؤمنون الذين يؤمنون بالله فيطيعون أوامره ويخشون حسابه يوم القيامة فلا يقدمون على معصيته. وبالالتزام بأحكامه تنمو فيهم الكمالات الإنسانية فيترفعون عن دواعي الشر والانتقام والظلم، ويتطهرون من الحقد والبغض. ويطوع نفوسهم لقبول أحكامه بتذكيرهم بالحقيقة العظمى: هي أن علم الإنسان قاصر وقريب، والله هو العليم بالحاضر والمآل. فباتباع أوامره وهدايته يحققون النجاح في الدارين.

### بيان المعنى العام:

### 228- والمطلقات يتربصن...عزيز حكيم.

اعتنى القرآن في هذه الآيات ببيان الأحكام في حالة تصدع الأسرة بالطلاق. بعد أن بين في الآيتين السابقتين تصدع العلاقة بالإيلاء. إن عناية الإسلام ببناء المجتمع على أصول النظام والعدل والاستجابة للفطرة مبثوثة في القواعد والأحكام التفصيلية في القرآن والسنة النبوية. والأسرة هي حجر الأساس في البناء الاجتماعي. اهتم القرآن بإبطال ما جرى عليه أمر الجاهلية في كثير من الأمور في شأن الأسرة، وأدمج الطريقة التي يرضاها في إبطال ما كان متعارفا عند العرب قبل الإسلام. يتوضح ذلك في متابعة الآيات الخمس أعلاه، ويشرحها فيما يلي:

### 229-الطلاق مرتان... فأولئك هم الظالمون.

المسألة الأولى:

أن الزوج إذا فارق زوجته بطلاقها، فإن مستتبعات الحياة الزوجية المفصومة بالطلاق لا تنتهي بمجرد الطلاق فتتحرر المرأة من العقد الأول كأن شيئا لم يكن، بل يجب عليها، إن كانت ممن تحيض، أن تبقى منتظرة بلوغ الأمد الذي حدده الله، وهو أن تتوالى عليها بعد طلاقها ثلاثة أطهار برؤيتها للدم المؤذن ببداية الحيضة

الثالثة، عند الإمام مالك، وبالانتهاء من الحيضة الثالثة عند أبي حنيفة. وقبل ذلك للزوج أن يراجعها. وبعده يمكنها أن تتزوج ممن ترضاه، ولا يرتجعها زوجها المطلق إلا برضاها. وهذا الأمد مراعى فيه جانب الزوج وجانب المرأة، فالمرأة إذا حاضت بعد طهرها الأول تبين أنها غير حامل ولم يبق لزوجها المطلق أي حق عليها. وأما الطهر الثاني والثالث فهو تلوم للزوج عله يتأمل في وضعه فيعود إلى زوجته. وفي هذا الأمد يذكر القرآن المرأة بأن عليها أن تكون صادقة فيما هي مؤتمنة عليه (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) فيحرم عليها أن تكتم الحقيقة لتعجل في انتهاء العدة أو تكتم الحمل الذي أحست به فتدعي أنها قد دخلت في الحيضة الثالثة. شددت الآية على المؤمنات ليكن صادقات في أمر العدة، وربطت ذلك: أولا بالإيمان بالله باعتبار أنه أمر مؤكد من الله. ولأن دين الإسلام قد أقيم تشريعه على الأصول الخمسة التي منها حفظ النسل. وثانيا على الإيمان باليوم الآخر لتراقب مصيرها فتخشى العاقبة إن هي كتمت. والمطلقة ما دامت في العدة من الطلاق الرّجعي لمطلقها أن يراجعها. وتدعوهم الآية للمراجعة وتحثهم عليها باعتبار أن من شأن المسلم أن يسارع إلى الإصلاح.

** صرحت الآية بقاعدة لها شأنها في إصلاح أحوال المجتمع (هي إعلان حقوق المرأة من خالق المرأة والرّجل) بمناسبة الدعوة إلى الإصلاح. ذلك أن قاعدة البناء الاجتماعي هي الأسرة، التي تقوم على عنصرين أساسيين (الزوج والزوجة) وكانت حقوق الزوج مصونة عرفا وتطبيقا. وكانت منزلة الزوجة مهضومة إلا إذا كان لها في قلب زوجها من الحُظْوة ما يرفعها إلى مقام الشريك المؤثر في شؤون الأسرة. ولكن ليس هذا هو القاعدة في الاعتبار. فقررت الآية منادية بأن المرأة لها من الحقوق ما للرجل من الحقوق. فإذا أكرمها فليس ذلك على سبيل تنازل الزوج، بل على أساس أن الله جعلهما عنصرين لكل منهما حقوق مرعية. هذه الحقوق تسير متناسبة مع دور كل منهما في هذا البناء على أساس التكامل بينهما. فلا يصدر من أحدهما نحو الآخر ما ينكر ويرفض شرعا أو عرفا، مما فصلت الشريعة الإسلامية أحكامه وبينت حدوده ويرضاه أصحاب العقول السليمة من الانحياز والتعصب. ولا يذهبنّ الظن إلى أن المرأة مساوية للرجل في كل شيء، فبين قهرها وجعلها تابعة مهينة للرجل وحرمانها من التصرف في مالها، ومن نصيبها من الميراث ومن أجرة عملها، وبين جعلها مساوية للرجل في كل شيء حتى في الميراث الذي قسمه الله قسمة عادلة، وفي إيجاب إنفاقها على زوجها، وفي القيام على الأسرة بصفة مساوية للرجل، مما يتبعه، عند الاختلاف اهتزاز بناء

الأسرة، وضياع الأولاد بين قطبين. بين هذا وذاك جاء المنهج الإسلامي أن للرجال عليهن درجة هي درجة القوامة التي لا تعسُّف فيها ولكنها تحفظ التوازن في العائلة وتحسم الأمور بالحكمة والعدل. وختمت الآية بأن الله عزيز لا يعترض عليه لتثبيت هذه العدالة بين الجنسين التي ربما يأنف منها بعض الرّجال بما رسخ فيهم من عادة التسلط على الإناث. وعزته سبحانه مقرونة بالحكمة. فهو يشرع ما يصلح شؤون العباد ويضمن مصالحهم جميعا.

المسألة الثانية:

**230 -فإن طلقها فلا تحل له... لقوم يعلمون.**

من أنواع التعسف، التي جرى عليها الأمر في كثير من الأحوال، أن الرّجل يطلق زوجته، وعندما يقرب أمد انتهاء عدتها يراجعها لا بقصد معاشرتها ولكن يقصد أن يعيد طلاقها، وهكذا، فكلما قارب أمد خروجها من العدة راجعها ثم يطلقها، فلا هي زوجة ولا هي مطلقة. يفعل ذلك بعض الرّجال نكاية في زوجاتهم. فشرع الله للزوج أنه يحل له أن يطلق زوجته المرة الأولى، ويطلقها المرة الثانية، فإذا طلقها مرة ثالثة حرم عليه أن يراجعها ولا يحل له العقد عليها من جديد إلا إذا تزوجت ودخل بها زوجها الثاني، ثم طلقها وخرجت من عدة طلاقها من الزوج الثاني. كما سيفصل في بيان معاني الآية التالية. ويعلن القرآن أن الزوج في علاقته بمطلقته بين أمرين: إما أن يُبقي على العلاقة الزوجية على الصفة التي يقبلها عرف الناس في الحالة والمعاملة، وبين أن يفارقها. وعليه أن يحسن إليها بالمتعة، على ما سيجيء في قوله تعالى**(ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره)**[1] وأن لا يضارها بعد الطلاق كنشر مساويها أو مساوي عائلتها بالحق أو بالباطل.

المسألة الثالثة:

أخذ العوض من الزوجة إذا رغبت في فك عصمتها. الأصل أن الزوج ليس له أن يأخذ في مقابل الطلاق أي شيء من العوض، سواء أكان مساويا لما بذله لها في صداقها أو أقل أو أكثر. ولكن تعرض حالات ضبطها القرآن بمرجع يتصور بصور كثيرة، هذا الأصل الجامع هو أن يغلب على الظن، حسبما ظهر من النفرة بينهما، أن بقاء العلاقة الزوجية بينهما ستؤدي إلى خصام متواصل وإيذاء متبادل، ومكر كل منهما بالآخر. مما يستوجب أن يطغى الهوى وحب السيطرة والأنانية، مما يُخشى معه تبعا لذلك أن لا يراعى ما حدده الإسلام من حسن المعاشرة ومراقبة

---

[1] سورة البقرة آية236

الله وإقامة العدل. وفي معظم الأحوال يظهر هذا الانحراف إذا رغبت الزوجة عن زوجها، وأسباب التحول النفسي كثيرة. ففي هذه الحالة غير الطبيعية يجوز أن يتفقا على الفراق على أن تدفع المرأة لزوجها شيئا من المال ويعبر عن هذا [بالخلع] ولكن إن كان الزوج هو الذي آذى الزوجة وأساء معاملتها لتختلع منه فإن المال الذي يأخذه منها مال حرام.

**المسألة الرّابعة:**

أن كثيرا مما يتعلق بتطبيق الأحكام التي بينتها الآيات السابقة قد يدخله الهوى ونزغات الشيطان فتدفع أحد الزوجين أو كليهما إلى تغليب الهوى فيتراخى عن الحدود التي بينها الله، فحذر المتراخي من مجاوزة الأحكام الإلهية والتعدي عليها باختراق الحدود التي منع من تجاوزها. ويدخل المتهاونون بالأحكام السابقة تحت قاعدة عامة وهي: أن من يتعدى حدود الله يطبع بحكم لا يستطيع منه انفكاكا، هو حكم الله عليه بأنه ظالم، بما يتبع الظلم من المساءلة والعقاب.

**المسألة الخامسة:**

صرح القرآن بأن الزوج إذا طلقها الأولى وراجعها، ثم الثانية وراجعها، ثم تلفظ بالطلاق للمرة الثالثة. فإنه يحرم العقد عليها بعد ذلك، وتعتد، ولها أن تتزوج بغيره. لكن إذا طلقت بعد زواجها الأخير، بعد الدخول بها، وبعد الاتصال الجنسي بينهما فإنه إذا خرجت من عدتها بعد هذا الطلاق فلزوجها الأول أن يعقد عليها برضاها عقدا جديدا. وميثاق الزوجية ميثاق غليظ، فلذلك نبهت الآية على أن استئناف زواج جديد مع زوجها الأول بعد خروجها من عدة طلاقها من الزوج الثاني ينبغي أن يحتاط فيه الطرفان فلا يقدما عليه إلا إذا ظنّا ظنّا غالبا أن تجربة الانفصال التي بلغت ذلك الحد قد أثرت فيهما وأنهما سيقيمان حياتهما الزوجية فيما يستقبل، على احترام ما حدده الله في العلاقات الزوجية من مودة ورحمة واحترام وعدل. تلكم الحدود التي تولى الله بيانها في كتابه للقوم الذين يعلمون ما في حدود الله من مصلحة لهم في العاجل والآجل، ويعلمون ما يترتب على تجاوزها من خسران.

<u>تنبيــــــــهان:</u>

الطلاق الثلاث، حسب منطوق الآية، هو الطلاق الذي يوقعه الزوج المرة الأولى ثم يعود إلى التزوج بها ثانية ثم يطلقها بعد الزواج الثاني ثم يعود إليها ويتراجعان ثم يطلقها طلقة ثالثة. وأما تطليق الزوج زوجته بلفظ الثلاث بأن يقول لها: أنت طالق ثلاثا، فطلاقه هذا يعتبر طلقة واحدة. المطلقة للمرة الثالثة لا يجوز أن يعقد عليها

زوجها الأول إلا إذا دخل بها الثاني وجامعها، ولم يكن قاصدا تحليلها للزوج الأول. لعن الله المحلِّل والمحلَّل له. والتحايل على أحكام الله لا يقلب الأحكام ولا يحل الحرام.

**231-وإذا طلقتم النساء فبلغن...أن الله بكل شيء عليم.**

المسألة السادسة:

جاء في أثناء الآية 229 أن الزوج مخير أثناء العدة بين أن يُبقي على الرّابطة بينه وبين مطلقته، وبين أن يسرحها ويقصم ما بينهما **(فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)** وهذه القيمة الخلقية توجهت العناية القرآنية إليها مرة ثانية في هذه الآية لمتابعتها فسوت بين الإبقاء على علاقة الزوجية برجوع الزوجة إلى زوجها، وبين فصم العلاقة بينهما وذهاب كل واحد في حال سبيله تحت راية المعروف الذي لا ينكر ولا يعترض عليه، لفوزه بالقبول العام في المجتمع. وخص الأحوال المناقضة للمعروف فنهى عنها، فقال: ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا. هو التعسف في التسلط على المرأة بإمساكها رهينة بيت الزوجية مع حرمانها من حقوقها وكرامتها. فإمساكها قصد التعدي عليها وهدر قيمتها الإنسانية ذنب عظيم، وفساد يعود على فاعله بالوبال. فقد حققت الآية أنه ظالم لنفسه، وهو أمر قد يخفى فتعين توضيحه. إنه إذا قصد الرّجل التعدي على حقوق زوجته والإضرار بها، فإن الحياة في البيت تضطرب وتصبح العلاقة علاقة كراهية وتدبير ضروب من المكر والنكاية لا يسلم منها لا الزوج ولا الزوجة ولا الأولاد. كما يتعرض للعقاب الأخروي. وأكدت الآية على تطبيق ما جاء من تشريع عند انفصام الزوجية فجمعت بين النهي والأمر، نهيٌ أن يبلغ الإنسان بمخالفته لأحكام الطلاق أنه يعتبر مستهزئا بما أنزله الله من آيات بينات، الذي هو أمارة نفاق. وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، وذكر النعمة هو العمل بها، وهذه النعمة تظهر في الوضع الذي كانوا عليه قبل الرّسالة، وضع الجاهلية، فذكر النعمة يقتضي العمل بما أنزله عليهم من القرآن وما لابسه من الحكمة. وأعلنه إعلانا عاما أن علم الله محيط بكل صغيرة وكبيرة، فالعبرة بالحقائق لا بالمظاهر.

المسألة السابعة:

**232- وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن...وأنتم لا تعلمون.**

لما جاء في الآية السابقة أن التسريح يجب أن يتم بالمعروف مع الإحسان، كان من لوازم ذلك أن تُمكّن المرأة من حقها في الزواج، الذي منه أن تعود لزوجها

الأول. وكانت الأنفة الجاهلية تقف حاجزا دون عودة المطلقة إلى زوجها. فنهت الأولياء أن يمنعوا المرأة من الرّجوع إلى زوجها ، إذا حصل منهما التراضي على استئناف الحياة الزوجية على الوجه الذي يصحبه الرّضا ولا يعقبه ما ينكر. وأطلقها القرآن موعظة وربطها بالإيمان بالله واليوم الآخر حثًّا على الأخذ بهذه الموعظة، ثم أيّد العمل بذلك، بأن عودة الزوجة إلى زوجها هو أكثر خيرا وأفضل عائدة على الأسرة، يلمّ شملها ويرتق الفتق الحاصل واستمرار التآلف الذي يتجاوز المرأة إلى أهلها. وهو أطهر لتخليص العلاقة من رواسب الإحن بالفراق. وينبههم إلى أن الذي أرشدهم لذلك هو الله الذي يعلم عواقب الأمور التي يجهلها الناس. فالخير كل الخير في اتباع ما أرشد إليه.

• وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الحول:** العام.

**رزقهن:** نفقة القوت.

**الكسوة:** اللباس.

**لا تكلف:** لا تؤمر نفس بما فيه مشقة.

**إلا وسعها:** إلا بما تطيقه.

**لا تضار:** لا يُلحق الضرر بها.

**الفصال :** الفطام.

**بيان المعنى الإجمالي :**

من الحقائق التي قررها القرآن وأقرها ودعا إليها أن منتهى أمد رضاع الصغير عامان، وبهما ينتهي ما شرع من أحكام مرتبطة بالرّضاع. وما دامت الأم ترضع ولدها فإن الأب ملزم بالإنفاق عليها في غذائها وكسوتها سواء أكانت في العصمة أم مطلقة. ومقدار النفقة والكسوة يرجع في تقديرهما إلى العرف الذي لا ينكر، وهو

مختلف باختلاف أحوال المنفق والمنفَق عليها. ولا يقبل أن تتضرر الأم بولدها ولا أن يتضرر الوالد بولده. وإذا مات الأب فإن هذه المعاملة التي أوصت بها الآية من عدم الإضرار بالأم مستمرة ومرعية. وإذا رغب الوالدان في فطام الصغير قبل الأمد بأن اتفقا على الفطام أو أقنع أحدهما الآخر به، فلهما ذلك ما لم تتعرض حياة الصغير أو سلامة نموه إلى الخطر. وللوالدين أن يسلما الرّضيع إلى مرضعة تتولى إرضاعه والقيام على شؤونه في تلكم المدة، والوالد مطالب بأن يسلم للمرضعة ما اتفقا عليه من الأجر على الوجه الجاري في عرف الناس ولا ينكرونه.

هذه علاقة ثلاثية بين الزوج الوالد والزوجة الوالدة والمولود الرّضيع، أو علاقة رباعية بين تلك الأطراف وطرف رابع هو المرضع المستأجرة، وكل علاقة يمكن أن يجري تنفيذها على الوجه الصالح ويمكن تنفيذها بتلاعب طرف من الأطراف وإظهار وجه صالح مخالف للباطن. فلذا ختمت الآية بالدعوة إلى تقوى الله، وأن يكون كل مكلف على ذُكر من أن الله لا يغيب عن علمه شيء يستوي في علمه الظواهر والبواطن.

**بيان المعنى العام:**

**233-والوالدات يرضعن...بما تعملون بصير.**

يتواصل البيان القرآني لتوضيح بعض ما يتعلق بالأسرة. فتحدثت الآيات السابقة عن الإيلاء والطلاق، ومضمون هذه الآية ما ينشأ عن الزواج من نسل فبينت الأمور التالية:

**أولا:** أن أمد الرّضاع، الذي بني عليه أحكامٌ عدّةٌ، هو عامان كاملان. وسيأتي حكم التقصير عن هذا الأمد في آخر الآية. ومطلوب من الأم أن ترضع ولدها وجوبا إذا كان الولد لا يقبل أن يرضع غير لبن أمه. وهي مدعوة، ندبا، إلى إرضاعه إن لم يتعين الإرضاع فيها. وحثت الآية الأم على الإرضاع بالتعبير عنها بالوالدة لما تثيره علاقة الولادة من الحنو والعطف على المولود. وقد أودع الله في لبن الأم من العناصر ما ينمو به الرّضيع نموا صالحا، ويكوّن فيه مناعة تكون له ذخرا في باقي أيام حياته. وهذا يشمل الأم في حالتي قيام العلاقة الزوجية والطلاق.

**ثانيا:** أن على الأب أن ينفق على الأم المرضعة لولدها ما يلزمها لتغذيتها التغذية الصالحة، وأن يتولى إكساءها. ووقع التنصيص على الإنفاق بما يشمل حالة قيام الزوجية لأن المرضع يتوسع في نفقتها بما يضمن إدرار اللبن اللازم لتغذية رضيعها. وكذلك الكسوة بما يتطلبه احتضان الرّضيع من النظافة وغسل الثياب وتغييرها. وهذه النفقة الواجبة على الوالد يرجع فيها إلى العرف المقبول من الرّأي

العام ولا ينكر في العادة. فليست نفقة الوالد الثري كنفقة الفقير المعدم، ولا النفقة على ذات المكانة العالية في المجتمع كالنفقة على الوضيعة.

**ثالثا:** قررت الآية قاعدة تشمل الإنفاق وتتعداه إلى بقية الواجبات على الناس: **لا يكلف الله نفس إلا وسعها:** لا يطالب الإنسان بما يتجاوز ما تتحمله طاقاته البدنية أو المالية أو النفسية. فبالنسبة للإنفاق لا يكلف الوالد نفقة ترهقه وتتعدى إمكاناته المادية، ولا تكلف الأم بالإرضاع إذا كان ذلك مما يمكن أن يسبب لها مضاعفات سيئة. ولا تضر الأم بولدها انتقاما من زوجها إذا كانت مطلقة فتمتنع من إرضاعه مثلا ولا يضر الوالد بولده ينزعه من أمه انتقاما منها أو التقتير عليها في النفقة بما يجعل لبنها قليلا أو فقيرا من مكوناته الغذائية.

**رابعا:** وعلى الوارث مثل ذلك. اختلف فيه المفسرون اختلافا كبيرا في المراد بالوارث، والمثلية ، ومعاد اسم الإشارة. فالذين حملوا الوارث على أنه وارث المولود له، اختلفوا في بيان المثلية، فمنهم من حملها على النفقة والكسوة، ثم اختلفوا هل يجب ذلك في مال الوارث على قدر الأنصباء، أو يجب على من هو أقرب، أو يحمل على من جمع بين القرابة والرّحم ولا عبرة بالقرابة وحدها؟ ومنهم من حملها على عدم المضارة. ومنهم من حمل الوارث على وارث الصبي لو مات. ومنهم من رأى أن حكم الآية منسوخ. وهذه محامل قد أقام كل ناظر في الآية معنى الآية على ما ترجح عنده بأدلة ظنية لا تقطع الخلاف. والذي ترجح عندي، بعد النظر، أن مؤدى الآية: على الوارث أن يعامل المولود لها معاملة حسنة بدون تعسف، فقد كان من عادات العرب في الجاهلية أن المتوفّى يحكم كبير ورثته في زوجته، وكثيرا ما كانوا يمنعونها حتى من الزواج، فهذا التسلط الشائع حسمه القرآن بدعوة الوارث أن لا يضر بالوالدة التي فقدت زوجها وهي تحتضن وليدها الذي هو فرع من الميت.

**خامسا:** ذكرت الآية أن منتهى أمد الرّضاعة عامان للذين يرغبون في أن تبلغ الرّضاعة غاية مداها. فإذا رغب الوالدان في فطام الصبي قبل ذلك الأمد وتحقق الرّضا من الطرفين وتشاورا بأن طرحا مقترح الفطام على بساط الدرس وتبين لهما بعد تقليب النظر والتأمل في المعطيات الواقعية أن فطام الصبي لا يضره ، وأنه يستطيع أن ينمو نموا صالحا مع الفطام والتغذي بغير لبن الأم، فما يقررانه تبعا للمصلحة لا إثم عليهما فيه ولا مؤاخذة.

**سادسا:** رخص القرآن للزوجين أن يطلب الوالد مرضعة تتولى القيام على الصبي إلى حين فطامه. وهذه كانت عادة عند العرب طلبا لنمو الصبي في وسط ينمو

فيه بعيدا عن عفونات المدن ويأخذ فيه فصاحة البدو، وسلامة لغتهم، وتأتيهم لما يقصدونه بوضوح. وهذه التربية الطبيعية هي التي نوه بها أبو الطيب المتنبي لما قال

حسن الحضارة مجلوب بتطرية *** وفي البداوة حسن غير مجلوب

وأجر المرضعة في مال الوالد فلذلك قيد الجواز بتسليم المولود له ما يدفعه بطريقة ليس فيها إبطاء ولا مشاحة ينكرها العرف، لما يمكن أن يترتب على ذلك من ضرر بالرّضيع إذا تجاوز الوالد حدود المعاملة الطيبة مع المرضعة.

**سابعا:** هذه أحكام تتضمن علاقات متعددة قوامها المولود له، والوالدة، وقد تضاف إليهما المسترضعة. تنصبُّ على الرّضيع الضعيف الذي، مما سيتأثر به مستقبله، ونجاحه أو فشله، طريقةُ القيام عليه في أمد الرّضاع. إن تنفيذ تلكم الأحكام مع هذا التداخل في العلاقات واختلاف الصورة التنفيذية لها، وإمكان إبرازها بظاهر مقبول وباطن سيء أو القيام بها على الوجه المرضي الصالح، كل ذلك كان داعيا لتذكيرهم بتقوى الله المحصّنة عن التجاوز والغش في المعاملة. وليتذكروا أن سلوكهم معلوم عند الله بوجهه الظاهر وبما استند إليه من مقاصد خفية لا تغيب عن علمه سبحانه.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يُتوفَّوْن:** يموتون

**بلغن أجلهن:** كملت عدتهن.

**بالمعروف:** ما أذن فيه الشرع.

**خبير:** اسم فاعل من خبر إذا علم تفاصيل الشيء .

**التعريض:** كلام يقصد منه صاحبه معنى آخر غير المعنى الظاهر.

**أكننتم:** أخفيتم.

**السر:** ما قابل الجهر.

**المتعة:** ما يعطيه المطلق لمطلقته.

**الموسع:** من كان له فضل من المال.

**المقتر:** المقل، القليل المال.

**بيان المعنى الإجمالي:**

بينت الآية عدة المرأة التي تُوفي زوجها وهي غير حامل، أن عليها أن تنتظر أربعة أشهر وعشر ليال، وأنه بانتهاء هذا الأجل تحل للأزواج، ولا حرج ولا لوم على أهل الزوج ولا على المرأة المعتدة إذا عقدت زواجها بعد تلك المدة أو تزينت. ما دامت تراعي ما أذن فيه الشرع (بالمعروف) والله لا يفلت من علمه شيء فلتعلم المعتدة أن الله يرقبها. ومن أحكام العدة: أن المعتدة لا تتزوج ولا تُخطب ولا تعد أي رجل بالزواج . وقد أباح القرآن التعريض بما يكنه الخاطب في نفسه من رغبته في الزواج من المعتدة بعد خروجها من العدة. والتعريض كلام غير صريح يفهم منه قصد المتكلم ولكن بطريقة غير صريحة مكشوفة، كقول الرّجل للمعتدة: هنيئا لمن ترضين عنه وتتزوجينه. ولكن لا يحل أن يصل بالكلام إلى التصريح والتواعد بالزواج بعد العدة. ويحرم عقد الزواج على المرأة قبل انتهاء أجل عدتها. حفظا لسلامة النسب إذ لعلها أن تكون حاملاً في أول فترات الحمل. ويحذر القرآن من التسرع في الاقتران بالمعتدة قبل بلوغها ذلك الأجل. فالله عليم بما يجري في ضمائر البشر فليحذر المؤمن أن يبرز ما زوره في نفسه في الوقت الذي لا يحل له ذلك. ومع ذلك فإن الله غفور لما جرى في القلب وغاية ما صحبه هو التلويح والإشارة ولم يصحبه التصريح وذلك بما اتصف سبحانه من الحلم. وللعاقد على امرأة أن يطلقها قبل أن يدخل بها. ومن طلق زوجته قبل الدخول فعليه أن يرسل إليها هدية يختلف مقدارها تبعا ليسر الزوج وعسره، يطيب بها خاطرها. وهذا مما يقتضي أن تكون طريقة الإرسال ونوع ما يرسله

جاريا على المعروف الذي لا ينكر، ويذهب بما علق في النفوس من رجة الفراق فيطفئ شيئا مما يمكن أن يتولد من الكراهية والنقمة. وإذا طلق العاقد زوجته قبل أن يدخل بها، وقد تم تعيين مقدار الصداق عند العقد، فالواجب عليه أن يدفع لها نصف الصداق المقدر. وللزوجة إذا كانت مالكة أمر نفسها وطلّقت قبل الدخول أن تتنازل عن نصف الصداق الذي وجب لها بالعقد، وللزوج أن يدفع لها الصداق كاملا. ويثير القرآن داعية التقوى المركوزة في قلوب المؤمنين؛ هذه الداعية التي تقرب كل واحد من الزوجين من التسامح وتبعد بهما عن المشاحة. وهو ما مهد للنهي عن الغفلة عن خلق الفضل. والله بصير بما يقدمه الإنسان من صالح المواقف.

**بيان المعنى العام.**

**234-والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم... والله بما تعلون خبير.**

إن انفصام عقد الزوجية قد يكون بالطلاق وقد يكون بالموت. وقد فصلت الآيات السابقة ما يترتب على الطلاق. وفي هذه الآية (234) بينت الآية ما يترتب على وفاة الزوج:

**أولا**: يجب على المتوفّى عنها زوجها غير الحامل أن تمتنع عن الزواج وأن لا تتزين وأن تلازم بيتها أربعة أشهر وعشر ليال ولا تخرج من بيت الزوجية في الليل. وإذا أتمت المعتدة هذا الأمد فلا جناح أي لا إثم ولا لوم على أهلها ولا عليها، إذا فارقت حالة الإحداد، بالتزيُّن والطيب وعقد الزواج حسب المعروف مما أقرته الشريعة من الأحكام والآداب. وقد كان من عادة العرب أن تمكث المتوفى عنها زوجها سنة لا تمس ماء ولا تتنظف ولا تتزين ولا تتزوج. وكانوا يرون ذلك من الوفاء الذي يتعيّن على الزوجة أن تفعله. وعلى الأهل مراقبة تنفيذ ذلك. فحد الإسلام ذلك بأربعة أشهر وعشر ليال حفاظا على الأنساب، إذ لعله أن تكون الزوجة قد علقت من زوجها قبل وفاته، ولا يتحرك الجنين إلا بعد أربعة أشهر، وأضيفت لها عشر ليال لما قد يكون عليه وضع بعض الأجنة من الضعف. فإذا مضت هذه المدة ولم يتحرك في بطنها جنين تحققنا براءة رحمها من الحمل. فلا مانع من أن تتزوج بزوج آخر يُعفها. وختمت الآية بأن الله خبير بما يصلح أمر المجتمع وأمر الأفراد.

**235-ولا تعزموا عقدة...ان الله غفور حليم.**

ثانيا: قد تكون المتوفّى عنها زوجها جامعة لصفات تتوفر بها الرّغبة في الزواج منها، والنفوس من شأنها الإسراع إلى الظفر بالمرأة إذا جمعت الخصال والمزايا

التي يقدر الرّجل سعادته في الاقتران بها. وهذا أمر يعلمه الله، يعلم ما يتردد في خيال الرّاغب من تذكر المعتدة وحضورها في ذهنه، والغريزة الجنسية من أقوى الغرائز. ومن ناحية أخرى فإن ما أصّله الإسلام من الحفاظ على الأنساب يقيني تتحتم مراعاته وعدم التهاون به، ولذا رخص للراغب أن يتكلم بما لا يدل صراحة على عرض نفسه على المعتدة ليتزوج بها، ولكن يشير إشارات غير مباشرة، لا تدل على التزام طرف نحو الطرف الآخر. أما المواعدة من الطرفين فحرام ولو كانت سرا لا ينشره هو ولا تنشره هي. والعلة في ذلك أن المعتدة إذا صادف الخاطب من نفسها هوى وهو راغب فقد يتعجلان عقد النكاح قبل أمده.

**ثالثا:** أكدت الآية على الامتناع من العزم على تنفيذ عقد الزواج بالمعتدة قبل تبين براءة رحمها من الحمل. وحذر الرّجل والمرأة أن تتغلب عليهما دواعي الاستعجال فيبطنان الحقيقة الممنوعة التي لا تغيب عن علم الله. وهو تهديد بإنزال عقابه وتقريع بأن مخالفة ما شرعه غفلة عما صحبه من فضل وحلم لما أباح لهما التعريض.

## 236- لا جناح عليكم...حقا على المحسنين.

**رابعا:** أعلم المؤمنين أنه لا إثم على الزوج إذا طلق زوجته بعد أن عقد عليها وقبل أن يدخل بها. والطلاق قبل الدخول لا يخلو: إما أن يكون قد عين لها مقدار الصداق ونوعه، أو تم العقد مع السكوت عن الصداق. فإذا طلقها قبل تسمية الصداق، فظاهر الآية أنها لا تستحق شيئا من الصداق. والمطلوب من المطلق أن يبعث لها ما يكرمها به ويسلّ شيئا مما حصل في نفسها من الطلاق. الملقب بـ(المتعة) وقد اختلف الفقهاء في حكم المتعة والحالة هذه، هل هي واجبة اعتمادا على صيغة الأمر (ومتعوهن) أو مرغب فيها على سبيل الندب اعتمادا على تخصيص الأمر بالمحسنين، ولو كانت واجبة على الجميع لما خص المحسنين بالذكر؟ ثم إن المتعة، سواء أقلنا بوجوبها أو بأنها مندوبة، ربطها القرآن أولا بحال الزوج من عسر ويسر، وربطها ثانيا بالمعروف الذي يراعي وضع المرأة اجتماعيا فلا يبعث بما لا يليق بها، أو يكون فيه استخفاف بمنزلتها. إذ تشريع المتعة لجبر ما حصل في نفس المطلقة من ألم وما تسبب فيه الطلاق من ضرر، فإنه من المعروف أن الظنون تذهب مذاهب شتى في تعليل الفراق. وعمل المؤمن على رأب الصدع من أدب الإسلام (ولا تنسوا الفضل بينكم)

## 237- وإن طلقتموهن...بما تعملون بصير.

خامسا: إذا طلق الزوج قبل الدخول وكان قد عين لها مقدار صداقها ونوعه ، فالواجب عليه أن يمكنها من نصف الصداق الذي سماه لها. ثم إن المطلقة إذا كانت مالكة لأمرها رشيدة فإن لها أن تسامح مطلقها في نصف الصداق الواجب لها، وكذلك للأب في ابنته البكر أن يعفو عن نصف الصداق. وفهمه بعض المجتهدين على أن الزوج يعفو بإكمال الصداق. وفي هذا الاحتمال بعد لأن الإكمال ليس عفوا إلا على تمحل.

وحركت الآية أريحية المؤمن في الطلاق وفي غيره، وكذلك المطلقة ووليها بأن العفو يقرب الإنسان من الاتصاف بالتقوى، لما يقره في نفس العاقي من التسامح ويبعده عن التصلب في المطالبة بالحق. والمؤمن الكامل لا يكون إلا سمحا. وأحيى في نفوسهم صفة يرغب في الاتصاف بها كل سوي في خلقه وأدبه، بأن جعل المسامحة والعفو من الفضل، ومن يتشدد في حقه يكون بمثابة الناسي لهذا الخلق. وأكد سبحانه أنه لا يغيب عنه شيء من أعمال البشر. فهو سبحانه يرى ذلك منا ويجزي به.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**حافظوا على الصلاة:** كونوا يقظين لأدائها في أوقاتها المفروضة.

**الصلاة الوسطى:** مؤنث الأوسط، والمراد منه مذكور في توضيح النص.

**قانتين:** القنوت الخضوع والخشوع.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أمر الله المؤمنين: أن يكونوا يقظين لما ألزمهم به من أداء الصلوات ، فلا تلهيهم مشاغل الحياة عن أدائها في أوقاتها، وخص الصلاة الوسطى صلاة الصبح، بمزيد من العناية، وأن يؤدوا صلواتهم قائمين لله خاشعين. ويسّر لمن كان في ظرف شديد كالخوف في الحرب، أو من عدو أو من أي متسلط يهدده أن يصلي على الحالة التي يمكنه معها أداء صلاته في وقتها المحدد قائما أو راكبا. وأنه إذا عاد الأمن صلى قائما خاشعا، ذاكرا ربه ذكر الشاكر على ما تفضل به عليه من معرفة، ما كان ليحصل عليها لولا العناية الإلهية بالوحي المنزل على رسوله ﷺ .

**بيان المعنى العام:**

**238-حافظوا على الصلاة...قانتين.**

القرآن كتاب هداية شاملة للإنسان تساعد مواهبه وقواه الرّوحية والعقلية وتعنى بمشاكله الحياتية في الدنيا ومصيره يوم القيامة. فكان نظمه وترتيبه ومنهجه في التأثير مُصْطَبِغًا بهذه الخاصية الشاملة. فهو لا يواصل بيان حكم من أحكام التعامل مثلا إلا ويقرنه بالدعوة إلى تقوى الله أو التضامن الاجتماعي ونحو ذلك. وبعد أن تتابع البيان القرآني لبعض مشاكل الأسرة وشرح أحكامها، توجهت عنايته إلى الركن العملي الذي يفتح للإنسان مسالك المحافظة على حدود الله وتطبيق أوامره برغبة وعن اقتناع فتضمنت دعوته:

**أولا:** التأكيد والتذكير بما ألزمهم به من أداء الصلوات في أوقاتها. وخص من بين الصلوات المفروضة الصلاة الوسطى. وحسب النص القرآني المركب من الأمر بالمحافظة، والتأكيد عليها بصفة خاصة، وما يحتمله معنى الوسطى من ماصدُقات، اختلف العلماء تبعا لذلك في تحديدها. فحملها بعضهم على صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار. وحملها آخرون على صلاة الظهر التي يأتي وقتها والناس يواصلون أشغالهم فوقتها معرض للذهول عنها وهو وسط النهار. وقيل: هي صلاة العصر، باعتبار أن أول صلاة في اليوم هي صلاة الصبح، فتكون العصر الصلاة الوسطى. وبعضهم جعلها المغرب لما كانت أول صلاة فرضت هي صلاة الظهر، فتكون المغرب هي الصلاة الوسطى. وبعضهم رأى أنها صلاة العشاء لما ورد أنها أثقل صلاة على المنافقين. وقد يترجح أنها صلاة الصبح للتنويه بها في قوله تعالى (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا)[1] ولكون وقتها يجيء والناس نيام. وقد نوه القرآن بالذي يتجافى عن مضجعه لعبادة ربه فقال تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)[2].

ومن حافظ على جميع صلواته يهنأ بأنه حافظ على الصلاة الوسطى قطعا.

**ثانيا:** أن يؤدوا صلاتهم من قيام مع الخشوع لله فلا كلام ولا حركة تنافي التوجه الكامل لله.

**239- فإن خفتم... ما لم تكونوا تعلمون.**

**ثالثا:** الصلاة، كما أفاده قوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)[3] يجب على المؤمن أن لا يغفل عنها حتى في أحرج الأوقات، ومن رحمته ما شرعه من تيسير أداء الصلاة في ساعات الحرج الكبير. فرخص للمؤمن إذا كان في

---

[1] سورة الإسراء آية 87

[2] السجدة آية 16

[3] سورة النساء 103

وضع يخاف فيه على نفسه كحال الحرب، أو وجود عدو كاشح غير بعيد عنه، أو وجود سبع أو سيل داهم ونحو ذلك، أن يصلي كيفما تيسر له واقفا أو راكبا مع خشوع تام أو أقل ما ينطبق عليه الخشوع. وتستمر الرّخصة إلى أن يعود إلى حال الطمأنينة. فشملت الرّخصة أداء الصلاة مع أقل ما ينطلق عليه الخشوع استثناء من إيجاب القنوت، ومع الرّكوب والرّهبة من الوضع المحرج استثناء من القيام والقنوت معا.

**رابعا:**أن هذه الرّخصة تقدر بقدرها فإذا ذهب الخوف وجب على المؤمن أن يؤدي صلاته على الوجه الكامل الذي هدى الله إليه، بواسطة بيان رسوله ﷺ قولا وعملا، على تلك الصفة التي ما كان للبشر أن يعلموها لولا تعليم الله لهم إياها.

**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾**

### بيان معنى الألفاظ:

**الذين يتوفون:** الذين يقاربون حالة الموت.

**غير إخراج:** ليس للأولياء إخراجها.

### بيان المعنى الإجمالي:

دعت الآية كل متزوج عند ما يقترب من الوفاة أن يوصي لزوجته بأن تتمتع بالسكنى مدة عام من تاريخ وفاته. وهذه الوصية تعطيها حقا ولا تفرض عليها واجبا، فإذا قررت الخروج من المسكن الذي أوصى به الزوج قبل السنة فقد أسقطت حقها، ولا إثم ولا لوم لا على الورثة ولا عليها في ذلك، إذا لم تتعد ما هو معروف شرعا من بقائها إلى تمام العدة ومن امتناعها من الزينة في أمد العدة.

### بيان المعنى العام:

### 240 - والذين يتوفون منكم... عزيز حكيم.

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية كان معمولا بها إلى أن نزل ما ينسخها ويبطل العمل بها. والناسخ آية الميراث التي أعطت للزوجة المتوفى عنها حظها من الميراث، ولا وصية لوارث. كما بطل انتظارها سنة بالآية السابقة **( يتربصن بأنفسه أربعة أشهر وعشرا)** فكل متوفى عنها زوجها تستحق نصيبها من الميراث وتستحق أيضا النفقة والسكنى في أيام عدتها. وبعد أيام عدتها لا يبقى لها حق زائد عما قرر لها من نصيبها من الميراث. وذهب فريق آخر إلى أن العمل باق بهذه

الآية، على معنى أن الزوج عند إحساسه بقرب وفاته يوصي لزوجته أن ينفق عليها وتسكن في بيتها مدة عام من تاريخ وفاته. على معنى أن المتوفى عنها يجب عليها أن تبقى أربعة أشهر وعشرا تتمتع بالسكنى والنفقة، وإذا أوصى لها زوجها بما زاد على ذلك إلى تمام العام من وفاته فذلك لها إن شاءت بقيت في بيت الزوجية وتتمتع بالنفقة، ولها أن تسقط ما متعها به زوجها ولا لوم عليها ولا إثم ما دامت ملتزمة بما هو معروف من الأحكام والآداب الشرعية، وكذلك الورثة لا لوم عليهم إذا هي فضلت إسقاط حقها فيما أوصى به الميت.

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الآيات:** دلائل الشريعة.

### بيان المعنى الإجمالي:

لكل المطلقات المتعة وتمكينهن من ذلك حق على من كان متقيا لله، وعلى هذا النحو من البيان ينزل الله على عباده التنظيمات ليتأملوا بعقولهم ما جاءهم من الوحي.

### بيان المعنى العام:

#### 241-242، وللمطلقات متاع... لعلكم تعقلون.

بين القرآن حكم تمتيع المطلقة قبل الدخول. ودعت هذه الآية إلى تمتيع المطلقة بصفة عامة.

وحكم تمتيع المطلقات بصفة عامة هو كحكم المطلقة قبل الدخول المبين في معنى الآية السابقة، وكذلك التعليل.

ولا يستثنى من المطلقات إلا المختلعة، وهي الزوجة التي تكره المقام مع زوجها وتبذل له مالا ليطلقها فيفعلان، فهذه لا تستحق متعة. تفنن التعبير القرآني في وصفه الزوج المُمتّع، بالإحسان في الآية السابقة وبالتقوى في هذه الآية، وهما وصفان متكاملان لا يوجب اختلافهما اختلاف حكم. وحركت الآية عقول الناظرين فيها من المؤمنين للتأمل حتى يدركوا في وضوح نعمة الله عليهم بما بينه من أحكام وآداب تقيم المجتمع على أفضل الوجوه وأكملها التحاما.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243) وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244) ﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**ألوف:** جمع ألف.

**حذر الموت:** خوفا من الموت.

**بيان المعنى الإجمالي:**

استحضر في نفسك، يا محمد، وكل من تتأتى منه الرؤية، هذا المشهد العجيب: مشهد قوم كانوا وفيري العدد، بلغ عددهم الآلاف، تركوا ديارهم وخرجوا منها لما استولى عليهم الخوف من الموت.

فأماتهم الله زمنا، ثم رد عليهم إدراكهم. وتلكم الألطاف وذلكم الفضل من الله يسعف به عباده وما من فرد في الدنيا إلا هو محوط بأنواع من الفضل الإلهي في كل زمن وفي كل حال. ولكن الناس في غفلة فقليل منهم من يشكر أيادي الله عليه.

**بيان المعنى العام:**

**243-244: ألم تر إلى الذين خرجوا...عليم.**

هذه طريقة من طرق التنبيه والإيقاظ للسامع ليستحضر ذهنه ويحرك قواه للاستحضار، على أن ما سيذكر بعد هذه الصيغة ( ألم تر) مثير للعجب موجب للاعتبار فما هي هذه الصورة العجيبة ؟ هذه الصورة تتمثل في أن قوما كانوا في ديارهم، مما يشعر بالاستقرار في الديار من سكينة ومنعة. وبينما هم على هذه الحالة دب الخوف في قلوبهم. لم يفصل القرآن أسباب خوفهم، أهو العدو، أم هو المرض والوباء، أم هو التسلط الظالم، أم غير ذلك؟ كما أبهمت الآية طريقة انتشار الخوف من وضعهم أشيء شاهدوه، أم أراجيف نشرتها الألسن فارتجفت بها القلوب أم غير ذلك ؟ سجلت الآية أنهم خرجوا من ديارهم وأبهم القرآن وجهتهم التي انصرفوا إليها. كما سجلت الآية أن ما حصل في قلوبهم فارتبكوا به وفروا هو خوفهم من الموت. تراءى لهم الموت ففروا منه .

وإذا بالموت الذي خافوا منه يفترسهم بكلمة واحدة من الذي يقول للشيء كن فيكون، فيبدو المشهد بعد ذلك الاضطراب ساكنا. هل ماتوا حقيقة، أو الموت موت مجازي لا حقيقي، على معنى ذهاب الفزع بإحساسهم ، أو صعقوا فكانت صورتهم صورة آلاف الجثث لا حراك بها، دون أن تغادر أرواحهم أجسادهم ؟ نص الآية

يحتمل كل هذه الوجوه. والآية تسجل أن الله أعاد لهم قوى الإدراك بعد ما حل بهم فأحسوا بفضل الله، الفضل الذي ينال منه كل فرد من البشر حظه. ولكن غفلة معظم البشر وتعلقهم بالحياة العاجلة، يحجبهم ذلك عن واجب الشكر. في ذلكم الإبهام ما يوحي بحالة الفزع التي هم عليها ، بما يصور للسامع للآية صورة من الاضطراب والجري اللاهث والتلفت والهلع، وترسم ملامح من الجبن والتعلق بالحياة. طوى القرآن ذكر أسمائهم وقبائلهم والأمة التي ينتسبون إليها، والإجابات عن الأسئلة التي أثرناها. كما لم يفصّل كيفية ما حل بهم من الموت والإحياء ليكون سردها على هذا النحو مقتصرا على ما به العبرة للمؤمنين الذين نزل عليهم القرآن، كي يحصنوا أنفسهم بالشجاعة والثبات، وليعلموا أن الخوف من الموت لا يؤثر في إبعاد الموت (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)[1] وهو معنى أكده القرآن ولفت الأنظار إليه في آيات عدة. وليكون هذا المشهد بجميع ما ورد فيه مهيئا للآية التالية التي يُعد بها القرآن الأمة لتحمل أعباء الدفاع عن الدين. فجاء الأمر بالقتال في سبيل نصرة الدين، بالثبات والشجاعة وعدم الخوف، وهو الطريق الموصل إلى مرضاة الله. وهو طريق يرعاه الله فلا تقع فيه حركة من الحركات، قلت أو جلت، ضعفت أو عظمت، إلا سجلها الله تسجيل من لا يغيب عن سمعه شيء، وما يدبره المجاهدون من تدبير وما يخططونه من خطط وما يجري في عزماتهم فإن الله به عليم. وذلك وعد كريم بالمثوبة يتيقن المؤمنون حصوله تيقن العلم لا الظن.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**القرض:** إعطاء شيء مع قصد أن يعود مثله لمعطيه.

**حسنا:** تطيب فيه النية.

**يقبض:** يتولى قبض القروض.

**يبسط:** يضاعف الثواب.

[1] سورة الجمعة آية 8

**بيان المعنى لإجمالي:**

يحث الله سبحانه على أن يقدم المؤمن ويتنازل عن بعض ما يملك بقصد أن يجد ثوابه عند الله مضاعفا. وأشار التعبير إلى تحقق مضاعفة الثواب بأن الله هو الذي يتولى قبض ما قدم. ويبسط الجزاء بما يتناسب مع فضله وكرمه، وأتم البشارة بأنه مدخر عنده يوم القيامة لأن جميع الخلائق تعود إليه فتلقى عنده جزاءها.

**بيان المعنى العام:**

**245- من ذا الذي... وإليه ترجعون.**

أمر الله المؤمنين بأن يقاتلوا في سبيله، بما يدعو إليه القتال من تجهيز للجيوش وبذل للنفس ، فحرّض على ذلك وعلى كل بذل، بما تضمنته هذه الآية. والمال مال الله وهو الغني الغنى المطلق، ولكنه ربى بالإسلام البشر تربية تسُل من نفوسهم خسيسة الشح، فحضهم على السماحة بأن جعلهم في صورة المقرضين له. والمقرض هو الذي تسمح نفسه بإعطاء شيء مما يملكه، فيقدمه مع قصد أن يعود إليه مثله أو مساويه.

ثم قررها قاعدة: أن كل من يقدم قرضا عن قصد حسن بلا رياء ولا طمع خبيث فإن الله سبحانه يتولى بفضله وكرمه قبول ما قدمه، مما يترتب عليه بوعد مؤكد منه ، أنه يضاعف له ثوابه أضعافا كثيرة. وهل هذا التضعيف هو بما يثيب به المقرض يوم القيامة أو هو شامل لذلك ولتيسيره لنوافل فضله في الدنيا ؟ إطلاق الآية يرجح إرادة الثوابين. والله متصف بأنه القابض للقروض الحسنة تشريفا للمقرضين، ويبسط الجزاء لتذهب النفسُ في تصور الجزاء كل مذهب ، إذ هو ممن وسع ملكه كل شيء ولا ينقص من ملكه شيء، وهو الموصوف بالكرم. والحقيقة أن كل الناس سيعودون إلى الله ، وتذكيرهم بهذه الحقيقة في ختام الآية ليتقوا أنه لا يضيع لهم شيء مما قدموه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ

بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الملأ:** الجماعة الذين أمرهم واحد.

**هل عسيتم:** لعلكم.

**اصطفاه:** اختاره.

**التابوت:** صندوق مستطيل حفظ فيه ما بقي من الألواح التي تلقاها موسى.

**سكينة:** الاطمئنان.

**لآية:** معجزة ظاهرة.

**فصل بالجنود:** ابتعد بالجنود.

**من لم يطعمه:** من لم يذقه.

**غرفة:** ما تأخذه كف اليد من الماء.

**ملاقوا الله:** الموت في سبيل الله.

**فئة:** الجماعة من الناس.

**بإذن الله:** تمكينه وعلمه.

**أفرغ علينا:** ارزقنا صبرا يعم قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا.

**ثبت أقدامنا:** أعنا على الثبات وعدم الفرار.

## بيان المعنى الإجمالي:

إثارة للتأمل، ثم الاعتبار فيما وقع لبني إسرائيل في فترة من تاريخهم. توالت الهزائم على بني إسرائيل بعد موت موسى ﷺ، إلى أن ثار في نفوسهم رفض الواقع وهزتهم نخوة بعثتهم على مطالبة نبيهم أن يختار لهم ملكا يؤمره عليهم ويتولى قيادتهم ليأخذوا بثاراتهم ممن تحكموا فيهم وأذلوهم. وقد كان نبيهم مدركا للوهن الذي استولى على عزائمهم، فسألهم لعلكم إذا فرض عليكم القتال تتأخرون عنه ؟ أكدوا أنهم عزموا أمرهم فإن ما وصلوا إليه يدفعهم دفعا قويا للقتال فقالوا: قد تم قهرنا فأخرجنا عدونا من ديارنا وأسر أبناءنا. ويظهر بعد ذلك صدق فراسة نبيهم فيهم فإنه لما فرض عليهم القتال تراجعوا، ولم يثبت إلا عدد قليل منهم. ويحق عليهم بذلك وصف الظلم الذي كان معلوما لله من قبل. قال النبي بعد ذلك للبقية التي أظهرت الثبات على خوض القتال تحت راية ملك يدبر شؤونهم ويقودهم إلى النصر، قال لهم نبيهم: إن الله قد اختار لكم ملكا ميزه عليكم، هو طالوت. تعجبوا من هذا الاختيار وقالوا: كيف يكون ملكنا هذا الرّجل على مكانته الاجتماعية السوقية، وفينا من هو أقدر وأعظم في نفوس بني إسرائيل منه. ثم ثنّوا بأنه مع منزلته الاجتماعية النازلة هو فقير. بين لهم نبيهم جهلهم، وأثبت لطالوت ثلاث خصال ليست لأحد منهم:

أ- أن اختياره كان من الله الذي يعلم المصلح من المفسد.

ب – أنه أقوى منهم بدنا وأطول قامة بما يجعل العدو يرهبه أشد رهبة.

ج ـ أنه أعلم منهم جميعا. ثم إن الله هو المالك الحق وأنه يعطي من ملكه لمن يشاء لا اعتراض عليه. والله واسع فضله، يعلم من هو أحق بالولاية. ثم زادهم يعرض آية تخضع لها رقابهم هي: أن تابوت العهد، الذي يحل معه الأمن والسكينة والطمأنينة في قلوبهم ويذهب به الفزع والخوف، بما أودع فيه من أشياء نفيسة مما تركه آل موسى وآل هارون، هذا التابوت الذي ضاع منهم وكان ما أصابهم من انهزامات متتالية قد حصل بعد ضياعه من أيديهم، سيأتيهم تحمله الملائكة ويتسلمه طالوت. خضع بنو إسرائيل لما رأوا الآية وساروا وراء ملكهم طالوت، فلما أبعد بهم أخبرهم بأن الله سيبتليهم ويختبر جلدهم، ذلك أنهم سيمرون على نهر صاف، ماؤه بارد، وأن الله لم يبح لهم أن يستقوا منه، وأن من شرب منه

طرد من جماعة النبي. ومن لم يشرب منه إلا مقدار غرفة بيده يطفئ بها لهب كبده إلى الماء، ينجح في الامتحان، وهو من جماعته. فلما مروا على النهر انكب معظمهم على النهر يشربون، وقد يكون بهم عطش فارتووا، ولم يطبّق التحذير إلا جماعة قليلة. هم الذين كانوا مؤمنين حقا فواصلوا معه المسيرة إلى العدو. واستشعر الذين بقوا معه عظم ما هم قادمون عليه ودبّ الخوف في قلوبهم، فقالوا: إن طاقتنا تقصر عن مواجهة جالوت قائد الأعداء وجيوشه الجرارة. وبقيت بقية صالحة في الجيش من الذين يظنون أن الله قد يكرمهم بالشهادة فقالوا: كثيرا ما غلبت جماعة قليلة جماعة أكثر منها عددا وعدة بسابق علم الله وتمكينه. والله يؤيد الصابرين ولا يتركهم لنفوسهم. ولما التقى الجمعان أخلصوا في الابتهال إلى الله داعين ربهم: يا الله ثبتنا عند اللقاء وحبب لنا الجهاد، وانصرنا بتأييدك على القوم الكافرين. وتنكشف المعركة الفاصلة عن انهزام الأعداء رغم كثرتهم وقوتهم، وعن انتصار كامل للمؤمنين. وبرز في الجيش داود فقتل جالوت قائد جيش العدو، ومنّ الله على هذا الفتى الشجاع فآتاه الله بما بذل في مدافعة الأعداء، أن جعل ذلك مهيئا له ليصبح ملكا. وجمع له مع المُلك الحكمة في تسيير أمور من هم إلى نظره، ونمى علمه. وسيأتينا تفصيل ما رزقه الله لداود ﷺ. ويختم هذا التسجيل للحوادث المتسلسلة ببيان سنة الله في الخلق: أنه الله، ركب في الإنسان قوة تدفعه إلى تأمين نفسه ورد ظلم من يريد أن يهضم حقوقه المادية والمعنوية. وأنه لولا هذا التركيب المُحكم الذي بُني عليه خلق الإنسان لفسدت الأرض ومن عليها، ذلك إذا كان الظالم يستبد باتباع شهواته ويستأصل من لا يخضع لمطامعه، فإن النهاية هي ذهاب ما كان به تكامل هذا الكون فينتهي الكون ولكن فضل الله عظيم. ما أنزلناه عليك يا محمد، من دلائل التصرف المحكم لله في الكون، تثبّت قلبك وتزيدك إيمانا وتؤكد لك أنك من زمرة المرسلين الذين اختصهم الله دائما بمعرفة الحق، الذي لا يلحقه الباطل.

## بيان المعنى العام:

## 246-ألم تر إلى... عليم بالظالمين.

صورتان متقابلتان سجلهما القرآن:

الصورة الأولى مضت في الآية(243) تمثل جماعة استولى عليهم الخوف من الموت فخرجوا من مأمنهم وتاهوا حذرا منه، فسلط الله عليهم ما كانوا يحذرونه ثم أحياهم ليعتبروا.

الصورة الثانية: هو ما جاء في هذه الآيات من آية (246) إلى آية (251) فلنتتبع تسلسل الأحداث وما تخللها من عبر، أو ما سنكشف عنه أثناء هذا التتبع الممتع.

**التسجيل الأول:** يدعو الله نبيه وكل مؤمن أن يستحضر من خلال ما قصه القرآن علينا في هذه الآيات الصورة المتحركة المليئة بالتقلبات والمفاجآت. جمع من الإسرائيليين كانوا يسكنون في مكان واحد، ويرتبطون بروابط الإقامة والجنس. الزمن التاريخي -بعد مضي زمن على وفاة موسى ﷺ وأخيه هارون. قد تسلط عليهم من استبداد أعدائهم وقهرهم، ما أثار في نفوسهم الحمية، فأخذت دواعي الانتقاض تدبُّ، محركةً لهم لرفع الظلم وإرجاع ما ذهب من عزتهم. ويشير ذلك إلى سنة من سنن الله في الخليقة: أن الظلم ينتهي بتحريك المظلوم في النهاية ليرفع عن نفسه الظلم والاحتقار، بما يتبع ذلك من فقد للأمن وثورة تدفع الذين كانوا تحت سلطان الاستبداد ليسترجعوا كرامتهم المسلوبة وحقوقهم المغصوبة وتعمر القلوب بالبغض وحب الانتقام. ولذلك توجهوا إلى نبيهم أن يساعدهم على اختيار ملك عليهم، يجمع أمرهم، ويُعِدُّ لهم الخطط التي يصلون بها إلى تحقيق نجاحهم ويقاتلون تحت لوائه في سبيل الله لا طمعا في مغنم ولا تسلطا ظالما على البشر. وسنة ثانية يشير إليها هذا المقطع: إن حاجة البشر إلى من يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم وينسق بين إمكاناتهم هو أمر ضروري للبشر، فقيام الدولة أول خطوة في العمران البشري المنظم.

**التسجيل الثاني:** أن نبيهم لم يكن واثقا من أن نفوسهم قد بلغت هذا المستوى من إباء الضيم والاستعداد للقتال والموت في سبيل ذلك. فقال لهم: لعلكم إن فرض عليكم القتال، بما يقتضيه من تضحيات وشجاعة، أن لا تقاتلوا وتجبُنوا. فكان جوابهم حازما جازوا بأن الأمر بلغ بهم أن لا خيار لهم، فكل ما يمكن أن يبعث الجبن في النفوس قد ذهب، فأموالهم قد استولى عليها عدوهم بعد أن أخرجهم منها، وأبناؤهم في أسره يذلهم ويستخدمهم .

**التسجيل الثالث:** يظهر ما كان خفيا مما أدركه نبيهم الذي ما كان رده عليهم ليثبّطهم(هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) ولكن ليحذرهم من الضعف والوهن. ويفهم من تتابع المشهد أن نبيهم قد سأل من الله أن يأذن لهم في القتال. فلما تلقى الإذن وبلغه إليهم بأن الله قد فرض عليهم القتال، وعلموا أن الأمر جد تولّى القسم الأعظم منهم وجبنوا. ويبرز في المشهد علم الله الذي لا تخفاه خافية، فهو عليم بهذه الكثرة المهزومة الظالمة، ظالمة لنفسها برضاها بالذل، وظالمة للجماعة التي استجابت، لأن انهزامهم يزعزع شيئا ما من صمود الصامدين،

ويخذل الفئة التي صممت على القتال لكن مع بقية الملإ. وفي هذا المقطع من الحكمة أن على القيادة ألا تنخدع باندفاعات الدهماء. وفيها تحريض للمؤمنين أن يستعدوا لقتال المكيين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

## 247- وقال لهم نبيهم... واسع عليم.

**التسجيل الرّابع:** بقي النبي في هذه القلة التي عقدت العزم وعاهدت على المضي إلى القتال. وما بقي إلا أن يعلن النبي اسم الملك القائد ولما تلقى من الله اسم من عيّنه سبحانه لهذه المهمة، قال لهم: **إن الله قد اختار لكم طالوت ملكا.** وهنا يلقى النبيﷺ من بني إسرائيل رفضا ومشاكل. لم يعجبهم ما اختاره الله، وأعلنوا بكامل الوقاحة رفضهم لهذا الاختيار، وأخذوا يناقشون أمر الله وصرحوا بأن طالوت ليس من ذوي المكانة الممتازة في المجتمع، وأنه مع ذلك فقير. ويصبر النبي على هذا الصلف ويبين لهم ما فاتهم إدراكه، وهو يتمثل في الأمور الآتية:

1) أن الله العليم هو الذي اصطفاه على قومه وقدمه عليهم ومعنى هذا أن الظواهر تكذب على محك التجربة، والله يعلم مآلات الأمور علمه بحاضرها.

2)اختار طالوت لهذه المهمة لأنه جمع بين، قوة الجسم التي يتحمل بها مشاق السفر ومداومة القتال، ومواصلة اليقظة، والمهابة في عيون الأعداء، وفرض شخصيته على الجند الذين يسيرون تحت لوائه، وبين ما رزقه الله من ذكاء وفطنة فكان أعلمهم بفنون القتال وأقدرهم على القيادة بحكمة وبصر مما يمكنه من الاختيارات الموفقة .

3) أن المالك الحقيقي للكون ولبني إسرائيل هو الله، ولا يعترض عليه في تصرفه في ملكه فهو يعطي من ملكه ما يشاء لمن يشاء. وهو القادر التي لا تحد قدرته حدود، وهو العالم الذي يستوي في علمه ما كان والحاضر والمآل.

## 248-وقال لهم نبيهم...إن كنتم مؤمنين.

4) أن الله قد يسر لطالوت أن يأتيهم بالتابوت الذي أضاعوه تحمله الملائكة بطريقة لم يفصلها القرآن (وهو صندوق جمع فيه بعض الألواح التي أخذها موسى وبقايا مما تحطم منها ) وفي هذا التابوت أسرار عظيمة، فكان قبل أن يضيع منهم ينتصرون كلما رفعوه، وانحل أمرهم وشردوا بعده.

5) نبههم إلى الرّبط بين رجوع التابوت وتمليك طالوت عليهم بأن مجيئه قصد به أن يكون آية دالة على أن الله هو الذي اختار لهم طالوت ملكا. وأن اعتماد هذه الآية علامة على الإيمان.

### 249-فلما فصل...مع الصابرين.

**التسجيل الخامس:** يفهم من السياق أن البقية الباقية من المقتنعين بالقتال، الذين انقادوا للملك طالوت، قد توحدوا تحت إمرته وأعدوا للقتال عدته وسار الجيش قاصدا منازلة الذين ساموهم الخسف والهوان. ناداهم في طريقهم طالوت: إن الله سيختبركم بالنهر الذي ستمرون عليه، هو نهر يجري ماؤه عذبا زلالا، وأن ما بكم من شهية الماء يدفعكم إلى الشرب منه، فإياكم أن تشربوا من مائه إلا أن يأخذ أحدكم بيده ما يبل به جفاف حنجرته، واعلموا أن من شرب منه فذلك هو القطيعة بيني وبينه، ومن ذاقه على الوصف الذي وصفت لكم فهو مني يسير معي للقتال. سمع الجيش ما أعلمه به طالوت. ولكن عندما وصلوا إلى النهر انكب معظمهم عليه يرتوي مبالغا من مائه. وبذلك تقلص جيش طالوت إلى عدد قليل من الناس هم الذين لم يشربوا، أو الذين لم يجاوزوا ما أخذوه غرفة بأيديهم. وفي هذا المقطع ما يقرر قاعدة من قواعد القيادة: أن يدرب القائد الجيش الذي معه على الطاعة ، الطاعة التي لا نقاش معها، القائد يأمر والجندي يطيع.

### 250-ولما برزوا لجالوت...وانصرنا على القوم الكافرين.

**التسجيل السادس:** يفهم مما طواه السياق أن الأخبار قد بلغتهم تفيد أن العدو قد أعد عدته وأمر على جيوشه الجرارة قائدا رهيبا هو جالوت. ويضطرب جيش طالوت لما ترامى إليه من الأخبار، وينقسم إلى قسمين:

- قسم: المعادلة عنده هي بين الكثرة والقلة، ولا قوة إلا القوة المادية، وبناء على ذلك يصرحون بأنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده.
- وقسم: يُدخل في المعادلة تأييد الله وهم الذين يرقبون أن يفوزوا بالشهادة (يظنون أنهم ملاقوا الله) فيردون على المثبطين الخائفين بقولهم: إنه قد تكرر في التاريخ أن جماعة قليلة العدد انتصرت وهزمت من هم أكثر منها عددا بتأييد من الله، والله يؤيد الصابرين. فعامل الصبر والإيمان وقوة العزيمة واسترخاص الحياة هو المحقق للنصر.

### 251-فهزموهم...على العالمين.

**التسجيل السابع:** سار طالوت بمن بقي معه إلى لقاء جالوت وجنوده. ولما التقى الجيشان أيد جيش طالوت نفسه بالابتهال إلى الله، أن يوطّن نفوسهم على الصبر على القتال وأن يستل منها دواعي الخوف، وأن يثبتهم فلا يتسرب ضعف الفرار إلى قلوبهم، وأن يجعل ضرباتهم مُوهِنَةً للعدو، وأن يهبهم نصره على القوم

المعتزين بكفرهم. ودارت المعركة وانكشفت عن هزيمة الكافرين هزيمة نكراء وبرز من بين المقاتلين شاب ما كانت بطولته معروفة من قبل، قتل جالوت وحز رأسه. هذا الفتى هو داود الذي بلغ بنو إسرائيل تحت إمرته بعد ذلك أوج عزهم لما ملك عليهم. وآتاه الله الحكم والنبوة وفتح على بصيرته ففاق أهل زمانه علما ومعرفة.

## 252-تلك آيات الله...المرسلين.

وتختم التسجيلات بتقرير حقيقة: هي سنة الله في خلقه التي أجرى عليها أمر الكون، وقد يكون الناس عنها غافلين: أن الله قد فطر الناس على أن يدفع بعضهم بعضا، على أن لا تكون الحياة الدنيا حياة ساكنة رتيبة، بل حياة مضطربة يتصارع فيها الخير والفضيلة والعدل من ناحية، والرذيلة، والظلم والشر من ناحية أخرى. وهذا الصراع هو طبيعة الخلق الإلهي الذي أراد أن يكون الإنسان خليفة في أرض الله ينمي خيراتها. يبين لنا ذلك أن الناس قد ركبت فيهم غرائز هي التي تدفعهم لعمارة الأرض فلولا غريزة حب البقاء، وغريزة حب التملك، وغريزة الأنانية، وغريزة الجنس لولا هذه الغرائز ما جاهد الإنسان في الحياة وما نمّى شيئا من خيراتها، ولكان مقتنعا بما عنده في يومه راغبا عن هذا السعي الدؤوب المتعب، والحرص على توفير أكثر ما يستطيع توفيره من متاع الدنيا. هذه الغرائز قد تقوى عند بعضهم قوة تتجه تارة نحو الخير. وتارة نحو الشر، فيتغلب حب الاستئثار والأنانية عندهم على حقوق الآخرين. وبنفس تلكم الغرائز يقف فريق آخر يدافع عن مكتسباته ويأخذ على يد المستبد الظالم، وبهذا التدافع يرتقي العالم في إحداث وسائل التغلب والاستيلاء على الخيرات بمتنوع طرق الحق من ناحية، وبوسائل الشر والظلم من ناحية أخرى، وتكون يقظة الإنسان مصاحبة له. فمن فضل الله على الإنسان أن مكنه حين استخلفه، بما أودع فيه من قوى، من النجاح في مهمة الاستخلاف التي يمضي فيها إلى الأمد المقدر في علمه سبحانه. فكان في ذلك فضله واضحا على العالمين مؤمنهم وكافرهم صالحهم وشقيهم. وأكثر من هذا، إن التدافع لم يقتصر على جنس الإنسان بل شمل كل الكائنات وانبثقت من هذا التدافع سنة أخرى من سنن الخلق: سنة التطور نحو الأفضل والبقاء للأصلح. وهذه الحقائق التي لا علم للناس بها قبل نزول الوحي يقول الله: إنه يتلوها على قلب رسوله مصاحبة للحق الذي لا ريب فيه كاشفة عن خفايا تقوم منادية بأن محمدا ﷺ أحد رسل الله، علّمه كما علّمهم، وعلّمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

• تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**البينات:** المعجزات الواضحة.

**روح القدس:** جبريل عليه السلام.

**القدس:** الطهر النزاهة.

### بيان المعنى الإجمالي:

أشارت الآية إلى موكب المرسلين وهم يتتابعون عبر الزمن لبيان هداية الله. وهم ليسوا على مرتبة سواء فبعضهم أفضل من بعض. وصرحت الآية بسبب التفضيل، فضل موسى بأن الله أبلغه كلامه بدون واسطة جبريل، واختص عيسى بأن مكنه من معجزات ظاهرة محسوسة وأيده بجبريل، وما كان في رسالاتهم ما يوجب القتال. ولكن التعصب يعمي البصائر فتخفى الحقائق البينة، فوقع الاختلاف بسبب هؤلاء المتعصبين فكان منهم الكافرون، ونجا المتبصرون فآمنوا. ولو شاء الله أن يمنعهم من الاقتتال لفعل. ولكن الله يتصرف حسب حكمته التي إدراك جميع أسرارها فوق طاقة العقول فيفعل سبحانه ما يريد.

### بيان المعنى العام:

### 253- تلك الرّسل...يفعل ما يريد.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى **(وإنك لمن المرسلين)** فأشارت إلى هذا الموكب من رسل الله وميزهم كأنك تشاهدهم أيها التالي لقوله **(تلك الرّسل)** وقرر حقيقة: هي أنهم وإن اشتركوا في تحمل شرف الرّسالة فإنهم ليسوا على مرتبة سواء. فالله الذي تخير رسله من بين خلقه **(الله أعلم حيث يجعل رسالاته)**[1] فاضل بينهم، وخص بعضهم بمزايا تعود إلى النجاح في المهمة التي أوكلت إليه أوّلا، وتعود إلى أنواع العناية التي خصه بها. فموسى عليه السلام قد خصه بأن أعطاه قدرة جعلته يحس إحساسا خاصا فهم مراد الله من كلامه له بكل مداركه في لحظة مناداته بجانب جبل الطور. وعيسى ﷺ جعل صلته بجبريل صلة ابتدأت من الساعة التي حملت

---

[1] سورة الأنعام آية 124

به أمه ونفخه فيها إلى أن توفاه الله ورفعه. وواسطة العقد بينهما في الذكر محمدﷺ الذي أشار له بقوله: ورفع بعضهم درجات. تبدو هذه المنزلة الرفيعة في بعثته إلى الثقلين وختم الرّسالة به وفي بقاء القرآن سليما من كل تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان، تتواصل هدايته عبر القرون لا يتناقض في ذاته ولا يأتيه ما ينقضه. وبقاء معجزاته ناطقة بصدقه سائرة مع البشرية في امتداد عمرها. وكل معجزات الرّسل الآخرين أصبحت بعدهم في دائرة السماع بها، وخرجت من الإدراك المباشر بما له من قوة. ثم إن أتباع الرّسل ثارت بينهم الفتن وقامت الحروب واقتتلوا. وهذا الذي وقع لم تتعلق الإرادة الإلهية بمنعهم منه، ولم يرد الله أن يستلّ من نفوسهم دواعي التعصب ويقسرهم قسرا على التأمل في البينات التي من شأنها أن تنشر السلام، وتجمع الكلمة، وتوحد الصف، وتقضي على الباطل. بعد أن جمعهم رسلهم على كلمة الله، ثار بينهم بعد ذلك الخلاف، الخلاف الذي هو نابع من الهوى والتعصب، وعدم تحكيم ما هو بين أيديهم من الآيات البينات. ووصل بهم النزاع إلى حد غير معقول ولا مقبول. فكفر بعضهم وهم الذين أبعدوا في التأويل والخروج عما تقتضيه كلمة الله، وبقي البعض مؤمنا. ثم تطور اختلافهم إلى القتال وإزهاق الأرواح. ولو شاء الله أن يصدهم بقوته عن القتال لفعل، ولكن الله يفعل في هذا الكون ما تعلقت به إرادته. وإرادته سبحانه هي البيان وإرسال الرّسل، ثم ترك الحرية للناس يسيرون في الحياة سير المسؤول عن أعماله. إذ لو منعهم منْ تجاوز هداية المرسلين، وأخضع المبطلين من المبعدين في التأويل إلى الصالحين المتمسكين بالبينات، وغلّ أيديهم، لانتهى التكليف الذي بنى عليه الله أمر الحياة الدنيا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الخلة:** الصداقة التي يتقوى بها الصديق لتحقيق مراده.

**الشفاعة:** الوساطة في طلب النفع أو دفع الضر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعت الآية المؤمنين لبذل المال الذي تفضل به الله عليهم ورزقهم إياه، لأنه هو الذي سخر الأسباب وأزال العوائق لكسب ما كسبوا. وحثهم على التعجيل بذلك قبل أن يدركهم يوم القيامة، اليوم الذي لا يحصل فيه أي كائن ولو على أقل شيء

ينفعه، لأن سبيل الكسب إما مبادلة مال بمال ولا بيع في ذلك اليوم، وإما عطية من صديق ولا صديق يملك شيئا يعطيه، وإما بشفاعة يتدخل بها الشافع لينيل المشفوع فيه ما يرفع عنه المآخذ أو يقويه على نيل مبتغاه، ولا شافع في ذلك اليوم إلا من أذن له الرّحمن في حدود ما أذن له فيه. وقد انحصر الظلم في القوم الكافرين.

**بيان المعنى العام:**

**254- يا أيها الذين آمنوا...والكافرون هم الظالمون.**

نداء من الله للمؤمنين يستحثهم على الإنفاق، ويدعوهم إلى غسل ما يمكن أن يعلق بالنفس من لوثة الشح، ومرض حب المال حبا ينسي المرء حقيقة يذكر بها القرآن في أسلوبه المعجز هي أن المال يرزق منه الله ما شاء لمن شاء. فكل مولود يولد عريانا لم يملك بنفسه شيئا، ثم يأتيه ما كتبه الله له من رزق ولو عوّقه القدر المحتوم عن الكسب لما حصل أي شيء من المال الذي بين يديه. فحواسه وسلامته البدنية، وما رزقه من ذكاء وفطنة، زيادة عن الظروف المواتية، كل ذلك من الله. يعجز الإنسان عن تحقيق أي شيء من ذلك. ويجمع هذه الأمور وغيرها قوله تعالى **( مما رزقناكم)** فالملك ملكه، وتوقّف الإنسان لكسب شيء منه هو بتسخيره تعالى. وإذا كان الملك لله، فالإنسان مستخلف فيه، مسؤول عن تصرفه، فيكون الإنفاق الذي دعا إليه المؤمنين هو الإنفاق المشروع الذي يرضاه مالك الملك. وخاصيته أن يجد المنفق إنفاقه يسري معه في الحياة الدنيا ويواصل مسيرته ليلقاه يوم القيامة ثوابا وكرامة. ويدخل في ذلك دخولا أوليا الإنفاق في سبيل الله، فترتبط الآية بما ألمعت إليه الآية السابقة من الاقتتال بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين الضالين من الكفار والرّاشدين من المؤمنين. **(ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا)** وتبرز الآية تلكم الخاصية الداعية لتعجيل الإقبال على الإنفاق قبل أن تضيع الفرصة، فإن كل إنسان سيعرض على ربه يوم القيامة في يوم لا ينتفع بمال يشري به نفسه إذ لا يملك شيئا تتم به صفقة البيع **(الملك يومئذ لله)**[1] ولا يجد صديقا يبذل له لعلاقته به قليلا ولا كثيرا، ولا يجد شافعا يشفع له في تقصيره أو ينيله أي مكرمة. إن الكفر بالله هو أعظم أنواع الظلم، فالكافر يجحد فضل الله عليه ويعصيه وينكر تصرفه في الكون ويتسلط على أهل الإيمان، ويظلم الناس بفاسد سلوكه وفرط أنانيته، وصدق الله: **(والكافرون هم الظالمون)**.

---

[1] سورة الحج آية 56

ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**القيوم:** القائم على كل أمر بما يجب له.

**لا تأخذه:** لا تستولي عليه.

**سنة:** بدء النعاس.

**النوم:** ما يذهب معه يقظة الذهن ليستريح.

**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم:** يشمل علمه الماضي من أحوالهم والمستقبل منها

**كرسيه:** تصرفه بعلمه.

**لا يؤوده:** لا يثقله فيحنيه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

هذه الآية تتميز باسمها الخاص: آية الكرسي. وروي أنها فسطاط القرآن وفصّلت جُمَلُها ما يُعرّف المؤمن بالخالق العظيم. فافتتحت باسم الجلالة (الله) وهو الاسم الذي اختص به لا يشاركه غيره فيه، وأول تعريف له: أنه هو المتفرد بالألوهية لا يشاركه أحد في ذلك فأبطل التصريح بذلك كل عقائد الشرك. وكل من ادعى الألوهية أو أسندت إليه هو كذب وزيف. والثاني: أنه حي لا يموت ولا يفنى.

والثالث: أنه قائم على الكون يمكن كل كائن بما يحفظ وجوده وبما يوصله إليه معا كتبه له .

والرّابع: أنه لا تستولي عليه غفوة تسبق الاستغراق في النوم ولا يستغرق في النوم.

والخامس أن السماوات وما حوته والأرض وما فيها مملوكة له لا يتصور أن يشاركه في ملكه أحد.

والسادس:أنه لا يمكن أن يتقدم أي شفيع من ذاته ليشفع عنده وهو رد لما يزعمه بعض عبدة الأوثان أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. لكن من يأذن الله له في الشفاعة تكريما له فإنما ذلك بإذنه.

والسابع: أن علمه شامل لواقع الحياة لجميع المخلوقات في كل لحظة حاضرة، وفيما سبقها من اللحظات إلى أبعد الآماد الماضية. وكذلك فيما يستقبل من الأزمان علما واحدا لا اختلاف فيه ولا يغيب عن علمه شيء.

الثامن: أن علمه لا يقاس بعلم الكائنات إذ علمه سبحانه عام شامل وأما علم غيره فإنما هو في حدود ما يسّره له.

والثامن: أن كرسيه وسع الكائنات الموجودة في السموات وفي الأرض، وسنزيد ذلك بيانا في المعنى العام.

والتاسع: أن قيامه على الكون وتصرفه فيه تصرف الحفظ والرّعاية، لا يثقله ولا يتعبه فهو مطاوع له بما جُبل عليه من الطاعة السريعة لما يدبره ويأمره به.

والعاشر: أنه هو العلي الذي سما في مقامه فلا تبلغ العقول تصور علاه، وكل ما خطر بالبال من السمو والكمال فالله أكمل. والحادي عشر: أنه الموصوف بالعظمة البالغة.

**بيان المعنى العام:**

**255- الله لا إله إلا هو...العلي العظيم.**

لُقّبتْ هذه الآية بآية الكرسي، والكرسي لم يذكر في القرآن إلا في هذه الآية. روى الحاكم بسنده إلى رسول الله ﷺ أنها: سيدة آي القرآن. ووصفت بأنها فسطاط القرآن (والفسطاط مجتمع أهل المدينة حول الجامع) وفضائلها كثيرة والتنويه بها وخصائصها مبثوثة في كتب التفسير. هذه الآية عرّفتْ المؤمن بالعقيدة الصحيحة في ذات الله سبحانه. جمعت أحد عشر وصفا لله تُميّزه بالألوهية الكاملة المتفردة. أجرت تلك الصفات على العلَم المفرد الذي لا يشاركه في التسمية به أحد وهو أعرف المعارف (الله)

**الوصف الأول:** أنه هو المتفرد بالألوهية. فكل معبود سواه باطل وزيف. وأشد ما يفسد العقول أن تقبل بتقديس وعبادة فاقد للتأثير محدثٍ فانٍ. وبذلك تفرد الإسلام بأنه دين التوحيد الخالص.

**الوصف الثاني:** الحي. وحياته سبحانه حياة أزلية لا بداية لها أبدية لا نهاية لها، تنبئ عن الكمال الذي يقارنه العلم والتأثير.

**الوصف الثالث:**القيوم، صفة مبالغة تثبت أن الله قائم على كل كائن من بداية وجوده إلى فنائه وزواله، يعطيه خصائصه ويتصرف فيه في كل لحظة من

لحظات وجوده فيتطور في المسار الذي رتبه له تحت عنايته، قال تعالى ( أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)[1]

**الوصف الرّابع:**لا تأخذه سنة ولا نوم. من لوازم النبهاء الأذكياء المدبرين أنه يلحقهم الإعياء، ويستولي عليهم النوم ليتجدد نشاطهم. وبينت الآية أن تصرفه سبحانه هو التصرف الذي يقول للشيء: كن فيكون، ليس ذلك بجهد مبذول. فتم تجسيم هذا المعنى بالتنصيص على أنه لا يستولي عليه الإعياء فتصيبه إغفاءة ، أو يستولي عليه النوم مما هو مشاهد في البشر من ضعفهم عن مواصلة العمل ومقاومة النوم. فالسنة هي تلك الحالة التي تسبق النوم المستغرق. وفي هذا رد لما اعتقده أرسطو ومن تبعه أن الله ترك العالم يسير حسب قوانين واستغرق في ذاته.

**الوصف الخامس:** له ما في السماوات وما في الأرض. مالك الكون كله سمائه وأرضه وما فيهما من ملائكة وجن وإنس وحيوان ونبات وجماد. لا يشاركه في هذا الملك أحد. فملكُ البشر مثلا ملك محدود بزمن، ملك ناقص لا يستطيع المالك أن يحفظ ما ملكه على الوجه الذي يريده حتى في حدود ذلك الزمن. وهذه الجملة تبرز ارتباط آية الكرسي بما سبقها في قوله تعالى( أنفقوا مما رزقناكم )

**الوصف السادس:** أنه لا يتجرأ أحد، فيتقدم للشفاعة في غيره، مما يتسبب عن شفاعته من تنفيل للمشفوع، أو رفع ما استحقه من عقوبة. وفي هذا نفي لما يزعمه أهل الأوثان أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله. وليس معنى هذا أنه لا تقع شفاعة أصلا فقد استثنت الآية صورة من الشفاعة مقبولة وهي:أن يأذن الله لمن يشاء تكريما ،لا إدلالا من الشفيع على أنه مقدم ذاتيا لذلك.

**الوصف السابع:** أنه يعلم ما تقدم من أعمال كل فرد وما هو حاصل في الحال وما سيحصل منه في المستقبل. ولما كان علمه سبحانه على هذا المستوى فإن تفصيله هذا يؤكد نفي الشفاعة، لأن شأن الشفيع أن يُثمّن في المشفوع النواحي الإيجابية ويستر النواحي السلبية.

**الوصف الثامن:** أن علمه يشمل الجزئيات والكليات، وما يتهيأ له كل فرد من تطورات وتغيرات تصل به إلى نهايته. وعلمه سبحانه لا يقاس به أي علم يحصل للبشر، لأن البشر لا يحيطون بالمعلوم إحاطة كاملة إذ النهاية محجوبة عنهم، والعاقبة مجهولة لهم وما سيلقون فيها مجهول، والمستقبل بصفة عامة لا يفضي بما سيكون عليه.

---

[1] سورة الرّعد 33

**الوصف التاسع:** وسع كرسيه السماوات والأرض. ظاهر هذه الجملة أن الله له كرسي، وأن كرسيه أوسع من السماوات والأرض. واللفظ يحتمل أن يكون المراد مدلولا لا نعلم عنه إلا أنه يطلق عليه لفظ الكرسي، ويختلف اختلافا كاملا عن الكرسي المادي . فهو من متعلقات الذات الإلهية التي تقصر مداركنا عن الإحاطة بها. كما يحتمل اللفظ أن يكون المراد منه معنى غير حقيقي مما شاع استعماله في اللغة العربية من التعبير عن السلطان بالكرسي. أومن إطلاق الكرسي على العلم. وعلى هذا يكون المعنى: وسع علمه أو وسع سلطانه.

**الوصف العاشر:** أن تصريف هذا الكون القريب منه والبعيد، والمدرك منه بالأبصار والمدرك بالأدلة القائمة على وجوده ولكن لبعده تضعف الأبصار والآلات الآن عن تحديده، مما تقدر أبعادها بالسنوات الضوئية. إن تصريف أحوال كل جزء صغير أو عظيم من هذا الكون الكبير، وتمكين كل من التطورات التي تحدث فيه واتصاله بغيره مع حفظ كيانه، يتم كل ذلك دون أن يثقل عليه مصورا نفي الثقل بنفي انحناء المباشر لحمل شيء ثقيل. وهو معنى لا يؤوده.

**الوصف الحادي عشر:** العلي. وعلوه سبحانه سمو معنوي هو أرفع من أن يحيط به علم البشر، أو ينحصر في مدارك الإنسان، أو يتأثر بأي شيء مما يجري في الكون. كل شيء تافه بالنسبة للذات الإلهية. فهو العلي الأعلى.

**الوصف الثاني عشر:** العظيم: وعظمته سبحانه لا تحد فكل ما خطر ببالك من الأمور العظيمة فالله أعظم من أن تقاس بعظمته أو تخرج عن سلطانه.

**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)**

**بيان معنى الألفاظ:**

**الإكراه:** قهر الإنسان على فعل ما يكرهه.

**الدين:** الإسلام.

**تبين:** تميز.

**الرّشد:** الهدى.

**الغي:** الضلال في المعتقد.

**الطاغوت:** المقدس من دون الله.

**استمسك:** تمسك.

**العروة الوثقى:** أصله الحلقة يمسك منها للشد.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نفت الآية أن يكون اتباع الدين مستندا إلى الضغط على الشخص أو إرهابه ليؤمن. فقد وضحت مقومات الإسلام وأركانه. وتميّز الهدى في العقيدة، ولم يبق مدخل لأي شائبة من شوائب الضلال. وصرحت الآية بعد ذلك بالنتيجة: أن من يكفر بكل ما عبد من دون الله فهو آمن في مساره، كمن تمسك بعروة قوية شديدة الاتصال بأصلها لا يخشى انحلالها ولا انقطاعها. والله لا يخفى عليه ما يجري في بواطن العباد وظواهرهم. يسمع أقوالهم وتتكشف له بواطنهم.

**بيان المعنى العام:**

## 256- لا إكراه في الدين... سميع عليم.

تبين من تفاصيل آية الكرسي العقيدة التي أقام عليها صرح الإيمان. فقد وضُحت مفهوم الألوهية من الوحدانية إلى العظمة التي لا يدانيها أي شيء. وهذا التصور لا يمكن أن يبلغ درجة العقيدة بالإكراه والضغط والتعذيب. ذلك أن الإكراه قد يحصل به الإذعان والاستسلام الظاهري، أما العقيدة التي مقرها الباطن والضمير فلا تستقر استقرار الثبات والطمأنينة إلا إذا حصلت بناء على الاقتناع المستند إلى الوضوح الكامل. وهو معنى قوله تعالى: قد تبين الرّشد من الغي قد تميز طريق الهدى تميزا لا يلتبس بطريق الضلال. وواصلت الآية إبراز هذا التميُّز بأن من يكفر بأي معبود كان سوى الله ولا ينتهي به إلى رفض الإيمان عامة بل يؤمن بالله وحده **(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله)** هو الذي نجا، وضربت الآية مثلا له بأن الإنسان في سيرته في الحياة الدنيا كمثل شخص تتقاذفه الأمواج، فيلقى إليه حبل شديد الفتل في طرفه حلقة لا تنقطع عن أصلها ولا تنحل، فيتمسك بها لتكتب له السلامة في النهاية. هذه العروة الوثقى هي العقيدة الصحيحة بعد أن وضحت. وتتوج الآية بأن الله لا يخفى عليه شيء من أمور البشر فهو سميع لما يجري على ألسنتهم عليم بما تحويه عقولهم وضمائرهم. وهو ما يشير إلى تأكيد أن من آمن مكرها لا يعتبر مسلما.

__تنبيه:__ يعترض كثير من الحاقدين على الإسلام، ويروّجون إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف. وهذه الآية تفند ما ادعوه. إذ أن هذه الآية من الآيات الأصلية المحكمات فلا يوجد في التاريخ دليل واحد على أن فردا أو أمة أجبروا على الدخول في الإسلام. بل إن هذه الآية تمثل أصلا من أصول النظام الاجتماعي: أن الحرية هي أساس بناء المجتمعات في كل ما يتصل بحياتهم الاجتماعية من دين وتملك وحُكم وبناء الأسر إلى آخره. وما يقدم كحجة على ما يدعون من الحروب

التي قام بها المسلمون، هو تضليل وتزييف للحقيقة. ذلك أن الإسلام قام على الحرية. فمن يمنع البشر من حريتهم يقاتل حتى يتخلى عن ظلمه وجبروته ويترك للناس حريتهم في المعتقد. فالقتال لحماية الحرية لا لقتلها.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**ولي:** الحليف الذي ينصر حليفه.

**الظلمات:** الشبهات.

**النور:** الإيمان.

**خالدون:** البقاء المستمر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

الله في عظمته وجلاله هو الذي يثبّت المؤمنين ويرعاهم، فيخرجهم من ظلمات الشك ويزيح عنهم الشبهات. والذين كفروا سندهم الطواغيت التي لا أصل لها ولا حقيقة إلا الوهم المضل الذي سرى منهم إلى أتباعهم فأضلهم وحجبهم عن الإيمان. وحق عليهم سوء العاقبة بخلودهم في النار.

**بيان المعنى العام:**

**257- الله ولي الذين آمنوا...هم فيها خالدون.**

في الآية السابقة تقرير بنجاة وفوز المؤمنين بسبب إيمانهم، وهذه الآية أضافت إلى وضعهم الأول تقريرا آخر هو أن الله تكفّل بإعانتهم ليواصلوا مسيرتهم متمسكين بإيمانهم. وإنه لمطلب عزيز. ذلك أن شأن الإنسان في حياته أنه معرض لوساوس الشيطان وتلبيس الفجرة وحديث النفس، تعمل متفرقة ومجتمعة على الإحاطة به وتضليله. والله قد تكفل بأنه يتولى المؤمنين فيخرجهم من حبائل الشيطان ووساوسه فيثبتهم على الصراط المستقيم في نور الإيمان الواضح المطمئن. وفي المقابل فإن الذين كفروا تتشرب عقولهم شبهات وأباطيل المضللين من الإنس والجن فيخرجونهم من دائرة الإيمان، ليلف ظلام الحيرة والشك على مداركهم. متحيرون في تصور مبدئهم ومصيرهم وما ينتظرهم. ويكشف القرآن عما يسألون عنه ولا يجدون له جوابا، فيعلن أنهم سائرون إلى مصيرهم الذي هو أسوأ مصير: الخلود الدائم في نار جهنم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**حاج:** خاصم بالباطل.

**بهت:** عجز عن المعارضة.

### بيان المعنى الإجمالي:

دعت الآية كل مؤمن ليحيي هذا المشهد ويتأمل فيه. أثبت إبراهيم عليه السلام للملك أن الله هو وحده الذي يتصرف في الكائنات فيُحيي من أراد ويميت من يشاء. فرد عليه الملك معاندا وقال: أنا أيضا أحيي من أعفو عنه وأنفذ الموت فيمن أريد قتله. فقال له إبراهيم: إن الله يتصرف في الكون كله فهو الذي يطلع الشمس من المشرق، فائت بها من المغرب، فانقطعت حجة الملك. وهكذا يكون الظلم حجابًا فلا يصل الكافر إلى الاهتداء إلى الحق.

### بيان المعنى العام:

### 258- ألم تر إلى الذي حاج...الظالمين.

ورد في آية الكرسي أن الله حي، وورد في الآية التي تليها أن الله يفتح على بصائر المؤمنين فيزيح عنهم الشبهات على عكس الكافرين. فمكّن القرآن تلكم المعاني بما ورد في هذه الآية التي خاصم فيها الملك المتغطرس إبراهيم ﷺ. عرض إبراهيم ﷺ على الملك العقيدة التي أرسل بها، ليهدي الناس إليها. وقال له: إن الله هو المتفرد بالإحياء والإماتة، فيحيي من يشاء ويميت من يشاء. ولكن الملك بغطرسته وزهوه بنفوذه أجاب بأن ما عرضه إبراهيم ليس من خصائص ربه وحده، وأنه وهو الملك يتصرف في حياة الناس كما يشاء، فينفذ الموت فيمن تعلقت إرادته بقتله ويبقي حياة من عفا عنه. فحوله إبراهيم لغلظ حسه واستكباره، لا إقرارًا لرده ولكن ليربط بين الخالق والكونِ مما لا يستطيع أحد أن يثبت لنفسه أي تأثير فيه. هي الحقيقة المشاهدة المتكررة وقال له: إن الله يطلع الشمس كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها فأطلع الشمس من المغرب. فأفحمه وظهر عجزه.

وهكذا فالآيات الكونية يهدي الله بها المؤمنين فيثبتون، ويحرم الكافرين بما يسدله الكفر على بصائرهم فلا يهتدون بها.

الحكمة: في لفت نظر المؤمنين لهذه المحاجة دليل على أن إقامة الحجة على ما يعتقده المؤمنون أنه الحق، منهج إلهي جرى عليه المرسلون.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

### بيان معنى الألفاظ:

خاوية على عروشها: ساقطة على سقفها.

لم يتسنه: لم يتغير.

ننشرها: تحييها.

### بيان المعنى الإجمالي:

واقعة ثانية تؤكد أن الله هو الحي المتصرف بالحياة والموت، لفت القرآن إليها الأنظار ليتمثلها المؤمنون في نفوسهم.

تمثل الواقعة: أن رجلا كان مسافرا على حمار ومعه طعامه، ومر في طريقه على قرية فرأى منظرا مفزعا. خربت القرية خرابا فظيعا، انقلب أسفلها على أعلاها، وقد دخل اليأس قلبه من هول الخراب فقال: بعيد جدا أن يحيي الله هذه القرية بعد هذا الخراب المميت. فأماته الله مائة عام، ثم رد عليه قوتَهُ على الحركة ، وجاءه السؤال من الله الخالق: كم لبثت في هذا المكان فقال: بقيت يوما، ثم راجع نفسه ليكون دقيقا، فقال: بل بقيتُ بعضا من يوم. وعرفه الله بالحقيقة أنه مضى على مكثه في ذلك المكان مائة عام. ثم حرك نظره لما حوله ليرى عجائب قدرة الله. الطعام الذي كان معه والذي من شأنه أن يسرع إليه الفساد بقي سالما، وأن حماره الذي يستطيع أن يسرح في أرض الله بما يبقي على حياته أمدا طويلا قد أصبح عظاما نخرة. فلما تبينت له الحقيقة بالمقارنة نطق لسانه بقوله: أعلم أن الله على كل شيء قدير.

**بيان المعنى العام:**

**259- أو كالذي مر على قرية... قدير.**

هذا هو المشهد الثاني الذي يؤكد بتفاصيله ما أثبتته آية الكرسي لله من الحياة وما أكدته الآية التالية من أن الله ولي الذين آمنوا.

**يمثل المشهد ما يلي:**

**الخطوة الأولى:** رجل يسير على حماره ومعه طعامه وهو يتأمل فيما حوله تأمل المعتبر الدقيق النظر. وينكشف له منظر مفزع: قرية كانت عامرة بأهلها قد أصبحت خرابا، انقلب أسفلها على أعلاها. سقطت سقوفها ثم أتبعتها الجدران، وأصبحت ميتة لا حركة فيها. وعصر المشهد على قلبه فإذا هو يائس يستبعد أن تعود القرية إلى الحياة يوما.

**الخطوة الثانية:** أن هذا المسافر لم يغادر القرية بل بقي في موقعه، وإذا هو يلتحق بالقرية ويموت كما مات من فيها، ويبقى على حالته تلك لا يتحرك مائة عام.

**الخطوة الثالثة:** يبعثه الله بعد موته، والقرآن لم يفصل هل إن الله أبقاه جثة بدون روح أو إنه سبحانه قد سلبه اليقظة فكانت قواه تعمل في همود؟ المهم أنه بقي مائة سنة لا يشعر بما حوله، ثم في لحظة عادت له حواسه. وأول ما طرق سمعه السؤال التالي من نفسه: كم لبثت في هذا المكان؟ ويسرع هو بالإجابة، فيقول: لبثت يوما، ثم يراجع نفسه بعد أن دقق آخر زمن كان له فيه وعي، فوجد أنه قد مرت عليه فترة لا تصل إلى اليوم فقال: بل مكثت بعض يوم.

**الخطوة الرابعة:** الكشف عن الحقيقة المعجزة. يسمع القول الحق: لم تلبث يوما أو بعض يوم بل لبثت مائة عام كاملة. وليزيل دهشته يأمره أن يتأمل في طعامه الذي كان بجانبه قبل أن يموت، فيجده سالما لم يؤثر فيه الزمن، ويؤمر أن ينظر إلى حماره الذي كان يمكن له أن يرعى في أرض الله بما يطيل حياته إلى أمده، فيجده عظاما نخرة مفرقة وكأنه وهو يفرك عينيه ليتثبت فيما جرى حوله، فإذا بعظام الحمار تقترب من بعضها ويكسوها اللحم والجلد ويقف حماره بجانبه كما تركه. مرت الأعاجيب الثلاثة في لحظة: تحققه أنه بقي ميتا مائة عام، بقاء الطعام الذي من شأنه أن يسرع إليه الفساد بقاؤه سالما لم يتغير، عظام الحمار تكسى اللحم والجلد ويقف الحمار كما كان. ليست أخبارا ولكنها حقائق محسوسة أدركها ببصره وتحركت أمام ناظره. عبر عن إعجابه وعن شكره لفضل الله عليه الذي كشف عن قلبه الشكوك التي خامرته واليأس الذي استولى عليه فقال: أعلم يقينيا أن الله على كل شيء قدير. وبهذا ارتبطت هذه الآية بقوله تعالى **(الله ولي الذين آمنوا**

**يخرجهم من الظلمات إلى النور)** وباية الكرسي التي وصفت الله بالحياة فقامت كدليل على ذلك لأن فاقد الحياة لا يتصور منه أن يعطيها.

**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾**

**بيان معنى الألفاظ :**

**صرهن إليك:** قربهن منك تقريبا يعرفك بهن معرفة واضحة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

خفي على إبراهيم ﷺ سر الحياة فطلب من الله أن يريه كيف تسري الحياة في الكائن فيتحول من حالة الموت إلى حالة الحياة. أجابه الله: لمَ تسأل هذا السؤال ألست مؤمنا ؟ قال إبراهيم: آمنت يا ربي، ولكن أريد أن تسعفني بما ينضم به علم المشاهدة إلى علم الدليل ليطمئن قلبي. إن من طبع الخلق أن تثير عقولهم التساؤلات.

قال الله: خذ أربعة طيور فقطعها أجزاء ثم اخلطها وقسمها إلى أربعة أقسام ثم اجعل على كل جبل من الجبال التي حولك جزءا منها ثم مرها بالقدوم إليك تأتيك سعيا. واعلم يا إبراهيم أن الله لا يعجزه شيء، هو كامل الحكمة في تصرفه وتقديره.

**بيان المعنى العام:**

**260- وإذ قال إبراهيم ...عزيز حكيم.**

حدث ثالث ينضم إلى المشهدين السابقين يزيد توضيحا لمضمونهما. ذلك أن إبراهيم عليه السلام توجه إلى ربه سائلا له أن يريه الكيفية التي تسري بها الحياة في الكائن. فمضمون السؤال أن يعرض على بصره الصورة التي يتم عليها إحياء الشيء. أجابه الله عن سؤاله بإلقاء سؤال عليه، فقال له: ألم يسبق لك أنك آمنت بي وبقدرتي على كل شيء ومنها الإحياء؟ أجاب إبراهيم بأن إيمانه لا يعتريه شك ولا ريب، ولكنه يريد أن يجمع بين علم المعاينة الحسّي وبين ما هو حاصل عنده من العلم التجريدي النظري، لتكون المعاينة البصرية دافعة لما يجول في النفس من طلب الكيفية. فأمره أن يقوم بالتجربة التالية: أن يأخذ طيورا أربعة يتأمل في لون كل واحد منها وفي شكله وفي خصائصه، مما يعطي للتجربة تصويرا أتم. إذ الطيور لا بد أن تكون مختلفة الصورة والشكل واللون. ثم يتولى ذبحها ثم

تقطيعها، ثم يخلط القطع، ثم يقسم المخلوط إلى أربعة أقسام، فكل قسم لاشك أنه يحوي أجزاء من كل طائر من الطيور الأربعة، ثم يضع كل قسم من الأقسام الأربعة على جبل فتتباعد الأجزاء، ثم يدعو الطيور لتأتيه. فعل إبراهيم ما أمر به، ودعا الطيور فجاءته تمشي على رجليها، غير طائرة، وفي مجيئها ماشية غير طائرة ما أعطى للتجربة قوة، إذ تمكن من التأمل فيها بما أثبت له عيانا أنها الطيور التي سبق له أن قطعها. وتختم الآية بالتأكيد على حقيقة هي التي استندت إليها التجربة: هي أن الله لا يغلبه شيء، يفعل ما يريد فعله ويبرزه بحكمته التي لا يفوتها شيء من الدقة. والحياة لا تتأتى إلا من القادر المطلق الحكيم الذي لا يفوته سر الحياة. وهذه الحادثة توضح بجلاء ارتباط الآية بإثبات أن الله حي، وبإبراز صورة من عنايته بالمؤمنين بما يثبتهم ويزيح عنهم الشبه ( الله ولي المؤمنين ).

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**المن:** تذكير المنفق للمنعم عليه بما أعطاه.

**الأذى:** يشمل المن وغيره مما يحتقر به المعطى له.

**بيان المعنى الإجمالي :**

ضرب الله مثلا يجسم ثواب المنفقين في سبيل الله، مثل أجر المنفق في سبيل الله الذي أخلص في عطائه لا يبغي منه محمدة عاجلة ولا يتبجح بما أعطاه ولا يؤذي من تفضل عليه بالاستعلاء، مثل ما يحصل عليه من ثواب كالزارع الذي رمى في أرض طيبة حبة واحدة فبورك فيها ونمت وأخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. والمعطي هو الله فهو يضاعف لمن يشاء تبعا لما قارن العمل الصالح من إخلاص. والله واسع ملكه لا ينقص ما يثيب به من مُلْكه شيء، وهو عليم بنيات وأحوال المنفقين.

**بيان المعنى العام:**

**261-مثل الذين...والله واسع عليم.**

تكرر في سورة البقرة التحريض على الإنفاق وتصفية النفوس من داء الشح، ففي تعريف المؤمنين أول السورة (ومما رزقناهم ينفقون) وفي الآية السابقة 195(وأنفقوا في سبيل الله...) وفي الآية 254 (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات...) والسورة واحدة فأكدت هذه الآية قيمة الإنفاق ببيان ثوابه والأدب الذي يتحتم أن يصحبه: جاءت الآية بمثل يجسم مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله، والأصل أن الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في الجهاد. فقارنت بين الزارع الذي يرمي بحبة في أرض مباركة طيبة قد توفر لزرعه جميع أسباب النماء والصلاح فسقاه الغيث وحماه الله من الآفات فأخرجت الحبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، بما يعطي المنفق ثوابا يصل إلى سبعمائة ضعف. ولا تعجب أيها المؤمن فإن الله يضاعف الثواب لمن يشاء. وفيه إشارة إلى أن الأعمال يتضاعف ثوابها بمقدار ما يصحبها من الإخلاص، والله المعطي لا ينقص من ملكه شيء وسع ملكه السماوات والأرض. وهو عليم لا يخفى عنه شيء مما انطوت عليه نفس المعطي من كدر حب الذات وطلب الثواب من البشر، أو من صفاء في القصد وأنوار التقوى.

### 262- الذين ينفقون...ولاهم يحزنون.

ثم حددت الآية أن الأدب الكامل في الإنفاق أن لا يتبع المنفق ما أعطاه بالتذكير به دائما ومحاسبة المعطى له بما أعطاه، وأن لا يؤذي بصدقته، والإيذاء مراتب: من الاستكبار والنظرة المتعالية إلى الكلام الذي فيه تعد على كرامة المنفق عليه. وقد يكون فردا وقد يكون شعبا أو مجموعة من البشر. فلو تبجح مثلا قائد الجيش بأنه لولا بطولاته وذكاؤه ما كان للجيش أن ينتصر، فإنه بتبجحه هذا أبطل ثواب ما حققه من نصر. فالإنفاق عمل خير، والمنُّ والأذى شر يتسلط على الخير فيمحقه. وطمأن الله المنفقين بأن أجرهم مضمون حفظه، لا يضيع منه شيء. لأن الله هو الذي تكفل بذلك. وبشر المنفقين ببشارة عظيمة أنهم لا يخافون من المستقبل، وما يخبئه يوم القيامة، فقد كتب الله لهم الأمن في ذلك اليوم، ومسرتهم أنهم لا يحزنون على ما فات لأن ما عند الله خير وأبقى مما أنفقوه.

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ

فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**قول معروف:** المقبول في العرف العام.

**مغفرة:** التجاوز عن الإساءة.

**رئاء الناس:** إظهار العمل للناس للتفاخر به.

**صفوان:** حجر كبير أملس.

**وابل:** الكثير القوي من المطر.

**صلدا:** الأملس الصلب الذي لا شيء عليه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

موازنة بين قول الكلمة الطيبة في مواجهة السائل، والتجاوز عما يصحب سؤاله من سوء أدب وتطاول، وبين الصدقة التي يتبعها أذى للسائل، فحكم الله سبحانه بأن الكلمة الطيبة وما عطف عليها خير من الصدقة التي تلبي الحاجة المادية وتكسر نفس الفقير. والله وهو الكامل الغني يعفو عن السيئات عفوا لا يتبعه لوم ولا حط من قيمة المعفو عنه.

ثم نهت الآية عن الصدقة التي يقع بعدها المن على المنفق عليه أو إذايته، ونفرت من ذلك بتشبيهه بالكافر الذي خلا قلبه من الإيمان بالله واليوم والآخر فقصر همه على الحياة الدنيا، فهو لسوء باطنه لا يتصدق إلا ليحقق ما يرغب فيه من التطاول على من يعطيهم، والظهور بمظهر الكُمّل الأسخياء.

ثم نفّرت ثانية من هذا السلوك بضرب مثل يعبر عن عاقبة الصدقة التي يصحبها المن والتطاول، بالحجارة الملساء المغطاة بتراب خفيف يبذر فيها الزارع، حتى إذا نزل الغيث الغزير ذهب بالتربة وما تحويه وبرز وجه الحجارة عاريا، لا يقدر الكافرون على الانتفاع بشيء مما بذلوا فيه جهدهم. وبهذا يكون الكفر حجابا يمنع من بلوغ آثار الهداية الإلهية.

**بيان المعنى العام:**

**263- قول معروف ومغفرة...والله غني حليم.**

فصلت الآية السابقة أمر الإنفاق في سبيل الله وحرضت عليه. والإسلام كما يحرض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله يربيهم:

**أولا:** على بذل العون للفقراء والمساكين بالتصدق عليهم.

**وثانيا:** على أن يكون هذا الإنفاق جاريا على طريقة لا تؤذي المتصدّق عليه، ولا تداس بها كرامة من اضطرته الحاجة إلى السؤال. وقد جمعت الآية الأمور الثلاثة التالية:

أولا: أن المؤمن إذا كان لا يملك ما يجيب به السائل فليباشره بكلمة طيبة: ( يسر الله لك الخير، يؤسفني أن وضعي لا يسمح لي بعونك ونحو ذلك) وإن الكلمة الطيبة التي لا تجرح كرامة السائل خير من أن يتصدق عليه ثم يتبع صدقته بالمن والتذكير بها، أو بالإذاية القولية أو الفعلية. وقد يُلْحِف السائل في الطلب ويحرج المسؤول أو يتجاوز حدود الأدب في خطابه، فيدعو القرآن إلى التكرم والعفو. وينبهنا القرآن إلى أن الله هو الغني عن عباده وكل الخلائق تسأله وكثير منهم قد أساؤوا في حياتهم وتجاوزوا حدوده وهو سبحانه يحلم عنهم ولا يقابل معاصيهم وتجاوزاتهم بالحرمان.

### 264- يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا...القوم الكافرين.

**ثانيا:** أن يرعى في طريقة تصدقه الأدب، فلا يصحب صدقته ولا يتبعها بالمن على المحتاج والتطاول عليه والتذكير بفضله، ولا بإيذائه بالقول أو بالفعل، وليعلم من لم يرْعَ ذلك أنه لا يطمع في ثواب ما أنفقه، وأنه حرم نفسه من الجزاء الذي شأنه أن يخلفه الله عليه في الدنيا، وأن يكون مدخرا يوم القيامة. ثم مثل الله خسران المتصدق الذي لم يتأدب بأدب الإسلام في الصدقة بأن مثله كمثل الكافر الذي ينفق أمواله طلبا للرياء والشهرة والذكر، لا حبا في الخير ولا شعورا بالتضامن الإنساني. خلا قلبه من نور الإيمان بالله فهو لا يرجو ثواب عمله يوم القيامة. وقرّب مآل ذلك بأن ضرب له مثلا، بمن يصحب صدقته بالمن والأذى ولا يرعى أدب البذل، إن مثله كمثل حجارة صلبة ملساء غطى ظاهرها طبقة خفيفة من التراب بذر فيها الزارع حبه منتظرا نباته وتضاعفه، وينزل المطر غزيرا فيذهب بالتراب وما يحويه ويبرز الحجر أصم عاريا أملس. ويظهر في المثل مظهر المنفقين مع المن والأذى بصورة العجزة الخائبين اليائسين الآسفين، لا يقدرون على الانتفاع بشيء مما بذلوا فيه جهدهم. والكُفر يضرب بحجابه على أهله فلا ينفذ إلى عقولهم وضمائرهم وقلوبهم أنوار الهداية فهم في ظلامهم محرومون.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)

**بيان معنى الألفاظ:**

**ابتغاء:** طلبا لمرضاة الله.

**تثبيتا:** تمكنا من أنفسهم.

**الجنة:** مكان كثير الشجر.

**بربوة:** مكان مرتفع من الأرض.

**أكل:** ما يؤكل.

**وابل:** المطر الكثير.

**طل:** المطر القليل.

**بيان المعنى الإجمالي:**

واصل القرآن تمثيل أحوال المنفقين بما يجسمها للمتأملين. فضرب مثلا للذين ينفقون أموالهم طلبا منهم أن يصلوا إلى رضا لله، وتمكينا لأنفسهم من التغلب على دواعي الشح ليترسخ حب السماحة في قلوبهم، مثّلهم بجنة في مكان خصب مرتفع قليلا رويت بغيث غزير، فتضاعف إنتاجها وكثرت خيراتها، أو سقيت بمطر فيه كفاية، فلم يحرم صاحبها من غلاتها. فالمتصدق ينال ثواب ما قدم من خير يتضاعف تبعا لإخلاصه. والله مطلع على أحوال نفوسكم فلا يخفى عليه من حقيقتها شيء.

**بيان المعنى العام:**

**265 - ومثل الذين ينفقون...والله بما تعملون بصير.**

هذا هو الوجه الثاني للمنفقين ، فإذا كانت الآية السابقة جسمت حال المنفقين الذين لم يتأدبوا بأدب الله، فإن هذه الآية اعتنت بحال المنفقين الذين قاموا بما قاموا به طلبا للفوز برضوان الله. وانضم بهذه الآية الإنفاق في سبيل الله المذكور في الآية السابقة (**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله...**) إلى الإنفاق في مختلف وجوه الخير التي يرضى الله عنها. وبرزت هذه الوجوه النيرة للذين امتلأت أرواحهم بأنوار الإيمان فمحضوا ما يقدمونه من إحسان في وجوه البر لينالوا رضى الله عنهم، وليمكنوا أنفسهم من الثبات على العطاء ويقتلعوا جذور الشح والتردد في علاقتهم بالمال. مثلهم القرآن بجنة ذات أشجار مثمرة طاب مكانها، وكانت تربتها

غنية ثرية في مكان مرتفع، ونزلت عليها الأمطار الغزيرة فروت أرضها وجرى في أفنانها وثمارها ما ضاعف إنتاجها، أو نزل بها مطر كاف أقل من ذلك، فلم يحرم صاحبها من إنتاجها. وهكذا يختلف حال المنفقين الصالحين فيما يقرر لهم من مثوبة بين الثواب المضاعف، وبين ما هو دون ذلك تبعا لوضع المنفق من الإخلاص الكامل، أو ما خالطه غيره على وجه لا ينفي الإخلاص. والله يعلم ما تنطوي عليه النفس عند قيامها بما قامت به وأنجزته، فالظواهر لا تخفي تحت غطائها الحقيقة الكامنة في الضمائر.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**أيود:** أيحب.

**الإعصار:** ريح شديدة تقلع الأشجار.

**فيه نار:** مع حرارة شديدة.

### بيان المعنى الإجمالي:

إن الذي ينفق ماله رئاء الناس مثله كمثل صاحب جنة في أوج عطائها جمعت بين النخيل والأعناب وصنوف الأشجار المثمرة، ريُّها مضمون بما يتخللها من أنهار جارية، وقد شاخ صاحبها وكبرت سنه، وذريته غير قادرين على الكسب لصغر أو قصور، فحالته تمثل الاحتياج الشديد لإنتاج تلكم الجنة. وفي لحظة تعصف ريح سموم حارة تقتلع الأشجار وتحرق الأوراق والثمار، فتقضي على آماله. كذلك يكون المرائي بصدقته يوم القيامة ذهب ما قدم هباء ولا ينتفع بشيء منه في اليوم الذي يكون أشد ما يكون احتياجا. والله يبين للناس الحقائق التي بالتفكر فيها تسلم للمؤمن عاقبته.

### بيان المعنى العام:

### 266-أيود أحدكم... تتفكرون.

افتتحت الآية بسؤال: أيحب أي واحد منكم أن يحصل له ما عرضته الآية ؟ وهو كما تقول لشخص: أتحب أن يذهب بصرك ؟ وذلك لحث السامع على الانتباه والتفكير. ما هو المثل الذي ضربه القرآن في صورة السؤال ؟ مثُل الذين يراؤون

بالصدقات برجل له جنة اصطفت فيها النخيل والأعناب وتنوعت فيها الأشجار المثمرة وهي في أوج عطائها، تتخللها الأنهار الجارية فلا يخشى عليها صاحبها عطشا، تملأ القلب وتبهج العين، وقد كبرت سنه وأدركه الهرم، ومع ذلك هو يعول ذرية ضعافا لا يقدرون على الكسب، فكل آماله معلقة بهذه الجنة. وكل اعتماده هو وأسرته على ما تنتجه من خيرات. وفي لحظة تعصف رياح عاتية كأعنف ما يكون قوة، حارة تشوي ما تلفحه وتحرقه، وينكشف المنظر عن أشجار مقلوعة وأغصان وثمار محترقة، وآمال ضائعة ويأس مقيم، لا يستطيع أن يعيد غراسها لكبره ولا ذريته يخلفونه لضعفهم. فمثل هذا العجوز الذي ذهبت آماله كمثل المنفق رئاء، أنفق وسعى حتى إذا جاء يوم الحساب، بين يدي رب الأرباب، وجد ما قدمه هباءً منثورا، لا ينتفع منه بشيء. وهو مثل يضربه الله للناس ليتفكروا فيه ويأخذوا منه العبرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الطيبات:** أفضل الأموال.

**ما أخرجنا لكم من الأرض:** الزروع والثمار.

**ولا تيمموا:** ولا تقصدوا.

**الخبيث:** السيء كالحرام والمستقذر وهو عكس الطيب.

**تغمضوا:** تتساهلوا في أخذه مع أنه مكروه لغرض ما.

**الفحشاء:** اسم لفعل شد يد السوء، أو قول كذلك.

**واسع:** واسع الفضل لا يحد فضله.

**الحكمة:** الحكم الصادق الذي لا شبهة فيه، وهي بالعلم المتقن والعمل به.

**أولو الألباب:** أصحاب العقول الصحيحة.

**نذرتم:** التزمتم من قرب.

**تبدوا:** تظهروا صدقاتكم.

**فنعما هي:** فالصدقة المظهرة حسنة لا ينقص الإظهار من قيمتها.

**يُكفِّرْ:** يمحو.

**ابتغاء وجه الله:** إخلاصا لله.

**يوف:** تجدونه كاملا غير ناقص.

**أحصروا:** حبسوا.

**ضربا في الأرض:** الانتقال في الأرض قصد التجارة.

**التعفف:** التنزه عن السؤال.

**سيماهم:** علامة الحاجة تُعرّفُ بهم .

**الإلحاف:** الإلحاح في المسألة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تتضمن هذه الآيات الثمانية ما يلي:

❖ أمر الله المؤمنين أن ينفقوا من المال الطيب الجيد ومما تخرجه الأرض من خيرات مما يرغب الإنسان فيه لجودته ومن الحلال، ولا يتصدق برديء ماله الذي لا يقبله في تعاملاته إلا مع نوع من التسامح لغرض من الأغراض، وليتذكروا أن

الله سبحانه غني عن البشر فالإنفاق هو لمصلحتهم، وأن الله محمود على جميع الأحوال.

❖ نبههم إلى أن الشح بالمال هو من الشيطان الذي يوسوس فيوقع في نفس البشر الخوف من الفقر ليمسكوا أموالهم ومن ناحية أخرى يفتح لهم شهية ارتكاب الرّذائل، ففرّقوا بين منهج الشيطان هذا، وبين منهج الله الذي يدعوكم لواسع رحمته وغفرانه ويعدكم من فضله ما يفتح الآمال، وهو منجز ما يعدكم لأن سعة ملكه لا ينقص منها شيء وهو عليم بما يجري في ضمائركم.

❖ يختلف البشر في قدرتهم على بلوغ الحقيقة والعمل بها، فمن رزق نفاذا في بصيرته لا يخدع بالظواهر عن إدراك الحقيقة ، فقد أوتي الحكمة، ومن ظفر بالحكمة فقد ظفر بالخير كله. وأصحاب العقول الكاملة هم الذين ينفذون إلى حقائق الوجود.

❖ يبشر المؤمنين بأنهم كلما أنفقوا نفقة واجبة أو تطوعا، أو التزموا فعل خير فوفوا به، فإن الله لا يغيب عن علمه شيء من ذلك ويجزي فاعله. بغفران ذنوبه. ومن شح بالواجب عليه أو لم تسمح نفسه بمساعدة المحاويج فأول عقوبة، هي أنه لا يجد في ساعة الحرج والضيق معينا ولا نصيرا ويكون مكروها من الناس.

❖ كل من بذل ماله للمعروف واجبا كان أو تطوعا، وأظهر صدقته فعمله هذا عمل صالح يثاب عليه، وأفضل منه أن يخفي صدقاته ويوصلها للفقراء دون أن يعلم أحد بما صنعه، ويجزى بمحو سيئاته. والله لا يخفى عليه شيء من نياتكم، فأخلصوا لله في البذل

❖ الله وحده هو الذي يتصرف في الهداية فيؤتيها من يشاء ويحرم منها من يشاء، وقد كلف الرّسول ﷺ بإبلاغ شريعة ربه وكذلك العلماء من بعده ولم يكلف أيا منهم أن تتحقق فعلا هداية من يدعونه.

❖ كل ما تنفقونه من خير فإن فائدة النفقة تعود إليكم، وحدة في المجتمع، ونشرا للحب بينكم، واقتلاعا للحسد والبغضاء. ونفقتكم الصالحة هي التي تقدمونها طلبا لرضا الله، والله يحاسب حساب الجزاء والكرامة فيوفي كل منفق بثواب ما أنفقه، ولا ينقص منه شيء.

❖ تأكيد للتحريض على الإنفاق وخاصة للفقراء الذين وقفوا أنفسهم على الجهاد لإعلاء كلمة الله، الذين لا يستطيعون أن يتنقلوا في أرض الله لتنمية أموالهم بالتجارة، وعزةُ نفوسهم تجعل الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من تعففهم عن المسألة،

ولكن المتأمل في العلامات ينتبه لفقرهم مع أنهم لا يمدون أيديهم للسؤال ولا يُلحُون.

❖ تأكيد على أن ما ينفقه المؤمن سيلقى جزاءه، لأن الله عليم بما أنفقه وهو قد وعد بالجزاء ووعده لا يخلف.

❖ عممت الآية مؤكدة أن كل منفق يلقى جزاءه أنفق بالليل أو بالنهار، كان إنفاقه سرا أو ظاهرا علانية، جزاء مدخر عند ربهم الذي تولاهم بالهداية، وفضله عليهم موصول، فهم قد أمنوا في مستقبلهم فلا يصيبهم مكروه يوم القيامة، وكتب الله لهم الطاقه عند الشدائد فالله وليهم، ولا هم يحزنون على ما فات منهم لعظم الرّعاية التي سيلقونها.

## بيان المعنى العام:

### 267-يا أيها الذين آمنوا أنفقوا...أن الله غني حميد.

واصل القرآن في هذه الآيات الثمانية بسط ما يتعلق بالإنفاق فاعتنى بما يلي:

أولا: حث المؤمن على تخيُّرِ المال الذي ينفق منه، فأمره أن ينفق، من المال الذي سعى في التحصيل عليه بالطرق الحلال المال الطيِّب المرغوب فيه، لينفقَ من الذهب والفضة ومن الأنعام ومن الزروع والثمار التي أخرجها الله من الأرض ومكن منها الإنسان. ونهاه أن يقصد إلى المال الرّديء والمرغوب عنه والمال الحرام لينفق منه، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا. وكيف يجرؤ الإنسان على تقديم المال الذي لا يرضى أن يدخله في ملكه إلا مع نوع من التساهل وعدم الرّضا، وإذا قبلهُ فإنما يقبله مع رفضه الباطني له لأمر وراء قبوله له وحطٍ من قيمته. فكيف يرفض غير الطيب لنفسه ولا يرضاه لها ويقدمه لله الغني الحميد. إن في تقديم الرّديء للمحتاج في ذلك هدم لنفسية المحتاج وإذلال له، فإذا كان قد سد خلته بما أعطاه من مال رديء، فإنه قد اعتدى عليه باحتقاره. واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم محمود على جميع الأحوال.

### 268-الشيطان يعدكم...واسع عليم.

ثانيا: أيقظ المؤمنين لينتبهوا فلا ينخدعوا، فهما طريقان: طريق الله وطريق الشيطان. عليهم أن يميزوا بينهما. الشيطان يلقي بوسوسته في قلوبكم ويصور لكم أن الإنفاق يقودكم إلى الخصاصة والفقر فينفركم منه. ويملأ بواطنكم بالخوف من المستقبل على أنكم إذا صرفتم ما في أيديكم اليوم ذهب عنكم، ولا تجدونه عند الحاجة. ومن ناحية أخرى هو يزين لكم كل قبيح فيطمس على سليم فطرتكم فتنقلب موازين الخير والشر عندكم ويضلكم. وكم من شحيح بماله يدفعه الشيطان

إلى الفحشاء وطرق الرّذيلة فينقلب شحه بذلا بدون حساب في الرّذيلة ومستنقع الشهوات. تنبهوا فإن طريق الله سبحانه يفتح قلوبكم على الأمل فيصفيها مما يمكن أن يخالطها من ظلام المعصية فتنشرح للمستقبل بما أعده الله من فضل. والله واسع الفضل، عليم بما انطوت عليه صدوركم فيجزيكم.

### 269-يؤتي الحكمة...الألباب.

يختلف البشر في قدراتهم العقلية فمنهم من يقف عند الظواهر لا يتجاوزها ويغتر بها، ومنهم من ينفذ إلى حقائق الأشياء ولا تغيب عن بصيرته عواقب الأمور، وهذا هو الحكيم الذي رزقه الله الحكمة. ويتفضل سبحانه على من يشاء من عباده فيمكنه من الحكمة التي تصحح مداركه، ويبعد بها ضلالات الشهوة عن أحكامه، فتُطرد من التأثير على اختياراته، فيترجح عنده الصواب والخير على ما سواهما. ويقرر القرآن قاعدة في نجاح البشر: أن من لزم في حياته التأمل وانطلق فكره فأدرك حقائق الأشياء فاستقامت مداركه، وتغلب على نوازع الشهوة ووساوس الشيطان، فتوجهت ميوله تبعا لذلك لما هو خير وأسلمُ عاقبة، فإن حظه في هذه الدنيا الحظ العظيم، وما يحصل عليه من الخير لا تحد حدوده. وإنه لا يصل إلى الارتواء من الحكمة وإدراك حقائق الأشياء بدون غلط، ويطوع سلوكه لمقتضيات الحكمة، إلا أصحاب العقول الصافية النابهة.

### 270-وما أنفقتم من نفقة...أنصار.

**ثالثا:** إن من الحكمة أن يستحضر المنفق أن الله لا يخفى عليه أي نفقة كانت صغيرة أو كبيرة، سواء أنفقها في سبيل الله أو تصدق بها، أو أي التزام منه بفعل الخير، وهو النذر، سواء أربطه بأمر أم لم يربطه، على أن تقترن به المراعاة التامة لكل ما أرشد الله إليه وبينه في الإنفاق. ثم إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فحرموا المستحقين ما فرضه الله لهم في أموال الأغنياء، وظلموا أنفسهم فحرموها من الكمال الخلقي ولوثوها بداء الشح، لا يجدون نصيرا يوم القيامة ويفقدون النصير في الدنيا. إنه قد بنيت النفوس على حب من يحسن إليها، فمن يشح بماله ولا تلين نفسه لمساعدة المحتاجين لا يجني من ذلك إلا بغض الناس له والتخلي عنه عند الأزمات. ولا يجد نصيرا ولا معينا، بل يكثر الشامتون به.

### 271-إن تبدوا الصدقات...والله بما تعملون خبير.

رابعا: تبين من الآية السابقة 263: (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) أثر الرّياء في إحباط ثواب الإنفاق، فيذهب المال ويحرم أجر ما

أنفقه. وقد يتساءل المؤمن عن النفقة إذا أظهرها المتصدق بغير قصد الإذلال على المنفق عليهم، ولا حبا في الظهور، فهل إظهارها يحبط أجرها سواء أكان الإنفاق من الواجب كالزكاة، أم من المتطوع به كالصدقات ؟ تقرر الآية أن الصدقة التي أظهرها صاحبها ولم يصحبها رياء هي أمر طيب، إبداؤها وإظهارها لا يؤثر سلبا على نيل المتصدق رضا الله وثواب ما أنفق . ولكن الصدقة التي أخفاها المتصدق وأوصلها إلى الفقير، والإيتاء هو إيصال الشيء بلطف يمّحي معه انكسار نفس المعطى، ولا يعلم بها إلا الله، إن ذلك هو أكثر ثوابا وأعظم أجرا وهي سبب للعفو عن السيئات.

## 272-ليس عليك هداهم...تظلمون.

**خامسا:** ما نظّمه القرآن في البذل الواجب والمندوب، وموقف الناس من هذا النظام بين متبع له وبين رافض، وأثر ذلك في بناء المجتمع الإسلامي، جعل النبي ﷺ يحزن لعدم اهتداء الناس جميعا للأخذ بهذا النظام، فأعلمه الله وأعلم أيضا كل داعية للخير من علماء الأمة، أنه لم يكلف أحدا منهم بأن يعمل الناس بما يدعونهم إليه من الخير والصلاح، إذ أن مهمتهم بيان الحق ودفع الشبه، وأما الاهتداء بذلك فليس موكولا لهم، ذلك أن الله وحده هو الذي بيده الهداية، فييسر الأسباب لمن أراد له الخير، ويحرم منها من كتب له الحرمان، دون أن يجبر الضال على الضلال أو يلجئه إليه، ولا أن يجبر المهتدي على الهداية.

**سادسا:** حوصلت الآية 272 ( وما تنفقوا من خير فلأنفسكم...) أثر الإنفاق في بناء الفرد، فقررت أن البذل يعود بالصلاح على المنفق أولا، لأنه يستل، بمواصلة العمل به، داء الشح من نفسه، ولأنه يسمو في درجات الكمال النفسي، ولأنه يؤكد حب الناس له وسعيهم لعونه، وتحوله من النظر القريب القاصر إلى امتداد بصيرته إلى جزائه يوم القيامة بإدخال عنصر هام يقترن بالإنفاق وهو قصد الطاعة لله. وتؤكد الآية في خاتمتها تحقق الجزاء كاملا غير منقوص، بأن الله تكفل بإعطاء المنفق وفاء ما بذله ولا ينقص منه شيء.

## 273-للفقراء...به عليم.

سابعا واصل قوله تعالى ( للفقراء الذين...) التنصيص على إيتاء الصدقات الفقراء من هذا النوع الخاص: وهم الذين أحاطت بهم ظروف قاهرة منعتهم من السعي في طلب الرزّق، من الذين محضوا أنفسهم للجهاد وإعلاء كلمة الله والدفاع عن الأمة، ومن الذين عوّقتهم جراحات القتال فعجزوا عن التنقل في طلب الرزّق، ومن

الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم فعجزوا عن تدبير متطلبات الحياة كالمهاجرين الأولين من مكة إلى المدينة واللاجئين في كثير من مناطق الحروب. وهم على قدر كبير من عزة النفس، يتورعون عن سؤال الناس. بل إن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء بسبب تنزههم عن التعرض للمسألة يترفعون عن مد أيديهم للسؤال فضلا عن أن يبالغوا في الطلب، ولكن الحاجة التي هم عليها لا يستطيعون معها أن يخفوا حالهم من الخصاصة، فعلاماتها تدل على وضعهم لمن يتأمل في أحوالهم. وهو حث للمؤمنين على أن يسعوا للتعرف على هذا النوع العزيز من الناس فيسعفونهم ويمدون لهم يد العون. ويؤكد القرآن على الجزاء المرتقب لأن الله لا يخفى عنه ما تقومون به من خير، فهو يعلمه. وعلمه الذي لا يغيب به عنه كبيرة ولا صغيرة ولا ظاهر ولا باطن، يفتح باب الأمل في رضوانه.

### 274-الذين ينفقون...ولا هم يحزنون.

ثم أكد هذا المعنى بأن الذين يتولون إنفاق أموالهم في جميع الأزمان لا يختلف الليل عن النهار، وفي كل الصور من السر الذي لا يعلمه أحد إلا الله ومن العلانية ، لهم أجرهم ثابت عند من لا تضيع الودائع عنده. يضمن لهم أنه يؤمنهم، فهم مطمئنون إلى حسن العاقبة في الآخرة وإلى العون والمدد الإلهي في الدنيا. ولا هم يحزنون عما فات من أموالهم لأنهم واثقون من أنها ستضاعف لهم عند ربهم وتحصنهم في حياتهم.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو

عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

**بيان معنى الألفاظ**

**يأكلون الرّبا:** يستحوذون على ما يدره عليهم الرّبا.

**يتخبطه:** يهزه هزا عنيفا.

**المس:** مس الجن، الجنون.

**موعظة:** النصح ببيان العواقب.

**سلف:** مضى وفات.

**يمحق:** يذهب فلا يبقي له أثرا.

**يربي:** ينمي.

**فأذنوا:** اعلموا حتى لا يباغتكم ما سيحصل.

**رؤوس أموالكم:** أصول أموالكم.

**عسرة:** العجز عن الوفاء بالدين.

**النظرة:** التأخير.

**ميسرة:** اليسر بوجود المال.

**توفى:** أوفى فلانا حقه أعطاه إياه تاما.

**بيان المعنى الإجمالي:**

الذين يلتهمون الرّبا بشراهة يفقدون التوازن فهم مضطربون كشأن الذي يحركه الشيطان حركة عنيفة من مس الجن. هذا جزاء تلبيسهم بقولهم: إن الرّبا والبيع لا اختلاف بينهما، فلما كان البيع حلالا فكذلك الرّبا. وهذه التسوية باطلة، لأن الله المختص بالتصرف في ملكه أحل البيع وحرم الرّبا. وليس لأحد أن يغير أحكامه. إن من تأمل في أمر ربه وأطاعه حذرا من سوء العاقبة، وتاب فأقلع عن التعامل بالرّبا فإن رحمة الله تشمله. ولا يؤاخذ بما سبق أن أخذه من مال الرّبا الحرام. وأما من عاد إلى التعامل بالرّبا بعد أن بلغه حكم الله فيه فإن مصيره إلى عذاب النار يوم القيامة لا يفارقها ولا تفارقه. ويهدد القرآن المتهالكين على الرّبا بأن الله قدّر تقديره النافذ أنه سيذهب بما تحصل عليه المرابي من أموال. وفي المقابل قدر أن ينمي أموال المتصدقين ويبارك لهم فيها فيعوضهم أكثر مما أنفقوه. والطاعة تفضي بصاحبها إلى القرب من الله، والكفر وما يزينه لصاحبه من المعاصي وارتكاب الآثام يفضي ذلك إلى إبعاد صاحبها عن منازل القرب والكرامة والحرمان

من التوفيق والألطاف التي تعين على فعل الخير. وبالمقابل فإن الذين آمنوا والتزموا في حياتهم فعل الخير وأدوا صلواتهم في أوقاتها على أتم الوجوه، وبذلوا عن طواعية زكاة أموالهم، إن أجرهم ثابت لا يضيع شيء من جزاء صالح أعمالهم، ويثبّت الله الأمن في قلوبهم فلا يحل فيها الخوف من المستقبل ولا الحزن والأسف على ما مضى. ثم يوقظ الله المؤمنين، مؤكدا التزام تقوى الله، بما يصحب التقوى من الكف عن متابعة التعامل بالرّبا الذي يتناقض مع الإيمان. ثم توعدت الآية الذين يواصلون التعامل بالرّبا بالحرب التي يأذن الله بتسليطها عليهم، وبتكليف الرّسول بإبلاغ أمره بمحاربتهم. قررت الآية أن من تاب من المتعاملين بالرّبا فحقه أن يقبض أصل المال الذي بذله دون زيادة. والزيادة ظلم من المرابي، كما أن من تاب يستحق أصل ماله كاملا بدون مماطلة. إذ النقص من أصل المال أو المماطلة ظلم لمن كان مرابيا. وإذ ا كان المدين معسرا لا مال له يوفي منه دينه فعلى الدائن أن يؤخره حتى يتيسر حاله. وأن يتكرم الدائن للمعسر فيعفيه من دينه، خير وأفضل في تمكين الود بين الجماعة وما يتبع ذلك من الثواب.

وختمت آيات الرّبا بوعظ يشمل جميع الناس كي يصونوا أنفسهم في اليوم الذي يعودون فيه لعرض حسابهم عند الله، مجردين مما كانوا يتقوّون به في حياتهم الدنيا. هو يوم القيامة، الذي ستجد فيه كل نفس جزاءها كاملا عما قدمت، حكما عادلا لا يظلم فيه أحد.

### بيان المعنى العام:

### 275-الذين يأكلون الرّبا...أصحاب النار هم فيها خالدون.

اعتنت الآيات السابقة بتوضيح ما يتعلق بالإحسان والصدقات مما فصلنا القول فيه خلال بيان المعنى العام. ويقابل أولئك الصالحين الذين سمت نفوسهم فأشركوا إخوانهم فيما آتاهم الله من فضله، يقابل هؤلاء قوم استولى عليهم الجشع وحب المال فتقطعت الأسباب التي تربطهم بأعضاء المجتمع الذي يعيشون فيه، كل همهم الاستحواذ على المال بجميع الطرق، فأبرزت الآية صورتهم المشوهة بأخذهم للربا في شراهة بالغة ، ونهم عنيف، بمن يأكل الرّبا أكلا. ثم زادت تشويها وتنفيرا من وضعهم ومآلهم، بأنهم كلما أرادوا القيام كانوا كالمصروع الذي هزه الشيطان هزا عنيفا فاضطربت حركاته، يسقط كلما حاول أن يتقدم. يمكن أن تفهم الآية على أنها تقدم صورة لأكلة الرّبا في الدنيا، هذه البلية العظمى التي عمت البشر في عصرنا هذا، فاضطربت أحواله العامة والخاصة. تتوالى الأزمات الاقتصادية فتهز العالم كله هزا عنيفا، وتضطرب مسيرة أعظم القوى الاقتصادية ، ويبدو المستقبل غامضا

رهيبا، ولا تجد الجواب عند أحد. ووضع الأفراد ليس أسلم من الوضع العام. ضغط المرابون على عامة الناس فسلبوهم أمنهم واستقرارهم، وفشت الأمراض النفسية. تلاحظ بوضوح أنه كلما كانت مظاهر الرفاه الاقتصادي أقوى كلما تضاعف القلق النفسي والحيرة في تلكم المجتمعات، وتضاعف عدد المنتحرين بعد أن خنق ضغط المرابين الأمل الذي يعطي للحياة معنى وقيمة. كما يمكن أن تكون الآية تقدم تصويرا لوضعهم الأخروي، فالمعنى أنهم عندما يبعثون يوم القيامة يخرجون من قبورهم تضطرب حركاتهم في غير تناسق كلما قاموا سقطوا، وهكذا يسيرون في المحشر إلى المصير الذي ينتظرهم. وجشع المرابين أعماهم عن تبيُّن الحقيقة واختلط عليهم الأمر حتى صرحوا بأنه لا فارق بين البيع والرّبا. شبهتهم التي أفسدت عقولهم، أنه كما يتحصل البائع من صفقته ربحا رضي المشتري ببذله، فكذلك المرابي يستفيد من صفقته الزيادة التي رضي بدفعها المقترض أو الطالب للتأخير. ويأتي الجواب جازما حازما رادا لضلالتهم: إن الله، الذي هو مالك الكون، أحل البيع وحرم الرّبا. وهذا دليل عام يجب أن تخضع له الرّقاب وتتقبله العقول والأرواح بالإذعان، وتسير العمليات الاقتصادية في مختلف صورها داخل الحدود التي حددها مالك المال ومالك صاحب المال. وهذا ما يقتضيه منطق العقل. ومن ناحية أخرى فإن ما يحصل عليه المرابي من الزيادة يختلف اختلافا جذريا عما يحصل عليه بالتجارة

**أولا:** صفقات البيع معرض فيها المشتري للربح والخسارة، بينما المرابي رابح دائما، والمقترض خاسر دائما للزيادة، فانتفى العدل بين نوعي الصفقتين.

**ثانيا:** في صفقة البيع يحصل المشتري على السلعة التي يرغب في امتلاكها، إما للانتفاع الشخصي أو ليتاجر بها. أما المال الذي يقترضه أو الذي يمهله المرابي مدة مقابل الزيادة، فإن الطرف الضعيف اقتطعت منه زيادة الرّبا لا في سلعة وإنما في بقاء المال عنده زمنا. والمال ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة، فترتيب الزيادة على ذلك قلب للأوضاع، وتصبح الوسيلة غاية.

**ثالثا:** إن التأمل في ما يحصل للطرفين يعطينا النتيجة التالية: أن المرابي تزداد ثروته يقينا، لأن جميع الصفقات التي يعقدها، ربحه مضمون فيها. وفي المقابل فإن الساعين لتحقيق الكسب بالفلاحة أو الصناعة أو التجارة، معرضون للربح أو الخسارة. ومن البدهي أن من تكون صفقاته تضمن له الرّبح دائما هو الذي يجمع في النهاية أكبر قدر من الثروة، فتنحسر الأموال من حاصل الإنتاج إلى جيوب المرابين.

رابعا: إن نشاط التجار والفلاحين وأصحاب المصانع والعاملين بالفكر أو بالساعد يضيف للثروة الإنسانية إضافات تبرر لكل واحد ما يحصل عليه، وتدفعه لمزيد من البذل والعطاء. أما المرابي فإنه لا يضيف للثروة شيئا و لا يكد ذهنه إلا لاصطياد العاملين، فيكبلهم بشروطه الثقيلة التي تضمن له الفائدة قبل رأس المال. وإذ تبين الحق من الباطل، ولطف الله بعباده ففتح بصائرهم وارتفع اللبس بما أنزله من وحي ووضحت النصيحة بالابتعاد عن الرّبا، فمن اهتز قلبه لما نزل من تحريم الرّبا وأقلع وتاب، له ما تم قبضه قبل أن ينزل الحكم النهائي ولا إثم عليه فيما سبق له أن أكله من الرّبا. والتهديد لمن كانت عزيمته غير صارمة فعاد إلى التعامل بالرّبا، تهديد ه بالخلود في النار.

## 276-يمحق الله... كفار أثيم.

يتهدد القرآن المرابين، الجاهلين بما يكون عليه الحال في المستقبل، المندفعين إلى جمع أكثر ما يمكنهم جمعه من مال ادخارا لحوادث الزمن وتقلبات الأيام، يهددهم بأن الله سيمحق الرّبا ويمحو ما جمعوه منه، وسوف يذهب الرّبا بالفائض والأصل معا، فلا يجدون منه شيئا عند الحاجة. وفي المقابل فإنه سبحانه سيبارك للمتصدقين، ويفتح لهم أبواب الرّزق، ويخلف عليهم ما قدموه من عون. وهذه سنة من سنن الله في الكون، جرى أمره أنه لا يكرم الكافرين الملوّثين بالآثام، وهو معنى نفي الحب من الله لهم.

## 277-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ولاهم يحزنون.

ثم تحيي الآيات التربية التي غرسها القرآن في قلوب المؤمنين ومشاعرهم حتى تكون ناصعة في الضمائر تنير السبيل وتحمي من الانزلاق، فيسجل الصورة النقية للنمط الرّفيع من البشر في خطوطها الكبرى التي يتفرع عنها كل خير:

1) الإيمان

2)الالتزام بمقتضياته في السلوك بالقيام بصالح العمل الذي يرضى عنه الله باطنا وظاهرا -

3) أداء الصلاة على الوجه الكامل المحرك للضمير الذي يطوع الفرد لعمل الصالحات ويظهر منه آثار الخشوع في فترة المناجاة -

4) والطوع عن رضى بإيصال حقوق الفقراء في مال الواجدين.

ثم تظهر الآية النتيجة في إطار رفيع بارز: أن ما قدموه مسجل لا يضيع من جزائه وأجره شيء مضمون عند من تولاهم بهدايته وعنايته (عند ربهم ) وفوق ذلك أنهم يجدون الأمن والطمأنينة في نفوسهم، هم واثقون من فوزهم فلا يخافون

حدوث مفاجئ في المستقبل، ولا هم يندمون على ما مضى ولا يحزنون على ما فات.

### 278-يا أيها الذين آمنوا... إن كنتم مؤمنين.

ثم تتوجه العناية القرآنية بالمؤمنين ليحصنهم من الرّبا، المارد المفسد للبشرية، هذا المارد الخبيث الذي يلتف بمظاهر براقة تغري به، فالثروات الكبرى هي بين يدي كمشة من المرابين، والحياة الناعمة في مظهرها النابعة من ذلكم الوفر المالي، والحصول عليه بغير تعب ولا جهد تندفع الشهوات لتتمرد على نداء العقل والضمير، فيوقظ القرآن المؤمنين بهذا النداء النافذ إلى أعماق النفس المحرك لمشاعرها: اتقوا الله، تقوى الله هي الحصن الذي إليه تلجؤون، عودوا إلى الفطرة التي فطركم الله عليها، طهروا أموالكم من رجس الرّبا، واتركوا ما بقي منه. وإذا كان لا يحل لكم أن تأخذوا ما بقي لكم من العقود الرّبوية فمن باب أولى أن لا تنشئوا عقودا تشتمل على هذا الخبث. استيقظوا إلى أن التعامل بالرّبا يهز الإيمان ويبرز المرابي في صورة فاقد الإيمان.

### 279-فإن لم تفعلوا... ولا تظلمون.

معصية الرّبا معصية عظيمة، والمتلوث بالرّبا معرض لحرب من الله، ومن رسوله، أعلم الله بذلك المرابين. حمل معظم المفسرين الآية على السبب الذي نزلت فيه: ذلك أن قبيلة ثقيف بالطائف كانت لها ديون على قريش، أهل مكة، فاشترطوا لدخولهم في الإسلام أن ما عليهم من الرّبا مطروح وما لهم على أهل مكة من ربا ثابت غير ساقط. واجتهد رسول الله ﷺ ، وكان من رأيه أن دخول قبيلة ثقيف فيه قوة للإسلام، وأنه لم يبح لهم الاستمرار على التعامل بالرّبا ولكن قبل منهم أن ما تم عقده قبل الصلح يمضي إلى نهايته، ولكن تحريم الرّبا هو من الثوابت في الإسلام، وأن استئصال هذا الورم الخبيث لا مجال فيه للاجتهاد، ولا يمكن قبوله بأي وجه من الوجوه قصرت الفترة أو طالت. فجاء الحكم الفاصل من الله :أن الصلح مع الرّبا منقوض. روي أنه لما نزلت الآية قالت ثقيف: لا يدي لنا بحرب لله ورسوله (أي لا قدرة لنا على محاربة الله ورسوله) فطاعوا بالانكفاف عن الرّبا وطرح ما لهم من الرّبا. وطوي ملف الرّبا.

ويمكن أن يحمل الأمر على ما قدره سبحانه من هلاك للبشر الذين يتعاملون بالرّبا، فالحروب التي أكلت الأخضر واليابس، والتي لا تكاد تنطفئ من مكان حتى تشتعل في مكان آخر، والظلم الفاشي والاستبداد المنتشر، والاستحواذ على حقوق

الشعوب، والفقر، وذهاب الطمأنينة من حياة الناس رغم ما تكدس من متنوع الخيرات ،والهزات في أسواق المال التي لا تهدأ قليلا حتى تعود إلى الظهور بوجه كالح وعنف أكبر، لا ينفك كل ذلك، مع التعمق في الأسباب والمؤثرات، عن فعل جرثومة الرّبا، هي حرب الله على الرّبا وعلى المروْجين له.

### 280-وإن كان ذو عسرة... تعلمون.

ويقدم القرآن الوصفة التي يعالج بها الفساد الذي استشرى في التعامل والقسوة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي فيبينها فيما يلي :

**الأول** :التوبة بالعزم المؤكد على ترك الرّبا، والرّفض لهذه الخطيئة والاشمئزاز منها.

**الثاني**: الاقتصار على أخذ المرابي رأس ماله الذي بنيت عليه المعاملة، ويتنازل عن كل زيادة في مقابل الزمن. هذه الزيادة التي هي ظلم وأخذ للمال بالباطل. ومن ناحية أخرى فإذا كان القرآن حرم ظلم المرابي بأخذ الزيادة فكذلك حرم على المدين أن يظلم المرابي بالمماطلة بعد طرح الفائدة.

**الثالث**: أن يعامل الدائن المدين معاملة إنسانية عند حلول أجل الدين، فهو مطالب، على سبيل الوجوب، أو على سبيل الندب أن يؤخر المدين إذا كان وقت حلول الدين لا يملك ما يقضي به دينه.

**رابعا**: أن الكمال في التحلي بالقيم الإنسانية الرّفيعة: أن يعفو الدائن عن المدين إذا كان معسرا وأن يتصدق عليه بما هو في ذمته من الدين. ويتحقق أجر الصدقة وإن كان حين تمكينه من المال لم ينو التصدق عليه

### 281- واتقوا يوما ترجعون لا يظلمون.

وجماع الخير، والمنهج الرّاشد، والحصن للإنسان في معاملاته كلها، أن يكون مستحضرا دوما لتقوى الله، وأن يحذّر الجزاء في اليوم الذي يعود فيه إلى ربه بلا مال ولا أهل ولا جاه. كل الناس يصيرون إلى ربهم ويرجعون إلى حكمه العادل النافذ، وتستوفي كل نفس حساب ما قدمت لا ينقص شيء مما قدمته في حياتها، ثم إنه لا يبخس أي فرد في ثواب أعماله، لأن الله هو الحكم العدل الذي لا يظلم أحدا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ

وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**مسمى:** معين.

**العدل:** الحق.

**ليملل:** إلقاء كلام ليُكتب مطابقا لما سمع.

**يبخس:** يغبن، لا يخفي شيئا يترتب عليه نقص.

**السفيه:** مختل العقل.

**الضعيف:** الصغير.

**الذي لا يستطيع أن يمل:** الذي لا يستطيع أن يمل لبكم ونحوه.

**أن تضل:** أن تنسى.

**ولا تسأموا:** لا تملوا.

**الصغير والكبير:** الجليل والحقير.

**أقسط:** أشد عدلا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

حاجة الناس للاستدانة حاجة عامة، وحرصُ الإسلام على أن يحتاط الدائن والمدين احتياطا ينفي احتمال وقوع النزاع أمر أساس في بناء العلاقات. فهدت الآية إلى

الطريق الأرشد في هذا المقام. نادى المؤمنين أن يوثقوا الدين بوثيقة مكتوبة يتحدد فيها المقدار والأجل. وأمر الكاتب الذي طلب منه الكتابة أن يستجيب ويقوم بكتابة الدين مراعيا الحق فلا يظلم الدائن ولا المدين، ونهت الآية الكاتب عن الامتناع من الكتابة، كتابة تبين الحق مراعيا ما تفضل الله على الكاتب لما علّمه طريقة توثيقه وأكدت الأمر بالكتابة (فليكتب) . وبينت الآية الطريقة المثلى في كتابة الدين: أن الذي يتولى الإملاء على الكاتب الموثق هو المدين، وحركت خوف الله في قلبه عند الإملاء فلا ينقص شيئا من حقوق الدائن. وإذا كان المدين غير قادر على الضبط إما لخفة عقله، أو صغره، أو عجز في حواسه، فإن وليه هو الذي يُطلب منه أن يقوم بضبط ما على منظوره فيمليه على الكاتب مراعيا الصدق والحق. وطلبت الآية أن تؤكد وثيقة الدين بالإشهاد. واشترطت في الإشهاد أن يكون باثنين فأكثر ذكرين مسلمين، أو برجل وامرأتين، وأن يكون الشهود من الاستقامة بدرجة يرضى الخصم بشهادتهم ولا يرفضهم القاضي. وعللت الآية مقابلة شهادة الرّجل بشهادة امرأتين، بالحرص على حفظ الحقوق، إذ المرأة في معظم المجتمعات القديمة لا تحضر صفقات العقود، فقصرت ثقافتها في باب المعاملات عن الرّجل، وتبعا لذلك قد يعرض لها النسيان لبعض ما جاء في العقد من ضوابط، فطلب أن تتقوى بثانية لتتولى كل منهما مساعدة الأخرى في ضبط ما يمكن أن تنساه صاحبتها، فكل واحدة منهما مذكِّرة (بكسر الكاف) ومذكَّرة (بفتح الكاف). ونهت الآية من يطلب منه تحمل الشهادة أو أداؤها، أن يمتنع من القيام بهذه المهمة حفظا للحقوق. كما نهت المتعاملين عن التهاون بكتابة الدين بعامل الملل والكسل، سواء أكان الدين حقيرا أو جليلا، وعليهم أن يضبطوا الأجل. وعنيت الآية بتأكيد هذا النظام الذي تعرضت له الآية بتعليله بأنه أقرب لتحقيق العدل، وأعون على إقامة الشهادة، وأقرب إلى نفي الرّيبة والشك. واستثنى من ذلك، رغم التأكيد، التجارة التي تدار حاضرة، أي لا دين فيها، أن تتم الصفقة بدون كتابة لما في كتابتها من الحرج. ثم أكدت الآية الأمر بالإشهاد ليرتب عليه أن الشاهد ومثله كاتب وثيقة الدين يؤديان خدمة للمجتمع هي إقامة العدل. فلا يقبل أن يتسبب قيامهما بهذه المهمة أن يلحق بهما أي ضرر كان، كما أن عليهما أن يحرصا على عدم الإضرار بأحد طرفي العقد. وحذرت الآية من عدم تطبيق هذا التشريع في نظامه المتكامل، بأن ذلك يلوث المتخلي عنه بالفسق والخروج عن منهج الإسلام. وحثتهم على تقوى الله، وذكرت بأن الله هو الذي تولى تعليمهم فأخرجهم من البداوة والجهل. والله سبحانه هو العليم الذي يشمل علمه ما يتوقعه

الإنسان وما لايتوقعه. ثم تعرضت الآية لصورة أخرى يمكن أن يتعرض لها المتعاملان، وهي أن يكونا مسافرين ولا يوجد كاتب ولا شهيد. فالطريقة لنفي الخصام في المستقبل واطمئنان المتعاملين هي أن يأخذ الدائن من مدينه رهنا توثقة بحقه، يعيده إلى صاحبه عند خلاص الدين. وصورة أخرى أن يكون بين المتعاملين من الخلطة والاطمئنان ما يرفع توقع أي إشكال في المستقبل، كالصديق مع صديقه الملاطف، والوالد مع ولده، ففي هذه الحالة يذكرهما القرآن بأنه لا يجب عليهما، والحالة تلك، أن يشهدا أو يكتبا وثيقة الدين أو أن يقبض الدائن رهنا، وكل طرف مأمور بأن يسلم للطرف الآخر ما التزم به ، وائتمنه عليه. ونهت الآية في الختام عن كتمان الشاهد لشهادته، لما يتسبب عنه من ضياع الحقوق، وحذرت من هذه المعصية باعتبار أنها تلوث قلب الكاتم، الذي لا يفلت من العقاب، لأن الله لا تخفى عليه خافية.

**بيان المعنى العام:**

**282-يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم... بكل شيء عليم.**

حذرت الآيات السابقة من آفة الرّبا وكشفت عن مساوئه. والرّبا مرتبط بالدين في معظم أحواله. فكان من حكمة القرآن أن عقب النهي عن الرّبا بفك الارتباط المتوهّم بين الرّبا والتداين.

أطلق على هذه الآية: اسم آية الدين. وهي أطول آية في القرآن. تقوم على المقومات التالية:

**الأول:** تشريع الدين باعتباره حاجة لا يستغني عنها المجتمع، إذ تتحقق به مواساة الواجد بقرض المحتاج الذي ينتظر حصول المال في المستقبل. وهو وسيلة لترويج التجارة لمن سيملك الثمن، فلا يحرم من تملك ما يرغب في اقتنائه لنفسه أو لعائلته، دون إرجاء ذلك إلى التحصيل الفعلي على الثمن.

**الثاني:** توفر الضمانات التي تيسر اعتماد التداين مع الطمأنينة دون خوف بتفصيل أنواع التوثق.

**الثالث:**مراعاة ما يضمن نفي الخصام في المستقبل.

**الرّابع:** مراعاة العدل والحق في جميع المراحل. وذلك ما سنفصله فيما يلي: نداء الله للمؤمنين أنه شرع لهم التداين ولم يحرمه عليهم. ورتب سبحانه ما يكون به هذا التعامل محققا لمصلحة الأفراد والأمة. وذلك بتطبيق تشريع الدين واحترام المبادئ التي تضمنتها الآية والتي نفصلها فيما يلي:

**أولا:** أن الإسلام لا يمنع التداين، ولا يحرم من كان في ضائقة مالية أن يعمر ذمته بالتزام قضاء ما التزم به، من قرض أو من ثمن سلعة، في المستقبل. سواء أكان ذلك لقضاء مآربه الشخصية والعائلية، أو ليتاجر ويستثمر. وأكدت السنة النبوية على المدين أن يعزم عند عقد الدين على الوفاء بالتزامه.

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من داين الناس بدين يعلم الله منه أنه حريص على أدائه كان معه من الله عون وحافظ. قالت: وأنا ألتمس ذلك العون. وروى الإمام مسلم[1] في صحيحه بسنده إلى أبي قتادة، أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ: أنه قام فيهم فذكر لهم: أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم ! إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف قلت ؟ قال: أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله أتكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم! وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر **إلا الدين** فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك[2]. فافتتحت الآية بقوله **إذا تداينتم بدين**، فالقرآن يقر التداين ولا ينفر منه ويسجل أنه ظاهرة محققة ومتكررة في التعامل بين البشر.

**ثانيا:** أن على المتعاملين بالدين أن يضبطوا الأجل الذي يكون عنده وفاء المدين بدينه فقال: **إلى أجل مسمى** – يكاد يكون لوضوحه ودقته حاملا لاسم يتميز به. وذلك نفيا للاختلاف وما ينشأ عنه من خصام.

**ثالثا:** أن يسجلوا الدين بالكتابة في وثيقة تكون المرجع بين الطرفين والحجة التي يتم العود إليها فقال تعالى: **فاكتبوه** – وهذه صيغة أمر يمكن أن تحمل على الاستحباب، ويمكن أن تحمل على الوجوب. وحملها على الوجوب أولى، وذلك لما في الإلزام بالكتابة من قطع أسباب الخصام قطعا تاما، ولأنه إذا كان واجبا فإنه لا يتحرج الدائن من التمسك بكتابة الدين لأنه طاعة لواجب. وقد اعتنت الآية عناية بالغة بوثيقة الدين لتؤدي وظيفتها في التوثق أداء جيدا. وهذا ما يحتم العناية بالتوجيه الإلهي المتضمن ما يلي:

أ: أن يتولى الكتابة شخص ثالث إذا كانا جاهلين بالكتابة أو كان أحدهما لا يحسنها. وحرك القرآن عامل الإيمان الذي ينطوي عليه الكاتب، الإيمان الداعي

---

[1] ج6 ص350.

[2] إكمال الإكمال ج 5ص227/228

للصدق والأمانة. وكون الكاتب طرفا ثالثا عند جهل أحدهما أمر الكتابة، هو لدفع الرّيبة عندما يتولى أحد طرفي العقد الكتابة ويكون الطرف الآخر جاهلا، لما يمكن أن يُحدّث الجاهل به نفسه أن الطرف الآخر يسجل ما هو أصلح له.

ب: أن يراعي الكاتب العدل فلا ينحاز لطرف فيوثق له حقوقه، ولا يعتني بالآخر متساهلا في توثيق حقوقه، فضلا عن التدليس والتبديل.

جـ: نهت الآية من كان قادرا على توثيق الحق عن الامتناع من القيام بأمر التسجيل. وهل الامتناع محرم أو مكروه، أو ينظر هل تعين القيام به لتفرده بالقدرة على التوثيق فيجب مع التعين ويندب مع عدم التعين؟ اختلف الفقهاء في ذلك. ولما كان في الحياة المدنية في معظم أقطار الأرض، تُعَيّنُ الحكومات من يقوم بهذه المهمة فإن النهي ينصرف لهم خاصة، فيحرم على من تهيأ لذلك بإذن من الحكومات أن لا يستجيب عندما يطلب منه.

د: أن يتذكر الكاتب أن الله تفضل عليه فيسر له أمر التعلم فلا يمتنع من التوثيق، وليتذكر أيضا أن الله علمه الحق لا الباطل فليحتر عند كتابة الوثيقة أن يظلم أحد المتداينين. **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله.**

هـ: إن الذي يتولى إملاء نص الوثيقة هو المدين الطرف الأضعف، ومن حكمة ذلك أنه لو أُوكلتْ مهمة الإملاء للدائن وزاد في الحقوق الرّاجعة إليه، فقد يضطر المدين للسكوت خوفا من إلغاء العقد الذي هو في حاجة إليه. وهذا ما هو منتف عندما يملي المدين.

و: تُذكّر الآية المملي (المدين) بأن عليه أن يستحضر في نفسه عند الإملاء ما تفرضه التقوى من الصدق والابتعاد عن التحايل، وأن لا يغبن الدائن في صغير ولا كبير، وأن لا يستعمل العبارات الموهمة أو القابلة للتأويل.

ز: احتاط التشريع للوضع الذي يكون فيه المدين صغيرا أو ضعيف العقل أو به عاهة تعوقه عن الإفصاح، فقرر أن من يتولى أمره في الحياة هو المقدم في الإملاء، مراعيا الحق فلا يبخس من حقوق المدين ولا الدائن شيئا قل أو كثر.

**رابعا:** أن يضموا إلى وثيقة الدين على الصفة المذكورة الشهادة على الدين.

وطلب الشهادة كما يدل عليه **(واستشهدوا)** يحتمل الوجوب أو الاستحباب. وبينت الآية خصائص هذه الشهادة لتكون مؤدية للغرض من إقامتها فمن ذلك:

أ- التعدد: رجلان، لأن التعدد يؤكد الثقة بصدق الشهادة وينفي الرّيبة فيها.

ب - الإسلام: ذلك لأن ما يحمله المسلم في قلبه من خشية الله وعبادته وحده يقوم منذيا باطنيا بالتزام الحق. وأما معظم غير المسلمين فإنه لا يُطْمَأَنُ إلى صدقهم

عندما يتعلق الأمر بنفع للمسلمين. وكون بعضهم قد ينصف المسلمين لا يطعن فيما قررناه، لأن الأحكام تبنى على الغالب. والإذاية المنصبّة على ديار الإسلام قديما وحديثا شاهد صدق على ذلك.

جـ: التيسير على المتعاقدين: بجعل شهادة رجل وامرأتين مساوية لشهادة رجلين. وبرر التشريع تسوية الرّجل بالمرأتين، بأن الذي كان يجري عليه الأمر في المجتمعات إلى زمن قريب: أن الأنثى لا تحضر مجالس المعاملات فكانت ثقافتها في هذه الناحية محدودة. وهو ما يجعل احتمال تعرضها لنسيان بعض خصائص عقود المداينة أمر وارد. فبشهادة اثنتين تتولى كل واحدة منهما تذكير الأخرى ما يمكن أن يفوتها ضبطه فيتكاملان. فكل واحدة منهما مذكِّرة ( بالكسر) ومذكَّرة (بالفتح) ويتحقق بذلك الحفاظ على الحقوق.

د: على صاحب الحق أن يتخير لتحمل الشهادة من يكون جامعا للصفات التي تجعل القاضي يقبل شهادته، ولا يرفضها، وكذلك المدين يرضاها ولا يطعن في ثقة صاحبها. وهو معنى قوله تعالى: **ممن ترضون من الشهداء**.

هـ: تحميل المجتمع مسؤولية المساعدة على ضبط الحقوق بتحمل الشهادة وأدائها. وحكم الامتناع عن تحمل الشهادة حرام إذا تعينت، وكذلك حكم أدائها إذا تعينت ولم يحصل ضرر للشاهد. ومع تقدم المجتمعات أسندت التنظيمات تحمل الشهادة وأداءها إلى قوم مخصوصين، فلا يتوجه الطلب على غيرهم إلا في الحالات النادرة عندما لا يمكن إشهاد من انتصب لذلك.

**خامسا**: حرصت الآية من جديد على توثيق الدين بالكتابة، وخاصة الأجل الذي يجب فيه أداؤه، وعللت ذلك بأنه هو الطريق المحقق للعدل الذي ألزم الله به عباده وجعله مقصدا من مقاصد التشريع. ولأن الكتابة أيضا تساعد على إقامة الشهادة، والكتابة تنفي الرّيب والشكوك في المستقبل.

**سادسا**: من التيسير الذي راعاه القرآن في نظامه المذكور سابقا، أنه إذا كان التعامل بالتجارة الحاضرة التي يتداولها التجار بينهم، وفي توثيق كل صفقة حرج، أنه لا إثم عند ترك التوثيق والإشهاد.

سابعا: شرعت الآية الإشهاد عند التداين، والترخيص في عدم الإشهاد إذا كان العقد تجارة حاضرة. وشرع هذا المقطع من الآية **(وأشهدوا إذا تبايعتم )** الدعوة إلى الإشهاد على البيع في غير التجارة كبيع الدور والأرضين.

**التحصين للتشريع:**

حصّن القرآن هذا التشريع بمراعاة أمرين يفضي عدم توفرهما إلى ضياع التنظيم الإلهي الذي سبق تحليله:

**أولهما:** الحرص الكامل أن يعامل الكاتب والشهيد معاملة طيبة تنفي أن يلحقهما أي نوع من أنواع الضرر. فأبرزت الآية أن التهاون بحقوقهما فسوق وإثم عظيم. ذلك أن التراخي في حصانتهما يفضي إلى امتناع الصالحين للشهادة والكتابة من القيام بهذه المهمة النبيلة خوفا من الضرر، فتضيع الحقوق.

**ثانيهما:** النور الهادي للاستقامة على الطريق، والتطبيق الصالح في الظاهر والباطن للتشريع، وذلك بالتقوى التي هي يقظة الضمير والعقل معا، يقظة تجعل المكلف يتحكم في هواه ويبذل جهده لتطبيق شرع الله. ويمن الله على هذه الأمة بأنه تولى تعليمها ما يصلح أمرها في الدنيا والآخرة، وهو التعليم الذي لا يشوبه نقص ولا عوج، لأنه تعليم الله الذي يعلم بواطن الأمور وظواهرها وحاضرها ومآلاتها القريبة والبعيدة. **واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.**

تعرضت خاتمة هذه الآية **وإن كنتم على سفر. . . .** لهداية الأمة في حالات قد تعرض لبعض أفرادها أو في بعض أحوالها، فأكملت التعليم في ضبط الحقوق ونفي ما يوجب الخصام في المستقبل. *وذلك بما يلي:*

**أولا:** إذا وقع التداين في السفر، ولم يتمكن المتداينان من الكتابة والإشهاد، فإن ترك الأمر كذلك قد يصحبه إما الإعراض عن العقد، وإما أن تذهب طمأنينة الدائن بأحاديث النفس. فدلت الآية على الحل الذي يقبله التشريع الإسلامي ويتمثل ذلك في: أن يقدم المدين رهنا للدائن، الشأن فيه أن لا تبعد قيمته كثيرا عن قيمة الدين، يتراضيان عليه ويطمئن الدائن بأن له مرجعا يعود إليه لاستخلاص حقه عند عجز المدين عن الوفاء. أن يكون هذا الرّهن مقبوضا. فإذا وعد المدين بتقديم الرّهن ولم يعقبه القبض إلى أن فلس المدين، فإن الدائن لا يستقل بالرّهن الموعود به ويعتبر كواحد من الغرماء يستحق حصته في المحاصة. أن الرّهن كما يجوز في السفر فكذلك لا مانع منه في الحضر.

**ثانيا:** إن كل ما سبق من الكتابة والإشهاد والرّهن وتفاصيل ذلك، شرعه الله لنفي الخصام حتى تبقى وحدة الأمة مرعية. ولذا فإنه إذا كان الارتباط والصلات محكمة بين المتعاملين، بصفة ربما تتزعزع لو تحتم طلب الدائن بالكتاب أو الإشهاد أو الرّهن، لأن كلا منهما يأتمن الآخر ولا يخشى منه إنكارا وهذا كحال الولد مع أبيه مثلا أو الزوج مع زوجه، أو الصديق الملاطف شديد الارتباط، ففي حال تحقّق

ائتمان كل طرف للآخر يسقط ما كان مطلوبا من مختلف أنواع التوثق. ويأمر الله أمرا جازما من ائتمنه المتعامل معه أن يؤدي الأمانة التي ترتبت في ذمته كاملة، وليستحضر في قلبه تقوى الله حتى لا يوسوس الشيطان في نفسه أن دائنه ليس له عليه حجة، فيجحد الحق كله أو بعضه. وفي الجمع بين اسم الجلالة (فليتق الله) وبين كلمة (ربه) ما يلقي في النفس المهابة ويذكرها بفضل الله عليه إذ تولاه بعنايته حتى بلغ ما بلغه. وتختم الآية بالوصية الجامعة التي تعتبر ركنا في كل ما سجلته الآيات السابقة وهي الشهادة، هذه الشهادة التي لا يظهر أثرها إلا إذا كان الشاهد مستعدا دوما لأدائها ومساعدة من يطلب منه أداءها ليصل بها إلى حقه. وتقرر الآية أن من يكتم الشهادة ويمتنع من أدائها عندما يطلب منه، أن العصيان والإثم قد تأصلا فيه وتمكنا منه ونفذا إلى قلبه. وفي ذلك أشد التحذير من كتمان الشهادة. ولا يتعلل الكاتم بأي علة فإن الله مطلع على الحقائق لا يفوته علم أي شيء يقع في الوجود.

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ



**بيان معاني الألفاظ:**

**تبدوا:** تُظهروا.

**يحاسبكم:** يجازكم، ويؤاخذكم.

**سمعنا:** رضينا وقبلنا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تقرر الآية أن ما حوته السموات والأرض ملك لله، وخاصية الملك هي تصرف المالك فيما يملكه. ولما كان الإنسان هو المستخلف والمكلّف، بنى القرآن على هذه الحقيقة، أن الإنسان محاسب عما يجري في نفسه، أبداه أم أخفاه، لأن الله لا يغيب عن علمه شيء، كتم الإنسان ما في نفسه أو أظهره. ورتب على هذا العلم المحيط حقيقة هي نتيجة للحقيقة الأولى، وهي أنه لما كان الله هو العليم المتفرد بالملك، فمن توابع ذلك أنه يفعل ما يشاء في ملكه، فيغفر لمن تعلقت إرادته بمحو ذنوبه، ويسلط عقوبته على الآثم الذي لم يقدّر أن يدخله في عفوه ورحمته. وختمت الآية بما يثبت ما عرضته، وهي الحقيقة الثالثة: أن الله عليم بكل شيء.

## بيان المعنى العـــام:

## 284-لله ما في السماوات... قدير.

هذا الآية تتويج لما انتظم في الآيات السـابقة مـن التشـريع والعقيـدة والسـلوك، فتقـرر قاعدة لها أثرها الكبير في توجيه المـؤمن وإحيـاء رقابتـه لمـولاه. يتبـين ذلـك ممـا ورد فيها:

**أولا:** تذكر بالحقيقة الكبـرى: كـل مـا تحويـه السـماوات والأرض ملـك لله. وهـذه الحقيقة قد يغفل الإنسـان عـن بعـض مضـامينها، كمـا يغفـل عـن مقتضـيات تلكـم المضامين. يسلم الإنسان بأنه لم يدخل في تصـرفه إلا شـيء قليـل مـن هـذا الكـون، ولكن قد تحصل الغفلة عـن الحقيقـة بمـا تحجبـه الظـواهر، فـيظن مـثلا أنـه مالـك متصرف في بعض الأشياء، وأقل ذلك أجزاء بدنه الماديـة، فضـلا عـن عالمـه النفسـي الذي يتحكم في إذاعته أو إخفائه.

**ثانيا:** إن من مقتضيات تلكم الحقيقـة أن الإنسـان لا يملـك ذاتـه فضـلا عـن أجـزاء الكون الخارجي. فما يجري في باطنه يظن أنه هـو الوحيـد العـالم بـه، وأنـه قـادر على إخفائه أو إظهاره. وأن هذه القدرة تعطيه اسـتقلالية تامـة لا يحاسـبه أحـد عليهـا، فمثلا حبك لشخص أو بغضك له، وترتيبك على هـذا الحـب أو الـبغض، ومـا تخططـه في باطنك للتنفيذ، والخطوات الأولى التي تهيئها لـذلك، أنـت مخطـئ جـدا إذا ظننـت أن كل ذلك محجوب ما دام في نفسك. فإنه مـن مقتضـيات الملـك الحقيقـي لله أن كـل ما يجرى في باطنك هو مكشوف عند الله يعلم تفاصيله ولا يغيب عنه شيء منه.

ثم إن ما سيُرتِّبه الله عما حدثت به نفسك وما أعددته وما نفـذت بـه، يكشـف لـك أنـك ما تملك من أمرك شيئا، وينبني على ذلـك أنـه سيحاسـبك. وتقـرر الآيـة أنـه حسـاب الكريم المتفضل الرؤوف بعباده المالك المقتـدر الحكـيم . مقتضـى ملكـه وحكمتـه أنـه يغفر ذنوب من تعلقت إرادته بتكريمه والعفو عـن ذنوبـه، ويسـلط العقوبـة علـى مـن أثم وحاد عن الطريق المستقيم ولم يسعفه ربـه. ولا يعجـزه سـبحانه كبيـر ولا صـغير ولا حاكم ولا محكوم ولا رئيس ولا مرؤوس، كلهم ضـعفاء تنفـذ فـيهم القـدرة، قـدرة من لا يخرج شيء عن الطوع لإرادته.

## تدقيق لمسؤولية الإنسان:

**المرتبة الأولى:** ما يجري في النفس مـن الخـواطر، ومـا يلقيـه الشـيطان فـي بـاطن الإنسان، وما يحدث به الإنسان نفسـه مـن واردات وهـو لا يسـتطيع أن يكـوّن حمايـة من ورودها، ثم يطردها ويسـتيقظ. فهـذه لا مؤاخـذة عليهـا قطعـا ولا إثـم وإن كانـت داخلة تحت دائرة الفساد والشر.

**المرتبة الثانية:** أن تبلغ تلكم الواردات الذهنية إلى مرتبة الاستقرار والعزم دون أن تترتب عليها أفعال خارجية. وهذا كالكفر والحسد. وهذه يؤاخذ عليها الإنسان ويحاسب عليها، وإن لم يصدر منه فعل يحقق الكفر أو الحسد في الخارج.

**المرتبة الثالثة:** أن يكون العزم قد خرج من دائرة الباطن إلى التنفيذ الخارجي وحال بين الشخص وتنفيذ ما عزم عليه حائل لا مدخل له فيه. وهذا ما اختلف في المؤاخذة به.

**المرتبة الرّابعة:** أن يعزم ثم يستيقظ إيمانه قبل التنفيذ ولا ينفذ ما عزم عليه، وهذا لا يؤاخذ بما حدثته نفسه ولا بالخطوات التي قام بها للتنفيذ ما لم يكن فيها ضرر. وهو على رجاء أن يثاب عن إقلاعه عن الشر.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**لا نفرق:** نؤمن بهم جميعا بلا فرق.

**سمعنا:** قبلنا ورضينا.

**الوسع:** الطاقة.

**لا تؤاخذنا:** لا تعاقبنا.

**الإصر:** الأمر الغليظ الصعب.

### بيان المعنى الإجمالي:

تسجيل للصورة الكاملة للإيمان تتمثل في إيمان الرّسول سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وفي إيمان الذين استجابوا لدعوته، الذين أقاموا عقيدتهم على ما نزل عليه من الله. يتمثل ذلك في الإيمان بالله وملائكته وجميع الكتب المنزلة منه وبرسله الذين بعثهم لهداية الأمم السابقين. وصرحوا بأنهم يعتقدون أن رسل الله جميعا تنبع رسالاتهم من منبع صدق واحد. فهم يؤمنون بهم جميعا. ثم

انطلقت ألسنتهم بالتعبير عما استقر في قلوبهم فأعربوا عن عزمهم على الطاعة، وسألوا ربهم أن يغفر لهم، غفرانه الذي يجدون نعمته يوم يصيرون إليه وقد تركوا كل شيء وراءهم: يوم القيامة. ثم إن الله، في عظيم رحمته، لم يكلف البشر ما لا يطيقون القيام به إلا بمشقة كبيرة. وقرر في سابق حكمته أن كل فرد مسؤول عما فعله وقدمه من خير أو شر. وعلم المؤمنين أن يتوجهوا إليه بهذا الابتهال المتضمن:

1) ربنا لا تعاقبنا إن نسينا القيام بما ألزمتنا به
2) ربنا لا تعاقبنا إن أخطأنا بفعل ما لم تشرعه لنا بدون قصد للعصيان.
3) ربنا لا تكلفنا ما هو فوق طاقتنا.
4) ربنا لا تحملنا الأمر الغليظ الصعب على النحو الذي حملته لبني إسرائيل.
5) ربنا اغفر لنا خطايانا.
6) ربنا ارحمنا برحمتك الواسعة.
7) ربنا أنت ولينا فانصرنا على القوم الكافرين الذين يتربصون بنا.

**بيان المعنى العام:**

**285-آمن الرّسول... وإليك المصير.**

حقيقة ساطعة سجلها القرآن: إن محمدا الرّسول ﷺ آمن إيمانا تاما واضحا بربه، ونجح في مهمته فشاركه المؤمنون أيضا الذين استجابوا لدعوته، هو الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا الإيمان هو تفصيل لما افتتحت به سورة البقرة – **يؤمنون بالغيب**– ومن خصائص إيمان هذه الأمة المنوه بها:

**أولا:** تصريحهم بما استقر في قلوبهم: أنهم يؤمنون بجميع الرّسل ولا ينكرون رسالة أي منهم. يعتبرونهم كلهم رسل الله قد جاؤوا بالحقيقة، وأن الحقيقة لا تختلف لأن الحق واحد. وهذا ما لا تجده عند أتباع أي دين من الأديان. فاليهود ينكرون نبوة عيسى ونبوة محمد، والنصارى ينكرون نبوة محمد. وكثير من الأنبياء الذين قص الله علينا أخبارهم ينكرون نبوتهم. فدعواهم التسامح دعوى كاذبة عقديا، وكاذبة سلوكيا، بشنهم حربا على الإسلام حربا ما يختفي وجه منها حتى يظهر وجه جديد.

**ثانيا:** إعلانهم بما استقر في نفوسهم من أن إيمانهم تجاوز العقيدة الباطنية إلى الالتزام بمقتضيات الإيمان، وأن عزمهم على الطاعة لكل ما جاء من ربهم عزم مؤكد، ويسألون ربهم أن يغفر لهم ويدخلهم تحت راية عفوه فإن المصير إليه وحده يوم القيامة.

**286- لا يكلف الله نفسا إلا وسعها...فانصرنا على القوم الكافرين.**

ثم إن الآية التي اختتمت بها سورة البقرة تتضمن:

أولا: إعلانا من رب الكون أنه رحيم بعباده فلا يكلف أي فرد من أفراد البشر إلا ما هو قادر على القيام به، أي إن قدراته الفكرية والمادية تمكنه من تنفيذ التكاليف الإلهية.

ثانيا: أنه بعد التكليف بما يطيق الإنسان فعله، يعلن أن كل فرد مجزي بما قدم فله ثواب ما كسب من أفعال الخير، ويتحمل وحده عقاب ما اكتسبه من الشرور. وهذا ينفي ما تدعيه يهود أنهم غير محاسبين على شرورهم التي يؤتون بها، وكذلك ما يعتقده النصارى من أن الإيمان بتعذيب المسيح يكفر سيئات المؤمن بذلك.

ثالثا: ترتبط خاتمة سورة البقرة بخاتمة سورة الفاتحة. فسورة الفاتحة ختمت **بدعاء علمه رب العزة للمؤمنين** **(اهدنا الصراط المستقيم)** **وتختم** سورة البقرة بهذا الابتهال الذي هدى إليه أمة محمد ﷺ المتضمن أمورا أساسية للنجاة:

أ: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا أو أخطأنا. والإنسان لضعفه معرض للنسيان، ومعرض للوقوع في الخطأ. وأثر الفعل الخطأ واقع والواقع لا يرفع، وأثر النسيان أيضا واقع ولا يرفع. فيبتهل المؤمن لربه أن يقبله يوم القيامة في مستوى الذين لم يخطئوا وصاحبتهم اليقظة فلم يصدر منهم نسيان.

ب: ربنا لا تحملنا بعهود أو تكاليف ثقيلٌ عملُها صعبٌ تنفيذُها. يستحضرون ما قصه الله علينا في كتابه عن بني إسرائيل، كقصة البقرة، وتكليفهم بقتل أنفسهم وتحريم الحياة المدنية عليهم تائهين في الصحراء...

جـ: ربنا لا تكلفنا بما لا نستطيع أن نقوم به مما يتجاوز طاقتنا.

د: يرتقي المؤمن وهو متجه بكليته إلى الله يسأله سؤال المعترف بالحاجة إلى ألطافه فيما يكلفه به فيرتقي إلى التضرع تضرع المعترف بالتقصير والقصور، فيمد أكف الضراعة أن يعفو عنه، أن يمن عليه بالمغفرة التي لا تبقي للمعصية أثرا، وإلى فيوض الرحمة الواسعة أن تشمله فكل مكرمة هي من رحمة الله وكل نعيم هو منها. ويتوج الابتهال الذي علمنا الله إياه في خاتمة هذه السورة، بإبراز الارتباط بين الرب سبحانه وبين الداعي المؤمن، فإذا هو ارتباط العبد بمولاه، العبد الذي لا يملك شيئا، والمولى الذي يشرِّفُ العبد بعبوديته فيسأله ما يتجاوز به مطالب الفرد، وما أكثرها، يتجاوز ذلك إلى ما هو أعز عليه من كل شيء، هو أن ينصر الله أمة محمد على الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه[1].

---

[1] فتح الباري ج 1. ص431

# سورة آل عمــــران

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بالمدينة تالية لسورة البقرة، عدد آياتها مائتا آية. فحسب عدد الآي هي في المرتبة الثالثة – سورة البقرة – سورة الأعراف – سورة آل عمران –وهي السورة الثالثة حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول الثامنة والأربعون. أشهر أسمائها ( سورة آل عمران) للتنويه الوارد فيها بآل عمران وهم: – عمران– والد – مريم –وزوجه– وأختها زوج – زكريا – ويحيى – عليهم السلام.

الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝

**معنى الألفاظ:**

**الحي:** الحياة اللائقة به التي يقارنها التصرف في الكون بالحكمة.

**القيوم:** المتصرف في كل كائن بما يحفظ له كيانه حال وجوده.

**الكتاب:** القرآن.

**لما بين يديه:** لما جاء قبله من الكتب والصحف.

التوراة – الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى عليه السلام.

**الإنجيل:** الكتاب الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام.

**الفرقان:** الفارق بين الحق والباطل.

**المنتقم:** المبالغ في العقوبة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

افتتحت هذه السورة كما افتتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة ( ألف –لام – ميم –) وأتبعت بذكر اسم الجلالة (الله) لتجري عليه الصفات المميزة له. فهو الحي،

وهو المدبر لكل شأن من شؤون الموجودات. ومن ذلك أنه نزل على قلب سيدنا محمد، الكتاب (القرآن) يسير في جملته وتفاصيله مع الحق ويسير الحق معه، فهما متلازمان. وهو لذلك يصدق ما جاء من الكتب السابقة التي منها التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى ﷺ والإنجيل الكتاب الذي أنزل على عيسى ﷺ ، ثم خص القرآن بمزية هي أنه يفرق بين الحق والباطل. حذر الكافرين بهذه الأدلة الواضحة بأنهم سيعذبون بسبب رفضهم لما أنزله الله أشد العذاب. والله عزيز لا يغلبه شيء، وهو شديد العقاب لمن تعرض لسخطه. ومن مظاهر عموم تصرفه وكونه القائم على الكون ما قد يغفل عنه كثير من الناس: فالله هو وحده الذي تولى خلق الإنسان في رحم أمه على تقدير منه على الصورة والكيفية التي يريدها سبحانه، لا إله يتصرف هذا التصرف غيره. إنه العزيز الذي يجري مقاديره على أساس الحكمة البالغة.

## بيان المعنى العام:

### 1-ألم -

افتتحت هذه السورة كما افتتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة التي تقرأ مفصولة عن بعضها. وقد قدمنا الرأي الذي نرجحه في بيان المقصود منها.

### 2-الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

يلي هذه الأحرف إبراز اسم الجلالة (الله) ليجرى عليه فيما يلي ما يميزه سبحانه بالألوهية الحق التي لا يشاركه فيها أحد. وقد اعتنى القرآن وأكد في عديد المناسبات ما يتميز به الله من الصفات والكمالات التي لا يشاركه فيها أحد ليبرز بصفة جلية التصور الإسلامي لله. وفي كل مناسبة يختار القرآن ما يتناسب مع المعاني التالية ويتبين ذلك :**أولا**- وصف الله بأنه حي الحياة الكاملة التي تليق به سبحانه، بما يفيد أن غير الحي لا يصلح أن يكون إلها. وفي هذا رد لعقيدة عبدة الأوثان الذين يعبدون ما لا حياة فيه، ولعقيدة النصارى الذين يعبدون عيسى عليه السلام مع تقريرهم أنه عذب ومات.

**ثانيا القيوم**: الذي يتصرف في كل كبيرة وصغيرة في هذا الكون من الهباءة إلى أعظم الكواكب. فيثبت وصف القيوم أن كل ما يجري على المخلوقات جميعها هو بإرادته وتقديره وفعله. وفي ذلك ما ينفي نفيا قاطعا عقيدة النصارى أيضا الذين يزعمون أن عيسى إله، وهو لم يستطع، حسب عقيدتهم وما هو مثبت في كتبهم، أن يمنع نفسه من عذاب أعدائه. كما ينفي هذا الوصف ما يعتقده بعض الفلاسفة من أن الله خلق الكون وأعطاه قوانينه، ثم تركه يجري على تلكم السنن.

### 3-4، نزل عليك الكتاب بالحق... ذو انتقام.

**ثالثا:** من قيامه على الكون أنه نزل على سيدنا محمد ﷺ القرآن الذي يهدي البشرية إلى ما يضمن لها باتباعه السلامة في الدنيا والآخرة، وربطه بالحق ربطا لا يختل. فكون القرآن منزلا من عند الله، يقوم شاهد صدقه، أنه مهما اختلفت الظروف والأحوال، فإنك تجده مقارنا للحق وتجد الحق مقارنا له لا ينفصلان.

**رابعا:** مصدقا لما بين يديه. الحق واحد لا يختلف، والباطل له صور كثيرة وأشكال مختلفة. ولما كان القرآن منزلا من عند الله فإنه بالضرورة يصدق ما جاء في الكتب السابقة التي أنزلها الله على رسله. ومعنى ذلك أنه يشهد لما جاء في تلكم الكتب التي سبقته من صحيح العقيدة.

**خامسا:** وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس. والله ﷻ اعتنى بخلقه لتقويم أمرهم، فأنزل كتبه على رسله ومنها، التوراة المنزلة على موسى ﷺ والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وقد سبقت القرآن كالممهدة له.

**سادسا:** وأنزل الفرقان. وميز القرآن على جميع الكتب السالفة بأنه هو الحكم فيما يعتقده أتباع تلكم الديانات التي اختلط عليها الأمر بما أدخلوه من تحريف في كتبهم، فالفارق بين الباطل الذي نفذ إلى كثير من التصورات العقدية عند اليهود والنصارى، وبين الحق الذي هو أصل تلك الكتب، ميز الله به القرآن فوصفه بالفرقان. ما يقتضيه العقل أن يقبل الناس على هذا الدين وأن يخلعوا التعصب والعناد. وينذر القرآن من يقابل هذه الأدلة الواضحة المعقولة بالرفض، ينذره بأنهم يعرضون أنفسهم لعذاب الله الشديد. إن الله عزيز لا يغلبه شيء عقابه قوي بالغ.

### 5-6، إن الله لا يخفى عليه...الألباب.

رابعا: تثبت الآية علم الله الدقيق بكل ما يحويه هذا الكون في ظاهر الأرض وباطنها، وفي السماوات بما تشمله من كواكب ومجرات، لا يخفى عليه شيء منها مهما دق. ويوقظ الإنسان الغافل ليتأمل في هذه الظاهرة التي تجري على كل إنسان وتتحكم في مصيره وهو قد لا يلقي لها بالا: فالله هو وحده الذي يقدر لكل إنسان وهو لقيحة، في رحم أمه، جميع خصائصه التي تكون عليها صورته في المستقبل. شكل كل جزء من أجزائه، حظه من الذكاء، لون بشرته، لون عينيه، مقدار قوته، فصاحة لسانه، وكل ما تتصور من المميزات لكل فرد التي جعلت كل إنسان في هذه الدنيا صورة فريدة ليس لها مثيل. إن هذا التصرف يقوم شاهدا على

أن الله تفرد بالعزة فكل شيء هو طـوع أمـره وإرادتـه، وأن مـا يصـدر عنـه يمثـل الحكمة الكاملة فهو العزيز الحكيم.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**المحكمات:** واضحة الدلالة.

**أم الكتاب:** الأصل الذي يرجع إليه.

**المتشابهات:** الآيات التي في دلالتها على المقصود خفاء.

**القلوب:** العقول.

**زيغ:** ميل عن الحق والصواب.

**ابتغاء:** قصد.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تتابعت الآيات محددة للعقيدة الإسلامية في الذات الإلهية. فـالله هـو الـذي أوحـى لنبيـه وأنزل عليه القرآن. هذا القرآن الـذي أراد الله أن تكـون آياتـه علـى صـنفين: صـنف واضح الدلالة لا خفاء فيه، وهذا هو معظم القرآن وإليـه المرجـع فـي فهـم نصوصـه. وصنف يحتمل أكثر من وجه لا رجحان لواحد منها، وهو المتشابه.

وكشفت الآية عن موقف الناظرين في متشـابه القـرآن فصـنفتهم إلـى صـنفين: صـنف الراسخين في العلم وصنف الذين فسدت عقـولهم. وتوجهـت العنايـة لفضـح الصـنف الثاني أولا درءا لخطرهم فكشفت عن ملامحهم: عقـولهم غيـر مسـتقيمة، ينقـرون عـن الآيات المتشابهة لا لفهمها وإدراك محاملها المعقولة، ولكـن ليفتنـوا النـاس عـن ديـنهم صارفين تلك الآيات إلى ما يزعـزع الإيمـان ويـزرع الشـك، أو ليؤولـوا الآيـة علـى المحمل الذي يوافق أهواءهم. مع أنهـم لا قـدرة لهـم علـى التأويـل الصـحيح الجـامع لأطراف القرآن. والعلم الكامل الـدقيق لجميـع الآيـات المتشـابهة فـي القـرآن هـو لله وحده. والمؤمنون الذين اختلطوا بـالقرآن حتـى حصـلت لهـم بـذلك مـدارك مسـتقيمة

فيه، موقفهم من الآيات المتشابهة أنهم يقدمون مقدمة بين يدي نظرهم هي: أن القرآن كله حق من عند الله، ثم يبنون على هذه المقدمة تسليط الضوء على المتشابه بالعودة إلى الآيات المحكمات يستلهمون منها ما يرجحون به بعض الأوجه، أو ما يفرض عليهم التوقف. أثنى الله عليهم فوصفهم بأنهم أصحاب العقول الراجحة. ويُعلّم الله أمة الإسلام، بقيادة نبيها عليه الصلاة والسلام، أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء التالي: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا:تولنا بألطافك حتى نثبت على الطريق الذي هديتنا إليه، وهب لنا من لدنك رحمة: ابتهال أن يقرن ثباتهم على الحق بأن يحوطهم برحمته التي وسعت كل شيء، مما يتعلق بالمدارك العقلية، وبالمطالب الجسمية، وبالفتوحات الرّوحانية، وكلها من عند الله. ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد: علمهم أن يُذكّروا أنفسهم في ختام دعائهم باستحضار المآل الذي يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى رحمة ربه يوم القيامة المحقق مجيئه.

**بيان المعنى العام:**

**7- هو الذي أنزل ...الألباب.**

تواصلت عناية القرآن بتحديد خصائص الذات الإلهية في التصور الإسلامي الحق. فترقى من تقرير أن الله هو المؤثر في كل إنسان من بداية تكونه في رحم أمه، ترقّى إلى إثبات أن الله هو وحده الذي أوحى لنبيه ﷺ ، فأنزل عليه آيات القرآن. والقرآن كلامه وهو أعلم بما أنزله. فكشف عن بعض خصائص القرآن في هذه الآية، وذكر أن آيات القرآن صنفان: آيات محكمات وهي التي كان التعبير فيها كاشفا عن المقصود منها، فهي واضحة الدلالة إما لأنه لا احتمال فيها أو لأن الاحتمالات المفروضة مرجوحة ضعيفة يطردها وضوح بيان النص. وهذه الآيات هي معظم القرآن، وهي التي إليها المرجع في فهم كلامه سبحانه تشبيها لها بالأم في العلاقات البشرية.

آيات متشابهة: وهي التي تحتمل أكثر من وجه، وبالرّجوع إلى الآيات الصريحة والثوابت والمقاصد يُوفّق العلماء الفقهاء في علم القرآن إلى الكشف عن المراد منها. وبعضها يخفى مدلولها خفاء يحار الناظر المنصف في الكشف عن المراد، كالحروف المقطعة في أوائل السور وكقوله تعالى: **(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم)**[1] .

---

[1] سورة النمل آية 82

والآيات المحكمات هي معظم ما جاء في القرآن، وإليها المفزع في التعرف على العقيدة والشريعة والسلوك. ولا إشكال فيها.

أما الآيات المتشابهة فيتعلق بها أمران:

أولا: بيان موقف الناس من الآيات المتشابهة.

ثانيا: إبراز حكمة وجود المتشابه في القرآن.

موقف الناس من الآيات المتشابهة

تكفل القرآن ببيان موقف الناس من الآيات المتشابهة وقسمهم إلى صنفين:

أ: صنف فسدت عقولهم وانحرفوا عن الصراط المستقيم وحملهم بغضهم للقرآن وللنور الذي جاء به، حملهم على إهمال الآيات المحكمة، والتنقير عن الآيات التي تحتمل أكثر من وجه (المتشابهات) لا ليربطوا بينها وبين ما جاء في الآيات المحكمات، ولكن ليشككوا الناس في القرآن وليفتنوهم عن دينهم بتخييلهم لهم أن القرآن متهافت متناقض. أو ليصرفوا الكلام عن الاحتمال المتسق مع طريقة القرآن فيلْوُونهُ بما يلائم قصدهم في الإفساد وإضلال الناس. والحال أنهم ليس لهم علم بطرق تأويل الكلام على ما استقر عليه الأمر في الأساليب العربية.

ب: صنف آخر تمرس بالقرآن وبأساليبه وأدرك أسرار العربية وتصاريف الكلام، وتعمقت أنظاره في الكتاب العزيز فاستقام له من ذلك وضوح في الرؤية يدرك بها كثيرا من الغوامض، ويفتح بعلمه وتقواه مغالق قد لا يتبين وجهها في بادئ الرأي. وقامت في مداركهم حقيقة يقينية أولى: أن القرآن كلام الله، كله حق وكله صدق، وأنه لا يمكن أن يوجد فيه تناقض أو اختلاف أو ما يناقض المعقول. وتبع ذلك أن القرآن وحدة كله من عند الله فكلما عرض للناظر فيه اشتباه فالواجب العود إلى المحكمات. وقامت في عقولهم أيضا حقيقة ثانية، هي أن إدراك كل ما جاء في القرآن إجمالا وتفصيلا وبلوغ اليقين في المراد من كل آية من القرآن هو لله وحده. فهو الذي أنزل الكتاب وهو أعلم به. وبناء على ذلك فإنهم لا يجرؤون على حمل أية آية من القرآن على معنى لم يهد إليه أسلوب القرآن في طريقته، أو يخالف مقاصده أو يناقض ثوابته. روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أي سماء تظلني وأي أرض تُقلني إذا قلت في كتاب الله برأيي. وبهذا فإن علم المراد من كل آية من آيات القرآن قد اختص به الله سبحانه لا يشاركه أحد في ذلك وهو ما يظهر من قوله تعالى: **وما يعلم تأويله إلا الله**.

ويثني القرآن على هذا الصنف، بأنهم هم الذين تأهلوا لإدراك ما مكنهم ربهم من فهمه ووقفوا عند ذلك، فهم أصحاب العقول الراجحة التي لا تخبط خبط عشواء.
وثانيا: إبراز حكمة اشتمال القرآن على المتشابه.
**أولا:** إن القرآن أنزل بلسان عربي جرى على تلكم السنن وعلا في أسلوبه فكان معجزا. ومن وجوه إعجازه تعبيره عن المعاني بطرق الحقيقة والمجاز على ما في المجاز من محامل عديدة، ومجالات فسيحة تتسابق فيها الأفهام. فتختلف وجوه الاحتمال في بيانه، ويكون هذا الأسلوب أشد تأثيرا وأمتع للراسخين في العلم، ومزالق يقصدها الذين في قلوبهم زيغ.
**ثانيا:** القرآن ليس كتابا موقوف أثره على وقت نزوله، بل هو الحق وهادي البشرية إلى يوم القيامة، فكانت صياغته صالحة لكل مستوى حضاري، فتجد المعنى قد لا يكون واضحا في عصر أو يفهم على وجه، حتى إذا تطورت معارف البشرية وجدت القرآن في طريقة تعبيره لا يتخلف عن الحقيقة ولا يناقضها، فيزول بعض التشابه بالتقدم المعرفي للبشرية.
**ثالثا:** أن القرآن قد اعتنى بما وراء الطبيعة، وبيان ذلك بالكلام قد يسمو فيه إلى مستويات تكون معبرة عن الحقيقة، ولكن بلوغ الأفهام لإدراك المعنى المقصود صعب تحققه للتفاوت الكبير بين أوضاع اللغات وبين المفاهيم الماورائية .

### 8-9-ربنا لا تزغ...الميعاد.

يختم هذا التقرير بتلقين الرسول والمؤمنين أن يتوجهوا إلى ربهم بهذا الدعاء: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. إنه بعد أن كشف عن موقف الذين انحرفوا فتتبعوا المتشابهات قصد فتنة الناس وإضلالهم وانصرفوا عن الآيات البينات والهداية، وفي ذلك خسارة كبرى في الدارين، والمؤمنون على حذر من العاقبة التي لا يضمنها إلا عون من الله، فيعلمهم بهذه الآية أن يتوجهوا إليه ليثبت قلوبهم على الهداية التي تفضل بها عليهم، ولولا فضله وألطافه ما اهتدوا. أن يطلبوا من ربهم أن يشملهم برحمته التي وسعت كل شيء. إنها الألطاف الإلهية التي تسعدهم بالحماية في دينهم وعقولهم وأبدانهم. إن هبة الرحمة من الله هي أعظم هبة تحقق للإنسان السعادة ، وهباتُهُ سبحانه لا تحد.
9-ويختم الدعاء بالتوسل أن يكتب لهم حسن العاقبة، فيعبرون عن يقينهم بأن الله سيبعث الناس جميعهم في يوم، يقينٌ قدومُه لاشك فيه، إنه يوم وعد الله أن يجمع الناس فيه، وسبحانه لا يخلف الميعاد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**لن تغني:** لن تدفع.

**وقود:** ما يحترق في النار كالحطب.

**كداب:** شأنهم كشأن.

**أخذهم الله بذنوبهم:** سلط العقاب عليهم بسبب ذنوبهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يقرر القرآن حقيقة:أن متاع الدنيا من أموال وأولاد لا تنفع أصحابها الكافرين، وأنهم سيكونون وقودا للنار تشتعل بأجسادهم. وأن الله سيباغتهم بنقمته وعذابه في الدنيا فيكون شأنهم في استئصالهم كشأن آل فرعون ومن سبقهم من المكذبين، سلط عليهم عقابه بسبب ذنوبهم. فليحذر المكذبون نقمة الله فإنه سبحانه شديد العقاب.

**بيان المعنى العام:**

**10-11: إن الذين كفروا لن تغني...شديد العقاب.**

يعتز المؤمنون بصلتهم بربهم، ويجدون بذلك الطمأنينة، وتلهج ألسنتهم بالدعاء إليه سبحانه ليثبتهم كما جاء في الآية السابقة. وفي المقابل يعتز الذين كفروا بالله ورسله بما لهم من أولاد وما جمعوه من أموال. وهو غرور منهم فإن كل ذلك لا يدفع عنهم شيئا من عذاب الله. وفي الآخرة تكون أجسامهم المادة التي تشتعل بها نار جهنم. وأما في الدنيا فإن شأنهم سيكون كشأن آل فرعون وشأن المكذبين بآيات الله البينات الدالة دلالة واضحة على صدق ما جاؤوا به من عند الله، ممن جرت عليهم سنة الله في تسليطه عقوبته الماحقة جزاء ما ارتكبوه من معاص واقترفوه من ذنوب. والله شديد العقاب لا يفلت من عقابه أحد ممن قدر عقابهم في الدنيا.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

## بيان معنى الألفاظ:

**تحشرون:** الحشر الجمع والسوق.

**المهاد:** أصله الفراش وجهنم أسوأ فراش.

**الفئة:** الجماعة من الناس.

**رأي العين:** الرّؤية بحاسة البصر.

## بيان المعنى الإجمالي:

أمر لرسوله أن يرهبهم وأن يظهر لهم قوته، فيواجههم بأن جيوش المسلمين ستهزمهم، وأن مصيرهم بعد موتهم إلى جهنم وهي أسوأ مهاد. إن ما تحقق أمام أبصاركم في عاقبة الجماعة المؤمنة التي تجاهد في سبيل نصرة دين الله، وعاقبة الجماعة الكافرة، وما أحاط بالواقعة من ضلال أبصاركم وفساد تقديركم، فأخطأتم في عدة المقاتلين المؤمنين، فهزموكم. إن الله يؤيد بنصره من يشاء. وفي واقعة بدر هذه عبرة لتتيقنوا أن صولات الكفر هي إلى انهزام.

## بيان المعنى العام:

### 12-13، قل للذين كفروا...الأبصار.

أمر الله رسوله أن يسمع الكافرين ما يزلزلهم ويدخل الوهن في عزائمهم ، وأن يظهر لهم قوة المسلمين، أمره أن يواجه الكافرين بالمآل الخاسر الذي يترصدهم: إن جيوشهم ستنكسر وستهزم شر هزيمة، وأن مظاهر عزتهم في الدنيا ستتحول إلى ذل وخيبة وأن عاقبتهم في الآخرة هي نار جهنم. ولا أسوأ وأشد إيلاما من أن تكون العاقبة بما مهدوه لآخرتهم: نار الله الموقدة. هذا التهديد سيتحقق لا محالة ، وشاهده ما تم في غزوة بدر الكبرى. إن في هذه الغزوة لدليلا ظاهرا. جماعة مؤمنة خرجت تقاتل في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وجماعة أخرى كافرة تقاتل ولا مبدأ لها ولا سند. وما عند الجماعة الكافرة من أسباب الغلبة، من العدد الكبير من المقاتلين الأشداء، تحول إلى سبب للهزيمة، وضللتهم حواسهم، وقذف في قلوبهم الخوف لما قدروا عدد جيش المسلمين بضعف عددهم، وهم أمامهم ينظرون إليهم ، ولكن افسد الله أبصارهم وانخدعوا بما رأوه بأعينهم. ولما اصطف الجيشان كانت الرّهبة من قوة جيش المسلمين قد خلخلت عزائمهم ووهنت قواهم. والله هو المتصرف فيؤيد بأسباب النصر من يشاء. لقد دخلت عوامل ما حسبها جيش الكافرين، وما حسبها أيضا جيش المسلمين، ليكون في ذلك عبرة تزيد المؤمنين وثوقا بأنهم على الحق وأن الله معهم.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**القناطير المقنطرة:** الكميات الكبيرة من الذهب والفضة والنقود.

**الخيل المسومة:** المسيبة في مراعيها.

**متاع:** ما يستمتع به الإنسان مدة.

**حسن المآب:** المرجع الحسن أي العاقبة الحسنة.

**هل أؤنبئكم:** هل أعلمكم.

**القانتين:** هم المؤدون للعبادة على أكمل الوجوه.

**الأسحار:** جمع سحر وهو سدس الليل الأخير.

**بيان المعنى الإجمالي:**

فطر الإنسان على حب ما في مظهره جمال يغري به، مما تشتهيه الأنفس وتتساق إليه، وعددت الآية من ذلك شهوة الجنس: حب الرّجل للمرأة والعكس، وإنجاب الأولاد، وجمع الأعداد الكثيرة والأوزان الثقيلة من المعدنين النفيسين: الذهب والفضة، والخيل النشيطة القوية المطلقة في مراعيها، والأنعام من البقر والغنم والمعز والإبل، والحرث في المزارع والحقول. يتعلق الناس بهذه الشهوات بمقتضى فطرتهم، ويجدون فيها متعة، ويقر القرآن بذلك ولا يعكس الفطرة، ولكنه يوقظ الناظر إلى أن الشهوات تزول سريعا، وأن النعيم الذي أعده لصالحي عباده عندما يرجعون إليه يسمو على تلكم الشهوات بدوامه وحسنه. وتحول الأسلوب بصدور الأمر الإلهي إلى رسوله أن يخبرهم بتفاصيل ما هو خير من شهوات الدنيا، مما أعده الله للذين حلت التقوى في قلوبهم، جنات تتخللها الأنهار الجارية ، أزواج مطهرة من العيوب الجسمية والخلقية، وفوق ذلك يحل عليهم رضوان من

الله، والله عليم بحقيقة عباده فلا يحل رضوانه على المرائين. ويتميز هؤلاء المرْضيُّ عنهم بأنهم هم الذين يخلصون في التوجه إلى الله، تعرب ألسنتهم عما استقر في قلوبهم من الإيمان ويدعون ربهم بالمغفرة لما قصروا فيه وأن يحميهم من عذاب النار. هؤلاء الذين نوهت بهم الأيات هم الذي اتصفوا بصفات الكمال: الصبر، والصدق، وحسن العبادة، والتصدق على المحتاجين، والتوجه إلى الله في ثلث الليل الأخير بالاستغفار.

**بيان المعنى العام:**

## 14-زين للناس...والله عنده حسن المآب.

هذه الأيات تكشف عن حقيقة التركيب الإنساني وصلة هذا التركيب بالحياة الدنيا، وذلك ليرتب على عرض تلكم الحقيقة موعظة المسلمين. لقد أكد القرآن في حديثه عن خلق الإنسان أنه مركب من قوى: هي طبيعته التي يتميز بها عن الكائنات الأخرى. وأن القرآن لا يعمل على قمع تلكم الفطرة ولكن يعمل على إعلائها. يقرر القرآن أن البشر فطروا على التعلق بالشهوات. وهي قوى مؤثرة فيهم. يحدثون أنفسهم بها حديث المحب بما يحبه. عدد القرآن منها:الشهوة الجنسية من تعلق الذكر بالأنثى والعكس. وما تزال هذه الغريزة تعمل في توجيه سلوك الإنسان إلى مناح مختلفة. وشهوة إنجاب الأولاد، ويشعر البيت العقيم بتعاسة وظلام في أركانه، ويجد الأبوان في نسلهما امتدادا لوجودهما، وأمانا لهما عند العجز. وشهوة تملك المال من الذهب والفضة والنقود، ويزداد شراهة وفرحة كلما تكشف مخزونه وتضاعف ما تحويه خزائنه من قناطير المعدنين النفيسين: الذهب والفضة. حب الخيل المنطلقة في مراعيها وهي كلها نشاط وحيوية وجمال. وما تزال الخيل إلى اليوم مرغوبا في اقتنائها تعطي لناظرها فضلا عن مالكها انشراحا. وحب تملك الأنعام من الغنم والبقر والجمال. وكذلك المزارع المعتنى بها المحروثة بما تنتجه من ثمار وحبوب وزهور التي تبهج النفس وتقر بها العيون. يقر القرآن بما لهذه الشهوات من حظ ، ولا يقمع الفطرة، ولكن يدعو الإنسان بعد هذا العرض أن لا يجعل كل همه في هذه المباهج والمتع المحدودة الزمان فتلهيه عن إدراك ما فيها من جوانب سالبة، وليعلم أن ما أعده الله عنده محفوظا للصالحين من عباده مما سيلقونه في مآلهم، هو الأكمل والأفضل.

## 15-قل أؤنبئكم بخير من ذلكم...بالعباد.

يواصل القرآن الموعظة، فيقول الله لنبيه قل: وهو ما يوقظ المؤمن للاستماع والتلقي، هل تريدون أن أعلمكم بما هو خير من تلكم الشهوات الفطرية؟ ويأتي

الجواب مفصلا لما هو خير: جنات تتخللها الأنهار الجارية لا يكدر صفوها خوف الزوال، إذ يستقر في ساكنيها الإحساس بالخلود، وأن ما رزقوه باق لهم لا يتحولون عنه ولا يلحقه فناء ولا ذبول. أزواج مطهرة من العيوب الخلقية والخُلقية، وما أكثر عيوب البشر في هذه الحياة مهما أوتوا من وسامة ورزقوا من جمال. إن تلكم النقائص لا تعلق بالمؤمنين والمؤمنات في الجنة. مما يجعل الأنس والتكامل بين الزوجين يبلغ غاية مدى التوافق والحب. يتوج هذا النعيم بحلول رضا الله عنهم، ذلكم الرّضا الذي أسنده القرآن لاسم الجلالة: (رضوان من الله) الله الذي يعلم حقائق النفوس ودخائلها فلا ينال هذا الرّضا إلا من طهرت نفسه وزكت حقا.

## 16-17-الذين يقولون...والمستغفرين بالأسحار.

يرسم القرآن ملامح عباده المتقين بإجراء هذه الأوصاف عليهم:

**الصابرين:** تتفاوت قيم الناس بما أوتوه من قدرة على التحمل وعلى المداومة، وعلى الثقة بالنفس وعدم الجزع عند المصائب والملمات، وبالصبر على الخير فلا تبطره النعمة ولا تنسيه ضعفه وحاجته.

**الصادقين:** الثابتين على الحق قولا وعملا. الذين يطمئن إليهم الناس في تعاملاتهم، ويثقون بهم.

**القانتين:** الذين إذا وقفوا بين يدي ربهم للعبادة استحضروا جلال الموقف فاندمجت مشاعرهم وأرواحهم في المناجاة المطهرة للنفس والمعلية لها إلى مقامات القرب.

**المنفقين:** الذين يجودون بما آتاهم الله من فضل رزق على المحتاجين من إخوانهم المؤمنين مما يؤكد التحام المجتمع الإسلامي ورقيه.

**المستغفرين بالأسحار:** الذين يتركون مضاجعهم في السدس الأخير من الليل، عندما تهدأ الحركة وتكون النفوس أشد حساسية وأبلغ صفاء وانشراحا، فيتوجهون إلى ربهم طالبين مغفرته وصفحه وتجاوزه عما قصروا فيه. هؤلاء شهد الله لمنهجهم بالخيرية، ونوه بهم ليعمل المؤمنون على سلوك مسلكهم ، والأخذ بطريقتهم.

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**شهد الله:** شهادة الله: إعلان للحقيقة بما أقام عليها من أدلة.

**القسط:** العدل.

**بغيا:** تجاوزا للحق.

**حاجوك:** جادلوك.

**الأميون:** المشركون.

### بيان المعنى الإجمالي:

يعلن الله مقررا الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها دين الإسلام: (وحدانية الله وتصرفه في الكون ). وذلك بما نصب عليها من شواهد العقل والوحي والفطرة، ويعلنها أيضا الملائكة بما يبلغونه من وحي، وما يعبرون به عن إيمانهم، ويعلنها العلماء بما يقيمونه من حجج عليها. إنه العزيز الذي ينصاع كل موجود لإرادته، الحكيم في فعله. إن الدين الصحيح، بعد البعثة المحمدية، المعتبر عند الله، هو الإسلام، وجميع الأديان ما كان من وضع البشر أو من الأديان المستندة إلى الرّسل السابقين التي حرّفها أتباعها لا يقبلها الله ولا تنجي أصحابها. وهذا التحريف الذي اقترن باختلاف أهل الكتاب، الاختلاف الذي تفرقت به أصحاب الديانات السماوية في أديانهم وفي قبولهم لدين الإسلام، حصل بعد أن بلغهم العلم الصادق من الوحي الذي جاء به رسلهم. لقد كان اختلافهم وكفرهم بسبب ظلمهم وتجاوزهم واستكبارهم عن الإذعان للحق. هدّدهم الله بأنه سريع الحساب لا يحتاج لتعداد سيئاتهم تبعا لحدوثها فيجزيهم بعدله عن كفرهم. ويرشد الله نبيه عند لجاج الكافرين باستمرارهم على الجدال بأن يعلن ﷺ، قطعا لتمويهاتهم، حقيقة ينقطع عندها الجدل: أسلمت عقلي وروحي وجسمي وكل ما أملك فجعلته خاضعا لله راضيا بأحكامه، وكذلك الذين اتبعوني فهم على هذا المبدأ يسيرون. وأمره أن يتابع الدعوة إلى الإسلام، فيدعو اليهود والنصارى ويسألهم هل أسلمتم وجوهكم لله، فإن من أسلم وجهه لله فقد اهتدى لدين الحق. وإن أعرضوا عن دعوتك فلا تحزن فإنما كلفت بإبلاغ ما أوحاه الله إليك وقد فعلت. والله لا يخفى عنه شيء من أمر العباد، فهو يعلم حرصك على التبليغ ويعلم عنادهم وإصرارهم على الكفر بما يتبعه من جزاء.

**بيان المعنى العام:**

**18-شهد الله...الحكيم.**

ترتبط هذه الآية بما افتتحت به السورة ( الله لا إله إلا هو الحي القيوم ) فيؤكد مضمونها أن الله قد أودع في الكون وفي قوانين العقل وفي الفطرة السليمة ما ينادي ويشهد بأن الله واحد لا شريك له ، وما يثبت أنه أقام هذا الكون على سنن وأنظمة لا جور فيها ولا اختلال، رابطا الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، فهو العدل المطلق الساري في كل كبيرة وصغيرة. وذلك تبعا لعزته التي لا تغلب، فينصاع كل المخلوقات لتقديره الحكيم. وهذه الشهادة التي ينطق بها ما أودعه الله في الكون، يعلنها أيضا ملائكته في تمجيدهم لذاته وفيما يلغوه من وحي وكلفوا به من مهام تحقق تلكم العدل والنظام. وكذلك من فتح الله على قلوبهم المعرفة والعلم الصحيح الذين يقومون في المجتمعات البشرية بالاحتجاج على ذلك.

**19-إن الدين عند الله...الحساب.**

إن كل التصورات التي يدين بها البشر سواء استندت إلى أديان سماوية حرفها الأتباع أو إلى مخترعات من وضع البشر كلها زائفة وباطلة، ولا دين يوصف بالصدق والحق إلا دين واحد هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ. إن السابقين من أصحاب الديانات قد اختلفوا: اختلفت اليهود فيما بينهم في حقيقة العبادة، وفي تصور الله جل وعلا، وفي تشبيهه بخلقه، واختلفت النصارى بين مثبت للبنوة وناف لها، وبين من يتقدم على أنه ممثل لله يغفر ويحرم. وبين اليهود والنصارى فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، واختلفوا في وصف الدعوة المحمدية، بقصرها على الأميين أو بتكذيبه. إن هذا الاختلاف الذي بلغ الأسس العقدية والعبادية حصل بعد أن جاءهم الحق على لسان رسلهم وعلى لسان محمد ﷺ، وما كان الحامل لهم على هذا الاختلاف إلا اتباع ما عمرت به نفوسهم من الظلم وغمط الحق لتحقيق مكاسب دنيوية فكل يبغي الرئاسة ويطوع الحقيقة الإلهية لنزواته. ويهددهم الله بأن حساب الله سريع آت لا ريب فيه، وأيام الدنيا تتسارع إلى نهايتها وبما أن علمه تعالى غير مجزأ ولا بتابع للزمن، إذ علمه واحد، فحسابه للظالمين سريع.

**20-فإن حاجوك...بالعباد.**

يتوجه القرآن إلى النبي مرشدا له، بعد لجاج الكافرين في عنادهم، فيقول له: إن واصلوا جدالك فواجههم بإعلان هذه الحقيقة الدامغة، قل: أسلمت وجهي لله، أي:

قلبي وروحي وعقلي وبدني ومشاعري وكل ما أملك، طوعتها لرب العالمين راضيا بأحكامه، وكذلك كل من اتبع الهدى الذي جئت به. وقل أيضا مناديا اليهود والنصارى والأميين، وهم (المشركون من العرب والدهريون منهم ومن يدعي أنه على دين إبراهيم) وعبر عنهم بالأميين لأنهم لا يرجعون إلى كتاب بين أيديهم، ولأن من يقرأ، قليلٌ فيهم، قل لهم جميعا: هل أسلمتم وخضعتم لله ؟ ويأتي الجواب من رب العزة: بأن من أسلم وجهه لله الواحد الأحد المتصرف وحده في جميع الكائنات، فقد اهتدى ونجا. وإن واصلوا عنادهم وأعرضوا عنك، فلا تضجر ولا تأس على مصيرهم، فإنما أنت مكلف فقط بإبلاغ وحيي، وقد فعلت. والله بصير بعباده عليم بهم بما يتبع العلم من ترتب الثواب والعقاب حسبما قدموا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**حبطت أعمالهم:** زوال آثارها النافعة في الدنيا والآخرة.

**النصيب:** القسط.

**إلى كتاب الله:** إلى التوراة أو القرآن.

**ثم يتولون:** يتكرر منهم النفور والإعراض.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ترسم هذه الآيات صورة شنيعة لليهود، وتفضحهم، فهم يدعون الإيمان من جهة ويكفرون بما تقتضيه الأدلة البينة الصادرة عن الله، ويقتلون الأنبياء فقد قتلوا زكرياء ويحيى ويزعمون أنهم قتلوا عيسى. وفي كتبهم اعتراف بجرامتهم على دماء الأنبياء والمصلحين ومن يدعوهم إلى العدل، ويأمر الله نبيه بأن يبشرهم، وأية بشارة ؟ هي العذاب الأليم. فهي بشارة استهزاء بهم. إن ما يظنون أنها أعمال

صالحة تكون لهم عدة في دنياهم وأخراهم، قد محا الله آثارها وثوابها فلا يجدون منها ما ينفعهم. ولا يجدون من ينصرهم. وحالة عجيبة أخرى لهم: لقد وصل إليهم جزء من التوراة يدّعون أنهم يؤمنون به، ولكن فريقا منهم عندما يدعون إلى تحكيم نصوص التوراة أو التأمل في القرآن المأخوذ مباشرة من لسان الرّسول ﷺ، ينفرون معرضين. اعتمدوا ظاهرا على عقيدة موهومة: أنهم لا يؤاخذون بالشرور الصادرة منهم لأن الله وعدهم أنه لا يعذبهم إلا أياما قليلة بمقدار المدة التي عبد فيها آباؤهم العجل، وهذا من مفترياتهم وأكاذيبهم التي أوقعتهم في الغرور. كيف يكون حالهم عندما يجمعهم الله يوم القيامة الذي هو حقيقة ثابتة لا شك فيها، هذا اليوم الذي تنال كل نفس جزاء ما كسبته في حياتها الدنيا، ومتولي الحساب الحكم العدل الذي لا يظلم ؟

## بيان المعنى العام:

### 21-22إن الذين يكفرون بآيات الله...من ناصرين.

في الآيات السابقة سجل القرآن على اليهود والنصارى أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم الحق بسبب تغليبهم لحظوظهم الدنيوية من وجاهة ورئاسة.

ويشنع القرآن على اليهود الذين انتهى بهم الضلال إلى:(1) الكفر بآيات الله فلم يذعنوا إليها وتركوا العمل بها ترك الكافرين، ومع علمهم بصدقها أقدموا على تحريفها فاعتدوا على قداستها وضللوا الناس بذلك. (2) قتل الأنبياء، ومع إقرارهم بنبوتهم يكون قتلهم من أقدح أنواع الظلم، قتلوا زكرياء وقتلوا ابنه يحيى عليهما السلام، ويدعون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وقتلوا أشعياء. وإن كان القتل إنما تم من بعضهم إلا أنهم بقبولهم لتلكم الاعتداءات الفظيعة وعدم نصرتهم لأنبيائهم، اشتركوا بذلك في الجريمة ونسب القتل إلى جميعهم. (3) قتلهم الصالحين الذين يأمرون بالعدل، ويتحمسون لإقامة سلطانه. وما يزال اليهود إلى اليوم يخططون وينفذون لاغتيال كل من ينادي بالحق أو يقف ضد مكرهم وتسلطهم. فأيديهم ملطخة بدمائهم، كالدوق هامرشولد الأمين العام للأمم المتحدة، وعدد غير قليل من الفلسطينيين والمتميزين من العلماء في الدول العربية. يأمر الله نبيه بأن يبشرهم: وأي بشارة؟ هو يستهزئ بهم بأن ما صنعوه يجزون عليه عذابا بالغا أقصى حدود الألم، وأن ما قدموه من أعمال، إن كانت في ظاهرها غير سيئة، قد تبخرت ولم يبق لها أثر ولا ينتفعون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة. وذلك هو الخسران المبين. وأن ما حزبوه من أحزاب ستتفكك ولا يجدون لهم نصيرا.

### 23-ألم تر إلى الذين أوتوا ... وهم معرضون.

فضحا لفسادهم وإعلانا عن تناقضهم يحرك الناظرين إلى ما يأتي: إن اليهود الذين قد بلغهم قسم من التوراة، الكتاب الذي يؤمنون به، ويدّعون أنهم يسيرون على هداه، هؤلاء عندما يوقفون في المحاجة ليرجعوا إلى ما بين أيديهم من الكتاب ليكون الحكم ، أو يدعون إلى التأمل في القرآن وقد ظهرت أعلام صدقه، يكون موقف فريق منهم الإعراض عن كل ذلك، والاستمرار على الضلال. وكشأن القرآن في الإنصاف، لم ينسب الإعراض إلى جميع اليهود، ولكنه سجل ذلك على الفريق المعاند، واليهودي الذي انخلع من العناد والمكابرة لا يتضرر من يهوديته.

## 24-ذلك بأنهم قالوا...ما كانوا يفترون.

يفضح القرآن سبب رفضهم للحق وإعراضهم عما جاء به الوحي، إن مرد ذلك تعلقهم بأوهام وخيالات لا أساس لها، كرروا على أنفسهم كذبة انتهوا إلى تصديقها، فأخذوا يصرحون بها، قالوا: لن تمسنا النار ولا نعذب إلا أياما معدودات بقدر المدة التي عبد فيها آباؤهم العجل، وما وراء ذلك لا يحاسبون على ما يفعلونه من شر ومن ظلم وفساد. وهذا الغرور الذي تأصل فيهم حتى أصبح جزءا من الدين عندهم، الذي بني على كذب وافتراء وخيالات باطلة.

## 25-فكيف إذا جمعناهم ليوم...وهم لا يظلمون.

سينتهي بهم إلى اليوم الذي تبغتهم فيه الحقيقة التي لا شك في حصولها، يوم يجمعهم الله فلا ينفلت أي فرد منهم، يوم تجزى كل نفس الجزاء العادل بما كسبته في حياتها. لا يغني عن الإنسان في ذلك اليوم نسبه ولا ما أقنع به نفسه من أوهام وخيالات. وفي ذلك اليوم يظهر العدل الإلهي فلا يظلم ربك أحدا وتجزى كل نفس بما قدمت.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**اللهم:** يا الله.

**المُلك:** التصرف بالتدبير وإقامة الحقوق ورعاية المصالح.

**تنزع:** تزيل.

**تولج:** تدخل.

**الرّزق:** ما ينتفع به الإنسان.

**ليس من الله في شيء:** انقطعت صلته بالله.

**تتقوا منهم:** تتجنبوا المكروه منهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

قل: يا الله ! أنت المتفرد بالتصرف في الكون وما يحويه تتصرف في الدول والشعوب والقبائل والأمم، تمكن بعض خلقك من التصرف في جزء من ملكك، وتصرِّفُ من مكنته من ذلك متى تشاء، بيدك الخير كله، فلا يصل خير إلى أحد إلا من فضلك، إنه لا حد لقدرتك. في هذا الكون يتعاقب بتدبيرك الليل والنهار كل يوم، فيدب الظلام دبيبا خفيا في النهار حتى يعم الكون ثم تسري خيوط النهار شيئا فشيئا في ظلمة الليل حتى ينقشع ظلامه، وحياة وموت يجريان على الكائن، ويعقب الموت حياة وتعقب الموت الحياة. وما من حي إلا أنت وحدك الذي ترزقه من الهواء إلى المقادير المالية الفائقة للحصر. إن الإيمان الذي فُصّل يقتضي أن تكون رابطته أرقى رابطة جامعة، وأن الاختلاف فيه يوجب القطيعة. فالمؤمنون لا يرتبطون بالكافرين برباط الموالاة والتناصر، وصرحت الآية بوضع من لا يمتثل فيواصل موالاته للكافرين، تاركا صلاته بالمؤمنين، أنه بعيد عن الله قاطع صلته به. وقد يكون المؤمن في وضع خاص يخشى على نفسه وعلى إخوانه إذا لم يُظهر بلسانه ما يحميه ويقي به نفسه فيستعمل التقية، وقلبه مطمئن بالإيمان. إن المؤمن في هذا الوضع لا إثم عليه ولا يتأثر إيمانه بما وقى به نفسه مما لا يعتقده. وهذه

الحالة الاستثنائية ينبه المؤمنين إلى خطورتها ويحذر من التلاعب بها، ويهدد من يرتخي إلى موالاة الكفار بأن المصير في النهاية إليه سبحانه، يوم يبعثون وتظهر الحقيقة عارية فاضحة. ثم يأتي إعلان عام بكلمة (قل) يؤكد ما تضمنته الآية السابقة: إن ما تنطوي عليه صدوركم سواء أظهرتموه أم أخفيتموه لا يخفى منه شيء عن الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض. والقاعدة اليقينية: إن الله بكل شيء عليم. ويقرر هذا المعنى إبراز صورة مبنية عليه، ذلك أن كل نفس ستجد ما عملته من خير ماثلا أمامها و ما اقترفته من شر حاضرا أمامها مجسما تود أن لو تأخر حضوره إلى أمد بعيد، وهذه الصورة المقدمة قصد منها تحذير الناس وموعظتهم ببسط مصيرهم. والله يحذر البشر من الوقوع في الهلاك رأفة بهم. بعد ما حذر ووعظ بما تسمو به النفوس، دلهم على أعظم هدف فقال تعالى: إن الطريق الذي يبلغ بكم أن يكون حبكم لله صادقا وأن يسبغ الله عليكم من آثار حبكم له أن يحبكم، فتفوزون بالرّضا والطمأنينة وسعادة الدارين. الطريق الموصل: هو اتباع رسول الله، فباتباعه يحبكم الله ويمحو سيئاتكم. يتأكد هذا الوعد بأن الله غفور لذنوب عباده واسع الرّحمة. ثم حثت الآية على طاعة الله وطاعة رسوله، فهي مفتاح السعادة. ومن أعرض ونفر من اتباع ذلك فلا طمع له في كرامة الله وغفرانه ورحمته لأن الله لا يحب الكافرين الرّافضين لرسالة الإسلام.

**بيان المعنى العام:**

**26-27: قل اللهم مالك الملك ...بغير حساب .**

إعلان في الكون، أمر أن يصرح به رسول الله ﷺ بأن يقول: يا الله أنت المالك للأكوان تتصرف فيها بإرادتك وحكمتك، وجميع القارات والممالك والدول، والشعوب والقبائل، أنت وحدك المتصرف فيها، تؤتي من خلقك ما شئت من ملكك ليتصرف فيه، وليس إلا تصرفا وقتيا تنزعه منه وتسلبه متى شئت. العباد جميعهم فقراء لك، فمن عز منهم فبفضل منك، ومن ذل منهم فبإرادتك وعدلك سلب منه ما سلب. أنت المالك للخير لا يصل خير لكائن إلا ما قدرته ،وإن كل ما يحدث في الكون لا يخرج عن إرادتك وحكمتك. وبما أن ما يناله الإنسان من خيرات لا يكاد يحصى وما يصيبه من مكروه وشر هو قليل بالنسبة للخير الكثير، اكتُفي بذكر الخير عن ذكر الشر وإن كان الجميع منه فهو الخالق لكل شيء. تؤكد وحدات هذا الإعلان أن قدرة الله هي المؤثرة في كل الموجودات كبيرها وصغيرها (إنك على كل شيء قدير ) ويتوالى هذا الإعلان بالتعبير عن إدراك المؤمن خضوع الأكوان للنظام الذي رتبه بحكمته. أنت ربنا الذي تدخل الليل في النهار فتأتي الظلمة

رويدا رويدا حتى تمحو آخر شعاع من النهار، وأنت ربنا الذي تدخل النهار في الليل فإذا خيوط النور تهتك أستار الظلام شيئا فشيئا حتى يعم الضياء، في حركة على أدق نظام. وكما يتقابل الليل والنهار بتقديرك، فكذلك في هذا الكون يتقابل الموت والحياة، وهما من أسرار خلقك، وإنك بعظيم قدرتك تخرج الحي من الميت، فالأرض الميتة ينزل عليها الماء فإذا هي تخرج من أنواع الزروع والثمار والدواب ما لا يحصر، وكثير مما تخرجه يدخل في تركيب الإنسان وتنمو به الأجزاء الحية فيه. وتلكم الأرض بعد أن أخذت زخرفها وازينت يعود ما كساها وما خرج منها إلى تحلل وموت، بل أنت أيها الإنسان في كل لحظة تموت فيك خلايا وتتولد أخرى، كل ذلك بقدرتك وإرادتك وحكمتك يا الله. إن ما على وجه الأرض من خيرات لا يحد ولكن لا يحصل أي فرد على شيء من تلكم الخيرات الوافرة إلا بإرادتك، فأنت ربنا ترزق من شئت من خلقك رزقا وافرا يتجاوز الإحصاء والعد. فلا يبْطرْ الإنسان بما أوتيه من رزق فالفضل في ذلك لله وحده.

## 28-29، لا يتخذ المؤمنون...والله على كل شيء قدير.

إن هذا الإعلان الذي كشف عن التصور الحق للكون يقتضي من المنادين به الواثقين بمضامينه أن يتألف بينهم نسيج موحد، لا يقبل أن يدخل فيه خيط غريب، ولا يقبل خيط من خيوطه أن يلتحم بما هو غريب. فصدرَ الحكم الواجب الإذعان له ومراعاته: لا يتخذ المؤمن الكافر وليا ينصره ويفضي له بأسراره ويقدمه على ما تقتضيه أخوة الإيمان، فيقربه ويبعد المؤمنين أمثاله. والحكم يتواصل بأن من خالف هذا الأمر وتولى الكافرين من دون المؤمنين فقد انفصل عن الله، وخلع لباس الإيمان الذي دخل به، وبه اعتبر واحدا من الأمة الإسلامية. لقد ابتلي المسلمون بمن ضعفوا فقدموا حظوظهم الدنيوية على مقتضيات الإيمان وخانوا الأمة والدين. ويقسم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله الموالين للكفار إلى ثمانية أقسام: (1) أن يكون باطن الشخص على موالاة الكفار والميل لهم. وهؤلاء هم المنافقون، أشد أنواع الكفر ضررا وفسادا. (2) أن يناصرهم لقرابة أو مودة في الوقت الذي يجاهرون فيه بعداوة المسلمين، مع مقته لدينهم ومودة المسلمين. وهذا ذنبه من أعظم الذنوب ويخشى على نفسه أن ينزلق للكفر. (3)هي كالحالة الثانية لكن الكافرين لا يجاهرون بعدوانهم للمسلمين، وحكمها الحرمة أيضا. (4) موالاة طائفة من الكفار للاستعانة بهم على طائفة من المسلمين. ومع الاتفاق على أنه ذنب عظيم إلا أنه قد اختلف فيه النظار بين تكفيره ومع الاستتابة، أو بدون استتابة، أو الاجتهاد في كل حالة تبعا للضرر الحاصل من الانحراف. (5) أن

يبتغي الكفار موالاتنا في الحرب على أعدائنا. وهذه مسألة اختلفت فيها الأنظار بين مجيز عند الحاجة، وبين محرم مطلقا، ومجيز للاستعانة بأهل الكتاب دون الكفار. (6)أن يتخذ واحد من المسلمين واحدا من الكفار وليا له لكمالات فيه دون أن يترتب على ذلك إضرار بالمسلمين. ويرى الشيخ ابن عاشور أن ذلك جائز. وعندي أن هناك مقامين: حسن المعاشرة وهذا ما أقره الإسلام وأذن فيه، والمقام الثاني أن يتخذه وليا بما في الموالاة من التناصر والود القلبي والتقريب في مختلف شؤون الحياة الخاصة والعامة، فهذا لا أرى أنه مأذون فيه، وذلك لعموم قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. (7)حالة المعاملات الدنيوية في التجارات والعهود والمصالحات، وأحكامها مبسوطة في كتب الفقه.

**إظهار الموالاة لاتقاء الضر وهو ما فصلته الآية فيما يلي:** إن التشريع الحكيم يراعي الظروف الاستثنائية التي قد يكون فيها المؤمن في وضع يخشى معه على نفسه أو أمته من الكافرين، وأنه يقدر أن يصانعهم بأقوال لا يرضاها، يتخذها تقية لحماية نفسه أو ماله في ذلكم الظرف فهذا الوضع معفو عن صاحبه. وترفع الآية علامات الفزع حتى لا يتلاعب أحد بهذه الرخصة، فالله يحذرنا من موالاة الكفر باطنا والاعتذار عن ذلك ظاهرا، فإن الله لا تروج عليه معاذير المتخاذلين. ويتواصل الإعلان: إن الله لا يتم علمه بواسطة حاسة من الحواس، تعالى الله عن ذلك، فسواء أخفى الإنسان حقيقة ما يجري في نفسه أو أبداها، فالأمر سواء بالنسبة لله، لا يتغير علمه ولا يزداد ولا ينقص. فعلمه شامل على مستوى واحد، ما حوته السماوات جميعها والأرض وقدرته تعالى لا تحدها حدود فهو القادر على كل شيء.

### 30- يوم تجد كل نفس...والله رؤوف بالعباد.

ويعرض القرآن صورة مجسمة للمصير. اليوم الذي تجد كل نفس قائمة أعمالها الخيرة حاضرة وضاءة براقة، وما عملت من سوء وشر حاضرا مكشوفا، تود أن يتأخر ظهوره أطول ما يكون من الآماد. إنه بهذا العرض يعظكم الله ويحذركم، وذلك لأنه رؤوف بعباده لا يرضى لهم الكفر والخسران. إن سر قوة هذا البناء المحكم هو حب الله. وحب الله الذي لا يتحقق الإسلام إلا به له علامة تُعْرَفُ بثبوته،( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ) أمارته الحرص على الالتزام بتطبيق ما بلغه وقرره وبينه رسول الله ﷺ.

### 31- قل إن كنتم تحبون... والله غفور رحيم.

إنه إذا وُجد هذا اللازم من الحرص على اتباعه تحصل النتيجة، وأية نتيجة؟ هي أعز ما يطمح المؤمن أن يحصل عليه: محبة الله للعبد بمعنى إكرامه وإعانته وفتح أبواب الخير والنجاح له، ثم يمحو ذنوبه على ما قصر في جنب الله، يطهره من جميع الآثام فيعرض يوم القيامة وضاء نقيا.

**32-قل أطيعوا الله ... فإن الله لا يحب الكافرين.**

ويؤكد القرآن على طاعة الله والرّسول. وينتهي إلى أنهما طريقان متقابلان، فمن تولى وأدار ظهره لطريق التطبيق والالتزام بشرع الله، فجزاؤه مقابل لما جوزي به الصادقون من المؤمنين: إن الله لا يحب الكافرين. يعذبهم ويخزيهم ويوهن أمرهم، ويسلبهم الأمن والطمأنينة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (33) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (38) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (40) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (41)﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**اصطفى:** اختار

**آل إبراهيم:** قرابة إبراهيم

**أنبتها نباتا صالحا:** أنشأها إنشاء صالحا.

**رزقا:** ثمارا في غير فصولها

**المحراب:** مكان مرتفع، يخصص للعبادة.

**الحصور:** الذي لا يرغب في قربان النساء.

**العاقر:** المرأة التي لا تلد.

**الرّمز:** الإشارة الدالة سواء أكانت بالشفتين بدون نطق أو بغيرهما.

**بيان المعنى الإجمالي:**

اختار الله من بين البشر آدم فجعله أبا للبشرية، واختار نوحا ليكون أول رسول، واختار إبراهيم وقرابته فكان إبراهيم أبا للأنبياء، واختار آل عمران مريم وعيسى. وآل إبراهيم وآل عمران ذرية متصل بعضها ببعض. ومن خبر آل عمران أن امرأة عمران أحست بالحمل فنذرت أن يكون حملها خالصا لخدمة بيت المقدس ظنا منها أنه ذكر. فلما وضعت حملها تبين أنه أنثى. وسمتها مريم تيمنا بمريم أخت موسى وهارون، ولأن والد مريم سميٌ والد ابنتها. وتوجهت إلى الله أن يحفظها ويحفظ ذريتها من وسوسة الشيطان. تقبل الله دعاءها، ويسر لها تربية صالحة في رعاية صالحة، ولما كان عمران والدها قد مات وهي في بطن أمها تولى زكرياء كاهن بني إسرائيل كفالتها. وظهرت لها كرامات، منها أنه كلما دخل عليها زكرياء في محرابها وجد عندها رزقا. وسألها زكرياء عن مصدر تلكم الثمار، فكان جوابها: هي منحة من الله، إن الله يرزق من يشاء من عباده ولا حد لفضله. وفي ذلك المقام توجه زكرياء بالدعاء أن يرزقه الله ذرية صالحة. وختم ابتهاله بثقته في قربه من ربه الذي يسمع دعاءه. واستجاب الله له، فجاءته البشارة وطرق سمعه نداء علوي من الملائكة وهو قائم يصلي في محراب مريم، إن الله يبشرك بولد اسمه يحيى يصدق بكلمة من الله، وسيدا في قومه، ولا يهتم بقربان النساء، يؤتى النبوة، وهو واحد من الصالحين. وتعجب زكرياء كيف يكون له ولد وأسباب الإنجاب مفقودة. فهو قد هرم وامرأته عاقر لا تلد. وكان الجواب: لا تعجّب ! كهذا الأمر يحقق الله فعله، فالأسباب العادية التي وضعها الله لا يعقل أن تمنعه سبحانه من تحقيق مراده. وطلب زكرياء أن يقيم له علامة يعرف بها متى سيتم وعد الله له. فكانت الآية منه ذاته: أن يعجز عن النطق ثلاثة أيام. وهو في تلك الأيام مأمور بالانغماس في الذكر والتسبيح لله في جميع الأوقات من العشي إلى الصباح.

**بيان المعنى العام:**

**33-34، إن الله اصطفى...من بعض والله سميع عليم.**

نوه الله ببعض المفضلين من البشر الذي أكرمهم سبحانه بكرامات هي من فضله، واسألوا الله من فضله، فذكر أنه اختار آدم أبا للبشرية وأكرمه بما تناسل منه من الأنبياء والصالحين وبمحمد ﷺ. واختار نوحا ﷺ ليكون أول من يتحمل الرّسالة لهداية العالمين، واصطفى آل إبراهيم عليه السلام بما تناسل منه من الأنبياء والرّسل وخاتمتهم محمد ﷺ. واختار آل عمران والد مريم بما أجرى على ابنته من كرامات سيفصلها القرآن. وهم ذرية متصلة الأنساب في دمائهم، ويمثلون وحدة في سلوكهم. وهذه الشهادة مؤكدٌ صدقها، لصدورها من الله الذي لا يغيب عن سمعه ولا عن علمه شيء.

**35-36، إذ قالت امرأة عمران...الشيطان الرّجيم.**

يبرز القرآن من بين هذه الفترات الطويلة فترة يفصل أحداثها: تحس امرأة عمران، كاهن بني إسرائيل، بحمل في بطنها. فتتوجه إلى ربها ناذرة ما في بطنها لخدمة بيت المقدس. ويموت زوجها قبل ولادتها، فتكون الصدمة الأولى، ثم يأتيها المخاض، فإذا المولودة أنثى، والإناث لا يتولين خدمة بيت المقدس وهي صدمة ثانية، وتتجه إلى ربها آسفة فتناجيه معبرة عن أحاسيسها: رب إني وضعتها أنثى، فهي قد صدمت إذ لم يتحقق لها أملها أن يكون مولودها ذكرا تهبه لخدمة بيت المقدس، وكأنها تمني نفسها ثم تتبين الحقيقة: إنها أنثى.

ويقطع حديث امرأة عمران، ويصرح القرآن بحقيقة هي من كلام الله: الله أعلم بنفاسة هذا الذي وضعته. ثم يعود الحديث عن امرأة عمران الآسفة: وليس الذكر كالأنثى. وتقبل وضعها، وتتخير لابنتها اسم مريم تيمنا بمريم ابنة عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام. وتلجأ إلى الله أن يتقبل هذه المولودة وأن يحوطها بعنايته، فيحميها وذريتها من وساوس الشيطان ونزغه.

**37- فتقبلها ربها... يرزق من يشاء بغير حساب.**

يصرح القرآن بأن الله تقبل هذه المولودة بأحسن قبول، وأحاطها بألطافه فتولاها بتيسير الظروف الملائمة لتنشأ على خير الوجوه وأكملها، فيسر لها أن يكون كافلها القائم على تربيتها النبي زكرياء، ويلهم زكرياء أن يقيمها لخدمة بيت المقدس لتكون أول أنثى تحظى بهذا الشرف. وخصص لها مكانا عاليا تعبد فيه ربها وهو

(المحراب) فالمحراب في شريعتهم مكان مرتفع معزول يصعد إليه بسلم ينفرد فيه الشخص بعبادة الله. كان زكرياء يرعاها ويتفقدها في محرابها.

ولشد ما كانت دهشته عندما تكررت ملاحظته: أنه كلما دخل عليها محرابها وجد عندها رزقا: ثمارا جنية في غير إبانها، ويسألها في دهشة من أين أتيت بهذه الثمار في غير فصل نضجها ؟ فتصرح بالكرامة لكافلها ،وتخبره: هي من عند الله، وتضيف: إن الله يرزق من يشاء من عباده رزقا لا يحد. تنفتح روحه على العطاء الإلهي ويمتلئ من الثقة التي لا تحدها حدود في فيوض خيراته ، يبتهل إلى الله أن يرزقه ذرية طيبة صالحة ويعبر عن ثقته في الاستجابة بأنه يدعو من يسمع ابتهالات أوليائه.

## 38-39، هنالك دعا...ونبيئا من الصالحين.

ويقوم في محراب مكفولته مصليا، فيسمع نداء الملائكة بالبشارة تفضل الله بتفصيلها تفصيلا يضاعف به مسرته. 1)أن سيولد له ولد – 2)اسمه يحيى – 3)يصدق هذا المولود بكلمة الله، ولم يبين المراد منها في ذلك الوقت، ولكنها تدل على أنه ولد صالح يبادر بتصديق كلمة الله. وسوف يظهر مما قصه القرآن أنه يبادر بتصديق (عيسى عليه السلام ) – 4)أنه جامع لشيم الرئاسة يطيعه الناس – 5) أنه لا يتعلق بالنساء ولا يرغب في الزواج – 6) أنه سيعطيه الله مرتبة النبوة – 7) أنه واحد من أسرة عباد الله الصالحين.

## 40-41، قال رب...وسبح بالعشي والإبكار.

البشارة عجيبة جدا، حملت زكرياء أن يحقق فيها كيف تبرزُ للوجود ؟ مع أنه قد بلغ سن الشيخوخة وأن امرأته؛ زوجته الوحيدة، عاقر لا تنجب. ويأتي الجواب من ربه: كذلك الإنجاز الخارج عن العادة بفعل الله في ملكه ما يشاء، لا تعطل إرادته عن النفاذ العوائد والأسباب الظاهرة. ويتيقن زكرياء باستجابة دعائه ويطلب من الله أن ينصب له علامة تعرفه بالوقت الذي سيسعد فيه بهذه الكرامة. ويعرفه ربه بعلامة ستكون من ذاته لا من أمر خارج عنه. إنه عندما يحبس لسانه عن النطق ثلاثة أيام متوالية، ولا يستطيع أن يتكلم بكلمة، ولا يتصل بالناس إلا عن طريق الإيماء والرّمز لمراده. ويأمره ربه أن يبالغ في الذكر الذي هو واجب الشكر، وأن يسبح ربه. يحتمل أن يكون التسبيح بما يدل على التنزيه للذات العلية، ويحتمل أن يكون مرادا به الصلاة في العشي والصباح.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلْعَـٰلَمِينَ (42) يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (43) ذَٰلِكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (46) قَالَتْ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ
لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ
ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى
بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ (51)

**بيان معنى الألفاظ:**

**اقنتي:** لازمي العبادة.

**المسيح:** الممسوح بدهن خاص.

**الوجيه:** المقدم على أمثاله.

**المهد:** صندوق من خشب من دون غطاء يمهد فيه فراش الصبي.

**الكهل:** من دخل في عشرة الأربعين.

**جئتكم بآية:** أرسلت إليكم مؤيدا بدليل صدق.

**أخلق لكم من الطين:** أصور لكم من الطين.

**الأكمه:** الأعمى، أو الذي ولد أعمى.

**الأبرص:** من البرص، وهو مرض يصيب الجلد.

**ما بين يدي:** ما تقدم قبلي.

**بيان المعنى الإجمالي:**

اعتنت هذه الآيات بتفصيل أخبار مريم وابنها عيسى ﷺ. وافتتحت بتوجه الملائكة لمريم قائلين: يا مريم إن الله قد اختارك مما يمكن للثقة في نفسها، وطهرك من الأرجاس والآثام، واختارك مفضلا لك على جميع النساء. يا مريم اشكري ربك على ما أفاض عليك من نعم فواصلي العبادة بإخلاص، واسجدي له، واركعي مع الناس. ويفصل القرآن بين أخبار مريم ليثبت صدق نبوة محمد ﷺ ، فيثبت أن ما قصه علينا من أخبارها هو من الغيب الذي أوحي له به فما كان مشاهدا لأخبارهمّ وهم يلقون الأقلام التي يكتبون بها التوراة ليقترعوا بها لإظهار من هو أحق بكفالة مريم. والخبر العجيب التالي قول الملائكة لمريم: إن الله يبشرك بأنك ستحملين بولد متفرد بمزايا: كلمة من الله – اسمه: المسيح عيسى ابن مريم – وجيه في الدنيا والأخرة – من زمرة المقربين عند الله – يكلم الناس في سن صباه الباكر في المهد – ويكلمهم بكلام النبوة عندما يبلغ سن الكهولة – وهو في جميع أحواله من الصالحين. توجهت مريم إلى ربها ليكشف لها حيرتها، كيف تحمل ولم تضاجع أي إنسان؟ يأتيها من الله ما يثبتها: كهذا الأمر العجيب يخلق الله ما يشاء بدون تقدم أسباب. إنه إذا قدر أمرا يأمره فيستجيب. ثم تواصل الآية تفصيل مزايا عيسى عليه السلام: يعلمه الكتابة فلا يكون أميا -يفتح قلبه للحكمة – يعلمه ما جاء في التوراة والإنجيل فلا يروج عليه أي تحريف- يرفعه إلى مقام الرسالة فيدعو بني إسرائيل – يدعوهم مظهرا لهم أنه مؤيد بآية من الله (معجزته) ويذكر لهم معجزاته التي منها:أنه يصور من الطين هيئة طير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله – أنه يعيد البصر لمن ولد أعمى أو لحقه العمى – ويبرئ من أصابه البرص- يرد الحياة لبعض الموتى- وكل ذلك بإذن الله – يعلمهم بما هو من أسرار بيوتهم من أكلهم وما يدخرونه. انتبهوا فكل ذلك دليل على صدقي إن كنتم من الذين حل الإيمان في قلوبكم. أنه يصدق التوراة التي تقدمته ولا يبطلها – أنه يخفف عنهم بتحليل بعض ما حرم عليهم – وجماع القول: أن الله ربي وهو ربكم فأفردوه بالعبادة. هذا الطريق الذي أدعوكم إليه هو الطريق المستقيم الموصل إلى النجاة.

## بيان المعنى العـــام:

نوه القرآن في الآيات السابقة بآل عمران فيمن نـــوه بهـــم. وعرضـــت هـــذه الآيـــة وحـــدة من آل عمران هي مريم وابنها عيسى ﷺ ، فلنتابع هذا العرض الشيق الممتع.

## 42-43وإذ قالت الملائكة...مع الرّاكعين.

يبدأ العرض بنداء صادر من ملائكة الله موجه إلى مـــريم بعـــد أن بلغـــت ســـن الشـــباب وهي مقبلة على العبادة فتفتّحت روحها لتلقي الفيـــوض الإلهيـــة. نـــداء تصـــغي لـــه بكـــل قلبها: يا مريم إن الله اختارك فأودع فيك مـــن الكمـــالات مـــا ميـــزك بـــه وطهـــرك مـــن الأرجاس والآثام ومن كل ما يحط مـــن كرامتـــك، واختـــارك مـــن بـــين النســـاء جميعـــا. والله أعلم، هل هو يقصد تفضيلها على نساء عصرها أو علـــى جميـــع النســـاء مـــن بنـــات آدم إلى يوم القيامة. يا مريم، توجهي بقلبـــك وروحـــك ومشـــاعرك مخلصـــة إلـــى الله في عبادتك، تقربي له بالسجود، وتقربـــي إليـــه بـــالركوع مـــع الجماعـــة. وهـــي مزيـــة لمريم إذ رخص لها أن تشارك مجـــامع العبـــادة مـــع الرّجـــال (مـــع الـــرّاكعين) ينقطـــع العرض ليتوجه الكلام إلى رســـول الله ﷺ، ليكـــون مـــا عـــرض ومـــا ســـيعرض مؤكـــدا لرسالته.

## 44-ذلك من أنباء...وما كنت لديهم إذ يختصمون.

ما عرضناه عليك هو من أخبار الغيب ما علمتها إلا بطريـــق الـــوحي منـــا إليـــك. إنـــك ما كنت مشاهدا لأحبار اليهود وهم يلقون أقلامهم التـــي كـــانوا يكتبـــون بهـــا التـــوراة. إذ كان من عادة الأحبار أنهم إذا اختلفـــوا فـــي أمـــر، التجـــأوا إلـــى القرعـــة، ويعتقـــدون أن الأقلام التي سمت بكتابة التوراة تعيـــنهم علـــى معرفـــة الحـــق ويـــذعنون لمـــا تظهـــره. ولما ولدت مريم وكانت ابـــن كـــاهنهم الأكبـــر عمـــران تســـابقوا لنيـــل شـــرف رعايتهـــا والقيام على تربيتها. وأراد الله أن يفـــوز بـــذلك نبيـــه زكريـــاء. مـــا كنـــت يـــا محمـــد حاضرا وهم يختصمون فيمن يفوز بكفالة مريم. ولكنـــه مـــن علـــم الغيـــب الـــذي علمـــك الله.

## 45-46، إذ قالت الملائكة...من الصالحين.

يعرض القرآن، بعد هذا الفصـــل المؤكـــد لصـــدق النبـــي ﷺ، خطـــاب الملائكـــة لمـــريم فيعلمونها بأمر مثير للعجـــب والاســـتغراب: يـــا مـــريم، إن الله يبشـــرك، أنـــك ســـتحملين بكلمة الله، ثم يجرون على هذه البشارة مميزاتهـــا: **اســـمه المميـــز لـــه:** المســـيح عيســـى ابن مريم. **مسيح** : يمسح بالزيت على الطريقة التـــي مســـح بهـــا موســـى أخـــاه هـــارون لما قبله الله أن يكون وزيرا له، وعليها يمسح من يملك فـــي بنـــي إســـرائيل. **وجيـــه فـــي**

**الدنيا والآخرة**، رزق القبول والتقدم على الناس، محترم فيهم، حيثما أقبل بوجهه عظم وروعي، يجمع بين وجاهة الدنيا والآخرة. **يكلم الناس وهو ما زال في مهد الصبا** (الصندوق من الخشب الذي يمهد فيه للصبي فراشه في بواكير صباه) كما سيكلمهم عندما يبلغ قوة الكهولة فيدعوهم إلى الله ويبلغهم شريعته. هو من زمرة عباد الله الصالحين الذين تولاهم الله بالهداية والرّعاية.

## 47-قالت رب أنى يكون لي غلام... يقول له كن فيكون.

يبلغ العجب من مريم الغاية ، وتنقطع عن الملائكة وتتوجه إلى ربها كي يزيل حيرتها: رب أنى يكون لي ولد ، كيف يتأتى لي أن أحمل ولم يضاجعني أي إنسان، فأنا ما زلت بكرا كما تعلم. ويأتي الجواب حاسما معللا من الله. كذلك الأمر يتم تصرفي. فالله إذا أراد إحداث شيء لا يتوقف على تتابع الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج، وإنما هو الطوع لإرادته، فإذا أمر وقال لشيء: كن. يصاحب أمره حدوث ما قدر وأراد. وقوله تعالى ( كن) هو تمثيل للتقريب لأذهان البشر ، والحقيقة أنها الإرادة يعقبها بدون تراخ حصول المراد.

## 48←51: ويعلمه الكتاب...هذا صراط مستقيم.

ثم يتتابع كلام الملائكة وهم يعرفون بمزايا عيسى ﷺ:إن الله سيعلمه الكتابة فلا يكون أميا. يعلمه الحكمة فهو يدرك دوما حقائق الأمور وعللها وغاياتها ومبانيها. يعلمه التوراة فلا يروج عليه تحريف المحرفين ولا تأويل الجاهلين فهو يفهمها كما قصد منزلها. يعلمه الإنجيل الكتاب الذي خصه به فلا يفوته شيء من مقاصده ومراميه. أنه سيبلغ به شرف الرّسالة فيرسله الله لبني إسرائيل قومه. يعرض عليه الملائكة طريقته في الدعوة إلى الله وهو مازال في عهد البشارة به. وما يتأيد به من عند الله: إني أعمل من الطين صورة طير ثم أنفخ فيها فتكون، بإذن الله الخلاق العليم، طائرا حقا. إني أبرئ الأعمى الذي ولد فاقدا للبصر أو الذي عمي بعد ذلك، فيصبح بصيرا يرى رؤية سليمة بإذن الله.

أبرئ الأبرص، وهو مرض جلدي، يبلغ مستويات مختلفة، كان منتشرا في ذلك العهد، ويبدو أنه كان عصيا على العلاج. فكان عيسى عليه السلام إذا مسح الأبرص شفي بإذن الله. مكنني ربي من رد الحياة على بعض الموتى بإذنه. أستطيع أن أخبركم ببعض أسرار البيوت التي لا يعلمها إلا صاحبها، فأنبئكم بما تأكلون فيها، وأنبئكم بما تدخرون، كأني أعيش داخل البيت. وذلك بفضل ما يكشفه لي ربي.

**والخلاصة**:أن في كل ما ذكرته لكم ما يقوم دليلا على تأييد الله لي فآمنوا بما أرسلت به إليكم إن عمر قلوبكم نور الإيمان الهادي لقبول ما جاء من عند الله. يبين مركزه بالنسبة لما سبقه من التوراة المنزلة على موسى، فيقول: إن موقفي منها يتمثل في ناحيتين:

**الناحية الأولى**: أني أؤكد ما جاء في التوراة وأصدق به.

**الناحية الثانية**: أني أحل لكم بعض المحرمات التي كان الله حرمها عليكم. فهو يقر أصل التوراة إقرارا لا ينافي أنه ينسخ بعض أحكامها تبعا لما ينزله الله عليه. ويأمرهم أن يتقوا الله التقوى التي تحل في القلوب فتجعلها حريصة على اتباع ما يأتيها من ربها، ولا تظهر تقواهم إلاّ إذا أطاعوه. وسيختم عيسى عليه السلام إقناعه لبني إسرائيل بدعوته التالية: إن الله ربي وربكم كلنا عبيده وكلنا خلقه، فأخلصوا عبادتكم له، هذا طريق مستقيم يصل بكم إلى الحقيقة وإلى السعادة.

۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الحواريون:** لقب لأنصار عيسى عليه السلام.

**الشاهدين:** الشاهدين للرسل بالصدق.

**المكر:** تدبير يقصد به إيقاع الضر بطرق خفية.

**مطهرك من الذين كفروا:** عاصمك من اليهود الكافرين بك فلا يمكنون من إهانتك.

**مرجعكم:** البعث للحساب.

**المباهلة:** الدعاء باللعن.

**بيان المعنى الإجمالي:**

طوى القرآن مراحل حمل مريم بعيسى وولادته ونشأته، وقد تحقق كل ما بُشرت به أمه، وابتدأ ﷺ في نشر دعوته وعرض آياته المؤيدة. فقابل اليهود دعوته بالرفض وكفروا به. عندها دعا عيسى دعوة عامة: من ينصرني على نشر دين الله ؟ فأسرع لإجابته الحواريون معلنين أنهم قرروا أن ينصروا دين الله، وأن الإيمان قد تمكن من قلوبهم، وطلبوا من عيسى ﷺ أن يشهد بإسلامهم، وتوجهوا إلى الله بقولهم: **ربنا إننا أسلمنا وجوهنا إليك فاكتبنا عندك من الشاهدين على رسلك بالتبليغ.**

أخذ اليهود يخططون في خفاء وينصبون حبائلهم للإضرار بعيسى، ويحرضون ولاة الأمر على قتله. وسعيهم هذا فاشل في النهاية لأن الله قدر حماية رسوله من مكرهم. أيس عيسى ﷺ من إيمانهم، بل حتى من مهادنته. وعندها أعلم الله عيسى ﷺ بالقرار الحاسم للموقف المتضمن:1) انتهت حياتك في هذا الوسط – 2) إني رافعك إلي – 3) إني حاميك من الكافرين فلا يستطيعون النيل من كرامتك – 4) إن دعوتك سيكتب لها الظهور فقدرت لمن يؤمن بك أن يكون أعلى وأرفع ممن يكفر بك إلى يوم القيامة – 5) إني سأظهر صدقك وأصدر حكمي بينك وبين الذين كذبوك. وعرفه بهذا الحكم فقال: أما الذين كفروا بك فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة ولا يجدون نصيرا يخرجهم من العذاب، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيجزيهم بكل ما قدموا من صالح العمل. وحقق هذا الجزاء بأن الله لا يحب الظالمين، فيعاملهم معاملة عادلة بدون رحمة، ويفهم منه أنه يحب المقسطين فيعاملهم معاملة الرّحمة والعفو والتكريم.

ويصرح القرآن بالغاية من التفاصيل الواردة في الآيات السابقة: ما تلوناه عليك يا محمد من الآيات شاهد على صدقك، فما كان لك أن تعلم تلك التفاصيل لولا أنا أوحينا إليك، وهو ذكر يوصل المؤمنين إلى الحكمة؛ ومن الحكمة كشف الغطاء عن السر الذي تاه فيه اليهود والنصارى وضلوا (ولادة عيسى من أم بدون أب) حمل

اليهود على تكذيبه والإساءة إليه وإلى أمه والطعن في نسبه. وحمل النصارى على ادعاء أنه ابن لله. أبانت الآية أنه لا عجب في ذلك، فقبل عيسى يؤمن أصحاب الديانات كلهم، أن آدم أبو البشر جميعا قد خلقه الله من تراب، لم يتوسط في إيجاده أم ولا أب ، ولما تعلقت الإرادة بإيجاده صدر الإذن فوجد. بكلمة كما وجد عيسى بكلمة. فهذا الذي بيناه هو الحق فلا يدخل الشك نفسك والمراد من ذلك التعريض بالنصارى. تمسك بما أوحيناه إليك، فهو الحقيقة التي لا شك فيها. وإذا أخذ العناد بعقول النصارى وواصلوا مجادلتك بعد ما جاءك من الحق والعلم اليقيني فادعهم للمباهلة: فليدع كل منا من معه. ندعو أبناءنا وتدعون أبناءكم، وندعو نساءنا وتدعون نساءكم، ونحضر نحن وتحضرون أنتم، في مشهد نبتهل فيه إلى الله أن يصب لعنته على الكاذبين. إن ما أوحيناه إليك من سرد لما تم في أمر عيسى عليه السلام هو القصص الحق الذي يسجل الواقع كما تم حدوثه. يشهد لصدقه أن لا إله إلا الله، والله لا بد أن يكون موصوفا بالعزة غالب لا يغلب، فاعتقاد النصارى أن المسيح إله وأن اليهود تسلطوا عليه وقتلوه تناقض غير معقول، وهو حكيم وحكمته توجب قدرته على إفساد خطط الكافرين ومكرهم. إن النصارى إذا تولوا ولم يقبلوا المباهلة فلا تبتئس فإن الله عليم بالمفسدين، على معنى أنه سيجازيهم بما عزموا عليه من الفساد.

**بيان المعنى العام:**

**52، فلما أحس عيسى منهم الكفر... واشهد بأنا مسلمون.**

طوى القرآن التعرض لفترة حمل مريم بعيسى وفترة صباه وشبابه. وكيف ابتدأ دعوته ، وذلك اكتفاء بما تلقته مريم عليها السلام من تفاصيل لا يمكن إلا أن تتحقق في دنيا الواقع، وقد تحققت. وتبدأ القصة من تسجيل عناد وتكذيب اليهود لعيسى، حتى أصبح كفرهم واضحا أحس به إحساسا قويا وصل به إلى حد الإياس من اهتدائهم. كذبوه واستهزأوا به ورموه بكل منكر، فنادى في المجامع: من ينصرني لإبلاغ كلمة الله ؟ وهذا شأن رسل الله أنهم يحرضون الناس على تأييد الحق وعلى نصره ليكتب لهم منازل السابقين. أسرع الحواريون اثنا عشر رجلا حسب الرّواية للاستجابة لندائه، قالوا: نحن أنصار دين الله ، آمنا بالله وبك رسولا، فاشهد علينا أنا قد أسلمنا وجهنا لله. ثم توجهوا إلى الله مبتهلين متقربين إلى ذاته العلية (ربنا) بما يوحي به لفظ الرّب من الاتصال والقرب، مسجلين.

**أولا:** أن الإيمان بما أنزلته على عيسى قد استقر في قلوبنا وعقولنا.

**وثانيا:** أننا لا نخرج عن المنهج الذي يسطره عيسى نتابعه بكل حب ورضا.

**وثالثا:** أننا نطلب منك ربنا أن تثبّتنا ثباتا دائما على ذلك حتى نكون من الشاهدين بصدق عيسى وصدق رسل الله جميعا.

وتقابل الفريقان. الفريق الأول: عيسى ومعه قلة من الناس على رأسهم الحواريون، والفريق الثاني: اليهود بكهانهم وتجارهم وفلاحيهم وأتباعهم.

أخذ الفريق الثاني يخطط للمكر بعيسى، يحرضون السلطة عليه ليحملوا بيلاطس، الوالي على بيت المقدس، أن يأخذ القرار بقتله. على أنه مفسد مهيج للمجتمع مفرق للكلمة.

## 54-ومكروا ومكر الله..والله خير الماكرين.

في مقابل مخططهم الخبيث يخبر الله أنه يمكر بهم فيفسد مخططاتهم ويحمي عيسى من مكائدهم (والله عندما يحبط مخططات الفاسدين يحصل بذلك الخير للناس).

## 55-إذ قال الله يا عيسى... تختلفون.

أعد اليهود كل ما يمكنهم إعداده للقبض على عيسى ثم القضاء عليه. ويخبر الله كلمته بأمور: 1)إني متوفيك 2) إني رافعك إلي 3)إني مطهرك من الذين كفروا 4) إني قدرت أن يكون المؤمنون بك ظاهرين على الذين كفروا بك في الحياة الدنيا إلى يوم القيامة 5) وفوق هذا أنكم ستعودون إلى حكمي يوم القيامة فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون6) الكافرون أعذبهم عذابا أليما وأمقتهم فلا يجدون نصيرا – 7) المؤمنون الذين عملوا الصالحات لا يضيع من صالح أعمالهم شيء، أوفيهم أجورهم 8) إن الله لا يحب الظالمين فهو يمقتهم ولا يصلهم شيء من واسع رحمته، ويفهم منه أنه يحب المقسطين فيدخلهم في رحمته التي وسعت كل شيء. لنتتبع ما أوحى الله به إلى عيسى وهو ما حققه فعلا.

**أولا: إني متوفيك:** الظاهر من هذا التركيب إني مُنْهٍ حياتك بيدي وأحول بينك وبين اليهود فلن يصلوا إليك. يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن عيسى ﷺ:فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم[1]. وكثير من الآيات القرآنية المراد من التوفي هو إنهاء الحياة. وإنهاء حياته على تلكم الطريقة محبط لكيد يهود.

**ثانيا: رافعك إلي:** الظاهر حمله على تكريمه بمنزلة رفيعة خاصة عند الله. ويبعد أن يكون معناه رفعه إلى السماء أخذا من هذا النص. وذلك لأنه لا يقبل أن يظن أن الله في السماء وأنه رفعه إليه في السماء، لأن الله يتعالى عن المكان. والأرض

---

[1] سورة المائدة 117

والسماء كلها أمكنة وأبعاد. وأخبر الله عن إدريس فقال: (ورفعناه مكانا عليا)[1] ولقد صعد رواد الفضاء إلى القمر وهم يعدون لبلوغ ما هو أبعد من ذلك، ولا يوجب ذلك كرامة زائدة لهم في مقاماتهم الإنسانية.

**ثالثا: مطهرك من الذين كفروا:** مُنجّيك من تسلط الذين كفروا. لأن تسلطهم عليه يجعل خبثهم ورجسهم يصل إليه، مع ما صحبه من قصد الإهانة.

**رابعا:** جعل إلهي أن من آمن بك يا عيسى منصور غالب لمن كفر بك ما بقيت الدنيا.

**خامسا:** وبعد ذلك فستعودون جميعا إلى الله الذي يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، إذ النصر الدنيوي لم يُرضخ اليهود الكافرين للإيمان بعيسى.

## 56-57، فأما الذين كفروا...الظالمين.

**سادسا:** تصريح بالحكم الذي سيصدره رب العزة يوم القيامة: أما الذين كفروا بك فسأعذبهم عذابا شديدا يفوق التصور.

**سابعا:** الذين آمنوا بك وقرنوا الإيمان باتباع ما جئت به فكانت أعمالهم صالحة، يجزيهم جزاء وافيا لا يضيع من أجورهم شيء.

**ثامنا:** يتأكد الوعد والوعيد بإبراز الحقيقة التالية: إن الله لا يحب الظالمين. وهي تفيد بلفظها أنه لا يتجاوز عن أي منكر من أفعالهم ولا يطمعون في رحمته. وفي المقابل فإن المقسطين الذين لا يتجاوزون حدود ما جاء به عيسى ويراعون في أعمالهم أن تكون على وفق هدايته يحبهم الله، ومن أحبه الله أعانه على الخير وضاعف حسناته وغفر سيئاته.

## 58←60 - ذلك نتلوه عليك... فلا تكن من الممترين.

بعد أن سجل القرآن ما خاطب الله به عيسى، وقد نفذه، توجه الخطاب لمحمد ﷺ مظهرا له الغاية من سرد ما تم لعيسى فيقول الله لنبيه: ما نتلوه عليك هو آية ومعجزة وذكر يحوي الحكمة ويبينها. وتتجلى تلكم الحكمة في إسعاده المسلمين بإدراك سر خلق عيسى من أم بدون أب، الذي حير البشرية التي لم تهتد بنور الإسلام وما يزال يحيرها. كفر به اليهود ورموه وأمه بكل منكر مستبعدين خلق إنسان بدون أب. وحير النصارى فزعموا أن الذي يصدر للوجود بدون أب لا بد أن يكون إلها أو ابنا لله. وتفرقوا في تلكم التصورات أحزابا وشيعا. ويأتي الحكم الفصل من القرآن: إن عيسى كلمة الله خلق بكلمة منه وله نظير في تاريخ البشرية. فأهل الديانات جميعا يؤمنون بأن أبا البشرية هو آدم وهو مخلوق من تراب بدون

---

[1] سورة مريم آية 57

أب ولا أم، وبكلمة الله (كن) فهذا هو الحق الذي فتحه لك ربك الذي تولاك. وإذا كان الخطاب لرسول الله فلا تكن من الشاكين، فإن المقصود به نهي النصارى عن التشكك في أمر عيسى بعد التوضيح والبيان الذي جاء به القرآن بالخبر الصادق الموحى به قرآنا شاهدا على أن هذه التفاصيل لا علم بها لرسول، وتقويم معلومات النصارى بسرد الحقائق كما تمت، مما يقبله العقل. ونقض دعواهم في إصرار أن عيسى إله.

### 61-فمن حاجك فيه...لعنة الله على الكاذبين.

إن وضع النصارى إذا كان هو مواصلة الجدل بالباطل فادعهم إلى المباهلة: تقدموا فلندع نحن أبناءنا ولتدعو أنتم أبناءكم وندعو نحن نساءنا وتدعون أنتم نساءكم، ونحضر نحن وتحضرون أنتم في هذا الجمع الرّهيب، ثم نبتهل جميعا إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذبين. يذكر كتاب السيرة أن نصارى نجران الذين قدموا على النبي ﷺ في المدينة وحاوروه في أمر عيسى وأنزل الله على رسوله ما يبطل ما اعتقدوه في عيسى، واصلوا تمسكهم بظواهر أولوها على غير وجهها (كلمة الله – ليس له أب...) فدعاهم الرّسول ﷺ للمباهلة ليقطع عنادهم. وامتنعوا من التقدم للمباهلة.

### 62-63، إن هذا لهو القصص...بالمفسدين.

يؤكد في خاتمة العرض أن ما تلقاه الرّسول من ربه هو القصص الحقّ الموافق للواقع والمنسجم مع قوانين العقل. فالله لا يكون إلا واحدا (ما من إله إلا الله) وأن الله لا يكون إلا عزيزا لا يقهر ولا يغلب ولا يؤذى ويستحيل أن يلحقه أذى. فاعتقاد: أن المسيح إله وأنه قتل وصلب بعد أن صاح صيحة عظيمة، كلام متناقض. وأن الله لا يكون إلا حكيما، وبعيد من الحكمة، أن يسلم نفسه للتعذيب. ويهون الله على رسوله بأن إعراض المعاندين سينقلب عليهم، فإن الله عليم بالمفسدين. وهو تهديد لهم بأنهم لا يفلتون من جزاء إفسادهم. وتطمين في الآن نفسه لرسول الله ﷺ.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ

فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**تعالوا:** أقبلوا.

**كلمة سواء:** كلمة نتحد فيها جميعا.

**أولى الناس:** أقربهم منه وأخصهم به.

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعوة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بعرض قضية لا يمكن أن يقع فيها خلاف نستوي جميعا في الإذعان إليها: أن نفرد الله بالعبادة، ولا نثبت الألوهية لأحد سواه، ولا نرفع بعضنا إلى مقام الألوهية. فإن أعرضوا فسجلوا عليهم أنكم مسلمون. ثم فند القرآن اعتراضهم على المسلمين فيما يثبته المسلمون لأنفسهم من أنهم على دين إبراهيم، وحاصل اعتراضهم أنه إذا كان الإسلام هو دين إبراهيم فقد زدتم فيه فلستم إذن على دين إبراهيم. وكان الرّد عليهم أنه لا علم لكم إلا ما جاء في التوراة والإنجيل وهما لم يتعرضا لدين إبراهيم بالتفصيل، وإذا كنتم لا تعرفون دين إبراهيم فمن أين لكم أن تحكموا على الإسلام بأنه زاد على دين إبراهيم؟ والتوراة والإنجيل متأخران على عهد إبراهيم فمن أين يأتيكم العلم بدين إبراهيم. ونحن نستند لكلام ربنا بما أثبته أن الإسلام على ملة إبراهيم. ثم صرح بالنتيجة التي لا تقبل منطقيا المجادلة فيها: أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا، فلم يرد لا في التوراة ولا في الإنجيل أن واحدا منهما جدد دين إبراهيم. وإذ نفى عن إبراهيم كونه يهوديا أو نصرانيا أثبت له أن عقيدته كانت قد اتخذت طريقا مختلفا عن جميع التصورات التي كانت في عصره، مال عنها جميعا وهو معنى **(حنيفا)** وأسلم وجهه وروحه لله الواحد الأحد. ودعوى مشركي مكة أنهم على دين إبراهيم كلام باطل لأن إبراهيم ما كان مشركا ولا صلة له بالمشركين. وانبنى على ذلك أن أقرب الناس من إبراهيم:

**أولا:** هم الذين آمنوا به في ذلك العهد كلوط وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن اتبع دينه قبل أن يدخله التحريف.

**ثانيا:** هذا النبي الكريم محمد ﷺ الذي أحيا أصول الحنيفية بما أنزل عليه من ربه .
**ثالثا:** أمة محمد التي ضمن لها الله نقاء دينها بفضل القرآن الكريم. ويجمع الكل عقد شرف أنهم أولياء لله والله وليهم.

**بيان المعنى العام:**

**64-قل يأهل الكتاب... فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.**

على منهج القرآن الرقيق المحتكم للعقل، يأمر الله نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى أن يقروا مع المؤمنين بالإسلام، في أمر يستوي فيه البشر جميعهم. يتمثل ذلك في القيم التالية:

**أولا:** نتفق على أن نخص الله بالعبادة، فلا نعبد أحدا سواه، لا صنما، ولا بشرا حيا ولا ميتا. نتحرر من الخضوع لأية قوة كيفما كانت، نعتز بأننا لا نخضع ولا نركع لأحد سواه.

**ثانيا:** أن لا نشرك بربنا شيئا، فلا نجعل بيننا وبينه واسطة لا حبرا ولا راهبا ولا رجلا ولا امرأة.

**ثالثا:** أن تكون الشريعة التي نطبقها في حياتنا ونلتزم بها هي شريعته. فلا يتسلط أحد علينا ليلزمنا بما يريده ويخضعنا لأحكامه.

هذا هو التحرر والعزة التي ندعوكم إليها. وهذه دعوة فيها إنصاف يستوي به البشر جميعا. يقول الله بعد ذلك: فإن أعرضوا عنكم وواصلوا عنادهم فسجلوا عليهم: أنكم مسلمون وجوهكم لله الواحد الأحد.

**65-66، يا أهل الكتاب...والله يعلم وأنتم لا تعلمون.**

ويعرض القرآن صورة أخرى من جدال أهل الكتاب، ذلك أنهم ناقشوا الرسول ﷺ في دعواه أنه على دين إبراهيم وقالوا له: إن ما جئت به، فيه زيادات على ما جاء به إبراهيم. ويلقن الله رسوله ما يرد به لجاجهم ، فيُقَرِّعُ أهل الكتاب بأنهم يجادلون في إبراهيم ويقارنون بين دينه وبين ما أتى به محمد، ومن أين لهم أن يعرفوا دين إبراهيم ؟ والتوراة والإنجيل الكتابان المرجعان لهما ما بينا شريعة إبراهيم، وما أنزلا إلا بعد إبراهيم بأزمان، وما جاء فيهما ما يكشف عن دين إبراهيم. فهل فقدتم عقولكم لتقولوا: دين إبراهيم مغاير لما جاء به محمد ؟ ها أنتم تقدمتم في جدالكم مع الرسول ﷺ في شأن موسى أو عيسى على حسب ما استقر في أذهانكم مما علمكم أحباركم أو رهبانكم، فكيف تحاجون في إبراهيم وليس لكم به أي علم لا من علمائكم ولا من كتبكم. وهنا يبدو الفارق بينكم وبين المسلمين فإن الله أعلم

نبيه بالوحي الصادق منه وهو العليم بدين إبراهيم بأن الإسلام متفق مع دين إبراهيم في عقيدته وأصوله.

### 67- ما كان إبراهيم...وما كان من المشركين.

الحقيقة التي يصرح بها القرآن في شأن إبراهيم هي: أن إبراهيم ما كان يهوديا، وما كان نصرانيا. وإذ نفى عنه أي صلة باليهودية والنصرانية، أثبت له : أنه كان حنيفا رافضا لجميع صور التدين التي كانت في عصره مائلا عنها(وهو معنى الحنيف) أسلم وجهه وروحه وقلبه لله. وهو ليس من المشركين كما يدعي المشركون من العرب أنهم على دين إبراهيم.

### 68- إن أولى...والله وليّ المؤمنين.

وإذ تبينت الحقيقة فإن أقرب الناس لإبراهيم.

**أولا:** هم الذين آمنوا به كسيدنا لوط وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن تبعه وسار على هداه.

**وثانيا:** هذا النبي الذي أحيا سنة إبراهيم فأزال الأصنام وحطم الأوثان، وأعاد مناسك الحج كما كانت في عهده، ونشر التوحيد الخالص. فنقّى الحنيفية ملة إبراهيم من كل دخيل مناقض لصفائها، وكان لكتاب الله المنزل عليه الفضل في إحاطة الحنيفية بسياج يبقي على أصولها ما بقي الزمان.

**ثالثا:** الذين آمنوا بمحمد، هذه الأمة التي تخيرها الله لتكون شاهدة على الحق الوارد عليها من ربها وعلى الحق الذي تلقاه رسل الله ومنهم إبراهيم ﷺ . ويجمع الكل عقد شرف: أنهم أولياء الله والله وليهم، لا لنسب ولا لأن واحدا بذل نفسه لتكفير ذنوبهم وإنما لتمسكهم بدين التوحيد: الإيمان الخالص.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ

ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الطائفة:** جماعة من اليهود.

**وجه النهار:** أول النهار.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ودت جماعة من اليهود أن يضللوا بعض المسلمين وأن يشككوهم في الحق الذي أنزل عليهم. وهم عاجزون عن التأثير في المسلمين، فكانوا هم الضالين لرفضهم الدين الحق، وهم لتعصبهم لا يشعرون أنهم ضالون. ثم وبخ اليهود لكفرهم بالمعجزات التي أيد الله بها نبيه، ويخاطبهم: العجب أنكم تشهدون هذه الآيات تتوالى على أنظاركم ! ثم وبخهم لخلطهم الحق بالباطل حتى ذهبت الثقة بما بين أيديهم من الكتاب. ووبخهم لكتمانهم لما يعرفونه من الحق. وشنع على جماعة أخرى من اليهود عملوا على المخادعة، ذلك أن بعضا من رؤساء يهود قالوا لبعض أتباعهم: أظهروا دخولكم في الإسلام في أول النهار، ثم أعلنوا كفركم في آخر النهار على أنكم جربتم الإسلام فوجدتم أنه لا حقيقة له . ثم خافوا أن يستقر الإسلام في قلوبهم فأخذوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يغادروها. وبرروا ذلك: أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، على أن التوراة لا تقبل النسخ، ولا يستطيعون أن يحاجوكم عند ربكم. رد القرآن عليهم بصعقة تفسد مكرهم: إن الهدى هدى الله. وقد حرمكم إياه. فأنتم في ضلالكم سادرون. وقد تخلل هذا الرد مقالتهم. إن حسد اليهود حملهم على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم، بأن الفضل يملكه الله ويتصرف فيه وحده، يؤتيه من يشاء، ويصرفه عمن لا يريد أن يتفضل عليه. ومما ضل فيه اليهود أنهم لم يدركوا سعة فضل الله، وهو يختص برحمته بعض خلقه لا عن ضيق في سعة فضله ورحمته ولكن لحكمة، إنه صاحب الفضل الذي لا يحد.

**بيان المعنى العام:**

**69- ودت طائفة... وما يشعرون.**

لاقت الدعوة المحمدية في المدينة صنوفا من مكر اليهود ومن دسائسهم. واستقر في نفوسهم المريضة هاجس، حمل طائفة منهم على تمني أن يصلوا إلى إضلال المؤمنين، بالتشكيك في صدق ما جاءهم به رسول الله ﷺ. ويعلق القرآن على هذه

الخواطر بأنها لا تحقق غرضهم بل العكس هو الذي يحصل، ذلك أنه باستمرارهم على التعصب ضد الإسلام فإنهم ما أضلوا إلا أنفسهم وحرموها من الاهتداء بدين الحق.

### 70-71، يا أهل الكتاب لم تكفرون... وأنتم تعلمون.

ويوبخهم القرآن منكرا عليهم كفرهم بما شاهدوه ورأوه رأي العين من المعجزات والأدلة البينة الواضحة على صدق الرّسول. ويفضحهم القرآن بأن موقفهم من الإسلام لم يكن عن اشتباه أو حيرة وإنما تولد عن تعمد لكتمان الحق بل لخلط الحق بالباطل، بل لإكساء الحق ثوب الباطل وخلطه به حتى يضيع، وذلك عن قصد خبيث. وتلبيسُ الحق بالباطل يكون أشنع إذا صدر من أهل العلم.

### 72-73، وقالت طائفة... واسع عليم.

مع استبطانهم لإخراج المسلمين من دينهم ومع إخفائهم للحق وكفرهم بالآيات البينات، تبرز طائفة منهم مخادعة في مكر شديد. ما ذا صنعت هذه الطائفة الفاسدة؟ دعوا بعضا من أتباعهم الذين يطيعونهم أن يعلنوا إسلامهم في الصباح ويحضروا مجالس النبوة ويؤدوا صلاتهم مع المؤمنين حتّى إذ ا أدبر النهار في آخره، أعلنوا أنهم جربوا هذا الدين، فوجدوه لا ينطوي على صدق ولا يؤدي وظيفة الدين من الطمأنينة والوضوح. فيطعنوا بذلك في الإسلام من الداخل: على أنه لا يثبت على التجربة. وخشي رؤوس الكفر أن يثبت هؤلاء الماكرون الداخلون في الإسلام على هذا الدين. فشددوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يؤمنوا ولا يصدقوا إلا من اتبع دين اليهودية. ولا يصدقوا أي أحد يدعي أنه أوتي مثل ما أوتيه موسى من ربكم، ولا حجة لأحد عليكم عند ربكم. ويقطع القرآن بين أول وصاياهم لهؤلاء الأتباع وبين آخرها بما يبطلها جميعها. فإنهم بنوها على وهمهم أن الله فضل بني إسرائيل وموسى على العالمين تفضيلا حصر الحق فيما جاء به، فقال تعالى: إن هدى الله هو الهدى. فليس ما كتبه أحبارهم ولا ما توهموه من أن الهدى هو هدى موسى.

### 74- يختص برحمته... ذو الفضل العظيم.

ثم زاد هذا المعنى تأكيدا، إن الفضل العظيم الذي لا يبلغ إدراك سعته أحد ، هو ملك لله يتصرف فيه كما يشاء ويختار يؤتيه من يشاء وتصل آثاره لمن تعلقت إرادة الله أن تصل إليه. والله واسع فضله ، فقصْر فضله على موسى أو على بني إسرائيل هو وهم باطل، عقيدة وعقلا ، مناقض لعدم محدودية فضله. وهو نظير

رحمته التي وسعت كل شيء فجعل رحمته قاصرة على بني إسرائيل هو باطل أيضا وسخف من الظن.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)﴾

## بيان معنى الألفاظ:

**يؤده:** يسلمه.

**قائما:** حريصا ومواظبا على مطالبته.

**ليس علينا في الأميين:** ليس علينا في أكل حقوقهم.

**الأميين:** العرب لأنهم لا يكتبون.

**سبيل:** مؤاخذة.

**خلاق:** نصيب.

## بيان المعنى الإجمالي:

عرضت الآية منصفة أن من أخلاق بعض اليهود أنهم أمناء، وأن بعضهم تأصلت فيهم الخيانة فلا تستطيع أخذ حقك منه إلا إذا تابعت المطالبة، ويبررون خيانتهم بأن الله لا يؤاخذهم بسبب الاستحواذ على أموال العرب الأميين. ويكذبون على الله في وقاحة لأنهم يعلمون بأنهم كانوا كاذبين. والحق أن من أدى ما اؤتمن عليه واتقى فإنه يكون مع الذين فازوا بمحبة الله من المتقين. ومن أخلاق اليهود أنهم يبيعون ما عاهدوا الله عليه من إظهار الأحكام المنزلة عليهم، يبيعون ذلك حتى بثمن قليل جزاؤهم أنه لا نصيب لهم من الكرامة يوم القيامة ويحل عليهم غضبه ولا يغفر لهم ذنوبهم ويستحقون عذابا أليما. ومن أخلاق يهود أنهم يحاولون مغالطة المسلمين في قراءة نصوص التوراة فينطقون بها على وجه يحملها السامع غير

المتنبه على خلاف معناها الحقيقي ويظن أن تلك هو ما نزل في التوراة. وهو محرف غير ما أنزل. ويضيفون إلى ذلك أنه يكذبون على الله. وكذبهم متعمد.

**بيان المعنى العام:**

**75-76، ومن أهل الكتاب...والله يحب المتقين.**

عرضت الآية صورة من أخلاق اليهود اختلفوا فيها. وأنصفهم القرآن، فلم يعمم الفساد جميعهم. بعضهم أمين، إن استأمنته في قنطار من المال أو أكثر أو أقل أدى لك حقك بدون مماطلة، ومنهم من تأصلت فيه الخيانة فإذا عاملته أو استودعته ولو دينارا أعياك بالدوران والمماطلة، ولا تستطيع أخذ حقك منه إلا إذا واليت المطالبة وضيقت عليه. ويبررون أكل أموال الناس بالباطل، بأن الله لا يؤاخذهم إذا استولوا على أموال العرب الأميين. ويسجل الله عليهم كذبهم ويزيد في التشنيع بأنهم يعلمون الحقيقة، فيكونون قد جمعوا بين سفالة وإثم الخيانة ، وبين الجراءة بتعمد الكذب على الله الذي لا تخفاه خافية.

**77- إن الذين اشتروا...ولهم عذاب أليم.**

كذبوا على الله وخسروا آخرتهم لأن سنة الله الماضية: أن من أدى ما التزم به وحلت التقوى قلبه فإنه يظفر بأعز مطلوب: إنه داخل في زمرة الذين يحبهم الله، إن الله يحب المتقين. وبالمقابل فإن من يخون الأمانة ويغلب الحظ العاجل على تقوى لله فإنه يحل عليه غضب الله وسخطه. ومن انحراف اليهود عن الحق: أنهم يبيعون العهد الذي أخذ عليهم في التوراة، والالتزامات التي يعقدونها مع الناس، بل حتى ما يوثقونه بالأيمان، يبيعون ذلك ويتنكرون له، مقابل ثمن قليل لا قيمة له بالنظر إلى شرف الإنسان وخشيته من الله. لذا سجل القرآن جزاء استخفافهم بذلك أنهم محرومون من أية كرامة ولا نصيب لهم مما أعده الله لعباده الصالحين. ولا يقف جزاؤهم على الحرمان بل إن الله يحتقرهم فلا يكلمهم ، ويزيد في مقتهم فلا يغفر لهم ذنوبهم (ولا يزكيهم) ويحل عليهم غضبه فيكون مصيرهم بين المهانة والإهمال.

**78- وإن منهم لفريقا... ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.**

ومن مخازيهم أنهم دربوا ألسنتهم وطوعوها بطريقة تخيل للسامع الكلمة أنها تفيد معنى غير معناها، ويحسب تبعا لذلك أن المنزل ما سمعه محرفا بهذا اللّيّ. ولا يقفون عند هذا الحد بل يعمدون للكذب على الله فينسبون له ما اختلقوه، وهم يقصدون التحريف والكذب.

**تنبيـــه:**

توالى فضح انحرافات بني إسرائيل وتسجيل مآلهم وخسرانهم. وعلى المسلمين أن يعلموا أنهم لا ينقذهم انتسابهم للإسلام بالقول ومناقضة هدايته بالعمل والسلوك. إن كل ما ذكر عن اليهود ينبه المسلم أنه لا يشفع له إسلامه إذا سار على طريقة يهود. يكرر القرآن في صادق بيانه: الذين آمنوا وعملوا الصالحات. إن حب الضلال للناس، أو العمل على نشر الضلال، والمكر والحيلة، وخيانة الأمانة ولو كان المؤتمن غير مسلم، ومحاولة تبرير الخيانة، وتغيير مقاصد الإسلام وأحكامه طلبا للجاه أو للمال، كل ذلك يقرب المسلم الذي ينحط إلى دركات سلوك اليهود، يقربه من اليهود بمقدار ما يبعده عن جماعة المسلمين.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**ربانيين:** منسوبين لله أي مخلصين له.

**تدرسون الكتاب:** تقرؤونه قراءة تفهم وتدبر.

**الميثاق:** العهد.

**إصري:** عهدي وميثاقي.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إن من أنزل الله عليه كتابه، وشرح صدره بجودة النظر فعمر قلبه بالحكمة، وتخيره لمرتبة النبوة وهداية الخلق، لا يتصور منه أن يقول للناس: كونوا عبادا لي واتركوا عبادة الله. وهذا رد على النصارى الذين ادعوا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يعبدوه. إذ العبادة لا تقبل تعدد المعبود. إن ما يقتضيه من جمع تلكم المزايا أن يأمر الناس بأن يكونوا منتسبين إلى الله ربهم (ربانيين) يخلصون له وحده ولا

يشركون به أحدا في عبادته، لأن ذلك هو المنسجم مع علمكم بالكتاب، وبدراستكم له دراسة مكنتكم من مضامينه. وإن سياق أمره لكم بالتوحيد الكامل ينفي أن يكون أمركم بأن تتخذوا الملائكة أو الأنبياء أربابا من دون الله. إنه تناقض فهل يمكن أن يأمركم بما يوجب الكفر، مع اعترافكم بأنه رباكم على الإسلام ؟ ثم استحضر القرآن العهد الذي أخذه الله على جميع الأنبياء مذكرا به: هذا العهد المتضمن: أخذ الميثاق على النبيئين أن يبلغوا ما آتاهم الله إياه من الكتاب والحكمة، ثم بعد ذلك أن يأخذوا على أممهم أنه إذا جاءهم رسول يصدق الأصول التي جاؤوا بها، وهو محمد ﷺ، أن عليهم أن يؤمنوا به وينصروه. ثم أكد عليهم هذا الميثاق فقال لهم: هل أنتم مقرون بذلك وهل أخذتم عهدي على الوفاء بما التزمتم أنتم وأممكم به. قالوا: أقررنا. قال تعالى: فاشهدوا بذلك واعلموا أني شاهد عليكم. وإن من تولى من الأمم التي شهدتم عليها فأولئك هم أشد الناس فسقا.

**بيان المعنى العام:**

**79-80: ما كان لبشر... بعد إذ أنتم مسلمون.**

بعد أن كشف القرآن عن صور من مكر اليهود وفساد دخيلتهم وحاجهم وهددهم في الآيات السابقة، وجه عنايته لمحاجة النصارى وإظهار إعراضهم عن العقل فيما يدعونه دينا لهم. فقال تعالى: ما كان لبشر... بعد إذ أنتم مسلمون.

(لا يتصور ولا يعقل أن يكون واحد من البشر يتخيره الله ويقربه تقريبا يدل دلالة قاطعة على أنه صالح ظاهرا وباطنا - والله هو العليم بحال البشر في جميع أطوارهم، لا يتوقف علمه على ظهور حقيقة الإنسان بالممارسة للحياة- ثم يؤتيه ويمكنه من الكتاب المنسوب للذات الإلهية الحجة على الخلق، ويجري الحكمة على لسانه فيربي الناس على الإدراك الصحيح، ويؤتيه النبوة التي يكون بها مبلغا لتشريع الله للخلق)، لا يتصور فيمن هذه صفته أن يقول للناس: كونوا عبادا لي، توجهوا إلي بالعبادة وتقربوا إلي من دون الله. وذلك أن العبودية لا تقبل الشركة . فلما زعم النصارى أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يعبدوه، والعبادة لا تقبل الشركة، فمؤدى ذلك أنه أمرهم بأن يكفروا بالله. فلا يعقل أن يكون رسولا داعيا لعبادة الله، ثم في الوقت نفسه داعيا للانصراف عن الله إلى ذاته، داعيا للكفر لمن أسلم على يديه. وإذ استحال عقلا ،كما هو مستحيل واقعا، ما نسبتم لعيسى من أنه أمركم أن تجعلوه ابنا معبودا ، فالحق أن عيسى دعاكم لتكونوا ربانيين بسبب ما أوتيتم من العلم من الكتاب الذي نفى عن الله الشريك، وبسبب ما تحصل في قلوبكم من دراسة الوحي دراسة متأنية فاحصة. والرّباني كلمة مشتقة من الرّب على

صيغة المبالغة- كما تقول لحياني لعظيم اللحية وشعراني لكثيف الشعر - ويراد به: المؤمن بالله الجامع بين العلم الواسع والحكمة. وكما لا يعقل أن يأمركم بما ذكرتم، فإنه يستحيل أيضا أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا. ذلك أنهم ادعوا أن عيسى أمرهم أن يتخذوا صورا خيالية للملائكة وللأنبياء، وأن يعظموا تلكم الصور تعظيما وصل بهم إلى التقرب إليها وسؤالها.

إن التقرب بالسؤال والتقديس لغير الله كفر. وهل يمكن أن يأمركم بالكفر بعد أن حقق إسلامكم لله؟.

## 81-82، وإذ أخذ الله... فأولئك هم الفاسقون.

ويأتي بعد تلكم الأنواع من المحاجة وتبكيت اليهود والنصارى، يأتي بعد ذلك الإعلان عن حقيقة يعلمها الله وأراد أن يظهرها على أنها فذلكة لما سبق عرضه في الآيات. يذكر القرآن بالعهد الموثق الذي أخذه الله على جميع الأنبياء، أن يبلغوا ما آتاهم الله من الكتاب الموحى به إليهم وما آتاهم من الحكمة التي تستقيم بها عقول أتباعهم، هذا الميثاق مقترن بأمر هام فوق ذلك: هو أن يأخذوا على أتباعهم وعلى من يحمل الدين عنهم ميثاقا وعهدا أنه إذا جاءهم رسول من صفاته أنه يصدق الأنبياء الذين جاؤوا قبله، فلا ينقض ما بينوه من عقيدة ومبادئ عامة لصلاح البشرية، أن عليهم وعلى أتباعهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه نصرا مؤزرا. وبعد أن طاع كل نبي بإعطاء هذا العهد والميثاق المؤكد عليه وعلى من دعاهم، أحاط الله سبحانه هذا العهد بتأكيدات: قال الله تعالى: أقررتم بهذا العهد إقرارا ينفي إنكاره في يوم من الأيام أو ظرف من الظروف كيفما كان ؟ هل أخذتم على ذلك، الالتزام الموثق القوي العهد؟ أجابوا بقولهم: أقررنا.

وهنا أراد الله أن يؤكد عهده تأكيدا بالغا مبلغا عظيما من التوثيق فقال تعالى: اشهدوا على أنفسكم بذلك، وأنا الله العزيز الحكيم شاهد عليكم. هذا الميثاق أنه عندما يظهر محمد ﷺ ويبشر الناس برسالته أن تؤيدوه وتنصروه، وتدافعوا عن الحق الذي جاء به. واعلموا أن من لم يوف بهذا العهد ونكل فأولئك قد عظم جرمهم وهم الحقيقون بصفة الفسق.

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن

رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

**بيان معنى الألفــاظ:**

**تبغون:** تطلبون.

**أسلم:** استسلم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ما أبلغ عناد اليهود فهل يطلبون دينا غير دين الله الـذي انقـاد لــه مــن فــي السـماوات والأرض طوعا أوكرهـا بإلجـاء الأدلـة أو عنـد حضـور المـوت. أمـر النبـي ﷺ أن يقولها واضحة: آمنت أنا ومن معي بما أنزله الله علينـا مـن الحـق وبمـا أنزلـه علـى إبراهيم والأنبياء من ذريته إسماعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط، ومـا أوتـي موسـى من الهدى وما أوتي عيسى أيضـا. نـؤمن بجميـع أنبيـاء الله ولا نـرفض واحـدا مـنهم وقد أسلمنا وجوهنا وأرواحنا لله. وهذا هو ما يرضـاه ربنـا مـن البشـرية. فمـن يطلـب دينا غير هذا ، دينه مرفوض، وخسـر آخرتـه. يبعـد جـدا أن يمكـن الله مـن ألطـاف هدايته قوما كفروا بعـد إسـلامهم، وبعـد أن شـهدوا بصـدق محمـد، وبلغـتهم الأدلـة البينة. هم ظلموا بكفرهم والله لا يهدي القـوم الظـالمين. وقـد اسـتحقوا جـزاءهم لعنـة من الله ومن الملائكة ومن جميع النـاس خالـدين فـي المهانـة، لا يطمعـون أن يخفـف عنهم ما هم فيه. إن الله يغفر لمن تاب بعد كفره وحقـق توبتـه بصـالح الأعمـال لأنـه هو الغفور الرّحيم. وفي المقابل فإن الذين كفروا بعد إيمـانهم وانغمسـوا فـي الكفـر لـن ييسر الله لهم أسباب التوبة لأنهم الضالون. والذين كفـروا ومـاتوا علـى كفـرهم لا يقبـل منهم فدية ولو كانت مل ء الأرض ذهبا ولا يجدون من ينصرهم.

## بيان المعنى العام:

### 83-أفغير دين الله...وإليه ترجعون.

توبيخ لأهل الكتاب لرفضهم دين الله، بعد تذكيرهم بما أخذ عليهم من عهود. فأي دين يطلبونه، وقد استسلم لله وانقاد له من في السماوات والأرض، انقاد له بعضهم عن طواعية وحب في الحق وانقاد له بعضهم بعد الممانعة واضطرته الأدلة للإذعان له. وينقاد له الكافرون عندما يأتيهم الموت. والكل يرجع إليه ولا يخرج من قبضته ولا من مصيره الذي ألزمه إياه.

### 84-85، قل آمنا بالله...وهو في الآخرة من الخاسرين.

أمر النبي ﷺ أن يعلن:

أني آمنت والذين معي، آمنا بما أنزله الله علينا من قرآن وهدى، وبما أنزله على إبراهيم وإسماعيل واسحق (ولدي إبراهيم) ويعقوب ولد إسحاق، والأسباط الأنبياء من أولاد يعقوب، وما آتاه الله لموسى عليه السلام من الوحي، وما آتاه لعيسى عليه السلام. نؤمن بجميع أنبياء الله، لا نفرق بينهم، ولا نرفض أي واحد منهم، هم جميعا على حق أكرمهم الله بالنبوة ونحن مسلمون لله. وقطعا لجدال المكذبين يصدرها قاعدة عامة: من يبتغ دينا غير دين الإسلام الذي جاء به محمد، لن يقبل منه، ولا يضمن لنفسه النجاة في الآخرة وإنه لمن الخاسرين.

### 86- كيف يهدي الله قوما...لا يهدي القوم الظالمين.

إنه يبعد جدا أن يمكن الله من ألطافه قوما كفروا، بعد أن آمنوا وشهدوا بصدق الرّسول وأن ما جاء به هو الحق ووصلتهم الآيات البينة. إن الله لا يسعد بألطافه القوم الظالمين، فلا يهديهم إلى الحق.

### 87←89، أولئك جزاؤهم...فإن الله غفور رحيم.

صرح القرآن بجزاء أولئك الذين رفضوا دين الله بعد أن آمنوا به :جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس جميعا، كما جاء في الآية **(خالدين في عذاب جهنم، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون)**[1]، ليعودوا إلى الإيمان بالحق. وفي المقابل فإن رحمة الله تسعف من تاب من ضلاله وقرن توبته بصالح العمل حتى يظهر صدق توبته، وذلك أن الله غفور رحيم.

### 90-إن الذين كفروا...وأولئك هم الضالون.

---

[1] سورة البقرة الآيتان 160-161.

ويدقق القرآن فيقول : إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم تعمق ضلالهم ، وترسخ الكفر فيهم وتأصل، لا مطمع في توبتهم فضلا عن تصور قبولها. وأولئك هم الذين انغمسوا في الضلال فأحاط بهم.

### 91-إن الذين كفروا وماتوا... وما لهم من ناصرين.

أكدت الآية الأخيرة مضمون سابقتها، من ناحية أن من مات على الكفر لن يفيده شيء يمكن أن ينجيه من سوء المصير. هو يائس من رحمة الله ومغفرته، بل لو عمل على تقديم فدية لجبر نقص كفره تتمثل في ملء الأرض ذهبا، فلن يفيده ذلك، وهذا نوع من المبالغة لتيئيسهم ، لأن ملء الأرض ذهبا مستحيل يُقدّر كما يقدر المحال للدلالة بصفة مجسمة، على أن من مات على الكفر لا أمل له في عفو الله. أولئك قد حق فيهم القول: إن لهم عذابا أليما ولا يجدون نصيرا من شافع أو كفيل.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ



### بيان معنى الألفاظ:

البر: كمال الخير.

نال الشيء: حصل عليه.

### بيان المعنى الإجمالي:

تحريض للمؤمنين حتى يكون إيمانهم هاديا لهم إلى نيل مراتب الكمال في الخير الذي هو مسيرة متلاحقة إلى البر. ولن يحصلوا عليه إلا إذا طاعت نفوسهم ببذل ما هو عزيز عليهم. والله لا يخفى عليه شيء مما يعمله الإنسان.

### بيان المعنى العام:

### 92-لن تنالوا البر...فإن الله به عليم.

لقد ختمت الآيات السابقة بتيئيس اليهود والنصارى، المصممين على مناوأة الدعوة المحمدية، وكذلك من مات على الكفر، من رحمة الله. وشأن القرآن أنه يقرن النذارة بالبشارة، وعرض صورة النازلين إلى أحط الدركات، بصورة الصاعدين إلى المراتب السامية.

يرشد القرآن المؤمنين إلى الطريقة التي يصلون بها إلى نيل منزلة الأبرار فيقول: لن تصلوا إلى نيل البر حتى تقطعوا الطريق الطويلة المتتابعة في فعل الخير والبعد عن الشر، وللبر سماته التي تدل على أن حب الخير قد تأصل في أعماق النفس البشرية حتى أصبح نورا يضيء لها طريقها وقوة دافعة إلى النفس لتقبّل طائعة

القيام بما كان عسيرا شاقا. إنه ما تـزال الـرّوح تصـقل شـيئا فشـيئا بالطاعـة حتـى ينقلب ما كان منافرا لها محبوبا. فالعبادة فـي السـحر مـثلا تصـبح أليفـة الـنفس فتجـد فيها راحتها، (تتجافى جنوبهم عن المضـاجع يـدعون ربهـم خوفـا وطمعـا)[1] والمـال الذي من طبع النفس الشح به تصبح النفس تقدم على بذلـه بغيـر ممانعـة، ثـم يسـمو ذلك حتى يصبح الإنفاق لذة، فينفق النفيس الذي يضـنّ بـه عـادة ويحـب التمسـك بـه. إنه إذا وصل الإنسان في تزكية نفسه إلى هذا المقام، فـذاك منزلـة الأبـرار. ومـا يفعلـه هو البر. ويثبت الله المؤمنين على هذا السلوك بقولـه: إن كـل مـا يقـوم بـه الإنسـان من خير فإن الله به عليم. والتذكير بأن الله بـه علـيم، يفيـد أمـرين: أولا: أن الله يجـزي الإنسان بما قدمه وثانيا: أن مراتب الإخلاص يعلمها الله ولا تخفى عليه.

• كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الافتراء:** الكذب والاختلاق.

**بيان المعنى الإجمالي:**

ادعى اليهود أن التوراة حرمت أشياء أحلهـا الإسـلام، وهـم لا يـرون النسـخ فـأوهموا أتباعهم والسذج أن ذلك دليل على عدم صـدق القـرآن – ناقشـهم القـرآن فـي دعـواهم أن الله حرم في التوراة ما زعموا، ذلـك أن التحـريم صـدر مـن يعقـوب علـى نفسـه والتوراة نزلت بعد ه بأزمان. ولما كان من شأنهم العنـاد ألجـأهم القـرآن إلـى أن يـأتوا بالتوراة ليظهروا النص الذي يحتجـون بـه وهـو غيـر موجـود. وبـذلك يكونـون قـد كذبوا على الله واختلقوا أشياء من خيالهم نسـبوها إلـى الله. وكـذب اليهـود وصـدق الله. إن دعوة الإسلام تتبعهم دائما فأمرهم قائلا: اتبعوا ملـة إبـراهيم حنيفـا، فإنـه مـا كـان من المشركين.

**بيان المعنى العام:**

**93-كل الطعام... فاتلوها إن كنتم صادقين.**

---

[1] سورة السجدة آية 16

هذه الآيات ترد على اليهود افتراءاتهم التي يروجون لها ويبنون عليها نتائج باطلة كمقدماتها. عددوا أشياء محرمة عليهم نسبوا تحريمها إلى التوراة، وهي مما أباحها الإسلام. وبنوا على ذلك أن الإسلام يخالف الحق الوارد عن الله في التوراة ولذا هو ليس من عند الله.

ابتدأ الرّد عليهم بأن كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبني يعقوب عليه السلام. وإنما الذي وقع أن يعقوب حرم على نفسه أشياء إما زهدا، وإما لوضع صحي خاص به امتنع معه عن بعض الأطعمة تبعا لما وصف له أطباؤه. وهذا التحريم من يعقوب كان طبعا قبل أن تنزل التوراة على موسى بقرون. فما ادعوه من أن التوراة هي التي حرمت كذب على التوراة، وخلط بين محرمات التوراة وما حرمه يعقوب على نفسه ومن ناحية أخرى فما ذكروه من المحرمات فيه زيادة عما حرمه يعقوب. وليظهر القرآن كذبهم وافتراءهم، أمرهم أن يأتوا بالنص المثبت فيه ما ذكروه من المحرمات، وتحداهم بقوله: إن كنتم صادقين.

### 94-فمن افترى... فأولئك هم الظالمون.

ثم ألزمهم بالنتيجة المترتبة على عجزهم عن الإتيان بنص يصدقهم فيما قالوا. هذه النتيجة الطبيعية التي لا تقبل نقاشا ولا ردا هي: إن من افترى على الله الكذب بعد الرّجوع إلى التوراة التي احتججتم بها فأولئك هم الظالمون أشد الظلم بكذبهم على الله. وتعين أن يكونوا هم الظالمين لما عجزوا عن الإتيان بنص من التوراة يثبت مقالتهم.

### 95-قل صدق الله... وما كان من المشركين.

يصرح القرآن بالحقيقة الثابتة آمرا لرسوله أن يعلنها: قل صدق الله. وينبني على ذلك أنهم مأمورون باتباع ملة إبراهيم حنيفا كما فصلها القرآن، إبراهيم الذي ما كان مشركا بالله. ومحمد هو المظهر لليقينيات التي في دين إبراهيم.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**بكة:** مكة البلد، أو مكان البيت.

**البركة:** الزيادة والنماء – وتطلق على الدوام والثبات.

**بيان المعنى الإجمالي:**

حقق القرآن أن أقدم بيت بني لعبادة الله عبادة خالصة، هو البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكة. جعل الله البركة فيه باقية أبد الدهر، وفيه من الأسرار ما يعمق الشعور الديني الرّاقي. فيه آيات معجزة دالة على مزاياه، منها الحجر الذي قام عليه إبراهيم لبناء البيت. لان له وبقيت آثار قدميه ظاهرة وكتب الله الأمن لسكانه. وأكرمه بأن جعله مقصدا لأداء الحج الذي فرضه وألزم به كل من استطاع أن يجد طريقا إليه. ومن رفض الإذعان لفريضة الحج ورفض ما ألزم الله به عباده فلم يضر إلا نفسه، لأن الله غني عن العالمين جميعا لا يتأثر بطاعتهم ولا بعصيانهم.

**بيان المعنى العام:**

**96- إن أول بيت وضع للناس للذي...وهدى للعالمين.**

يؤكد القرآن على الاتصال بين إبراهيم عليه السلام وشريعته، وبين محمد ﷺ والدين الذي بعث به لختم رسالات الله للعاملين. ومن مظاهر هذا الترابط أن البيت الحرام، بناه إبراهيم عليه السلام ، بأمر من ربه بلغه إياه جبريل عليه السلام، وأعانه على إنجازه إسماعيل عليه السلام. فاجتمع في هذا البيت أمر رب الأرباب بواسطة ملك الوحي جبريل والعامل فيه إبراهيم والمساعد له إسماعيل. وهو شرف للكعبة لم يشاركها فيه أي بيت آخر. وبجانب هذه المزايا ما حققه القرآن، بأن هذا البيت هو أقدم بيت بني لعبادة الله وحده. واستمر كذلك عبر الأحقاب والعصور، حتى إنه في العصر الجاهلي بقي مستقرا في نفوس العرب، على وثنية عدد غير قليل منهم، أن الكعبة بيت الله. دونوا ذلك في أشعارهم، وطبقوه عمليا في طوافهم حول الكعبة. وما أقدم أحد على التشكيك في ذلك. حتى إنه لما قصد أبرهة الأشرم الحبشي الكعبة ليهدمها، كان جواب عبد المطلب: للبيت رب يحميه. وحماه الله فعلا. فاعتراض يهود على توجه المسلمين للكعبة، وادعاؤهم أن بيت المقدس أولى بالتوجه إليه، غير صحيح ولا مستند إلى دليل يؤيد دعواهم، بل ما ذكر في مزايا الكعبة يجعلها حرية بأن تكون قبلة للتقرب إلى الله من جميع العالمين. وبكة، ومكة، هل هما شيء واحد، أو مكة مكان البيت ،ومكة المدينة، أو العكس ؟ اللغة لا تنفي أي واحد من هذه الاحتمالات. أضاف الله لمزية سبقه على جميع البيوت المتخذة للعبادة أمورا: أن الله بارك فيه. وضروب البركة كثيرة- 1معنوية- 2) ومادية :

**فمن الأول:** أن الصلاة في حرمه تعدل أكثر من ألف صلاة. وأن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها، وأن الجلوس حوله والنظر إليه ينمي الطاقات الرّوحية،

ويشرح القلب، ومنها أن الطواف حوله عبادة، زيادة عن كونه ركنا من أركان الحج والعمرة.

**ومن الثاني:** أن ماء زمزم فيه خير كثير لشاربه، وهو بئر واحدة ومع ذلك يستقي منها الناس في مكة والمدينة ويحمل الحجاج والعمار كميات تقل أو تكثر، وهو معين لا ينضب . ومع أن مكة في واد غير ذي زرع، فإن صنوف الخيرات التي ترد إليها تدل على البركة فيها. **هدى للعالمين:** ميزة أخرى أن البيت هو القبلة التي ارتضاها الله ليتوجه نحوها البشر عند صلاتهم.

وإذا كان الإسلام قد نسخ جميع الشرائع السابقة فإن التوجه لبيت المقدس كان مما نسخ، ولم تبق قبلة يقبل الله الصلاة إليها إلا الكعبة البيت الحرام.

### 97-فيه آيات بينات... العالمين.

هذه الآيات كما يدل عليه لفظ الجمع هي كثيرة، وهي بينة لا يختلف فيها، فمن أوضح هذه الآيات أن الداخل للحرم يجد في روحه تساميا وطهارة وزكاء، ويشعر شعورا أقوى بصلاته مع إخوانه المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها. وكل من زاره يزداد شوقه إلى العودة إليه. وفيه مقام إبراهيم الباقي آية أبد الدهر على ما قارن بناءه من عناية وعون. ومنها أن البيت بمكان غير ذي زرع، والمشاهد قديما وحديثا، أن الخيرات موفورة فيه.

**مقام إبراهيم:** يتفق أهل الأديان الثلاثة أن إبراهيم عليه السلام جميع الأنبياء هم نسله . وإبراهيم أقام في مكة وبنى البيت بأمر من ربه مع ابنه إسماعيل . وكون إبراهيم أقام فيها وأقام أول بيت وضع للعباد بوحي من ربه، يدل على ما لهذا البيت من خصائص ميزها بها رب العالمين. من دخله كان امنا: امتن الله على قريش بأن الله أمنهم من خوف. وهذا الأمر قد تأكد بمجيء الإسلام. وأخذ الجاني بجنايته إذا ارتكبها في الحرم، أو لجأ إليه لينجو من العقوبة مسالة للفقهاء أنظار فيها.

**إيجاب الحج:** هذه الآية أصرح نص على وجوب أداء الحج الركن الخامس من أركان الإسلام. والرّاجح أنها نزلت في السنة الثالثة للهجرة، وقيل: في أواخر سنة خمس بعد غزوة الخندق. وقيل في سنة تسع. والذي يهمنا اليوم أن الحج ركن من أركان الإسلام، وأنه إلى البيت الحرام وما حوله من المناسك التي حددها النبي ﷺ، كما قال في حجته: خذوا عني مناسككم. وتلك مزية من مزايا البيت الحرام. وقد أكدت الآية القيام بأداء هذا الركن على كل من يستطيع القيام به. وقوله تعالى: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين،** وإن حمله بعضهم على التراخي عن أداء فريضة الحج حتى تفوت المتراخي وذلك كفر. ولكن إعمال الأدلة جميعها يرجح

أن المتراخي كافر بنعمة الله، أو تراخيه يجعله قريبا من الكافرين فهو تغليظ على المتهاونين.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**تصدون:** الصد الإعراض.

**تبغونها عوجا:** تطلبون لها عدم الاستقامة.

**يعتصم بالله:** يلجأ إلى الله.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إنكار على أهل الكتاب تماديهم على الكفر بآيات الله كالقرآن ومعجزاته ﷺ، وإنكار عليهم أن يرفضوا الإقرار بفضائل الكعبة. ويهددهم بأن الله عليم بما يعملون. ثم يثني بالإنكار عليهم لأنهم مع معرفتهم للحق، يعملون على منع الناس من اتباع الطريق المستقيم الذي يرضاه الله من عباده ويريدون أن يسيروا في الطريق المعوج مع أنهم يشهدون في باطنهم أن ما يضللونهم به هو غير سبيل الله. وهددهم بأنه يعلم مكرهم بما يفيد مجازاتهم. يحذر الله المؤمنين من تلبيس أحبار اليهود والقساوسة، وأنهم إن لانوا لهم وأطاعوهم وقعوا في فخهم، ذلك أن غايتهم أن يخرجوكم من دينكم وأن تتحولوا إلى الكفر بعد أن هداكم الله للإيمان. يستفهم القرآن استفهاما يدل على استبعاد أن يؤثر فيهم تضليل بعض اليهود والنصارى، في الوقت الذي يسمعون فيه القرآن ويتلقون من نور النبوة مباشرة ما ينفي عنهم شبه المضللين.

**بيان المعنى العام:**

**98-قل يا أهل الكتاب... والله شهيد على ما تعملون.**

مجتمع المدينة مجتمع يشمل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم، ويشمل المنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويشمل اليهود. ولقد عمل رسول الله ﷺ، بمجرد حلوله بالمدينة المنورة، على كتابة ميثاق بين طوائف اليهود، وبين

المسلمين، ضمن لكل فريق حقوقه وواجباته، ووفر فيه الأمن والأصول التي يتيسر بواسطتها التعايش. ولكن اليهود دأبوا على مناوأة الإسلام والكيد للمسلمين. فكان القرآن ينزل موبخا لهم على عنادهم وعلى ما يدبرونه من مكر. ويأمر نبيه بأن يخاطبهم مواجها لهم بكلمة، قل: وبخهم على رفضهم الإذعان للآيات البينات التي تتوالى على رسول الله ﷺ يسمعونها ويشاهدونها، ويهددهم بأن الله لا يخفى عليه عنادهم فهو شهيد عليهم لا يغيب عنه من أمرهم شيء سبحانه

## 99-قل يا أهل الكتاب لم تصدون... وما الله بغافل عما تعملون.

ويحاولون تضليل المؤمنين ليعرضوا عن دين الإسلام. تريدون منهم أن يسيروا على الطريقة التي تخالف الفطرة الطريقة المعوجة، والحال أنكم في بواطنكم تقرون وتوقنون بأن ما جاء به محمد حق. واعلموا أن الله لا يغفل عن سوء صنيعكم، فسيجازيكم عنه.

## 100-101، يا أيها الذين آمنوا...إلى صراط مستقيم.

في هذا الجو المشحون بالمؤامرات، يتجه للمؤمنين فيناديهم موقظا: اعلموا أنكم إذا لنتم للفريق من اليهود المضلل، فتنبهوا أن غاية يهود هو أن يردوكم عن إيمانكم الذي شرح الله له صدوركم إلى الكفر. ويثبت الله المؤمنين بأنه يستبعد أن تنطلي عليهم مؤامرات يهود، أو تؤثر فيهم، خاصة وأنه تتابعت عليكم آيات القرآن المحركة للقلوب المجلية للأرواح، المحصنة للعقول من الزيف والأراجيف، وأنتم تنعمون بالاقتباس مباشرة من الأنوار النبوية، فرسول الله يعيش بين أظهركم. وتكون الخاتمة قاعدة من قواعد النجاح والرّشد: من يلجأ إلى الله ويتمسك به فقد حقق لنفسه السلامة، وبالتالي الفوز في هذه الدار ويوم القيامة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**اعتصموا:** اعتصم طلب ما يمنع ويحصن.

**حبل الله:** ما يتمسكون به من شرع الله.

**شفا حفرة:** طرف حفرة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعا الله المؤمنين أن يلزموا التقوى، التقوى الصادقة التي يتطابق فيها الباطن والظاهر، التي يألفها المؤمن حتى تكون قرينة أعماله ونواياه في جميع ظروفه وأحواله. وبهذه التقوى يتيسر الامتثال للأمر الموالي **( ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)** فيكونون ملازمين لهذا الدين في كل لحظة من لحظات حياتهم، حتى يتحققوا بذلك أن يكونوا وقت حلول أجلهم ثابتين على الإيمان. وذكرت الآية بنعمتين عظيمتين: الأولى: أنه حول حالهم من عداوة مستحكمة إلى توافق وود وتناصر، والثانية: أنهم كانوا قريبين من الهلاك، فأنقذهم الله من ذلك في الدنيا والآخرة.

**بيان المعنى العام:**

## 102-يا أيها الذين آمنوا اتقوا...إلا وأنتم مسلمون.

بعد أن حصن الله المؤمنين من دسائس اليهود بكشف مكرهم بالمؤمنين، توجهت العناية القرآنية لإكسابهم قوة يغالبون بها الصعاب ويتمكنون بها من النجاح في دنياهم وأخراهم، فأمرهم أن يصحبوا التقوى الكاملة صحبة تختلط بضمائرهم وبعقولهم، وتبْرُزُ عليها أعمالهم، فيكون باطنهم وظاهرهم واحدا، يعيشون مع مراقبة الله في كل ما يصدر عنهم، ينفذ شعاع الإيمان إلى قلوبهم فيخلصون في نواياهم، وتتحكم مراقبتهم لله فيما يقدمون عليه من شؤون الدنيا أو أمور الآخرة، في دوافع الإقدام وطريقة الإنجاز، وفي المحركات لكوامن الشهوات ونوازع النفس والشيطان، وكوابح يقظة الصلة بالله عن قربان المعصية، بحضور أشعة الإيمان الموقظة. هذا معنى **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**. وهذا ما فهمه ابن مسعود ﵁ من الآية لما قال: أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى.

وتقوى الله حق تقاته أمر يصحب الرّوح حتى يصير جزءا منها لا يفارقها ولا تفارقه. وصرح القرآن بهذه الصورة البليغة لما قال **(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)** الذي مؤداه أن يكون المؤمن مع التقوى في كل لحظة من لحظات يقظته، حتى إذا جاءه أجله، كانت لحظة وفاته كبقية لحظات حياته، إيمانا صادقا

## 103-واعتصموا بحبل... لكم آياته لعلكم تهتدون.

وإذ مهد لهم طريق نجاتهم بالتقوى، وجههم إلى ما يحفظ كيانهم ، ويقيم لهم جامعتهم التي بها يحفظون عزتهم ويرْهبُهمْ عدوهم فلا يطمع فيهم. ولا سبيل

لتحقيق ذلك بعد التلبس بالتقوى، إلا أن يقيموا رابطتهم الاجتماعية على التمسك بهداية الله التي لا تزيد مع الأيام إلا قوة وشدة.

يرتبط البشر فيما بينهم بمراعاة أنواع من الرّوابط، رابط الأسرة، ورابط القبيلة، ورابط المدينة والقطر، ورابط الجنس ورابط البرنامج السياسي. وهذه الرّوابط جميعها لا يلغيها القرآن، ولكنه يوقظ المؤمنين إلى أن قصر العلاقات البشرية على واحد منها أو حتى على مجموعها، هو تنكر لجوهر الإنسان الذي يسمو عن تلكم الحدود الضيقة المصطنعة ، فيأمر القرآن المؤمنين أن يكون رباطهم الجامع هو مجموع الهداية التي جاءتهم من عند الله. إنه رابط يسمو عن المصالح الظرفية المتقلبة لأنه ملتبس بالحق الذي لا يتغير، ويسمو عن الفردية لأنه رابط يجتمع فيه الكل باعتبارهم مخلوقين للواحد الخلاق. جسمت الآية هذه الوحدة فجعلت البشر كمن تقاذفتهم الأمواج في بحر هادر، فامتد لهم حبل من أخذ به نجا. ذلكم البحر الهادر المتلاطم هو الحياة ودواعي الأنانية والمصالح العاجلة وحب التسلط وقوى الشيطان والشر، وذلكم الحبل المنجي الذي امتدت فروعه فوصلت إلى كل فرد فرد، هو دين الإسلام دين الله المنقذ للبشرية من غيها وضلالها وحيرتها. إنه لا ينفع لمس الحبل أو القرب منه، ولكن لا ينجو إلا من تمسك به بقوة والتزمه التزاما يصحبه في نشاطه وحياته. وهو حبل لا ينظر فيه لكل شخص على انفراد وإنما هو حبل يجمع المؤمنين كلهم، فالفوز بالبقاء يتحقق إذا أخذ الجميع به ، وإذا تمسك به بعضهم وتركه بعضهم، لم يستطع الماسك وحده أن ينجو. إن التفرق عودة للمنهج المناقض لمنهج الله كما بيناه.

ويتأكد هذا المبدأ الاجتماعي بتذكير الله للمؤمنين بحالة كانوا عليها، ومضت عليها حياتهم ردحا من الزمن غير قليل، وما استطاعوا أن يخرجوا منها رغم ما بذله حكماؤهم وأولي الرأي فيهم. لقد استحكمت العداوة بين القبائل مكونات المجتمع العربي، يتقاتلون وتسفك الدماء، وتستمر العلاقة الحربية المتوترة أمدا يبلغ عشرات السنين. وما كانوا يستطيعون الصمود أمام غزو الأمم المحيطة بهم، وما كان يحسب لهم حساب في ميزان القوى المتحكمة في العالم، لتفككهم وقصر نظرهم. أنعم عليهم بالإسلام ،أنعم عليهم إذ طوع قلوبهم لتلقي الوحي الذي ضخ في أرواحهم لينا بعد قسوة، وحبا بعد كراهية وبغض، وترابطا إنسانيا بعد طغيان الأنانية، وأثرة بعد الاستئثار. تجمعت برحمة الله تلكم المعاني فتكون منها نسيج الأخوة الإيمانية، وما تزال تنمو هذه النعمة في قلوب المؤمنين عبر السنين والقرون، حتى أصبح المسلم في اندونيسيا يشعر برباط الأخوة مع المؤمن في

المغرب الأقصى، يجتمعون مثلا في الحج فمن صفا إيمانه ينظر للمؤمنين كأنه قد ربوا في محضن واحد وتعارفوا منذ أزمان.

ونعمة أخرى صورها القرآن بهذا التجسيم المرعب ثم الممتع: جماعة انزلقت بهم أقدامهم وهم على منحدر، وصلوا إلى نقطة هي حرف قاع بعيد قعره يلتهب نارا، تكاد ألسنة لهيبه تحرقهم، ولا يستطيعون العودة إلى منطلقهم. ففي هذا الوضع الميؤوس منه، تأتي الرّحمة الإلهية فتنقذهم من العذاب والهلاك الذي يترصدهم. هذا هو أمر الإسلام جاء للعرب وقد تهيأوا للانحلال الاجتماعي والذوبان وانحرفوا في عبادتهم فمصيرهم العذاب والنكال. جاء الإسلام فأنقذهم من سوء المصير.

والنعمة التالية أنه على هذا النحو، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتفتح بصائرهم وتفتح لهم الطريق المستقيم، وليس ذلك لإقامة الحجة عليهم ولكن رجاء أن يهتدوا وينقذوا أنفسهم من الضلال ويسيروا في طريق الهدى.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الأمة:** الجماعة.

**المعروف:** ما كان مقبولا، تألفه العقول وينسجم مع الشرع.

**المنكر:** الباطل والفساد.

**نتلوها:** التلاوة حكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظه.

**بيان المعنى الإجمالي:**

دعوة للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ولمن يأتي بعدهم، أن تقوم جماعة منهم بالحفاظ على سياج المنهج الإسلامي في الحياة، يتولون تحريض البشر على الإتيان بما أمروا به على وجهه المشروع، ويوقظونهم حتى يمتنعوا عن الشر الذي

نهوا عنه. وهؤلاء هم الذين تحقق لهم النجاح. ونبهوا إلى الصورة المعاكسة لينفروا منها ويبتعدوا عن التراخي في القيام بواجب تحصين الأمة من الانحلال في القيام بالواجبات، أو الانغماس في إتيان المنهيات، لأنه إذا تحللت الأمة وانساقت مع أهوائها، والأهواء لا يجمعها جامع، ولا تقوم على معايير ثابتة، فإنه تتفرق كلمتهم ويختلفون في غاياتهم، كما هو حال اليهود، إذ تفرقت كلستهم وتسلطت عليهم الأمم فشرّدتهم. ومآلهم يوم القيامة أشد نكاية ، ولهم عذاب عظيم. سيذوقون هذا العذاب يوم الجزاء الذي تبيض فيه وجوه المنعَمين وتسود فيه وجوه الممقوتين المعذبين. أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أكفرتم بعد إيمانكم ؟ ثم يهانون بالتوجه إليهم أن يتسلط عليهم العذاب إلى أن يبلغ الإحساس به أقوى درجة من الإحساس. وأما الفريق الأول وهم الذين ابيضت وجوههم فينالون جزاءهم رحمة من الله خالدين فيها. كل ما سبق مما نزلناه عليك من آيات القرآن نتلوها على قلبك لنثبتك بها ولتبلغها للناس بما اشتملت عليه من بشارة وإنذار وتحقيق للجزاء، هذا الجزاء الذي هو العدل الإلهي. فالله سبحانه لم يخلق البشر ليعذبهم ولكن ليجزيهم بما عملوا. وشاهد ذلك أنه مالك السماوات والأرض، فهو يريد صلاحهم لا إدخال الضر عليهم بظلمهم بل يجزيهم بما قدموا.

### بيان المعنى العام:

### 104-105، ولتكن منكم أمة...وأولئك لهم عذاب عظيم.

تتابعت الآيات السابقة مؤسسة للأركان التي تقوم عليها الأمة الإسلامية لتؤدي دورها الفاعل في الحياة. تُوَجّتْ تلكم التوجيهات والأوامر بدعوة هذه الأمة أن تكون أمينة على هذا الدين في الحياة العملية. أمروا بأن يحولوا أنفسهم تحويلا تخرج به منهم أمة لها مواصفات ومميزات تقوم بالدور المنوط بها في قيادة البشرية تتحقق بها الفضيلة وتقمع الرّذيلة، وتؤيد الخير وأهله وتستأصل الشر وشياطينه. كما تقول لطالب علم: ليكن منك العالم الذي ينفع الإنسانية. كما يمكن أن يحمل المعنى على أنهم أمروا بأن يتخصص منهم فريق للقيام بدور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والذي يترجح عندي هو الأول. إن الأمة التي تحمل رسالة الإسلام هي الأمة التي يتكون في ضميرها العام وفي شعور كل فرد من أفرادها، كراهية الشر ورفضه، وحب الخير والعون على سيادته. وهؤلاء الذين سموْا في أخلاقهم إلى هذا الحد هم الذين اختصوا بالفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب. فأعلى المراتب هي للعلماء الذين تعمّقوا في معرفة الشريعة، ولا يكاد يختلط عليهم في أمر واحد الخير والشر، وكذلك لأولياء الأمر القائمين على تنفيذ شرع الله في المجتمع الإسلامي وهؤلاء مكلفون بالقيام بهذا الواجب.

ودون هذه المراتب العالية مراتب دونها، وما من مسلم إلا وهو يدرك وجهة نظر الإسلام في أمور كثيرة وإن لم يبلغ درجة القسم السابق.

فهؤلاء في حدود ما يتيقنونه، هم مأمورون بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر. خذ لذلك مثلا القيام بفريضة الصلاة يكاد حكمها لا يختلف في مستوى إدراكه أكبر عالم عن العامي البسيط في مداركه الشرعية. وكذلك شرب الخمر فإدراك شره معلوم علما يقينيا لكل مسلم. فالآية تدعو الأمة إلى أن تكون يقظة لما يتكشف للناس من قضايا، وتكون حاسة الدعوة أو حاسة الرفض قوية، تجعل كل من تحدثه نفسه بالخروج عما ارتضته الأمة يصطدم بهذا الإجماع على تحقيق الخير، ورفض الشر.

## 106-107، يوم تبيض وجوه...هم فيها خالدون.

لتثبيت المؤمنين على هذا المبدأ يحذرهم بأنهم، إذا ما تراخوا عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن عاقبتهم لا تختلف عن عاقبة من قبلهم، الذين بلغتهم آيات الله البينة فتركوها وراء ظهورهم فانحلت جامعتهم، وفسدوا بترك المنكرات تشيع فيهم وبإهمال الحظ على الخير بينهم. وذلك لأن الاستقامة تُكَوِّنُ للأمة رأيا واحدا ونهجا للسلوك لا يختلف، شأن الحق الذي لا يكون إلا واحدا. أما الهوى والشهوات فهي مسالك عديدة، ومنعرجات في السلوك عن الاستقامة بعيدة. والتفرق يفضي إلى الاختلاف. والاختلاف الذي يمعن أصحابه في البعد عن الحق لهم عذاب عظيم. سيلقون هذا الجزاء في اليوم الذي تفترق فيه ملامح البشر، على صنفين: صنف ابيضت وجوههم، وليس المراد بالبياض أن وجوههم أصبحت كالجير وصفحات الورق النقية، ولكنه صفاء ونور وإشعاع الرضا والفوز كما قال تعالى(تعرف في وجوههم نضرة النعيم)[1]. وأما الفريق الثاني وهم الذين اسودت وجوههم، فكانت من الكروب والهموم، والخزي والشقاء، والكآبة واليأس، كالحة لا تلمس فيها أي طيف من رضا أو نور.

## 108-109، تلك آيات الله... ترجع الأمور.

[1] المطففين آية 24

تلكم الآيات نتلوها على قلبك يا محمد مقرونة بالحق الذي لا يتخلف. إن ما جاء فيها من إنذار ووصف للعذاب مما سيتحقق لحاقه قطعا بالكافرين، فما يريد الله أن يظلم أحدا من العالمين. فالله مالك السماوات والأرض جميعها، يريد صلاحهم وإصلاحهم، وأعانهم على اتباع الحق. وسيعودون إليه ليجزيهم عما قدموا جزاء لا ظلم فيه.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أخرجت:** الإخراج: الإيجاد والإظهار.

**يولوكم الأدبار:** يفرون منهزمين.

**ثقفوا:** وجدوا على حال التمكن منهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

خطاب للصحابة الكرام، من الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، أن هذه الجماعة التي حول محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أمة وجدت في تاريخ البشرية.

مقومات هذه الخيرية تبدو في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإيمانهم إيمانا نقيا تصدر عنه جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة. وأيقظ أهل الكتاب من غفلتهم بأنه يمكنهم أن يبلغوا مرتبة الصحبة بإعلانهم إيمانهم بصدق. وأنصف القرآن أهل الكتاب بتحقيقه أن أهل الكتاب على قسمين: قليل منهم دخل في الإسلام، وأكثرهم تشبث بفسقه وفساده. ولا ينبغي لهذه الكثرة أن تخيفكم، فهم لا يقدرون على الإضرار بكم، وغاية ما يصلكم منهم، بعض الإذاية الخفيفة التي لا تؤثر فيكم. وأنهم إذا ما هيّأوا أنفسهم للحرب فلن يبلغوا منكم مرادهم إذ يفرون منهزمين هزيمة لا قيام لهم بعدها. لقد أحاط الذل بهم أينما وجدوا، لا يستطيعون الخروج منه إلا بإحدى طريقتين: أن يسلموا فيعتزوا بالإسلام، وإما أن يعقدوا حلفا مع قوة منيعة تحميهم بقوتها. كان مآلهم أن غضب الله عليهم، وأنهم لاقَوا جزاءهم المقدم في

الدنيا فأحاط بهم الصغار والفقر المذل. وهو جزاء عدل بسبب عصيانهم الذي جعلهم يكفرون بآيات الله البينة، وبسبب اعتداءاتهم على الأنبياء بقتلهم.

## بيان المعنى العام:

## 110- كنتم خير أمة... الفاسقون.

شهادة وأي شهادة من رب العالمين لهذه الأمة. تناولت أولا صحابة رسول الله ﷺ ممن أووه ونصروه، ومن الذين هاجروا معه أولئك الذين نوه بهم القرآن في أكثر من آية، وتتابعت الأحاديث الصحيحة مؤيدة لمضمون هذه الشهادة. إنه لا تبلغ أمة هذه المرتبة إلا إذا أخذت ملتزمة بمقومات الفلاح التي هي سنن الله في الاجتماع، وسننه في الفوز بالجنة والرّضوان. لا يمكن لأمة من الأمم أن تحقق لنفسها الحياة الإنسانية الرّقيعة، والحياة المادية الرّخية، والمناعة المحصنة لها، إلا إذا جمعت بين المقومات الثلاثة التي جمعتها هذه الآية-1) الأمر بالمعروف -2) النهي عن المنكر -3) الإيمان الحقيقي بالله. لنحاول تحليل ذلك حتى يتبين لنا صدق القرآن تطبيقيا.

**الأمر بالمعروف:** عبارة عن التزام عام من كافة أفراد الأمة على الاهتمام بتحقيق كل عمل خير للأمة. فهم يساعدون على إنجازه، ويذكرون الغافل عنه، ويتضامنون بتقديم كل واحد منهم ما يمكنه تقديمه. فالأمر بالمعروف يشمل ميدان الأخلاق على سعته ويشمل الميدان الاقتصادي بمختلف ضروب النشاط التي يمكن أن تفتح فيه، ويشمل الأسرة بالحفاظ على المقومات التي تحميها من التحلل والتسيب والانغلاق وتقوي آصرة الوحدة بين أعضائها، وتمكن الجيل الجديد من ميراث الأمة ليحافظ عليه ويسير به إلى الأمام. ويشمل حصانة الأمة بالقيام على سد كل ثغرة في بناء جهازها الدفاعي، كل فرد يشعر بالمسؤولية لتكون حدود الأمة وثغورها وتجهيزاتها العسكرية محصنة، وجنودها مدربين خير تدريب. ويشمل ميدان المعرفة في واسع ما فتحه الله للإنسان من حقول العلم فيكون همّ كل فرد أن يعين على نشر المعرفة، فيساعد الجاد ويحرك المتقاعس، ويشعر الطلبة بأنهم على نظر اعتزاز من الأمة. فالأمر بالمعروف يحول الفرد من قصر نظره على مصالحه، وخويصة نفسه كما يقولون إلى الاهتمام بكل ما يعود على الأمة بالخير، حتى يكون الخير ظاهرة عامة معنيا بانتشارها وتثبيتها.

**النهي عن المنكر:** ليس النهي عن المنكر كما يصوره بعضهم نهي السكير عن شرب الخمر، أو الكاذب عن الكذب. فهذا من النهي عن المنكر ولاشك، ولكن ليكون هذا المبدأ مقوما لتكون الأمة خير أمة أخرجت للناس لا بد أن يفهم على

صورة أدق وأعمق وأوسع مدى. النهي عن المنكر حصول ملكة اجتماعية ترفض الشر وتتقزز من الرذيلة، وتعمل بعد ذلك على الحيلولة بين أهل الفساد من أن يكون لهم صوت مخرب وعمل مفسد. إنه شعور الضال أن أمامه سدا من المجتمع يرفض انحرافه ويمقت شره ولا يسكت عنه.

إن مقاييس الخير والشر كثيرا ما تكون مُعينة على الانحراف إذا استمدت معاييرها من الإنسان وحده. ذلك أن الإنسان كثيرا ما تتداخل شهواته ورغباته وتحزبه في تقدير الخير والشر فتضلله ضلالا بعيدا. خذ لذلك مثلا: أنا أدون ما أثبته في هذه الفقرات – يوم عاشوراء من عام 1411 ـ ويمثل هذا اليوم الذكرى الأولى لبداية الهجوم على غزة. بالطائرات الأمريكية والقنابل المتطورة في الفتك بالبشر. تمزقت أجساد الأطفال والشيوخ والنساء والشباب والكهول من سكان غزة وهي تحت الحصار. ومرت سنة وهي ما تزال تحت الحصار، بل يجري بدون توقف تشديد الحصار على السكان ليموتوا جوعا وعطشا ومرضا، أو يمدوا أيديهم للقيود وسلاسل الأسر ويستسلمون استسلام الذل الذي لا قيامة بعده. ومئات الآلاف من المفكرين ورجال الدين المسيحي واليهودي تمر أمامهم الأحداث، وهم بين الصمت المخزي، وبين التحريض الوحشي. وفئة قليلة صوتها يُمْتَصُ قبل بلوغه الشفاه وحركات محتشمة لا تستطيع أن تصاول الباطل. وما ذلك إلا لأن قيم هؤلاء قيم منتزعة من المصالح الشخصية لا من العدالة الربانية. فكانت الصفة الثالثة لكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس هو إيمانها، واقتباسها الحق من شرع الله لها.

إن هذه الشهادة من الله سبحانه بخيرية هذه الأمة، وإن كانت قد تحققت في مجتمع الصحابة بالمدينة المنورة، فإنه لما كان تحققها نتيجة تجمع مقومات هي سنن الله في الخلق فإن ذلك مما يوقظ الأمة ورجال الإصلاح فيها أن يبنوا هذه الأمة على هذه الوحدات الثلاث ( الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله). ولما توجه الخطاب أولا إلى الصحابة رضوان الله عليهم ونوه بهم التنويه الذي ميزهم به عن المجتمعات البشرية في جميع العصور، ولما كانت تلك المرتبة قد بلغوها بأخذهم بسنن الله في الصلاح، كرر دعوته إلى أهل الكتاب ليتحدوا مع الصحابة ويندمجوا في الأمة الإسلامية ويفوزوا بالصحبة ويحققوا الخير لأنفسهم، ولكن قليلا منهم اهتدوا. ولم يمنعهم ما كانوا عليه، عندما انفتحت قلوبهم للإيمان، أن يعتبروا جزءا من خير أمة أخرجت للناس.

أنصف القرآن هذه الطائفة التي دخلت في الإسلام ولكن أغلب أهل الكتاب وخاصة من يهود المدينة شرقوا بالنجاحات التي حققتها هذه الأمة، فكانوا بين الحسد والعمل

على خداع أهل دينهم ومنعهم من الدخول في الإسلام، وترويج الإشاعات لفتنة الناس وبث بذور التفرقة فحق عليهم بذلك وصف الفسق في مقابلة الذين آمنوا منهم .

### 111- لن يضروكم...ثم لا ينصرون.

طمأن الله المؤمنين بأن ما يمكر به اليهود في المدينة لا يصل إلى حد الإضرار بالأمة، غاية ما يبلغونه هو الإذاية، كقولهم لرسول الله ﷺ (راعنا ) كما قدمنا بيانه في الآية ( 104) من سورة البقرة.

### 112- ضربت عليه الذلة والمسكنة... كانوا يعتدون.

إن أخذهم بتلكم الطرق الملتوية طبع نفوسهم على الخسة فعجزوا عن المجابهة، وأحاطت بهم الذلة، فلا يستطيعون التحول عنها ولا رفع المهانة التي التصقت بهم إلا بأحد أمرين:

**الأمر الأول:** أن يمزقوا نسيج الذل الذي التف عليهم وذلك بدخولهم في زمرة المؤمنين، وهو حبل الله، فيرفع الله أقدارهم، ويعلي همتهم بارتباطها بمنهج الإسلام في الحياة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[1] .

**الأمر الثاني:** أن يدخلوا تحت رعاية قوة من غيرهم، وهو الحبل من الناس وهذا ما هو حاصل اليوم. إن عربدة إسرائيل وعجرفتها ، ما كان يمكن أن يحدث لولا القوى الصليبية المتكتلة ضد الإسلام والمسلمين التي دخلت إسرائيل تحت حمايتها فاتخذوا منها يدا ضاربة شاغلة للمسلمين عن المضي فيما تقتضيه يقظتهم. كان مآل يهود أن غضب الله عليهم، فثقوا أيها المؤمنون أنهم كلما خرجوا من نكبة إلا تحل بهم نكبة أخرى. لقد حلت عليهم المسكنة فهم لا ثقة لهم بأنفسهم واعتمادهم على القوى الدولية الظالمة، والظلم حسب سنن الله في الكون إلى زوال.

إن تاريخهم تاريخ أسود فقد عمدوا إلى ما أنزل عليهم من الهدى فحرفوه وكتموا منه ما كتموا، فكانوا سريعين للدخول في الكفر. ثم إنهم تجرؤوا على أنبياء الله وقتلوهم إمعانا في الاعتداء .

• لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

[1] سورة المنافقون آية 8

ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

## بيان معنى الألفاظ

**سواء:** مماثل.

**آناء:** أوقات.

**يسارعون:** يستكثرون مبادرين.

## بيان المعنى الإجمالي:

أنصف القرآن أهل الكتاب، فلم يحشرهم في قالب واحد، بل نوه بطائفة منهم مسجلا ما قاموا به من العمل الصالح، فذكر أن منهم أمة مجتهدة في القيام بدينها، يتلون كتاب الله المنزل عليهم في أوقات الليل، ويسجدون لربهم. تحقق منهم الإيمان بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتسابقون لفعل الخيرات. وبهذا كانوا معدودين في عباد الله الصالحين. وكل ما فعله المؤمن من خير فإن الله لا يحرمه جزاء فعله. وفي المقابل، فإن الذين كفروا بالله لن يفيدهم شيئا، عند الله، ما جمعوه من أموال ولا ما رزقوه من أولاد، وذلك ما يعول عليه هذا الفريق. فبالمال يشتري الضمائر ويفدي نفسه، وبالأولاد يجد النصير المدافع. ولما فقدوا كل قوة واجهوا جزاء ما قدموه ، فكان جزاؤهم أنهم عقدت بينهم وبين النار صحبة تلازمهم ويلازمونها خالدين فيها. وإذ انتفى أن ينتفعوا بالأموال والأولاد، فهل ينتفعون بما قدموه من خير؟ كان كثير من الكفار، يطعمون الجائع ويغيثون الملهوف ويحمون الجوار. فجسم القرآن إياسهم من الانتفاع من ذلك، بأن أعمالهم الخيرة في ظاهرها، وضعهم فيها، كوضع قوم حرثوا أرضهم فأنبتت الزروع وظهرت الثمار فأصابها ريح فيها برد شديد يقتل كل حياة في النبات فأهلكت الزروع والثمار. وانقلاب أعمالهم هباء عدل، لم يظلمهم الله في هذا الجزاء إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله الذي مكنهم من تلكم النعم التي خيل لهم أنها من عندهم.

بيان المعنى العام:

113-114:ليسوا سواء... من الصالحين.

بعد أن شهر القرآن بمكر اليهود وأعلن جزاءهم. عاد ليدقق منصفا للصالحين منهم. فافتتح الآية بقاعدة عامة. ليس أهل الكتاب سواء، ليسوا كلهم جديرين بضرب الذل والمسكنة عليهم. إذ منهم طائفة اجتهدوا في تطبيق دينهم، وقاموا به خير قيام. لم ينقطعوا عن تلاوة الكتاب المنزل عليهم، وارتبطوا به يتلونه في هدأة الليل، ويتأثرون بمواعظه ويخرون سجدا لربهم. صلحت عقيدتهم فثبتوا على الإيمان بالله واليوم الآخر، وقاموا بواجبهم في إصلاح المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتسابقون لفعل الخير شأن المؤمنين الصادقين الذين يجدون لذتهم في القيام بالأعمال النافعة للمجتمع. وشهد الله لهم أنهم من عباده الصالحين، وفي ذلك إيماء إلى حسن الجزاء والتكريم.

115- وما تفعلوا من خير... بالمتقين.

ثم التفت القرآن للحاضرين من أهل الكتاب فتوجه لهم بالخطاب، أن ما يعملونه من خير لن يضيع ولن تذهب آثاره، بل سيجدون جزاءه قبولا عند الله ، وينسحب هذا الوعد على الماضين الذين وصفوا في صدر الآية. ذلك أن الله يعلم علما بالغ الدقة المتقين الذين صدقوا في نواياهم وكانوا دوما مستحضرين لصلتهم به سبحانه.

116- إن الذين كفروا لن تغني...هم فيها خالدون.

وفي المقابل تعرض القرآن للمشركين الذين استحبوا الكفر على الإيمان، ومضوا سادرين في الإعراض عن الله. وشأن الكافرين أنهم يتعلقون بقوى مادية يعولون عليها وحدها لما يمكن أن يصيبهم، وفعلا فالمشركون عولوا على أموالهم لتجزي عنهم، وعلى أولادهم الذين من شأنهم أن يسرعوا لنصرة آبائهم عند الشدائد ليدافعوا عنهم ظنا منهم لغباوتهم أن شؤون الدنيا هي المقياس الوحيد في الفوز أو الخيبة. وقطع القرآن آمالهم بأن أموالهم وأولادهم لا تنفعهم ولو بشيء قليل، إنهم بكفرهم قد كونوا بينهم وبين النار صحبة ألفتهم وألفوها وهم خالدون فيها لا يبرحونها.

117-مثل ما ينفقون...ولكن أنفسهم يظلمون.

ولما كان بعض المشركين قاموا في حياتهم بأعمال صورتها صورة الأعمال الصالحة، فقد كانوا مثلا يطعمون الجياع في زمن الشدة ، ويغيثون الملهوف، ويقرون الضيوف، ويقومون بوساطات تنزع الإحن وتنهي القتال بين القبائل فهل تغني عنهم هذه الأعمال ؟ هل تقلب وضعهم السيء إلى ما هو أحسن؟

صورة هذه الأعمال صورة حسنة، ولكنها صورة خاوية مُنْبَتَّة لا قرار لها ولا ثبات، إن العمل يكتسب صلاحه من إخلاص صاحبه لله. وهم لم يؤمنوا فكانت صورة عملهم كعمل قوم حرثوا أرضهم ونما زرعها، واعتنوا بالأشجار فأثمرت، وقبل أن تبلغ النضج وأوان القطاف تأتي ريح شديدة فيها برد يحرق النبات والأغصان والثمار فأهلكت الكل. وما ظلمهم الله إذ أحبط أعمالهم، لأنهم هم الذين قطعوا العطاء عن معطيه فكانوا هم الظالمين وما ظلمهم الله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**البطانة:** صديق الرّجل المختص به.

**لا يألونكم خبالا:** لا يقصرون في السعي لما يكون به اختلال أمركم.

**ودوا ما عنتم:** يحبون ما يدخل عليكم التعب الشديد.

**العض:** شد الشيء بالأسنان.

**الغيظ:** غضب شديد يصحبه حب الانتقام.

**إن تمسسكم حسنةٌ:** إن يصبكم أمر حسن.

**بيان المعنى الاجمالي:**

حذر القرآن في هذه الآيات المؤمنين من المنافقين الذين كانت لهم صلات بأهل المدينة قبل الإسلام. فدعاهم إلى أن يتيقظوا فلا يواصلوا ما كان عليه أمرهم معهم من قبل، يوم كان الود بينهم محكما يطلعون على أسرارهم ويفضون إليهم بدخائلهم ويتعاونون معهم تعاونا شاملا. لقد انقلبوا فهم اليوم يعملون جهدهم ولا يقصرون لتختل أموركم. يحبون أن تحل بكم المشقة والعسر. تنبهوا ففي فلتات ألسنتهم ما يُعرّفُ بتفكيرهم وعقائدهم، وما تخفيه صدورهم مما لم يظهر في فلتات

ألسنتهم أعظم خطرا. ويؤكد على تنبيههم بقوله: قد بينا لكم الأدلة التي تكشفون بها ما وراء الظواهر، إن كان لكم عقل يعرفكم بالحقيقة. قارن القرآن بعد ذلك بين نفسية المؤمنين والمنافقين. فالمسلمون لا يكنون البغض لهم لحسن ظواهرهم، وبينما المنافقون يبطنون بغض المسلمين، والمسلمون يؤمنون بالكتب السماوية كلها عكس المنافقين، والمنافقون يغالطون المؤمنين، فإذا التقوا بالمؤمنين قالوا لهم: إنا مؤمنون وإذا ابتعدوا عبروا عن الشحنة الغضبية بعض أناملهم. فليموتوا بما حملوا من الغيظ. والله لا تخفى عليه خافية مما يجتهدون في إخفائه. أكل الحسد قلوبهم، فإذا أنعم الله على المسلمين بنعمة حزنوا، وإن يصبهم أمر سيء يفرحوا. اصبروا أيها المؤمنون واثبتوا، فإنه لا يضركم بغضهم ولا خداعهم، فتغلبوا على إذايتهم بالصبر، والله سبحانه يعلم جزئيات أعمالهم فلا يغيب عن علمه شيء، على معنى أنه سيجازيهم على الصغيرة والكبيرة من سوء أفعالهم.

**بيان للمعنى العام:**

**118-119، يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا... بذات الصدور.**

كان مجتمع المدينة قبل مجيء الإسلام تتداخل فيه عناصر من اليهود ومن المشركين. فلما أعز الله المدينة بإيواء الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المهاجرين والأنصار الذين دخلوا في دين الله من أهل المدينة أصبحت التركيبة الاجتماعية تشمل المسلمين، وتشمل اليهود وتشمل المشركين، وتشمل قسما آخر له ظاهر كاذب وباطن مخفي، وهم المنافقون الذين كشفت الآيات السابقة في أول سورة البقرة خطرهم (ومن الناس من يقول امنا بالله واليوم الاخر وما هم بمؤمنين...). هؤلاء المنافقون هم أشد خطرا على المؤمنين من اليهود والمشركين. ولذلك اعتنت هذه الآيات بتحصين المؤمنين من مكرهم وخطرهم. نبهتهم ليستيقظوا ويكون لهم حس يعرفون به هؤلاء الذين يخادعونهم متخفين وراء ظواهر مغشوشة. حذرتهم الآية من تقريب المنافقين تقريبا يمكنهم من الاطلاع على أسرارهم، وخفايا حياتهم الخاصة، كما كانوا يقربونهم من قبل. إنهم اليوم يجتهدون ويبذلون وسعهم لتختل أموركم، إن ما يثلج صدورهم ويدخل عليهم السرور أن تنقلب حياتكم إلى مشقة وعسر. تنبهوا لسقطات كلامهم، فإن ما امتلأت به قلوبهم من بغض لكم ينفلت بسببه من ألسنتهم ما ينبئ عن دخيلتهم. ودخيلتهم أشد سوءا وأبلغ حقدا من فلتات ألسنتهم. قد بينا بهذا لكم الآيات الدالة على نفاقهم، فتنبهوا حتى تكون عقولكم تهديكم وتكشف لكم حقيقة أمرهم فلا تنخدعون لمظاهرهم. استيقظوا فإنكم ماضون على طيب سريرة المؤمنين فأنتم تحبونهم،

ولكنهم لا يحبونكم. فوارق كبيرة بينكم: إنكم تؤمنون بكل الكتب التي أنزلها الله على المرسلين مما يتبعه احترامكم لكلمة الله، وهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يتورعون عن تغيير نصوص الوحي. إذا لقوكم غرُوكم بلسانهم الكاذب، معلنين إيمانهم حتى لا تحذروهم فإذا غابوا عنكم واطمأنوا إلى أنه لا عَينَ تَرقبهم تفجروا غيظا عليكم، وتحرقوا فعضوا أناملهم لتفريغ بعض ما في قلوبهم من الحقد. قولوا لهم: ليصحبكم غيظكم إلى الموت، فنحن مطمئنون إلى رحمة الله وفضله معنا. والله عليم بما تنطوي عليه الصدور فسيجازيكم بسبب حقدكم وبغضكم.

**20 -إن تمسسكم حسنة...محيط.**

ثم فصل آثار هذا الغيظ، إنهم إن تمسسكم حسنة يحزنوا ويصيبهم الكمد وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وتنشرح لها صدورهم. فاصبروا ماضين على ما أنتم عليه فبصبركم وتقواكم لا يضركم كيدهم وعداؤهم ولا ينقص شيء مما قدر لكم. وثقوا بأن الله لا يخفى عليه قليل ولا كثير من أعمالهم. وفي هذا تطمين للمؤمنين من ناحية ،وتهديد للمنافقين بأن مكرهم يتعذبون به مرضا في نفوسهم وعقابا يوم القيامة.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**غدوت:** خرجت بالغداة.

**من أهلك:** بيت لأهلك.

**تبوئ:** تتخير مكانا يرجع إليه المقاتلون.

**وليهما:** متولي أمرهما وناصرهما.

**أذلة:** ضعاف.

**من فورهم:** المبادرة السريعة.

**المسوم:** الحامل( لسمة ) وهي العلامة.

**البشرى:** خبر بوصول ما فيه نفع.

**طرفا:** الناحية التي هي منتهى المكان، ويمكن أن يراد بها رؤوس الكفر.

**يكبتهم:** يصيبهم بالغم والكمد.

## بيان المعنى الإجمالي:

اذكر ما تم في ذلك الصباح الذي خرجت فيه من بيتك تختار للمجاهدين المواضع الأصلح للقتال. والله سميع لما يضطرب في نفوس أهل المدينة وفي نفوس الغزاة من أهل مكة، عليم بنوايا الجميع. وأبْرَزَ من ذلك ما همت به بنو سلمة وبنو حارثة من أهل المدينة من الانخزال (تركوا الجماعة ورجعوا) عن القتال، ثم عصمهم الله ومضوا تحت راية رسول الله ﷺ. ورغم الفارق بين عدد الكفار المهاجمين وعدد المسلمين فالمؤمنون يتقون بربهم ويتوكلون عليه. ذكر الله المؤمنين بالنصر الذي مكنهم منه في غزوة بدر وهم ضعاف لقلة عددهم ونقص عدتهم. فاستمروا على التقوى، وهذا النصر يحرككم لشكر ربكم على عنايته بكم. طمأن النبي ﷺ الصحابة في تلكم المعركة وقد كثرت في أعينهم جيوش العدو، فبلغهم الوحي الذي جاءه من ربه: ألن يكفيكم للتغلب على أعدائكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة يقاتلون معكم أشداء في قتالهم ينزلون عليكم لا يعترض سبيلهم أحد ؟ وأكد الجواب فقال: بلى! أي إن ذلك كاف. ثم زادهم طمأنينة لما بلغهم أن مددا من الكفار سائر لنصرة المهزومين منهم، فأكد للمؤمنين بأنهم إن يصبروا على القتال وتكون التقوى حيّةً في قلوبهم يمددهم ربهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين بعلامة تعبيرا عن شجاعتهم. وما جعل الله هذا الإمداد إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم ويزول ما حصل من الرّهبة بكثرة الأعداء، وكونهم من صناديد قريش المعروفين بقوة البأس. وتقوا فيما أنتم عليه من الحق فإن النصر لا يملك التمكين منه إلا الله وليس مرتبطا بآلات القتال والعَدَد فقط. فإن الله عزيز لا يغلب، حكيم يجري أمور الحياة على حكمة قد تخفى على كثير من الناس. ذلكم النصر الذي يمحو به أطرافا من جيوش الأعداء أو يذلهم إذلالا يتمكن به الغم والكمد من قلوبهم،

فتصحبهم الخيبة عند عودتهم لديارهم. وبعضهم سينعم عليهم بالهداية للتوبة والدخول في الإسلام، والبعض سينالهم جزاؤهم من عذاب الدنيا وخزي الآخرة لظلمهم. ويذكر القرآن بين هذه المآلات الأربعة، أن الله هو المتصرف بحكمته، فليس لك يا محمد من أمر عاقبتهم شيء، هو من تصرف الله وحده. ومن ناحية أخرى فإن الله هو مالك ما في السماوات وما في الأرض. لا يسأل عما يفعل يغفر لمن يشاء ذنوبه، ويعذب من يشاء بما قدم. وما غفران الذنوب إلا بفضل منه، لأنه أرحم الرّاحمين.

## بيان المعنى العام:

### 121-وإذ غدوت من أهلك... والله سميع عليم.

سجلت هذه الآيات بعض ما جرى في غزوة أحد، التي تمت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، التي شارك فيها مشركو مكة وبعض أحلافهم. وأحد جبل غير بعيد عن المدينة المنورة على طريق المطار نزل المشركون بسفحه. استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فاختلفوا، وكانت الكثرة مع الداعين إلى الخروج لمواجهة الأعداء، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأيهم. بعد هذه المقدمة المختصرة من السيرة ننظر في الآيات:خرج النبي ﷺ صباحا من بيته وقد لبس لباس الحرب إلى جبل أحد، ورتب بحكمته موقع كل قسم من الجيش. وتشير الآية إلى أنه كان يجري في كتيبة الإسلام أمور خفية، لم تخف عن سمع الله ولا عن علمه.

### 122-إذ همت طائفتان منكم...فليتوكل المؤمنون.

من ذلك أن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين رجع بثلث الجيش قائلا: نحن لا نقاتل خارج المدينة– وهمّ بنو سلمة وبنو حارثة أن يعودوا ولا يواصلوا، ولكن الله تولاهما بهدايته وأيقظهما لإدراك الخطر الداهم فلم ينخزلا وواصلا مسيرتهما. ويعدون من مكارمهم أن الله أنزل فيهما: والله وليهما. وكفى بهذه الشهادة ( والله وليهما ) فخرا. ويقطع متابعة الأحداث للتذكير، وذلك شأن القرآن في عرضه للأحداث فأمرهم أن يصدقوا في توكلهم على الله.

### 123-ولقد نصركم الله...لعلكم تشكرون.

إن هذا التوكل الصادق كان سبب نصر فيما مضى، النصر الذي حول وجه التاريخ. ويعود لتقوية نفوس المجاهدين في غزوة أحد بعد الانكسار الذي لحق بالمسلمين لما تحول بعض الجيش عن المنازل التي حدد لهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم البقاء فيها، فيذكر بنصره لهم في غزوة بدر يوم كان جيش المسلمين قليل العدد لم يستعد كل الاستعداد لخوض المعركة. فالمعطيات الظاهرية تصفه بأنه جيش ذليل لقلة عدده وعُدده ولكن كل واحد منهم كان يحمل بين جنبيه نفسا معتزة بالله كأرفع ما يكون الاعتزاز، واثقة به كأبلغ ما يكون الوثوق. وهنا ينقطع تسلسل السرد، ليأمرهم بالتزام القوة التي تحقق لهم النجاح، وهي تقوى الله بحيث يكون الله حاضرا في قلوبهم وأرواحهم يعيشون معه، وذلك ما يتبعه نصره المفضي بهم لشكر نعمته بالفوز والتمكين.

## 124-إذ تقول للمؤمنين... بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

يعود القرآن لمتابعة سرد الأحداث، فيذكرهم بما بلغهم النبي ﷺ مما تلقاه عن ربه بقوله: ألا يكفيكم للنصر أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون عليكم لا يعترض سبيلهم أحد ؟ ويتولى الرّسول الإجابة فيقول: بلى! هذا العدد كاف لدحر الأعداء وتحقيق النصر.

## 125-بلى إن تصبروا... مسومين.

يذكرهم بسنن النصر فيقول: إن تصبروا على الجهاد وتلازموا تقوى الله فلا يهمكم من الجهاد مغنم مادي ولا ذكر طيب، وإن تقوّى العدو بمدد معجل في سيره لتعزيزه بعد الانكسار، فلا تخشوا ذلك فإن ربكم يعدكم بأن يمدكم في هذا الوضع الجديد بخمسة آلاف من الملائكة، يحمل كل واحد منهم علامة بطولته وقوته على الجهاد. ومما يوضح هذا أن المجاهدين ببدر بعد أن حققوا انتصارهم الساحق على قريش بلغتهم الأنباء أن كرز بن جابر المحاربي قد جيش الجيوش لنصرة المهزومين من قريش فخشي المسلمون من هذا المدد المسرع وعَددُ جيش المسلمين ما يزال على حاله لم يلحق بهم أي مدد من المدينة، فبشرهم بأنه لو وصل كرز وجيشه فإن الله سيمدهم بخمسة آلاف من الملائكة. ولم يواصل كرز سيره وعاد بمن معه. فيكون القرآن قد بين أن الله ربط إمدادهم بخمسة آلاف بثلاثة أمور: صبرهم – تقواهم – وصول جيش كرز – فلما لم يصل هذا الجيش تحقق للمسلمين الأمن وعدم الخوف وشدة التعلق بربهم دون وصول الملائكة .

## 126-وما جعله الله...العزيز الحكيم.

هذا الذي أخبرهم به رسول الله من الإمداد بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف يحقق أمرين: البشرى لكم بالنصر مما يشير إلى عناية الله بهم بإدخال السرور عليهم في تلكم المواقف الحرجة. وليحصل في قلوبكم الطمأنينة بأنكم ستنتصرون على

أعدائكم. ويعقب القرآن بالتذكير بقاعدة يريد أن تكون حاضرة في نفوس المؤمنين وهي: إن النصر لا يأتي إلا من عند الله. فهو سبحانه يثبط من يشاء وينصر من يشاء لأنه عزيز لا معقب لحكمه ولا معترض على قضائه ولا راد لأمره. وإنزال نصره يجري على قانون الحكمة الذي يجري عليه تصرفه في الكون. يسلط موجبات الهزيمة على الكافرين ليمحو طرفا منهم وهم الذين قدر أن يقتلهم المسلمون، أو يسلط عليهم الكمد والغم، يذوقون مرارة الهزيمة والأسى على من مات منهم ويعودون إلى أهليهم تصحبهم الخيبة والذلة والانكسار.

### 127- ليقطع طرفا... فينقلبوا خائبين.

عرف نبيه ومن وراثه المؤمنين أن ما سلط على الكافرين هو جار على حكمته وأن ما تحقق من نصر في بدر هو من إجراء الله الأمور على سابق تقديره، سواء ما ذكر في الآية من قبل، من قتل بعضهم أو كبتهم أو ما تلا ذلك.

### 128-ليس لك من الأمر...فإنهم ظالمون.

-قوله: (ليس لك من الأمر شيء) أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم بسبب ظلمهم. فقوله تعالى: (ليس لك من الأمر شيء) جملة معترضة بين الصور الأربع التي قدرها الله على الكافرين. قسم قتل وهو ما يشير إليه قوله تعالى (ليقطع طرفا... ) وقسم ولى تجلله الخيبة والهزيمة أشار له قوله تعالى (أو يكبتهم... ) وقسم سيهديهم ويتوب عليهم، كالذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح وقبله يشير إليه قوله (أو يتوب عليهم) وقسم سيسلط عليهم عذابه في الدنيا والآخرة كالذين نفذ فيهم القتل وماتوا على كفرهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (أو يعذبهم...).

### 129-ولله ما في السماوات...غفور رحيم.

يحقق ذلك: أن الله هو الذي يملك وحده ما في السماوات وما في الأرض، لا يخرج عن سلطانه وملكه شيء قلّ أو كثر، كبر أو صغر. ويتصرف في ملكه هذا كما تقتضيه حكمته فيغفر ذنوب من يشاء من عباده ، وهو في ذلك رحيم عادل، ويعذب من يشاء وصفة العدل واجبة له في جميع الأحوال.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**أعدت:** هيئت

**الطاعة:** عمل المأمور على تحقيق مراد الآمر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نهى الله المؤمنين أن يتعاملوا بالرّبا الذي ينبني عقده على مضاعفة الزيادة على رأس المال (الرّبا) كلما حل الأجل ولم يوف المدين بدينه. ولتكن تقوى الله مصاحبة لكم، تلكم التقوى التي بها تحققون الفلاح في الدنيا والآخرة. وكونوا وقاية لأنفسكم تحفظكم من نار جهنم، النار التي هيأها الله للكافرين، فهي عذاب ومهانة. وأعظم وقاية هي الطاعة التي تفتح أبواب الرّحمة.

**بيان المعنى العام:**

**130 - يا أيها الذين آمنوا... لعلكم تفلحون.**

نزلت هذه الآية عقب نزول الآيات التي سجلت بعض ما جرى في غزوة أحد وذُكرت بالتأييد الحاصل في غزوة بدر. ولم يظهر لي وجه ارتباط معنوي بما سبقها، وما حاول به بعض المفسرين ربطها به لم يتبين لي أنه يتناسب مع فصاحة القرآن، فيكون موضعها بأمر من رسول الله ﷺ أن يكون هذا مكانها من نظم الآي. حركت الآية مشاعر المؤمنين بما يقتضيه وصف الإيمان، ليلتزموا بما جاء بعد النداء من تشريع، باعتبار أنه من مقتضى الإيمان. نهاهم عن الاستحواذ على الرّبا. وصوره صورة بشعة، بكون المرابي يمضغ ويزدرد بصفة مستمرة، وما ذا يأكل ؟ يأكل الرّبا أضعافا مضاعفة. أما الشر المستطير الذي يترتب على الرّبا فقد تعرضنا له في شرح الآيات (281/275) من سورة البقرة. وأما ما تميزت به هذه الآية فهو تصوير بشاعة أخذ الرّبا وقيام علاقات الواجدين والمحتاجين إلى السيولة على الرّبا. ووصفُ الرّبا بكونه أضعافا مضاعفة، هو وصف كاشف لا وصف يراد منه التقييد حتى يكون حكم الرّبا جائزا مع انتفاء القيد ( أضعافا مضاعفة ) وهذا الوهم وقع فيه بعض الذين يعملون على تبديل حكم الله، بقولهم: إن الرّبا إذا كان لا يبلغ أضعافا مضاعفة حلال. وبيان سقوط هذا الفهم: هو أن الرّبا لا يكون عند العقد إلا أضعافا مضاعفة. لأن كلمة أضعافا مضاعفة ليست بالنسبة لرأس المال كما فهمه كثير من الشارحين للقرآن. ولكن الرّبا هو، أضعاف مضاعفة. ومن طبيعة عقد الرّبا أن يشترط المرابي على من يقرضه المال أن يؤدي له كل سنة فائضا، وكلما تأخر المدين تضاعف الرّبا. ولو تتبعت أعمال البنوك الرّبوية في جميع أنحاء العالم فإنك تجد العقود مبنية على أن المدين يلتزم عند العقد بدفع

فائض متفق عليه في السنة ولو تأخر يوما أو شهرا أو سنة أو سنتين أو أكثر من ذلك عن السداد، فإنه مطالب بزيادة حق المرابي من الرّبا بنسبة الزمن الذي تأخر فيه. والعداد يحسب والرّبا يتضاعف.

### 131-واتقوا النار... أعدت للكافرين.

أمرهم عقب نهيه عن أكل الرّبا، بأن يتقوْا بتقوى الله، الطريق الموصل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة. ومن التقوى أن يبتعدوا عن الرّبا. وأرشدهم إلى أن يكونوا حماية لأنفسهم من النار التي أعدها الله للكافرين. وفي وصف النار بأنها أعدت للكافرين ما يدل، أولا، على أن المؤمنين بمخالطتهم للقرآن استقر في معارفهم هول هذه النار، وثانيا أنها النار التي أعدها الله للكافرين ، وثالثا في جعل ذلك تابعا للنهي عن أكل الرّبا ما يشير إلى عظم ذنب أكلة الرّبا، فالنار هي نار الكافرين، والعياذ بالله، بما يصحبها من عذاب ومهانة.

### 132- وأطيعوا الله...ترحمون.

باب التقوى وباب النجاة من النار وبالتالي باب التعرض لأبواب الرّحمة الإلهية هو طاعة الله ورسوله، بأن يجعل المؤمن أعماله ونواياه، وفق ما يريده الله من عباده.

سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**سارعوا:** بادروا.

**السراء والضراء:** الفرح والحزن.

**كظم الغيظ:** إمساك الغيظ حتى لا يظهر أثره.

**الفاحشة:** الفعلة المتجاوزة الحد في الفساد.

**ظلم النفس:** فعل الذنب الكبير.

**لم يصروا:** الإصرار: الاستمرار ونفيه هو الإقلاع.

## بيان المعنى الإجمالي:

دعوة تنبئ عن حب الله لهذه الأمة، مضمونها أن يبادر كل مؤمن ومؤمنة إلى العمل بما يسعد به بمغفرة ربه لذنوبه، المغفرة التي يصحبها التنعم في الجنة، التي قرب الله سعتها بالمتعارف للناس في دنياهم، بأن عرضها كعرض السماوات والأرض جميعا. هيأها الله جزاء للمتقين. ومن هو أهل لأن يوصف بأنه متق؟ هو الذي كان سلوكه في الدنيا يدل على نفس طيبة محبة للخير ومبتعدة عن الشر. ملامح هذا المتقي: 1) أن مساعدته للآخرين تشمل حالتي الفرح والحزن 2) أن قوته على التحكم في أرجاعه تجعله لا يظهر غيظه ولا يبادر بالانتقام3) أن سماحة نفسه لا تبقي للغضب والغيظ أثرا فهو يعفو عمن تعدى عليه مع قدرته على رد الفعل. ومن جمع هذه الصفات هو جدير بأن ينال أعظم جزاء يرجوه المؤمن، وهو أن يكون محبوبا من الله موصوفا عنده بأنه من المحسنين.

هؤلاء المنوه بهم المحسنون، بجانبهم من لم يبلغ درجتهم ولكن فضل الله شملهم، وهم الذين إذا ارتكبوا فاحشة بفعلة متجاوزة الحد في الفساد، أو ارتكبوا ذنبا من الذنوب الكبائر، تنبهت قلوبهم عن قرب لما تقتضيه العبودية من الطاعة وعدم تجاوز الحدود، فحصلت الندامة في مشاعرهم، والإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة، وطلبوا من الله أن يمحو ما سجل في صحائفهم. ولا يغفر الذنوب ويمحوها إلا الله، هؤلاء جزاؤهم قبول توبتهم وغفران ذنوبهم، والتنعم في جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون خروجهم منها، ولا انقطاع فضل الله عليهم إلى أبد الأبدين. ونعم الأجر والثواب أجر العاملين بما يرضي رب العالمين.

## بيان المعنى العام:

### 133-سارعوا إلى مغفرة... للمتقين.

ختمت الآية السابقة بدعوة المؤمنين للثبات على طاعة الله ورسوله. فعقبها بإرشادهم إلى أن يسرعوا ويبادروا بالاستجابة لذلك، مما يترتب عليه، من فضل الله، مغفرة الذنوب، ومحو آثار الخطيئة، فتفتح لهم جنة لا يعلم سعتها إلا الله. فقوله سبحانه عرضها السماوات والأرض، تصوير لسعة آفاقها حسب أوسع المقاييس عند البشر في الدنيا. ولكنها هي فوق ذلك، إذ لا يعدو أن يكون تقريبا لما ألفه البشر في حياتهم الدنيا. وليس في البيان ما يفهم منه قياس سعة الجنة بالسماوات والأرض. وقرن وصفها بهذه الآفاق المترامية الأطراف بأن الله أعدها بفضله وقدرته وكرمه للمتقين. فلا تسأل عن أنواع الكرامة والجمال والبهاء مما حوته تلكم الجنة.

### 134- الذين ينفقون...المحسنين.

من هم المتقون الذين أعدت لهم هذه الجنة ؟ بينت الآية نوعين من هؤلاء الذين أعد الله لهم جناته دار كرامته.

**ملامح النوع الأول:**

1) يحملون نفوسا سمحة بمشاركة إخوانهم مما أفاء الله عليهم من أموال، الواجب منها كالزكاة والمندوب، كالصدقات، والقروض الحسنة، وتجهيز الجيوش والبذل في جميع السبل التي يعتقدون أنها ترضي ربهم. يستوي حالة السراء عندهم التي تلهي الإنسان بما هو فيه من فرح، عن الاشتغال بغيره،و حالة الضراء عندما يكون في كرب فلا تشغله همومه الخاصة عن التفضل.

2) الذين يكظمون الغيظ، فعندما يُعتَدى عليهم فيثور في الإنسان، حسب طبيعته التي خلق عليها من إباء الضيم، حب الانتقام، تجد المتقين في هذا الوضع يتحكمون في عواطفهم وأرجاعهم فلا يسارعون إلى إفراغ جام غضبهم بما يتبعه من تفرق ونزاع.

3) صفة الكمال الثالثة المميزة لهذا النوع العالي من المتقين أنهم يغسلون ما علق بنفوسهم من آثار تجاوز إخوانهم وتعديهم، فهم يعفون مع القدرة على أخذ حقوقهم والانتصاف ممن ظلمهم ولا يجدون في صدورهم بقية من كراهية أو بغض.

### 135-والذين إذا فعلوا فاحشة...وهم يعلمون.

**ملامح النوع الثاني:**

المتبادر أنهم أقل درجة من النوع الأول – ملامحهم:

أنهم إذا ارتكبوا فعلا قبيحا فيه فساد كبير، أو ظلموا أنفسهم، ومعنى ظلمهم لأنفسهم أنهم لوثوا أنفسهم بكبيرة من الكبائر، فإن نفس الإنسان تكون نقية صافية سليمة ليس بينها وبين الاتصال بالله حجاب، حتى إذا غم عليها بعامل الشهوة أو وسوسة الشيطان، ضعف شعاع تلكم الاتصال، وارتكبت الخطيئة الكبرى، فإنه يكون في هذه الحالة قد ظلم نفسه وحجبها بحجاب الغفلة عن الوفاء بحق الله. ولكن هذا النوع بمجرد ما ينحرف عن الجادة تستيقظ روحه، ويحضر في عقله وقلبه صلته بالله وما تقتضيه من الوقوف عند حدوده، ويتحرك في داخله قوارع الندم على ما فرط، وهؤلاء يحل في قلوبهم الاشمئزاز من الوضع الذي انحط بهم إلى درك المعصية فيتبع هذا الحال العزم على عدم العودة إلى ما وقع فيه. ويذكر أن ربه قريب منه رحيم فيلتجئ إليه بطلب المغفرة والصفح عما قدم. وهو موقن تمام اليقين بأنه لا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه. لاكما يظن المشركون أن آلهتهم

تتكفل لهم بمحو ذنوبهم ولا كما يظن النصارى أن عيسى عليه السلام قدم نفسه للتعذيب بالقتل ثم الصلب ليغفر لهم خطاياهم.

**136 -أولئك جزاؤهم مغفرة...أجر العاملين.**

هؤلاء وإن كانوا حسب الظاهر دون المرتبة الأولى إلا أن فضل الله قد شملهم وبشرهم.

أولا: بأن جزاءهم قبول توبتهم، ومغفرة صادرة من ربهم الرّحيم بهم المغفرة المنقية من لوث المعاصي كأنها لم تصدر منهم معصية.

ثانيا: بأن لهم عنده جنات تتخللها الأنهار، بما يلقي هذا المشهد في النفس من ضروب الجمال والنضرة والخضرة والزهور والأنس، ينعمون فيها بما أعطاهم ربهم، دون أن يكدر صفو نعيمهم خشية انقطاعها فهم خالدون. ولما كان الجزاء قد بلغ أبعد مداه ختمت الآية بالتنويه من الرّب الكريم بذلكم الجزاء، بأنه نعم الجزاء للعاملين على بلوغ رضا الرّحمن.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (139) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (143)

**بيان معنى الألفاظ:**

**خلت:** مضت وسبقت.

**سُنَن:** جمع سُنّة: الطريقة الطبيعية التي يجري عليها الأمر.

**لا تهنوا:** الوهن: شعور الشخص بأنه ضعيف لا قدرة له على الإنجاز.

**يمسسكم:** يصبكم.

**القرح:** الجرح والمقصود به في الآية خسارة معركة أحد.

**محص:** التمحيص: التنقية.

**محق:** المحق: الذهاب شيئا فشيئا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

مضت أحوال الأمم السابقة على قوانين لا تتخلف في غاياتها ونتائجها. فسيروا في الأرض لتتكشف لكم تلك القوانين. ويتبين لكم الخسران الذي لحق بالمكذبين في جميع الأعصار. هذا القرآن تكفل الله فيه ببيان الحقيقة للناس، وهو يهديهم إلى ما يوضح لهم الطريق الموصل للنجاح في الدارين، وهدايته ليست هداية باردة، ولكنها هداية تؤثر في القلب والعقل والمشاعر فتتفتح للخير، وهو الموعظة. لا يدخل الوهن إلى عزائمكم فتجبنوا عن مغالبة الصعاب، ولا يدخل الحزن إلى قلوبكم فيستولي عليكم الانكسار والكآبة. أبشروا بالنصر والغلبة فأنتم الغالبون الأعلون، إن كنتم مؤمنين حقا. لا يحزنكم خسارة معركة أحد والجرح النفسي الذي حصل لكم، فإن أعداءكم قد خسروا خسارة أعظم في واقعة بدر. وهذه سنة من سنن الحياة، أن الأيام لا تكون إيجابية دائما لفريق من الناس وسلبية للآخر، بل يتداول كل فريق النصر والهزيمة، حسبما يجمعه من موجبات أحدهما.

كانت واقعة أحد معللة بعلل:

العلة الأولى: إبراز أن الأيام دول فلا يظن المؤمن أنه سينتصر بإيمانه إذا لم يمض على سنن الله في النصر والهزيمة.

العلة الثانية: ليظهر في الوجود العلم الإلهي كما حصل في الأزل.

العلة الثالثة: تكريم من قدر الله له الشهادة من الذين تمنوا بلوغ شرفها. ونص في مقابلتهم على هوان قتلى الكفار وخسارة عاقبتهم، لأن مُؤدّى: (والله لا يحب الكافرين)، أنه يعاملهم معاملة المُبغض المهين.

العلة الرّابعة: تمحيص المؤمنين بتزكية أنفسهم، وأن ما لاقوه في غزوة أحد ينقيهم من الشوائب التي علقت بهم لبعض تجاوزاتهم. ومن قتل منهم لا ينقص من عدد المسلمين لأن الإسلام ينتشر وتتضاعف أعداد المؤمنين به.

العلة الخامسة: محق الكافرين الذين قتلوا، فهلاكهم ضعف لهم لأنهم سائرون إلى ضعف وقلة. ثم أيقظهم إلى نقطة خفية هي أن غاية المؤمنين أن يفوزوا بالجنة دار الكرامة، فألقى عليهم سؤالا: مالكم اضطربتم لما حصل لكم في وقعة أحد؟ أتظنون أنكم تنالون الجنة دون أن تقيموا الدليل على صدقكم في الجهاد وصبركم عند اللقاء؟

وذكرهم بحرصهم، عندما عرض عليهم النبي ﷺ الأمر، حرصهم على الخروج للجهاد، وعدم التحصن بالمدينة. ورغبتهم في الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، فمالكم قد دب الوهن في نفوسكم والحزن على ما حصل في هذه الغزوة؟

## بيان المعنى العام:

### 137-قد خلت... المكذبين.

النظام هو القاعدة التي بني عليها الكون، سواء في ذلك الجانب المادي أو الجانب الاجتماعي. وبناء على ذلك أقام ابن خلدون فلسفته على أن أصول العمران قواعد ثابتة تسير عليها البشرية والنتائج تابعة للمقدمات. وهذا ما أرشد إليه قوله تعالى (قد خلت من قبلكم سنن... ) يلفت القران نظر المؤمنين إلى أن ما يحصل في العمران البشري من نجاح أو فشل، ليس نتيجة الصدفة، ولكن ذلك يتبع قواعد في العمران، هي ستن أجرى الله عليها أطوار المجتمعات، فخراب المجتمع أو نجاحه هو تابع لمسيرته في الكون من صلاح أو فساد. وهذه السنن قد تكررت في الأمم السابقة

-يطلب القرآن من المؤمنين أن يحصلوا المعرفة من طرقها، التي منها التاريخ الذي لا يعطي أفضل مخزونه إلا بالسير في الأرض للاطلاع المباشر على أحوال الأمم. ومن ذلك وضع الذين جاءتهم الهداية والموعظة من الله فكذبوا ورفضوا وواصلوا حياتهم على ما تمليه عليهم شهواتهم، فكان عاقبتهم الخراب والانحلال.

### 138-هذا بيان للناس...وموعظة للمتقين.

تنبهوا أيها المؤمنون للذكر العظيم الذي جاءكم من ربكم، فقد جاءكم بيان شامل للناس جميعا، يجدون فيه على اختلاف ظروفهم ومستوياتهم الفكرية معالم طريق الخير واضحة لا احتمال فيها، وليس هو البيان الذي لا يحرك إلا عقل الإنسان، ولكنه يؤثر في جميع قواه العقلية والشعورية فيحتضنه ليهديه إلى ما يحقق سعادته . ثم هو يحرك قلبه ليرقق مشاعره حتى تسرع إلى الاستجابة. إنه لا يوجد كلام يبلغ مبلغ القرآن في تأثيره في قوى الإنسان العقلية والسلوكية والشعورية.

### 139 -ولا تهنوا...إن كنتم مؤمنين.

اعلموا أن قوتكم هي بهذا الدين والكتاب المبين، فإياكم أن يدخل الوهن في عزائمكم لما أصبتم به في معركة أحد، وإياكم أن يستولي عليكم الحزن والأسى، فتحصرون همكم فيما أصبتم به، ويتضخم ما حصل لكم فيشل اندفاعكم لنشر ما استحفظتم عليه. أبشروا بالنصر والتأييد فأنتم الغالبون الأعلون، وإياكم أن يدخل الشك قلوبكم ، إن إيمانكم يؤكد لكم أن العاقبة لكم.

### 140-141، إن يمسسكم قرح...يمحق الكافرين.

يُلطّف القرآن على المسلمين ما أصابهم يوم أحد، بأن الله قد حقق لهم النصر المبين في غزوة بدر، ويقول لهم: إن أصابكم جرح يوم أحد فقد أصاب المشركين جرح مثله. وتذكير بما بدئ به المقطع: إن الأيام لا تسير على وتيرة واحدة فالمنتصر قد ينهزم في جولة تالية، وبالعكس، وذلك حسب سنن الله في النصر والهزيمة. وأبرز القرآن العلل لما أصاب المؤمنين يوم أحد.

الأولى: أن يدرك المؤمنون أن النصر حسبما أفادته الآية الأولى يتبع سنن الله في الكون، فلا يعتمدوا في المستقبل على أن الحق معهم فقط بل لا بد من جمع موجبات الغلبة.

### 142-أم حسبتم... الصابرين.

الثانية: ليظهر في الوجود ما سبق في علم الله. وهذا الذي ظهر هو تجل لما كان حاصلا في علم الله في الأزل. كما أنه لا يخالف في صفة العلم أن يكون علم الله بما وقع بعد مضي زمن عليه هو ذات العلم الأزلي. علم الله لم يتغير قبل حدوث الحدث وعند حدوثه وبعد حدوثه، لأن علمه ليس متوقفا على بروز المعلوم للوجود.

### 143-ولقد كنتم تمنون... فقد رأيتموه وأنتم تنظرون.

الثالثة: تكريم من قدر له الشهادة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا في شوق للفوز بمرتبة الشهادة في سبيل نصرة الإسلام بالصبر على القتال حتى الفوز بإحدى الحسنيين.

الرّابعة: تمحيص المؤمنين بتزكية نفوسهم، وتنقيتهم مما علق بها من التجاوزات التي وقعوا فيها في حياتهم. وبهذا التطهير يكونون في المستقبل أمضى عزيمة وأقدر على مباشرة الجهاد.

الخامسة: محق الكافرين، فإن من قتل منهم لا يعوض، لأن الإسلام يمتد ويكثر الداخلون فيه كل يوم، والمشركون إلى نقص حتى انتهى أمرهم من جزيرة العرب.

وقد استوفى القرآن العلل لما وقع في غزوة أحد، فانتقل إلى سؤال تذكير للمؤمنين بعد ما أصابهم من الحزن والكمد فسألهم: أتظنون أن تفوزوا بمطلبكم وغايتكم التي من أجلها حرصتم على ملاقاة العدو خارج أسوار المدينة، أليست الجنة هي غايتكم؟ وهل يبلغ أحد هذه المنزلة قبل أن يظهر صدق جهاده وصبره على القتال ؟هذا هو مهر الجنة.

لقد كنتم قبل خروجكم للجهاد تتمنون لقاء العدو بما يترتب عليه من الموت في سبيل نصرة الدين فها أنتم قد رأيتم الموت يصرع كثيرا منكم، فلماذا الجزع والكمد ؟

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

## بيان معنى الألفاظ

**خلت:** مضت.

**ينقلب:** يرجع إلى الكفر.

**كأين:** كثيرا ما.

**الرّبي:** المتبع لشريعة الرّب.

**الإسراف:** الإفراط وتجاوز الحد.

## بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن حقيقة أساسية في العقيدة غفل عنها بعض المشاركين في غزوة أحد. هذه الحقيقة هي: أن محمدا رسول يجري عليه ما يجري على سائر رسل الله الذين جاؤوا قبله. وبعض الرّسل قد تسلط عليه الكفار فقتلوه وبعضهم بلغ الأجل المقرر له فمات. فإياكم أن تعودوا إلى الكفر إن مات محمد أو قتل. ومن يعد إلى الكفر بعد الإيمان فإن الله أعلى من أن يتضرر بكفر الكافرين.

وسيجزي بفضله من شكر ربه على الهداية التي أوتيها فثبت عليها وقام بما يقتضيه شكر النعمة. لا تظنوا أن الموت يصيب البشر في فوضى بدون تقدير سابق. فكل نفس تموت، إنما تستوفي أيامها واللحظات التي قدر الله أن تبقى فيها حية. اعلموا أن ذلك مدون ومكتوب في كتاب حسب علم الله. ومن يجعل كل همه في حياته أن ينال حظوظ الدنيا فإن الله يمكن هؤلاء من نتائج أعمالهم فيها. ومن

كان همه الأصلي أن ينال ثواب الآخرة يمكنه الله من ذلك. والجزاء الأخروي خاص بالشاكرين الذين لا يغفلون عن حق المنعم في جميع أعمالهم. وثبتهم بتذكيرهم بأن كثيرا من أتباع الأنبياء السابقين الملتزمين بما جاءهم من ربهم قد قتلوا مع أنبيائهم، وثبتوا لما استحر فيهم القتل، فكانت عزائمهم ماضية لم يصبها الخور والتردد، ولم يضعفوا عن مواصلة القتال ونصرة أنبيائهم، ولم يستسلموا للعدو. ثم ظهر ثباتهم الباطني على ألسنتهم فتوجهوا إلى الله بالابتهال داعين: ربنا اغفر لنا ما فرط منا من ذنوب، وتجاوز عن الكبائر التي وقعنا فيها. كل همهم أن ينصروا دين الله الذي امنوا به وسعدوا أن يلقوا في سبيل إقامته وعزته ما لقوا وانصرنا على القوم الكافرين. والله الكريم وهو يرعى عباده المؤمنين عجل لهم بالإجابة، فمكنهم من الفتح والغنيمة في الدنيا، وفوق ذلك ثواب الآخرة الذي هو أحسن ثواب وأكمله. وفوق ذلك كله أنهم من المحسنين والله يحب المحسنين ولا تسأل عمن نال حب الله فهو السعيد.

**بيان المعنى العام.**

**144 -وما محمد إلا رسول...الشاكرين.**

هذه الأيات داخلة تحت القاعدة العامة السابقة: **قد خلت من قبلكم سنن.** هي سنن الله التي أجرى عليها حوادث الكون. التي هي ميزان تؤيد العقول وتعصمها، ففي غزوة أحد أشاع المنافقون وبعض العامة أن محمدا قد مات. وإذن لم يبق من أمر الإسلام شيء. بل بلغ الأمر ببعضهم أن دعا إلى طلب الدخول تحت حماية أبي سفيان.

فتنزل هذه الآية جامعة بين لوم المستضعفين، وتقريع المنافقين، وإبراز الحق الذي غفل عنه هؤلاء . ومرتبطة بسنن الله التي خفيت عليهم.

إن محمدا لا يعدو أن يكون رسولا سبقه رسل حملوا هداية الله للبشر. يجري عليه ما جرى عليهم. ومن سنة الله فيهم أن بعضهم قتل وبعضهم بلغ أجله الذي حدد له فمات. فما هذه الغفلة التي أصابتكم؟ أفتنقلبون كفارا إن مات محمد أو قتل ؟ ومن يعد إلى الكفر ويخلع ثوب الإيمان فخسارته على نفسه لا تتعداها. إن الله لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا بطاعتهم وتعالى أن يضره كفر من كفر. وهو سبحانه بفضله سيجزي الشاكرين. والشاكر هو الذي صرف النعمة فيما خلقت له، فالرّوح للقرب من الله، والعقل للتأمل في خلق الله والانتفاع بما في هذا الكون من إمكانات، والقوى المادية لتصرف في وجوه الخير حسبما حدده الله. وهذا التذكير والعتاب على ما وقع بعد نيل الكافرين من المؤمنين في غزوة أحد، فيه تحذير للمؤمنين أن

يقعوا في اضطراب إذا توفي رسول الله ﷺ. ورغم ذلك فإنه قد وصل الأمر بالبعض إلى الرّجوع إلى الكفر بعد أن أعلن أن النبي ﷺ فارق الحياة ومات فكانت حروب الرّدة. والبعض من الصحابة لم يفقد بموت رسول الله ﷺحكمته وثباته كأبي بكر ﷺ، فإنه بعد أن دخل على رسول الله ﷺ ، وكشف عن وجهه الشريف وقبله، وتبين له أنه قد فارق الحياة، قام خطيبا مفتتحا كلامه بهذه الآية، فسكن الناس وقبلوا الخبر المفزع.

### 145-وما كان لنفس أن تموت... الشاكرين.

يؤكد القرآن المعنى الذي بينته الآية السابقة فيقرر: إن بقاء الإنسان حيا ليس بإرادته، وكذلك مفارقته للحياة فلا يفارق الحياة إلا بإذن الله. فلحظات بقاء كل فرد موثقة ومكتوبة في كتاب لا يزيد ولا ينقص ما كتب فيه وضبط.

وإذا كان من سنن الله في الحياة أن الأجل لا يزيد ولا ينقص، فإن البشر رغم ذلك يختلفون، فبعضهم يقصر نظره على هذه الحياة الفانية، ويبذل جهده للنيل من حظوظها، وبناء على سنن الله تلك، فإنه ينال حظه من الدنيا. ومن الناس من يربط همه وغايته بالفوز في الآخرة، فيعمل على ربط الدنيا بالآخرة ومن سنن الله أيضا أن من يبغي بنشاطه في الدنيا الفوز بثواب الآخرة ينال منزلة الفوز في الآخرة، ويتأكد ذلك بأن الله سيجزي الشاكرين، وقد حددنا مقتضى الشكر قريبا.

### 146-وكأين من نبي... الصابرين.

إن الزلزال الذي قارن وأعقب غزوة أحد كان زلزالا شديدا رأينا كيف عالج القرآن آثاره. وما يزال يواصل اقتلاع تلكم الآثار في آيات عديدة أخرى. ففي هذه الآية وما يتلوها يعرض القرآن من تاريخ الأمم الماضية ما يرفع به معنويات الجيش بعد تلكم الواقعة. ويبين أن ما أصابهم هو سنة تكررت في تاريخ الأنبياء فعدد غير قليل من الأنبياء السابقين قتل معهم في حروبهم مع الكافرين عدد كثير من صحابتهم المخلصين لله المتصلين به الملتزمين لهدايته (الرّبيون) نسبة إلى الرّب لشدة تعلقهم به. ولما استحرّ القتل في أتباع تلكم الرّسل وتطايرت الرّؤوس وحمي وطيس المعارك بقي الأحياء منهم ثابتين، عزائمهم قوية نافذة، لم يعرف الوهن إليها سبيلا، وما لحقهم ضعف في المقاومة ولا ارتعشت أيديهم من الخوف، وما استسلموا للعدو يفعل فيهم ما يشاء. إن هذه العزائم النافذة، والسواعد القوية لم ترتخ في هول المعارك، بل وقفت مع الرّسل في عزة متحدية.

### 147-وما كان قولهم... الكافرين.

إن رباطة جأشهم، وقوة إيمانهم، برزت على ألسنتهم ابتهالات ودعاء إلى الله وكان أكبر همهم رضوان ربهم عليهم: اللهم اغفر لنا ذنوبنا. فالهاجس الذي يبغون أن يطمئنوا من جانبهم عليه هو أن يصفح الله عنهم فيما تقدم لهم من تجاوزات وأن يمحو زلاتهم الكبرى (إسرافنا في أمرنا) وأن يثبتهم الله عند اللقاء ثباتا يزلزل أعداءهم فيحققوا نصر دين الله ويهزموا الكافرين.

### 148 - فآتاهم الله ثواب...المحسنين.

عجل الله بالاستجابة لابتهالاتهم ورعى تضرعهم وحسن قصدهم، فجمع لهم بين مطالبهم الدنيوية فانتصروا وغنموا وأحسوا بعزة الغلبة. وبين ثواب الآخرة وهو أكرم وأجمل وأحق بأن يتنافس فيه المتنافسون. إنهم محسنون في جميع مواقفهم، ففازوا بحب الله لهم لأن الله يحب المحسنين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**الرّعب:** الفزع من شدة خوف.

**مأواهم:** مصيرهم ومقرهم.

**مثوى:** مقام.

**صدق الوعد:** تحقيقه.

**بإذنه:** بتيسيره.

**تحسونهم:** تقتلونهم.

**الفشل:** الوهن والإعياء.

**التنازع:** الاختلاف.

## بيان المعنى الإجمالي:

نداء للمؤمنين يحذرهم أن يسمعوا للكافرين الذين يعملون على التأثير عليهم بطرق خبيثة يغررون بها، قد تكون في ظاهرها عطفا عليهم وحبا فيهم ولكنها في باطنها لا تهدف إلا إلى شيء واحد هو أن يكتسبوا ثقتكم ليعودوا بكم إلى الكفر الذي كنتم عليه، وفي عودتكم إلى الكفر خسارتكم الكبرى بإحباط أعمالكم إنهم لا يضمرون لكم ودا ولا موالاة. إن الذي يتولى رعايتكم هو الله يسير بكم إلى النصر ولا أقدر من الله على نصركم. إن هذا النصر المؤكد يتحقق بما قرره الله من أنه سينزل الرّعب في قلوب المشركين، تبعا لفقدانهم الثقة في معبوداتهم التي أشركوا بها والتي لا يقوم لهم دليل مثبت أن لها من الأمر شيء. وبناء على اختيارهم للضلال فعاقبتهم النار، وإن أسوأ مقام من كان مهينا في نار جهنم يحترق بنارها. ثم عرض عليهم ما تم بصور متلاحقة يتكون من مجموعها شريط فيه عبرة وملام وذكرى وبشارة: لقد حقق الله ما وعدكم به من النصر أولا، وذلك إذ تتبعتم الكفار تعملون، بتيسير من الله، السيف في رقابهم. وبقيتم على هذه الحال حتى لحقكم الإعياء، ثم اختلفتم: أتبقون مرابطين حيث حدد لكم رسول الله ﷺ، أم تغادرون أماكنكم طلبا للغنيمة. ثم رجح أغلبكم مخالفة أمر الرّسول وعصيانه، من بعد ما رأيتم ما تحبونه من نصر. وافترقتم فرقتين: فرقة تريد أن تحصل على الغنائم التي تهيأت بفرار الكافرين وتركهم أموالهم، وفرقة ثابتة على تطبيق أمر رسول الله ﷺ المؤدي إلى الفوز في الآخرة. فصرفكم عن الكافرين بسبب خلافكم وعصيانكم عن متابعة الجهاد إلى تمام النصر ليتحقق فيكم الابتلاء. ولطفا من الله بعباده المؤمنين وبعد تتابع لومهم وتقريعهم، يعلن الله بفضله: أنه عفا عنهم ولا يؤاخذهم بما صنعوا. إن الله يتابع فضله على المؤمنين.

## بيان المعنى العام:

### 149 - 150 ، يا أيها الذين آمنوا... خير الناصرين.

فتحت غزوة أحد مشاكل في المجتمع المدني. بعد النصر العظيم في غزوة بدر وما خلفه انتصارهم من قوة نفسية ووثوق بقوتهم جاء انكسارهم في غزوة أحد يخلخل الأوضاع ويحدث ثغرات أراد المشركون والمنافقون أن يدخلوا منها إلى الصف الإسلامي لينفذوا مخططاتهم الرّهيبة. والله مع المؤمنين يوقظهم وينبههم ويكشف لهم ما خفي عليهم من مكائد الكافرين والمنافقين.

لقد حاول بعض الكافرين أن يثبت الهزيمة في نفوس المؤمنين وأن يبلغ بذلك إلى التشكيك في مستقبل الإسلام. والإنسان بعد الهزيمة يكون متقبلا لما كان يرفضه

رفضا قاطعا عند الانتصار. هذه سنة الله في البشر. وعناية الله بأمة محمد أيقظتهم لما يدبره الكافرون لهم بما يظهرونه لهم من عطف يُنوِّمُ ما كان عندهم من رفض لمقالاتهم نبههم إلى أن هؤلاء الذين يندسون في صفوفهم ويظهرون لهم الود، لهم غاية واحدة، هي أن يخدروهم حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وذلك هو الخسران المبين. إنهم حاقدون عليكم وقد تولاكم الله فهداكم، وأعانكم فنصركم في بدر وفي اللقاء الأول في أحد، وأعطاكم ربكم الطمأنينة والإحساس بالعزة والكرامة، هو مولاكم الذي يسر لكم بفضل دينه هذه المكتسبات العظيمة. ثقوا بأنه سينصركم أعز نصر وأتمه فإنه لا أحد ييسر لكم النصر غيره.

## 151-سنلقي في قلوب... الظالمين.

أيها المؤمنون إني أنا المتصرف في الكون. سأجعل في قلوب الذين كفروا الرّعب الذي يضعف قواهم ويلهلهل عزائمهم. إن حصول ذلك أمر تابع من المقدمات التي هيأها الكفار ذلك أنهم أشركوا بالله معبودات ضعيفة لا يثقون في مساعدتهم لهم مساعدة يقينية، لأن معطيات التأثير مفقودة لديهم. ومع عدم تثبيتهم وما يصحبه من انهزامهم فإن عاقبتهم نار جهنم يصلونها. ولا مقام أخبث من جهنم.

## 152-ولقد صدقكم الله وعده...المؤمنين.

اذكروا أن الله وعدكم نصره ، وحقق لكم ما وعدكم به، اذكروا تلك المشهد في بداية المعركة، وسيوفكم تلاحقهم تقتلهم وهم فارون منكم ورياح الظفر تؤيدكم، استمر ذلك إلى أن شعرتم بالإعياء وتنازعتم مختلفين أتمضون على قتالهم إلى تمام النصر، أو تسرعون إلى الغنائم والأموال التي ترونها وقد تركها الكفار وأخذوا يفرون؟ ثم عصى قسم كبير منكم ما حدده لكم رسول الله من الثبات في أماكنكم التي ائتمنكم عليها، وهم الذين حركتهم الأموال المعرضة للغنيمة، وحب المال من طبيعة النفس البشرية، وثبت فريق آخر منكم وفيًّا لتنفيذ ما أمر به رسول الله ﷺ، لا يجلبهم المال ولا الغنائم كل همهم في ثواب الآخرة المرتبط بالطاعة لرسول الله. وإذ تفرقت كلمة الجيش هذا التفرق صرفكم عن الكافرين ليكون ذلك ابتلاء لكم واختبارا وإعدادا لما يستقبل من الأيام، بين الكفر والإيمان. إنه بعد ما وقع في هذه الغزوة وما أشار إليه قوله تعالى من لوم وتقريع (منكم من يريد الدنيا) يعجل القرآن بأن ما وقع منهم من تقصير لم يزعزع إيمانهم ولا يخدش في

صدقهم، ويعجل لهم بالبشارة بأن الله قد عفا عنهم ما وقعوا فيه من تقصير. وهذا شأن المولى سبحانه، ففضله على المؤمنين غير محدود.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (154) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)

**بيان معنى الألفاظ:**

**تصعدون:** من أصعد في الأرض ذهب فيها. صعد في الجبل تسلق.

**لا تلوون على أحد:** لا يلتفت أحد لغيره ليرحمه.

**أخراكم:** آخر الجيش.

**أثابكم:** عاقبكم.

**النعاس:** نوم خفيف – مقدمة النوم.

**برز:** خرج.

**مضاجعهم:** جمع مَضْجَع، وهو الموضع الذي قتل فيه المقتول.

**ليبتلي:** ليختبر.

**الصدور:** الضمائر.

**ليمحص:** ليخلص ما في قلوبكم من نقائص.

**بيان المعنى الإجمالي:**

صُرِف المجاهدون عن أعدائهم ففروا في الشعاب والأودية، لا يهتم الفار إلا بنجاته، ولا يهمه من أمر أخيه شيء، وكان الرّسول ﷺ يناديهم في آخر الجيش:

(إلى عباد الله من يكر فله الجنة ) فكان جزاؤهم أن أضيف إلى الغم الذي أدخلوه على أنفسهم، بضياع الغنائم التي تسابقوا إليها أضيف غم آخر بالقتل والجراح ونكبة الهزيمة. عاقبكم الله بذلك لتعلموا أن ما حل بكم هو بجنايتكم، فلوموا أنفسكم، ولا تحزنوا. إن في هذه المصارحة بأسباب المصيبة ما يضعف الإحساس بها، شأن المصاب إذا علم أن مصيبته نتيجة ما قدمت يداه هانت بعض الشيء. واحذروا فإن الله يعلم حقيقة ما تعملون. في هذا الوضع الحرج ميز القرآن بين المؤمنين، وقد ابتلوا، وبين المنافقين. فأما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم سنة من النوم، أعادت للعزائم ثباتها وللقلوب أمنها. وأما المنافقون، فقد فضحهم القرآن مسجلا ما انطوت عليه صدورهم من خبث وما كانوا يتهامسون به، وقد ضاعف فساد دخيلتهم همهم.

يشرح القرآن ذلك، بأنهم، تبعا لفساد عقيدتهم في الله، أخذوا يظنون بالله ظنونا فاسدة. منها قولهم: إن خروجنا من المدينة ما كان بتدبيرنا، يلوحون بذلك إلى خطأ الرسول. ويجيبهم القرآن: نعم ليس لكم من الأمر شيء، لأن الأمر والتصريف كله بيد الله. ثم يفضحهم القرآن، مبرزا ما يخفونه من النفاق الذي يتهامسون به بينهم ويعملون على ترويجه: لو كان لنا من أمر الناس والتدبير ما قتل من قتل منا هاهنا. وأجابهم القرآن: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم فإن من قدر الله عليه القتل، لا مناص له من الخروج إلى مصرعه ليتحقق فيه ما قدر له. ثم يعود النص القرآني إلى المؤمنين يواصل بيان علل ما كان الله قدره: يريد الله أن يختبر ما انطوت عليه صدوركم من الثبات والطاعة، وليصرف بما أصابكم مما تلوثت به قلوبكم من بعض المعاصي والله عليم بما يجري في الصدور مما لا تبين عنه الألسنة. ويبرز هذا المعنى بصفة أبين فيقول: إن الذين تولوا وفروا في ذلكم اللقاء، ما كان لهم أن يقعوا فيما وقعوا فيه لولا أن الشيطان قد أثر فيهم فأزلهم عن الموقف الصواب، وذلك مرتبط بما قدمت أيديهم، ويعجل القرآن ببشارة المؤمنين بعد لومهم الذي يكسر النفوس ويوجب الهم، يبشرهم بأن الله قد عفا عما فعلوه. ذلك أن الله من صفاته الغفران والحلم.

### بيان المعنى العام:

### 153 -إذ تصعدون... والله خبير بما تعملون.

يسجل القرآن بعض مشاهد غزوة أحد، لتكون حية في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا لمثل ما وقعوا فيه. هذه الصورة تمثل المجاهدين الذين كانت رياح بوادر النصر تهز مشاعرهم، وهم في مواقع حصينة مأمورون أن لا يفارقوها، وكانت

الغنائم بارزة أمام أعينهم، وقد ألقى بها المشركون فرارا بأنفسهم. هؤلاء الذين أوكل إليهم حماية الجيش الإسلامي بالثبات في مواقعهم استهوتهم المغانم المطروحة، فتسابقوا إليها وأخلوا المواقع الحصينة، فانقض عليها المشركون، وقد تعرت ظهور المسلمين، فتحول النصر الأول إلى هزيمة. أصبح معظم الجيش فارا لا يلوي على شيء همّ كل فرد أن ينجو بنفسه، لا ينظر الفار إلى وضع أي أحد من إخوانه. وفي هذا المشهد يصدح صوت القائد، رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي في الناس: إليّ عباد الله من يكُر فله الجنة – فتجمع حوله صلى الله عليه وسلم المخلصون الصادقون.

ويسجل القرآن حالة الفارين فيقول: إن الله جازاهم في الحال، بأن أضاف إلى غمهم مما فاتهم من نشوة بوادر الانتصار وفوات الغنائم، أضاف إليه غما آخر من الخوف والهزيمة وتسرب الشائعات. واجههم القرآن ببيان الأسباب التي كانت من صنعهم، ليذهب عنهم الأسى على ما فاتهم، وليرفع عنهم الحزن العميق والكآبة ليستفيقوا من هول الصدمة. ذلك أن المصاب إذا تحقق أنه ليس مظلوما ، وأن مصيبته إنما كانت نتيجة ما قام به من أخطاء، فإن إدراكه هذا يخفف عنه من ثقل المصيبة ويدفعه إلى إصلاح نفسه. والله عليم بما كان وما يكون فلا يخفى عنه شيء من أعمالكم ولا من نتائجها القريبة أو البعيدة.

## 154-ثم أنزل عليكم من بعد الغم... بذات الصدور.

يسجل المشهد واقعا آخر، هو أن الجيش كان على قسمين:

**القسم الأول:** الذين كانوا حول رسول الله ثابتين رغم النكبة التي حصلت، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتثبتهم وينزل عليهم في هذا الظرف العصيب ما يؤمن قلوبهم ليعود لها اندفاعها، ويقوي عزائمهم ليعود إليها مضاؤها، فيغشاهم نعاس خفيف وصفه الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه[1]. إن أخذ النعاس للمجاهدين في هذا الظرف العصيب، ظاهرة خارجة عن المألوف، تبرز عناية الله بهذه العصابة النقية التي كانت حول رسول الله ﷺ.

**القسم الثاني:** طائفة من الجيش، كان الهم نابعا من بواطنهم، من أنفسهم الفاسدة، ذهبت بهم هواجسهم إلى أن تصوروا في ذات الله وفي تصرفه تصورات من رشح الجاهلية التي لم تنق منها دخائلهم بعد. من ذلك أنهم يقولون: الأمر بغير

---

[1] فتح الباري ج 9 ص 296

أيدينا، يُعرّضون بأنهم أقدر على القيادة وأن الأخطاء التي وصلت بالجيش إلى الهزيمة هي من سوء التدبير. ويجيبهم القرآن: ليس لكم من الأمر شيء، لأن المتصرف في الكون هو الله، فتطلعكم إلى مشاركة الله في تصريف الأمور من فساد عقيدتكم ومن بقية لوثة الشرك في نفوسكم. ويفضح القرآن سرائرهم فيعلم النبي: بأنهم يخفون في أنفسهم من النوايا والأفكار ما لا يظهرونه لك. ففي أنفسهم حسرة وغيظ وثورة يقولون: لو أخذ برأينا في عدم الخروج من المدينة ما قتل منا أحد. تعريض بسوء قيادة الرّسول صلى الله عليه وسلم. يرد القرآن عليهم في جزم: إن المواضع والأزمنة المحددة ليبلغ فيها كل إنسان أجله، هي من تقدير الله الذي لا يتخلف. ومن قدّر له الموت في مكان يخرج عند أجله من بيته ليموت في المكان المقدر له .

وينعطف الكلام بعد فضح المنافقين ليتوجه من جديد إلى المؤمنين يمسح جراحهم ويضيف إلى العلل السابقة: أن الله أراد أن يختبر ضمائركم مقرونا هذا الاختبار بتزكية نفوسكم وتخليصها مما خالطها من تقصير وتجاوز. ويؤكد هذا المعنى ما ختمت به الآية من أن الله عليم بما يجري في بواطن الصدور.

**155-إن الذين تولوا منكم... إن الله غفور حليم.**

يؤكد القرآن أن الذين فروا يوم أحد، وقعوا تحت تأثير وساوس الشيطان، بسبب بعض ما اكتسبوه كتكلفهم بالمال ومخالفة أمر رسول الله، أو بسبب خطايا سابقة وهنت عزائمهم. ويتلو هذا التقريع واللوم بارقة عفو الله عن الكبيرة التي وقعوا فيها وهي الفرار يوم الزحف. ويعلن القرآن أن الله عفا عن هؤلاء الفارين. وهنيئا لهم ما منحهم ربهم من فضل وكرامة. وهذا شأن الله الكريم فهو غفور حليم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

**بيان معنى الألفــاظ:**

**الضرب في الأرض:** السفر.

**غزى:** جمع غاز.

**الحسرة:** شدة الأسف والحزن.

**لنت لهم:** كنت مصفحا عن جفاء الجفاة، واسع الخلق.

**الفظ:** السيء الخلق، الجافي.

**لانفضوا:** لتفرقوا.

**شاورهم:** اعرض عليهم الأمر المهم للاستئناس برأيهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

كان مجتمع المدينة مختلطــا، فيــه المؤمنــون وفيــه الكــافرون، ويعمــل القــرآن علــى تحصين المؤمنين حتّى لا تتسرب إلــيهم تصــورات الكــافرين وعقائــدهم، فمــن ذلــك قول الكافرين عن إخوانهم إذا سافروا فماتوا أو شــاركوا فــي الحــرب فقتلــوا: لــو بقــوا بيننا ما ماتوا ولا قتلوا. إن سوء عقيــدتهم يضــاعف أســاهم وحــزنهم ويطبــع نفوســهم بالحسرة التي تصيبهم بالغم والإحبــاط. اعلمــوا أن الله هــو الــذي بيــده وحــده الحيــاة والموت، وهو العليم بما تفعلون. إنــه إن قُتِلْــتم مجاهــدين، أو مــتّم وأنــتم تسـعون فــي الأرض فما تحصلون عليه بعد ذلك مــن مغفــرة مقرونــة برحمــة هــو خيــر ممــا تجمعونه من متاع الدنيا. ولدار الآخرة خير. وأكد هــذا المعنــى: إن مــتم أو قتلــتم فــإن مصيركم إلى الله الذي أعد لكم مغفرته ورحمته.

طبع رسول الله ﷺ على أكمــل الأخــلاق وأنبلهــا، وانضــاف إلــى ذلــك أن الله أنــزل عليه من رحمته ما جعله لينا في تعامله. وبهــذه الرّحمــة التــي هــي عطــاء الله لنبيــه أحبه الناس والتفوا حوله، إذ لو كان فظا فــي تعاملــه جــافي الطبــع، أو فاقــدا للرحمــة قاسي القلب لما استطاع أن يُكوّن منهم أمة موحدة. فحقق يــا محمــد مــا جمــع الله فيــك من كمالات خلقية، فاعف عنهم، واطلب لهم مــن الله التجــاوز عــن ســيئاتهم، وقــربهم إليك واعرض عليهم الأمور الهامة ليبدوا آراءهــم بكــل حريــة. فــإذا تبــين لــك وجــه السداد بعد المشاورة، فانفذ إلى ما عزمــت عليــه بــدون تــردد، معتمــدا علــى الله فــي تحقيق ما أنت قاصده. إن الله يحب المتوكلين عليــه ممــا يؤكــد قيمــة التوكــل أن الله إذا أراد نصــركم فــلا تســتطيع أي قــوة أن تغلــبكم وتقهــركم. وبــالعكس فــإذا أراد الله

خذلانكم فلا تجدون نصيرا بعده تلتجؤون إليه. وصلة المؤمنين بربهم تجعلهم مستجيبين للتوكل على الله حق التوكل.

### بيان المعنى العام:

### 156-يا أيها الذين آمنوا... بصير.

عناية الله بهذه الأمة تبرز في وجوه عديدة. منها أنه يريد أن يحصنهم مما يمكن أن يتسرب إلى تصوراتهم من الكافرين الذين يقاسمونهم الحياة بالمدينة. فنبههم حتى يكونوا يقظين لما يتحدث به الكافرون في جميع المجالس فلا يسايرونهم في أقوالهم: إن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار، أو شاركوا في الغزو فقتلوا، إنهم لو بقوا في المدينة فلم يسافروا، ولم يشاركوا في الغزو لم يموتوا ولم يقتلوا. إن تحرقهم على المصير الذي صاروا إليه، وتعلقهم بالحياة تعلقا أنساهم الحقيقة التي تتكرر أمام أبصارهم من أن الموت لا مفر منه، ما استفادوا من ذلك إلا مضاعفة لأحزانهم، وتعميقا لحسراتهم. إياكم أن تكونوا مثلهم فإن الله هو الذي يحيي ويميت، لا تستمر الحياة بحب الإنسان لها ولا تنقطع بكراهته لها. والمهم أن تكونوا على ذكر بأن الله يعلم حقائق أعمالكم ويجزيكم بها.

### 157-158، ولئن قتلتم في سبيل الله... فإلى الله تحشرون.

تأكدوا بأنه إن قتلتم في الجهاد، في سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه، أو ضربتم في أرض الله تبغون عمارتها وتحريك أموالكم بالتجارة فلحقكم الموت، فلا يحزن عليكم أهليكم فإن المغفرة التي تصل من الله إلى موتاكم المقرونة برحمته الواسعة خير مما تجمعون من متاع الحياة الدنيا. فما يوفر لهم ربهم أفضل مما يمكن أن يحصلوا عليه لو استمرت بهم الحياة ولا أسف على ذهاب الحياة فالجميع سيحشرون ويصيرون إليه.

### 159 -فبما رحمة من الله... يحب المتوكلين.

إن الهزات الكبيرة التي عاشها المسلمون أيام غزوة أحد، قابلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه الكبير، ووسع أحداثها بلينه، وقرب بين المسلمين في خلافهم وهزيمتهم وفرارهم وعفو الله عليهم بالرّحمة التي تتميز بأنّها عطاء الله لنبيه خصه به وأودعه فيه ( فبما رحمة من الله ) مرت الأحداث والصف الإسلامي متماسك. إنه لو كان محمد جافي الطبع قاسيا صعب المزاج ولو كان فاقدا للرحمة غليظ الإحساس، لتفرقت كلمتهم وابتعدوا منه. إن العرب معروفون بعزة النفس وبالأنفة وإباء الضيم وحدة الإحساس، فبذلك الخلق العظيم والرّحمة واللين، حوّلهمْ إلى

مجتمع مدني رقيع متماسك في علاقاته، تمكن الحب بين أعضائه حبا لا يقاس به علاقات العشيرة والأسرة التي لم يوثقها الإيمان. فداوم يا محمد على هذا المسار النبيل وذلك بالعفو عنهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، واطلب لهم من الله المغفرة عن تقصيرهم، حتى يشعروا بأنك ترعاهم أفضل رعاية وأكملها، لا تلاحقهم باللوم والتثريب. قربهم منك وشاركهم في تسيير أمور الجماعة ، اعرض عليهم ما يهم أمر الأمة في السلم والحرب، حتى يشعر كل واحد بأنه يتحمل مسؤولية سلامتها ونجاحها. اسْمُ بهم حتى يعتبر كل واحد من أمتك نفسه أنه ليس فردا من قطيع يتبع بلا فهم ويجري بلا وعي للهدف والمصير.

إن أمر الله رسوله بأن يستشير أصحابه، ويعرض عليهم ما يهمهم ويقلب معهم ظواهر الأمر وخوافيه كان بصيغة (وشاورهم في الأمر) وهي صيغة أمر وهذه الصيغة، يذهب معظم العلماء الدارسين لنصوص الشريعة، إلى أنها تفيد الوجوب أينما وردت في كلام الشارع الحكيم. وبناء على ذلك فإن الاستشارة ليست أمرا اختياريا أو أمرا مفضلا بل هي أمر حتم أوجبها الله على نبيه وهي واجبة على أولي الأمر والمتحملين للمسؤوليات في الأمة الإسلامية على مر العصور. يقول ابن خُويزمَنداد من كبار المالكية: واجب على الولاة المشاورة، فيشاورون العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ويشاورون وجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. ويقول ابن العربي في توجيه ذلك: الشورى مسبار العقل، وسبب الصواب. ورد الشيخ أبو بكر الرّازي المعروف بالجصاص على من يرى أن النبي أمر بالمشورة تطييبا لخاطر أصحابه فقال: لو كان معلوما أنهم إذا استفرغوا جهدهم في استنباط الصواب عما سئلوا عنه، ثم لم يعمل به لم يكن في ذلك تطْييب لنفوسهم ولا رفع لأقدارهم، بل فيه إيحاشهم بالمشاورة. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، ولذلك قرن الله تعالى خلْق أصل البشر بالتشاور في شأنه، إذ قال للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة) إذ قد غني الله عن إعانة المخلوقات في الرّأي، ولكن عرض على الملائكة مراده ليكون التشاور سنة في البشر ضرورة أنه مقترن بتكوينه. فإن مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين

يوجب إلفه وتعارفه. ثم يقول: وإنما يلهي الناس عنها حب الاستبداد، وكراهية سماع ما يخالف الهوى . وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة[1].

وكان سيدنا عمر ﷺ عنه يكتب لعماله يأمرهم بالتشاور ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر:

خليليَّ ليس الرّأي في صدر واحد *** أشيرا علي بالذي تريان

إنه بعد تقليب الرّأي، وظهور المعطيات المؤثرة في النجاح، والعوامل المساعدة على عدم الفشل عندما يختمر الرّأي، ويبرق العقل الرّاشد فيبعث العزيمة على المضي إلى هدفها، عند ذلك وقد جمعت بين صدق الصورة، وبين الأسباب المؤثرة، فوثق عزيمتك على المضي بالتوكل على الله، ليكن حضور قلبك وروحك مع الله يطمئنك بأنه يزيح من مسارك المعوقات والمفاجآت ويعينك بتأييده.

هذا معنى التوكل. فليس التوكل اندفاعا غيبا بلا تعمق في التفكير، ولا إهمالا للأسباب التي ربط الله بها النجاح والفشل وجعلها سننه فيهما. وثقْ أن من توكل على الله حق توكله فإن الله لا يخذله، لأنه يحبه، ومعنى الحب الإلهي التأييد والمعونة.

يؤكد القرآن على عقيدة التوكل في نفوس المؤمنين حتى لا يغفلوا عن تأثيرها. إنها قوة باطنية تنفذ إلى الرّوح فإذا هي متفائلة راضية مستبشرة بعيدة عن التردد والخوف، وتنفذ إلى القوى البدنية فإذا هي تستمد من القوة الرّوحية قوة وصلابة أمضى عل المواصلة وأقدر على التحمل.

## 160 -إن ينصركم الله... فليتوكل المؤمنون.

اعلموا أن توكلكم على الله هو الاستناد إلى قدره الذي لا يغالب، فبتوكلكم حق التوكل، لا التواكل المتحل، لن تخذلوا. إنه من ينصره الله فلا يتصور أن يوجد له غالب يهزمه. وهذه أفضل قوة تغالبون بها الصعاب. وبالمقابل فإنه إن لم تأخذوا بما يقتضيه التوكل الحق، وهيأتم أنفسكم للهزيمة ولم تحتاطوا بالرّأي والأسباب، فإن الله يخذلكم فلا تجدون بعده ناصرا. إنه على الله وحده يتوكل المؤمنون، فيأخذون بسننه ويتعلقون به تعلق الواثق بعونه.

---

[1] التحرير والتنوير ج 4 ص 15.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

**بيان معنى الألفاظ:**

**يغل:** يأخذ شيئا من غنيمة الجيش بدون إذن.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إنه من غير المتصور أن يخون أحد المغانم التي تحت ولاية رسول الله صلى الله عليه فيأخذ منها شيئا دون إذنه. وعقوبة الغال في الآخرة: أن يفضحه على رؤوس الملأ فيحشر يوم القيامة وهو يحمل ما استولى عليه. ثم يسلط عليه الجزاء العدل الذي يستحقه. ثم يأتي سؤال قصد به إيقاظ المخاطبين للتفرقة بين من يتتبع في مسيرة حياته رضوان الله، ومن حصل من نشاطه في حياته سخط الله وغضبه، ومأواه الذي يصير إليه جهنم ولا أسوأ من مصيره ذاك. والذين اتبعوا رضوان الله ليسوا على مرتبة سواء عند الله فالصالحون يتسابقون في الخيرات، والله لا يخفى عليه دخائلهم.

**بيان المعنى العام:**

## 161- وما كان لنبي أن يغل... لا يظلمون.

من شرُف بمصاحبة رسول الله ﷺ في ساحات الجهاد، ومن أحس بما كان يدفع المقاتلين إلى الإقدام والتضحية بنفوسهم لا يجد أي عذر في خيانة رسول الله ﷺ وسرقة شيء من الغنائم التي حصلها الغزاة بجهادهم . فهي كبيرة من الكبائر صرحت الآية بعقوبة صاحبها في الآخرة، وذلك بفضحه في مشهد يوم القيامة عندما يحشر وهو يحمل ما غله دون أن يستطيع الانفلات منه ويطول وضعه على هذه الحال إلى أن يحسم أمره بجزائه على جريمته جزاء عدلا. وفي كتب الفقه بيان عقوبة الغال.

## 162-أفمن اتبع رضوان الله...المصير.

وفي المقابلة بين من صدقوا الجهاد ومن تسفل فخان واستولى في خفية على شيء من الغنائم يلحق القرآن كل فريق بالمجموعة الكبرى التي هي من شاكلته. ويوقظ المخاطبين بعرض صورتين متنافرتين:

**الصورة الأولى:** صورة من يواصل مسيرته في حياته الدنيا يوما فيوما ولحظة فلحظة، وهو حذر يبتغي في كل أعماله رضوان الله.

**الصورة الثانيــة:** صورة من خرج يسعى، وينشط في حياتــه الــدنيا: ليعــود فــي خاتمــة ذلك بسخط الله وغضــبه منقطــع عــن فيــوض الهدايــة الإلهيــة، قلِــقٌ بَــرِمٌ بالحيــاة، ويستمر به ذلكم العناء، ليكون المرجع الذي يصير إليــه، هــو جهــنم ولا أســوأ مصــيرا منها. وهؤلاء مرتبة واحدة مرتبة الهوان والعذاب.

## 163-هم درجات عند الله... والله بصير بما يعملون.

أما أصحاب القسم الأول فدرجاتهم ومراتبهم في الجزاء متفاوتــة تبعــا لمــا قــاموا بــه من صالحات الأعمال ولما صحب أعمــالهم مــن الإخــلاص الــذي هــو محــل تفــاوت كبير بين البشر. والله لا يخفــى عليــه صــغير ولا كبيــر ولا ظــاهر ولا بــاطن فهــو البصير بما يصدر عن العباد. وفي ذلك مــا يحقــق تكــريمهم بمجــازاتهم عمــا قــدموه في دنياهم.

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

## بيان معنى الألفاظ:

**من الله:** أنعم الله.

**يتلو عليهم آياته:** يقرأ عليهم آيات القران.

**يزكيهم:** يطهر نفوسهم.

**الاستبشار:** حصول البشارة.

**نعمة الله:** صلاح الحال.

**الفضل:** الزيادة في النعمة.

**حسبنا الله:** الله كافينا.

**الوكيل:** القائم بشؤون من وكله .

## بيان المعنى الإجمالي:

تتابعت النعم على المؤمنين فضلا من الله، وأعظمها بعثة سيدنا محمد واحدا من العرب يجمعه بهم نسب ووطن ولغة. قريب منهم يتلو عليهم آيات القرآن المنزل عليه، ويطهر نفوسهم من أوضار الشرك وأخلاق الجاهلية، ويشرح لهم ما في القرآن من هدى، ويعلمهم طريقة تلاوته، ويحرضهم على حفظه ويفتح عقولهم وبصائرهم على الحكم. وشتان بين ما كانوا عليه من ضلال واضح، وبين ما هم عليه اليوم بعد أن خالطت أنوار الوحي قلوبهم.

ثم يواصل القرآن متابعة آثار غزوة أحد، وما يجري من حديث عنها في المجتمع المدني. فما تزال آثار المصيبة تحركهم للتأمل فيها، فكان من الأحاديث التي دارت في المجتمع: من أين للمشركين أن ينتصروا علينا ؟ كان الجواب على شقين: شق مقدم أنكم قد أصبتم من أعدائكم في غزوة بدر ضعف ما أصابوا منكم في أحد. وشق ردّ بعد السؤال. ما حصل لكم من هزيمة هو نتيجة أخطائكم التي أنتم مسؤولون عنها . إن الله على كل شيء قدير. وواصل الحديث عن آثار هذه الغزوة فقال: إن ما أصابكم يوم التقى جمع الرّسول وجمع المشركين، لم يشأ الله أن يمنع منه، وهذه الهزيمة لها أثرها في صفاء المجتمع فقد ميز الله بين المنافقين والمؤمنين فظهر نفاق المنافقين عيانا. إن عبد الله بن أبي بن سلول لما أثر على بعض الجند حتى رجع ومعه ثلثه، وقال له عبد الله الأنصاري :اتقوا الله ولا

تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عنا من يريدنا من العدو، كان جوابه: الذي نحن مقبلون عليه ليس هناك قتال. إن مقالتهم تكشف عن سوء دخيلتهم وأنهم في الحقيقة ابتعدوا عن الإيمان وكانوا أقرب إلى الكفر. إن ما ينطقون به أمامكم، مخالف لما يعتقدونه مما انطوت عليه نفوسهم. لقد وضح لكم نفاقهم من قولهم: إن إخواننا لو اتبعوا رأينا ولم يخرجوا ما قتلوا. أجبهم يا محمد بما يكشف عن فساد تفكيرهم وبما يسقط شغبهم: امنعوا الموت عن أنفسكم وحققوا لكم حياة لا تنتهي إن كنتم صادقين في أن موت إخوانكم ما كان إلا بسبب القتال. ثم نوه القرآن بالشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل نصرة دين الله، ونشر كلمته في العالمين إنهم وإن قتلوا وفارقوا الدنيا إلا أن الله ميزهم من بين سائر البشر بنعيم لأرواحهم لا يشاركهم فيه غيرهم، حقق الله لهم حياة كريمة عنده، يُجري عليهم من رزقه ما يصل إلى حد الرّضا ويجري السرور في أرواحهم لما أتاهم الله من فضله كما يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين يواصلون نصرة الدين، فيطلعهم الله على أحوالهم ولا يقطعهم عنهم، ويجسم وضعهم من النعيم: بأنهم في حالة لا يحزنون فيها على أمر مما مضى، ولا يخافون مما يحمله الغيب فرضاهم وطمأنينتهم تواصلت من الماضي إلى المستقبل.

يستبشرون بما أفاض الله عليهم من صلاح الحال ومضاعفة الخيرات. إن مما يضاعف سرورهم وغبطتهم أن حصل لهم علم اليقين بأن إيمانهم قد بلغ حد الكمال فجرى عليهم ما يجريه الله على المؤمنين. وقرر ثبات هذا الإيمان ووضوحه بأنهم استجابوا لنداء الرّسول في الوقت الذي يذهل فيه الناس عادة إنه هو وقت هزيمتهم، وميزهم بذكر بعض ما يحقق ما سبق :أنهم من زمرة المحسنين المتقين الذين كتب لهم من الثواب والأجر ما يتجاوز الوصف إذ وصفه الله بأنه عظيم. تطاول المشركون بعد معركة أحد بأن هددوا المسلمين: أن الموعد العام القابل في بدر. ثم عملوا على اختلاق مكيدة مع الموعد هي ترويج إشاعة: أنهم جمعوا جموعا غفيرة للقضاء على المسلمين قصد بث الرّعب في جماعة الإسلام. فزادت هذه الشائعة المسلمين تصميما على الجهاد وخرجوا إلى بدر. وتبين أن شائعة المشركين هراء. قارنوا بين وضع المؤمنين ووضع المشركين، فالمشركون تبعا لخواء أرواحهم يقذف الشيطان في قلوبهم الرّعب. والمؤمنون الذين وثقوا بربهم يعجز الشيطان عن تخويفهم. فواصلوا ما أنتم عليه ولا تخافوا إلا الله. إن الخوف من الله سمة الإيمان.

## بيان المعنى العام:

### 164-لقد من الله... مبين.

يتابع القرآن، بأسلوبه المعجز، الحديث عن غزوة أحد هذه الغزوة التي هزت المسلمين هزة عنيفة وأصيبوا فيها بهزيمة فقدوا فيها ما فقدوا من إخوانهم. ضمد جراحهم وواساهم وذلك:

**أولا**: بتذكيرهم بالنعمة الكبرى التي لا تضاهيها نعمة. هي منة الله عليهم التي حولت كل ما كانت تتسم به عقائدهم وأفكارهم وطريقتهم في الحياة هي أن بعث الله فيهم رسولا ليس غريبا عنهم فيعسر عليهم الامتزاج به عربي من مكة أحبوه وقدروا كرم نفسه ونبل خلقه قبل بعثته. أخذ بعقولهم وقلوبهم إلى ما نزل عليه من آيات كتاب الله المنزلة عليه، فأثرت فيهم سموا في نفوسهم وإعلاء لأخلاقهم ومفاهيمهم، وعلمهم كيف ينتفعون بهذا الوحي المنزل: طريقة تلاوته وحفظه في صدورهم ليكون نورا لهم في مسالك الحياة وبين لهم ذلك أتم بيان بالطريقة العملية من سلوكه ﷺ. وصقل عقولهم فأشربت الحكمة فإذا جاهليتهم السابقة التي كانت تحبب إليهم مسالك الشهوة تحولت إلى تحكيم العقل الرّاشد في أرجاعهم واختياراتهم ( الحكمة ).

### 165-أولما أصابتكم... على كل شيء قدير.

**ثانيا**: إن هذه المصيبة التي أصبتم بها والتي أذهلتكم فتساءلتم كيف حصل ما حصل؟ قدم الجواب عن هذه الحيرة: أنكم قد سبق لكم أن انتصرتم نصرا عزيزا في بدر هو في قيمته وأثره على المعركة بين الكفر والإيمان ضعف ما لاقيتم في أحد. ومن ناحية أخرى فإن ما أصابكم هو نتيجة لما قدمتم فعودوا إلى أنفسكم حاسبوها. وهكذا يربي القرآن المؤمنين على النقد الذاتي وعدم البحث عن التبرير الذي لا يقوم معوجا ولا يصلح نفسا. نعم إن الله قادر على أن ينصركم رغم ما قمتم به من أخطاء، ولكن سنته في الكون جرت على الحكمة التي ربطت المسببات بأسبابها.

### 166-167، وما أصابكم يوم... والله أعلم بما يكتمون.

**ثالثا**: إن ما أصابكم يوم التقى الجيشان، فلأن الله لم يقدر أن يتداركم بألطافه، وليكون ما جرى مظهرا يميز بين المؤمنين وبين المنافقين فيفضح المنافقين بما صدر عنهم من أقوال وأفعال. فإن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لما صحب جيش المسلمين عمل على خلخلة الصف بدعوته أتباعه للعودة إلى المدينة.

فانخزل معه ثلث الجيش ،وقد توجه إليه عبد بن عمر بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قائلا: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وكونوا معه فإما أن تقاتلوا معنا وإما أن تحموا ظهورنا وتدفعوا عن الحوزة. وتكثروا سواد الجيش في عيون الأعداء. سجل القرآن جوابه المبرز لعمق نفاقه: لا يكون اليوم قتال، ولو كنا نتيقن أنه ستستعر الحرب لاتبعناكم وما رجعنا. إن جوابهم هذا يدل على أنهم قد ابتعدوا عن الإسلام واقتربوا من الكفر، إذ لم يبق لهم من صلة به إلا دعواهم أنهم مسلمون. أكد هذا المعنى بقوله: يقولون بأفواههم كلاما لا صلة له بما يجري في بواطنهم. والله لا يخفى عليه ما يجري في بواطنهم من بغض للإسلام وعمل على إضعافه.

### 168- الذين قالوا لإخوانهم... إن كنتم صادقين.

لم يقتصر بث الوهن في الصف الإسلامي قبل اللقاء بل تواصل ذلك حتى بعد المعركة، فقد أخذوا يشيعون إظهارا للأسف، وإلقاء من طرف خفي للوم على رسول الله وإيماء إلى أنهم أحرص على حياة المجاهدين منه فقالوا: لو أطاعنا هؤلاء الذين قتلوا وما خرجوا لهذه المعركة لبقوا أحياء بيننا. ويرد الله عليهم بما يفضح غباءهم وتمويههم: إن كنتم صادقين أن الذي لم يشارك في الجهاد واستجاب لنصيحتكم لا يموت، فاحموا أنفسكم من الموت، إن الموت سيأتي على حياتكم أحببتم أم كرهتم.

### 169-170، ولا تحسبن الذين قتلوا... ولا هم يحزنون.

رابعا: نوهت الآية بالوضع الذي صار إليه الذين قتلوا في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، لا تظنوا أنه يجري عليهم ما يجري على غيرهم من الأموات. لقد ميزهم الله بخمس مزايا :

أ: أنهم أحياء عند ربهم إنهم يختلفون عن بقية الموتى، فلهم حياة خاصة زاد توضيحا لها:

ب: أنه يجري عليهم من ربهم رزق لا يحصل عليه غيرهم، هو رزق لا صلة له بالنواحي المادية، بل هو تكريم خاص بهم من القرب والنعيم الرّوحي.

جـ: أنهم في حالة من ذهاب جميع أنواع الحزن: استولى الفرح عليهم بما أغدق الله من فضله عليهم.

د: أنهم لم ينقطعوا عن الدنيا وعما يجري فيها فصلتهم بإخوانهم المواصلين للجهاد يدخل عليهم البشرَ بما يحققونه من انتصارات للإسلام. ومما يؤكد فرحهم

بما يعرفهم به ربهم من أخبارهم، أنهم أيقنوا بأن إخوانهم آمنوا في مستقبلهم كما أمنوا في نتائج ما سبق لهم، فلا يلحقهم الحزن مما ذهب وانقضى.

### 172-الذين استجابوا لله...أجر عظيم.

عظمت بشارتهم، وتأكد لديهم أنهم حازوا أكمل ما يبغونه، وهو الإيمان، وذلك أن جزاءهم ثابت تبعا لكمال إيمانهم، دليله أن الله يثبت أجر المؤمنين فلا يضيع شيء مما عملوه من خير. هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لنداء الرّسول في أحرج الأوقات في الوقت الذي أصابهم فيه الجرح المؤلم جرح الهزيمة، الذي من العادة أن يذهل المصاب فيشغله همه عن كل شيء لقد لازمهم الإحسان في أعمالهم وفي إيمانهم، وكتب الله لمن جمع بين الإحسان والتقوى أن يناله أجر يتجاوز كل تصور، ولذا وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

### 173-174-الذين قال لهم الناس...والله ذو فضل عظيم.

ومن توابع غزوة أحد التي سجلها القرآن ،أن المشركين وهم منصرفون، واعدُوا المسلمين بالحرب في بدر السنة التالية. ثم بعثوا لهم عند اقتراب الموعد من يذكّرُ لهم أن المشركين قد جمعوا جيوشا كبيرة وأنهم سيهجمون هجمة ساحقة وكان قصدهم أن يزرعوا الخوف فيهم فلا يجازفون بالخروج للقائهم فيشيعون في العرب أن المسلمين ضعفوا وامتنعوا عن اللقاء. ولكن بمجرد ما بلغت هذه الشائعة حمي داعي الدفاع عن الدين في قلوب المؤمنين واستعدوا للخروج معلنين أنهم واثقون من أن الله سيكفيهم أعداءهم وينصرهم وأنهم اعتمدوا عليه فهو المدبر لأمرهم يهديهم ويسلك بهم خير الطرق وأنجحها فهو وكيلهم، والله بقدرته وعلمه لا يبلغ وكيل مبلغه في الهداية والنصرة. وخرجوا فعلا. ولكن قريشا أخلفت ما وعدت ولم تخرج إلى بدر فرجع المؤمنون إلى المدينة، وسجلوا على المشركين ضعفهم وخوفهم رجعوا يصحبهم ما أكرمهم الله به من نعمة العافية، وتحقيق عزة الإسلام، دون أن يحصل لهم مكروه.

### 175-إنما ذلكم الشيطان يخوف...إن كنتم مؤمنين.

هذا فصل من فصول المعركة بين الكفر والإيمان تبرز الآية نتيجتها: أن الكفر يعتمد على الشيطان الذي يستطيع أن يؤثر في أصحاب القلوب الخاوية من الإيمان، فيقذف فيها الخوف. أما المسلمون فهم لإيمانهم قد تحصنوا من تخويفات الشيطان بيقينهم الذي حجب قلوبهم عن وساوسه بحجاب يعجز عن اختراقه. فدُوموا أيها المؤمنون على الاستناد إلى قوة الله، القوة التي لا تقهر، وحصنوا بذلك أنفسكم

من الخوف، وخافوا من الله لا من غيره، فإن الخوف من غير الله يتبعه الهروب والابتعاد عما يخافه الإنسان بينما الخوف من الله مؤداه زيادة القرب منه إن الخوف من الله شارة الإيمان.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الحظ:** النصيب من الشيء النافع.

**اشتروا:** استبدلوا.

**نملي لهم:** نؤخرهم في الحياة.

**سيطوقون:** سيلبسونه أطواقا تحت أعناقهم وفوق صدورهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

حرص النبي ﷺ على اهتداء البشر حرصا كبيرا. فكان يحزن لإعراض من لم يؤمن. فخاطبه ربه مسليا له من إصرار الكافرين، فقال له: لا تحزن، إن كفرهم لا يؤثر فيما قدره الله من إظهار دينه، يريد الله أن يجزيهم عن تمردهم على الحق بحرمانهم فلا يكون لهم أي حظ من الكرامة يوم القيامة، بل لهم عذاب عظيم. إن الذين باعوا ما كان يمكنهم أن يحصلوا عليه من الإيمان باعوه بالكفر لن يصلوا بعنادهم هذا إلى النكاية في دينه، وأكد أن الله أعد لهم عذابا شديد الإيلام. لقد أخطأ الكافرون عندما ظنوا أن الله يؤخرهم ولا ينهي حياتهم إكراما لهم وزيادة في الخير وما غفلوا عنه أن الله بحكمته قدر أن يمهلهم ولا يقضي عليهم في الحال، ليكون كل يوم تستمر فيه حياتهم تتضاعف آثامهم، ويكونون مستحقين للعذاب المهين.

فمع الإيلام الجسدي العذاب النفسي بالهوان والإذلال . كان مجتمع المدينة مختلطا، بعضه مؤمن، وبعضه كافر وبعضه منافق فكما قدر سبحانه بحكمته أن يمهل الكافرين ليزدادوا إثما، كذلك قدر بحكمته أن يلقى المؤمنون في غزوة أحد هزيمة ميزت المؤمن الصادق الطيب في سريرته وفي أعماله، من الكافر السيء والمنافق الخبيث . ومن حكمته أيضا أن حجب الغيب عنكم ليحقق في الكون ما قدره، فيحصل من مباغتة الغيب للناس ظهور الصالحين وانكشاف المنافقين. إن هذا الغيب لا ينكشف منه شيء للناس ولكن الله يختار من عباده من يشاء لتحمل إبلاغ هدايته فآمنوا بالله وبهؤلاء الرسل الذين هم حملة وحيه. فإن الذين آمنوا بهم وعملوا بما جاؤوا به لهم أجر عظيم في مقابلة القسم الأول الذين لهم عذاب عظيم.

يظن المنافقون أنهم بشحهم وامتناعهم من الإسهام في الإنفاق العام قد أحرزوا أموالهم فكان اختيارهم هو الاختيار الأفضل. أكد القرآن أنهم قد انصرفوا عن الخير إلى الشر وأن اختيارهم مفض بهم إلى أن أموالهم ستكون طوقا يختنقون به ويحملون أثقاله.

ومن غبائهم أن الأموال التي شحوا بها سيفارقون الحياة ويتركونها وراءهم. إن الأرض والسماوات آئلة كلها إلى الله. والله عليم ببواطن الأمور.

**بيان المعنى العام:**

## 176-ولا يحزنك الذين... ولهم عذاب عظيم.

هذه الآيات مرتبطة بغزوة أحد. فإن الكفار بعد انكسارهم إثر انتصار المسلمين في غزوة بدر قد عادوا بعد غزوة أحد إلى التظاهر بكفرهم، يبثون في المجتمع سموم التشكيك، فكانت مظاهرهم تلك وأعمالهم الخبيثة التي جسمتها الآية بصورة من يجري مسرعا ظانا أن سيبلغ غايته عاجلا. وما غايتهم إلا هدم الإسلام، كان ذلك مما أحزن النبي صلى الله عليه وسلم، فخفف ربه عليه آلامه النفسية، ونهاه عن الاعتداد بتلك المظاهر، ذلك أن الله ناصر دينه، ولن يستطيع الكفار أن يمنعوا الإسلام من الظهور والانتشار.

سيحقق الله ما أراده لهم تبعا لفسادهم وإفسادهم: أنهم يأتون يوم القيامة محرومين من أي نصيب من الكرامة ولو قلّ، بل لهم عذاب وصفه الله بأنه عظيم.

## 177-إن الذين اشتروا... ولهم عذاب أليم.

إنهم قد باعوا ما كان يمكنهم الحصول عليه من الإيمان في مقابل الاستمرار على الكفر. صفقة خاسرة عقدوها ولن تنتج لهم ولو شيئا قليلا، لأن الله قدر أن ينهزم الكفر الذي يعملون على سيطرته . ولا يحصلون من شرائهم ذلك إلا العذاب الأليم.

### 178-ولا يحسبن الذين... مهين.

خابت ظنون الكفار وفسدت نتائج ما حسبوه ، من أن الله لما مد لهم في الأجل وأمهلهم أن ذلك أمارة نجاحهم وازدياد حظهم من الخير. إن وراء هذا الظاهر الذي خدعوا به حقيقة رهيبة، هي أنه كلما تراخى بهم الأجل واستمروا في الحياة، فإنه سيتضاعف تبعا لذلك ما يحملونه من آثام، وسيلقون تبعا لذلك عذابا يتجاوز العذاب الجسمي إلى العذاب النفسي من المهانة والإذلال.

### 179-ما كان الله ليذر المؤمنين... أجر عظيم.

لتدبير الله حِكَم قد تخفى على الناس. لقد كان الكفار والمنافقون مندمجين في المجتمع المدني، وكانوا يتخفون فلا يظهرون ما تنطوي عليه سرائرهم من عداء للإسلام، وتعلقت إرادة الله أن لا يبقي مجتمع المدينة على هذا الوضع ، وأنه سيميز بين من خبثت سريرته وفسدت عقيدته، وبين من طابت نفسه وصلحت عقيدته. فتحقق ذلك بما تم في غزوة أحد. وهذا أمر مغيب عنكم وما كان الله ليطلعكم على أسرار الغيب وما يريده لكم من خير. ولكنه سبحانه تخير من عباده رسلا يبلغونكم وحيه، هذا الوحي الذي به نجاحكم في حياتكم الأولى والأخرة. فآمنوا بالله ورسله، فإنه بالإيمان والتقوى المنبثة عن صدق العقيدة، وحسن الفعل تنالون الأجر العظيم. وهنا تم التقابل بين عاقبة المؤمنين لهم أجر عظيم وعاقبة الكافرين لهم عذاب عظيم أليم مهين.

### 180 -ولا يحسبن الذين يبخلون... خبير.

بهذه الغزوة ظهر نفاق المنافقين ،إذ شحوا بأموالهم ، ولم يشاركوا المجتمع في تحمل نفقات المصالح العامة، بخلوا بما أتاهم الله من فضله إن الأموال التي بين أيديهم إنما حصلت لهم بفضل الله فهو الذي ساقها إليهم. إن جزاءهم على شحهم أن تلك الأموال ستكون أغلالا في أعناقهم، شهرة لهم في ذلك الموقف تنادي بدناءة نفوسهم وتكون أثقالا مادية لا يستطيعون نزعها من رقابهم. ومن عماهم أنهم لو نظروا لتبين لهم أن كل من ملك مالا هو في النهاية يتركه وراءه، وما جرى على الفرد يجري على الجنس كله، فالنهاية أن كل ما في السماوات والأرض سيتفرد الله سبحانه بملكه. والله سبحانه خبير بما تعملون، يعلم نواياكم وغاياتكم التي دفعتكم إلى ما عملتم، والطريقة التي بها أنجزتم تلكم الأعمال.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**سنكتب ما قالوا:** نثبته في صحائفهم التي بها يحاسبون يوم القيامة.

**ذوقوا:** الذوق مقصود به الإحساس.

**الزبر:** كتب الأنبياء.

**المنير:** المبين للحق.

**زحزح:** أبعد.

**الغرور:** الخدع والتمني بالباطل.

**لتبلون:** الابتلاء الاختبار لينكشف ما يقابل به المصاب مصيبته من الصبر أو الجزع.

**عزم الأمور:** إمضاء الرأي وعدم التردد.

**بيان المعنى الإجمالي:**

من مكائد اليهود ترويج مغالطاتهم، قالوا: إن دعوة محمد للإنفاق في سبيل الله يعتبر قرضا يجزي الله به أضعافه، ومعنى ذلك أن الله فقير ونحن أغنياء. هددهم بأن ما روجوه علمه الله وسيجزيهم عن وقاحتهم تلك جزاء محققا. فقد وثق ما نطقوا به في كتاب أعمالهم الذي سيصحبهم يوم القيامة، مع ما ارتكبوه من الآثام العظيمة كقتل الأنبياء ظلما وتمردا ويقابل مقالتهم الباطلة قول الحق من الله: ذوقوا عذاب النار المحرقة. وذلك جزاء عدل هو نتيجة ما قدمتم في حياتكم ،والله لا يظلمكم.

ومن الأباطيل التي يروجونها للتشكيك قولهم: إن الله أخذ علينا عهدا وميثاقا أن لا نصدق أي رسول إلا إذا نزلت نار من السماء تحرق القربان. أجبهم يا محمد بما يبرز كذبهم وتعنتهم: إن الله قد بعث فيكم أنبياء مؤيدين بالآيات الدالة على صدقهم وبما تزعمون، وآمنتم بهم ثم قتلتموهم فلماذا أقدمتم على قتلهم بعد إيمانكم بهم إن كنتم صادقين. فلا تحزن يا محمد إن تمادوا على عنادهم وتكذيبك، فهذه سنة المستكبرين عن اتباع الحق، فقد كذبت رسل من قبلك قدموا بين يدي دعوتهم الآيات البينة الواضحة على صدقهم، وجاءوا بالكتب المنزلة من عند الله وبالتوراة.

وخلاصة الأمر أن كل نفس ستموت، وأنه بعد الموت سيأتي الحشر والحساب، وهو يوم ظهور نتائج الامتحان في الحياة الدنيا. فمن زحزح عن النار، فأدركه لطف ربه وابتعد عن النار وأدخل الجنة فقد نجا وحصل مبتغاه في الخاتمة. وكل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا هو متعة تغر وتخدع من تعلق بها.

ثبت الله المؤمنين بما يجب عليهم أن يكونوا عليه في مواجهة متنوع الصعاب. أعلمهم أنهم يختبرون في أموالهم مثل ما استحوذ عليه مشركو مكة من أموال المهاجرين وما ستتعرضون له من القتل والجراح في الجهاد، وسيقرع أسماعكم أنواع كثيرة من الهجو ووقاحة الكافرين. فاصبروا على دينكم ولا تشغلكم سفاهتهم عما أنتم عليه من الهدى، فإن صبركم وثباتكم على سلوك ما يرضي الله (التقوى) تنالون به ثواب أهل العزم لأن ذلك من عزم الأمور.

### بيان المعنى العام:

### 181-182، لقد سمع الله... بظلام للعبيد.

أخذ اليهود يبثون بين الناس من آمن ومن لم يؤمن، أباطيل وتمويهات تصد من لم يؤمن وتزلزل بعض ضعاف الإيمان. فمما موهوا به: أن القرآن دعا للإنفاق في سبيل الله وخاصة بعد نكبة أحد واستعداد الرّسول وجماعة الإيمان لبناء أنفسهم بناء جديدا يدفع صولة الكفر وما يقتضيه ذلك الوضع من بذل سخي للتسليح وأدوات الجهاد. فقالوا: إن الله يطلب من الناس أن يبذلوا أموالهم باعتبار أن ما يقدمونه هو قرض يضاعف الله مثوبته، وبنوا على ذلك أن الله فقير وأن المطلوب منهم أغنياء. ويعقب القرآن على ما قالوه فيحقق أن الله قد سجل جراءتهم على الله تسجيلا لا يمحى، وليست هذه أول جراءة من اليهود ، فإن آباءهم قد اعتدوا وقتلوا أنبياءهم ظلما وعدوانا. ويوم القيامة يأذن الله لجهنم أن تعذبهم بإحراقهم بنارها مع تضاعف إحساسهم بالعذاب، ثم يخزيهم سبحانه بإعلانه أن ما انتهى إليه أمرهم هو جزاء ما قدموه لم يظلمهم إذ لا يتصور أن يظلم الله عبيده.

### 183-الذين قالوا... إن كنتم صادقين.

يتواصل فضح افتراءاتهم وكذبهم على الله، بادعائهم أن الله أخذ عليهم عهدا مؤكدا: أن لا يؤمنوا لمن يدعوهم لا تباع دينه إلا بشرط أن تنزل نار تحرق قربانه. نفى الله أن يكون قد وقع هذا وأنه أخذ العهد عليهم باختبار صدق الرّسول وارتباط الإيمان بهذه النار. وذلك أن الله بعث لهم رسلا بعد موسى عليه السلام فجاؤوهم بالآيات البينة والأدلة الظاهرة، وآمنوا بهم زمنا على معنى أنه قد جاؤوكم بما قلتم، ولكنكم بعد كل ذلك قتلتموهم. فلمَ تجرأتم عليهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم هذه ؟

### 184-فإن كذبوك... والكتاب المنير.

تأثر النبي ﷺ من تصميمهم على رفض دعوته ونشر الأباطيل والأكاذيب التي يزعمون أنها مستمدة من الوحي الذي نزل عليهم فواساه ربه وآنسه بأن ذكر له ما حصل لمن تقدمه من المرسلين، فإنهم قد كُذّبُوا رغم ما تأيدت به دعوتهم من الأدلة الواضحة البينة، ومن الكتب المنزلة ومن التوراة التي هو نور.

### 185-كل نفس ذائقة الموت ... متاع الغرور.

يعقب القرآن على كل ما سبق من جراءتهم على الله وعلى رسله، وافترائهم وادعائهم أنه قد عهد إليهم، وإصرارهم على تكذيب رسول الله والكيد للإسلام يعقب بالتذكير بحقيقة يغفل عنها الناس، لو يذكرونها ويتفكرون فيها لاستقاموا، هذه الحقيقة أن كل نفس لها أجلها الذي تنتهي إليه حسبما قدره الله لها، لا تتأخر عنه لحظة ولا تتقدم. ثم تجد كل نفس جزاء ما قدمت. والناس فريقان في هذه النهاية: فريق السعداء، وفريق الأشقياء الذين يفهم مصيرهم النهائي المناقض لمصير السعداء. اعتنت الآية بالسعداء الذين ابتعدوا عن النار وأدخلوا الجنة دار الكرامة وهؤلاء قد فازوا ونجحوا ونجوا من الأخطار. إنه النجاح الحقيقي إذ كل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا، هو نعيم زائف قليل خادع يمني الإنسان ويرخي له في الآمال.

### 186- لتبلون في أموالكم... فإن ذلك من عزم الأمور.

التفت القرآن بعد ذلك لتقوية عزيمة المؤمنين على المواصلة، فبين لهم أنه سيجري الاختبار في أموالهم كما حصل من اعتداء مشركي مكة على أموال المهاجرين التي تركوها وراءهم. وما يقدمونه من أموال لتجهيز الجيوش وما تأكله الحرب من أموال بأسباب مختلفة. فبمقدار سماحة نفوسهم بمكاسبهم وعدم اضطرابهم لما

يلحقهم من ذهابها يكون نجاحهم في الامتحان. وسيمتحنون أيضا في نفوسهم بالقتل والجراح وأنهم سيلقون من سفاهة المشركين ما يؤذيهم بالسباب والطعن في كرامتهم وأعراضهم ، فاصبروا فإنه إن صبرتم على ذلكم الابتلاء فاعلموا أنكم ترتفعون إلى المستوى الإنساني الرّفيع الذي هو من أشد الأمور وأحسنها.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**نبذوه:** النبذ: الطرح والإلقاء بمعنى عدم العمل به.

**مفازة:** منجاة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

اذكر، يا محمد، وأعلن أن الله أخذ على بني إسرائيل عهدا موثقا: أن يبينوا ما جاء في كتابهم، ولا يكتمون منه شيئا. فنقضوا العهد ولم يعملوا به، وباعوا الأمانة بثمن بخس. إن ما أخذوه إلى زوال قريب، شأن ما يحصل عليه الإنسان في الحياة ويعقبه جزاء خيانة العهد يوم القيامة، إن ما حصل لهم هو أسوأ مقابل.

ويرفع القرآن بعد ذلك وهما من أوهام علماء يهود ومن المنافقين منهم ومن غيرهم، هذا الوهم هو أنهم استطاعوا أن يوهموا المسلمين بأنهم على حظ رفيع من الخير، وفرحوا بتسجيل ذلك الظاهر، وبنوا عليه أنهم ينتظرون من المؤمنين أن يمدحوهم على ما فعلوا. إن تمويهاتهم لا تدفع عنهم ما يترصدهم من العذاب الأليم. إن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض لا يغيب عن علمه سبحانه أي حادث فيهما، ومن باب أولى اطلاعه على حقيقة ما يضمرون.

**بيان المعنى العام:**

**187 -وإذ أخذ الله ميثاق... فبئس ما يشترون.**

يؤكد القرآن أن الله أخذ بواسطة رسله على من آمن بهم أن يعلنوا ما أنزل عليهم ولا يحرفونه، وأن يبلغوه لمن يأتي بعدهم على النحو الذي بلغهم من ربهم واضحا، وأن لا يعمدوا إلى تأويله تأويلا يخرجه عما قصد به، وأن لا يحذفوا منه شيئا

يخفونه عنهم. وثّق عليهم العهود بالوفاء وحذرهم عاقبة نقضها. ولكن شراهة أعقابهم، الذين كانوا في زمن بعثة محمد ﷺ، على ما ينفعهم في العاجل من رئاسة وما يتبعها من جمع الأموال ومن ممالأة المستبدين من الحكام والظلام من الموسرين أفسد مسيرتهم فتركوا تلكم التعاليم والعهود التي عاهدوا عليها عند تلقيهم للعلم، وجعلوها خلفهم لا ينظرون إليها. وما حصلوا عليه في مقابل الإرث النبوي، ثمن زهيد في الحقيقة، لأنه مسلوب البركة من ناحية ومآل آخذيه الخذلان والخسارة في الدارين من ناحية أخرى، فهو أسوأ ثمن وأخسه وأبخسه.

وهذا هو شأن الذين تفسد أرواحهم من أصحاب المقامات العلمية في كل زمان الذين يغلبون مصالحهم العاجلة فيحرفون الكلم عن مواضعه طمعا في الرّئاسة أو المال السحت.

## 188/189- لا يحسبن الذين يفرحون... على كل شيء قدير.

يرفع القرآن في هذه السورة بعضا من الأوهام ، اعتنى بإزالتها وبين زيفها. الوهم الأول: حسبان الذين قتلوا في سبيله أمواتا (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)[1] – الوهم الثاني(ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لأنفسهم)[2] – الوهم الثالث (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم)[3]. الوهم الرّابع (ولا يحسبن الذي يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)[4].

هذا القسم الرّابع: يمثل نمطا من البشر يبتهجون بما استطاعوا أن يغالطوا به غيرهم ويخدعوهم ، ويفرحون بتمرير خبثهم على أنه خير وصلاح وينتظرون أن يكال لهم المديح على شرورهم التي غلفوها بظاهر من الخير والقصد الطيب. هذا النمط الماكر لا يختص بوقت نزول الآية، بل هو مندس في الجماعات يعشش فيها كما تعشش الطفيليات الضارة في الأجسام السليمة، تتخفى حتى لا يكاد المبتلى بها يشعر بها ثم تبثُّ سمومها. ويدخل فيه دخولا أوليا من كانوا موجودين في عهد الرّسالة ، منهم المنافقون الذين كانوا يقدمون لرسول الله ﷺ المعاذير الكاذبة للتخلف عن الغزو ويعذرهم ويعلنون أنهم ما تخلفوا إلا لتلكم المعاذير وأنهم مع

---

[1] سورة آل عمران آية 169
[2] سورة آل عمران آية 178
[3] سورة آل عمران آية 18
[4] سورة آل عمران آية 188

المؤمنين. ومنهم أحبار يهود الذين حرفوا ما سئلوا عنه من التوراة ويعبرون عن فرحهم بأنهم بلغوا ما عندهم من العلم، وأنهم أهل لأن يثنى عليهم لنشر ما أنزل إليهم. يقول الله لنبيه ولكل مؤمن، يحاول هذا النمط خداعه: لا تظنن أنهم قد نجوا من العذاب، وأنه وإن قبلت أقوالهم في الظاهر، وأنه لا موجدة عليهم ممن قبل منهم ولكن الله سيجزيهم على خبثهم فيعذبهم العذاب الأليم. وصنيعهم هذا هو من كفرهم وسوء ظنهم بعلم الله، فإن الله له ملك السماوات والأرض يعلم كل دقيقة فيهما، ولولا دقة علمه بالخفايا فيهما وإحاطته بما يجري فيهما ما انتظم أمرهما. ولولا أن كل ما في الكون خاضع لقدرته لا يخرج عنها لعمّت الفوضى فيه. وبهذا فمن جهلهم وكفرهم ظنهم أن تمويهاتهم تمر بدون عقاب.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

**بيان معنى الألفاظ**

**باطلا:** لغير غاية.

**سبحانك:** تنزيها لك عما يقوله المبطلون.

**لا تخزنا:** لا تفضحنا بما يخجل منه المفضوح.

**استجاب:** أجاب.

**بيان المعنى الإجمالي:**

حث المؤمنين أن تكون حياتهم حياة اليقظين لا الغافلين. ففي خلق السماوات والأرض على النظام الذي يسيرها ويحكمها. وكذلك تعاقب الليل والنهار واقتطاع هذا من ذاك والعكس، وفي تداخلهما على نظام لا يتبدل ولا يختل. في كل تلك دلائل واضحة لأصحاب العقول النافذة منادية بقدرة الخالق وحكمته وكماله يدفعهم هذا النظر إلى تسبيح الله وتمجيده على أية حال كانوا، سواء أكانوا قائمين أم قاعدين أم متكئين على جنوبهم، أي في جميع أحوالهم لأن وضع الإنسان الحي لا يخرج عن وضع من هذه الأوضاع الثلاثة. ثم تلهج ألسنتهم وقد تملكها الإعجاب بما لاحظت وشاهدت: **ربنا** إنك خلقت هذا العالم لغاية لا عبثا، تنزهت في كمالك وحكمتك عن العبث. فنجّنا من النار. **ربنا** إننا مدركون تمام الإدراك أنك من ترمي به في النار فقد سلطت عليه الخزي وفضحته بين الخلائق وأهنته. وأنه لا مطمع له أن يجد نصيرا ينصره لا بشفاعة ولا بدفع عوض عنه. ثم يشكرون ربهم: **ربنا** إن اهتداءنا من فضلك ما اهتدينا إلا لأننا سمعنا كلامك ينادينا إلى الهدى والإيمان فتعلقنا به وآمنا. ثم يطلبون ربهم: **ربنا** اغفر لنا ذنوبنا بعفوك واسترها ولا تفضحنا بها، وتولنا بفضلك فاجعل كل سيئة قمنا بها تجد من كرمك ما يمحو آثارها وواصل علينا فواتح رحمتك حتى يجمعنا الموت مع الصالحين من عبادك. **ربنا** حقق لنا ما وعدتنا على لسان رسلك من النصر على الأعداء، وتمكين الدين، والثبات على الإيمان حتى نفوز برضوانك في جناتك. عجّل لهم ربهم بإجابته لابتهالاتهم فطمأنهم أنه لا يحبط أي عمل صالح قام به ذكر أو أنثى من الداعين، الذكر والأنثى سواء في تحقق الوعد لجزاء أعمالهم، إذ هم في آدميتهم سواء ويفصل القرآن أهم الأعمال الصالحة:

أ: الهجرة الأولى إلى الحبشة والهجرة الثانية إلى المدينة المنورة.

ب: تفضيلهم ترك الديار والاستيلاء على الأموال على الافتتان في الدين.

ج: ثباتهم رغم الإذاية بسبب إسلامهم والصبر المطمئن على العقيدة.

د : المقاتلة في سبيل نصرة الدين وشاركت النساء في الجهاد بما كن يتولينه من القيام على خدمات ضرورية للمجاهدين.

هـ: بذل النفس في سبيل العقيدة في السلم والحرب.

هذه النواحي الخمس قام بها المسلمون ذكورهم وإناثهم بما تفرضه عقيدتهم، فأكد مرة ثانية أنه سيكفر عنهم سيئاتهم ليدخلهم دار الكرامة في جنات تتخللها الأنهار

الجارية، لا منة لأحد عليهم، ثوابا خالصا من ربهم الذي دعوه. والثواب الكامل الحسن هو من عند الله وحده.

**بيان المعنى العام:**

تنتظم خاتمة سورة آل عمران مشهدا عجيبا بلغ غايات السمو بالتقابل بين الكون والإنسان وبين الابتهال والثواب وبين آثار الصلاح والجزاء.

**190-إن في خلق السماوات والأرض... لآيات لأولي الألباب.**

أولا: هذا الكون الكبير السماوات ما يدركه منها الإنسان ببصره ،و ما يتحقق بعض ما تحويه بالعلم والبحث والآلات، والأرض التي يعيش على وجهها وما فيها من مظاهر تتقلب أمام ناظره، وما يجري في بطنها من قوى انكشفت له أو ما تزال تحمل أسرارها منتظرة من الإنسان أن ينفذ إلى تلكم الأسرار ليطوعها لخير التقدم الإنساني ورفاهيته، والحياة السارية فيها من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان كل هذا الكون الكبير المترامي الأطراف، يقرر القرآن أن في خلقه بالإيجاد، وأن في أسرار خلق كل جزء من أجزائه مهما ضؤل أو عظم، وكذلك التقلبات الكبرى التي تتابع كل يوم من تعاقب الليل والنهار على حساب دقيق وآثار تلكم التقلبات على كل الكائنات الأرضية يجد في ذلك أصحاب العقول اليقظة (أولو الألباب) دلائل القدرة التي لا تحد والعلم الذي يتجاوز تصورات البشر والإرادة النافذة والحكمة البالغة. هي آيات شاهدة وناطقة بلسان حالها على أن النظام والتقدير المحكم قاعدة هذا الخلق، فيبلغ العقل اليقين بوجود الخالق وكماله.

**191-الذين يذكرون الله...عذاب النار.**

إنه إذا كان العلم مفتاح الأبواب لكل من يمحض له همته، ويواصل البحث الدؤوب، فينكشف له بذلك ما ينكشف له حسب ما رزق من ذكاء، وخطة صالحة، وحسن تعاون وموقعه من الميراث المعرفي البشري، فإن محصوله المعرفي هذا يكون مقطوع الرأس مُنْبَتًا إذا هو لم يربط كل ذلك بمبدع الأكوان الله رب العلمين. إن المحصول المعرفي إذا استقر في العقول ولم يتجاوزها إلى القلوب والأرواح لا يكون صاحبه منتفعا بعلمه. هو كمن يملك ثروة عظيمة، ولكنه لا يبلغ بها أن يستر جسمه ويغذي بدنه. فالعلماء أصحاب العقول الكبيرة، علمهم غير فاعل إذا لم يهتدوا بذلك إلى ربط الكون بمبدعه، والاستعداد لما ينتظر كل فرد من حساب وجزاء.

فإذا امتلأ العقل من التدبر فأيقظ جميع القوى ليسير معها في موكب واحد، يتحرك اللسان بذكر الله، فيمجده ويحمده ويشكره. ويكون حضور المخزون المعرفي

متوهجا في جميع الأزمان والظروف، سواء أكان قائما أم قاعدا أم مضطجعا. وأعلى مقامات الذكر والقرب من الله في الصلاة وتشير هذه الآية إلى أن المصلي مطلوب منه أن يصلي قائما فإن عجز صلى قاعدا فإن عجز صلى مضطجعا فعلى جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهره.

-إن الذكر باللسان أمر مهم، ويبلغ كماله عندما ينطلق العقل متأملا فيما كان عمر به الفكر من آيات الله في الأنفس والآفاق، فيعقبه التصريح بالإعجاب بما نفذته يد الإبداع الإلهي، ويصرح تصريحا نابعا من تتبعه لحقائق الكون وقوانينه الحاضرة في ذهنه: ربنا ما خلقت هذا باطلا لا لغاية، وعبثا دون أن يترتب على ذلك نظام مرعي فيه صلاح، تنزهت ربنا عن نقص العابثين.

## 192-ربنا إنك من تدخل النار... من أنصار.

ثانيا: إثر هذا التصريح بما وقر في النفوس من إيمان يسمو بصاحبه إلى مقامات يشعر فيها أنه قريب من خالقه وخالق الأكوان، ترتفع الأيدي إلى بارئها داعية، وتنطلق الأرواح مبتهلة: فقنا عذاب النار. إن اليقين بالجزاء المبني على أن الخلق ليس عبثا وأنه سيتبعه الجزاء بدخول الجنة أو النار يتبعه: احمِنا ربنا من عذاب النار.

وترقّ الأشواق وينمو الشعور بالقرب، فيخاطب المؤمنون المتأملون الواعون أنهم مستحضرون لما حذرهم منه ربهم: أن من يدخل النار يصحب العذاب الجسمي العذاب النفسي من الخزي والمهانة، ومن الشعور بالضياع وفقد النصير والمعين، فتنقطع الأسباب والصلات ويحس كل من دخلها بأنه لا مغيث له ولا نصير.

## 193-ربنا إننا سمعنا... مع الأبرار.

ويزداد إحساسهم بالقرب فيبتهلون: ربنا إننا سمعنا مناديا نفذت كلمته إلى قلوبنا وبلغ نداؤه أعماقنا: أن افتحوا عقولكم وأرواحكم على ما يتضمنه الإيمان، فاستجبنا وآمنا. هل هذا النداء هو نداء الرّسول ﷺ مما وعته آذان الصحابة أو نداؤه المسجل في كتاب الله وسنة رسوله المحفوظ على مدى الأزمان؟ الظاهر عندي هو الثاني. بعد الإيمان يأتي العمل بما جاء به الإسلام. والإنسان ضعيف، وللنفس نزوات، وطائف الشيطان يحجب البصيرة، ويبعد الشخص عن منازل الصفاء والتقوى ويقعد به عن التزام رتبة التطبيق الكامل بصفة دائمة، فالابتهال التالي: ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، واسترها علينا، واعف عنا ولا تؤاخذنا بما قصرنا فيه من عبادتك، وما كان من تعدينا على خلقك فتوّلنا بتكفير آثامه عنا وأرضهم من فضلك بما يمحو آثار تجاوزنا. وثبتنا ربنا على هذا المنهج إلى أن نكون في اليوم الذي

تتوفى فيه أنفسنا قد بلغنا مرتبة الصفاء والقرب التي تجمعنا مع الأبرار المتقين الذين جمعوا الخير من أطرافه.

### 194-ربنا وآتنا ما وعدتنا...إنك لا تخلف الميعاد.

تختم الابتهالات بأن يحقق لهم الجزاء الذي وعد به الصالحين على لسان رسله من خيري الدنيا والآخرة. طمأنينة في القلب، وحبا لله، ورضا بما قدره ويسره ونصرا على الأعداء وغلبة للإسلام وانكسارا لأعدائه، وفوزا بنعيم الجنة وبرضا الله. وأن يبعدهم عن منازل الخزي والمهانة. مطمئنين وهم يدعون بأن فضل الله سيحقق لهم دعواتهم، إنك سبحانك لعزتك وكمالك لا تخلف ما وعدت به.

ثالثا: هذه الابتهالات وتلكم الأشواق، وقد ارتفعت إلى مولاها بدعاء القرب، ربنا تكررت خمس مرات فأثبت سبحانه أنه أجاب عبيده، وقربهم إليه ، لأنه ربهم الكلمة التي تربط الإنسان بخالقه في صورة من العناية به وتتابع ألطافه عليه. قال الإمام جعفر الصادق: من حزبه (نزل به أمر مهم أغمه) فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد. قيل وكيف ذلك؟ قال: اقرؤوا إن شئتم ( الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم... إنك لا تخلف الميعاد)

### 195-فاستجاب لهم ربهم...حسن الثواب.

أكانوا ذكورا أم إناثا فلا الجنس يرفع عمل العامل ولا هو يخفضه. إن العدل الإلهي يزن الأعمال بقيمها وصفاء سريرة أصحابها. والتسوية بين الرّجل والمرأة لا يشوبها تمييز في هذا الميدان. لأن الامتزاج بين الجنسين كامل في الحقيقة الإنسانية. فالذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم في الهجرة الأولى إلى الحبشة أو في الهجرة الثانية من مكة إلى المدينة المنورة من الرّجال والنساء وتوالى عليهم الإيذاء، وقد أوذي المؤمنون والمؤمنات في الله من المشركين المكيين، ولم يستسلموا لصولة الشرك العاتي بل ارتفت عزائمهم للقتال والتمكين للإسلام من الانتشار ومات بعضهم في الجهاد من الرّجال والنساء ، وشارك النساء الرّجال في ساحة الحرب يقمن بما يحمي ظهور المقاتلين، ويمددنهم بما هم في حاجة إليه من إسعاف الجرحى ونقل الأقوات والإمداد بالسلاح، هؤلاء لأجزلن ثوابهم بما يمحو ما ارتكبوه من سيئات، ثم لأضاعفن ثواب صالح أعمالهم فأدخلهم الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية. وما أوتيهم هو ثواب خالص صادر من عندي لا منة فيه ولا خوف من انقطاعه. وأحسن الثواب وأكمله وأرفعه وأتمه هو ما كان واردا من عند الله مالك الملك.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**لا يغرنك:** لا يخدعك.

**تقلب:** تصرف.

**متاع:** ما يعجل الانتفاع به.

**نزل:** ما يعد إكراما للضيف.

**بيان المعنى الإجمالي:**

لا يخدعكم ما أو تيه بعض الكافرين مما يتعلق بالحياة الدنيا وتصرفهم فيها تصرفا ناجحا في السلم أو الحرب من الثراء ، أو بعض الانتصارات في المعارك، فلا تحزن لكل ذلك فهو سائر إلى زوال وذل. وعاقبتهم جهنم أسوأ مصير. يضاعف نكالهم ما تقرر للمتقين من جنات تتخللها الأنهار خالدين فيها لا يخرجون منها، فهم ضيوف الرّحمن أعد لهم ذلك إكراما لهم. وما خبأه الله للصالحين الأتقياء هو خير من كل نعيم.

ثم أثنى القرآن على بعض أهل الكتاب ممن آمنوا بالله وآمنوا بما أنزله الله على رسلهم، وواصلوا انفتاحهم على ا لحق بالإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرنوا إيمانهم بالتذلل لله، وحافظوا على ما تلقوه عن الله فلم يغيروا منه شيئا ولم يبيعوا ما اؤتمنوا عليه بثمن هو بخس مهما علا . أولئك لهم أجرهم مدخر عند ربهم، وليطمئنوا بأنهم سينالون فضل الله عليهم في الدنيا والآخرة بدون تأخير.

وتختم السورة بوصية جامعة للخير فتدعو المؤمنين إلى الصبر ومغالبة الصابرين من الأعداء، وتنادي فيهم: أن لازموا اليقظة فلا تتراخوا في حراسة النقط والمداخل التي يمكن أن يفجأكم منها العدو . وتحلوا بالتقوى التي هي باب الفلاح في الدنيا والآخرة.

**فائـــدة:**

قال العلماء: يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكر والعمل[1].

**بيان المعنى العام:**

**196->198، لا يغرنك تقلب... للأبرار.**

من عناية القرآن بالمؤمنين الذين نوه بهم ووعدهم ما وعدهم مما فصلنا القول فيه في الآيات السابقة، من عنايته أنه عمل على تحصينهم من مظاهر لافتة للأنظار مثيرة للتساؤل. إذ يشاهدون بعض الكافرين يتقلبون في متسعات من الثروة والصحة والأولاد ويتاجرون فيربحون، ويحققون في بعض المعارك انتصارات كما وقع في غزوة أحد، والشيطان يسعى بوسوسته إلى لفت الأنظار إلى ذلك فيوقع في النفوس إكبارا لما هم فيه من نعمة. وذلك أول مراتب ارتجاج الصمود. فينبه القرآن أولئك المنوه بهم إلى أن تلكم المظاهر أو الجولات هي متعة عاجلة قليلة الأهمية سريعة الزوال مقطوعة من الجزاء الدائم يوم القيامة. ثم إنها تنقلب عليهم لتكون الغاية التي يسيرون إليها ويقيمون فيها جهنم، فما أسوأ ما هيأوه لأنفسهم وما أسوأ ما هيأه الله لهم! 198-وليبرز ما قصده يُذكّرُ بما أعد للمتقين من جنات تتخللها الأنهار، هي ما أعده الله لضيوفه من الكرامة . وما عند الله من الثواب والكرامة هو أفضل من كل نعيم، وخير من كل ما حصل عليه البشر في حياتهم الدنيا.

**199-وإن من أهل الكتاب... سريع الحساب.**

وليمكن في تثبيتهم يذكرهم بأن بعض أهل الكتاب جمعوا بين الإيمان بالله والإيمان بالحق الذي تلقوه من رسلهم والإيمان بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه للأمة، وهم قد أضافوا إلى الإيمان شعورهم بعظمة الخالق فهم متذللون خاشعون، يكبر عليهم أن يبيعوا ما تلقوه من الشريعة كما صنعه أحبار يهود حين بدلوا وغيروا مقابل رئاستهم الدنيوية وما يقبضونه من أموال. ويبشر الله هذه الطائفة بأن الله سيجزيها في الدنيا والآخرة جزاء سريعا لا يبطئ.

[1] فتح الباري ج 9 ص 30 3 /30 5

### 200-يا أيها الذين آمنوا...لعلكم تفلحون.

تختم السورة بالوصية الجامعة التي ينادي فيها جميع المؤمنين بوصف الإيمان بما يشير إليه ذلك من وجوب الالتزام، لأنه من مقتضيات الإيمان. اصبروا الصبر الإيجابي صبر العزم على الثبات مهما اشتد الامتحان، اصبروا على الإيمان الذي نعمتم به، اصبروا على نصرة الدين ومقاومة أعدائه اصبروا على معاكسات الحياة فالحياة جهاد والنصر فيها للصابرين، اصبروا على التعلم وعلى البحث وعلى مقاومة الشر. والصبر باب جامع لكل المواقف النبيلة الشريفة الناجحة. وإذا لقيتم من أعدائكم من يصبر على اللقاء فكونوا أتم منه صبرا وأكمل. وكونوا يقظين لرعاية المواطن التي يمكن أن يباغتكم العدو منها لتكن كل عين من عيون المسلمين حارسة للجماعة شاعرة بمسؤوليتها في حفظ الأمة ومناعتها. وجماع الخير هو في أن تحل التقوى في قلوبكم حلولا يمتزج بكل ما تقومون به من قول أو عمل. اتقوا الله فإن التقوى سبيل الفلاح.

# ســـــورة النســـــاء

هذه هي السورة الرّابعة حسب ترتيب المصحف. وهي سورة مدنية نزلت على رسول الله ﷺ بعد الهجرة. تواصل نزولها أعواما. وحسب ترتيب النزول عدت السورة الثالثة والتسعون نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة.

سميت في المصاحف. وفيما رواه أصحاب الصحيح بسورة ( **النساء**) ووجه ذلك افتتاحها بأحكام صلة الأرحام، وتشريع أحكام كثيرة متعلقة بالنساء.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**بث:** نشر.

**تساءلون به:** يسأل بعضكم بعضا فيقسم عليه بالله.

**الرّقيب:** حفيظ لا يغيب عنه شيء.

**أتوا:** احفظوا لهم أموالهم حتى يأخذوها إذا رشدوا

**اليتامى:** جمع يتيم. وهو الذي فقد أباه في حال صغره.

**الخبيث:** الحرام.

**الحوب:** الإثم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إيقاظ ونداء وأمر لجميع الناس، من كان حاضرا وقت نزول الآية ومن سيأتي بعد ذلك إلى يوم القيامة، أن على كل فرد منهم أن يحذر غضب ربه، وأن يراعي حقوقه، إذ ما كان لأي فرد أن يخرج إلى الحياة لولا إرادة الله خلقه. ذلك الخلق العجيب المنبثق من نفس واحدة (آدم الرّجل الأول)، ثم إبراز زوجه (حواء) منه.

ثم انتشر نسلهما في الأرض ذكورا وإناثا. وكرر الأمر بتقواه وقرنه بأمره بمراعاة حقوق القرابة التي تشكلت منها الأسر معللا ذلك بأن من الفطرة ما غرس في ضمير الإنسان من تعظيم الله وتعظيم القرابة فقد جرت عادة الناس أن من أراد أن يقسم على مخاطبه، سأله بحق الله وبحق القرابة والرّحم. واعلموا أن الله لا يغيب عنه شيء من تصرفاتكم. وإنه إذا كانت العلاقات بين ذوي القربى محمية بتهيؤ الإنسان للدفاع عن حقوقه فإن اليتامى الذين فقدوا آباءهم معرضون للاستيلاء على أموالهم لضعفهم. فصرحت الآية بأن أكل مال اليتيم إثم كبير.

**بيان المعنى العام**

**1-يا أيها الناس اتقوا ربكم...رقيبا.**

نداء من رب العباد، يأمرهم بأن يلزموا تقواه فيحذروا موجبات سخطه وغضبه، وأن يحرصوا على الوفاء بحقوقه وأوامره وأن لا يغفلوا عن الحقيقة التي جرى عليها وجودهم على هذا الكوكب هذه الحقيقة التي مفادها أن أصل خلق البشر من نفس واحدة (آدم أبو البشر جميعا) ثم أنشأ من هذه النفس الواحدة زوجا لها (هي حواء أم البشر أيضا). وانتشر من نسلهما مئات الملايين الذين عمروا الأرض التي استخلفوا فيها. إن في هذا الخلق العجيب الإنسان في تركيبه المعقد والمنظم كأتم ما يكون النظام والتناسق، ما يدعو الإنسان كي يكون دوما ذاكرا للقدرة المبدعة، التي قدرت مما قدرت، في تركيبه أن يكون مدنيا بخلقته ، فآدم خلق له زوجا من نفسه، ومن هذه الرّابطة نشأت الأسرة بفروعها، وتحقّقَ ما أراده الله من استخلاف الإنسان يتوقف على التعاون والوفاء لهذه الرّابطة، فأمر كل فرد أن يرعى صلات القرابة فيعمل على ما يمتنها ويحذر مما يوجب تفككها.

وهنا نلحظ أن المبدأ كان واحدا وأن التعدد نشأ عن هذه الوحدة لذا أُمر الإنسان أن يسعى إلى الحفاظ على ما يجمع، خاصة وهو في علاقاته عندما يسأل مخاطبه شيئا ويريد أن يؤكد إجابته يعزم عليه بعظمة الله وبصلات القربى. وهذا هو ما ينسجم مع الفطرة في سنن الحياة وكذلك في العقيدة المقامة على التوحيد. ونبه البشر إلى أن الله رقيب عليهم هل وفّوا بما أمرهم به أو تراخوا فيه ؟

**2-وءاتوا اليتامى أموالهم... كبيرا.**

إن علاقات القرابة محمية أيضا بما ركز في فطرة البشر من حفاظ الفرد على حقوقه ومكتسباته. ومع الضعف لا بد من وازع يحمي تلكم الحقوق من انتهاكها والتعدي عليها ومن اتخاذ غطاء القرابة لنهب أموال الضعفاء. واليتيم الفاقد لوليه معرض ماله للزوال، إما بحرمانه من طرف الكبار من حقوقه، أو بالتصرف فيه

تصرفا يقضم منه باستمرار ما يفنيه ويذهب به. فأمر القـرآن أمـرا مؤكـدا بحفـظ مـال اليتيم وجميع حقوقه المالية من تركـة مورثـه، وخاصـة المقـدم عليـه ممـن يتـولى القيام على أمره الذي غالبا ما يكون مـن الأقـارب. فـلا يُـتفطّنُ لخيانتـه عـن قـرب. وصرح بأن الاستيلاء على ماله حرام ومال خبيث.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**تقسطوا:** تعدلوا.

**تعولوا:** تميلوا.

**نحلة:** عطية.

**هنيئا مريئا:** لا تخافون في الدنيا به مطالبة ولا في الآخرة تبعة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

من وجوه التسلط على مال اليتامى أن بعض أوليائهن إذا كانت اليتيمة تحت رعايته جميلة ثرية يتزوجها ولا يقدم لها مهرا يتناسب مع مزاياها. فنهاهم القرآن إذا ظنوا أنهم سيبخسون اليتامى اللاتي في رعايتهم حظهن في الصداق. وبرر ذلك بأن الإناث كثر فليتزوجوا من غير اليتامى اثنتين أو ثلاث أو أربع نساء. ولكن نبههم إلى أن الزواج بأكثر من واحدة مراعى فيه العدل بينهن، في جميع النواحي التي هي في مقدوره. ومن لم يأنس من نفسه اقتداره على العدل فليقتصر على واحدة. ويجوز للرجل أن يتسرى بما يملكه من غير الحرائر. والاقتصار على واحدة أقرب للعدل والبعد عن الميل. وبمناسبة ذكر صداق اليتيمة، شرع القرآن أن على الزوج، وعلى ولي المرأة أن يمكنها من صداقها ولا يعود عليه ليأخذ شيئا منه إلا إذا رضيت بالتنازل عن كله أو بعضه وعندها لا حرج على الزوج ولا على الولي.

**بيان المعنى العام:**

**3-4، وإن خفتم ألا تقسطوا...فكلوه هنيئا مريئا.**

اعتنت الآية السابقة بحفظ أموال اليتامى ونهت الأوليـاء عـن التسـلط علـى مكاسـبهم ذكورا كانوا أو إناثا. ومما كـان غيـر منكـر وقـت نـزول الآيـة، أن بعـض أوليـاء

اليتامى كانوا لا يتحرجون من الــزواج باليتيمــة التــي تحــت نظــره إذا كانــت وسـيمة وذات مال دون أن يقدم لها صداقا يتناســب مــع مزاياهــا ، ولكنــه يتسـلط عليهــا تبعــا لولايته عليها، فيغمطها حقها. فنهوا عن ذلك بهذه الآية. وبرر ذلك:

1) إن النساء كثر، فيسـتطيع أن يتــزوج غيرهــا بــاثنتين أو بــثلاث أو بــأربع نســاء. وحتّى لا يفهم من ذلك أن القرآن فتح باب التزوج بــأكثر مــن واحــدة بـدون ضــوابط، أتبع ذلك بأن التزوج بأكثر من واحدة مشروط بأن يأنس المتــزوج مــن نفســه أنــه قــادر على العدل بين زوجاته فلا يظلم إحداهن بما يكسر نفسـيتها فتشــعر أنهــا محتقــرة أمــام ضرتها إذ كل واحدة منهن إنسان له حرمته الإنســانية وزوجــة لــه، لهــا مــن الحقــوق في العشرة والنفقة وحسن المعاملة مــا لغيرهــا. وقــد يجــد الــزوج مــن نفســه مــيلا لإحداهن دون أن يترتب على ذلك ظلــم ومهانــة، فهــذا ممــا غفــره الله للــزوج بهــذا القيد.

2)أن يتسرى (التسري هو العشــرة الجنسـية للأنثــى المملوكــة) بمــن ملــك رقبتهــا بشراء أو تبرع أو ميراث، لأنها غير حرة -

3) إن الالتزام بهذه الضوابط هو مما يقــرب الرّجــل مــن عــدم الميــل عــن العــدل، وبالتالي يبعده عن خطيئة الظلم.

رفع وهم: يحمل المجتمع الرّجــل مســؤولية التــزوج بــأكثر مــن واحــدة ويعتبــرون ذلك ظلما للمرأة وانتقاصــا لحقوقهــا. والمتأمــل المنصــف يلاحــظ أن الأنثــى لا تجبــر على الزواج برجل متزوج. أفــلا تتحمــل الزوجــة الرّاضــية أو الرّاغبــة فــي الــزّواج من متزوّج قسطها مــن المســؤولية ؟ فلــو امتنعــت النســاء مــن قبــول الــزواج مــن المتزوجين لما وجد من يجمع أكثر من امرأة واحدة.

وبما أن الآية نهت عن ظلم اليتيمــة بتزوجهــا دون صــداق أمثالهــا، أتبــع ذلــك بــأن شرع القــرآن أمــرا آخــر قريبــا منــه. وهــو أن علــى الأزواج والأوليــاء أن يمكنــوا المتزوجة من صداقها الذي جعله الله عطيــة لهــا تملكــه، ولــيس عوضــا عــن التــزوج بها، ولا منة لأحد عليها فيه. فقطع بذلك تسلط بعض الأوليــاء علــى صــداق مــن هــن تحت نظرهم، وكذلك إجبــار بعــض الأزواج زوجــاتهن علــى التنــازل عــن الصــداق بعضه أو كله. ونفت الآية بعد ذلك الحــرج عــن الــزوج أو الــولي إذا تنازلــت الزوجــة له عن بعض صداقها أوكله، دون ضغط أو إكراه، فلــه أن ينتفــع بــه ولا يخشــى ســوء العاقبة.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝

**بيان معنى الألفاظ:**

**السفهاء:** السفيه من لا يحسن التصرف في المال.

**قيما:** تصلح بها أموركم.

**ابتلوا:** اختبروا.

**آنستم:** علمتم.

**الرّشد:** انتظام تصرف العقل بحفظ المال وحسن التدبير فيه.

**بدارا:** عجلة.

**فليستعفف:** فليمسك عن مال اليتيم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

لا تمكنوا من المال الذين لا يحسنون التصرف فيه، ولكن أجروا عليهم ما يكفيهم في معاشهم ولباسهم وأحسنوا مخاطبتهم. وليعمل ولي السفيه على تمرينه حتى يخرج من الحجر، وذلك بتكليفه بشيء من التصرف يختبره به. فإذا بلغ اليتيم وعُلم بالاختبار رشده فعلى وليه أن يمكنه من ماله. ونهى الأولياء أن يسارعوا باستهلاكها قبل الترشيد مبادرين بذلك قبل أن يكبر الأيتام. وضبط علاقة الولي بمنظوره فبين القرآن أن الولي إن كان غنيا فالواجب عليه أو الأفضل أن لا يأخذ شيئا من مال اليتيم ومن كان فقيرا فله أن يأكل منه بالمعروف، أي حسب سعة المال وضيقه وحسب مستوى الولي الاجتماعي. وأمرهم أن يشهدوا عند دفع الأموال لليتامى بعد ترشيدهم قطعا للخصومات، واعلموا أن الله يحاسبكم على أعمالكم، وهو لا يغيب عنه شيء. فحسابه أدق حساب.

**بيان المعنى العام:**

**5-ولا تؤتوا السفهاء أموالكم...معروفا.**

من حرمة المال في الإسلام واعتنائه به، أن نهى من يتولى أمر السفيه لصغر سن، أو تبذير كبير، أو لكونه مظنة سوء التصرف، أن يمكنه بما هو في حاجة

إليه من ماله قبل رفع السفه عنه . وأبرز قيمة المال في الحياة بأنه الوسيلة التي يصلح بها الناس أمور معاشهم.

### 6- وابتلوا اليتامى...وكفى بالله حسيبا.

وإذ شرع للأولياء منع السفهاء من أموالهم، فإنه أمرهم بتمكينهم بمقدار ما هم في حاجة إليه من نفقة وكسوة، مع العناية بإكرامهم في طريقة التعامل معهم حتى يُنشأوا على أدب الخطاب. وفي الآية تنويه بالمال وإبراز لحرص الإسلام على حفظه، كما يفهم ذلك من التوصية برعاية أموال اليتامى من ناحية ومن ناحية ثانية بالإشارة التعبيرية اللطيفة في إسناد أموالهم إلى الجماعة الإسلامية (**أموالكم** )، الدالة على أن المال ينتفع به صاحبه بصفة مباشرة ، وتعتبر الثروة مقوما من مقومات الأمة لتحقيق مناعتها وتطورها فلها علاقة بها، مع أن حقوق الملكية الخاصة واجبة الاحترام.

إن ولي اليتيم مطالب بأن يقدر من أول يوم يتحمل فيه مسؤوليته أن واجبه حفظ مال اليتيم أولا، وتهيئته ليتولى التصرف في ماله ثانيا. ولذا أمرت الآية أولياء اليتامى أن يدربوا من هم إلى نظرهم على التصرف في المال حتى يبلغوا سن النضج الذي يُمكن فيه الإنجاب من ناحية، ويطمئنوا إلى حسن تصرفهم من ناحية ثانية ، وهو المعبر عنه بالرّشد، وعليهم عندها أن لا يتلكأوا وأن يبادروا بإعطاء اليتامى أموالهم. وإكمالا للعناية بحقوق اليتامى يحذر القرآن المقدمين عليهم من تبذير أموالهم تبذيرا يتسابقون فيه مع الزمن حتى لا يجد اليتيم عند بلوغه سن الرّشد مالا يطالب به. وهذه الأمانة فصل القرآن فيها أحوال أولياء اليتامى، أمرهم إن كانوا أغنياء أمرا، يحتمل أن يكون على الوجوب أو على الندب والإرشاد أن يعفّوا عن أموال اليتامى فلا يستفيدوا منها شيئا لأنفسهم، وإن كانوا فقراء رخص لهم أن يأكلوا منها بما لا ينكر ه العرف العام، وهو يختلف في تقديره حسب سعة مال اليتيم وضيقه وحال الولي ومكانته الاجتماعية. وحتى تتواصل العلاقة الطيبة بين المُرشَد وبين وليه، ولا يحدث نزاع في المستقبل، أُمر الولي بأن يشهد عند تسليمه المال لليتيم. ويحرك القرآن ما وقر في قلب المؤمن من موجبات الإيمان، فيذكره بأن الله لا يغفل عن تصرفات الأولياء إنه مطلع على كل كبيرة وصغيرة ويكفي اليتامى رعاية الله لهم وحسابه لمنظوريهم، فهو يخلف على اليتامى ما ضاع عليهم، ويجزي المحتالين بما قدموه.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**مفروض:** معين المقدار.

**سديد:** صواب.

**بيان المعنى الاجمالي:**

قررت الآية أن الرّجال يرثون من تركة الوالدين والأقربين ، وأن النساء لهن حظهن من التركة أيضا، وأن الرّجال والنساء يأخذ كل واحد نصيبه من التركة لا فرق بين ما كان له شأن من التركة وبين ما كان تافها، ولا فرق بين أنواع المال المخلف. ولكل وارث نصيبه المعين المقدر من الله. وأرشد القرآن الورثة عند قسم التركة، على طريق الندب، أن يعطوا لمن يحضر قسمة التركة من أقارب الميت غير الوارثين ومن اليتامى والمساكين أن يعطوهم شيئا من المخلف، وأن يحسنوا طريقة مخاطبتهم فلا يغلظون عليهم أو يحتقرونهم بسبب ما أنالوهم. وعلى ولي اليتيم أن يقدر أنه يمكن أن يُخلّف أيتاما ضعافا، ويتقدم على مالهم مقدم يسيء لهم، وكل والد يخاف أن تنتهب أموال ذريتّه من بعده. فحماية ذريتّه من بعده تكون بتقوى الله فيما ولي عليه، وكذلك بتقوى الله في كل شيء، فإنها حصن للذرية من التسلط عليهم. كما عليه أن يخاطبهم بما يعتبره العرف العام مقبولا غير مسيء.

وليحذر أولياء اليتامى العاقبة فإن كل من استولى على مال يتيم ظلما، فليعلم أنه إنما أدخل في كيانه نارا على معنى أنه سيصيبه في دنياه ما يحرق عافيته ويتلف ما جمعه. ومع عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

**بيان المعنى العام:**

**7- للرجال نصيب مما ترك...مفروضا.**

بينت الآيات السابقة ما يتعلق بأموال اليتيم بعد موت وليه. فتابع القرآن بعض أحكام المال في الميراث التي كانت غير مرعية قبل نزوله. إن ما كان مقبولا في

العرف العام الجاهلي: أن المال المخلف عن الميت يستحقه الأقوى من أقربائه، مما يمدد لسلطانهم على الضعفاء من الأهل والعشيرة. فجاء الإسلام لإنصاف جميع الورثة وتمكينهم من حقوقهم وخاصة المرأة التي إن كانت زوجة اعتبرت جزءا من الميراث يتحكم في مصيرها إن لم تكن أما أكبر الأولاد، وإن كانت غير ذات زوج فلا تستحق شيئا من مخلف والديها ولا غيرهما من قرابتها فنصت الآية نصا صريحا أن كل أنثى تستحق من تركة الميت زوجا كان أو أبا أو أما أو قريبا، تستحق نصيبها من مخلفه، سواء أكان كسوة أو سلاحا أو عقارا أو أثاثا أو نقودا، مما قل منه أو كثر. إنها العدالة والكرامة الإنسانية التي تتحد فيهما الذكور والإناث، والاعتبار بالحقائق لا بالأوهام، فالذكر والأنثى كل واحد منهما يحمل الحقيبة الوراثية التي لأصولهما، وكل واحد منهما نسل للأبوين، يحمل من صفاتهما الخلقية الوراثية ما يحمل وينسب إليهما، فمن الوهم أن تحرم الأنثى ويستقل الذكر بالميراث.

### 8-وإذا حضر القسمة...قولا معروفا.

وأرشدت الآية، على طريقة الندب، ورثة الميت عندما يقومون بقسمة التركة، أن يعطوا من حضر من الأقارب غير الوارثين ومن الأيتام ومن المساكين، شيئا من التركة. ولعل في ذلك وصلا لما كان يقوم به الميت في حياته ، فتسلية لهم على فقده بمكنون من ذلك. ومن الثوابت في تربية القرآن لهذه الأمة أن يحرصوا على أدب الخطاب، فلا يكسروا كرامة أي أحد بالخطاب الجافي ولو كان من حضر القسمة من المذكورين، بسبب ما يعطونه إياه.

ثم وعظت الآية التالية كل من يصلح للموعظة وحذرتهم بتحذيرين لو تأملهما من يقرأ القرآن بقلب واع ، ما وُجد يتيم مظلوم من وليه.

### 9-وليخش الذين لو تركوا...وليقولوا قولا سديدا.

أولا: ذكرت الآية أن من يتولى أمر اليتيم عليه أن يخشى أن تتيتّم أولاده وهم ضعاف لا يقدرون على حماية أرزاقهم ولا الدفاع عن كرامتهم. إن حمايتهم تتحقق برعاية الله لهم تبعا لصلاح والدهم واستقامته. في قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، أنهما توليا إقامة جدار قريب من الانهيار، مما يترتب على انهياره ظهور كنز يتيمين وامتداد الأيدي له، حفظاه لأن والدهما كان صالحا. ( سورة الكهف الآية 76 و81) فعلى أولياء اليتامى أن يحرصوا على تقوى الله ، فبها يقدمون مناعة وحفظا لذريتهم لو ماتوا وتركوهم صغارا. ليطمئنوا على أن الله

يجزي أولاده بعد موته بحفظه لهم من التعـدي علـى حقـوقهم. وأدب الخطـاب يـذكر به القرآن دائما، وليقولوا قولا معرفا.

**10 -إن الذين يأكلون أموال...سعيرا.**

ثانيا: تحذير أشد: أن كل من استولى على مال يتيم فإنما أدخـل فـي كيانـه نـارا، علـى معنى ما يترتب على النار من فسـاد لمكتسـباته الدنيويـة فـي بدنـه ورزقـه وذريتـه وعاقبة أمره. وفوق ذلك وأشد منه وأنكـى، أنهـم سيصـلون نـار جهـنم بـأليم عـذابها الجسمي والنفسي.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝

**بيان معنى الألفاظ:**

**الكلالة:** الحالة التي لا يوجد في الورثة ولد ولا والد.

**غير مضار:** دون قصد الإضرار.

**بيان المعنى الإجمالي:**

قررت الآيات ما يستحقه بعض الوارثين. وقدمته في شكل وصية فيها خير للمؤمنين وفيها إلزام لهم نظرا إلى أنها وصية من الله. ويتضمن هذا التشريع أمورا

أولا: أن قسمة التركة تتم بعد – أ: أن يأخذ الدائنون ديونهم التي لهم على الميت من التركة – ب: بعد أن تنفذ وصية الميت في الثلث فأقل.

ثانيا: أن قسمة المخلف يتم على التفصيل التالي المنصوص عليه في هذه الآية وحسبما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من سنته. 1) أن الأنثى من أولاد الميت ترث نصف ما يرثه الذكر. 2) أن البنات إذا انفردن فلا أخ لهن يرثن الثلثين –3) أن البنت الواحدة إذا انفردت عن أخيها ترث نصف التركة –4)أن ميراث الأبوين – أ) إن كان معهما فرع وارث من ابن أو بنت أو ابن ابن أو بنت ابن هو السدس لكل واحد منهما. ب) يقتسمان التركة بينهما إذا انفردا ولم يكن معهما وارث. للأم الثلث وللأب الثلثان. ج ) إن وجد مع الأم أكثر من أخ أو أخت للميت ترث الأم السدس –وبجانب ذلك فإن صلة الزوجية توجب استحقاق كل واحد منهما نصيبه من الميراث:

<u>**الزوج**</u> يستحق نصف تركة زوجته إن لم يكن لها فرع وارث فإن كان لها فرع وارث من ابن أو بنت أو ابن ابن أو بنت ابن فللزوج ربع التركة.

<u>**الزوجة**</u> ترث ربع مخلف زوجها إن لم يكن له فرع وارث. وتستحق الثمن إن كان له فرع وارث.

<u>**القاعدة في هذا سارية –**</u> يقدم أولا حقوق الدائنين ثم الوصية في حدود الثلث.

<u>**الإخوة للأم:**</u> إذا كان الميت لا ولد له ولم يترك أبا وله أخ أو أخت لأم يرث من تركته السدس، إذا كان الإخوة للأم أكثر من واحد اقتسموا الثلث بينهم بالسوية للذكر مثل حظ الأنثى.

وأكدت الآية في خاتمتها على وجوب العمل بما ذكر، وأنها حدود يحرم تجاوزها، وأن من يطع أوامر الله ورسوله يلق جزاءه جنات تتخللها الأنهار. وهددت من يعصي الله ورسوله بالعذاب المهين.

**بيان المعنى العام:**

**11 –14 يوصيكم الله في أولادكم ...وله عذاب مهين .**

حولت هذه الآيات التقاليد في توزيع تركة الميت التي كان يأخذ بها العرب في جاهليتهم وقوضت مبانيها. وأقامت نظام التوارث على القيم والعلاقات التي

أسست بها رابطة الأسرة، فلم تهمل حظ أي عضو من أعضائها من الميراث حسب تقدير، أحكمه الله رب العالمين وألزم به المؤمنين. افتتحت الآية الأولى بقوله تعالى : يوصيكم. والوصية تشير إلى أن مضمونها فيه خير كثير للموصى ، وصرح فيها بأنها صادرة عن الله، فهي في قوة الأمر ودالة على الإلزام. وزاد ذلك تأكيدا بقوله تعالى في خاتمتها فريضة من الله، وما كان على هذا النحو فعلى الأمة كلها أن تقوم على تنفيذه ،و أن ترعاه حق رعايته وأن وراءه رقابة الله، فصرحت الأيتان (14/13) بذلك. إن هذا النظام الذي حدد ما لكل وارث من نسبة في الميراث ، إن تلكم الحدود التي حددها الله لا يزاد عليها ولا ينتقص منها. وهي واجبة التطبيق حسبما بينه الله ورسوله فمن استجاب مدفوعا لذلك بالطاعة ،ضمن له رب العزة، دخوله للجنة التي تتخللها الأنهار، والخلود فيها لا يبرحها، وإن الفوز بالجنة لهو أعظم فوز وأنفسه. وقرن القرآن الوعد بالوعيد تبعا لقوة الاهتمام، فمن يعصي أوامر الله ورسوله ويتجاوز بالتغيير لما حدده من حقوق كل فرد من الورثة، يدخله نارا لا يبرحها خالدا فيها، ومع عذاب النار عذاب الإهانة. وإتباع عذاب النار بعذاب الإهانة فيه حث على قبول ما فصله الله ، لأن أنفة العرب في وقت التنزيل جعلتهم ربما يظهرون التجلد لأنواع العذاب لكن لا يقبلون المهانة. مما ينبغي أن ينتبه إليه أن هذا المقطع لم يستوعب جميع أحكام قسمة التركة، فقد أوكل لرسوله أن يبلغها مع الحوادث التي تعرض عليه لفصلها. وذلك كما جاء في الأيتين السابقتين **(من يطع الله ورسوله – ومن يعص الله ورسوله )** وقد رواها الصحابة رضوان الله عليهم وعملوا بها، وأجمعت الأمة على تطبيقها.

الأحكام التي تضمنتها الآيات:

أولا: أنه يقدم في التركة الدائنون فيتسلمون ديونهم.

ثانيا: أنه إذا فضل شيء بعد أداء الديون فإنه تنفذ وصية الميت بما لا يتجاوز ثلث التركة إن هو أوصى. وما بقي يجري قسمه على الحدود التي جاءت في هذا النص.

مدلول الولد: الابن الذكر والبنت. الفرع الوارث معناه: الابن وابن الابن وبنت الابن، والبنت

ثالثا : أن قسمة التركة بين الذكور والإناث من أولاد الميت تقوم على قاعدتين: 1) أن الأنثى لها حظها من كل نوع من أنواع المال المخلف – 2) وأن حظها هو على النصف من حظ الذكر.

رابعا: إذا ترك الميت بنتا واحدة استحقت من مخلف والدها النصف.

خامسا: إذا ترك الميت أكثر من بنت،ولم يترك ابنا، فلهن ثلثا التركة مهما كان عددهن يقتسمنه بالسوية.

سادسا: الأبوان يستحق كل واحد منهما السدس من مخلف ولدهما إذا كان للميت فرع وارث.

سابعا: إذا ترك أبوين فقط، ولم يترك فرعا وارثا قسمت التركة بين الأبوين للأم الثلث وللأب الثلثان.

ثامنا: إذا ترك أما ومن الإخوة أكثر من فرد،ذكورا كانوا أو إناثا استحقت الأم سدس التركة.

تاسعا: الزوج يرث نصف ما تركته زوجته إذا لم يكن لها فرع وارث ويرث الربع إذا كان لها فرع وارث.

عاشرا: الزوجة ترث الربع إذا لم يكن لزوجها فرع وارث فإن كان له فرع وارث ورثت الثمن.

حادي عشر: من مات ولم يترك فرعا وارثا ولا والدا، وهو المعبر عنه **(بالكلالة )** وترك أخا لأم أو أختا لأم استحق سدس التركة. فإذا تعدد الإخوة للأم فنصيبهم ثلث التركة يقتسمونه بينهم، الذكر والأنثى سواء .

وقد تخلل هذا الضبط أمر مهم: هو تنبيه القرآن أن مبنى التشريع على المصالح الحقيقة لا على العواطف المحجوبة في غالب الأحوال عن النفاذ إلى إدراك الخفايا التي فيها الخير للإنسان في حاضره ومعاده. والعواطف تنحرف إلى الهوى المضل ، فيترجح لديها ما فيه خسارة بما تكسوه به من بريق خادع،( ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[1] فقد يصور الهوى أن الأباء أولى بالتنفيل، أو المهم هو تمكين الأولاد من جميع المال لما ينتظرهم في بناء حياتهم من مطالب، فيقمع القرآن هذه الوساوس بقوله (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله). والله الذي شرع ذلك علمه كامل فهو العليم والحكمة فيما يأمر به إذ هو الحكيم.

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

[1] سورة ص اية 38

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الفاحشة:** الفعلة القبيحة.

**يتوفاهن الموت:** يأخذهن الموت.

**بجهالة:** بدون روية.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تقرر الآية أن المرأة إذا فعلت الفعلة القبيحة (الزنا) وشهد عليها أربعة من الرّجال المسلمين العدول ' فالعقوبة التي تسلط عليها: أن القاضي يحبسها ببيت لا تخرج منه حتى تموت أو أن ييسر الله لها طريقا تخرج به من حبسها. ولم تبين الآية ما هو هذا المخرج. وإذا فعل الرّجل الفاحشة، سواء أكان بكرا أو محصنا، وثبت ذلك عليه بما يقبل به شرعا ثبوت الجريمة، فعقوبته أن يؤذى بأنواع من الإذاية تردعه كالتعيير والتوبيخ والهجر، وقيل: حتى بالضرب غير المبرح. ويستمر ذلك إلى أن تتحقق توبته وعزمه على التنكر لما كان عليه واشمئزازه منه. ولما كان من صفات الله التوبة والرّحمة وذلك هو الكمال، فعلى المؤمنين أن يكونوا توابين رحماء. وقد ضمن الله قبول توبة التائبين تفضلا منه بشرطين – 1) إذا كانوا قد أقدموا على إتيان المعصية باندفاع غامر من شهواتهم دون رفض للحكم أو استهزاء به – 2) أن يتوبوا قبل الموت.

والتوبة بما تتضمنه من رفض باطني لما سلف من المعاصي، وترك المعصية في الحال، وعزم صادق على عدم العودة إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله لا من غيره، ولا تكون مقبولة إذا أخرها العاصي حتى بلغت الرّوح الحلقوم. ومثله الكافر لا تفيده توبته إذا أقلع عن كفره في اللحظة التي يشاهد فيها ما يضطره إلى الإيمان. فكلاهما قد هيأ الله له عذابا مؤلما.

**بيان المعنى العام:**

**15-واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم...سبيلا.**

تتابع في هذه السورة الاهتمام بالنساء ورفع الظلم الذي كان مسلطا عليهن، ومَكّنَ من حقوقهن. وناسب أن يعقب ذلك أن رعاية الأنثى لا يمنع من تأديبها وإصلاحها، باعتبار أنها عضو له تأثيره الكبير في الأسرة وفي المجتمع، فإذا انحرفت كان انحرافها تتبعه آثار سيئة فمن الحزم والصلاح تعريفهن بواجباتهن وما يترتب على انفلاتهن وتضييعهن للأمانة التي يتحملنها. ذكرت الآية أن المرأة المسلمة إذا ارتكبت الفاحشة وثبت ذلك عليها بالطريق المقبول شرعا وهو شهادة أربع رجال مسلمين صالحين عليها بفعلتها التي قامت بها، ومثل الشهادة إقرارها غير مكرهة بما فعلت، فعقوبتها حينئذ أنها تحبس في البيت لا تبرحه حتى تموت أو يأتي ما يغير هذا الحكم فيجعل الله لها سبيلا للخروج من حبسها ذاك.

هذه الفعلة، المعبر عنها بالفاحشة، يكاد يجمع الناظرون في كتاب الله: أنها الزنا، وأن هذه العقوبة تشمل البكر والثيب ، وأنها كانت العقوبة الواجب تطبيقها في أول الأمر بعد الهجرة في المدينة. وأن هذا الحكم قد نسخ بجلد البكر ، ورجم المحصنة. ورأي آخر له قيمته من النظر، أن هذا الحكم هو في الساحقات (والسحاق هو الشذوذ الجنسي بين الأنثى ومثيلتها) وأن عقوبتهن السجن في البيوت سجنا مؤبدا. والعمل بالآية باق ولا نسخ.

## 16-واللذان يأتيانها منكم...رحيما.

تعرضت الآية بعد ذلك لحكم الذكرين **(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما)** إذا فعلا الفاحشة، وفسرت كما سبق في النساء بالذكرين الزانيين ، البكر والمحصن والحكم هو إيذاؤهما بالتوبيخ والتعيير ، ورأى بعضهم أنهما يضربان ضربا غير مبرح أيضا.

## 17-إنما التوبة على الله...حكيما.

وتقرر الآية إن هذا الحكم لا يلزم طيلة الحياة، فإذا ظهرت التوبة وقارنها صلاح الحال، ومخايل الاستقامة، رفع ما كان من العقوبة. ويذهب من رأى أن صدر الآية نزل في الساحقات، إلى أن المقصود هنا عقوبة اللواط (الشذوذ الجنسي بين الذكور) وأنهما يؤنبان وتستمر عقوبتهما وانحطاط مركزهما الاجتماعي إلى أن تتبين توبتهما توبة تجمع الشروط.

## 18- وليست التوبة للذين يعملون... عذابا أليما

ويقرب عودة الزاني والزانية أو من عمل عمل أهل لوط إلى الوضع الاجتماعي المقبول بعد التوبة، بأن الله وهو الكامل، من صفاته الثابتة التوبة

والرّحمة. وعلى المؤمن أن يقتبس من الكمــال الإلهــي طريقتــه فــي الحيــاة. ويحصــر القرآن التوبة التي يتفضل بها الله على العصاة الذين يتحقق فيهم أمران أساسيان:

-أن يكون إقدامهم علــى ارتكــاب المعصــية كــان نتيجــة غفلــة وعــدم تقــدير لآثــار المعصية، واندفاع من الغريزة وقوى الشــهوة تحجــب البصــيرة وتنــوم قــوى الإيمــان فينسى لحظــة الخطيئــة رابطتــه بخالقــه. ولا يقــوم بالمعصــية تفضــيلا لهــا وإنكــارا لحكمها أو استهزاء به.

-أن يكون يقظا لسوء ما صنع فلا يستمر على تكــراره اســتمرارا يصــحبه إلــى النــزع بل يتوب قبل حضور النزع الأخير. فــإذا لــم يتحقــق الشــرطان فــي العاصــي فإنــه لا تقبل توبته.

كما أنه لا تقبل توبة الكافر المواصــل لكفــره ورفــض الحــق، إلــى حضــور النــزع الأخير، الوقت الذي يحضره ملك الموت ويرفــع الاختيــار والتكليــف. فمــن آمــن فــي هذا الوقت الضيق هو كتصريح الكافرين يوم القيامــة أنهــم كــانوا فــي حيــاتهم ضــالين وأنهم معترفون بالحق ولكن ذلك الاعتراف لا ينفعهم. هــؤلاء جميعــا قــد هيــأ الله لهــم عذابا أليما. إلا أن المؤمن العاصي لا يخلد فــي النــار، أمــا الكــافر فيجــري عليــه مــا أكده القرآن دائما بأنهم مخلدون في عذاب جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾

**بيان معنى الألفاظ**

**لا يحل لكم:** يحرم.

**تعضلوهن:** تمنعونهن من الزواج.

**المعروف:** ضد المنكر. وهو ما جاء على ما يلائــم الشــرع ويتناســب مــع مــا يجــري عليه أمر الناس.

**بهتان:** الباطل الذي يتحير من بطلانه.

**أفضى:** امتزج بعضكم ببعض.

**بيان المعنى الإجمالي:**

مما كان مقبولا قبل الإسلام أن المرأة تخضع لظلم الرّجل لها، إذ كان ولي الميت أحق بامرأته يرثها كما يرث ماله، وينفذ فيها إرادته من التزوج بها أو تسريحها أو منعها من الزواج. وكان بعض الأزواج ينفر من معاشرة زوجته ويبقيها عنده مع الإضرار بها ليستولي على مالها بعد موتها. وبعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج حتى يكون مالها له ولا يذهب إلى من تتزوجه ومن تنجبه. وكان بعض الأزواج يضر زوجته ويمنعها من حقوقها لتتنازل له عن بعض ما قدمه لها عندما تزوج بها. فنهى الإسلام الذكور من التسلط الظالم على المرأة.

استثنى القرآن حالة لا حرج على الزوج من لز زوجته إلى الافتداء. وهي إذا ما ثبت لديه ثبوتا يقينيا أن زوجته قد زنت. وهذا الحكم كان قبل إنزال حكم اللعان وأما بعد تشريع اللعان فليس للزوج أن يضار زوجته ليسترجع بعض ما قدمه لها.

وأوصت الآية الأزواج بمعاشرة زوجاتهم بالطريقة غير المنكرة لا شرعا ولا عرفا. ونبه الأزواج عندما تتحول عواطفهم عن زوجاتهم من حب إلى كراهية أن لا يعجلوا بقطع العلاقة الزوجية فعسى أن يجعل الله في تلك الزوجة خيرا كثيرا. وغريب أن يعمد الزوج إلى إلجاء زوجته إلى التنازل له عن بعض ما تسلمته صداقا لها عند العقد ، بعد أن امتزجا امتزاجا كبيرا وحل لكل واحد منهما ما كان محرما عليه من الآخر، وبعد أن أخذن من أزواجهن عهدا على حسن المعاشرة.

**بيان المعنى العام:**

**19 -يا أيها الذين آمنوا لايحل... خيرا كثيرا.**

يدعو القرآن المؤمنين إلى إنصاف المرأة، ويقرر منع صنوف من الظلم كانت تسلط عليها، وضروب من القهر تجبر على قبولها بموجب ما جرت عليه عاداتهم. ولكل نوع من المخاطبين، الأزواج والأولياء والحكام، ما يليق به.

كان من حق أكبر الأولاد أن يتحكم في مصير زوجة أبيه إما أن يتزوجها رضيت أو أبت، أو يزوجها ممن يشاء، أو يحبسها عنده حتى تموت، أو يسرحها. وكان هذا الحق أيضا لولي الميت إذا لم يخلف أبناء، فيسرع هذا الولي لإلقاء ثوب على زوجة الميت، ليتحكم في مصيرها كما يتحكم ابنه. وكان بعض الأزواج لا يعاشر زوجته معاشرة الأزواج ولا يسرحها، ولكن يبقيها عنده ليرثها عند موتها. وكان بعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج ليرثها بعد موتها، ولا يذهب مالها لزوجها ولمن تنجبه من الذرية. فنهى القرآن عن ذلك وأزال هذا الاستبداد من

العلاقات الأسرية، وأعطى حرمة ومكانة لإرادة المرأة. ونوع آخر كان الرّجل يرغب في تطليق زوجته، ويرغب في آن واحد أن تفتدي منه بتمكينه مما أخذته منه صداقا، فيعمد إلى الإضرار بها وحرمانها من حقوقها حتى يستولي على بعض ما أخذته ظلما. والحكم واحد في الجميع. واستثنى القرآن صورة واحدة هي أن يثبت زنا الزوجة، فله أن يطلب منها أن تفتدي منه ويطلقها مقابل ما يأخذه منها. وكان هذا قبل تشريع اللعان. ويثبت القرآن التصور الذي أتى به، والمنهج الذي أراد أن يقيم عليه بناء الأسرة، فيخاطب الأزواج أن عليهم أن يقيموا العلاقات الزوجية على الوجه الذي لا ينكر، وينتفي منه الظلم الذي لا يقبله الإسلام. وينبههم إلى أنه في حالة تحول العواطف من الحب إلى الكراهية، فعسى أن يكون الله قدر فيما كرهوه خيرا كثيرا أعظم عائدة على الزوج من نفرته من بعض ما عليه زوجته.

## 20-21، وإن أردتم استبدال زوج...وأخذن منكم ميثاقا غليظا.

وظلم آخر مما كان شائعا في المجتمع الجاهلي، والذي يمكن أن يستمر في المجتمعات هو أن تتعلق إرادة الزوج بأن يغير زوجته فيتزوج بأخرى ويطلق الأولى، ويستعين على تحقيق رغبته بحمل زوجته الأولى على التنازل عن بعض ما أخذته منه صداقا، خاصة إذا كان ما بذله لها مقدارا كبيرا له بال فتسول له نفسه أنه لما كان سيفارقها، فلا حرج في استرجاع ماله. فيشنع القرآن ويحبط هذا التبرير، بالتذكير بأن العلاقة بينهما بلغت من التواصل والامتزاج حدا كبيرا، وقد ارتبطا برباط الزوجية الذي أباح لكل منهما ما كان محرما. وأعطى الرّجل لزوجته ميثاقا وعهدا أن يكرمها ، ذلك أن شأن كل خاطب، أنه يعبر عن تعلقه بمن يطلب يدها، وعن حرصه على تمتيعها. إن ما يقدمه الزوج لزوجته من الهدايا وما يبذله لها من الصداق ، وما يقيمه من احتفال بالحدث، كلها شواهد ناطقة بالعهد الموثق المؤكد. فمن العجب أن يفكر في الاستيلاء على شيء مما قدمه. (وكيف تأخذونه )

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ

أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

**بيان معنى الألفاظ:**

**المقت:** البغض. سمى العرب نكاح زوجة الأب مقتا.

**ساء سبيلا:** طريق سيء مرفوض.

**الرّبائب:** جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من زوجها السابق.

**حلائل:** زوجات.

**المحصنات:** المحصنة المتزوجة في حال بقاء رباط الزوجية.

**محصنين:** متزوجين منهن على ما أحله الإسلام.

**المسافح:** الزاني.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تبين الآية النساء اللاتي يحرم على الرّجل أن يتزوج بإحداهن. وهن:
1)زوجة الأب بمجرد العقد عليها. -2)الأم الوالدة وأمها الجدة وإن علت -3 ) البنت وإن نزلت كبنت الابن وبنت البنت وإن نزلت - 4) الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم- 5) العمة شقيقة كانت أو لأب أو لأم -6) الخالة أخت الأم شقيقة كانت أو لأب أو لأم -7) بنت الأخ الشقيق أو لأب أو لأم -8) بنت الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم-9) الأم التي أرضعته 1. ) الأخت من الرّضاعة -11) أم الزوجة التي عقد عليها دخل بها أو لم يدخل -12) بنت الزوجة التي دخل بها - 13) زوجة الابن التي عقد عليها - 14) الجمع بين أختين -15) الأنثى المتزوجة وهي في عصمة زوجها.

وما كان من سبي النساء في الحروب التي تصبح الأسيرة ملكا لصاحبها فإن ملك رقبتها من سيدها لا يمنعه من الاتصال بها جنسيا بعد استبرائها إذا كانت قبل ذلك متزوجة.

وأكدت الآية الالتزام بتجنب ما حرمه الله من النساء بأنــه قـد كتبـه الله علــى المـؤمنين على سبيل الإلزام لا خيرة لهم فيــه. ثـم نصــت الآيــة أن الله أحـل للرجـل أن يتــزوج غير المتصوص على تحريمهن وذلك بعقد وتقديم مهر.

وأكدت الآية على بذل المهر كاملا إذا دخــل الــزوج بزوجتــه واســتمتع بهــا. ورخـص للزوجة أن تتنازل عن بعض مــا وجــب لهــا مــن الصـــداق كمــا رخـص للــزوج أن يزيدها على ما سماه لها إذا كــان ذلــك عــن رضـــى. والله الــذي ضــبط هــذه الأمــور ضبطها مستندة لعلمه وحكمته.

### بيان المعنى العام

### 22←24، ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء..إن الله كان عليما حكيما.

إن تكوين الأسرة قاعدة المجتمع ومحضـــن الأجيـــال القادمـــة، لابـد أن يكـون خاضــعا لنظام دقيق ونظرة بعيدة للمصـــالح، والابتعـــاد عــن مجــرد قضـــاء الشــهوة الغرزيّــة. فمن ذلك ضبط ما يحرم على الرّجل من النســاء اللاتـــي فـــي العقـد علــيهن مفاسـد تـم إدراك بعضها بالفطرة فكانت عند التنزيل ثابتــة فــي أخـــلاق البشــر وبعضـــها نبهـت إليه الشريعة وجعلته فـــي مســتوى مـــا نفــرت منـــه الطبـــاع. ففـــي الأيـــات الــثلاث تنصيص على النساء اللاتي يحرم العقـد علــيهن. فلنتتبعهـــا: زوجـــة الأب التـــي عقـد عليها دخل بها أو لم يدخل. وهذه لم يتم الإجماع علـــى منعهـــا قبـــل الإســـلام. بـــل كـــان ابن الميت له الحق في أن يجبر زوجة أبيه، إن لم تكـــن لـــه أمـــا، علـــى الـــزواج منهـــا. ولذا قرنت الآية هذا الزواج بما يوجـــب الابتعـــاد عنـــه والنفــرة منـــه حســب الفطــرة، فوصفته بأنه قبيح جدا، وهو ممقوت، حتـــى أطلـــق عليـــه العـــرب نكـــاح المقـــت، وأنـــه طريق سيء لتكوين الأسرة.

الأم التي ولدت الرّجل وأمها جدته وإن علت. ذلك أن صـــلة الولـــد بأمـــه صـــلة احتـــرام وتقدير ووقار، فمن مناقضة الفطرة أن تهبط العلاقة إلى اللهو والعبث والرّفث.

البنت. ومثلها بنت الابن وبنت البنـــت. وممـــا يلحـــظ أن اللغـــة العربيـــة لا يوجـد فيهـــا كلمة تدل على الاتصال الجنسي المحرم بين الوالـــد وابنتـــه، الـــذي هـــو أمـــارة علـــى انتفاء تصور ذلك. وفي اللغات الأوروبية يوجد هذا المصطلح.

الأخت سواء أكانت أختا شقيقة، أم لأب،أم لأم.

العمة سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

الخالة أخت الأم سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

بنت الأخ سواء أكان شقيقا أم لأب أم لأم. وما تناسل منهن.

بنت الأخت سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم. وما تناسل منهن.

المرأة التي أرضعت الرّجل، وهي أمه من الرّضاعة، مادام لبنها وصل إلى جوفه في خلال الحولين الأولين.

الأخت من الرّضاعة أي التي رضعت من المرأة التي أرضعت الصبي، سواء أكانت من زوجها أو من غيره.

أم المعقود عليها. فبمجرد العقد على البنت يحرم الزواج بالأم.

ابنة المرأة التي عقد عليها ودخل بها، أمّا إذا طلقها قبل أن يدخل بها جاز له التزوج من ابنتها.

المرأة التي عقد عليها ابنه دخل بها أو لم يدخل. والمراد بالابن الابن الحقيقي لا الابن المنسوب إليه بالتبني، فالتبني، وإن كان حراما إلا أن المتبني يحل له التزوج من زوجة متبناه إذا طلقها سواء أدخل بها أم لم يدخل.

أخت زوجته ما دامت في عصمته. فإذا طلقها وخرجت من عدتها جاز له التزوج بأختها.

المرأة التي هي في عصمة زوج، هي محرمة على جميع الرّجال ما دامت في العصمة، فإذا طلقت وخرجت من العدة جاز التزوج بها بشروطه وأركانه.

واستثنت الآية الأسيرة المتزوجة قبل أسرها فلسيدها أن يستمتع بها بعد استبرائها.

ونصت الآية بعد استيفاء المحرمات أن ما عداهن هو حلال في وقت نزول هذا التشريع. وما زاد على ذلك يعتمد فيه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه كقوله: يحرم من الرّضاع ما يحرم من النسب.

وأكد القرآن على المؤمنين أن يلتزموا باحترام ما قرره الإسلام في هذا الباب من التحريم والحليّة.

وأرشدت الآية إلى أن الحلية لابد أن يتوفر لها قصد الزوج للعقد على الوجه الشرعي بتوفر أركان النكاح، وتقديم المهر للزوجة، وأن يكون القصد هو الإحصان بما يترتب عليه من النسب والصهر والتحريم والتحليل والميراث. لا مجرد الاستمتاع الذي هو الزنا . وأن على الزوج أن يمكن زوجته من صداقها، وللزوج وللزوجة أن يتصرفا في الصداق بالرّضا، تصرفا تتنازل فيه الزوجة عن بعض صداقها لزوجها، أو يسمح الزوج بالزيادة على الصداق تمكينا للمودة والألفة بينهما. حافظوا على تطبيق هذه الأحكام فهي منزلة من عند الله المتصف بعلم الأمور على حقيقتها لا يخفى عليه شيء منها، الحكيم الذي لا يخطئ في تحقيق المصلحة في كل ما شرعه.

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا (٢٨)

**بيان معنى الألفاظ**

**طولا:** القدرة.

**الفتيات:** جمع فتاة والمقصود بها هنا غير الحرة.

**أهلهن:** المالكين لهن

**مسافحات:** المسافحة الزانية مع من ترغب فيه بدون تعيين.

**الأخدان:** جمع خدن وهو الخليل الذي تلتزم المرأة معاشرته وحده بدون عقد.

**أحصن:** تزوجن.

**العنت:** المشقة الزائدة من العزوبة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

من لم يكن له من المال ما يستطيع به أن يتزوج مسلمة من ذوات العفاف والصون فإنه يرخص له أن يتزوج من مملوكة (أَمَة) مسلمة، والإنسان يسمو بإيمانه والله مطلع على الأرواح التي صفاها الإيمان فكأنها بإيمانها تخلصت من المقام الاجتماعي المنحط، خاصة والصلة بين الأحرار والإماء مقررة بانتساب الجميع لأب واحد وأم واحدة. وبينت الآية طريقة تنفيذ الزواج بأن يكون بإذن مالكيهن، وببذل الصداق. مع قصد التعفف لا الزنا ولا المخادنة. وإذا تزوجت الأمة ثم زنت فحدها على النصف من الحرة خمسين جلدة. وأرشدت الآية المؤمنين أن لا يقدموا على الزواج بغير الحرائر إن لم تبلغ الغلمة (حب الاتصال الجنسي) بأحدهم حدا يوقع صاحبه في مشقة قد تسوقه إلى ما هو أسوأ من التزوج بأمة. فمن

استطاع أن يصبر على العزوبة فليصبر، وهو خير له حتى لا يكون أولاده الذين سيتناسلون منه بواسطة هذا النكاح مملوكين لسيد الأمة، الأمر الذي يحول بينه وبين القيام على حسن تربيتهم ويفقدهم الحرية وإلا فإنه لا حرمة من التزوج بالإماء. والله بفضله يغفر ما سلف من الذنوب بعفوه، رحيم بعباده.

ما سبق في هذه السورة من الأحكام التي خالف فيها التشريع الإسلامي بعض الأحكام التي ألفوها وقبلوها كالتزوج من زوجة الأب، هو من فضل الله على هذه الأمة إذ بين بتلكم الأحكام طريق الرّشد في الحياة وكشف عن القواعد المرعية في فترات صلاح الأمم السابقة التي ما بلغوها إلا بعد تجارب وأخطاء إنه سبحانه يريد أن ينعم عليكم بقبول التوبة، وفي المقابل فإن المأسورين باتباع اللذات ، المنقادين إلى إشباع شهواتهم يعملون على أن تنحرفوا عن الطريق المستقيم. كل ما شرعه الله لكم لا يوقعكم عند تطبيقه في مشقة، وكلما وقع المؤمن في عسر من أمره فإن الله يخفف عنه، وهو أعلم بأن الإنسان الذي خلقه معرض للضعف.

**بيان المعنى العام:**

## 25-ومن لم يستطع منكم طولا...رحيم.

من فطرة الإنسان توقه إلى تكوين أسرة، ومما يقوي اندفاعه إلى ذلك غريزته الجنسية العارمة. وقد فرض القرآن على من يرغب في الزواج أن يبذل لمن يريد الاقتران بها الصداق الذي يرضيها. وكانت ثروة العالم محدودة قبل أن تدخل الطاقة في الإنتاج، فبعض الرّجال يشتد شوقه إلى الزواج ولا يجد المال الذي يبذله صداقا، فرخص القرآن لمن لم يجد مالا يتزوج به أن يتزوج بأمة مسلمة. وتضيف الآية أن الله يعلم ما اهتدت إليه قلوبكم من الإيمان، وهو يشير إلى جبر ما في المملوكة المؤمنة، من نقص اجتماعي، بإيمانها الذي هو محل عناية الله. ويضيف أن الأحرار والعبيد رجالا ونساء كلهم تناسلوا من أب واحد آدم، ولم واحدة حواء، وذلك ينفي ما جرى عليه أهل الجاهلية من احتقار غير الأحرار والحرائر احتقارا جعلهم لا يقربون غير الحرائر إلا على ضرب من العبث وقضاء الشهوة بالزنا ونحوه. والتزوج بالإماء يخضع لنظام واجب التطبيق. من ذلك أن يكون النكاح بإذن مالكيهن وأن يقدم الزوج لزوجته المملوكة صداقا حسب ما جرى عليه العرف وأن يكون القصد من العقد عليهن العفة وإحصان المملوكة بأن تكون ذات زوج يعفها وتعفه، لا بقصد إفراغ الشهوة بالزنا ولا باتخاذها خليلة يصطفيها لنفسه دون أن يترتب على ذلك أي حق من الحقوق.

إذا تحققت الشروط المعتبرة فإن الأمة المدخول بها إذا زنت كانت عقوبتها خمسين جلدة على النصف من عقوبة الحرائر. ويؤكد القرآن على أن التزوج بغير الحرائر هو رخصة لمن يوقعه استمرار العزوبة في مشقة قد تفضي به إلى ما هو أسوأ من التزوج بغير الحرة. ومع هذا يحرض القرآن غير الواجد على الصبر وعدم التسرع وذلك لأن الأولاد يتبعون أمهم في الرق، فيكونون عبيدا لسيدها، وهو ما يحرمهم من تربية أبيهم ومن ميراثه ومن كثير من الحقوق الاجتماعية، ويكفيك حرمانهم من الحرية. ويعقب القرآن على جميع الأحكام بأن الله متصف بأنه غفور لعباده ما وقعوا فيه من تجاوز وأن ما شرعه لهم هو لمصلحتهم ورحمة بهم.

### 26-يريد الله ليبين لكم... والله عليم حكيم.

يحقق القرآن الغطاء العام لكل ما شرعه ببيان ما يريده رب العزة لهذه الأمة:
أنه يريد أن يبين للأمة طريقها السالك الذي يحقق لها سعادتها في الدارين بدون غموض ولا اشتباه، بما يحميها من الحيرة.

### 27-والله يريد أن يتوب...ميلا عظيما.

وأن يهديها للحقائق التي بلغتها الأمم السابقة بعد تجارب وطول عناء فيقدمها لها واضحة المعالم بينة المقاصد تتقبلها العقول وتألفها النفوس.
أن يميز لهم بين ما يريده الله لهم، وبين ما يريده لهم الذين استعبدتهم شهواتهم وانقادوا لملذاتهم الرّخيصة وانغمسوا في حمأة الرّذيلة، الذين يعملون على انحراف المؤمنين عن الطريق المستقيم انحرافا عظيما ليُطْبق عليهم الضلال والفساد.

### 28- يريد الله أن يخفف عنكم...وخلق الإنسان ضعيفا.

هذه إرادته سبحانه التي حقّقها بما شرعه لكم يريد أن يخفف عنكم، فسبحانه يرعى قدراتكم المحدودة ولا يكلفكم ما فيه مشقة، وكلما حصلت المشقة أسرع التيسير والتخفيف. وهذه قاعدة من قواعد التشريع مرعية لدى الفقهاء والمجتهدين، الذين يقدرونها تبعا لتعمقهم في الوضع وتقديرهم للتيسير الذي يرفع الحرج. وليس ذلك بابا مفتوحا لمن لم يملك المستوى العلمي الذي يمكنه من بيان حكم الله. وتختم الآية بإعلان حقيقة قد يغفل الناس عنها: هي أن الإنسان بني تركيبه على أنه بنتابه الضعف، والذي خلقه وهو أعلم به يراعي من رحمته وفضله هذا الضعف فلا يثقل عليه. والآية تشير إلى مبدأ من مبادئ التربية الإسلامية التي كون عليها النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة، فارتفعت بذلك إلى مقامات سامية من الرّشد الاجتماعي: على كل مؤمن أن يرعى أخاه المؤمن فلا يثقل عليه هذا الخلُق هو

مقتبس من الكمال الإلهي الذي يرقى المؤمن فيه إلى مستويات حسب طاقته وما قدره له ربه من الكمال. فلا تُضْجِرْ أخاك بالمقام عنده كأنه لا شغل له في الدنيا إلا الحديث معك، ولا تكثر المطالب على من تربطك بهم علاقة اجتماعية من زواج أو بنوة أو أبوة أو قرابة أو صداقة. قَدِّرْهُ دائما في تعاملك أن الإنسان ضعيف له حاجات فلا تستغل حياءه. وتأملوا فيما أدب به القرآن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنزاله: **فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحي من الحق** [1].

**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾**

**بيان معاني الألفاظ:**

**لا تأكلوا:** لا تستولوا.

**بالباطل:** بغير الطريق المشروع.

**عدوانا:** التسلط بالظلم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نهى القرآن المؤمنين أن يستولي أحدهم على مال غيره بغير وجه شرعي وقد فتح لهم بأبواب التجارة الدائرة بينهم عن طريق التراضي التحصيل على الرّزق. ونهاهم أن يعتدوا بالقتل. إن الله، تعالى أن يكون مسؤولا ، رحيم بكم. فكيف لا تكونوا رحماء فيما بينكم. ومن لم يمتثل وارتكب ما نهى الله عنه بالتسلط على غيره بالظلم فاستولى على ماله أو قتله، فليعلم أنه لا يفلت من عقاب الله وسيصلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ ولا طريقا للنجاة. يفتح القرآن الأمل للعصاة الذين لم يفسدوا بعظيم الجرائم واجتنبوا الكبائر، أن الله سيتفضل عليهم بمحو ما ارتكبوه من صغائر الإثم. فيقدمون على ربهم وقد امحت من صحائفهم آثار الذنوب، فيدخلهم الجنة بما أعده فيها لهم من كرامة.

**بيان المعنى العام:**

**29-يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا... كان بكم رحيما.**

---

[1] سورة الأحزاب ، آية 53

يهدف القرآن إلى تكوين مجتمع فاضل، تربط أفراده صلة متينة من الود، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان كل فرد يحترم حقوق غيره ولا يتعدى عليها، بل إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. ولذا نهى القرآن المؤمنين، ودعاهم بوصف الإيمان ليبني عليه أن عدم احترام هذا النهي يتناقض مع الإيمان. قدم في النهي ما يقرب حدوثه ويتهاون بعض الناس به، وهو الاستيلاء على مال الآخرين بغير وجه شرعي. ويشمل ذلك القمار والسرقة والغش والرّبا والغصب وبصفة عامة: كلما كان انتقال المال من يد إلى يد بالقهر أو بالتحايل أو بطريق محرم أو بغير رضا صاحبه، هو داخل تحت قوله تعالى: **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**. وأخرج في صورة الاستثناء ما يحصل عليه التاجر من المكاسب التي تم التبادل فيها برضا الطرفين فإن ذلك حلال، وإن كان ما يحصل عليه التاجر في بعض الصفقات يكون أكبر بكثير مما قدمه من خدمات.

وثنى بالنهي عن القتل. والقتل من أعظم الذنوب، هو مخرب للمجتمع محطم للوحدة، مزرعة للفتن، والقاتل عدو الحياة التي يستوي فيها جميع الأحياء، فمن قتل غيره، باعتباره متعديا على الحياة، فكأنما قتل نفسه، ولذا كانت معصية القتل يستوي فيها من قتل نفسه ومن قتل غيره. لا يقدم الجرم على القتل إلا من ضاقت الحياة أمامه فوصل به الأمر إلى أن أغلقت في عقله جميع الأبواب وانسدت كل السبل. وعمي عن سعة رحمة الله .

### 30-ومن يفعل ذلك... يسيرا.

وحتى يقتلع من نفوس البشر الإقدام على هذين الجرمين العظيمين أفصح القرآن عما ينتظره كل من أقدم على هاتين المعصيتين، ظلما واستهانة بحقوق الآخرين، ينتظره أن يصلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ يلجأ إليه ولا قدرة على الهرب فينساق إليها كما يندفع العصفور إلى البازي.

### 31-إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه... كريما.

يفتح المولى أبواب الأمل لمن لم يستول الشر على نفسه ولكن ينزلق في قليل من الأحوال إلى ارتكاب بعض الذنوب الصغائر لكن خوفه من الله وقوة إيمانه ووضوح صلته بالله ،كل ذلك يحول بينه وبين ارتكاب الكبائر. فيعده ربه بأن يمحو من صحائفه آثار ذنوبه الصغائر ليقدم على ربه بصفحة بيضاء من الآثام، فيكون مآله دخول الجنة بما فيها من كرامة.

وفي التفرقة بين الذنوب الكبائر والصغائر اختلاف كبير بين علماء الأمة. فبعضهم بالغ بأن كل معصية هي كبيرة وبعض المعاصي أكبر من بعض ومنهم من حصرها في عدد: الشرك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات الغافلات، وأكل مال اليتيم، والفرار يوم الزحف والسحر، وعقوق الوالدين. وربطها بعضهم بما قارن النهي عنه وعيد النار أو عذاب أو لعنة.

ومنهم من تعمق فقال: يقدر عظم الذنب، فيعتبر كبيرة بما يترتب عليه من الفساد وما ينبئ عنه من قلة اكتراث صاحبه بنهي الله وتحريمه ووهن تدينه.

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**موالي:** جمع مولى :القريب من الورثة.

**عاقدت أيمانكم:** من كانت قرابتهم بغير القرب الطبيعي. كالحلف والتبني.

### بيان المعنى الإجمالي:

يطلب القرآن من الإنسان أن يكون واقعيا لا يعيش في الخيال، تتبع نفسه ما أنعم الله به من نعم على غيره لم يحصل هو عليها، فيستقر الشعور بالحرمان منها في نفسه حتى تأخذ عليه فكره، وقد يتحول متابعة التفكير وعدم الرّضا إلى حالات تفسد عليه حياته وربما تبعثه على الحسد أو على الإجرام. فالآية تنبه المؤمن إلى الاعتصام بالرّضا بالمقدور والقناعة بما وصل إلى الإنسان من رزق دون أن يمنعه ذلك من العمل على ما يحوله إلى ما هو أفضل، ثم الاستعانة بالالتجاء إلى الله أن ييسر له أمره. ويؤكد القرآن ما تكفلت سورة النساء ببيانه من حقوق المرأة بصفتها الإنسانية الكاملة. فالمرأة لها حظها من الأعمال التي أنجزتها باختيارها وللرجل نصيبه من نتائج الأعمال التي اكتسبها. وتتلو الآية المفيدة أن الله شرع لكل تارك مال مواليه يرثون عنه ماله من الآباء والأبناء والأقارب فلا تتمنوا الحصول على ما فضل الله به بعضكم على بعض من الميراث.

وعطفت على الوارثين الصلة الحاصلة بالعقد لا بالنسب ولا بالصهر، وكانت قرابة معتبرة يستحق بها المعا قد شيئا من الميراث، ثم نسخ هذا الحكم وانفرد الوارثون، المعينون بالنصوص، بمال الميت.

## بيان المعنى العام:

## 32-ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم...عليما.

يتفاوت البشر في حظوظهم من الخير، هم مراتب في الثراء والجمال والعلم والدين...، وتختلف النساء عن الرّجال في الحظوظ التي ينالها كل جنس. ثم إنهم بعد ذلك مختلفون فريق قنعوا بما قدر لهم، القناعة الإيجابية التي لا تعطل عن السعي لتحويل الحال، وفريق المتبرمين بوضعهم الساخطين على ما قدر لهم في الحياة أو ما شرعه الله لهم. وبين الأطراف مراتب كثيرة. ويتوجه التأديب القرآني للفريقين

يرشد الفريق الأول إلى قطع تسلسل حديث النفس عن الأماني والاشتغال بالمفقود. وليس معنى ذلك أن يقطع طموحه فلا يخطط لنيل ما هو أفضل في المستقبل، بما يتحول معه حاله إلى وضع يكون أرفق به وأسعد فذلك مخالف لفطرة الإنسان التي خلقه الله عليها، بل مخالف لأمره أن يحقق خلافته في الأرض بالطموح الصالح ( واسألوا الله من فضله)ولكن لا يلتحق بالفريق الثاني الذي يشقى بأمانيه.

وينهى الفريق الثاني عن الإغراق في الأماني، وحصر التفكير فيما فقدوه، دون النظر إلى ما حصلوا عليه من نعم. ذلك أن حصر الإنسان همه فيما لم يحصل عليه، ينتهي به إلى السخط على وضعه، ثم يتطور إلى حسد من هو مفضل عليه، وقد يتحول إلى كراهية ثم إلى سعي ظالم للحيلولة بين المنعم عليه وبين تمتعه بما رزقه الله، وقد ينتهي إلى الكيد أو القتل.

ويدخل في الفريق الثاني تمني النساء التسوية مع الرّجال في كل شيء، في الجهاد، والميراث، وقد روي أنه وقع التصريح بذلك من بعض النساء في العصر النبوي، والآية نزلت بحكم عام يثقف الرّجال والنساء. ليُوقنْ كل مؤمن ومؤمنة بأن ما ضبطه الإسلام في الحقوق والواجبات، وما خص به كل جنس وما قسم لكل فرد من الميراث، وفي حياته من الصحة والقوة أو الضعف والمرض، والجمال والوسامة أو الدمامة، والعلم والفصاحة أو الجهل والفهاهة، والوجاهة والحظوة أو الخمول وفقدان التوقير والقبول، ونحو ذلك هو من العدل الإلهي الصادر عن علم كامل محيط بالكون ومن فيه وما فيه.

فالله عليم العلم الكامل بكل شيء ما عظم وما دق فليطرد المؤمن وساوس النفس التي يتبعها التوقف أو الاعتراض، وذلك بالاعتماد على أن الذي ميز كل فرد بنصيبه في هذه الحياة الدنيا، هو الذي وسع علمه كل شيء. ومن التشريع العادل الذي لا يغمط أحدا حقه، ما قرره القرآن منذ أربعة عشر قرنا: أن نتائج العمل تقدر بما قدمه العامل من جهد وجودة أي بقيمة العمل لا بقيمة المنتج، الرّجل والمرأة في ذلك سواء. إن هذه التسوية لم تتحقق في العالم بصفة شاملة حتى اليوم. ولم تنل المرأة التسوية في الحقوق والأجور في الغرب إلا عقب الحرب العالمية الثانية، وبعد احتجاجات واضطرابات.

وهذه الآية مرتبطة في بعض ما تدل عليه، بالتفاضل الذي نظم به القرآن قسمة التركات، فهي متصلة بآية المواريث.

وتتبعها الآية التالية التي جاء نظمها بطريقة توجب على تاليها التأمل في ترابط أجزائها ليتبين له معناها فيمكن أن تفهم على المعنى التالي:

## 33-ولكل جعلنا موالي مما ترك... شهيدا.

التارك للمال من الرّجال والنساء، شرعنا لكل قريب منهم حظه من الميراث من مواليه، وهم الوالدان الدال على عمود النسب فيدخل فيه الأبناء وما تناسل منهم، والأقارب الجوانح بالأخوة والعمومة. كما يمكن أن تفهم:ولكل شيء من التركة التي خلفها الوالدان والأقربون شرعنا للذين هم مؤهلون للميراث من ذلك المخلف ما يؤول إليهم على مقادير مراعى فيها العدل والحكمة. فلا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض في الثراء في حياتهم ولا ما فضل الله به بعضكم على بعض في النصيب المحدد من الميراث. وتتعرض خاتمة الآية لتنظيم اجتماعي كان عليه المسلمون في العهد الأول. إذ التركيبة الاجتماعية كانت تلتئم فيها الوحدة العائلية من عناصر ثلاثة: وحدة النسب، ووحدة الصهر، ووحدة الولاء الذي كان يتحقق إما: تبعا للعتق فالمعتق يستحق حظه من تركة معتقه، وإما بعقد يعقده اثنان بينهما ويؤكدانه بالقسم أو بمسك كل منهما بيد الآخر: أنهما ترابطا ارتباطا كاملا يرث أحدهما الآخر وينصره ويثأر له ويعادي من عاداه، ويكون سلما لمن يسالمه من تعاهد معه، وإما بعقد التبني فقد كان بعضهم يتبنى ولد غيره فينسبه إلى نفسه فيستوي بذلك مع أولاد صلبه في جميع الحقوق ومنها الميراث، وينضاف إلى ذلك ما عقده النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقد آخى بينهم أخوة تبعها الميراث. فلم تزعزع آية المواريث البناء الاجتماعي زعزعة هادمة بضربة واحدة، بل أبقت للولاء حظا من الميراث إلى أمد محدود، حتى إذا سار أمر الميراث على القسم

الذي حددته الآية وألفوه، نزل ما ينسخ الميراث بالولاء في قوله تعالى: **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** (خاتمة سورة الأنفال) وانتهى التوارث بغير القرابة والصهر وولاء المعتق خاصة.

**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾**

### بيان معنى الألفاظ:

**قوامون:** القوام: المكلف بالرّعاية والحفظ.

**قانتات:** جمع قانتة: وهي المطيعة عن إرادة ورغبة ومحبة.

**نشوزهن:** النشوز: العصيان مع استعلاء وتمرد.

**شقاق:** خلاف يفضي إلى الانفصال.

### بيان المعنى الإجمالي:

حقيقة قدمها القرآن بين يدي الأحكام التابعة لها. هذه الحقيقة عبر عنها في صورة قاعدة من قواعد الحياة التي بنى عليها الله نظام الكون، هي أن القيادة في مؤسسة الأسرة، للرجل وينبه إلى أنه ليس في ذلك توهين لشأن المرأة ولا إضعاف لدورها في الحياة ولكن هذا التنظيم مبني على ما خص به كلا من الجنسين ، فإنه من الحقائق الأولية المدركة ضروريا لجميع البشر أن جنس الرّجال أصلب في هيكل التركيب العضلي وأقدر على اقتحام المخاوف والتغلب عليها. وذلك قدر فضل الله به جنس الرّجال وألزمهم تبعا لذلك بواجبات لم تفرض على المرأة التي منها أن الرّجل مطالب بالسعي لكسب الرزق والإنفاق على الأسرة وتوفير ما هي في حاجة إليه من سكن وغذاء وكسوة ورعاية في حالتي الصحة والمرض. وليسود الوئام في الأسرة، على المرأة أن تكون عضوا صالحا فيها، وصلاحها يتم بتزكية نفسها لتعمل بذكائها على نشر الوفاق في الأسرة، فتكون مطيعة لزوجها الطاعة التي تكفل الحياة الزوجية في أمن ووئام. ولا يجوز للزوج أن يتعسف في تنفيذ ما يترتب على القوامة فلا يعتبر نفسه سيدا للمرأة يأمرها فتخضع. ومن ناحية أخرى

فإنه لما كان سعي الزوج لكسب الرّزق يصحبه مغيبه عن البيت، وتكون الزوجة مؤتمنة طول مدة مغيبه على ماله وعلى عرضه وعلى رعاية أولادهما، ذكرها القرآن بالصفة الثانية الضرورية لصلاح الأسرة، أن تكون يقظة لما كلفت به من رعاية ما اؤتمنت عليه من المال والعرض وتنشئة الأولاد على الفضل والخير. قد تتمرد الزوجة وتلغي حق زوجها في تسيير الأسرة على الخير، ويفسد الجو في البيت على الزوج وعلى الأطفال، فشرع القرآن ما يمحو هذه النزوة الطائشة وذلك بدعوة الزوج إلى تذكيرها بما أوجب الله عليها من الطاعة، ومن حقوق الأولاد أن يعيشوا في بيت يسوده الوفاق لا الخصام، فإن عادت الحياة الزوجية إلى سابق عهدها فبها ونعمت وإن استمرت على الترفع واحتقار زوجها هجرها في الفراش، فإن تمادت وكانت من المحيط الذي ألفت فيه المرأة أن لا تحترم الزوج إلا إذا ضربها، فليضربها ضربا لا للتشفي ولا للإهانة. أما إذا كان الضرب يزيد في نفورها وينمي الشقاق بينهما فلا يحل له أن يضربها. ويؤكد القرآن أن وسائل التأديب هذه إنما مكن منها الزوج لتعود الحياة الزوجية إلى صفائها، وليست تسلط قهر وإذلال للزوجة. ويذكر الأزواج بأن سلطان الله فوق الجميع فهو العلي الأعلى. وإنه لقوي على تنفيذ موجبات العدل من الذين يتمردون عليه.

وإنه حفاظا على سيادة الوفاق في حياة الأسرة، وحتى لا يقع الإسراع بالطلاق يدعو العناصر المؤثرة الخارجية أن تتداخل إذا عجز الزوجان عن إزالة ما بينهما من خلاف، فأوكل للمحترمين من أعضاء العائلة أن يتكون منهما مجلس عائلي، حكم من عائلة الزوجة، وحكم من عائلة الزوج يفوض لهما النظر في أسباب الخلاف، ويتعمقان في بحثهما، لتبين أفضل السبل لإزالة أسباب النفرة، وعليهما أن يخلصا في إرادة الخير للأسرة التي دب التمزق لتركيبها، وليستعينا بالله ليعود الوئام والامتزاج والصفاء ومع حسن القصد والتوكل لا يعدمان العون من الله. وتختم الآية بتذكير الحكمين بأن الله عليم ببواطنهما خبير بنياتهما وما قاما به من سعي للتوفيق أو سعي أحدهما لتغليب من يمثله.

### بيان المعنى العــام:

### 34- الرّجال قوامون...إن الله كان عليا كبيرا.

أثار مضمون هاتين الآيتين ضجة مفتعلة ممن ولّوا ظهورهم لأحكام الله وجعلوا أهواءهم وعقولهم مُحكّمة في الحياة مقدمة على ما أحكمه من تشريع. فلنتبع ما ورد فيهما حسب قواعد الشريعة وما أراد الإسلام أن يحققه من غايات. وحسب ما يقتضيه منطق الأشياء ويوجبه العقل الصافي من لوث الأهواء.

تفتتح الآية الأولى بإعلان قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي:الرّجال قوامون على النساء. على معنى أنه إذا لم تحترم هذه القاعدة اختل النظام الاجتماعي في الأسرة التي هي الرّكن الأساس الذي يقوم عليه المجتمع ،فإن سلمت الأسرة سلم المجتمع وإن تحللت واختل تركيبها اهتز المجتمع كله في جميع مظاهره بما يتبع ذلكم الاختلال من ضعف ووهن وفساد.

فلنتتبع أولا معنى **القوامة**. القوامة مأخوذة من القيام. بما تشير إليه هذه الكلمة من جد واجتهاد وعناية، فمن أراد أن ينجز أمرا هاما لا يباشره وهو قاعد، بل يقوم إليه ثم يوالي بعد قيامه متابعة الخطوات التي يبرز بها عمله على ما ينبغي أن يكون عليه. فالقوامة مسؤولية يتحملها الرّجل في السير بالأسرة على الوجه الذي يضمن للأطفال نموا صالحا، ومرانا على حل معقد مشاكل الحياة، وتربية متابعة تشمل الرّوح والعقل والسلوك. وتضمن للمرأة عفتها وتيسير إمكاناتها للتعاون مع الرّجل في القيام بأمر الأسرة وتربية الأولاد. ويضمن للجميع الرّزق الشامل للمسكن والغذاء واللباس والعلاج عند المرض. وبهذا يتبين لنا أن القوامة ليست تسلطا على المرأة تسلطا يفقدها شخصيتها ويجرح أو يذهب بكرامتها يقول الله تبارك وتعالى(ولقد كرمنا بني آدم) يستوي في هذه الكرامة الذكور والإناث، والرّجال والنساء، وليس لأحد أن يبطل أو يتجاوز ما حكم به الله. فالقوامة ليست تسلطا ظالما ولا تعسفا ولا إهدارا لما منحه الله للمرأة من ذكاء وقدرات عقلية وخلاصة تجارب، وليست تفردا بالسلطة كمن يقود قطيع الأغنام يسير بها كما يريد إلى حيث شاء. وإنما القوامة هي طبيعة النظام في جميع المؤسسات، والأسرة أهم تلكم المؤسسات. فالمؤسسة التجارية أو المالية أو الإدارية أو الفلاحية لا يمكن أن تنجح إلا إذا عهد بها لأصلح الأفراد فيها وأقدرهم على التسيير المحكم. الحقيقة التي يجب أن تكون حاضرة، هي أن الرّجل مسؤول عن تصرفه بهذه القوامة المراعى فيها أمور: رعاية الصلاح والعدل، والمحاسبة عليها.

نعم قد انحرف بعض الرّجال فظلموا نساءهم كما شكا شوقي ذلك لما قال:

ظلم الرّجال نساءهم وتعسفوا *** هل للنساء بمصر من أنصار

هذا الظلم هو نتيجة عدم تطبيق الهداية الإسلامية في التعامل، وتربية اجتماعية بلغت من السوء والانحراف والخروج عن حدود الدين ما كانت نتائجه انحطاط العالم الإسلامي في كل شيء فتمكنت منه الأمراض النفسية والخلقية واستعد لقبول التسلط الظالم من القوى الاستعمارية المستكبرة، ومن أنظمة مستبدة متسلطة، فسرى ذلك في المجتمع، وترسخ في النفوس المريضة مجاوزة الحدود والتسلط

الظالم بل أصبح التبرم من هذا الوضع أو الشكوى جرما وذهب ما جاء به الإسلام من تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وأصبح قبول الإذلال والاستعباد أليف النفوس فكان للمرأة نصيب من هذا الجو العام المناقض لما ثبته القرآن في عقول المؤمنين وفي نفسياتهم.

إنه في هذا المحضن الذي يلتقي فيه شقًا النفس **(خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)** كما جاء في مفتتح هذه السورة أعطى القرآن في هذا المحضن لكل وحدة حقها، فالرّجال بما زودهم الباري سبحانه من قوة عضلية تفوق عادة قوة المرأة ،و من تركيبة نفسية جعلتهم أكثر إقداما وشجاعة في مغالبة الخطوب، فكانت استعداداتهم ميسرة لهم العمل بعيدا عن البيت وفي الأشغال التي تقتضي تلكم الخشونة والسواعد، فأوكل الله إليهم حماية الأسرة من ناحية وتحصيل الرّزق لينفقوه على جميع أعضاء الأسرة. **الرّجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.**

وأعطى للمرأة دورها الأساس المستجيب لطبيعتها النفسية والعضلية، فهي شريكة الرّجل يستمع لرأيها ويحترم ما تكشف عنه من حق وصلاح. وقد سمع الله قول التي تجادل رسول الله ﷺ في شأن زوجها[1] ومن مخالفة الهدي المحمدي حبسها عن التعلم، فالنبي ﷺ خص النساء بأوقات يعلمهن فيها. وقد كانت أمهات المؤمنين مرجعا لكبار الصحابة يأخذون عنهن العلم. فليس من الإسلام في شيء أن تكون حبيسة البيت غارقة في ظلام الجهل محجوبة عن نور المعرفة.

والمرأة الصالحة هي القانتة التي لا تظهر التمرد والتحدي، فالقانتة هي المطيعة نتيجة اقتناع ورضا. والمرأة الصالحة هي التي تكون أمينة على ما ائتمنها الله عليه من مال الأسرة، وعفافها، ومراقبة الأولاد في سلوكهم، وعدم التستر على نزواتهم بل تستعين بزوجها على حسن تربيتهم وتقويم ما اعوج من سلوكهم حتى يكون الزوج وهو بعيد عن البيت كأنه حاضر فيه لأن عين الزوجة عين الرقيب الصالح الشاعر بالمسؤولية والأمانة، حافظات للغيب بالطريقة التي أمر الله بها في حفظ الزوج عند مغيبه.

ثم تعرض القرآن لحالة مناقضة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية. هي حالة تستبد بالمرأة فيها تصورات ووساوس حتى ترى نفسها أرفع من زوجها وتتمرد على الأعراف المرعية عادة في الأسرة، وهذه الحالة يعبر عنها بالنشوز المشتق

---

[1] سورة المجادلة آية 1

من نشْز الأرض للمكان المرتفع منها. يظهر منهــا التحــدي لمكانتــه فــي قيــادة الأســرة من غير حق، تتباعد عنه، لا تقوم بما كانت تقــوم بــه، هــي حالــة مؤذنــة بالانفصــال، وهي وضعية آثارها مدمرة على الأطفــال. وفــي هــذه الحالــة أرشــد القــرآن الــزوج ليقوم بعلاج الوضع الجديد، فذكر مــن الطــرق لتعــود الحيــاة الزوجيــة لســابق عهــدها من الوفاق، الوعظ والتذكير، والهجر فــي المضــاجع فــلا يكلمهــا ولا يلاعبهــا إذا مــا اختليا، الضرب التأديبي. ونؤكد علــى أن الإرشــاد هــو للعــلاج، أي دواء لحالــة غيــر سوية مرَضيّة، ومن شأن الدواء أن يقدر تناوله بمــا يترتــب عليــه مــن الإصــلاح، فــلا يعطى الدواء إلا إذا ظــن أنــه يفيــد المــريض، ويحــرم إذا كــان يتوقــع أن يضــاعف الضرر. فإذا كانت الزوجة من بيئة لا يضرب الرّجــل فيهــا زوجتــه بحــال، ولــو مــد يده إليها فهي القطيعة التي لا رجوع بعــدها فــإن الضــرب يكــون محرمــا، وكــذلك إذا كان الهجر يعرف الزوج أنه يضاعف نفرتها منه فلا يهجرها.

### 35- وإن خفتم شقاق...عليما خبيرا.

وإذا استمر الاضطراب الذي حدث في الأســرة وآذن الوضــع بالشــقاق، فإنــه حتــى لا يسرع الزوج إلى الطــلاق بمــا يتبعــه مــن تمزيــق للعائلــة، دعــا الله أقربــاء الــزوج وأقرباء الزوجة أن يتدخلوا فيكونوا منهما مجلســا عائليــا يبحــث فــي الإشــكال الحــادث والتعمق في البحث عن أسبابه ثم العمل علــى اجتثــاث الشــر الــذي ظهــرت بــوادره. يحضر ممثل لعائلة الزوجة من حكمائها، ويحضــر ممثــل محتــرم مــن عائلــة الــزوج أيضا يكون همهما الإصلاح وإزالة أســباب الخــلاف، ودعــوة المتجــاوز منهمــا إلــى الرّجوع إلى الطريق المستقيم، ويعدهما الله بالعون فــي مهمتهمــا إذا أخلصــا النيــة فــي التوفيق. والله علــيم بنيــة كــل فــرد منهمــا خبيــر بصــدقهما، لا يســتطيع أي منهمــا التلبيس أو المغالطة.

۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الجار الجنب:** الجار الذي لا تربطك به علاقة قرابة.

**الصاحب بالجنب:** المصاحب الملازم كالضيف والرّفيق في السفر.

**المختال:** المتكبر.

**أعتدنا:** هيأنا.

**القرين:** المصاحب.

**مثقال ذرة:** وزن بيضة النمل أو ما يتطاير من التراب بالنفخ، وهو تعبير عن التفاهة.

### بيان المعنى الإجمالي:

تذكير بالأساسيات التي تميز المسلم، وذلك بأداء ما أوجبه الله من العبادات على المؤمنين، وتنبيه للحذر من مزالق الشرك، فلا يشركوا بالله شيئا. وطلب الإحسان في المعاملة لأصناف ممن يتكون منهم المجتمع في الأسرة وفي الحياة بصفة عامة فنبه على تسعة أصناف: الوالدين فتتجاوز معاملتهم حد الحقوق إلى الإحسان، وكذلك القرابة فلا يتهاون المسلم بالإحسان إلى أقاربه، ويتصل هذا الإحسان بالنوعين الضعيفين في المجتمع اليتيم الفاقد لوليه الذي كان يعزه ويحميه، والفقير الذي وهنت الحاجة منزلته، وكذلك الجار الذي اجتمع فيه حق القرابة، والجار الذي لا تربطك به رابطة سوى الجوار، كذلك إلى من يصحبك ويلازمك في إقامتك أو في سفرك، والمسافر الذي ليس له رفيق ولا عصبة تحميه فكأنه لا سند له ولا يعرف إلا الطريق الذي يسير فيه، الأرقاء، العبيد الفاقدين للحرية.

وعرفت الآية في خاتمتها بالداء الذي يمنع من الإحسان وعاقبته، فذكرت أنه إذا توطنت جرثومة الكبر والترفع وحالت بين الإنسان وبين الإحسان، فجزاؤه إذن أن الله لا يسعفه بالعون ولا يرفعه إلى منزلة القرب منه ويبعده عن منازل كرامته. ثم انتقلت الآية محذرة المؤمنين من أخلاق المنافقين واليهود، الذين يشحون بما لديهم

من فضل مال، ويحرضون غيرهم على الشح، ويخفون ما رزقهم الله من أموال مظهرين الفقر والحاجة. وسفالة أخلاق هؤلاء لا يضيع جزاؤها فقد أعد الله لهم عذابا يهينهم. ومن المنافقين من يسبقون إلى التظاهر بالسخاء والبذل لا دفعا لحاجة ولا إغاثة لملهوف، ولكن ليظهروا بمظهر الأجواد الكرماء، وليرفعوا منزلتهم في المجتمع ويتحدث الناس بنبلهم وفضلهم، وذلك رشح كفرهم بالله واليوم الآخر فقصروا نظرهم على الحياة الدنيا، وما ذلك إلا لأن الشيطان صحبهم فأزاحهم عن صالح الأعمال التي تنفع المجتمع، وحصرهم في دائرة مصالحهم الخاصة وأخصها الخيلاء والكبر. ما أسوأ وضع من صحبه الشيطان واتبع ما يمليه عليه. ثم يتوجه القرآن بتوبيخ الفريقين الذين يبخلون والذين ينفقون رئاء الناس، يوبخ الفريق الأول بأنهم أغبياء، ظلام عقولهم حجب عنهم ما هو خير لهم. ذلك أنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأسرعوا إلى الإنفاق من المال الذي ما اكتسبوه إلا من فضل الله، لكان ذلك خيرا لهم في الحال والمآل.

ويوبخ الفريق الثاني بأن استيلاء حب المال عليهم، وما تولد عنه من شح مقيم، وعدم تحركهم للبذل ما كان إلا إيثارا للمحمدة من الناس دون أن يكون لهم حظ من الإيمان، كل ذلك لا يخفى على الله منه شيء، فيهددهم بأنه سيحاسبهم. وهو معنى(وكان الله بهم عليما). إن ما أعده سبحانه من العذاب المهين وما هدد به الذين يبخلون ويراؤون ويكفرون، هو الجزاء العدل فالله لا يظلم الناس ولا يتجاوز بالعذاب ما يستحقه العاصي عن معصيته ولو بجزء قليل تافه. على خلاف جزاء المحسنين فإن الله يضاعف جزاء الحسنات بفضله وبما صحب العمل الصالح من طيب النوايا وحسن القصد.

وينتهي هذا المقطع بعرض مشهد عجيب ، حقيق بأن يتعجب منه لأنه فوق ما يصوره الخيال، هو اليوم الذي تجمع فيه الخلائق، ويأمر الله أمره النافذ فيجيء عن كل أمة شهيد يشهد على من آمن ويشهد على من تولى وكفر، ويتقدم محمد ﷺ ليقدم شهادته على قومه الذين رفضوا دعوته واستحبوا الكفر على الإيمان. يصور القرآن بإشارة خاطفة هول هذا المشهد: أن الذين كفروا وعصوا رسول الله لما شاهدوا ما حصل للمشهود عليهم من الأمم السابقة يبلغ بهم الخوف مبلغه فيجري في نفوسهم الوجلة أماني: دخولهم في جوف الأرض حتى يستوون مع سطحها. وتبرز خاتمة الآية أنهم في هذا المشهد لا يستطيعون كتمان كفرهم ولا معاصيهم. لنطق جوارحهم بما قدموه.

**بيان المعنى العام:**

**36- واعبدوا الله... مختالا فخورا.**

هذا المقطع يعنى بتوجيه الإنسان إلى ما يحقق به سعادته في الدنيا والآخرة، فهو يربط بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في حياته وبين المصير المفصل للمؤمنين والكافرين.

موقع هذا المقطع مما سبق من الآيات أنه جرْيٌ على طريقة القرآن في عنايته بإصلاح الفرد والمجتمع إصلاحا يقوم على مواصلة التذكير بالثوابت وتكرار الوصاية بها حتى تكون حية في القلوب والعقول فاعلة لتتحقق الاستقامة على الطريق. فبعد أن فصلت سورة النساء كثيرا من الأحكام ، كانت العودة إلى الأصل الذي يستند إليه كل تشريع ويقوم عليه صلاح الدارين فأمرت الآية:

أولا: اعبدوا الله العبادة التي تظهر في أركان الإسلام العملية الأربعة، وفي ربط المؤمن كل عمل يعمله بالإخلاص لله فيه وقصد التقوي على طاعته. وقرن سبحانه الأمر بالطاعة بالنهي عن الإشراك به ولو شيئا يسيرا. وفي ذلك إيقاظ للضمير كي يكون مستحضرا دائما الإخلاص لله والاعتماد عليه وحده وهذا مما قد يغفل عنه المكلف.

ثانيا: الأصل الثاني: ما بنى عليه القرآن النظام الذي يمكن البشر من القيام بوظيفتهم في الكون الذي استخلفوا فيه. فابتدأ بالأسرة مؤكدا على أن تقوم العلاقة بين الذرية وبين الوالدين على الإحسان، المرتبة التي تسمو على أداء الواجب، يظهر ذلك في طاعتهما وطريقة الخطاب، وإكرامهما في حياتهما وبعد موتهما، وهذا من خلق الوفاء لمن تقدم منه الجميل. وكذلك العلاقة مع الأقارب فسرى الأمر بالإحسان إلى القرابة التي تتكون منها الأسرة على نفس النحو المأمور به في الوالدين مما يُمتّنُ بناءها، وذلك بالعناية بربط صلات المودة، وعون المحتاج، وإحياء الرّوابط بالتزاور والتكريم، والتواصل، وعدم إهمال جامعة النسب والصهر وخاصة في الأعياد والأفراح والنكبات.

ثالثا: رعاية المستضعفين في المجتمع، كالأيتام الذين فقدوا العائل والنصير مما يجعلهم يشعرون أن انتسابهم للإسلام يحميهم في بواكير صباهم ورابطة الإيمان تدفع عنهم الحاجة. وكذلك المساكين الذين عضهم الفقر. فالإحسان المأمور به في الآية يحصنهم من جرثومة الحسد ويرقى بإنسانيتهم إلى الشعور بالمساواة مع بقية أعضاء المجتمع.

رابعا: رابطة الجوار: لقد كانت عناية الإسلام بإحكام الصلة بين الجيران باعتبارها مقوما من مقومات البناء الاجتماعي القوي الصامد للمخاطر والهزات. والأحاديث الداعية لرعاية الجار والإحسان إليه كثيرة، وتنوعت فيها طرق تحسيس المسلمين بها، قال صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[1]

وقد يتأيد حق الجوار بوشائج أخرى كالدين والصلاح والاتحاد في المهنة ونحو ذلك، وأكد القرآن على اجتماع رابطة الجوار والقرابة، ورفع الوهم عن إهمال الجار الذي لا يصلك به إلا الجوار، فغير المسلم وغير الصالح والذي لا يساعدك في الملمات له عليك حق الجوار كما تدل عليه الآية ( الجار الجنب ).

ويدخل في هذه الوحدة رابطة الصحبة، فالذي تآلفت معه وأصبح ملازما لك وأنت ملازم له ( الصاحب بالجنب ) عليك بصفتك مسلما أن تحسن عشرته.

خامسا: نوعان من المجتمع قد لا يراعى جانبهم، أمر الإسلام بالإحسان إليهما إذ هما عنصران من المجتمع الإسلامي في حاجة إلى الاهتمام بهما وعونهما وهما:

1)العبيد الذين كان أهل الجاهلية ينظرون إليهم نظرة احتقار وإذلال تنزل بهم عن مرتبة البشر، فرفع القرآن من شأنهم وأدخلهم في المجتمع وفرض الإحسان إليهم.

2) المسافر المنفرد الذي ليس معه رفقة، وليس له في المحل الذي نزل فيه ولي ولا خليل فكأنه قد انبت عن الوجود ولم تبق له صلة إلا بالطريق الذي يسلكه، فعبر عنه بابن الطريق.

إن الذي استبد بأهل الجاهلية ففرطوا في الاعتناء بالأنواع المذكورة، هو تكبرهم وانتفاخهم بالفخر. وهدد القرآن المتكبرين في كل زمان ومكان بأن الله يهملهم ولا يعينهم ولا يقربهم منه ويحرمهم مما يتكرم به على عباده الصالحين. وهو معنى عدم حب الله لهم. فليحذر المؤمن من الكبر وما يجر إليه.

## 37- الذين يبخلون ويأمرون...عذابا مهينا.

إن تراخي الكافرين والمنافقين عن فعل ما يدمجهم في المجتمع كان بتأثير صفة محطمة للمروءة هي شحهم وبخلهم بما آتاهم الله من فضله، وتحريضهم على عدم القيام بواجب المواساة، وكتمانهم ما تفضل الله به عليهم كلما دعوا إلى السماحة،

---

[1] متفق عليه. فيض القدير ج5ص447

وذلك بإظهارهم الفقر كذبا. ويُعلِمُ الله أنه قد هيأ لهم عذابا يتجاوز الألم الحسي إلى الإذلال والمهانة.

## 38 - والذين ينفقون أموالهم...قرينا.

ويفضح القرآن قسما آخر لا يقل وضعهم فسادا عن إخوانهم الباخلين. وهم الذين ينفقون الأموال ليزدادوا تكبرا، همهم في لفت أنظار الرّعاع ليتحدثوا بوفرة أموالهم، قد أظلمت قلوبهم بفقدهم للإيمان بالله وبالجزاء الأخروي، ووجد الشيطان في أرواحهم الخاوية مسرحا ممتدا يجري فيه، ليمكن فيها الفساد الذي يقودهم إلى الشر ويحجزهم عن الخير.

## 39 -وماذا عليهم لو آمنوا...وكان الله بهم عليما.

ويتوجه القرآن بعد فضحهم إلى توبيخهم وإبراز ضعف عقولهم، وعماهم عما يفيدهم، فيقول: إن هؤلاء المنافقين والكفرة لا يخسرون شيئا ولا يتضررون لو أزاحوا عن عقولهم حجاب العناد والاستكبار، فآمنوا بالله وتيقنوا بأن الله سيبعثهم يوم القيامة وطاعت نفوسهم بالإحسان مما تحصلوا عليه من فضل الله، والله سبحانه عليم بما يجري في عقولهم وبما يختلج في قلوبهم، لا يغيب عنه شيء.

## 40- إن الله لا يظلم...أجرا عظيما.

بعد هذا التوبيخ وذلك التهديد، تصرح الآية بحقيقة مُعرّفة بتصرف الذات الإلهية في الكون. هذه الحقيقة مركبة من أمرين:

العدل المطلق الذي لا ظلم معه، والفضل مع الحكمة.

نفت الظلم عن الله نفيا عاما شاملا في عقاب العصاة لا يظلم أحدا ولا ينزل به عقوبة تتجاوز جرمه، وعبر عن العدل الإلهي الكامل النافي للظلم، بأنه لا يظلم وزن بيضة النمل ولا جزيئة من التراب تتطاير بمجرد النفخ عليها. وهذا تصوير في الوقت الذي ما كانت حساسية الموازين تستطيع ضبط ميزان الذرة مما يفيد نفي الظلم عنه سبحانه على أبلغ صورة.

وأما الفضل مع الحكمة، فسبحانه لا يجزي عن الحسنة بقدرها ولكن يضاعف ثوابها كما يقتضيه فضله، ويتفاوت الجزاء كما تقتضيه حكمته. ويبلغ هذا الفضل درجات تتجاوز ما يتصوره البشر، إذ وصفته الآية بأنه صادر منه وأنه عظيم.

## 41-42، فكيف اذا جئنا من كلّ أمّة .... و لا يكتمون الله حديثا

المشهد بهذا السؤال المثير، سؤال مثير للعجب والتساؤل كيف يكون حال البشر وقد صدر الأمر من الواحد الأحد بحضور شهيد من كل أمة يشهد عليها بما بلغه

لهم، ومواقفهم من دعوته، وينفرد من بين الشهداء محمد ﷺ فيختص بدعوته مفردا ويتشرف بالخطاب المباشر ( وجئنا بك) ليشهد على ما قابله به قومه ومقدار التزامهم بهدايته. فيصورهم المشهد وقد تضاءلوا حتى تنحصر رغبة الذين كفروا وعصوا الرسول في شيء واحد: أن تبتلعهم الأرض ويغرقوا فيها وتسوى بهم. وفي طرف المشهد إعلان أنهم سيفضحون أنفسهم بلسانهم ولا يستطيعون أن يكتموا معاصيهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الجنب:** الوضع الذي يكون عليه الإنسان مطالبا بالغسل لأداء الصلاة.

**عابر السبيل:** المسافر.

**جاء أحد منكم من الغائط:** أصل الغائط: المكان المنخفض، وقد كان العرب يقضون حاجتهم في مكان منخفض يسترهم عن الأعين. والمعنى بال أو تبرز.

**لامستم النساء:** اللمس يشمل اللمس باليد أو الجماع.

**صعيد:** كل ما علا وجه الأرض.

**طيب:** طاهر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نهت الآية المؤمنين عن أداء الصلاة في الحالة التي تكون عقولهم مختلطة بما شربوه من الخمر (سكارى) حتى تعود إليهم يقظتهم العقلية ، وذلك بأن يعلموا مفاهيم ما يقولون. ويتصل بهذا الوضع أن يكون المسلم جنبا حصل منه اتصال جنسي، أو خرج منه مني في اليقظة أو في النوم ذكرا كان أو أنثى، أو أتمت الأنثى أيام العادة الشهرية أو انتهى خروج الدم منها بعد النفاس. فيحرم على الجنب أن يصلي وهو على تلكم الحالة، وعليه أن يتطهر فيرفع الجنابة عنه بغسل كامل بدنه بالماء الطاهر. ويسر الله على الجنب الفاقد للماء أو الذي حيل بينه وبين الماء بأي سبب من الأسباب، أو المريض الذي يخشى من الاغتسال حدوث مرض أو زيادته، أو ضررا بالغا منه، أن يقصد إلى جزء من الأرض طاهر لم يتلوث بنجاسة فيلصق

كفيه به، ثم يمسح بهما وجهه ويديه. وبذلك يعتبـر طـاهرا تحـل لـه الصـلاة. وكـذلك من انتقض وضوءه أوكان على حالة مـن حـالات الجنـب وحضـر وقـت الصـلاة أن يتيمّم ويصلي. وختمت الآية بالتذكير بـأن الله غفـور للمـؤمنين فـلا يؤاخـذهم بالصـلاة بالتيمم بدون غسل، وبأنه رحيم بهم يصحب تكليفه لهم التيسير عليهم.

**بيان المعنى العام:**

**43- يا أيها الذين آمنوا...إن الله كان عفوّا غفورا.**

الصلاة أبلغ مظهر من مظاهر العبادة المأمور بهـا بصـفة عامـة فـي المقطـع السـابق، فجاء الأمر في هذه الآية أن يقيموها على أحسن الوجـوه وأتمهـا بـأن يكونـوا مـدركين تمام الإدراك لما يقولون، إذ بذلك تؤدي وظيفتهـا فـي ربـط المصـلي بربـه و تزكيـة نفسه وإعلاء مشاعره، فنهت هذه الآية المـؤمنين عـن الصـلاة إذا كانـت آثـار السـكر أفقدتهم التحكم العاقل فيما تنطق به ألسنتهم، ومن البديهي أن المنطق دليل العقل.

لقد تفنن الشعراء في التنويه بالخمر ومجالسـها، وسـجلوا مـا تحدثـه فـيهم مـن نشـوة تضاعف تأثرهم بمبـاهج الحيـاة، وترهـف إحساسـهم، وتبعـث فـيهم أريحيـة تـدفعهم للبذل، وانشراحا يتبعه إقبال علـى اللـذة والمجـون، وشـجاعة تـذهب بـالخوف ومـن ناحية أخرى ترفع برقع التردد والحياء. لقد تتـابع البشـر علـى شـرب الخمـر، وألفـوا مجالسها التي تجمع وجوه القـوم والظرفـاء، ويـأتون إليهـا بالقيـان وآلات اللهـو. ولـم يعرف أنه نهي عن شربها قبل الإسلام، فكانت فـي أول الإسـلام جاريـة علـى الإباحـة الأصلية. ولما كان الإسلام هو الدين الـذي خـتم الله بـه هداياتـه للعـالمين، وأنـه بلـغ بهم في التشريع والتنظيم أعلى الـدرجات، فإنـه تبعـا لـذلك اخـتص بتحـريم الخمـر. ونظرا لإلفهم شربها، وأنه لا ينظر إليها، في المجتمـع العربـي وفـي بقيـة المجتمعـات قبل التشـريع الإسـلامي، علـى أن شـربها منكـر أو لا يليـق، راعـى الإسـلام فـي تحريمها التدرج فلم يفطمهم عنها مرة واحدة، فقـرن فـي سـورة البقـرة بـين وصـفين فيها الإثم والمنافع **(يسـألونك عـن الخمـر والميسـر قـل فيهمـا إثـم كبيـر ومنـافع للناس)**[1] وقد بينا وجه القرن بينهمـا فـي تفسـير هـذه الآيـة فـي سـورة البقـرة، وأن تحريمها من الآية هو الظاهر. ولكن لم ينتـه عـن شـربها كـل المـؤمنين بعـد نـزول هذه الآية وقال بعضهم:نشربها لما فيها من منـافع. ونزلـت هـذه الآيـة تحـرم علـيهم قربان الصلاة وهم سكارى. وهو تعبير بليغ في إفـادة المنـع مـن الصـلاة فـي حالـة السكر، لأنه إذ منع من قربانها فـي حالـة السـكر، فمـع إقامـة الصـلاة فعـلا يكـون

---

[1] سورة البقرة219

التحريم أولى، وجعل لذلك حدا وهو أن تنتهي آثار السكر ويعلموا ما يقولون. ومعلوم أن الصحابة كانوا أحرص ما يكون على إقامة الصلوات في أوقاتها، فتحريم قربان الصلاة يضيق عليهم من وقت شربها. ومن هنا بدأ التنفير منها والنظر إليها نظرا يختلف عن نظرهم السابق. إذ أصبحت حالة دنيئة تنافي شرف الصلاة. وتهيأت العقول والمشاعر لقبول الإقلاع عنها بتحريمها. وقرنت الآية حكم تحريم قربان الصلاة مع السكر المنافي لمقام التوجه إلى الله الذي يتحتم أن يكون العابد فيه على وضع سام عبر عنه الشيخ عبد الله ابن أبي زيد رحمه الله بقوله: والمصلي يناجي ربه، فأي مقام يرقى فيه المؤمن لهذه المرتبة التي يكون فيها بحال قرب ومناجاة لربه اقرنت الآية ذلك بحرمة الصلاة عندما يكون المسلم جنبا، والجنب هو الوضع الذي يكون عليه عقب الاتصال الجنسي، أو خروج المني منه ذكرا كان أو أنثى يقظة أو مناما، أو عند انتهاء دم الحيض (العادة الشهرية) أو عند انتهاء دم النفاس. ففي هذه الحالات يجب على الجنب أن يتطهر بغسل كامل بدنه بالماء. وقد فصل الفقهاء بناء على السنة طريقة الغسل وأحكامه.

ولما كانت الصلاة على المؤمنين فرضا حتميا خمس مرات في اليوم، وتعرُضُ حالة الجنابة للإنسان بداعي غريزة الجنس القوية، أو تبعا لطبيعة الخلقة، وقد يكون الجنب غير قادر على الغسل ، كحالة المسافر أو المقيم الذي لا يجد من الماء ما يكفيه، وكالمريض الذي يخشى من غسل كامل بدنه تضاعف مرضه وتعرضه للخطر، أو تأخر برئه، وكذلك حالة العاجز عن بلوغ الماء لفقده أو للحيلولة بينه وبينه كحالة الخوف. ففي هذه الأحوال يسر الله على المؤمنين، وراعى ظروفهم فرخص في تعويض الغسل وأسرهم بالتيمم وذلك بأن يقصدوا إلى جزء من الأرض(وهو الصعيد) طاهر لم يتلوث بنجاسة (وهو الطيب) فيمسح بيديه بعد لصقهما بالصعيد وجهه ويديه. وليستحضر المؤمن في تلكم الحالات أن الله تفضل فعفا عن المسلمين في الأحوال التي بيناها، وذلك لرحمته التي صاحبت التكليف. إن الله كان عفوا غفورا.

وكما رخص للجنب في التيمم فكذلك رخص لمن انتقض وضوءه بسبب من أسباب الجنابة، أو لكونه قضى الحاجة البشرية ( أو جاء أحد منكم من الغائط ) أو لمس بلذة امرأته، أن يتيمم ويقوم بأداء ما فرض عليه من الصلاة.

والأصل في عبادة التيمم أن شأنها كشأن العبادات في ضبط طرائقها ومقاديرها وأوقاتها لأنها تعبدية، القيمة الكبرى فيها أن القائم بها يستحضر أنه عبد لله أمره فأطاع. ولكن لا يمنع ذلك من الاجتهاد والبحث عن حكمة لا نجزم بأنها مراد الله،

ولكن على معنى أنه يمكن أن تكون مقصودة بالتشــريع. فــأقول: إن كــل إنســان خلــق من ماء ، فإذا أراد القيام للصلاة وتوضأ نشط من ناحيــة، وتــذكر أن أصــل خلقتــه مــن ماء وتتابع الفضل الإلهي عليه فرعاه ووفقه حتــى أقبــل علــى العبــادة، وبجــنس المــاء الذي خلق منه يستعد للصلاة ويرجع إلى خالقــه عابــدا مناجيــا. ومــن ناحيــة أخــرى فإن أصل الخلق البعيد هــو التــراب. قــال تعــالى (والله خلقكــم مــن تــراب)[1] وتكــرر التنصيص على أن أصل الإنسان التراب ست مرات فــي القــرآن فــإذا عــدم المصــلي الماء الذي هو أصل خلقه القريب، فيعود إلى الأصــل البعيــد ويستحضــر بالقصــد إلــى التراب أصل خلقه ونعم الله عليه وأنه أهــل التقــوى وأهــل المغفــرة حقيــق بــأن يعبــد بإخلاص. فبهذا الملحظ يكون المكلــف قــد اســتعد للصــلاة اســتعدادا روحيــا صــالحا. روى جابر رضي الله عنه أن رســول الله ﷺ وســلم قــال: جعلــت لــي الأرض مســجدا وطهورا فأي رجل من أمتي أدركته الصــلاة فليصــل[2]. وتناولــت الآيــة حكــم الجنــب إذا أراد الصلاة: أنه مأمور بالاغتسال ورخص للمسافر فــي التــيمم وأدمــج فــي الآيــة الترخيص في التيمم بدل الوضوء. و كلّ ذلك عند العجز عن استعمال الماء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يحرفون الكلم:** يميلون عن الدلالة الواضحة إلى التأويل الباطل.

**غير مسمع:** غير مأمور بأن تسمع.

**اللي:** الانثناء، يثنون ألسنتهم عند النطق بالكلمة لتكــون غيــر واضــحة وتحــتمل غيــر الوجه الظاهر.

[1] سورة فاطر اية 11

[2] فيض القدير ج 1 ص576 ح 1174

## بيان المعنى الإجمالي:

تعجب من حالة قوم من اليهود أخذوا نصيبا من التــوراة، ولــم ينتفعــوا بمــا أوتــوه، إذ عملوا على تحريفه وتحويل معانيه إلى ما ينسجم مــع أهــوائهم فقــد اختــاروا الضــلالة على الهدى، خبثت نفوسهم فهــم يــودون أن تضــلوا مثــل ضــلالهم فــلا تســيروا فــي طريق الإيمان وما يتبعه. والله عليم بأعــدائكم ومــا يكنونــه لكــم. ويكفــيكم فــي رد مــا يدبرونه عون الله ورعايته لكم، فهو ولــيكم وهــو نصــير لكــم. ويشــهر بفريــق مــنهم كانوا يحضرون مجالس الرّسول ﷺ فعندما يتلو عليهم مــا أوحــى الله بــه إليــه يقولــون: سمعناك وعصيناك. واسمع منا، يلحقون بهــا (غيــر مســمع) علــى أن ظــاهر كلامهــم أنه غير مأمور وباطن كلامهم: الدعاء عليه بالصــمم. ويتوجهــون إليــه بــالقول (راعنــا) على أنهم يقصدون: ترفق بنا ولا تعجــل. وبــاطنهم ســب: يــا أرعــن أي يــا أهــوج. ويهدفون من تحايلهم في التعبير إلى الطعن في صلة الرّســول ﷺ بــالله، علــى أنــه لــو كان رسولا لأخبره ربه بما قصدوه. وقد كشف الله خبث نفوسهم لرسوله.

ويسجل القرآن عليهم أنهم اختاروا لأنفســهم طريــق الضــلال، فلــو اســتجابوا للرســول وقالوا ما يجب أن يقال مما يناسب حــرص الرّســول علــى هــدايتهم: ســمعنا وأطعنــا، واسمع منا، وانظرنا لنفهم ما تقصد إليه، لكانت استجابتهم للحــق خيــرا لهــم فــي الــدنيا فلا يكونون منبوذين غير مطمئن لهــم، ولكــانوا تبعــا لــذلك علــى ســداد فــي المنطــق والتفكير ولكن حلت عليهم اللعنة فلا ينفذ الإيمان إلى قلوبهم.

## بيان المعنى العام:

### 44-ألم تر إلى الذين...أن تضلوا السبيل.

تكررت هذه الصيغة ( ألم تر) خمس مــرات فــي ســورة النســاء ووردت فــي غيرهــا دون أن تبلغ هذا العدد. وهي تفيد التعجب مــن أمــر حصــل علــى أن جميــع الظــروف والمعطيات تقتضي عدم حصــوله. وكلهــا مرتبطــة بيهــود المدينــة. تتضــمن هــذه الآية أن فريقا منهم قد أوتوا نصيبا من التــوراة التــي كــان مــن المفــروض أن تهــديهم وتعمق إيمانهم وتزيدهم ارتباطا بالفضيلة والاســتقامة، ولكــنهم علــى العكــس مــن ذلــك اختاروا طريق الضلالة والشر. وهذا مــا دعــت الآيــة إلــى التعجــب منــه. لقــد كــان ترجيحهم للضلالة على الهدى واضحا سجله القــرآن بقولــه (ألــم تــر) بــدل ألــم تعلــم، لأن ضلالهم كان من الظهور حتى كأنه يرى بالعين. ثــم إنهــم أضــافوا لفســادهم الــذاتي الباطني والعملي، أنهم يودون لو يــؤثرون فــيكم فيصــدونكم عــن الإيمــان ويحولــونكم إلى مسايرتهم في ضلالهم، والابتعاد عن الطريق المســتقيم الــذي هــديتم إليــه. إن هــذه

الضغينة التي هيمنت هي أمر له خطره، وذلك بما كان لهم من قوة مالية وتضامن بين قبائل يهود في المدينة.

طمأن القرآن المؤمنين بأن الله وليهم وناصرهم، والله عليم بما يغلي في قلوب أعدائكم ، فلا تخشوهم، يكفيكم الاعتماد عليه فهو سبحانه سيفسد عليهم مخططاتهم في إغوائكم، وسينصركم فيحبط مكائدهم.

## 45-46، والله أعلم بأعدائكم...نصيرا.

تفصل الآية التالية بعض وجوه مكر يهود الذين بلغت بهم الجراءة إلى صرف التوراة، التي أنزلت هدى ونور، عن تحقيق غايتها، وإلى الوقاحة مع رسول الله ﷺ، والتحايل على إخفاء ذلك، ففضحهم القرآن: كانوا يؤولون كتابهم تأويلات بعيدة عن سياق النص، غريبة عما يتبادر منه فيحملونها معاني تشهد لانحرافهم وتبرر ما أخذوا أنفسهم به. كما كانوا يبدلون بعض نصوص التوراة ويميلون بها إلى ما يثوه في أتباعهم من ضلالات.

بلغ بهم العناد أن النبي ﷺ عندما كان يبلغهم الوحي المنزل عليه حرصا على هدايتهم، يجيبونه بكل صفاقة: سمعنا كلامك وعصيناك. فسجل القرآن عليهم وقاحتهم. كانوا يعقبون على رفضهم السابق، بطلبهم من رسول الله ﷺ أن يسمعهم، فيخاطبونه بقولهم: اسمع غير مسمع. إن هذه العبارة لها ظاهر فيه أدب، وباطن مقصود به الإذاية. فظاهرها أنهم قالوا لرسول الله: اسمع منا ما نقوله لك، وأنهم تأدبوا بقرن الأمر بالسماع بالاحتراس بأنهم لا يقصدون الأمر (غير مأمور بالسماع) وباطنها قصد الدعاء عليه أن يصيبه الصمم ولا يسمع. وبهذا يكونون قد جمعوا بين متناقضين: أدب، وإذاية. فإذا كانوا في مجمع المؤمنين يكونون قد حصنوا أنفسهم من رد فعل صحابته رضوان الله عليهم، الذين كانوا يفدونه بأنفسهم، وإذا انقلبوا إلى أتباعهم عرفوهم بقصدهم الخبيث.

أضافوا لما تقدم مواجهتهم لرسول الله ﷺ بقولهم: راعنا – مما ظاهره، تلطّفْ بنا ولا تعجل علينا في عرضك ما تقول، ولكنهم يقصدون سبه بأنه (راعن ) أي أهوج في منطقه. ويلوون ألسنتهم بها يقصدون سبه بالعبرية (راعون) يقول الشيخ أبو محمد عبد الحق ابن عطية : وهذا اللي باللسان من اليهود، إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن (أي في النصف الأول من القرن السادس الهجري) في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها في هذا الكتاب[1].

---

[1] المحرر الوجيز ج4 ص89

وما يزالون على هذه الطريقة القبيحة حتى يومنا هذا في القرن الخامس عشر. كانوا يسرون إلى أتباعهم بمقاصدهم الخبيثة ويقولون لهم: لو كان محمد نبيا لأعلمه ربه بمطاعننا. وهو معنى قوله تعالى: وطعنا في الدين.

يعقب الله على ما صدر من يهود، بتجديد دعوتهم إلى ترك التعصب ضد الإسلام فيعرض عليهم ما يحولهم عن المنهج الذي يسيرون عليه من إضمار العداء وقلب الكلام وتحريفه والسفالة في التعامل، يحولهم إلى ما هو خير لهم في الحاضر والمآل. فإنهم لو اتخذوا موقفا مغايرا فقالوا: سمعنا وأطعنا، لكان ذلك خيرا لهم، وأبعد عن الالتواء، مُبينا عن استقامة في التفكير وسداد في الموقف. ولكن قد حلت عليهم اللعنة التي أقصتهم عن رحمة الله، فلا ينفذ الحق المنجي إلى قلوبهم، وبذلك هم أبعد ما يكون عن الإيمان. فمعنى( فلا يؤمنون إلا قليلا ): أن قلوبهم قد أقفلت فلا ينفذ إليها نور الهداية، والقليل الذي اهتدى من يهود ودخل في الإسلام يؤكد الطبع على أرواح عامتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**نطمس:** من الطمس وهو إذهابه عن صورته.

**أمر الله مفعولا:** ما يريد فعله، وقضاه نافذ.

**افترى:** كذب كذبا لا شبهة له فيه.

**يزكون:** أصل التزكية التطهير والتبرئة من الذنوب.

**فتيل:** الفتيل شبه الخيط في شق النواة يضرب مثلا للشيء التافه جدا.

**بيان المعنى الاجمالي:**

يدعو الله اليهود أهل الكتاب أن يسارعوا إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، لأنه منزل من عند الله ويصدق ما جاء في التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها. ويهددهم بأنهم إن لم يفعلوا فسيختم على عقولهم فلا يدخل إليها أنوار الحق،

وينقلبون بذلك إلى حالة الضلالة التي كانوا عليها قبل أن يَنـزل عليهم التوراة، أو أن تحل عليهم اللعنة كما حلت على العصاة من أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وما قدره الله نافذ لا مرد له. ومما يحث على ذلك أن الله لا يغفر لمن قطع صلته بالله وأنكر وجوده أو وحدانيته، وهو بواسع رحمته يغفر ما دون الشرك للمؤمنين الذي كان إيمانهم بالله ورسوله لا يدخله ريب ولا شك، ولكنهم لم يلتزموا تطبيق شرعه دائما، فاقترفوا الذنوب ولم يتوبوا عما اقترفوه حتى ماتوا. والفرق بين المؤمنين وبين العصاة وبين المشركين واضح لأن الشرك كذب عظيم خطره، جزاؤه الخلود في النار.

ويثير القرآن العجب من اليهود الذين يغالطون الناس بالثناء على أنفسهم وعلى بعضهم بعضا، ليركزوا في نفوس العامة الثقة بهم، ويخدعوهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يعذبهم، وأنه تخيرهم على البشر. وكل ذلك كذب وافتراء. فالشهادة بالصلاح هي ممن يعلم بواطن البشر وحقائقهم ولا يعلم ذلك إلا الله فهو الحقيق بتزكية من يشاء، ولا يظلم هؤلاء الذين زكاهم، ولا يغفل أي عمل صالح من أعمالهم ولو كان قليلا تافها. ليتأمل كل ناظر في كذب يهود المفضوح على الله، وهو ما يقوم وحده شاهدا باستيلاء الإثم عليهم على أوضح ما يكون.

**بيان المعنى العام:**

## 47- يا أيها الذين أوتوا الكتاب... مفعولا.

عرفهم القرآن في الآية السابقة بالطريق المنجي لهم عندما يستمعون لدعاء الرسول لهم. وعمق تلكم الدعوة بندائهم بالوصف المقتضي ترك العناد( يا أيها الذين أوتوا الكتاب) فأمرهم بأن يؤمنوا بما جاءهم به محمد ﷺ، المتضمن ما يوجب عليهم اتباعه، لأنه منزل من عند الله، ولأنه لا يختلف في أصوله عن التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها، فهو يصدقها ويؤكدها في أصول العقيدة. وهددهم بأنهم إذا لم يسارعوا بالاستجابة فإنه سيطمس على وجوههم ويردها على أدبارها. بمعنى أنه سيختم على عقولهم فلا ينفذ إليها شيء من أنوار الحق، وأنهم سينقلبون بذلك إلى الضلالة التي أخرجتهم التوراة منها والظلام الذي أطبق على الكافرين فبقوا متخلفين. ويمكن أن يكون الطمس المهدد به عذاب مادي بإزالة حواسهم من وجوههم وتحولها إلى الخلف. والمعنى الأول أولى. أو أن يسلط عليهم عذابا كعذاب أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وقد تبينت قصتهم في سورة البقرة آية 63، وكل ما قدره الله وأراد تحقيقه نافذ لا راد لما قضى به في الحال

والاستقبال. وحفزهم ليؤمنوا بأن من لم يشــرك هــو علــى رجــاء مــن مغفــرة ذنوبــه. فدخولهم في الإسلام سيجعلهم على طمع من الفوز.

## 48-إن الله لا يغفر... إثما عظيما.

آية: إن الله لا يغفر أن يشرك بــه... . تعتبــر محــورا قامــت عليــه المناقشــات بــين الطوائف الإسلامية فلنتتبع أولا ما يفهم من ظاهرها.

إن الله لا يغفر أن يتعدى الإنسان فيظلم الظلــم الأعظــم علــى الإطــلاق، ويشــرك بــالله إشراكا يعطي به الخصائص الإلهية لغيــره ســبحانه. فــإذا فســدت العقيــدة إلــى هــذه الدرجة فمعنى ذلك أنه أخرج تعقل العالم والنظــام الكلــي لــه إلــى الفوضــى والفســاد. والشرك يتبعه فساد العمل والأخــلاق، ويقعــد بالإنســان عــن القيــام بــدوره التعميــري الذي استخلفه الله به في هذا الكون. وأنه سبحانه ســيغفر مــا دون الشــرك مــن الــذنوب لمن يشاء من عباده. كيف فهمَ المسلمون هذه الآية ؟

أولا: إن الشرك بصورتيه:

1) الكفر بالله: بنفي الألوهية وليس للعــالم خــالق يتصــرف فيــه. ومــن هــؤلاء الــذين يدعون أن الطبيعة وحدها هي التــي تســير الكــون حســب قــوانين ذاتيــة مثبتــة فيهــا

2)الإيمان بأن لله شركاء، يتصرف كــل واحــد مــنهم فــي قــوة وناحيــة مــن نــواحي الكون.

إن المشرك لا يغفر الله له ذنبه العظيم هذا (الشرك) ولا بــد أن ينــال جــزاء كفــره ممــا أوعد الله به في كتابه، تحقيقا لما تواتر في القرآن والســنة تــواترا بلــغ درجــة اليقــين أن الله سيعذبهم على كفرهم. وهم خالدون فــي العــذاب لا يخفــف عــنهم ولا يجــدون وليــا ولا نصيرا.

ثانيا: من آمن بالله ولــم يــؤمن بمحمــد ﷺ وكفــر برســالته. وهــذا القســم هــو كــافر تضافرت الأدلة على أنه لاحقٌ بالقسم السابق، غير داخــل فــي قولــه تعــالى(ويغفــر مــا دون ذلك لمن يشاء) لأن الله أخبر في قرآنه أن كل مــن رفــض الإيمــان بســيدنا محمــد يحبط ما عمل من خير، ويخلد في العذاب.

ثالثا: المؤمنون الذين لم يرتكبــوا إثمــا، وكانــت رقــابتهم لــربهم تصــحبهم فــي جميــع ظروف حياتهم، فصفت أرواحهم وصلحت أعمــالهم. هــم أوليــاء الله المتقــون الــذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنــون. وهــؤلاء مصــيرهم جنــات النعــيم بإجمــاع المســلمين. ويلتحق بهذا القسم من أذنب ثم استيقظ من غفلتــه وتــاب. وقــد قامــت الأدلــة المتــواترة من الكتاب والسنة على أن مصيرهم إلى رضــوان الله وجنــات النعــيم. وأجمعــت جميــع الفرق والطوائف على أن الله محقق ما وعدهم به.

رابعا: من آمن بمحمد وارتكب المعاصي ولم يتب من ذنوبه حتى أدركته منيته. وهذا القسم قد اختلفت طوائف المسلمين في مصيره يوم القيامة: ذهب جمهور علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة، إلى أن مصير هؤلاء بين أن يسعدوا بفضل الله عليهم، فيمحو ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم الجنة بمشيئته التي وقع التنصيص عليها في هذه الآية ( ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وبين أن يدخلهم تحت قسطاس عدله، فيعذبوا بمقدار ما عصوا عذابا يطهرهم من لوث الخطيئة، وأوضار الخطايا، وجرائم الإثم، ثم يدخلهم ربهم الجنة. على معنى أن من آمن بالله وبرسوله وبما جاء به من الحق ولم يلتزم العمل بأحكام الإسلام في حياته، ولم يتب من آثامه إلى أن مات، فإنه لا يخلد في النار تحقيقا لما قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة ومن ذلك هذه الآية.

وذهبت المعتزلة إلى أن فاعل الكبيرة لابد أن يعذب، وهو خالد في النار، وأن هذا هو ما يقتضيه العدل الإلهي. وأولوا: (و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) لمن يشاء التوبة أي يتوب من ذنوبه، ومن لم يتب لا يغفر له. وذلك لأنه في منزلة بين منزلة الكفر والإيمان.

ومذهب الخوارج أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب من ذنبه قبل الموت كافر، وأنه مخلد في النار. ومذهب الأباضية منهم أنه كافر كفر نعمة. وقالت المرجئة من آمن بالله وبرسالة محمد وبالشريعة التي بلغها، فإنه لا يضره ما ارتكب من معاص، وذنوبه مغفورة كلها، وهو من أهل الجنة قطعا. وقد أخذ الجدال والاحتجاج أوقاتا كبيرة وجهودا فكرية عظيمة، وقارن ذلك في بعض الفترات تدخل السلطة ناصرة مذهبا من المذاهب منكلة بمن خالف ما اختارته.

واعتمد الخوارج على القوة وقتل من خالفهم، فسالت أنهار من دماء المسلمين، وقطعت الطرق، وكثرت الفتن وبلغ التنكيل بمن خالفهم حدودا مرعبة.

وتختم الآية ببيان فظاعة الإشراك بالله وأن المشرك يكون بإعلانه عن الشرك قد كذب كذبا لا شبهة له فيه، هو معرض عن الدلائل والشواهد المنتشرة في صفحات الكون المنادية بعظيم القدرة وكمال التدبير.

وبالتالي هو مستحق لأن ينفذ فيه الوعيد، ولا مطمع له في العفو الإلهي، إذ قطعوا ما بينهم وبين خالقهم فحرموا، عدلا منه وإنصافا، رحمته الواسعة وحجبوا دونها بحجاب الإشراك الصفيق

### 49-ألم تر إلى الذين يزكون...ولا يظلمون فتيلا.

ويحرك القرآن العجب من الذين يعملون علــى مغالطــة النــاس بــإعلانهم عــن تقــواهم واستقامتهم وانصياعهم للحق، وبأن الله قد تخيرهم علــى ســائر البشــر لأنهــم مــن نســل إسرائيل، وأنهم أحباء الله وأولياؤه، ويسردون ذلك ويعيدونــه ليثبتــوه فــي الفكــر العــام، ويفوزوا بالتقدير وما يتبعه من حظوظ دنيويــة. إن ثنــاءهم علــى أنفســهم ليخــدعوا بــه أتباعهم والسذج مــن معاصــريهم، أمــر مثيــر للعجــب لأنهــم مــدركون أن كــل مــا يروجونه مفتريات، وأنهم يتكلمون بادعاءات باطلة لا ســند لهــا ولا أثــر حقيقــي لهــا. إن الشهادة بالصلاح والخير التي تترتب عليها آثارهــا الشــهادة التــي يزكــي بهــا مــن يشاء تزكيته وهم الصالحون من عباده الذين يخشــون ربهــم فــلا يفتــرون عليــه الــذين يجازيهم فلا يظلمهم ولو شيئا تافها مما قدموه.

## 50-انظر كيف...إثما مبينا.

يأمر الله كل ناظر والرّسول صلى الله عليــه وســلم أول مــن يتوجــه لــه بالخطــاب، أن يتأمل في رقاعة هؤلاء اليهــود الــذي يتجــرؤون فيكــذبون علــى الله ويزعمــون أنهــم أشد قربا وأعظم مكانة عند ه ، وأنــه لا يعــذبهم لقــرابتهم منــه. سلســلة مــن الأكاذيــب يفترونها على الله، بلغت من الشناعة أنه لا منزلة في الفساد والإثم أوضح منها.

إن حال كثير من المسلمين اليوم لا يختلف عــن حــال يهــود الــذين شــنع بهــم القــرآن ليحذرنا مسلكهم، وبالتالي عاقبة أمرهم عند الله. إنهــم يزكــون أنفســهم بمــا تفضــل بــه على أسلافهم الذين اختارهم على العالمين وأفاض عليهم مــن التأييــد مــا أفــاض مما جعل هؤلاء الأخلاف يظنــون أن تلــك الكرامــات منســحبة علــيهم بمجــرد الانتســاب. والله خلق الخلق وكلهم عبيده يتفاضــلون بأعمــالهم وصــلاحهم واســتقامتهم لا بأنســابهم ومكانة أصولهم وخيريتهم وخشيتهم من ربهم. واليــوم يعلــن كثيــر مــن المســلمين أنــا خير أمة أخرجت للناس، ويتساءلون لمــاذا لــم يحقــق الله لنــا وعــده؟ إن الله لا يخلــف الميعاد (ليَنصرن الله من ينصره) نحن خير أمة أخرجــت للنــاس إذا أقمنــا حياتنــا علــى الفضيلة والخير وعلى الأصول التي أجــرى عليهــا ســنن الحيــاة، وقلعنــا كــل نابتــة ضارة من المجتمع، وكنا حازمين في هذا كمــا يقتضــيه مــا أتبعــت بــه آيــة الخيريــة (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنــون بــالله). فبمــاذا يشــهد واقعنــا؟ إننــا نؤدي أسوأ شهادة ضد الإسلام منفرة منا ومــن ديننــا ، محبطــة لأعمالنــا، تجــذبنا إلــى التفرق والتخلف. وإلى الله المشتكى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الجبت:** لا وجود لهذه المادة ج ب ت – في العربية. وقد يكون المراد بها الشيطان والسحر وما عبد من دون الله.

**الطاغوت:** كل ما عبد من دون الله.

**صد:** أعرض.

**سعيرا:** تلهبا وكناية عن العذاب بالاحتراق.

**يصلون نارا:** التصلية شيّ الجسم على النار.

**الظل الظليل:** الظل البالغ غاية ما يمكن أن يتصور عليه الظل.

**بيان المعنى الإجمالي:**

إثارة لعجب رسول الله ولكل من يتدبر الآية، تعجب من اليهود الذين مكنهم الله من بعض التوراة فخالفوا أصرح ما جاء به كتابهم: توحيد الله، وآمنوا بالضلالات المختلفة من السحر والأصنام، وأضافوا إلى ذلك تضليلهم لمن سألهم عن طريق الشرك وطريق الإسلام فقالوا: إن الشرك أهدى سبيلا من دين محمد. إن ما صدر منهم يكشف عن نفاذ لعنة الله عليهم فلا يجدون نصيرا يأخذ على اندفاعاتهم ليردهم إلى سبيل الحق كما لا يجدون النصير في ساعات العسر والأزمات.

لقد طبع اليهود على الحسد والشح، فمن شحهم أنهم لا يعرفون السماحة، فلو أنهم أوتوا نصيبا من ملك الله الواسع في هذه الأرض فإنهم لا يؤتون الناس ولو جزءا تافها من الملك العريض غير المحدود. بل إنهم لفساد طويتهم يحسدون محمدا والمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله يحزنهم أن يتفضل الله على غيرهم، مع أن

كتابهم والواقع يشهد أن الله لم يختص بفضله جنسا ولا أمة من عباده فقد آتى الله آل إبراهيم الكتاب وبعث منهم مرسلين ومكن بعضهم من ملك عظيم. ثم إن بعضا من أهل الكتاب قد فتح الله على بصيرته فآمن بمحمد ومنهم من أعرض عنه وعاند بعد أن تبين له الحق، وهؤلاء يكفيهم في مقابلة فسادهم جهنم تستعر. وفصل عذابها بأن الله سيشويهم بنار جهنم كلما احترقت جلودهم أبدلهم الله جلودا غيرها ليكون عذابهم ملازما لا يتعطل، والله لا يغلبه أمر، حكيم لا يعظم عليه إبدال الجلود. وإمعانا في النكاية بالذين كفروا بالآيات الواضحة يعرض القرآن تفصيل ما أعد لمن آمن وعمل صالحا فقد أعد الله لهم جنات تتخللها الأنهار الجارية، أمنوا بقاءهم في النعيم إلى أبد الآبدين، تكمل كرامتهم بأزواج مطهرة من كل نقص، وهم في ظلال من الجنة لا يصحبها ظلمة ولا تقطع.

### بيان المعنى العام:

### 51-52: ألم تر إلى الذين... فلن تجد له نصيرا.

ذكرت الآية السابقة أن اليهود يثنون على أنفسهم ليخدعوا الناس، فسجلت هذه الآية معلنة بعض مخازيهم وكذبهم ومناقضة أفعالهم لأقوالهم . ففضحتهم بأنهم يدعون التمسك بالتوراة التي من أبلغ ما اهتمت به تركيز التوحيد ونفي الشركاء من ناحية، وسجلت عليهم من ناحية أخرى أنهم يؤيدون عبدة الأصنام تثبيتا لهم وطعنا في الإسلام دين التوحيد.

ترتبط هذه الآية بما دبره يهود المدينة بعد ما تمّ في غزوة أحد، وطمعوا في الإجهاز على الإسلام ، فبعثوا وفدا منهم لأهل مكة، يُغْرُون المشركين بمحمد وجماعته ليتم القضاء عليهم. جمع الوفد بعضا من علمائهم ومن المقدمين فيهم ليزينوا للمشركين حرب المسلمين بعد انكسارهم في أحد. وحرضوهم على غزو المسلمين في المدينة وقدموا لهم أنهم سيكونون معهم يدا واحدة للقضاء على الإسلام. فقال لهم المشركون:إنكم أنتم أهل كتاب، ولعلكم ستكونون إذا جد الجد أدنى لمحمد منا، فكان جواب يهود:أن ما عليه المشركون هو أرضى عند الله من دين الإسلام، فقالوا لهم:اسجدوا لآلهتنا إن كنتم صادقين، فسجدوا. فأنزل الله على رسوله ما فضحهم وسجل عليهم أنهم آمنوا بالجبت والطاغوت والجبت كلمة دخيلة من لغة الحبشة مادة ( ج ب ت) مهملة لم يرد لها ذكر في معاجم اللغة العربية واختلف في المراد منها على التدقيق، وكل التوجيهات لا تخرج عن التمسك والإيمان بباطل لا أصل له. وفي مفاتيح الغيب: وبالجملة فإن الأقاويل كثيرة وهما(الجبت والطاغوت) كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية في الشر

والفساد (ج 9 ص129) وقالوا للمشركين: أنتم بما حافظتم عليه من القيام على بيت الله الحرام أهدى طريقا من المسلمين. وما صدر منهم هو نتيجة حتمية لما تم من لعن الله لهم، فإن من يلعنه الله يفقد النصير الذي يأخذ على اندفاعاته ويهديه إلى الحق، كما يفقد النصير في ساعات الحرج والعسر.

## 53-54، أم لهم نصيب من الملك... ملكا عظيما.

طبع اليهود على الشح وعلى الأثرة، يسوؤهم ما ينعم به غيرهم وإن كان لا يمنعهم ما قدره الله لهم. فضح الله ما تكنه نفوسهم المريضة ووبخهم فقال: مالهم يضطرمون غيظا على ما تفضل به رب العزة على محمد وأمته ؟ إنه لو كان لهم حظ من ملك الدنيا الواسع لبخلوا، ولا يصل إلى أي إنسان منهم ولو شيء تافه لقوة بخلهم. يشهد لذلك، ما جرى عليه يهود في تاريخهم القريب والبعيد، من ترتيب مكر شديد، يمكنهم من امتصاص أموال العاملين الكادحين وخيراتهم وأملاكهم. وخير مثال على ذلك قيامهم على التعامل الربوي الذي جعلهم يستأثرون بنتائج ما يبذله البشر من جهود لإنماء الثروة التي فتحوا أفواههم لابتلاعها وخزائنهم للاستحواذ عليها. إنه إذا أدرك الكادح حظه العاثر، فما قنّنوه، وهو مصداق هذه الآية لا يرحم معسرا بل يسحقه سحقا. إن من المبادئ التي تبرز خبثهم: أن المدين عندما يدفع قسطا من الدين، يعتبر ذلك القسط هو ما هو مدين به من الرّبا، فإذا تم استخلاص جميع ما وظف من الرّبا ينقص من دينه بمقدار ما يدفع إذن.

إنهم يحسدون محمدا على ما آتاه الله من فضله من الوحي، ومن حب أمته له، ومن انتصاراته، ومن الكمالات التي جمعها الله فيه كما يحسدون أمته على الهداية التي مكنهم الله منها. إن حسدهم ينبئ عن مرض خلقي وفساد في الطبع لأنهم لو نظروا في أرسال فضل الله، مما هو مسجل في التوراة، لوجدوا أن فضل الله قد شمل آل إبراهيم فآتاهم الله الكتب السماوية، من الصحف والتوراة والإنجيل، والنبوة التي هي الحكمة الخالصة، ومكن كثيرا منهم من ملك واسع.

55-ثم سجلت الآية وضع الذين كانوا حاضرين في زمن الوحي من هؤلاء الحاسدين، أن منهم من اهتدى ومنهم من أعرض. وبعد البيان فكفى بعذاب جهنم يلفح لهيبه أجسام المعرضين.

## 56-إن الذين كفروا بآياتنا...عزيزا حكيما.

من هذه الخاتمة الأخيرة المهددة بعذاب جهنم سعيرا، انتقل القرآن مفصلا ذلك التهديد فقال: إن الذين جاءتهم الأدلة البينة الظاهرة الواضحة، المنبثة في الكون

كله، فكفروا بها وأنكروا ما توجبه ضروريا، سوف يشوي أبدانهم بنار جهنم، لا ينفك عنهم العذاب، كلما أحرقت جلودهم وفقدت بالتالي قدرتها على نقل الإحساس بالعذاب بدلهم الله جلودا غيرها تقوم بوظيفة نقل العذاب على أشده ليحسوا الإحساس التام بآلامه. إن الله عزيز لا يغلبه شيء من تبديل الجلد، في الحين كلما أحرق، بجلد غيره، وهو الحكيم، فتنفيذ إرادته تتم على أكمل وجه متصور وأتمه.

### 57 –والذين آمنوا... ظلا ظليلا.

ومما يضاعف النكاية بهؤلاء المكذبين بآيات الله تنويه القرآن بما سيلقاه المؤمنون من نعم وتكريم وجزاء، وعرف بهم:

أولا: أنهم قابلوا تلك الآيات بإيمان عميق حلّ في قلوبهم فوصلهم بربهم صلة لا تنقطع أنوارها.

ثانيا: أن إيمانهم طوع جميع ملكاتهم وحواسهم وقواهم للعمل الصالح، كما أمرهم به ربهم.

سيكون جزاؤهم بذلك جنات تتخللها الأنهار الجارية بما يبهج النفس وتنساب معه المشاعر في رضى ومتعة لا يحد وصفها ومما يضاعف نعيمهم إيقانهم بأن نعيمهم هذا دائم لا ينقطع وتتضاعف المنة بجمع الله بينهم وبين أزواج مطهرة من النفاق والرّذيلة والتبدل والأخطاء وأعراض الهرم والمرض والنقص. ويتم المشهد بالإلماع إلى جانب من جمال تلكم الجنات: ظلها ظليل غير متقطع ولا مظلم.

• إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**الأمانات:** جمع أمانة الشيء الذي يعطيه لمن يحفظه له إلى أن يطلبه منه.

**أهلها:** أصحابها.

**العدل:** المساواة بين الناس بإيصال كل ذي حق بحقه طلبه أو لم يطلبه.

**نعمّا:** نِعْمَ اتصلت بها ما، نعم صيغة مدح.

**التنازع:** الاختلاف الشديد.

**تأويلا:** أحسن ردا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

هذا طلب مؤكد صادر من الله جل جلاله يتضمن أمرين يقوم عليهما بناء المجتمع، ولا يجوز التهاون بأي منهما. أحدهما موجه لكل مسلم ومسلمة مهما كان دوره الاجتماعي، أن يحفظ ما اؤتمن عليه، وأن يسلمه لصاحبه بمجرد طلبه. وثانيهما: أنه وإن خوطب به كل الناس لكن لا يتحقق الطلب بالنسبة للشخص إلا إذا ابتلي بالحكم بين الناس فهذه الآية تتناول رؤساء الجمهوريات، والولاة والقضاة ورجال الشرطة، وكل من حكم بين اثنين أو كانت له سلطة لتطبيق القوانين في أي ميدان كان، وكذلك من احتُكم إليه فهؤلاء جميعا مأمورون بالعدل المطلق محاسبون يوم القيامة عن الحكم الذي ألزموا به المتحاكمين إليهم. وما أحسن ما وعظ الله به عباده. والله لا يخفى عليه شيء فهو السميع لكل قول، الذي لا تخفى عليه حقائق الأمور. هذان الأصلان العظيمان يستمدان صدقهما من طاعة الله وطاعة رسوله. ونصت الآية على تكرار لفظ أطيعوا مع الرّسول لينفي كل تعلة للاقتصار على القرآن وحده. فطاعة رسول الله في كل ما شرعه مأمور بها كشأن ما ثبت تشريعه بالقرآن. وثلث سبحانه بطاعة كل من يتحمل مسؤولية القيادة في أي مستوى من المستويات، كالخلفاء والأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات والولاة والقضاة وكل من يسير جماعة من الجماعات، كرؤساء المؤسسات والزوج في الأسرة وهكذا، إذ انتفاء الطاعة لمن هم في نظر المُسَيَّر معناه الفوضى والتشتت والخيبة. وقيدت الآية بأن يكون هؤلاء الرّؤساء منا ، أي مسلمين، فإن تسلط الكفار على قطر من الأقطار وجب على سكانه عصيانهم ومقابلتهم بالجهاد الحربي وبالجهاد المدني بعدم طاعتهم. وسنة من سنن الله في الخليقة، أن بنى تركيبهم على التنوع تنوعا يتجاوز الجنس إلى التمايز بين الأفراد فلا تجد إنسانا نسخة مطابقة لإنسان آخر، ومن طبيعة هذا الاختلاف في المواهب والمحيط والمؤثرات، أن يكون الناس مختلفين. إن ظاهرة الاختلاف أساس من أسس رقي المجتمع، كما أنها يمكن أن تؤدي إلى خرابه وتحلله. ولحماية الاختلاف من الانحراف يأمر القرآن بالرّد إلى تشريع الله في القرآن وسنة رسول الله ﷺ ، فبهما يتحصن الفرد والمجتمع من الشر، ويهتدي إلى الخير المحقق في الحاضر وفي العاقبة.

**بيان المعنى العام:**

**58 - إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات...ضلالا بعيدا.**

موقع هذه الآية مما سبقها جار على منهج القرآن الذي يعتني بإصلاح البشر أولا وبالذات. يتواصل تسجيله لما يريد أن يسجله، ويتخلل ذلك من الموعظة والتذكير

ما يحيي الأرواح ويحركها للخير. والله أعلم بطبائع النفوس التي إذا توالى سرد موضوع واحد وطال ذلك، تقطع حبل الانتباه وتراخت اليقظة، فإذا تحول نظم الكلام من موضوع إلى موضوع آخر، كان ذلك التحول منشطا للذهن ليقبل على الجديد بعناية فيكون رسوخه في المشاعر المتلقية أنفذ وأتم. إن مضمون الآية هذه من القضايا التي اعتنى بها الإسلام لإقامة النظام الاجتماعي على القيم الحافظة لقوته وتماسكه، ولإبراز نظافة العلاقات الاجتماعية والثقة بها.

افتتحت الآية بإبراز الأمر من الله (إن الله يأمركم) بما يلقيه هذا التركيب في النفس من مهابة يتبعها إذعان. يأمر الله بعظمته وجلاله أمرا واجبا محتما أن كل من اؤتمن على شيء يجب عليه أن يؤدي الأمانة ولا يخونها. والأمانات أنواع: فمن أودعك شيئا فرقابة الله عليك إلى أن تمكنه مما ائتمنك عليه. وما عندك من العلم هو هبة من الله إليك ائتمنك على تبليغه لمن هو في حاجة إليه، فكل المجتمع الإسلامي إما عالم أو متعلم. وما آتاك الله من المال نصيب الفقراء منه أمانة أنت مسؤول عنها لتمكين مستحقيها منها. وعلاقة الزوج بزوجه الذكر والأنثى سواء كل منهما مؤتمن على تلك العلاقة وعلى مال صاحبه وعلى أسراره. وبهذا تكون الأمانة تقتضي تارة تمكين صاحبها منها، وتكون تارة بالحفاظ عليها وعدم التفريط فيها على النحو الذي يريده صاحبها. وعلى هذا النحو تفهم الآية في شمولها وفي واسع أبعادها. وسنتوسع، إذا يسر الله عند بيان ما يتعلق بقوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان)[1]

والحكام بما مكنوا به من السلطة التي تنفذ بها أحكامهم، لهم دور أساس في تطور المجتمعات وسيادة الأمن وتحقيق العزة للفرد. فهذه الأمانة التي حُمّلوها، ارتبطت بالأمر العام الأول واقترنت به، إذ العدل الملزمون به يحقق أداء الأمانة. وتختم الآية بالتنويه بهذين الأساسين: أداء الأمانة والعدل. فما أحسن القيام بهما (نعما) وكم يكون المجتمع الراعي لهما المحافظ عليهما متمكنا من السعادة والرقي! ويحذر أصحاب الأمانات وأصحاب السلطة بأن الله سميع لا يفوته شيء من الأسرار التي تجري في الخفاء، عليم بحقائق الأمور لا يخدع.

ثم حركت الآية التالية مقتضيات الإيمان التي بها يتمكنون من الاستجابة لما أمروا به من أداء الأمانة والعدل في الأحكام. إن هذين الأساسين لا يكون لهما دورهما في

[1] سورة الأحزاب آية 72

صلاح الفرد والمجتمع إلا إذا كان المرجع في الحق واحدا واضحا بينا، لا اختلاف فيه، وانتفت الفوضى في إدراك مقتضياتهما.

## 59-يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله... تأويلا.

إن تصور الحق والعمل به له مرجع واحد في الإسلام، هو طاعة الله وطاعة رسوله. فالأمانة تحفظ وتؤدى حسب ما شرع الله وأمر به رسوله، والعدل هو العدل المتلقى عن الله وعن رسوله الكريم. أمرت الآية بطاعة الله وثنت بطاعة رسوله تنصيصا، وذلك لينفي كل التصورات والضلالات التي قد يتعلل بها المبطلون والسفهاء، الذين يبررون تنصلهم من تطبيق كثير من أحكام الإسلام، بأن صدق إيمانهم يقتضي أن يقتصروا على القرآن وحده. فهذه الآية مبطلة لتعلاتهم هادمة لما يروجونه من ضلالات، فهم يصدمون نصا صريحا. ثم ثلثت الآية بأن عطفت على طاعة الله وطاعة رسوله طاعة أولي الأمر، مما يقتضي أن طاعتهم من دين الله. ويتعلق بأولي الأمر:

أولا: أن المراد بهم الذين من طبيعة المجتمع المتمدن أن يتولوا فيه المناصب التي تسير أمر الجماعة على نظام كالخليفة، أو الملك، أو رئيس الجمهورية، والوزراء والولاة وأعوانهم القائمين على تطبيق أسس التعايش بين أعضاء الأمة، ورجال القضاء الذين يقيمون العدل فيما يعرض عليهم من نزاعات. أمر المؤمنون بطاعتهم لأنه لا يستقر أمر الجماعة، ولا يتحقق تقدم ولا نظام إلا بالطاعة وعدم الانتقاض على أولي الأمر في هذه المناصب السياسية والقضائية.

ثانيا: لا يقتصر مدلول أولي الأمر على هؤلاء، فالزوج في الأسرة هو صاحب الأمر الذي تتحتم طاعته من الزوجة والأولاد والمساعدين. وكذلك القائمون على المصانع والشركات والمؤسسات وكل تجمع له رئيس يسير العمل فيه.

ثالثا: إن المرجع الذي أثبته القرآن وأكد عليه وربط به التصور الإسلامي في القضايا الجزئية وفي المبادئ العامة، هو الاحتكام إلى شرع الله وأوامره في كل شيء، فما الإسلام إلا إسلام الوجه لله. ولذا فإن طاعة أولي الأمر هي في حدود ما جاء به الإسلام، وإن التيقن من هذا الالتزام يتحقق بما يبلغه علماء الأمة. ومن هنا جاء ما قرره كثير من المجتهدين أن طاعة أولي الأمر تبع لطاعة العلماء. وليس معنى ذلك أن للعلماء سلطة سياسية فوق سلطة رجال السياسة والقضاء، وأن هناك تنازعا بينهما. بل المقصود من ذلك هو وجوب خضوع كل فرد من أفراد المؤمنين لشرع الله إن علمَهُ فذاك وإن جهله فإن علماء الأمة هم المرجع، وصاحب السلطة واجب عليه أن لا يخرج عما يبيّنونه. ومما ينبغي أن يعلم توضيحا لذلك، أن فقهاء

الأمة اتفقوا على أنه لا يتولى منصب الإمامة أي الخلافة (الولاية العظمى رئاسة الدولة) إلا من بلغ درجة الاجتهاد في الدين إن وجد وإلا فإن مصلحة حفظ كيان الأمة مقدم على هذا الشرط.

رابعا: قيدت الآية أولي الأمر بكونهم منا: أي مسلمين. وهذا يقتضي أنه إذا تسلط على المسلمين من ليس منهم، فإن الواجب عليهم أن يعقدوا العزم على عدم طاعته، ورفض وجوده، بالجهادين: الجهاد الحربي والجهاد المدني (العصيان) الذي يحرمه من تثبيت أركانه. هذه ثوابت لا تقبل التأويل ولا التراخي في تنفيذها.

إن شأن الكثرة البشرية أن يصحبها اختلاف وهذه سنة من سنن الله في المجتمعات الإنسانية. وكلما وقع خلاف أمدته العواطف، وأججته نوازع الشيطان لينقلب إلى نزاع، يريد كل فريق أن ينتصر. إن وجود مرجع يكون هو الحاكم ، وحكمه يقبل جميع الأطراف به، وينبثق من العقيدة ، ويتمثل في الرّجوع إلى حكم الله وحكم رسوله، إن هذا المرجع المأمور بالرّد إليه يجمع بين كونه هاديا للحق، وبين كونه يسمو بالخلاف إلى تحقيق غاية، هي تحول المتنازعين من الانتصار للرأي إلى السعي إلى تثبيت المصلحة الخاصة والعامة معا.

هذا المقطع يرتبط بما صُدِّرَت به الآية من طاعة الله وطاعة رسوله، فلا يشعر أي طرف أنه خضع للآخر، بل كان الخضوع لله رب العالمين . والرّدّ إلى الله ورسوله فيه إشارة إلى وجوب مراقبة الله والاستعانة به لتبصير المتنازعين حتى ينجلي النزاع بذهاب أسبابه. والتعليق بقوله: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ) مع أن افتتاح الآية بدعوة المؤمنين يهدف إلى أمرين:

الأول: المبالغة في التحريض على الرّد وتجريد كل متنازع من أهوائه ودواعي أنانيته .

الثاني: التلميح إلى اعتبار أن عدم الامتثال يجعل الإيمان بالله واليوم الآخر قلقا غير ثابت، وهذا ما يخشاه كل مؤمن أبلغ خشية بالخوف من إحباط العمل. فجمع هذا التعليق بين الحث والتهديد.

وأكد هذين الأمرين بقوله: (ذلك خير)، فيه نفع لكم يقيكم من انزلاق التنازع إلى ما يجلب الشر. وهو أحسن عاقبة فتمسكوا بارتباطكم بما يهديكم إليه القرآن، وما سنه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يزعمون:** مضارع زعم: وهذه المادة تتضمن الإيماء إلى كذب المخبر أو عدم الوثوق بكلامه.

**تعالوا:** ائتوا.

**الطاغوت:** أصل معناه الصنم، وأطلق هنا على كاهن اليهود تشبيها له بالصنم المعبود لغلو قومه في تقديسه.

**عظهم:** مرهم بفعل ما هو خير، والانكفاف عن الشر، بالتأثير في القلوب والمشاعر.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تعجيب من تناقض المنافقين ووقاحتهم. يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالتوراة مما يفرض عليهم أن يتحاكموا إلى شرع في خلافاتهم، ولكنهم يتحاكمون إلى الطاغوت (كبير كهان اليهود) مع أن الكتابين يؤكدان عليهم أن يكفروا بالتحاكم إلى الطاغوت. وما ذلك إلا لأن الشيطان قد تسلط عليهم فأضلهم ضلالا بَعُدَ بهم كثيرا عن منهج الحق. وبلغ بهم العناد وتأصّل الكفر إلى حد أنهم إذا سمعوا: أقبلوا على ما أنزل الله من الحق وما يحكم رسوله بيانَهُ ظهر نفاقهم بإعراضهم عن الرّسول أتم إعراض. فلا تسأل عن وضعهم، لما تصيبهم مصيبة بسبب ما قدموا ثم يتقدمون إليك معتذرين ولباس الخزي يُشَوّهُ وجوههم، وهم في ذل يحلفون: ما أردنا باحتكامنا للكاهن إلا أن نُزيل أسباب الخلاف فنحسن إلى المتخاصمين ونوفق بينهما. إنهم لا يضرونك بنفاقهم والله عليم بما يُكِنُّون فهو الذي يتولاك بالتأييد

وأظهِرْ لهم ثباتك بالإعراض عما قدموا وبعدم الاكتــراث بهــم، وتــولَّ مــوعظتهم ببيــان الحق وتهديدهم بسوء العاقبة وليكن قولك لهم قويا ينفذ إلى قلوبهم ويرعدهم.

**بيان المعنى العام:**

## 60 -ألم تر إلى الذين...بعيدا.

هذه هي الآية الرّابعة في سورة النساء المصدرة بقوله تعالى: (ألــم تــر) وقــد قــدمنا مــا يتعلق بهذا الأسلوب قريبا في الآية (44) من هــذه الســورة. وقــد اختلــف الــرّواة فــي ربط الآية بما وقع قبيــل نزولهــا. والــذي يســتخلص مــن روايــاتهم أن بعــض مــن ظاهره الإسلام قد حصل بينه وبين شخص آخر خــلاف، فــدعاه الخصــم إلــى التحــاكم عند رسول الله ﷺ ، فأبى وآثر أن يتحاكم إلى الكــاهن. شــنع الله علــيهم وأبــرز مــوقفهم هذا في صورة تبقى على التاريخ متعجبا منها دالة على عناد وحماقة هؤلاء.

أبرز القرآن صورتهم في تناقض غريــب: تســمع مقــالتهم: إنهــم آمنــوا بمــا أنزلــه الله عليك، وبما أنزله الله علــى أنبيائــه مــن الحــق، وتــدخل إشــارة لطيفــة، كــأن هاتفــا يصحبهم عند شهادتهم هذه ينادي: إنهم غيــر صــادقين، وذلــك باختيــار كلمــة يزعمــون ملتصقة بأقوالهم. وبهذا يبرز تناقضهم الأول بين ما يضمرون وما يصرحون به.

التناقض الثاني: ما عقدوا عليه عزمهم من التحــاكم إلــى الكــاهن، المعظــم مــن اليهــود كتعظيم عبــدة الأوثــان للصــنم الأكبــر، المعبــر عنــه بالطــاغوت وقــد أمــروا أن لا يعظموه ولا يعتمدوه ولا يصدروا عن حكمــه، للتنــاقض بــين ذلــك وبــين توحيــد الله، قاعدة جميع الشرائع، بما يقتضيه التوحيــد مــن رفــض كــل حاكميــة لغيــره. فتنــاقض عزمهم مع ما يجب عليهم تشريعا من عند الله في التوراة وفي القرآن.

التناقض الثالث: ما يروجونه من أنهم على هدى من الله، ثــم هــم يتبعــون مــا يوســوس به الشيطان في مداركهم ، والإيمان يســير بهــم إلــى الهــدى والوضــوح ويقــربهم مــن الله، والشيطان يعمل علــى دفعهــم إلــى الضــلال يتيهــون كلمــا أوغلــوا فــي اتباعــه ويزيدون بعدا عن الله.

## 61- وإذا قيل لهم تعالوا...صدودا.

التناقض الرّابع أنهم يدعون كما ذكر في صدر الآية إيمــانهم بمــا أنــزل علــى رســول الله وبالتوراة المنزلــة، ومــن لــوازم هــذه الــدعوى أنهــم إذا غفلــوا فــانحرفوا عــن مقتضيات الإيمان وذُكِّرُوا عــادوا ســريعا إلــى مــا أعلنــوا التــزامهم بــه. ولكــنهم إذا أوقظوا إلى الضلال الكبير الذي وقعوا فيــه وذُعُــوا إلــى تحكــيم مــا أنــزل الله وإلــى التطبيق السليم للوحي عند رسول الله ، برز نفاقهم وإعراضهم إعراضا كبيرا.

## 62-63، فكيف إذا أصابتهم مصيبة...قولا بليغا.

رتبت الآية على موقف هؤلاء المنافقين، التهديد بما سيصيبهم جزاء ما قدموه، ولم يفصل نوع المصيبة التي يتحقق بها التهديد الذي يترصدهم. ويثير الصور الدالة بقوله: كيف يكون حالهم إذا جاؤوك يعلوهم الخزي، ويتملقون فيقسمون بالأيمان أنهم ما أرادوا من تحاكمهم إلى الطاغوت إلا تمهيدا لفض النزاع وتوفيقا يرفع الخلاف، وهي أيمان لا تخفي ما وراءها من الكذب والنفاق. 63-ويفضح القرآن دجلهم بأن الله يعلم ما تنطوي عليه ضمائرهم. ويسند القرآن النبي صلى الله عليه وسلم، فيوصيه بأن لا يكترث بما صدر عنهم، فهم أضعف من أن يضروا الدعوة، أو أن يطفئوا نور الله بأباطيلهم وخداعهم، وأن يبرز لهم ثقته الكاملة في الحق الذي هو عليه، فيلقي عليهم المواعظ التي تكشف لهم عن وجه الخير، ويخوفهم سوء عاقبتهم ويجلي ما سيلقاه التائبون الصالحون. ولا تُقصِّرْ في إبلاغهم ما ينفذ إلى عقولهم ويحرك مشاعرهم ليرتدعوا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**شجر:** الاختلاف الذي لم يتبين فيه وجه الحق.

**حرجا:** ضيقا شديدا.

### بيان المعنى الإجمالي:

ما بعث الله أي رسول من رسله عبثا، بل الواجب الحتم أن يبادر كل واحد من المبعوث إليهم إلى طاعته. وكان الأجدر بالمنافقين الذي أضلهم الشيطان أن يسرعوا إليك معلنين توبتهم مستغفرين من ذنوبهم لتستغفر لهم، ويفوزوا عندها

بغفران ما سلف منهم، والله تواب رحيم لا يردهم خائبين. ثم أكد بأبلغ تأكيد أنه لا يكون الإيمان مقبولا إلا إذا حكمك صاحبه فيما وقع من خلاف، وفوق ذلك يكون راضيا بحكمك مطيعا مسلّما بعدله، لا ساخطا. ويعطي القرآن صورة فرضية مؤداها أنه لو طولب مدعي الإيمان بقتل نفسه أو الخروج من وطنه، فإن المستجيبين لهذا الابتلاء لا يكون إلا قلة. مع أن الذين يسرعون للاستجابة يفوزون بما هو خير لهم في العاقبة ويقوى ثباتهم على الحق ويحظون بالأجر العظيم الذي لا يوصف بأكثر من العظمة. ويصور القرآن منزلة المطيعين لله ولرسوله، بأنهم سيكونون في موكب الأخيار المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والمشهود لهم من الله بالصلاح. وما أشد حسن هذا الموكب وأكرم بها رفقة، يتنزل عليهم الفضل، الذي لا يحد ولا منة فيه، من الله الذي يعلم حقائق الناس فيؤلف بين الصالحين منهم.

### بيان المعنى العام:

### 64- وما أرسلنا من رسول...توابا رحيما.

يواصل القرآن بيان ما يتصل بالمنافقين الذين اتبعوا الطاغوت وأعرضوا عن التحاكم لرسول الله، فيقرر قاعدة من القواعد التي بنى الله عليها الله بعثة الرّسل للعالمين، من الرّسول الأول إلى محمد صلى الله عليه وسلم: هذه القاعدة تعرف البشر أن الله ما بعث رسولا إلا ليطيعه المبعوث إليهم فيما يبلغهم عن ربه. ولا خيرة لأحد بعد معرفة حكم الله الذي بلغه الرّسول الأمين. وهذا هو أمر الله الواجب تطبيقه. ويربط هذا بموقف المنافقين، الذين رفضوا التحاكم لشرع الله فظلموا أنفسهم بهذا الإعراض، وعرضوها لغضب الله، ولو لم يتمادوا على عنادهم، فقدموا على رسول الله مستغفرين من ذنوبهم تائبين من المعصية، لسعدوا بتوبة الله عليهم ولوجدوا في واسع رحمته ما يطهرهم من الذنوب، لأن الله من صفاته الأزلية أنه تواب رحيم.

### 65- فلا وربك لا يؤمنون...ويسلموا تسليما.

حقّق بأبلغ تأكيد، أن الإيمان لا يُقبل ولا يكون صاحبه صادقا في دعواه، ولا تترتب عليه آثاره، إلا إذا حكّم مدعي الإيمان في كل شؤون حياته شرع الله المنزل، وبخاصة في كل نزاع يحدث بينه وبين غيره. ولا يكون تحكيم الرّسول مُبْلغا رضوان الله ومثبتا لصفة الإيمان الكامل لصاحبه، إلا إذا كان المُحكّم راضيا بالحكم غير رافض له ولا قلقا من تطبيقه، وبناء على هذه الآية فإن من يرفض التحاكم لشرع الله، إن كان رفضه مرتبطا باعتقاده عدم صحة الشريعة المنزلة، فهو

كافر. وإن كان إعراضه عن الانقياد لحكم الإسلام والتحاكم لغيره، لاعن رفض، ولكن اتباعا لهواه ولمصالحه الدنيوية، فهو آثم إثما عظيما.

### 66←68- ولو أنا كتبنا عليهم...صراطا مستقيما.

فرض مُتَّبع بما ينبني عليه لو تحقق، وهذا الفرض يفهم على صورتين:

الصورة الأولى: أن الطاعة لرسول الله غير محددة بحد، فالمؤمن الحق هو الذي ينفذ كل ما طلب منه، استجابة لأمر الله وأمر رسوله، حتى إنه لو أمر بقتل نفسه، أو الخروج من وطنه فإن المؤمن الكامل الإيمان الذي استقر نور الإيمان في ضميره استقرارا بلغ به أن كل محببات النفس تزول قيمتها بجانب طاعة الله، إن المؤمن الذي بلغ هذه الدرجة يستجيب لهذا الأمر، وإن كان الذين سموا إلى هذه الدرجة قليل من المؤمنين. وهو من إنصاف القرآن للحقيقة وتركه للمبالغة. ويبين أنهم لو أقدموا على تنفيذ هذا الأمر الصعب تنفيذه، فإن ذلك يكون خيرا لهم في الحاضر والعاقبة، وأعظم تثبيتا للإيمان في قلوبهم. على معنى أنهم لا يترددون في كل ما أمرهم به ربهم، ويجدون لذتهم العظمى في طاعة الله وتنفيذ أوامره. وهؤلاء سينالون جزاءهم من ربهم أجرا لا يقدر قدره لوصف الله له بأنه عظيم وذلك تبع لهدايتهم الطريق المستقيم. وإن كان الأجر العظيم تابعا للهداية إلا أنه تقدم في الآية تعجيلا بالبشارة.

الصورة الثانية: أن الله لو أوجب على الناس أن يلجموا جميع شهواتهم فلا يتركوا لأي منها سبيلا للظهور ولا مطمع في الإشباع. وعبر عن هذا بقتل النفس، أو أمرهم أن يتخلعوا عن مكاسبهم ومأويهم التي تحميهم من الحر والقر ليمحضوا أنفسهم للعبادة، فإن مثل هذا عظيم تنفيذه، ولكن قوة الإيمان تجعل قليلا من الناس يسارعون للتنفيذ. وهؤلاء، بترك كل متاع الدنيا وراءهم وفعل ما وُعظوا به سيحصلون على خير كثير ويزيدهم هذا الإقبال، الذي يلغي حظوظ النفس، ثباتا على الحق وإلفا له. ويعظم أجرهم إلى حدود تفوق الوصف بثباتهم على الصراط المستقيم.

### 69-70 ، ومن يطع الله والرّسول...عليما.

ويفصل القرآن بعض مظاهر هذا الأجر العظيم لمن يطيع الله ورسوله، أنهم سيكونون مصاحبين للذين أنعم الله عليهم، هؤلاء الذين فازوا بالكرامة في الدار الآخرة، من النبيين أمناء الله على وحيه، والصديقين الذين سبقوا إلى تصديق المرسلين وأيدوهم بمجرد ما خالطت أنوار الوحي الأولى قلوبهم والشهداء الذين

بذلوا حياتهم لترسيخ الإيمان في قلوب العالمين. والصالحين الذين استقاموا فكانت خشيتهم لله حامية لهم من ارتكاب المعاصي. وما أحسن هذه الرّفقة في المقامات العليا من الكرامة والنعيم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

انفروا: اخرجوا للحرب.

ثبات: جمع ثُبَة بمعنى جماعة.

ليبطئن: مضارع بطأ تثاقل عن الجهاد.

شهيدا: حاضرا.

مودة: صحبة، ومحبة.

يشرون: يبيعون.

المستضعفون: من يعدهم الناس ضعفاء.

القرية: مكة.

الطاغوت: الأصنام.

**بيان المعنى الإجمالي:**

نبهت الآية المؤمنين أن يكونوا يقظين لما يعده لهم العدو من مكائد. وأن يرتبوا لكل معركة ما يتناسب مع طبيعتها الخاصة فليخرجوا للجهاد جماعات جماعات أو

يخرجوا جميعا صفا واحدا مترابطين. ويفضح القرآن الجبناء من المؤمنين الذين يستخفون من الناس عند نداء الجهاد، متثاقلين عن الانضمام لصف المجاهدين، ثم ينزوون مترقبين ما تسفر عنه المعركة، فإذا أصيب الجيش الإسلامي قالوا: أنعم الله علينا فسلمنا إذ لم نخرج معهم، وإذا تفضل الله على المسلمين يقولون آسفين: يا ليتنا خرجنا معهم فتكون لنا مكانة عند رسول الله وعند الناس، ونُصيبُ من الغنائم كما أصابوا. كأنهم لم يكونوا وقت النفير حاضرين. ثم يكرم القرآن المؤمنين المجاهدين كأنهم هم وحدهم المعوّل عليهم بالنهوض بنشر دين الله، يأمرهم بالقتال منوها بهم بأنهم باعوا متاع الحياة بما أعده الله لهم في الآخرة. ويحقق الله ربح صفقتهم سواء أقتلوا فكانوا من الشهداء أم انتصروا وغنموا فحققوا نشر دين الله، ويؤكد بأن أجرهم عظيم لا يعلم مقداره إلا مفيضه عليهم ربهم الرّاضي عنهم.

ثم يلتفت القرآن للجميع حتى المترددين يحرك كوامن الإيمان فيهم فيلقي سؤالا منكرا تقاعسهم مثيرا للعجب من ترددهم، ويبرز الدواعي للتغلب على ضعفهم: فيذكرهم بأنهم يقاتلون في سبيل الله الذي تعلو به قيمتهم الإنسانية فيرتفعون عن الأهداف القريبة الهابطة، وليتولوا شرف الاستجابة لهذا النداء الذي جأرت به حناجر المستضعفين من أهل مكة من الرّجال والنساء والولدان، الذين تسلط عليهم طغاة الكفر فعذبوهم وفتنوهم وضاقت بهم السبل، حتى يئسوا من كل عون إلا من عون ربهم فرفعوا أيديهم مبتهلين راجين أن يخرجهم من مكة التي استبد أهلها وبالغوا في ظلمهم وأن يجعل لهم وليا يحسم بالعذاب المسلط عليهم والإهانة التي المنصبة عليهم صبا، فيتولى نصرهم.

وقارن القرآن بين الفريقين: المؤمنين الذين يستندون إلى الله ويقاتلون في سبيل نصرة دينه لتكون كلمة الله هي العليا، والكافرين الذين يقاتلون ليعبد البشر الأصنام من الحجارة أو العباد أو الشهوات. وما يكيد به الشيطان ويزينه في قلوبهم. فاثبتوا وقاتلوا المستندين إلى الشيطان، فإن ما يكيد به لدفعهم إلى القتال لا يصمد أمام إيمانكم وقيمكم.

**بيان المعنى العام:**

**71-يا أيها الذين آمنوا... أو انفروا جميعا.**

هذه الآية تثير حمية المؤمنين للدفاع عن دينهم الذي ارتضوه، هم مأمورون أن يخرجوا للجهاد ، ويذكرهم القرآن بأن يأخذوا كل الاحتياطات لحماية أنفسهم ودفع كيد أعدائهم. وهو الحزم في مباشرة أمور الحرب، فيتوقى المجاهدون أن يصابوا

في أرواحهم أوفي أبدانهم، ويتخير المجاهدون طبيعة كل معركة وما تقتضيه، أشار إلى ذلك بقوله: انفروا جماعات متفرقين، أو انفروا صفا واحدا.

### 72-73، وإن منكم لمن ليبطئن فأفوز فوزا عظيما.

استنهض القرآن همة بعض ذوي الشخصيات الضعيفة، رغم أنهم في الصف الإسلامي، بالكشف عما يجري في نفوسهم وما تنطوي عليه ضمائرهم. جسم حالهم مع الانتصار والانكسار. هؤلاء الذين رغم أنهم من الجماعة الإسلامية إلا أنهم لاستيلاء الخوف على قلوبهم تراهم في هذا الوضع السخيف . فتراهم إذا أذن بالجهاد يتثاقلون؛ ينزوون حتى لا تبصرهم الأعين وهم في ترقب. فإذا أصيب المسلمون بضرر، ولا يهمه إلا أنه سلم، فيهنئ نفسه ويصرح بقوله: قد أنعم الله علي إذ قرت بجلدي ولم أشاركهم، ولم أحضر هذه الوقعة التي مات فيها العديد من الناس. وبالمقابل، إذا انتصر جيش الإسلام فآتاهم الله من فضله نصرا على الأعداء، وغنائم استولوا عليها، وعزة الغلبة، يعود باللائمة على نفسه التي تؤنبه، آسفا أن حرم من مشاهد الظفر والانتصار قائلا:يا ليتني كنت مشاركا فأحظى بفوز عظيم، أغنم ويرضى عني رسول الله، ويشهد لي الناس بالبطولة كأنه ما كان حاضرا وقت النفير، وهذا شأن الجبناء أصحاب النفوس المريضة لا يهمهم إلا مصالحهم، ولا يرتقون إلى منازل الشرف.

### 74-فليقاتل في سبيل الله..أجرا عظيما.

وضع هؤلاء المترددين وضع زري يتنافى مع عزة الإيمان والوثوق في تأييد الله، فأعرض عنهم القرآن زيادة في تقريعهم وتوهين شأنهم، والتفت الخطاب إلى من استقر الإيمان في قلوبهم استقرارا علا على كل شيء فجعلهم الأحقاء بالأمر بالقتال، ونوه بهم بأنهم يقاتلون في سبيل الإسلام لا تعصبا لقبيلة ولا لحزب، ولا لغنيمة أو مجد شخصي وتفاخر بالبطولة، ولا للسيطرة على الناس وعلى خيرات أرضهم. هم يقاتلون في سبيل الله الواحد الأحد؛ قد اشتروا ما عند الله من حسن ثواب الآخرة الباقي بمتاع الدنيا الزائل، وتجارتهم تجارة رابحة.

أكد أن تجارتهم رابحة على جميع الأحوال، فهم إن قتلوا فازوا بأجر الشهادة وإن انتصروا وغلبوا كتب لهم في ميزان حسناتهم فضل نشر دين الله وبذل حياتهم في سبيله، والأجر الموعود به أجر عظيم لا يعلم مقداره إلا الله فهو مما يتجاوز الوصف.

### 75-وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله..نصيرا.

يوالي القرآن حث المتقاعسين المترددين ولا ييأس من صلاح حالهم، فيوجه خطابه للجميع مقرونا بالإنكار في صيغة تدعو إلى العجب: ما بال الناس لا يسارعون للقتال في سبيل الله، والعقيدة تدفع إليه وترجحه ما بالهم لا تنهض حميتهم لإخوانهم الذين ضعفوا عن المقاومة وعن الفرار بدينهم وعن حماية أنفسهم من الإذاية الذين احتجزهم كفار مكة من الرجال والنساء والولدان وأقفلت في وجوههم الأبواب. يحرك ما في قلوبهم من حمية، وما في أرواحهم من إيمان، بتصوير المشهد وقد امتدت أيدي هؤلاء المستضعفين وشخصت أبصارهم إلى خيط الأمل الوحيد الباقي، إلى الله العلي الأعلى، تسمع أصواتهم وهم يجأرون بالدعاء إليه يطلبون شيئا واحدا: ربنا أخرجنا من هذه القرية (مكة) رغم أنهم يحبونها حبا شديدا فقد ولدوا في أرضها المباركة نشأوا في ساحاتها بجوار البيت العتيق ولكن الظلم المسلط عليهم من أهلها أزال كل ما في تلك المزايا من تأثير، يطلبون الانعتاق من الكابوس الذي ضيق عليهم الحياة وفتنهم في عقيدتهم وكرامتهم وأن يجعل لهم وليا يحس بما يحسون ويعمل على استنقاذهم، ويكون لهم نصيرا.

## 76- الذين آمنوا يقاتلون...ضعيفا.

يستنهض القرآن الهمم ويلفت الأنظار إلى القوة التي يستند إليها صف المجاهدين المؤمنين، وصف الكافرين. فيميز بين الفريقين في البواعث النفسية وفي الأهداف المرسومة لكل فريق. الذين آمنوا يقاتلون بدافع من العقيدة وبقبس من الإيمان وبمدد من الله، ولهم غاية واحدة أن ينتشر دين الله في الكون فينعم كل إنسان بالمنزلة السامية منزلة الكرامة فلا يخضع ولا يسجد إلا لله، ويتنعم بأمن العدل فجميع حقوقه موفورة، فهم ينتفعون من تلكم المبادئ، وتلوح لهم الغاية من جهادهم واضحة رفيعة، كأن كل واحد منهم أصبحت آمال البشرية معلقة عليه.

الفريق الثاني فريق الكفر، قلوبهم خاوية من الإيمان، لم يتحركوا إلا من أجل منافع مادية هابطة، لا تعمر قلوبهم رحمة ولا حب للآخرين، وإنما طمع في التسلط والاستبداد، والاستيلاء والنهب للخيرات، ليحولوا من تسلطوا عليهم إلى مهانة الفقر وذل الاستعباد. فجميعهم في جميع العصور إنما يريدون أن يقيموا للناس أصناما من الحجارة أو من العباد أو من الشهوة والجنس يلهثون وراءها مستعبدين، ليحققوا منافع لهم. ولذلك تجدهم إن صالوا ساعة فنفسهم مقطوع عن قريب، واندفاعهم واهن. إن ما يسول لهم الشيطان وما يخدعهم به ليمضوا في القتال وما يكيد به لجمعهم لا أساس له ولا سند. فكونوا واثقين من أن انتصاركم عليهم محقق لا محالة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**كفوا أيديكم:** اتركوا القتال.

**كتب عليهم القتال:** فرض عليهم القتال وألزموا به.

**بروج مشيدة:** حصون مبنية بناء قويا متينا.

**الحسنة:** الحاصل الملائم للإنسان.

**السيئة:** عكس الحسنة.

**حفيظا:** يحتمل معنيين : يحفظهم من الوقوع في الكفر والمعاصي،أو ليحفظ مساويهم ويقيدها عليهم.

**تولى:** عصى ولم يُصغ إلى دعوة الرّسول.

**برزوا:** خرجوا.

**بيّت:** قدر أمرا في السر.

**الوكيل:** القائم بالأمور، المصلح لما يخاف فساده.

**بيان المعنى الإجمالي:**

وضع عجب أثار القرآن المؤمنين لينظروا في تناقض أصحابه. فقد كان بعض المؤمنين وهم في مكة يسألون رسول الله ﷺ أن يسمح لهم بقتال المشركين فلم يأذن

لهم، لأنه لم يُؤذن له من ربه بالقتال وقصر هم على إقامة الصلاة وأداء الزكاة. ثم إنه بعد الهجرة أمروا بالقتال الذي كانوا يطلبون القيام به، وعوض أن يبتهلوا بهذا الأمر الجديد، قام عامل الخوف في نفوس هذا البعض، واختل الميزان الذي كان يحكم أرجاعهم، وإذا خشيتهم من المشركين تبلغ حدا يساوي خشيتهم من الله بل أشد. وسرى في تفكيرهم استفهام، ما الغرض من فرض القتال على المؤمنين ؟ وتمنوا أنه إن كان ولا بد فهلا تأخر إيجابه ! وأعلن القرآن ما كان يسري في بواطنهم من الخوف ومن التردد. فكان هذا الإعلان، الإيقاظ الأول لهم من غفلتهم. ثم عطف عليه بيان الحكمة التي تبصرهم ليثوبوا إلى رشدهم: الموازنة بين متاع الحياة الدنيا بما ينبني عليه من نقص وزوال، القليل التافه، وثواب الآخرة السرمدي الموعود به للمجاهدين في سبيل الله. ومن ناحية أخرى فإن الخروج للجهاد لا ينقص من العمر شيئا. فإن الموت يدرك كل حي ولا يمنع منه الحصون المحكمة البناء القوية الأساس. ثم أتبع تقريع الوجلين الخائفين بفضح المنافقين وإعلان ما يجري في قلوبهم وبينهم وبين أتباعهم، فكان مما جرى على ألسنتهم: أن ما يحصلون عليه من خير وفضل من وفر الإنتاج وربح التجارة ونحو ذلك هو من فضل الله وما يصيبهم من نكبات هو تابع لحلول النبيء بين أظهرهم. تولى القرآن رد مقالتهم بجواب حاسم: إن كل ما يقع في الكون من خير أو شر هو بقدرة الله وإرادته. ما أشد غباءهم كأنهم مجانين لا يدركون معاني الأحاديث التي يسمعونها. ذلك أن القاعدة التي يجري عليها أمر الحياة الدنيا هي ارتباط المسببات بأسبابها، ونفاذ سنن الله التي منها أنه قدّر جريان الحياة على انتفاء الصدفة، ورزق كل إنسان العقل الذي يكشف له عن الصلاح والفساد، وأقام دلائل تفصح عن الكوامن في الأشياء والأفعال من خير أو شر. فإذا لم يستفد الفرد من سنن الله هذه فما يصيبه هو من تقصيره وهو مسؤول عنه. ثم أكد ذلك بإعلان أنه بعث محمدا رسولا يبلغ ما يوحي له به لا دخل له فيما يصيبهم من خير أوشر. شأنه في ذلك شأن المرسلين جميعا. ولا أتم ولا أبلغ من رقابة الله على الناس وشهادته على ما يعملون.

إن شرع الله الهادي للخير الحامي لهم من الفساد لا يصل إليه بشر إلا بواسطة الرّسول. فمن أطاع الرّسول فهو في الحقيقة قد أطاع الله فيما أمر به أو نهى عنه.

لا يهمك إعراضهم فما أنت بمسؤول عن إعراضهم. إنهم لفسادهم وتلونهم وجبنهم إذا كانوا في مجلسك يعبرون عن انقيادهم لما تبلغه من تشريع وهداية، ولكنهم بمجرد ما يخرجون من عندك تأخذ طائفة منهم يدبرون في خفاء ومكر الطريقة

التي بها يتخلصون من كل ما أقروا به. فلا يحزنك أمرهم وأعرض عنهم وتوكل على ربك فإنه سيتم نوره ويكفيك أمرهم .

**بيان المعنى العام:**

**77-ألم تر إلى الذين قيل لهم...فتيلا.**

هذه هي الآية الخامسة والأخيرة من الآيات الواردة في سورة النساء مفتتحة بألم تر، التي تلفت أنظار المؤمنين، وتثير العجب من التناقض الحاصل. وبيانه: أن مشركي مكة قد آذوا المؤمنين وتفننوا في التنكيل بهم كما هو معلوم، وطلب بعض الذين أوذوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في القتال فلم يأذن لهم لأنه لم يؤمر من ربه إلا بالبلاغ والاحتجاج. ولعلهم كانوا يجدون في صدورهم حرجا من قبول الضيم والسكوت عنه. كل ما أمروا به باعتبارهم مسلمين هو أن يصبروا ولا يثيروا أعداءهم بالقتال، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فبعد أن هاجروا واستقروا في المدينة وانضم الأنصار للمهاجرين، أذن الله لنبيه في قتال المشركين. وهو أمر سُرّ به معظم المؤمنين وأصبحوا يتربصون بفارغ الصبر أن يفوزوا بإحدى الحسنيين الشهادة في سبيل الله أو النصر وما يصحبه من غنائم. ولكن فريقا من المؤمنين عند تشريع الجهاد ممن كانوا يطلبون من رسول الله أن يأذن لهم في القتال خافوا لقاء المشركين. فهي حالة غريبة من التناقض تدعو للعجب، فعمد القرآن بأسلوبه المعجز أن يصور لهؤلاء أنفسهم ويبرز ما حدثوا به أنفسهم وأن يرفع ما غشيهم من الغفلة. صوّرهم للمؤمنين ولأنفسهم أنه بلغ بهم الخوف والجبن أن ما أعزهم الله به من الإيمان قد اهتزّ، فقد أصبحوا بهذا العارض الذي عرض لهم يخشون المشركين ويخافونهم خوفا ساوى خوفهم لله بل تجاوزه. ولفرط جبنهم قالوا في نفوسهم: ربنا لماذا ألزمتنا بالقتال وفرضته علينا بهذه السرعة؟ ربنا لولا أخرتنا إلى أجل قريب غير بعيد! فأظهرت الآية شدة اضطرابهم وكشفت ما كانوا يحدثون به أنفسهم مما لا يمكنهم أن يبيحوا به في المجتمع الإسلامي بالمدينة، هذا المجتمع المتماسك حول رسول الله ﷺ.

كان هذا التشهير أول خطوة ترفع الغشاوة عن بصائرهم إذ أنبأ الله رسوله والمؤمنين بما كان يجري في بواطن هذا الفريق الخائف الوجل. ثم أتبع ذلك بالحكمة التي تبلغ شعاب الرّوح والعقل والضمير فتوقظها. أيقظهم إلى الميزان الذي اختل فليتذكروا أن متاع الحياة الدنيا فان محدود بجميع المعايير، قليل بالنسبة لما أعده الله للمتقين، وإنه لا يفوتكم أي حظ من حظوظكم بالجهاد ولو كان تافها. والأجل المقدر لكم لا ينقص منه لحظة بالقتال.

### 78- أينما تكونوا يدرككم الموت... يفقهون حديثا.

إن الحرص على الحياة لا يؤثر في الحقيقة السرمدية: أنه لا يستطيع أي فرد أن يفر من الموت الذي يلاحقه فيلحقه في المكان والزمان المقدر، لا يحول بين الإنسان والموت التجاؤه إلى الحصون المتينة الأساس المحكمة البناء، الرّفيعة العالية، المانعة للجيوش والأسلحة والدبابات من اقتحامها، فالموت أقوى من أن يمنعه مانع.

### 79-ما أصابك من حسنة فمن الله...وكفى بالله شهيدا.

انتقل القرآن في معالجته لأوضاع المجتمع المدني الذي كان معظمه ملتفا حول رسول الله، مطيعا لأمر مولاه، فتعرض لبعض الجبناء وحركهم للجهاد، ورفع ما غشى بصائرهم من تقديم الحياة الدنيا ومتاعها على ما عند الله. ثم تعرض لفريق آخر مندس في صفوف الجماعة وخطره أشد. هؤلاء هم المنافقون الذين عالج القرآن دسائسهم بفضح ما كانوا ينشرونه سرا بين المقربين منهم وبما تحدثهم به أنفسهم. بلغ بهم التزوير وفساد الطوية أنهم إذا نالهم ما يحبون فربحت التجارة وأتت الفلاحة ثمراتها ونتجت الأنعام، أعلنوا أن هذا من عند الله، وإذا انعكس الأمر فأصابهم ما يكرهونه قالوا: هذا بسبب محمد فهو طالع شؤم علينا. وكان الرّد حاسما ليقطع رواج هذا التصور الفاسد، فقال تعالى: إن المتصرف في الكون هو الله وحده لا شريك له، فما وقع فيه مما رضي به الناس أو سخطوه لا مدخل لأي كائن فيه، وهذه هي الحقيقة الواضحة ولكن هؤلاء الذين ربطوا الحسنة بالله والسيئة بمحمد، هم قد عطلوا عقولهم، هم كالمجانين الذي يسمعون الأحاديث ولا يفهمون معنى ما يقال. إن مقالتهم تلك قد تروج على بعض المغفلين فلذلك عقبها الله بالإعلان عن الحقيقة التي أجرى عليها أمر الكون، ومسؤولية الإنسان فيه، على أخصر وجه وأتمه، فقال تعالى ما معناه:

أولا: إن ما خلق عليه نظام الكون هو ارتباط المسببات بأسبابها فلا سبيل لصدفة ولا لوقوع أي شيء دون أن يكون مرتبطا بأسبابه وهذا التنظيم لله وحده لا مدخل للإنسان فيه. والله مكن الإنسان من قوى العقل الذي يميز له بين الخير والشر، ويكشف له ما يحميه من الاختلال والفساد والخسران. وهذا كله من خلق الله ومن عنده، وإن الله نصب على تلكم الأسباب وما يترتب عليها علامات في طوق العقل أن يصل إليها، وهذا من خلق الله. فهذا هو الجانب الذي قرره قوله تعالى: (كل من عند الله) وما عقبه بقوله: (ما أصابك من حسنة فمن الله)

ثانيا: ما يصيب الإنسان من أمور يكرهها مرده في معظم الأحوال إلى تقصير الإنسان في الاستفادة من سنن الله في الخلق، واتباعه لهواه لا لما يقتضيه صارم العقل ودقيق النظر، أو تكفير لما اقترفه من الذنوب والمعاصي. روى الترمذي بسنده إلى أبي هريرة قال لما نزل: (من يعمل سوءا يجز به) شق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها[1].

وبناء على هذا صرح القرآن بهذه الحقيقة: هي أن الله أرسل محمدا مبلغا لما يصل إليه من وحي الله ليس مؤثرا فيما يحدث للناس من أمور تلائمهم أو تسوؤهم.

ولا أتم ولا أبلغ من شهادة الله على ما يقوم به كل فردمن الحيطة والجد أو الكسل والتفريط ، ولا أعدل منه سبحانه فيما يرتبه على ذلك من الجزاء.

## 80-من يطع الرّسول فقد أطاع الله...حفيظا.

إن تفرقة المنافقين بربطهم الخير الذي يصيبهم بالله والشر من شؤم الرّسول، هي تفرقة بين الله ورسوله، ورد عليهم ردا جازما، بأن من يطيع الرّسول فقد أطاع الله. إنه إذا كان الخير في اتباع شرع الله، وشرعه إنما يصل إلى البشر بواسطة رسوله، فلا جرم أن هذه القاعدة تصبح قاعدة ضرورية من أنكرها لا سند له إلا العناد. فمن أعرض عن قبول الدعوة فلا يلومن إلا نفسه وما أرسلناك لتكون حارسا عليهم ولا مسؤولا عن إعراضهم عن الحق.

## 81-ويقولون طاعة...وكيلا.

ثم فضح القرآن مكرهم بالتلون وفساد طبيعتهم، فهم لا يقفون جهارا ليصرحوا بما عندهم ولكنهم يظهرون الطاعة إذا كانوا في مجلسك ويقولون بطريقة لا لبس فيها: أمرُنا:أنا نطيعك في كل ما تبلغنا من تشريع ونعمل به. ولكنهم بمجرد ما يخرجون من عندك تعد طائفة منهم سرا الطريقة التي يمكنهم بواسطتها أن يتنصلوا مما قالوه والتزموا به.

فلا يهمك أمرهم ولا تكترث بهم، ولا تخش خلافهم فالله رقيب عليهم يسجل كل ما أعدوه في الخفاء، سيواجههم به في حسابهم، فتوكل على الله واعتمد عليه فإنه حافظك وراعيك وكفاك رعاية الله لك واعتمادك عليه.

---

[1] الجامع الكبير ج 5 ص132 ح 3. 38

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يتدبرون القرآن:** يتأملون في مضامينه.

**جاءهم أمر:** سمعوا خبرا.

**أذاعوا به:** أفشوه.

**ولو ردوه:** لو أبلغوه لرسول الله.

**يستنبطونه:** يعلمون الحقيقة الخفية منه.

**يتدبرون القرآن:** يتأملون معانيه.

**تنكيل:** العذاب الذي يرتدع من يشاهده فضلا عن المسلط عليه.

**كفل:** نصيب من الخير أو الشر.

**مقيتا:** مطلعا.

**بيان المعنى الإجمالي:**

عجب للمنافقين كيف لا يتأملون في القرآن، يخبرهم عما يحدثون به أنفسهم، أو يتآمرون به في خلواتهم ثم هم لا يجدون أي اختلاف بين الواقع وما أخبرهم به، كما أنهم لا يجدون في مضامين القرآن اختلافا على عكس العمل البشري. إن في ذلك لدليلا على أن محمدا صادق أمين فيما يبلغه عن ربه.

ثم تولى القرآن تربية ضعفة المؤمنين الذين يعمدون إلى نشر ما يبلغهم من الأخبار، دون تثبت، مع أن مختلقيها إنما بثوها ليشنوا بها حربا على المسلمين للتضليل، بإيهامهم بقرب حصول الخوف ، ليرتبكوا، أو الوضع وضع أمن ليتراخوا. وجه إليهم اللوم وعلمهم أن عليهم أن يعودوا لرسول الله أو لأهل الخبرة والرأي ليعرفوهم بحقائق تلكم الشائعات وما تخفيه وراءها. إن هذا التأديب والتعليم والهداية

هو من فضل الله عليكم، أخرجكم بواسطتها من اتباع الهوى والشيطان وبهذا الفضل خذل الشيطان فليس له عليكم من سبيل إلا قليلا مما أثره الضعف البشري.
بعد ذلك أعاد القرآن التأكيد على القتال في سبيل الله، فأمر رسوله بالقتال في سبيل الله أولا ثم أمره أن يستحث المؤمنين عليه ثانيا . وتشير الآية من طرف خفي إلى أن الله مؤيدهم وسينصرهم لأن بأسه سبحانه أقوى وأعظم، وأن تنكيله سيكون بالغا درجة أنهم سيكونون عبرة وموعظة لغيرهم. ثم أرشد المؤمنين كي يراعوا في شفاعتهم إبراز الحق، وأن من يتوسط بشفاعته ليحق الحق ينال حظه من أجر العادل الذي توسط لديه، وأن من توسط للظلم يكتب له قسطه من الإثم. والله مطلع على ما يجري في السر فليستقم الشفعاء.

## بيان المعنى العام:

## 82- أفلا يتدبرون القرآن... كثيرا.

تولى القرآن الرد على المنافقين في الآيات السابقة، وأضاف إلى ذلك ما ورد في هذه الآية. كيف يرفضون رسالتك، ومعجزتك القرآن، ونصوصه بين أيديهم! فمن العجب أنهم لا يتأملون في معانيه ليوقنوا أنه من عند الله وأن الذي جاء به هو رسول الله، ولفت نظرهم إلى ناحيتين: إحداهما أنه يخبرهم بما حدثتهم أنفسهم به دون أن يطلع على ذلك أحد وما فضحه مما تآمروا به في سر مع أتباعهم، فكان القران موافقا لما تم في الواقع لا يختلف ما صرح به عما كتموه.
ولو كان من عند غير الله المطلع على الغيب لاختلف ما يخبر به عما حصل ولظهر تناقضه مع الواقع طبعا. وثانيهما أن القرآن تتابع نزوله السنين المتوالية، ولا يجد الناظر فيه اختلافا بين ما تضمنه من معاني وأحكام وقصص وتهذيب، مما يدل على أنه محكم من عند الله.

## 83-وإذا جاءهم أمر من الأمن...إلا قليلا.

تولى القرآن تربية المؤمنين في عصر الرّسالة وفيما يليه من الأعصار. ذلك أن الأعداء يحاربون الحق بطرق عديدة، منها القتال بالسلاح، ومنها الحرب النفسية وإشاعة الأخبار الزائفة ليربكوا مسيرة الأمة ويدخلوا الشكوك والأوهام هم يعملون على بث الخوف حيث لا خوف، وينشرون الأخبار المطمئنة ليتراخى المؤمنون في اليقظة والاستعداد. هذه الحروب النفسية لها أثرها البالغ في خلخلة المجتمع، وربما تيسر للأعداء تنفيذ مخططاتهم ومكرهم. وليس كل المؤمنين على درجة واحدة من الفطنة والتنبه، ولم تكن المعطيات الخفية والبعيدة حاضرة عند جميعهم. وبناء على ذلك حصل في مجتمع المدينة، كما يمكن أن يحصل في كل

مجتمع، أن الأعداء يختلقون الأخبار الزائفة ويروجونها، فيتلقفها السامعون من غير ذوي الخبرة ويتحدثون بها. ومن المعلوم أن الخبر إذا راج وسمعه الناس مكررا أثر ذلك في اقتناعهم به وارتفع من احتمال الصدق والكذب احتمالا متساويا إلى ترجيح صدقه ؛ فيكون هؤلاء الأغرار الذين روجوا ما سمعوه قد أعانوا الأعداء على تحقيق ما خططوا له من مكر. فوجه لهم القرآن اللوم على هذا التسرع بالحديث بكل ما يسمعونه، ورباهم التربية الاجتماعية ، بما يفرض عليهم أنهم إذا سمعوا خبرا لا ينقلونه بمجرد سماعه، وإنما عليهم أن يتثبتوا في صدقه بالعودة به إلى رسول الله ﷺ أو إلى المباشرين للأمور التنظيمية في الدولة، المطلعين على خفايا الأمور.

وحرب الشائعات ما تزال من أشرس أنواع الحروب، ومساعدة مروجيها على تحقيق مكائدهم خطر كبير، وما يزال الدهماء لضعف تكوينهم السياسي والاجتماعي يتلقفون كل ما يسمعون ويروجونه، ويندفعون لذلك ليَبْرُزُوا في مستوى الذين يعلمون ما خفي على غيرهم، ولكنهم في الحقيقة كانوا آلة للماكرين، وحربا على أمتهم من حيث لا يشعرون. ويمنّ الله على المؤمنين بأنه بفضله قد نقلهم من تحكيم أهوائهم، والانسياق مع شهواتهم التي منها ترويج كل ما يسمعونه حبا في الظهور، وأنهم كانوا مأسورين لغواية الشيطان الذي يُظِلهم فيتبعونه فتولى الله بفضله تثبيتكم على الحكمة ورفع مستواكم الإنساني، فلم يبق للشيطان عليكم من سبيل إلا في حالات قليلة، هي أثر الضعف البشري.

## 84-فقاتل في سبيل الله...تنكيلا.

تابع القرآن بناء على ما أمر به من القتال، وما أرشد به لحماية المسلمين من مكر المنافقين والأعداء، مؤكدا أمره بالقتال القتال الذي يهدف إلى إعلاء كلمة الحق، وإعزاز البشرية بالعبادة لله وحده لا لإذلالهم وتسخيرهم ودون طمع في خيراتهم ولا الاستيلاء على أموالهم وأراضيهم، فأمر رسوله أولا بالقتال في سبيل الله، ثم أمره أن يحض المؤمنين على الاستعداد للقيام بهذا الفرض نفسيا وماديا. وبث الرّجاء في نفوسهم بأنه سيفل شوكة الذين كفروا. والله سبحانه في عزته وقدرته أقوى منهم وسينكل بهم . فلا تتراخوا فيما هو موكل إليكم من الاستعداد والجهاد.

## 85-من يشفع شفاعة حسنة...مقيتا.

أتبع القرآن إرشاده للمؤمنين عندما تبلغهم أخبار تؤثر في الأمة، بإرشادهم إلى ما كان جاريا أيضا فيهم، قبل أن تتألف منهم هذه الأمة التي أعدها لقيادة العالم إلى

الخير. كانت الوساطات شائعة في الخيـر أوفـي الشـر، وفـي إقامـة العـدل أو الظلـم والجور، وفي التأليف أو التفريق، كانت هذه الوساطات تنطلـق مـن العلاقـة التـي بـين الشافع وبين المشفوع فيه، ولا تحتكم لميزان الخيـر ولا تنظـر إلـى مـا يترتـب عليهـا في المجتمع، والقرآن يُعِدُّ الأمةَ لتحمـل عـبء الهدايـة العامـة التـي لا تسـتطيع أن تقوم به إلا إذا كانت هـي مستمسـكةً بقـيم الصـلاح والعـدل، فأبـان لهـم أن الشـفاعة يتحمل فيها الشفيع قسـطه مـن آثـار شـفاعته، وأن العلاقـات الخاصـة والعواطـف لا يقوم بها مجتمع يدعو بسلوكه إلى الهـدى، وحمّـل تبعـا لـذلك كـل وسـيط مسـؤوليته، فإن أعان الحق وعرّف المشفوع عنده بما يبعده عن الجور، كـان لـه مـن الأجـر مثـل العادل وفاعل الخير الذي اهتـدى بشـفاعته، وبالمقابـل فإنـه إذا شـفع فأعـان الظـالم على ظلمه وفاعل الشر على شره فإنه يتحمـل قسـطه مـن الإثـم. ركـز القـرآن هـذه القيمة في المجتمع بأن الله مطلع على ما يجـري مـن صـور الشـفاعة التـي عـادة مـا تكون في صورة السعي المباشر غير الظاهر. وهـذا أحـد معـاني المُقيـت الـذي يعبـر أيضا عن الحافظ والمقتـدر وموصـل الأقـوات. والظـاهر أن أقـرب المعـاني لموقـع المقيت في الآية هو المطلع.

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ

أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الحسيب:** العليم، المحصي.

**فئتين :** فرقتين.

**وليا:** صديقا تبثه سرك وتعتمد عليه.

**حصرت صدورهم:** ضاقت صدورهم وكانوا في حرج.

**الفتنة:** المحنة في الرّجوع إلى الكفر.

**أركسوا فيها:** رجعوا إلى الكفر على أسوأ ما يكون الرّجوع.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أمر الله المؤمنين بالتزام أدب التخاطب فمن حياه أخوه فالواجب عليه أن يرد عليه تحيته مساوية أو أحسن منها. وعلى المسلم أن لا يستهين بما أدب الله به هذه الأمة، فإن الله يحصي كل ما يصدر من الإنسان ليجازي عليه. إنه الله المتفرد بالألوهية رتب خلق البشر على أنهم مجزيون بأعمالهم، الجزاء الذي يلقاه كل فرد يوم القيامة، اليوم الذي يحشر فيه الناس جميعا لرب العالمين، إنها حقيقة لا يدخلها الشك، أخبر الله بها، وكلامه سبحانه أعلى أنواع الحديث الصادق الذي لا يتخلف.

ثم انتقل القرآن إلى عرض حالة عجيبة ينكرها. حاصلها أن المؤمنين، قد افترقوا إلى فرقتين في موقفهم من بعض الذين اختاروا البقاء بمكة ولم يلتحقوا بالمهاجرين، وكاتبوا المسلمين بالمدينة وأخبروهم بأنهم أسلموا. وقد استغلهم المشركون فوكلوهم بالقيام على تجاراتهم، حتى تسلم لهم في طريقها إلى الشام، الذي أصبح تحت رقابة المسلمين. خُدع بعض المسلمين بهم وقالوا لا نتعرض لهم فوبخهم القرآن إذ انخدعوا بهم، ونبههم إلى أن الله قد أركسهم فقلبهم إلى الكفر تبعا لما كسبوه بفساد عقائدهم وخبث تدبيرهم ثم واصل توبيخهم عن طريق سؤال إنكاري: أتريدون أن تهدوا من حكم عليه الله بالضلال، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا يحوله إلى الحق. ثم كشف سوء دخيلتهم بأن كل ما يحبون أن يصلوا إليه هو أن يردوكم إلى الكفر لتكونوا سواء في الضلالة. فإياكم أن تثقوا فيهم أو تقرّبوهم لأنفسكم فتفضوا إليهم بأسراركم أو تعولوا عليهم في نصركم. إن ثبتوا على ما هم عليه فلا تهنوا في شأنهم وخذوهم واقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه. واستثنت الآية من كان من هؤلاء له صلة بقوم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمن المتبادل.

كما أن الله أذن بقبول الذين قدموا طالبين الدخول في الإيمان وهم محرجون فلا يريدون قتالكم ولا قتال قومهم. إنهم وإن كانوا لم يكن التزامهم بالانتساب إلى الإسلام صريحا كاملا إلا أن الله أذن لنبيه في قبولهم، لأن عدد المسلمين كان قليلا مع صولة كبيرة للشرك، فهؤلاء لو لم يتول الله هدايتهم أبقاهم على الكفر لتسلطوا عليكم، فقبولهم على هذا النحو، مع استسلامهم وانقيادهم لكم خير لكم، وانتهى الإذن بقتالهم.

**بيان المعنى العام:**

**86-87، إذا حييتم بتحية...ومن أصدق من الله حديثا.**

يتابع القرآن هدايته لهذه الأمة في علاقاتها الاجتماعية، فيقيم قاعدة التواصل بين أعضاء المجتمع على أساس المساواة أولا ثم على تمتين تلكم العلاقات. أرشدت الآية (وإذا حييتم بتحية...) المسلمين عند لقائهم بالابتداء بتحية بعضهم بعضا، وتحية المسلمين هي: السلام عليكم. ومن بدأ صاحبه بالتحية فالواجب أن يرد المسلم عليه بأدب يساوي مقالته أو يكون الرّد أحسن: وعليكم السلام ورحمة الله، على من سلم مقتصرا على: السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته لمن أضاف ورحمة الله أو أضاف ورحمة الله وبركاته. وهذا الأدب ينبغي أن يكون خلقا للمسلمين ، فلا تقصره على: السلام عليكم، ولكن كلما تلطف معك أخوك المسلم فحياك بمناسبة عيد أو نجاح أو عرس أو مولود... مباشرة أو بأي واسطة من رسالة أو خطاب بالهاتف أو بوسائل الاتصال، فإن المسلم بما هداه الله في هذه الآية يسرع إلى رد التحية بأحسن منها أو بمُساويها.

وقطع هذا الأدب ما كان يخيل لبعض المستكبرين أن التكافؤ في القيمة الاجتماعية هو الذي يوجب رد السلام، أما المستضعفون فهم أحط من أن يرد السلام عليهم علية القوم وكبراؤه. ويؤكد الالتزام بهذا الأدب، أن الله عليم يحصي ما يصدر من الإنسان: الكبير والصغير، وما كان من الأدب، وما كان من الذكر أومن القول الطيب أو من القول الساقط ، فلا يتهاون المؤمنون بما يؤكد تقاربهم، والله سبحانه يجازي الإنسان بما يصدر منه من أدب أو تهاون به.

ويؤكد القرآن ما اتصف به الله من كونه عليما محصيا، بالتذكير بما اتصف به سبحانه من صفات الألوهية. فهو الله المتفرد بالألوهية وقدر تقديرا لا خلف فيه أنه سيجمع البشر جميعا ليوم القيامة لا يستثنى أي إنسان من هذا المصير المحتوم وهو آت يقينا لا شك في ذلك. أخبركم الله به وعرفكم بقدومه وما ينتظر البشر فيه. وما يخبر به الله سبحانه في كماله وجلاله هو الصدق الذي لا يخالف الواقع

أبدا، ولا يبلغ أي إخبار في أحقيته وصدقه كلام الله. وهذه الآية تفتح لتاليها الآية الواردة بعدها.

## 88-فما لكم في المنافقين...فلن تجد له سبيلا.

إنه من أوائل سورة البقرة وما تلاها، تتابع التحذير من خطر المنافقين المندسين في صفوف المسلمين، وأن على المسلمين ألا ينخدعوا بظواهرهم ولا بأكاذيبهم وقد وقع في المجتمع المسلم اختلاف في شأن بعض المنافقين، الذين تمكنوا من إخفاء حقيقتهم على بعض المؤمنين فضللوهم، وترجح عندهم أنهم مؤمنون صالحون. ويذكر ابن عباس أنهم قوم من أهل مكة كتبوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أنهم مؤمنون بالرّغم من أنهم لم يتمكنوا من الهجرة لأسباب روجوها وواصلوا إقامتهم في بلد الكفر، ومعلوم أن الرّسول ﷺ كان من سياسته، أن ضرب حصارا على تجارة المكيين، وذلك لإخضاع أهل مكة المتقوين بالتّجارة التي هي سبب وفرة أموالهم وبالتالي عتوهم واستكبارهم، وأصبحت الطرق الواصلة بين مكة والشام غير آمنة بموقع المدينة في وسط طريق التجارة، ومكة بواد غير ذي زرع، فكان الحصار شديدا عليهم ومؤذنا بانهيارهم. لذا كلف أهل مكة هؤلاء الذين طمأنوا بعضا من أهل المدينة بأنهم مؤمنون، فسلموا لهم أموالهم ليتاجروا بها في أمن من تعرض جيش المؤمنين لهم. وانحاز بعض مسلمي المدينة لهم، واقتين بصدقهم ولم يرض معظم الصحابة بهذا الإيمان المزيف. فوبخ القرآن المصدقين لهؤلاء المنافقين، وكان السؤال سؤال إنكار، كيف تختلفون في شأنهم والله قد أركسهم، فقلبهم إلى الحالة التي كانوا عليها من الكفر، وما كان ذلك ظلما لهم، إنه بسبب تضليلهم وإصرارهم على الكفر ومحاولة خداع المسلمين، وهو مؤدى قوله:(ما كسبوا) ثم واصل تأنيب المخدوعين: ما هو هدفكم من تصديقهم وهم قد ضلوا، أتريدون أن تجعلوا الذين أضلهم الله بما كسبوا مهديين؟ إن من جازاه الله بسوء صنيعه، يستحيل أن تجد له طريقا يعود به إلى الصلاح.

## 89- ودوا لو تكفرون... وليا ولا نصيرا.

ثم كشف عن دخيلتهم بأنهم يحبون لكم الكفر وأن تستووا معهم في ضلالهم. بهذا يتبين لكم الفوارق الفاصلة بينكم وبينهم، فلا صلة تجمعكم بهم. فإياكم أن تركنوا إليهم، ولاتكن بينكم وبينهم موالاة تتناصرون بها، وحتى لا يختلط عليكم الأمر أو تخدعكم الشبه، فإن السمة التي تدل على صدق الإيمان هي المهاجرة في سبيل

مرضاة الله إلى المدينة المنورة فمن قعد فقعوده شارة ضلاله وكفره. فطبقوا عليه أحكام الكفرة.

بهذه العلامة الفارقة يكون موقفكم منهم، فإن هم سكنوا إلى البقاء في مكة ولم يهاجروا فعاملوهم معاملة الكافرين الذين أشهروا الحرب على الإسلام، كونوا أقوياء في مواجهتهم، خذوهم واقتلوهم في أي مكان كانوا، وإياكم أن تعتمدوا على موالاتهم فتنبئوهم أسراركم أو ترتبوا جهادكم على الانتصار بهم.

### 90-إلا الذين يصلون إلى قوم...سبيلا.

ولما كان من ثوابت الأمة الإسلامية أنها تفي بعهودها ولا تنقضها، استثنى القرآن من أولئك الذين حرض المسلمين على قتالهم.

أولا: الذين ينتسبون إلى قوم عاهدوا رسول الله ﷺ على عدم القتال

ثانيا: الذين وردوا إلى المدينة مسلمين بميثاق مع رسول الله أنهم لا يقاتلون قومهم معه، ولا يقاتلون المسلمين، وكان ذلك قبل فتح مكة. ثم نسخ هذا الحكم لما قوي المسلمون فمن يدخل في الإسلام لا يتخير من أحكامه ما يوافق روابطه السابقة. اهتمت الآية بهؤلاء فأوضحت أنهم صادقون في إيمانهم، لأنهم كانوا محرجين (حصرت صدورهم) موزعين بين الوفاء لأهل ملتهم الجديدة (المسلمين) لا يرضون أن يقاتلوهم وبين ما تأصل في نفوسهم من احترام صلة القرابة التي تجمعهم بمن بقي مشركا من أهليهم، واكتفى منهم رسول الله ﷺ بذلك ليأمن جانبهم ويضعف بذلك حزب الكفر في أول الأمر. ومن كان من المسلمين يجد في هذا الاستثناء مهادنة للكفر، عرفه القرآن: بأن الله لو شاء أن يمنعهم الإيمان لتسلطوا. عليكم فوضعكم مع مهادنتهم خير لكم، في الوقت الذي ما زلتم فيه قليلي العدد، فلما أمنتم جانبهم، وعبروا عن انقيادهم لكم ورضاهم بالإسلام، فإن الله الذي أمركم بقتال الكافرين لم يأذن لكم بقتال هؤلاء.

### 91-كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها... سلطانا مبينا.

ثم تعرضت الآية لنوع آخر عرفهم بأنهم لا يهمهم إلا أن يضمنوا الأمن لأنفسهم هادنوا المشركين ليأمنوا على مكاسبهم وهم في مهادنتهم هذه يرضون بالعودة إلى الكفر على أسوأ وجه، فقد طلب منهم كفار قريش أن يسجدوا لغير الله فسجدوا. ويريدون أن يأمنوا بطشكم فأظهروا لكم الإسلام، وهم في بواطنهم لا يهمهم الإسلام ولا الشرك ولكن كل همهم أن يفوزوا بالأمن من جميع الأطراف. فعلاقة هؤلاء بالمسلمين علاقة غير واضحة، ولذا خالف القرآن بينهم وبين ما تقدم، فعلى

المسلمين أن يكونوا منهم على حذر، ولا يكتفى منهم بــالقول، فــإذا لــم يعتزلــوا قتــالكم، ولم يقدموا لكم ما يفيد طاعتهم لكــم، وأعــانوا أعــداءكم علــيكم أو عملــوا مــا يــؤذيكم، فادفعوا مكرهم بالاستيلاء عليهم وقتلهم أينمــا كــانوا، وهــؤلاء لتلاعــبهم، قــد جعــل الله لكم عليهم الحجة الواضحة من أفعالهم فلا تخشوا ملاما على التنكيل بهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**رقبة:** رقيق، إنسان فاقد لحريته.

**الدية:** المال الذي يدفع لعائلة القتيل ونوعه ومقداره يعلم من الشرح.

**يصدقوا:** يتنازلوا عن طلب الدية.

**ميثاق:** عهد مسالمة.

### بيان المعنى الإجمالي:

حفظ الإسلام للمــؤمنين حيــاتهم، فــالمؤمن فــي المجتمــع الإســلامي لا يخشــى علــى حياته، ولا يتصور من مسلم أن يقتل أخاه المســلم إلا إذا كــان عــن خطــإ. ومــن قتــل مؤمنا خطأ فالواجب، لجبر هذه الواقعة الأليمة أن يحــرر عبــدا مســلما فيعــوض للأمــة الإسلامية عن خسارتها بتكميل إنسانيته. وأن تــدفع أســرة القاتــل (العاقلــة) ديــة لعائلــة القتيل مقدر نوعها حسب ثروة مجتمع القتيل مــن أهــل الــنعم أو مــن أهــل النقــود. وإذا كان القتيل مؤمنا وأهله كفار ليس بيننــا وبيــنهم عهــد مســالمة فالواجــب تحريــر رقبــة مؤمنة فقط. أما إذا كانت بيننا وبــين قومــه معاهــدة عــدم اعتــداء فالواجــب فــي هــذه الحالة الدية تسلم إلى أهله المعاهــدين وتحريــر رقبــة مؤمنــة. ومــن لــم يــتمكن مــن تحرير رقبة مؤمنة لفقره أو لعدم وجودها، كما هــو الحــال الآن، فعلــى القاتــل خطــأ أن يصوم شهرين، ستين يوما، يتابع الصــوم، فلــو قطــع صــومه وجــب عليــه اســتئناف الصوم المتتابع. وذلك قصد أن يتــوب الله عليــه، لأنــه أتــى أمــرا عظيمــا، إذ الخطــأ

يتحمل المخطئ فيه نصيبا من المسؤولية لأنه في معظم الأحوال لا يكون إلا عن تقصير قلّ أو كثُر.

الحالة القطيعة الرّابعة أن يقتل مؤمنا متعمدا. ومن قتل مؤمنا متعمدا فالوعيد الذي حكم به الله عليه أنه سيدخله جهنم وسيخلد في العذاب، على معنى طول الأمد الذي يقضيه في جهنم، أو أنه لا مطمع له في الخروج منها أصلا، ومع ذلك لعنة تلحقه لا يجد منها فكاكا، وعذاب عظيم لا شك في إهانته وتعذيبه به.

## بيان المعنى العام:

## 92-وما كان لمؤمن ولا مؤمنة...عليما حكيما.

بعد تفصيل بعض ما يتعلق بقتال الكافرين وقتلهم فصل القرآن تشريع من يقتل نفسا بشرية في غير الجهاد في سبيل الله. وهو تفصيل وتوضيح أيضا لبعض العلاقات الاجتماعية وما يترتب على الخطأ والعمد فيها إذا بلغت إلى القتل.

افتتحت الآية بأن صلة المؤمن بأخيه المؤمن سَمَتْ إلى حد أن الإيمان صيرهما كشخص واحد، يفهم هذا من قوله تعالى **(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ)** أي إنه لا يتصور أن يقصد المؤمن إلى قتل أخيه، إلا أن يكون ما وقع تم على سبيل الخطأ. فالمسلمون قد حولهم الإيمان من قوم هانت عندهم حياة غيرهم أخذا بثأر أو ردا لمهانة أو للاستيلاء على مال حولهم إلى أن القتل أصبح غير متصور بينهم إلا أن يكون خطأ لا عمدا.

والقتل تعدٍ على الحياة، لا يجامع الإيمان الذي من ثوابته أن الحياة مصونة لا يتصرف فيها إلا الله وحده ولا يقدم أحد على إزهاقها إلا بإذنه. ولم يبق من صور القتل إلا أن يقع على سبيل الخطأ. فتحقق بهذا الدين أمنُ الناس على حياتهم التي هي من أعز ما يحرص البشر عليه، وهي من أعظم مهمات الدول والحكومات.

عالج الإسلام ما لا يمكن التحرز منه ( القتل الخطأ) وفصل أحكامه كما يلي:

أولا: إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ، فكون القتل وقع خطأ لا يرفع الواقع المؤلم: أن نفسا بشرية قُضي عليها. وما يهدف إليه القرآن في هذه الحالة هو التخفيف من وقع المصيبة التي رزئت بها عائلة القتيل بفقدها عنصرا من عناصرها، ورزئت بها الأمة الإسلامية بموت أحد أعضائها، والمؤمن عزيز على المؤمنين. وتخفيفا من وقع المصيبة أوجب على القاتل أن يحرر مؤمنا من أسر الرق، فيجبر للأمة الإسلامية ما خسرته باستكمال الرقيق المؤمن شخصيته، بفكاكه من أسر الرق، فيتحول بتحريره إلى عضو كامل في المجتمع الإسلامي. وتجبر العاقلة وهي الأسرة الكبيرة للقاتل، تواسي القاتل فيما وقع فيه وتواسي عائلة القتيل، فتدفع لعائلته

الدية. التي تختلف بين كون القتيل من سكان المدن، فتدفع لهم مائتين وخمسين وأربعة آلاف غرام من الذهب (250 ك 4) من الذهب أو ما يوازي قيمتها من العملة المحلية. وإذا كان من أهل البادية الذين ثروتهم من الإبل، فإن قيمة الدية مائة من الإبل معين سنها بالسنة النبوية، وإن كانت ثروتهم من الشاء فألفا شاة. ولأسرة القتيل أن تعفو عن الدية وبعفوها تسقط المطالبة. وتدفع موزعة على ثلاث سنين. وللدية أحكام مفصلة تفصيلا بينا في كتب الفقه.

ثانيا: إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ، وعائلته كافرة معادية للأمة الإسلامية، فالواجب في هذه الحالة تحرير مسلم من أسر الرق. ولادية.

ثالثا: إذا كان القتيل مؤمنا من قوم كافرين بينهم وبين الدولة الإسلامية عهد مسالمة، فالواجب تحرير رقبة مؤمنة. ومعها الدية كما تقرر في القسم الأول.

إنه في جميع الأحوال المذكورة التي يجب فيها على القاتل أن يحرر رقبة، ولكنه إن كان فقيرا لا يتمكن من قيمة العبد الذي سيحرره، فإن الواجب عليه في هذه الحالة أن يصوم شهرين متتابعين،. ستين يوما.

واعلموا أن هذا التشريع هو فاتح للأمل في توبة الله على القاتل لأنه أتى أمرا عظيما، وإن كان عن خطأ. لأن المخطئ في معظم الأحوال ما أخطأ إلا لكونه تساهل في بعض الاحتياطات، وقصر في الحذر.

### 93- ومن يقتل مؤمن متعمدا...عذابا عظيما.

رابعا: قصد القاتل إزهاق روح مؤمنة، هذا القاتل هو عنصر فسد وفقد إحساسه بصلاته الإنسانية والإيمانية، وقست روحه ومداركه قسوة قطع بها الروابط التي تجمعه بالبشرية وبالأمة الإسلامية. إن شناعة القتل تتجاوز كل وصف وتنزل إلى أحط دركات السفالة. إن القاتل لا يغطي إثم ما أقدم عليه كفارة، لا صيام ولا دية. لا يأمل في أي فضل من الله وهو معنى الغضب. وأعلن أنه أبعده بعدا لا أمل معه في رحمة الله التي وسعت كل شيء: البشر والحيوان والجماد والصالح والمسرف على نفسه، فهو مستثنى منها والعياذ بالله. إن جزاءه في الآخرة أنه خالد في النار. وهل خلوده تعبير عن طول مكثه في النار طولا مسترسلا إلى آماد بعيدة، أو هو لا يخرج من النار أصلا، وهل تقبل توبة القاتل أو لا تقبل ؟ اختلف علماء الدين في ذلك اختلافا كبيرا. وقد يكون من الحكمة أن يفقد القاتل الطمأنينة في بقية عمره، فهو لا يعلم مصيره ولا يستطيع أي عالم أن ينفث في روحه برد اليقين، فيكون هذا أول جزائه من العذاب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**الضرب في الأرض:** السير فيها.

**تبينوا:** تأملوا وتثبتوا.

**عرض الحياة:** متاع الحياة.

**أولي الضرر:** من بهم نقص يقعد بهم عن القتال.

**وعد الله الحسنى:** وعد الله الجنة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

خرجت سرية من جيش المسلمين فلقيت في طريقها رجلا على جمل فقتلته بالرّغم عن كونه خاطبهم بما يفيد إسلامه. ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالحادثة أنكر على القاتل أشد الإنكار، ودفع ديته لأهله . ثم أنزل الله هذه الآية إنكارا وتوبيخا للقاتل، وإرشادا وتشريعا عاما. فالتشريع في إيجاب التثبت وعدم العجلة في جميع الأمور. والتوبيخ كان شديدا موازنا للفعلة المنكرة. وبخهم على الإسراع بالقتل والدافع إليه حب الاستيلاء على الغنيمة، ووبخهم على عجلة ثانية لأن الله وعد المؤمنين بالنصر، مما يترتب عنه مغانم كثيرة، ووبخهم ثالثا لأن حالهم كان كحال القتيل، كانوا كافرين فعبروا عن دخولهم للإسلام بكلمة الإسلام، فلو لم يُصدّقوا لقتلوا. وأكد إرشادهم إلى عدم العجلة وحرك ضمائرهم ليرهبوا، وذلك لأن الله يعلم الدوافع الخفية.

ثم نوه القرآن بالمجاهدين بعد اللوم الموجه للذين لم يتثبتوا منهم. وفي تنويهه بهم ميز المجاهدين عن المؤمنين الذين لم يشاركوا في الجهاد، مبديا عذر غير الممكنين منه لعجزهم عنه. وقد وعد الله في هذه الآية وعدا مؤكدا المجاهدين بأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله بالمنزلة الرفيعة في الجنة، وأنهم سيدخلونها بصحيفة أعمال غير ملوثة بذنب، لأن من جزائهم أيضا مغفرة ذنوبهم وتتنزل عليهم الرّحمات بما يكسبهم الرّضا. ولرفع كل لبس صرح القرآن بأن الله وعد ووعده لا يخلف: أن مآل المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين، مآلهم الجنة، لا يحبط تخلفهم عن الجهاد صالح أعمالهم.

## بيان المعنى العام:

## 94-يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم... خبيرا

فصلت الآيات السابقة بعض ما يتعلق بقتل المؤمن غيره. فذكرت قتل الخطأ وقتل العمد. ومن صور قتل العمد ما فصلته هذه الآية التي نزلت عند حادثة رواها البخاري وغيره. أن سرية لقيت رجلا على بعيره فظننته كافرا رغم أنه بدأهم بالسلام. فتقدم له أحدهم وقتله وغنموا جمله وما كان معه من متاع. ولما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم عاتب من قتله عتابا شديدا وأنزل الله هذه الآية جامعة بين توبيخ القاتل، ومفصلة تشريعا وإرشادا للمسلمين عندما يعترضهم من لا يعرفون أنه مسلم، أن عليهم أن لا يتعجلوا وأن يتثبتوا. وكان نسج الآية مرتبطا بالحادثة، إذا عرضت الأمر بكون المسلمين مسافرين (إذا ضربتم في الأرض) مع أن الحكم واحد في السفر والحضر. فالأمر بالتثبت وعدم التسرع في الحكم على من لا يعلم كفره، والإقدام على قتله أمر لا يقبل من المؤمنين الذين عظّم الإسلام في قلوبهم حرمة الحياة. ثم ضاعف التوبيخ بأن القتل قد نفّذ بعد أن عبر المقتول بما يفيد إسلامه وكذّب بغير دليل. وأعلنت الآية عن الدافع للعجلة أن القاتل كان يريد الفوز بالغنيمة: الجمل والمتاع. وما قيمة ما غنم ؟إن هو إلا متاع الحياة الدنيا القليل الزائل. ومبالغة في إنكار ما تم، ذكرهم:

أولا: بأن الله وعد المؤمنين بأنه سيفتح عليهم نصره، وسيغنمون الغنائم الكثيرة

ثانيا: خاطبهم: إن وضعكم كان شبيها بوضع هذا الرّجل الذي قتلتموه، إذ كنتم كفارا فمن الله عليكم بهدايتكم للإسلام فأسلمتم بكلمة الإسلام، فلو كُذّبتم في دعواكم وأعمل السيف في رقابكم أكان يرضيكم ذلك؟ وإذ قد أنبهم التأنيب البالغ، أعاد التأكيد على وجوب التحلي بالتثبت وعدم العجلة، وحذرهم بأن الله يعلم الدوافع الخفية الكامنة في النفوس.

## 95-96، يستوي القاعدون...غفورا رحيما.

وبعد أن وبخ المتعجلين غير المتثبتين من المجاهدين، انتقل القرآن إلى التنويه بالمجاهدين، فذكر أن المجاهدين لهم مقام رفيع. وقسم المسلمين إلى ثلاثة أقسام:

1)المجاهدين.

2) الأصحاء القاعدين الذين لم يشاركوا في الجهاد.

3)الذين بهم عاهة من عمى أو عجز عن المشي أو مرض ونحو ذلك. فعذر القسم الثالث، ولم يدخلهم في الموازنة، وإن أجرهم يتبع حسن نياتهم وما يسهمون به في الجهاد من أموال وسلاح وتجهيزات.

ولإبراز مزايا الجهاد، عقد القرآن مقارنة بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المؤمنين المجاهدين بأموالهم التي يبذلونها لتجهيز الجيوش، وبأنفسهم بما يتعرضون له من أخطار الحرب على حياتهم أو سلامة أعضائهم فصرح بأنهم متفاوتون في مقامهم عند الله رغم اتحادهم في كونهم مؤمنين. فقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على بقية المؤمنين الذين لم يشاركوا في الدفاع عن الأمة ونشر دين الله، فضلهم فسما بهم عن غيرهم بدرجة عظيمة. ويشعر التنويه وتنكير الدرجة بأنها مقام عليّ عند الله. وحتى لا يظن بالمؤمنين القاعدين نقص في إيمانهم أو حطة في مآلهم، نبه القرآن على أن الله وعد، ووعده لا يخلف، أن كل من حلت بشاشة الإيمان قلبه فإن جزاءه الجنة بما تشمله من الرّضا والنعيم.

وإذ جمع بين كل المؤمنين في حسن العاقبة، ثنى بالتنصيص مرة أخرى على تفضيل المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم، وفسره بأنه درجات يعلون بها متميزين بها على غيرهم، وأن الله هو الذي يتولى منحهم إياها بدون واسطة كما تشير إليه (منه) ومع هذه الدرجات، التطهير من جميع الذنوب فيقبلون على ربهم صفحة بيضاء نقية خالية من ظلمة الذنوب وغبش التقصير، فتتنزل عليهم الرّحمات التي تسكن معها القلوب والأرواح إلى ما رزقوه من فضل وكرامة، وهذا جار على ما ثبت لله من كونه الغفور الرّحيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

### بيان معنى الألفاظ:

**توفاهم:** تقبض أرواحهم.

**ظلم النفس:** أن يفعل الإنسان فعلا يؤول إلى مضرته.

**مستضعف:** الذي يعده المتسلط عليه ضعيفا فلا يعبأ به.

**مراغما:** مكانا من الأرض يذهب فيه.

**وقع:** ثبت.

### بيان المعنى الإجمالي:

لما أذن للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة خرج معه معظم المسلمين، وبقي البعض بمكة، فمنهم من فتن في دينه وكفر، ومنهم من بقي مستخفيا مؤمنا بقلبه بعيدا عن الرّسول وعن الجماعة الإسلامية. وهؤلاء خرجوا يوم بدر مع المشركين، ومنهم من قتل واختلف المسلمون فيهم فبعضهم أعلن أن المقيمين في مكة إخوانهم كاتبوهم بثباتهم على الإيمان، ورأى معظم الصحابة أنهم بقعودهم في بلد الكفر قد ارتكبوا أمرا عظيمَ فساده، كبيرَ شره. فنزلت هذه الآية التي وصفت حالتهم عندما ماتوا. فقد صاحب قبض أرواحهم من ملائكة الموت، توبيخهم وتعييرهم بأنهم قد ظلموا أنفسهم، وأنهم سألوهم سؤال تقريع وتوبيخ: في أي وضع كنتم إذ تخلفتم عن الهجرة؟ كان جوابهم أنهم قبلوا لضعفهم تسلط الكفار عليهم. واصل الملائكة سؤالهم: لما ذا لم تهاجروا في أرض الله الواسعة وبقيتم تحت القهر ؟ فلم يجدوا لأنفسهم عذرا، وأعلم القرآن بأن مصيرهم إلى جهنم أسوأ مصير. ثم إن القرآن وهو يصف ما حصل لهؤلاء الباقين في مكة، استثنى الذين كانوا فعلا مستضعفين من الرّجال والنساء والولدان، الذين ليس لهم من التجربة والذكاء ما يجدون معه حيلة للخروج من مكة، والذين أقعدهم النقص الملازم لهم كالعمى، عن الاهتداء إلى المدينة. ولذا فإن الله يؤملهم في العفو عنهم ،ويقرب لهم الأمل بأن الله عفو غفور. وحرك الهمم والعزائم للهجرة، بأن أرض الله واسعة لا تضيق بالبشر، فكل من هاجر وترك موطنه لينجو بدينه يجد في أرض الله التراب الواسع الذي يأويه ويقوته. ومع التنبيه على الجوانب المادية الميسرة للهجرة عرض القرآن فضلا آخر من الله على من خرج من موطنه مهاجرا إلى الموضع الذي يحقق فيه

رضوان الله ورسوله، ثم يموت في الطريــق، فــإن الله يــدخر لــه ثــواب هجرتــه غيــر منقوص. والله غفور رحيم.

### بيان المعنى العام:

### 97-إنّ الذين توفاهم الملائكة...وساءت مصيرا.

أذن الله لنبيه أن يهاجر مع المؤمنين مــن مكــة إلــى المدينــة. ونفــذ الجميــع أمــر الله، وبقي البعض بمكة لم يهاجر، فمنهم من فتن في دينــه ورجــع إلــى الكفــر، ومــنهم مــن بقي مستخفيا لا يظهر الكفر ولا الإيمان إلــى أن فتحــت مكــة وســاد الــدين الإســلامي فيها. ومن هؤلاء الذين لم يهــاجروا مــن خــرج مــع المشــركين يــوم بــدر، فبعضــهم أسر، ومنهم من مات على تلك الحالة. فما هــو وضــعهم ؟ نــزل القــرآن كاشــفا مجيبــا عن هذا السؤال، مجسما مصيرهم وما ينتظــرهم. وكــان الأســلوب أسلوبا بــث الحيــاة والحركة في المشهد.

الصورة تتضمن حدثا ومحاورة لم يطلع علــى تفاصــيلها إلا الله، فســجلها القــرآن بأبــدع تصوير في هذه الآية: جثث جماعــة ظالمــة لنفســها بتقاعســها عــن الهجــرة، وفســاد تدبير أمرها ببقائها بمكة فــي الوقــت الــذي اختــارت الكثــرة الكــاثرة مــن المــؤمنين الهجرة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة. وبخــتهم الملائكــة لمــا قبضــوا أرواحهــم وجرت بينهم المحاورة التالية: قالت لهم الملائكة فــي أي وضــع كنــتم باختيــاركم البقــاء في مكة ؟ أجابوهم بأنهم لم تكن لهم شوكة تمنعهم وأجبــرهم أهــل مكــة علــى طــاعتهم. وهذه تعلة غيــر مقبولــة :فقــال لهــم الملائكــة: ألا تعلمــون أن أرض الله واســعة لــم تضق عليكم، يمكنكم أن تجدوا في فضائها الرّحــب مــأوى لكــم ومتّســعا مــن العــيش؟ وإذ قد سقطت كل تعلاتهم وألزموا بتعمدهم التقصير والرّضــا بالبقــاء مــع أهــل الكفــر، أعلن القرآن جزاءهم: أن المأوى الذي يصيرون إليه، جهــنم أســوأ مصــير يصــير إليــه الإنسان. والظاهر أن هؤلاء لم يرتدوا، وإنما مــالأوا الكفــار ولــم يهــاجروا فــي الوقــت الذي كانت الهجرة فيه إلى المدينة من أوكد الواجبــات. ذلــك أن هــذا الحــوار لا يواجــه به الكفار، وَوُجّه به هؤلاء لتقصيرهم التقصير غيــر المغتفــر، لأنــه فــي الوقــت الــذي كان فيه المسلمون في حاجة إلى تقوية صــفهم، ويــربكهم أن يتعلــل بعضــهم بمصــالحه ولا يلتحق بالصف المسلم.

### 98-99إلا المستضعفين من الرّجال...عفوّا غفورا.

والله، الموصوف بالعدل والفضــل، راعــى المستضــعفين حقــا، مــن الرّجــال والنســاء والولدان، الذين لا يستطيعون حماية أنفســهم مــن ظلــم المشــركين المســتكبرين، ولــيس

لهم من الذكاء والنباهة ما يمكنهم من التخلص، أو لا يهتدون للطريق الذي يؤمن لهم بلوغ المدينة كالعميان. أولئك يرجى عفو الله عنهم فلا يحاسبهم على عدم هجرتهم. وأكد رجاء العفو بأن الله متصف بالعفو والمغفرة.

ولما كان العفو صادرا من الله وهو العليم بما قرره في شأنهم علما لا احتمال فيه، فلماذا عبر بعسى التي تفيد الاحتمال لعله من بلاغة القرآن إبراز هذا العفو في صورة الرّجاء ليدرك المخاطبون عزته وأنه لا يتحقق إلا بما يقرره الله الذي لم يُطلع أحدا على غيبه هذا. والحكم المستفاد من هذه الآية كان مرتبطا بوضع الجماعة الإسلامية في الفترة السابقة لفتح مكة. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن أن لا هجرة بعد الفتح لأن مكة أصبحت دار إسلام. فنسخ حكم الهجرة بعد الفتح. وقد عقب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله على هذه الآية، بأنه وإن نسخ حكمها إلا أن العلماء في إعمالهم للنظر عن طريق القياس بحثوا في حكم إقامة المؤمن في غير بلاد الإسلام. وهو تحقيق نفيس اعتمدته ولخصته. والأحوال الأصلية التي يتعرض لها المسلم في غير البلد الذي تطبق فيه الأحكام الإسلامية يتصور بست صور:

الصورة الأولى: أن يكون مكان إقامة المسلم بلدا يفتن فيه المسلم في دينه، بما يجبره على مفارقة الإسلام. وحكم هؤلاء أنهم يستوون مع الذين نزلت فيهم الآية، والواجب عليهم أن يهاجروا ليسلم لهم دينهم.

الصورة الثانية: أن يكون الوضع لا يبلغ الفتنة في الدين، ولكن لا تسلم للمقيم حياة تحقق له أمنه على نفسه ومكاسبه، بأن يكون عرضة للقتل أو التعذيب أو مصادرة مكاسبه. وهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد يكون آمنا فيه.

الصورة الثالثة: أن يكون مقيما ببلد استولى على مقاليد الحكم فيه غير المسلمين، وضمنوا للمتساكنين حرية العقيدة، ويجبرون الجميع على الرّضوخ لأحكامهم في جميع القضايا. وهذا وضع المسلمين المقيمين في الغرب اليوم. وذكر أنه اختلف فيه قول المالكية فكرهه مالك كراهة شديدة، وحمل الكراهة بعض حذاق علماء المذهب على الحرمة. إنه نظرا لأوضاع المسلمين الاقتصادية اليوم، وقد انتشر الفقر فيهم، ونظرا إلى أن معظم الحكومات الإسلامية لا تلتزم في أحكامها بالإسلام، ونظرا إلى ما يستفيده المهاجرون من التمكن العلمي والتقني وفن العمل الدقيق مما يمكن أن يسمو بالوضع الاقتصادي والعلمي في بلدانهم عندما يعودون إليها أو عندما يقيمون بها مشاريع تقرب الشقة التي تزداد اتساعا وعمقا كل يوم بين العالم المتقدم اقتصاديا وبين عالمنا الإسلامي، لكل ذلك فإنه يترجح عندي أن المقيمين في بلاد

الغرب لا حرمة عليهم في إقامتهم بها. وعلى الدول الإسلامية أن تعنى بهم بما يثبتهم على دينهم ويبقي على الصلة التي تجمعهم بأوطانهم قوية مشعة

الصورة الرابعة: أن يتسلط الكفار على بلد إسلامي فيسلبون منه السلطة السياسية ويضمنون الحرية الدينية ولا يتدخلون في الأحكام التي تجري على المسلمين، كما وقع في صقلية عندما استولى عليها النرمان. وكما وقع في غرناطة في المعاهدة الأولى التي ضمنت للمسلمين إجراء حياتهم الدينية على أصول الإسلام عبادة ومعاملات وقضاء، فأقام بها بعضهم وهاجر قسم آخر. ولم يعب المهاجر على المقيم. مما يفيد أن الهجرة ليست واجبة.

الصورة الخامسة: أن يتسلط غير المسلمين على بلد إسلامي فتكون لهم السلطة العليا، ولا يغيرون أنظمة حكمها تغييرا كاملا. ويبقون على المسلم صاحب السلطة فيها، ولا يتدخلون في الحياة الدينية ولا في الأحكام، وخاصة الأحوال الشخصية. كما تم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في مصر وتونس والعراق والمغرب وسوريا وليبيا... وهذه الصورة واضح أنه لا يجب على أهلها الهجرة من بلدهم.

الصورة السادسة: أن يشيع في بلد إقامة المسلم المناكر والبدع، وتغيير بعض الأحكام على ما يخالف الأحكام الشرعية مخالفة صريحة، ولا يستطيع المقيم الإنكار ولا التغيير إلا بالقول، أو هو لا يستطيع ذلك. والمنقول عن مالك وجوب الخروج منها. ويلاحظ الشيخ ابن عاشور أنه وقع مثل هذه الحالة في القيروان مدة تسلط العبيديين، ولم يخرج منها علماؤها ولا الصالحون. وضرب مثلا ببقاء الشيخ محمد بن أبي زيد. وهو من هو علما وفضلا وتقوى وصلاحا. ويلاحظ أمران على هذا التدقيق العلمي:

أولهما: أن الأوضاع السياسية قد تغيرت تغيرا كبيرا، فلا يستطيع أي مسلم أن يقيم في بلد غير بلده إلا بجواز سفر وبموافقة مسبقة من سلطات البلد المقصود ولمدة محددة.

ثانيهما: أن على المسلمين الذين قهرهم العدو وتسلط عليهم أن لا يستسلموا للقهر استسلاما نهائيا فإن الاستسلام الكامل والخروج من الأوطان هو عبارة عن موت الشعب من ناحية، وتأييد للغاصب من ناحية أخرى.

فالحل الواجب عليهم في نظري: أن يصبروا صبرا إيجابيا بالعمل بشتى الطرق الظاهرة والخفية لمقاومة التسلط الباغي، وأن لا يستسلموا ولا أن يسلموا وطنهم ويفرغوه لمن غزاهم. وأن يتحدوه بتخطيط محكم يحقق لهم مباشرة عباداتهم الضامنة لاستمرار الارتباط بالجامعة الإسلامية وبقاء الدين في خلفهم. وأن

يخططوا وينفذوا ما يزعزع الغزاة حتّى ينهكوهم ويستردوا سيادتهم المسلوبة. ولا أرى الفرار زيادة عن كونه أصبح غير ممكن، حلا صالحا. والله أعلم.

**100-ومن يهاجر في سبيل الله...غفورا رحيما.**

ومن يهاجر في سبيل الله... ثم أيقظ البشر إلى أن حرية الإنسان لا تقهر لمكان الإقامة، فإن الله خلق الأرض فسيحة، يجد كل صاحب عزم فيها مجالا واسعا. والرّغام أصل معناه التراب. وفوق تراب هذه الأرض، يجد كل إنسان مكانا يأوي إليه ويقيم فيه ومنه يخرج قوته ويواصل حياته عزيزا. ثم عقب الجانب المادي بالجانب الرّوحي الذي يبرز فيه كمال الفضل الإلهي، فذكر أن من عقد العزم على الالتحاق بالمدينة وخرج مهاجرا إلى الموضع الذي يرضاه الله ويجاور فيه رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يموت في الطريق وينفذ فيه القضاء المبرم، قبل أن يبلغ غايته، فإن الله بكريم فضله قد ضمن له أجر من هاجر فعلا. ويلحقه بكوكبة الصحابة الذين فازوا بذلكم المقام. ويتأكد ذلك بأن الله غفور رحيم.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (101) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا (103) وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

**بيان معنى الألفاظ:**

**ضربتم في الأرض:** سافرتم.

**أمتعتكم:** جمع متاع وهو كل ما ينتفع به الإنسان من آلة الحرب وغيرها.

**يميلون:** يكرون ويشدون عليكم.

**ميلة واحدة:** مستأصلة لا تحتاج إلى ثانية.

**يفتنكم:** يمتحنكم بالحمل عليكم.

**أقمت لهم:** أديتها على الوجه الكامل بأركانهـا وطريقـة أدائهـا لا كيفمـا اتفـق كحـال المسايفة الذي تؤدى فيه الصلاة على الوجه الممكن.

**كتابا موقوتا:** فرضا محددا بأوقات.

**لا تهنوا:** لا تضعفوا.

**ابتغاء القوم :** طلبهم.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أمران أساسيان أكدتهما الآيات. الأول: أن المكلف مطالـب بإقامـة الصـلاة فـي جميـع الظروف والأحوال التي هو مخاطب فيها بـأداء الصـلاة، وأن الله يسـر عليـه إذا كـان يجد مشقة. والثاني: أن على المـؤمن أن لا يتراخـى وأن يكـون حازمـا فـي الاسـتعداد للجهاد. فإذا كان مسافرا مجاهـدا فـلا إثـم عليـه إذا صـلى الظهـر ركعتـين وكـذلك العصر والعشاء. وأنه إذا كان المؤمنـون فـي غـزوة يـؤمهم فيهـا النبـي ﷺ ، وكـل واحد من المسلمين يرغب في الائتمام برسول الله ﷺ ، فإنـه يقسـم الجـيش إلـى فـرقين: تصلي الفرقة الأولى معه ركعة وتكمـل الصـلاة وحـدها وتسـلم؛ وفـي هـذه الحالـة يكون باقي الجيش يحرس المصـلين، فـإذا أتمـت قـدمت الفرقـة الثانيـة وصـلت مـع رسول الله ﷺ ركعة يسـلم إثرهـا رسـول الله ﷺ، وتكمـل هـذه الفرقـة الثانيـة ركعـة وتسلم. وعلى كل فرقة أن تأخذ سـلاحها عنـد أداء الصـلاة، ولا تتهـاون فـإن الأعـداء يترصدون منكم غفلة لينقضوا عليكم بضربة سـاحقة. ومـن تعـذر عليـه حمـل سـلاحه في الصلاة لمرض وهَـن قـواه أو لوحـل مطـر فـإن الله لا يكلـف الإنسـان إلا مـا يطيقه، لكن المهم أن تكونـوا يقظـين. ويطمـئن الله جـيش الإسـلام بـأن الله سيسـعفهم بتأييده ويوهن أمر الكافرين فيسلط عليهم من العـذاب مـا يهينـهم بـه. ولا تغفلـوا عـن ذكر الله بعد إتمام الصلاة على أي حالة كنتم قائمين أو قاعدين أو على جنوبكم.

إذا حصلت لكم الطمأنينة بانتهاء المعركـة أو برجـوعكم إلـى ديـاركم فـأتموا الصـلاة، ولا تغفلوا عن أدائها في أوقاتهـا. إن الصـلاة ركـن وفـرض مؤكـد مضـبوط بأوقـات محددة. ولا تضعفوا في طلـب الكفـار فـإنكم وإن اسـتويتم معهـم فيمـا مـن شـأنه أن يصيب المقاتل، فإنكم تتميزون عليهم بوثوقكم بتأييـد الله. فـأنتم بـذلك علـى رجـاء مـن النصر أو الشهادة. والله عليم بما تعملون ومـا يجـري فـي ضـمائركم فسـوف يجـزيكم ما وعدكم، وهو الحكيم الذي أرشدكم إلى ما يهديكم في الحاضر والمصير.

**بيان المعنى العام:**

## 101- وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح...عدوا مبينا.

تتابعت هذه الآيات. وهي في مجموعها تؤكد وتنبه المؤمنين على قيمة الصلاة والحرص على أدائها في أوقاتها، باعتبار أنها تحيي الرّوح وتطهر النفس مما يمكن أن يكون قد علق بها من أوضار المادة، وتجدد صلة الإنسان بربه، هذه الصلة التي تهدي إلى الطريق المستقيم وتساعد على التقوى وفعل الخير. وبصفة عامة تعمق الإيمان وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

والصلاة لا تسقط عن المكلف إلا عند فقد الوعي. فسواء أكان صحيحا أو مريضا، مقيما أو مسافرا، في حالة جهاد أوفي حالة سلم، هو في جميع الظروف مطالب بأداء الصلاة في وقتها. وتأخيرها عن وقتها المحدد لغير ضرورة من الضرورات المعتبرة شرعا، كبيرة من الكبائر تحتم على المتخلف التوبة وقضاء ما فاته والالتجاء إلى الله أن يغفر له ذنبه. كيف لا وهو قد تعمد قطع صلته بالله.

والله الذي فرض الصلاة متكررة في اليوم وفي كل يوم، راعى بفضله ما يمكن أن يتعرض له المصلي من مشقة في بعض الظروف فيسر عليه أداءها في وقتها مع التخفيف. ومن ذلك المسافر والمجاهد في سبيل الله وقت الحر. فذكر سبحانه في هذه الآية حكم صلاة المسافر المجاهد. وسأقتصر على شرح معنى الآيات عل ما يقتضيه ظاهرها، وأحيل القارئ الكريم الذي يرغب في الاطلاع على تفاصيل أحكام صلاة الخوف على ما فصله الفقهاء.

أعلم الله المؤمنين أولا: أنهم إذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، أنه خفف عنهم، وأنه لا إثم عليهم إذا قصروا صلاتهم الرّباعية إلى ركعتين، الظهر والعصر والعشاء. وعلل ذلك باحتمال أن ينقضّ الذين كفروا عليكم عند أدائكم الصلوات كاملة كحال الأمن، وقد تبين لكم أن الكافرين أعداء لكم عداوة ظاهرة.

## 102-وإذا كنت فيهم فأقمت لهم...أعد للكافرين عذابا مهينا.

ثم تعرضت الآية إلى حالة ثانية فيها تخفيف على المجاهدين إذا كان الرّسول معهم وهم حريصون على الائتمام به، أن يقسم الجيش الذي معه إلى قسمين. قسم يصلي مع النبي ﷺ ركعة، ويكون القسم الثاني في مواجهة العدو، ويتم هذا القسم الأول الرّكعة الثانية وحده، وبعد تسليمهم، يأتي القسم الآخر الذي كان في مواجهة العدو فيصلي مع النبي ﷺ ركعة، ويسلم النبي ﷺ ، ويتمون صلاتهم بعد سلامه. وبذلك يكون الجيش كله قد فاز بالصلاة معه. ورأى معظم الفقهاء أن أمراء الجيش لهم هذه المزية بالصلاة بالجيش على فرقتين تصلي كل فرقة مع قائد الجيش ركعة.

ورأى بعضهم أن هذا الحكم خاص برسول الله ﷺ، فإذا لم يكن حاضرا مع الجيش صلى كل فريق بإمامهم ركعتين.

وعلى المصلين مع الرّسول أولا أو ثانيا أن يكونوا حذرين، فلا يتركون أسلحتهم وأمتعتهم بل يحملونها معهم في الصلاة. وهو إيقاظ للمؤمنين أن لا يعولوا على إيمانهم فقط فيما أجرى الله عليه سننه في الحرب. فإنهم وإن كانوا في حالة جهاد وصلاة، وذلك أفضل ما يكون عليه المؤمن، إلا أنه لا يسمح له بالتراخي وترك اليقظة والاستعداد على أتم وجه وأكمله. فإن الكافرين يترصدون لكم ليجدوا منكم غفلة، فيكرون عليكم بكل ما لديهم من القوة والعنف ليستأصلوكم.

وإذ أمرهم بالتحوط الكامل وأن لا يتخلوا عن أسلحتهم، وأن يكونوا متصفين باليقظة والحزم في مواجهة العدو ولو كانوا في الصلاة، يسر عليهم إذا كان الوضع الذي هم عليه يجدون معه عسرا كبيرا ومشقة في حمل أسلحتهم، كحال المطر أوحال بعض المجاهدين المتهكين بالمرض، رخص لهم في هذه الحالة أن لا يحملوا أسلحتهم. والتأكيد المتواصل أن يكونوا يقظين، فيأخذون لكل احتمال حسابه الذي يسد جميع الثغرات، ويؤمنهم حسبما يقتضيه فن القتال والتحصن من كل مباغت. ويتقون من ناحية أخرى في تأييد الله لهم. إن الله قد هيأ للكافرين مصيرا لا محيد عنه، أن الله سيكسر شوكتهم ويعذبهم بالهزيمة والقتل والأسر مما يذلهم ويمحق عزتهم ويهينهم على أيديكم.

## 103-فإذا قضيتم الصلاة...موقوتا.

ثم يذكر الله المؤمنين أن يكون لسانهم رطبا بذكر الله، المقوي لقلوبهم على الصمود، يذكرونه كيفما كانوا وهم يقاتلون العدو، لا يلهيهم القتال عن ذكر الله، فالذكر يربط على القلوب ويثبت الأقدام.

ثم بين للمؤمنين أنه إذا ذهبت موجبات التخفيف من الخوف أو من السفر فأدوا الصلاة على الوجه الأتم الذي سنه لكم رسول الله ﷺ . وذكّر هنا بحكم هو من الثوابت كما وضحناه في أول بيان معنى الآية: إن الصلاة فرضت فرضا حتما وركنا من أركان الإسلام في أوقاتها المحددة.

## 104 - ولا تهنوا في ابتغاء القوم...حكيما.

ثم شجعهم وأمرهم أن تكون عزيمتهم ماضية في طلب الكافرين لا يملون ولا يضعفون حتى يكسروا شوكتهم وتكون كلمة الله هي العليا. وحركهم على المضي في نصرة الدين، بالمقارنة بينهم وبين الكافرين. فمخاطر القتال واحدة بينكم،

ولكنكم تتميزون عليهم بأنكم آملون في جهادكم، ترجون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. فالمجاهد المؤمن يتجاوز حدود المعركة إلى ما وراءها، يتصور أنه ناجح لا محالة فإن هو قهر عدوه فذلك هدفه القريب من الجهاد، وإن حصل له مكروه في حياته أو في بدنه، فهو الأجر الكبير الذي يرقبه من ربه. والله عليم بما يجري في نفوسكم حكيم دلكم على سبل النصر وفصلها لكم.

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**خصيما:** الخصيم المنتصر المدافع.

**يختانون :** يخونون.

**يستخفون:** يحاولون الاختفاء والتستر.

**يبيتون:** يدبرون أمورهم بالليل.

**يعمل سوءا:** عمل السوء مع الناس.

**يظلم نفسه:** يرتكب المعاصي بغير إذاية لغيره.

**احتمل بهتانا:** علق به الكذب الفاحش.

**بيان المعنى الإجمالي:**

أحيت الآية حقيقة، وإن كانت مستقرة في نفس رسول الله ﷺ ، إلا أن القرآن ذكر بها ليرتب عليها ما يتبع ذلك. هذه الحقيقة أن الله أنزل القرآن مندمجا بالحق بثيته ويهدي إليه. ليحكم بين الناس حكما مستندا إلى تلكم المبادئ التي رفع البشرية وعلى رأسها رسوله لإدراكها إدراكا بينا واضحا من القرآن، ويُمكِّنُ اعتمادها من تبيُّن الحقيقة وإشاعة العدل. ويتبع ذلك أنه بعد تبين الحقيقة فالموقف الأول أن لا يكون مدافعا عن الخائنين الذين يدبرون الطريقة الفاسدة التي بها يخونون أنفسهم بدفعها إلى الخطيئة والابتعاد عن الصدق وهؤلاء الذين يختانون أنفسهم لا يحببهم الله، لأن الله يمقت كل خوان منغمس في الإثم والمعصية . ويؤكد القرآن أن الله هو الذي تولى بعنايته إنزال القرآن منطويا على الحق ليكون لك دليلا بما أراك الله في الحكم بين الناس. ولا تؤيد الخائنين بخصام من يخاصمهم. وواظب على الاستغفار فالله غفور رحيم. ولا تتول الدفاع عن الذين يخونون أنفسهم باقتحام الموبقات، فإن الله يمقت الخائنين. عجب من غبائهم هم يخفون مفاسدهم عن أعين الناس، ويمضون الليالي في تدبير الشر من الأقوال الكاذبة والله مطلع عليهم لا يغيب عن علمه شيء. يحذر المؤمنين من الاغترار بمظاهرهم والدفاع عنهم، فإنهم لا يجدون من يدافع عنهم يوم القيامة أو يكون وكيلا عنهم في تقديم براءتهم. إن من يقوم بمعصية تضر غيره أو تضر نفسه ثم يستيقظ ويعود إلى ربه طالبا عفوه فَلْيَبْشِرْ بأن الله غفور رحيم. ومن ناحية أخرى فإن من يرتكب معصية ثم يحاول أن يلقيها على بريء فإنه يضم إلى معصيته الأولى حملا ثقيلا، وكذبا قبيحا واضحا. ويطمئن رسوله بأنه في رعايته وفضله لا تضره محاولات الماكرين، فما تعلقت به همهم من إضلالك يعود الضلال عليهم، ولا يبلغون الإضرار بك، لقد اكتسب قلبك مناعة بما عمر به من الكتاب المنزل عليك والحكمة. وفوق ذلك فقد علمتك ما لم تكن تعلمه من قبل، وفضلي عليك عظيم.

**بيان المعنى العام:**

**105←106 -إنا أنزلنا إليك الكتاب...كان غفورا رحيما.**

توجهت الآية بالخطاب أولا للنبي ﷺ يؤكد له حقيقة معلومة عنده وعند المؤمنين جميعا، ليرتب عليها ما سيرد بعد ذلك. هذه الحقيقة: هي أن الله أنزل على رسوله القرآن، كله حق ويمكن كل ذي حق من حقه، فهو والحق سواء. ورتب على هذه الحقيقة أنه باعتباره رئيس الأمة والقاضي في جميع الخصومات التي تعرض عليه، فإن تأمله في كتاب الله يهديه إلى الحق ليحكم به بين المتخاصمين بناء على هذا

التعليم الإلهي في تناول القضايا المعروضة عليه حسبما قرره القرآن من المبادئ والأحكام. وما أفاض على نبيه من التوفيق، وما تميز به من ثاقب النظر، يجعل اجتهاده في تطبيق المبادئ الكلية على القضايا الجزئية يسير به إلى إعطاء كل ذي حق حقه. وحذرت الآية من تأييد من يخاصم المحقين. وأمرت بالاستغفار ليكون العود إلى الله واللجأ إليه، وطلب المغفرة ملازما للمؤمنين. فالآية في مجموعها أرشدت الحكام إلى التأمل في الكليات التي جاءت في القرآن لتكون هي السند الذي يعود إليه الحاكم لينظر فيه نظرا متعمقا ليفتح له ذلك وجه الحق فيما يحكم فيه من القضايا بين المتخاصمين. ومن يخاصم الخائنين فأيّدَه، ولاتكن له خصما .

روي في الحادثة التي صحبت نزول الآية أن صحابيا اشترى لطعامه دقيقا، وخزنه مع سلاحه، فسرق في الليل. وقد قامت له قرائن اتهم بها المظنون فيه، ورفع الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعمد المتهم إلى إلقاء المسروق في بيت يهودي، ثم حاول هذا المتهم السارق أن يتأيد ببعض الصحابة ليشهدوا له عند رسول الله بالصلاح والتقوى، ووجه الرسول ﷺ التهمة لمن اتهمه السارق الحقيقي، لأن كل الملابسات المصاحبة تنفي عنه التهمة. شهادة من شهد له بالفضل، كون المسروق ليس في حوزته، أن الذي وجد عنده المسروق يهودي ومعروف أن اليهود لا يتورعون عن الإضرار بأي مسلم. فكاد يفلت من التهمة، فأنزل الله على رسوله هذه الآية التي برأت يهوديا وكشفت فساد وخيانة أنصاري كان يظن به الخير.

وإذا كان ظاهر الخطاب في بعض أجزاء الآية، قد توجه إلى النبيﷺ فإن الأحكام إرشاد إلى الأمة في جميع الأعصار.

### 107-ولا تجادل عن الذين...من كان خوانا أثيما.

إنه ما يزال الخبثاء الخائنون يرتكبون الآثام ويعتدون على الفضيلة ، ويتهمون غيرهم في مكر سيء مقيت، ومن خبثهم أنهم يتظاهرون بالتقوى والصلاح ويغرون بذلك ذوي النوايا الطيبة ليتولوا الدفاع عنهم. فأيقظت هذه الآية المؤمنين جميعا أن لا يكونوا مدافعين عن الذين بلغت بهم السفالة أنهم يؤذون أنفسهم لأنهم مردوا على الشر فهانت عليهم أنفسهم.

### 108-يستخفون من الناس... بما يعملون محيطا.

فضحهم بلفت الأنظار إلى التعجب من غبائهم: إنهم يدبرون أمرهم في خفية من الناس، وذهلوا عن كون الله يرقبهم وهو بصير بكل حركة في الفكر أو العمل تصدر منهم، فلم ينكفوا عن الشر مع علمهم بذلك.

### 109- ها أنتم هؤلاء جادلتم... وكيلا.

وأعاد القرآن التحذير من الاغترار بالظواهر، والتدخل في القضايا بدون بينة يقينية قصد تبرئة الخائنين في الدنيا. تنبهوا إنهم لا يجدون من يتقدم للدفاع عنهم يوم القيامة أو يكون وكيلا في الآخرة يدفع عنهم .

### 110-ومن يعمل سوءا...غفورا رحيما.

وتتواصل الآية تنبه المؤمنين في مباشرة الحياة فتفتح لهم أبواب الرّجاء، ولا تدخلهم في كابوس اليأس، فقال تعالى: إنه من يعمل عملا سيئا مع المؤمنين مما نهى الله عنه، أو يعصي الله في دائرة علاقته مع نفسه، ثم يستيقظ فيعود إلى ربه، نادما ضارعا طالبا من ربه المغفرة لما صدر عنه، فأبواب الفضل الإلهي مشرعة مفتحة، ليهنأ بقبول تضرعه، إنه واجد ربه متصفا دائما بالمغفرة والرّحمة. إن الله يحب التوابين، هؤلاء الذين إذا غم الشيطان على بصائرهم تيقظوا وأسرعوا إلى العودة إلى استحضار عبوديتهم وقربهم من ربهم.

### 111-ومن يكسب خطيئة أو إثما...عليما حكيما.

يتتابع في الآيات، تسجيل الحقائق التي على المؤمنين أن تكون حاضرة في أذهانهم: أن من يقصد إلى ارتكاب محرم من المحرمات فإن إثمه واقع على نفسه لا يتحمل غيره شيئا من وزره، والله عليم بكل ما يقع في الوجود، حكيم ومن حكمته أنه لا يحمل أحدا جريرة أفعال غيره.

### 112-ومن يكسب خطيئة أو إثما...عليما حكيما.

هذا المفهوم من الآية يقدم إلى التحذير مما يقع في الوجود من تضليل فمن يعص الله معصية كبيرة أو صغيرة ثم يتهم بريئا فرارا من تحمل تبعة أعماله فقد أثقل نفسه بمضاعفة مسؤوليته بانضمام كذبه الفاحش الممقوت إلى ما عمله من سوء ليجزى عنهما معا.

### 113-ولولا فضل الله...فضل الله عليك عظيما.

ثم تعرض الآية للتأييد الذي خص به رب العالمين نبيه في ذلك الجو المشحون بالعداء للدعوة وتدبير الدسائس، وإعداد أنواع المكر في الخفاء، فيعلن القرآن أن فضل الله على نبيه بالتأييد، وتخصيصه بتواصل الرّحمة له في جميع المواقف، ذلكم الفضل وتلكم الرّحمة تفسد على المضللين مخططاتهم وتكشف لرسوله مكرهم، وتعصمه من أذاهم. لقد هموا لغبائهم أن يضلوك، وهم الذين ضلوا باعتقادهم أنهم يستطيعون أن يؤثروا فيك بما يحيد بك عن الحق. وهم أعجز من أن يضروك

ولو بأقل الضرر. إن الله قد ثبتك وفتح بصيرتك بما أنزله عليك من الوحي في القرآن، وما طبع به قلبك من الحكمة التي لا تحيد بها عن الصواب، إن ما أنزله عليك ما كنت لتصل إلى علمه لولا أن الله هو الذي تولاك فعلمك، وتتوج تلكم المنن بخطاب نبيه خطاب التقريب والتشريف بأن فضل الله عليك يا محمد كان فضلا عظيما لا يحد.

على المؤمنين أن يكونوا واعين بكتابهم ويهتدوا بهديه ويتأملوا في مضامينه، فهو الذي يسمو بهم في مقامات الفهم والحكمة، وهو أعظم فضل أوتوه في الحياة.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

### بيان معاني الألفاظ

**النجوى:** حديث السر الذي لا يسمعه إلا المخاطب.

**يشاقق:** يخالف عنادا وقصدا للخلاف.

**نوله ما تولى:** نعرض عنه.

### بيان المعنى الإجمالي:

إذا تحدث أحد إلى غيره في سر لا يسمعه أحد، فإن ذلك مما يثير الريبة في نفوس الآخرين، وخاصة عندما كان المسلمون في المدينة على حذر من مباغتة المشركين ومكرهم. فنهى الله المؤمنين عن التناجي المثير للريب. واستثنى من ذلك أن يسار المؤمن أخاه ليستعين برأيه في إيصال الخير كمساعدة في إبلاغ صدقة أو تنفيذ أمر معروف ينفع الجماعة، أو إصلاح بين متخاصمين. إن من يفعل هذا له أجر عظيم عند الله. ومن يخالف المنهاج الذي شرعه رسول الله ﷺ، ويولي ظهره للطريق الذي يسلكه المؤمنون، يهمله الله ولا يكترث به، ويحقق عليه وعيده بأن يدخله جهنم يصلى حرها ولا أسوأ مصيرا منها.

### بيان المعنى العام:

### 114- لا خير في كثير... أجرا عظيما.

تعطينا الآية صورة لوضع المسلمين في المدينة يوم كانوا يخشون المكائد التي يعدها المشركون للقضاء عليهم. فكانوا حذرين من ذلك يقظين، وقد كان المنافقون

يعملون على زرع الرّيبة والخوف في قلوب المؤمنين. ومن مكرهم أنه كان أحدهم يدعو منافقا مثله ويساره في حديث لا يسمعه أحد ليوهموا من يراهم أن هناك أمرا خطيرا بلغهم، فينبني على ذلك تأويلات تحقق لهم زعزعة الثقة. ولذلك تكرر النهي عن انتشار النجوى. وبينت الآية أن النجوى أغلبها شر. واستثنت الآية بعض ما يتناجى به أهل الخير، وحددته في ثلاثة أنواع:

1) المناجاة في إسعاف المحاويج، فيتناجى اثنان من صالحي الأمة لإبلاغ نولهم بما يتلافى خصاصة بعض الفقراء دون أن يسمع أحد بذلك سعيا لإخفاء الصدقات.

2) أن يتناجى اثنان لإنجاز أمر من المعروف الذي تدعو إليه الشريعة.

3) أن يتناجى اثنان لترتيب طريقة لإصلاح ما فسد في علاقة بعض المؤمنين.

وإخفاء هذه الثلاثة أفضل من إعلانها. فمن يناجي لينجز ذلك طلبا لمرضاة الله، يبشره القرآن بأن الله سيؤتيه أجرا عظيما يثيب به حسن قصده وسعيه إلى الخير.

### 115- ومن يشاقق الرّسول...وساءت مصيرا.

توعد القرآن من يقصد إلى مخالفة الرّسول عنادا واستكبارا عن اتباع الحق بعد أن قامت عليه الحجة وتبيّنت الحقيقة ومن ينصرف عن الطريق الذي يتبعه المؤمنون في عقيدتهم وفي منهجهم في الحياة، فإن الله يتركه وشأنه وهو مهين لا يؤثر في الدعوة الإسلامية وسيحقق وعيده عليه بأن يصليه عذاب جهنم. ولا أسوأ مصيرا من جهنم.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**مريدا:** المبالغ في العصيان المتجرد للشر والغواية.

**لعنه:** أبعده مع سخط وغضب.

**مفروضا:** مقدرا من الله.

**منّاه:** وعده ما لا يتحقق.

**يبتّكن:** يقطّعْنَ.

**محيص:** ملجأ.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يؤكد القرآن ما سبق في الآية 48 من هذه السورة: أن الله هو الواسع الرّحمة الغفور، يمن إذا شاء على عباده بالمغفرة لذنوبهم، ولكن المشركين لا مطمع لهم في غفرانه. لأن المشرك قد انحرف عن الهداية انحرافا بعيدا عن الحق. هؤلاء المشركون بغبائهم قد اتخذوا آلهة إناثا يدعونها لتؤيدهم وفي عرفهم الإناث أحط من الذكور، وهذه السخافة تبعث اعتمادهم على الشيطان الذي ناصب العداء للجنس البشري من اليوم الذي أطرده الله. عرف الشيطان مداخله في نفوس البشر من الشهوة وبسط الأماني وحب التسلط، فسدّ على أتباعه منافذ النور فاتبعوه. قطعوا آذان الأنعام وزعموا أنها تحت رعاية آلهتهم، وعمدوا إلى الدين فحرفوه. ولا عجب فيما انحدروا إليه، فإن من يتخذ الشيطان سندا من دون الله فقد خسر دنياه وآخرته ، وهو الخسران الواضح. وكل ما يمنيهم الشيطان به هو تغرير بهم. وإن مآل أتباعه الخلود في نار جهنم ولا يجدون طريقا ينفلتون به من عذابها. وفي المقابل فإن الذين آمنوا وصحبوا إيمانهم بالعمل الصالح سيدخلهم ربهم جنات فيها من النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا يخشون الخروج منها. اطمئنوا فإن هذا وعد الله، وهو الحق لأن كلامه هو أصدق الكلام وأتمه لا يلحقه نقص ولا نقض.

**بيان المعنى العام:**

**116-إن الله لا يغفر أن يشرك به... ضل ضلالا بعيدا.**

تأكيد لما سبق تقريره في هذه السورة الآية (48) من أشرك بالله لا مطمع له في المغفرة ولا في العفو، لأنه قد ابتعد عن الحق بعدا شاسعا وسلك طريقا معاكسا له، فانتفت كل صلة له به.

**117-إن يدعون من دونه...مريدا.**

ثم أخذ القرآن يفصل ضلالات المشركين، إنهم لما ولوا ظهورهم للإيمان توجهوا إلى أصنام ومن قوة ضلالهم أنهم عبدوا إناثا، وحسب ما استقر عليه عرفهم

الجاهلي: إن الأنثى أحط قيمة من الذكر. عبدت قريش اللات، وعبد مشركو الأوس والخزرج مناة. إن انحرافهم وعماهم عن الهدى تابع لتعلقهم بالشيطان الذي أبعده الله وطرده، وهو الذي حسن لهم عبادة الأصنام. ويطلق المريد على الخارج عن السلطة.

**118-119، لعنه الله وقال...خسر خسرانا مبينا.**

فضح القرآن موقف الشيطان الذي اتبعوه فذكّر بما بدر من وقاحته وجراءته. إنه لما طرده الله، وكان قد علم من التركيب البشري مداخل إغوائهم وتضليلهم أعلن أنه سيتخذ من تلكم المداخل النصيب الذي قدره الله وينفذ منه للعقول فيفسدها، وللأرواح فيغشيها ويقطعها عن باريها، وللشهوات فيحركها، وللأنانية فيطغيها، وبذلك يصبح متحكما في الذين يقبلون غوايته، يعدهم بالبقاء، ويفتح لهم أبواب الأماني فيتعلقون بالخيالات، وما تلكم الأماني إلا للتغرير بهم. انطلقت الشهوات بدون رادع من الرّوح أو العقل، وتمردت الأنانية فقام التسلط وحب الغلبة بالباطل، وأسلسوا قيادهم للشيطان فنفذوا كل ما يأمرهم به. إن همّ الشيطان الأول أن يخرجهم من واضح التوحيد إلى الشرك، فحسّن لهم أن يقطعوا آذان الأنعام تخيلا منهم أنها أصبحت تحت رعاية الآلهة فلا تركب ولا تحلب، وهو تعبير عن إلصاق المقدس بما ليس له أدنى حظ من التقديس في منطق الواقع والعقل. ومنه اتخاذ تماثيل يتمسح بها ويركع إليها أو قبورا يحج إليها ويذبح عندها القرابين، ثم ترقى أنه بعد أن يستولي على عقولهم بمثل تلك الأمور، يأمرهم أن يغيروا خلق الله، وخلق الله هو دين الإسلام دين الفطرة كما عرفه القرآن في قوله تعالى: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ) وما أكثر الضلالات التي يزين بها الشيطان لمن يقع تحت سلطانه تغيير الدين يوهم التعمق في الدين. وخطر هذا الخلط شديد إذ فاعل ذلك يظن نفسه على هدى فلا يتيقظ للتوبة.

حمل بعض المفسرين تغيير خلق الله على نتف المرأة شعر وجهها، وبعض ما تتخذه النساء للتجميل، الذي يبقى أثره كالوشم، وهذا بعيد. إذ ارتباط الأمر بالمصالح وارتباط النهي بالمفاسد يفيد قطعا أن كل عمل لا يصحبه ضرر خاص أو عام لا يدخل تحت طائلة التحريم. فأي ضرر إذا أزالت المرأة شعر وجهها مع أنه يندب لها نتف إبطها وحلق ما حول السوأتين من الشعر. ومما يبعد تحميل الآية هذه الأمور أن ما جاء بعد ذلك، وهو الموجه لقصد الشيطان وتنفير الناس من كيده، أن من يتخذ الشيطان وليا يستند إليه ويعتمده من دون الله فقد خسر خسرانا بينا. فأي امرأة تزيل شعر وجهها تكون قد اتخذت الشيطان وليا واعتمدته وتركت توليها

لربها ؟ إن هذا بعيد جدا في نظري وفيه خلط وبعد كبير عن الأدلة اليقينية المفرقة بين مباني التحليل والتحريم.

### 120-122: يعدهم ويمنيهم...ومن أصدق من الله قيلا.

إن من يتبع إغواء الشيطان وتضليله عاقبته جهنم ولا يجد طريقا للانفلات منها. وفي المقابل فإن الشق الآخر الذي أقفل منافذ الشيطان فسهل عليه عمل الصالحات وقام بها، فإن الله سيدخله جنات الكرامة بما تشتمل عليه من مباهج للنفس وطمأنينة على دوام نعيمها، وتأكد هذا الوعد بأنه وعد صادر من الله. وقول الله لا يلحقه نقص فلا أحسن ولا أكمل منه.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

### بيان معاني الألفاظ:

**أمانيكم:** جمع أمنية.

**نقيرا:** النكتة في ظهر النواة، وذلك مثل للتفاهة.

### بيان المعنى الإجمالي:

بينت الآية أن الفوز برضوان الله لا يتحقق بالأماني ولكن العدل الإلهي يحكم مصير البشر. فمن يرتكب ما نهاه الله عنه يجد جزاءه، ولا يفلت من عقاب الله فلا ينفعه قريب ولا حليف. ومن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح من ذكور بني آدم وإناثهم فليُبْشِرْ بأن جزاءه الجنة، ولا يضيع شيء من صالح أعماله ولو كان قليلا.

إن من يتبع هذا الدين يبلغ به الغاية في الحسن والتوفيق في الحياة، لأنه أسلم عقله وحواسه وقواه جميعها لله، وجعل غايته في كل ما يصدر عنه أن يكون على درجة عالية من الإخلاص والصدق والكمال الممكن. كيف لا ومتبع هذا الدين ملتزم بالتوحيد الذي كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام. هذا النبي الذي ارتقى في الكمال الإنساني فوثق صلته بالله فكان في جميع أوقاته مستحضرا أنه مع ربه. فقبله الله وقربه منه قربا يرعاه به في كل لحظة، كما يفعل الخليل بخليله. وهذا القرب يفهم

على أن الله هو مالك ما في السماوات وما في الأرض، وسيدنا إبراهيم واحد من هذا الكون الذي وسعه علم الله سبحانه.

**بيان المعنى العام:**

### 123- ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب... ولا نصيرا.

تمثل هذه الآية العدل الإلهي الذي أجرى عليه سبحانه جزاء الأعمال. فنفت الآية وأثبتت: نفت الأوهام التي تسبق لها بعض الظنون تبعا لما يستقر في النفوس من أماني، هذا الظن المنفي الذي ترتب عليه، أن كل فريق يظن أنه هو الناجي وأنه لا يجزى بسوء ما صنع. فاليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه لا يعذبهم تبعا لذلك، والنصارى يؤمنون بأنهم باعتقادهم أن الإيمان بتعذيب المسيح يكفر عنهم كل سيئاتهم. وقال بعض المحاورين لهم من المسلمين: إن أمة محمد وحدها هي الناجية. فجمع سبحانه في هذه الآية كل هذه التصورات المبنية على التمنيات، والتي تنسحب أيضا على ما يمكن أن يحدث في المستقبل كمن يذهب به خياله إلى أن شرف نسبه أو صلاح أصوله تفتح له أبواب القبول عند الله، جمعها كلها ونفى أحقيتها وأكد بطلانها، ونفى نفيا قاطعا حصول الجزاء الصالح بالأماني؛ وأثبت تنصيصا أمرين:

**الأمر الأول:** أن من عصى الله يلقى جزاءه العادل عما ارتكبه، ولا يغنيه من ذلك قريب ولي، ولا حليف ينصره.

### 124- ومن يعمل من الصالحات... ولا يظلمون نقيرا.

**الأمر الثاني:** أن الفوز بدخول الجنة مرتبط بأمرين لا بد من اجتماعهما: الإيمان، والعمل الصالح. يستوي في هذا الذكر والأنثى، نفيا لما يتوهمه المشركون من أن الأنثى لا ترقى إلى مساواة الرّجل في مراتب القبول. وأكدت الآية على أن أي عمل صالح بالمعيار الإسلامي ولو كان قليلا يسعد فاعله بجزائه ولا يهمله الله. وأثبتت الآية أن المؤمنين بموسى الذين قرنوا إيمانهم بتطبيق شريعته، وأن المؤمنين بعيسى المطبقين لشريعته، والمؤمنين بمحمد العاملين بشريعته ناجون مجزيون. ولما نزلت الآية وجد فيها المسلمون الصالحون من الصحابة شدة غير ما استقر في نفوسهم من أن الدين الإسلامي يسر لا شدة فيه. روي أن بعضهم سأل النبي ﷺ لما فهم عموم الآية وشمولها. قال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله ما أشد هذه الآية! فقال: يا أبا بكر! أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللأواء ؟ فهذا بذلك. على معنى أنه يجزى بها في الدنيا حتى يلقى ربه بدون ذنب. والذي أرجحه أن الكافر مقطوع الصلة بالله فلا أمل له في مغفرة أي ذنب من ذنوبه فهو يجزى بها جميعا،

وأما المؤمن فهو على رجاء أن تغفر له ذنوبه. فمعنى الآية أن المؤمن يلقى جزاء ذنوبه ما لم يتب، أو يتفضل الله بمغفرتها، وهو معنى: أن على المؤمن أن يكون دائما بين الخوف والرّجاء، وذلك مما يزيده صلة بربه وتعلقا به. وسند ذلك الجمع بين ما تفيده نصوص القرآن والسنة من المغفرة والفضل، ومن العدل المطلق لله. فالإسلام يسمو بالإنسان إلى مستوى المسؤولية، المسؤولية التي مؤداها أنه يتحمل تبعات أعماله السيئة والخيرة، وذلك شرف الإنسان الذي يسمو به عن جميع الكائنات الأرضية. وهو بهذا يخرج به من دائرة الأوهام ويجعله يواجه صرامة الواقع كما باشره.

## 125- ومن أحسن دينا ممن...واتخذ الله إبراهيم خليلا.

إنه لا أحسن ولا أكمل من هذا الدين، إن معتنقه منقاد بجميع حواسه وبعقله لخالقه. وهو ما يفيده: إسلام، أي انقياد الوجه، والوجه مجمع الحواس ومستقر الإدراك والفهم. فإسلام الوجه تعبير عن عمق الطاعة تبعا لصادق الإيمان، وثنّت الآية بأنه محسن، ينفذ ما يقوم به من أعمال على أكمل الوجوه. ولا يكون محسنا إلا إذا صحب عمله حسن القصد ونفذ أعماله على خير الوجوه، مطبقا الحدود التي حددها الله في عبادته، ومبتعدا عن الغش والتقصير في أعماله الدنيوية. إنكم أيها المؤمنون بمحمد ورثة دين إبراهيم في التوحيد والإخلاص. وإبراهيم قد سما في مقام العبودية فقد اتخذه الله خليلا. ومعنى اتخاذه خليلا أنه طهر قلبه وحواسه ومداركه، فبلغ من إخلاصه أنه أصبح متصلا بربه اتصالا دائما، حاضر القلب مع الله، أبعد عنه ربه الغفلات، فهو في كل عمل يقوم به وفي كل حركة، وفي كل خاطرة، هو مع الله شأن الخليل مع خليله يلازمه ولا يبعد عنه. وقبل الله منه هذا الحضور فقربه كما يقرب الخليل خليله. وليس معنى ذلك مساواة إبراهيم لرب العزة، ولكنه الفضل الذي تفضل به الله على إبراهيم، ومن آثاره أن جعل في ذريته النبوة الموحدة.

## 126- ولله ما في السماوات...بكل شيء محيطا.

تصريحا بهذا التنزيه، تتبع آية ( اتخذ الله إبراهيم خليلا ) بقوله سبحانه: (ولله ما في السماوات...) فالتذكير بأن الله مالك ما في السماوات وما في الأرض من ملائكة وبشر وأجرام متفاوتة في الكبر والصغر من الذرة إلى المجرات، يؤكد التصور الإسلامي، بأن جميع الكائنات مملوكة له خاضعة لإرادته؛ يصرف

شؤونها تبعا لعلمه المحيط بكل شيء. وما ميز الله به سيدنا إبراهيم ﷺ من قرب لا يعدو أن يكون صورة من صور فضله العظيم.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**يستفتونك:** استفتى طلب الفتيا.

**ترغبون:** هذا الفعل إن عدي ب [في]: رغب في كذا فمعناه طلب تحصيله، وإن عدي ب[عن] رغب عنه فمعناه الإعراض.

**كتب لهن:** فرض لهن من الصداق.

**أن تقوموا:** تدبروا ما يصلح أموالهم وأحوالهم.

**نشوز:** الترفع عن الزوجة ترفعا يؤذيها أو يحرمها المكانة التي هي للزوجة عادة.

**إعراض:** أن يبتعد عنها. وهو إيذاء دون النشوز.

**خير:** أي فيه خير.

**الشح:** ما جبلت عليه النفوس من المشاحة وعدم المسامحة وخاصة في حال الخلاف.

**المعلقة:** الإعراض الذي يطول معه الهجر لها فلاهي زوجة ولا هي مطلقة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

التحول الكبير الذي أنجزه الإسلام في نطاق الأسرة وإبراز مكانة المرأة فيها، دعا كثيرا من الصحابة أن يتوجهوا إلى النبي ﷺ يسألونه. وكان النبي ﷺ يجيبهم بما ينزل عليه من وحي. وفي هذه الآية كان الجواب قرآنا. والقضية أن بعض القائمين

على شؤون اليتامى يتصرف تصرفا يمكنه من غاياته دون نظر لحقوق ومصلحة اليتيمة التي في حجره. فإن كانت جميلة ثرية اختلط مالها بماله يتزوجها ولا يعطيها الصداق الذي هو نظير صداق أمثالها، وإن كانت دميمة ثرية منعها من الزواج لتبقى ثروتها تحت يده، وإن كانت فقيرة ولها حظ من الجمال لم ينصفها في صداقها، فأمرت الآية أن يسير وليها في القرارات التي يتخذها على ما يقتضيه العدل، وكذلك في شأن اليتامى الذكور يجري ما يقوم به على قانون العدل. وحرضهم على فعل الصالح بأن الله لا يخفى عليه صلاحهم وسيجازيهم.

ومن قضايا الأسرة أن الزوجة إذا أحست أن العلاقة بينها وبين زوجها ضعفت وأنها سائرة إلى ترفعه عنها وحرمانها من حقوقها أو أن ينصرف عنها، فإن لها أن تختار بكامل حريتها أن تتنازل عن بعض حقوقها إذا رأت أن ذلك أفضل لها، فلها مثلا أن تبذل له مالا على أن يطلقها، أو تتنازل له عن بعض حقوقها لتبقى في بيت الزوجية ، وشأن النفوس أن حرصها على استيفاء جميع حقوقها جبلي فيها، ولذا لا لوم عليها إذا اختارت عدم التنازل. ويدعو الأزواج إلى حسن المعاشرة والتزام تقوى الله، والله سيجزيهم عن ذلك.

وقضية أخرى من قضايا الأسرة: إن الزوج إذا كان متزوجا بأكثر من واحدة، فإنه مأمور بالعدل بين زوجاته. ويعلن القرآن حقيقة أن العدل الكامل صعب تحقيقه، ولكن يحرم عليه أن يميل في علاقته الظاهرة عن إحداهن فيتركها كالمعلقة لا يعاملها معاملة الزوجات ولا يطلقها فتكون حرة ممكنة من الزواج بغيره. ومن عاد إلى العدل فإن الله يغفر له ما مضى ويرحمه.

وإذا تعذر أن تسير الحياة الزوجية على مقتضى الضوابط الإسلامية وتم الفراق بينهما فعليهما أن يكونا بعد هذا الانفصام أملين في المستقبل، فإن الله يغني كل واحد منهما عن صاحبه بما ييسره له، لأن ملك الله واسع وهو حكيم في تصرفه في هذا الكون.

### بيان المعنى العام:

### 127- ويستفتونك في النساء...فإن الله كان به عليما.

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكية الفؤاد، قوية الذاكرة لما شهدته من الأحداث التي صاحبت كثيرا من الأحكام. فقيهة في الدين، فكان الصحابة يرجعون إليها في كثير مما يشكل عليهم. روى أصحاب الصحيح، واللفظ لمسلم، عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أنه سأل خالته عن هذه الآية: ( وإن خفتم...) قالت يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها،

فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتِهِنّ من الصداق. وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله ﷻ(يستفتونك في النساء...وترغبون أن تنكحوهن) قالت: والذي ذكر الله: أنه يتلى عليكم في الكتاب. الآية الأولى التي قال فيها: وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء. قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: وترغبون أن تنكحوهن، رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إن كن قليلات المال والجمال[1].

كانت الأنثى مظلومة في العصر الجاهلي، فرفع الإسلام عنها الظلم وحول وضعيتها فرفعها إلى وضعها الحقيقي بما لها من قيمة إنسانية. وهذا الوضع الجديد دعا الصحابة أن يعودوا للنبي ﷺ يطلبون منه أحكام النساء في كثير من الأحوال. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية. ولما كانت هذه الأحكام تدخل في صميم الأسرة وكانت على غير ما ألفوه، نبه القرآن على أن الذي يتولى إجابتهم هو الله. وكان من عادتهم أن الأنثى إذا كانت يتيمة محجورة، فوليها يتصرف في حظوظها حسب هواه. فإن كانت ثرية جميلة وكان قد خلط مالها بماله ويخشى أن يتزوجها أجنبي فيقاسمه المال، تزوجها هو ولا يعطيها صداق أمثالها. وإن فقدت المال والجمال أعرض عنها. فكانت الآية داعية للعدل في معاملة اليتامى. وكذلك من هم في الولاية من الصغار، أمروا أن يقوموا على شؤونهم العامة بالعدل الذي يرضى الله عنه. واعلموا أن ما تقومون به من رعاية للأيتام وما تفعلونه معهم من خير، فإن الله يعلمه وسيجازيكم، وإياكم أن يكون ظاهر أعمالكم مناقضا لخفي مقاصدكم.

**128-وإن امرأة خافت من بعلها...بما تعملون خبيرا.**

ومما يعرض للعلاقات الأسرية أن تفقد العلاقة الزوجية الود والسكن، فيميل الزوج عن زوجته، وتضعف رغبته فيها فتبرد العلاقة وتنذر بتحول، إما إلى ترفع الزوج وإيذاء الزوجة بالكلام الخالي من اللطف، أو تعييرها أو بالتقتير عليها في النفقة، وهذا من النشوز، أو بالابتعاد عنها فلا يجالسها ولا يتحدث إليها ويهملها، وذلك تبعا لميل نفسه عنها. هذا الوضع ليس وضعا عاديا ولا كثيرا، عمل القرآن على علاجه

[1] إكمال الإكمال ج 7 ص324

حتى لا يؤول إلى هدم الأسرة بالطلاق. وهو لا يحدث فجأة، ولكن يتطور شيئا فشيئا حتى ينتهي إما إلى الإضرار أو الطلاق. والنساء أسرع في الإحساس بهذا التغير في سلوك الزوج لأنه أمر عاطفي وقد وهب الخالق للمرأة قوة في عاطفتها حرم منها الرّجل إذ بها تصبر على الحمل وما يتبعه من الحضانة والعناية بالمولود إلى أن يبلغ سن النضج. فإن خافت الزوجة من بلوغ هذا التقلب غاية مداه، أرشدها القرآن إلى ما يمكنها أن تقوم به لعلاج هذه الحالة في أول مراحلها. فللمرأة في هذه الحالة أن تختار وتقدر العواقب بكامل حريتها وتقرر الحل الذي تعتقد أنه أنسب لها مما يحل لها. فلها أن تطلب طلاقها وتقدم للزوج مالا مقابل فك عصمتها منه، وهو المعبر عنه بالخلع. وما يأخذه الزوج من مال مقابل طلاقها حلال، إذا كان برضا الزوجة وبدون إضرار تعسفي منه. وقد يكْره الزوج أن يعاشرها العشرة العادية لكبر سنها أو دمامتها، أو تغير عواطفه لأمر من الأمور، أو تكون ضرتها مثلا قد استولت على عواطفه. ففي مثل هذه الحالات للزوجة أن تختار طريقة ترضاها للبقاء مع زوجها، كأن تتنازل عن القسم العادل ولا تطالب بحقها في الفراش، أو تتنازل عن نوع من النفقة التي عودها بها. نفت الآية الإثم عن الزوجين عند اختيارهما لحل فيه تنازل عن الحقوق. بل إن الآية حثت على السعي للمصالحة مع الحطيطة، لأن شأن الصلح أنه لا يتم إلا بتنازل من الطرفين أو من أحدهما. ولأن الصلح كله خير. وذكر القرآن بأن كثيرا من النفوس تشح بحقوقها ولا تتسامح. ولكن النفوس التي روّضها الإيمان وغرس فيها وشائج الأخوة والحب والرّحمة، لا ترضى أن يكون تصرفها كتصرف النفوس التي لم يدخل نور الإيمان في قلوبها. ويحرض القرآن الزوجين في هذه الحالة على التخلق بصفة الإحسان وما يصحبه من تقوى الله ووزن كل طرف قراراته بهذه التقوى التي تطهر النفوس من الأنانية وما يتبعها من قصر النظر على الحياة الدنيا.

### 129-ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء...غفورا رحيما.

ثم عالج القرآن وضعا آخر من أوضاع الأسرة عندما يتزوج الزوج بأكثر من واحدة. فيعلن حقيقة مفادها: أن الطبيعة التي خلق الله عليها الإنسان لا تمكنه من العدل بين زوجاته مائة بالمائة، وهو العدل الكامل . ولما كان العدل على مراتب، وأن بعضها هو مناط التكليف، وبعضها تابع لميل الطبع لا يستطيع له الإنسان حولا، فميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من ضرتها هو أمر خارج عن نطاق التكليف لا يؤاخذ به ولا يعاقب عليه، وأما ما يترتب على هذا الميل من تمكين الزوجة، التي هي أقل تأثيرا عليه، من حقوقها من إنفاق وحسن معاملة وقسم

عادل، فهو مسؤول عنه معرض لجزاء الظلم أو العدل. ولذا نهت الآية الزوج أن يهضم حقوق زوجته التي مال قلبه عنها، فيتركها كالمعلقة التي لاهي خلية من زوج تتعرض للتزوج بمن يكرمها ويرعى حقوقها، ولا هي زوجة تتمتع بما شرعه الإسلام لها من حقوق ومنزلة في الأسرة. وحرض سبحانه من فرط في حقوق المرغوب عنها أن يثوب ويتوب، بأن يصلح سلوكه ويحترم زوجته بما لها عليه من ميثاق الزوجية، ويستحضر فيما يستقبل تقوى الله التي تعظه أن يجور أو يهمل. إن من فرط وتاب يجد من ربه المغفرة لما سلف منه وينعم برحمته بما يفتح له من عون في حياته .

### 130-وإن يتفرقا يغن...واسعا حكيما.

ثم فرضت الآية الحل الآخر إذا نفر الزوج من زوجته وتعذرت إقامتها معه على ما أوصى به القرآن، ولم ترض هي بالتنازل عن أي حق من حقوقها، ولم يرض هو أن يطوع قلبه لما ترغب فيه، فإن الفراق هو الحل. والله يغني كل واحد عن صاحبه ويفتح له سبيلا في الحياة. يؤكد ذلك أن الله الذي لا يحد ملكه قدير يخضع له ما تعلقت إرادته بتحقيقه، حكيم في تسييره للعالم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (133) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

### بيان معاني الألفاظ:

**قوامين بالقسط:** ملتزمين بالعدل في الأحكام.

**الله أولى بهما:** أحق بالنظر في شأن الغني والفقير.

**تلووا:** اللي هو خروج الإنسان من العدل إلى الظلم في الحكم أو عن الصدق إلى التزييف في الشهادة.

**تعرضوا:** تمتنعوا من الحكم بعد ظهور الحق أو تمتنعوا من أداء الشهادة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

تذكر هذه الآية بما استقر في قلوب المؤمنين من أن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض لترتب على هذه الحقيقة الامتثال للتشريعات والإرشادات التي وردت في الآيات السابقة ولترتب على ذلك استنهاض الهمم لمراعاة تقوى الله في الحياة، التقوى التي هي ركن هام، توالت الوصاية بها على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ومن قبله من رسل الله عليهم السلام. وبناء على ذلك فإنّ من أعرض عن التقوى وكفر بالله فإن كفره لا ينقص شيئا من سلطان الله، فالله هو الغني عن عباده المستحق للحمد دائما. وبما أنه مالك الكون كله، فهو الضامن لسيرورتها على السنن التي سنها. ويتوعد الكافرين بأن قدرة الله لا يعجزها أن يفني المعرضين عنه ويأتي بآخرين مطيعين خاضعين له. ويذكر البشر بأن مزية هذا الدين أنه يفتح لمعتنقيه العاملين به أسباب النجاح في الدنيا والآخرة. ولا تناقض بين العمل للدنيا مع العمل للآخرة. والنجاح في الحياة يقوم على العدل فإذا ذهب العدل اختلت الحياة. ولذا أمر المؤمنين أن يكونوا مستعدين دائما لنصرة الحق في القضاء لا يتراخون إذا ما أحسوا بمخالب الظلم تمزق حصن الحياة الآمنة. وعلى من يتولى القضاء أو الشهادة أن لا يتأثر بوضع المتخاصمين، من الفقر أو الغنى أو المكانة الاجتماعية، ولا بعلاقة الأبوة أو القرابة. فإن الله هو الذي يتولى عباده فليس لكم أن تراعوا أحد الخصمين على الآخر. ولتحذروا الانحراف عن العدل في الحكم أو الميل لأحد الخصمين وتقويته على خصمه، أوتزييف الشهادة ، أو أن تمتنعوا من القضاء أو من أداء الشهادة إذا كان في ذلك تضييع الحق ، فإن الله يعلم حقيقة ما تعملونه، ولا يغيب عنه باطن قصدكم ويجازيكم على ذلك.

**بيان المعنى العام:**

**131-132، ولله ما في السماوات وما في الأرض... وكفى بالله وكيلا**

فصلت الآيات السابقة الجزاء على الأعمال، وبعض أحكام الأسرة التي إن صلح أمرها استطاع الإنسان أن يؤدي مهمة الخلافة في الكون، وإن فسدت قصر في ذلك. وأعلنت هذه الآية الحقيقة التي تستند إليها تلكم الأوامر والتعاليم والإرشادات: هي أن الله يملك وحده ما احتوته السماوات والأرض، وأنه لما كان مالكا لها وحده فهو العليم بما ينفع الناس ويصلح أمرهم، وأنه حقيق بأن يتولى البشر برعايته ويكشف لهم ما خفي عنهم، فيوصيهم بما فيه خيرهم مما يحجبهم عن إدراكه شهوات النفس ومحدودية العلم . تلكم الحقيقة تتبعها حقيقة سرمدية باقية هي

الأساس الذي يبنى عليه صرح السعادة، أوصى الله بها البشر في عهد الرّسالة وفيما سبق من الأزمان، فما من رسول إلا دعا إليها وكرر الدعوة، هي تقوى الله التي كانت أكثر كلمات القرآن ترداداً، أي أن يكون الله حاضرا في قلب الإنسان وفي مشاعره، يصحبه عند كل عمل أو ترك، فيرقب ربه ويستحضر منته عليه، وينكشف له بالتقوى أن الله لا يخفى عليه حقائق الأفعال والنوايا ولا تحجبها المظاهر فهي مُعرّاةٌ من كل غشاء كاذب. ثم ثنت بمقابل التقوى والارتباط بالله، بأن من قطع صلته بالله وكفر، فإن كُفْرَ من كفر لا ينقص شيئا من سلطان الله على الكون. إنه سبحانه هو الغني عن عبادة العابدين وشكر الشاكرين ولا ينقص من ملكه وعظمته كفر الكافرين ولا جحود الجاحدين، إنه المحمود الحقيق بالحمد، حمده الإنسان أو لم يحمده. ويؤكد القرآن تلكم الحقيقة: أن الله وحده مالك السموات والأرض وهو الكفيل أي المتصرف فيها كما تشاء حكمته وتقديره.

## 133-إن يشأ يذهبكم...على ذلك قديرا.

إن هذا التصرف المطلق يبين أن من مضمونه أنه قادر على أن يمحق هؤلاء المعاندين المناوئين لدينه، الساعين في أرضه فسادا تبعا لكفرهم واستكبارهم بغير الحق. وإن من مقتضيات ذلكم الملك المطلق والقدرة التي لا تحدها حدود أن إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين يتقون الله ويخشونه من أيسر ما يتصور بالنسبة للقدرة الإلهية.

## 134-من كان يريد ثواب الدنيا...سميعا بصيرا.

بعد ذلك التهديد يعود القرآن لاستجلاب البشر لطاعته ويفسح لهم فيما يرقبونه من فضله، ويؤكد لهم أن التقوى والتزام هديه تتبعهما فيوض النوال والخير الشامل لمباهج الدنيا والفوز في الحياة الآخرة. والله لا يغيب عنه شيء يقع في الكون، سواء أكان صوتا يسمع وإن خفي، أو ذاتا من شأنها أن تُرى مهما ضؤلت، فهو يجزي عن الكلمة الحسنة وعن فعل الخير.

فدين الإسلام هو الدين الذي يجمع بين الدنيا والآخرة، وينفي أن يكون بينهما تضاد، وأن التوسعة على الإنسان في الدنيا لا تنافي أن يفوز بالكرامة في الآخرة متى آمن والتزم تطبيق شرع الله في تعاطيه لشؤون حياته.

## 135- يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين...بما تعملون خبيرا.

ثم يدعو القرآن المؤمنين أن يكونوا قائمين على سيادة العدل في القضاء. وإشراكُ المؤمنين جميعهم في القيام بنصرة العدل يقضي إلى محاربة الجور حتى يصبح

العرف السائد في المجتمع الإسلامي هو إجراء العدل ومقت الظلم والاشمئزاز منه ومن مرتكبه. ولا يتم قيامهم بالعدل إلا إذا استقاموا فأدوا الشهادة التي يعتمدها القاضي في فصل القضايا شهادة صادقة يرعى فيها الشاهد ما أوجبه الله من الصدق ويؤديها على أفضل وجه يكشف الحقيقة، ولا يكتم أو يحول بعض الجزئيات التي تؤثر فيها. فربط الشهادة بالله يحتم على الشاهد أن يرقب الله عند أداء شهادته. وينبه القاضي والشاهد لما يمكن أن يؤثر عليه في حكمه، أوفي شهادته فيكتم الشهادة أو ينقص من تفاصيلها أو يضيف في ثناياها شيئا مما يحولها عن وجهها. عليه أن يلتزم ما يقتضيه الحق والعدل ولو كان الأمر متعلقا بذاته في الحكم والشهادة.

فليؤد الشهادة على وجهها، ولو كانت على نفسه، ولو كانت على من تربطه به أشد الروابط الاجتماعية كالوالدين والأقارب بصفة عامة من زوج أو ولد أو صديق. ومن قوة العناية بالعدل نصت الآية على الوالدين والأقربين بعد النفس، لأن بعض الناس يكون لهم من الشجاعة وشرف النفس ما يقضون به على أنفسهم أو يقرون به، ولكن إذا تعلق الأمر بالوالدين أو الذرية قامت الحمية والتأثيرات الجانبية تنتصر وتضغط، فأكد القرآن على الالتزام بالعدل. وكما نبه القرآن المؤمنين أن لا يتراخوا في إجراء الحق مع النفس أو مع الوالدين والأقرباء، فإنه حماية لهذا النظام الاجتماعي الذي يحرص عليه، أضاف إلى ذلك، التحذير من التأثر بالوضع الاقتصادي، فمن الناس من يعامل الغني لغناه وإن كان مبطلا، ومنهم من يرأف بالفقير لفقره فيقوي جانبه باطلا بالحكم أو الشهادة، فينبه القرآن المؤمنين إلى أن يحموا أنفسهم من هذه الأوهام، ويذكر بأن الله وحده هو الأولى بالفقير والغني ولا يكون الفقر أو الغنى عاملا على ترجيح جانب المبطل.

إياكم أن تتأثروا بالهوى وما يزينه لكم، فإن الإسلام إنما جاء لإخراج الإنسان عن داعية هواه المضللة، ولا يكون عبدا لله حقا إلا إذا ظفر بالتحكم في دواعي النفس. إن الهوى يدعو للانحراف عن العدل ويدفع إلى العدول عن الحق في الحكم أو عن الصدق في الشهادة، وهو معنى(أن تلووا) وقد يدعوكم إلى المماطلة في الحكم حتى يضيع الحق، أو الامتناع عن الشهادة ليعجز المحق عن إثبات حقه.

ويتوعد القرآن في خاتمة ما قرره، بأن الله لا يخفى عليه الدواعي الباطنية التي تنحرف بالإنسان، ولا يشتبه عليه الحق بالباطل والجور بالظلم، على معنى أنه سيجازي كل إنسان بحقيقة فعله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

**بيان معاني الألفاظ:**

**أولياء من دون المؤمنين:** جمع ولي: نصير قريب.

**يتربصون بكم:** ينتظرون ما سيحل بكم.

**نصيب:** حظ قليل من النصر.

**نستحوذ:** ندفعكم للقتال بما خططناه لكم لتحقيق ما تم من الغلبة.

**بيان المعنى الإجمالي:**

يذكر القرآن المؤمنين بأن يكون شعورهم بعقيدتهم حيا في نفوسهم ليواصلوا الثبات عليها، هذه العقيدة التي تشمل الإيمان بالله المتصف بصفات الكمال، وبرسوله محمدﷺ خاتم الأنبياء، وبالقرآن المنزل عليه، وبالكتب التي أنزلها الله على رسله، والتي لم تحفظها الأمم المنزلة عليهم، ففرطوا فيها، فاندرست أو حُرّفت. فالإيمان بها إيمان إجمالي لا تفصيلي. ومن يكفر بذلك أو ينكر البعث في اليوم الآخر، فقد سلك الطريق المقابل للاتجاه الصحيح وضل ضلالا كبيرا. وأشنع أحوال هؤلاء هو حال الذين ترددوا بين الكفر والإيمان، فكلما دخلوا في الإيمان قليلا عادوا إلى كفرهم، وهكذا إلى أن فارقوا الحياة على الكفر ؛ فهؤلاء لا أمل لهم في مغفرة الله ولا في بلوغ الهداية إلى الحق. هؤلاء المتلاعبون بالدين هم المنافقون فبشرهم بأن

الله أعد لهم عذابا يبلغ ألمه كل جزء من كيانهم، إنهم قد انتصروا وانتسبوا للكافرين ويلقي القرآن سؤالا يفضح سوء اختياراتهم، ما الذي يبغون أن يحققوه بموالاتهم للكافرين؟ أيبغون أن يتمكنوا من منازل العزة بهم ؟ كلا ! إن العزة لله جميعا، يُمكّنُ منها من اهتدى للإيمان فقط.

وحذر القرآن من مصانعة المنافقين الذين بلغ مكرهم، أنهم كانوا يعملون على زعزعة تقديس آيات الله فيستهزئون بها في المجالس، ويخفون قصدهم الخبيث بأنهم ما أرادوا إلا الترويح والتخفيف من ثقل الجد. كان النهي صارما عن القعود معهم إذا استهزأوا بآيات الله. إن التغاضي عنهم مآل من يجالسهم في هذه الحال أنه يكون مثلهم. وقد تقرر أن الله سيجمع الكافرين والمنافقين في نار جهنم. اعلموا أنهم قد فقدوا الوضوح وبالتالي القرار الذي يظهرون به دائما، فإن أكرمكم الله بفتحه وانتصرتم على جيوش الكافرين وحاولوا مغالطتكم بأنهم جزء منكم وحضروا بعض مجامعكم العامة كأداء الصلاة معكم فلا يخدعنكم تظليلهم. وفي المقابل إذا حقق المشركون أقل نصر وأهونه اندفعوا نحوهم يذكرونهم بما أعانوهم به من توجيه وتأييد، به أقدموا على غزو المسلمين، وأنهم زيادة على ذلك كانوا يثبطون المسلمين ويمنعونهم بمختلف أنواع المكر من الجهاد. إن الله سيحكم بينكم يوم القيامة فيظهر المنافقين على حقيقتهم مخزيين.

ويثبت الله المؤمنين بوعده أنه ينصر دينه ويؤيد المؤمنين، فلن يستطيع المشركون ولا من يكون معهم أن يستولوا على المؤمنين الصادقين المطبقين لشرع الله في حياتهم.

### بيان المعنى العام:

## 136- يا أيها الذين آمنوا كونوا...بما تعملون خبيرا.

نداء للمؤمنين ليكونوا دوما مستحضرين القاعدة الأولى التي بُني عليها الدين الإسلامي، هي الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزله بواسطة الملك جبريل عليه فتلقاه وبلغه، وبأن الله لم يهمل البشرية فأنزل أيضا كتبا بلغهم إياها رسلهم، ولكنهم فرطوا فيها فلم تحتفظ بصدقها الذي أنزلت عليه، فطواها الزمن أو حرفت تحريفا فقدت معه كل حجية، فالإيمان بها هو إيمان إجمالي لا تفصيلي. ولزيادة البيان والتأكيد صرح القرآن بالوجه المقابل للإيمان وهو الكفر ومبانيه التي هي ضد الأولى، وفصلها تفصيلا أتم. فمن كفر بالله بإنكار الألوهية أو بادعاء شريك له، أو أنكر وجود الملائكة، أو جحد أن الله أنزل كتبه وحيا إلى رسله، أو كذب الرّسل جميعهم أو كذب واحدا منهم، أو لم يؤمن بالبعث وما كشف عنه

القرآن مما يجري يوم القيامة (اليوم الآخر) من كفر بكل ذلك أو بواحد منها فقد ابتعد عن الحق بعدا كبيرا فقد معه الاهتداء. هو كمن طلب أن يبلغ مكانا عن يمينه فاتجه وجهة الشمال فكلما زاد خطوة وأوغل في سيره زاد ضياعا وضل ضلالا كبيرا.

## 137- إنّ الذين آمنوا... و لا ليهديهم سبيلا.

إن هؤلاء الكافرين على مراتب، فأشدهم ضلالا المتلاعبون بالدين الذين أظهروا الإيمان ثم ارتدوا فكفروا، ثم أظهروا الإيمان من جديد ثم رجعوا إلى ضلالهم وكفرهم، وتمكن الكفر من قلوبهم وغشى على بصائرهم واستمروا على كفرهم إلى الموت ؛هؤلاء ما قدر الله لهم من واسع مغفرته شيئا، وحرمهم من كل هداية، أطبق عليهم ظلام الكفر فلا يبدو لهم أي خيط من أنوار الإيمان.

## 138-139، بشر المنافقين بأن لهم...فإن العزة لله جميعا.

هؤلاء المنافقون الذين كانوا يسخرون من المؤمنين ويتلاعبون بالدين ، توجه القرآن على طريق التهكم بهم، فدعا النبي ﷺ أن يبشرهم، وبما ذا يبشرهم ؟ يبشرهم بعذاب يبلغ ألمه كل جزء من كيانهم. ثم شنع بهم وفضحهم مبرزا ضعف مداركهم، إذ كانوا في باطن أمرهم يتولون مشركي مكة فيخلصون لهم ويؤيدونهم ويظهرون لهم الود ويعدونهم بأنهم معهم وأنهم من ناحية أخرى لا يعتمدون إلا عليهم، يفعلون ذلك مضادة للمؤمنين. ويبلغ التشنيع بغبائهم مبلغا كبيرا بإلقاء السؤال التالي: لما ذا يتولون المشركين ؟ أيتولونهم ليعتزوا بهم ؟ إن العزة لله لا يشاركه غيره فيها إلا من أراد الله أن يعزه. وذلك بين، لأن أمر المشركين إلى زوال وضعف، والإسلام يزداد كل يوم امتدادا وانتشارا وقوة. فهم قد خرجوا من دائرة العزة والقوة إلى دائرة الهوان والضعف.

## 140-وقد نزل عليكم في الكتاب...والكافرين في جهنم جميعا.

ثم التفت القرآن إلى المؤمنين يحذرهم من المنافقين الذين كانوا يخفون نفاقهم، فنبههم إلى أمر ربما يغفل عنه بعضهم. ذلك أن المنافقين وقد كانوا مندسين في المجتمع المدني ويبالغون في التخفي، بلغوا من خبثهم أنهم يعمدون إلى المقدس، إلى آيات الله فيكفرون بها ويستهزئون بها، ويظهرون أنهم إنما يفعلون ذلك ترويحا للنفس ولعبا، وهو ما صرحت به الآية (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض

ولتعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون)[1] نبـه القـرآن المـؤمنين الصـادقين: أن عليهم بمجرد ما يبلـغ المنـافقون هـذا الحـد مـن الجـراءة، أن يقومـوا مـن ذلـك المجلس ويقـاطعوهم، إظهـارا لغضـبهم ولرفضـهم التجـري علـى آيـات الله. وهـذا الموقف هو الموقف المـدني، ففـي المجـامع الدوليـة إذا تعـدى أحـد الخطبـاء علـى مقدسات دولة من الدول خـرج وفـد تلـك الدولـة حـالا رفضـا لمـا سـمع وإنكـارا. وعرّف المؤمنين بما يترتب على مصـانعتهم والبقـاء معهـم إذا تعمـدوا السـخرية مـن الحق الذي أنزل عليكم، إنكـم إن بقيـتم تكونـوا مسـاوين لهـم، وأعْظِـمْ بـذلك إنكـارا ووعظا. ولا فرق بـين عاقبـة الكـافرين الصـرحاء وبـين المنـافقين، إن الله سـيجمعهم في جهنم مأوى العذاب والمهانة.

## 141- الذين يتربصون بكم... على المؤمنين سبيلا.

تابعت الآية التالية الكشف عن نفسية المنـافقين القلقـة، فهـم بـين مـا يحبـون تحقيقـه، وبين الواقع الذي يكذب أمانيهم في معظم الأحوال. هـم منتظـرون، لـيس لهـم موقـف صريح، فكل صدام بين الكفر وبين جماعـة الإيمـان، تـراهم إن أنـزل الله تأييـده وفـتح على المسلمين ما يثبت الصادقين ويقمع الكافرين، قال المنـافقون: ألـم نكـن معكـم، بمـا أعلنوه، كـذبا، مـن إيمـانهم، وحضـورهم مشـاهد التجمعـات الإسـلامية. وإن كـان للكافرين نصيب قليل من الغلبة، طاروا فرحا وأدلـوا بمـا كـان لهـم مـن فضـل فـي ذلك، ذكروا المشركين بأنهم هم الـذين تولـوا تخطـيط مـا أقـدموا عليـه فـي حـرب المسلمين، وفصلوا لهم مـا يجـب فعلـه ومـا يتحـتم تركـه، ثـم دفعـوهم إلـى قتـال المسلمين، وهونوا عليهم أمر المعركة، فهذا هـو معنـى الاسـتحواذ فـي الآيـة. ذلـك أن هذه الصيغة تأتي بمعنى الاستيلاء والغلبة كقولـه تعـالى (اسـتحوذ علـيهم الشـيطان)[2] ووردت في هذه الآية، وتأويلها على الغلبة كمـا جـرى عليـه المفسـرون السـابقون فيـه تمحل وحمل على معنى بعيد لا ينسجم مع ما جـاء تاليـا لهـا (ونمـنعكم) فهـم بـين دفع وحماية.

إن إدلال المنافقين على المشركين ورد مركبـا مـن أمـرين، أنهـم أحـاطوا بالمشـركين بتفننهم في حملهم علـى الهجـوم علـى المسـلمين بتـوهين قـوة المسـلمين، وبمـدهم بأخبارهم، واطلاعهم على الثغرات التـي يُؤتَـوْن منهـا، وضـخموا نـواحي الضـعف فيهم، حتى دفعوهم إلى شن الحرب، ثـم إنهـم مـن ناحيـة أخـرى أدلـوا بمـا كـانوا

---

[1] سورة التوبة الآية 65.

[2] سورة المجادلة آية 19

يقومون به من حماية الكافرين من المسلمين، بترويج الإشاعات التي يرمون من ورائها بث الخوف في المجاهدين، ومن عونهم بالسلاح والعتاد خفية، ومن خروجهم مع المسلمين للجهاد ثم رجوعهم قبل المعركة ليدخلوا الاضطراب في الجيش الإسلامي كما كان موقفهم الذي سجله القرآن عليهم في وقعة أحد كما سبق بيانه في هذه السورة. فكلمة استحوذ، مأخوذة من الحوذ: السوق السريع أو العنيف وقال الفيروزابادي في البصائر: (استحوذ، استاقهم مستوليا عليهم من حاذ الإبل يحوذها إذا استاقها سوقا عنيفا)[1] فهم يُدلّون بأنه لولا ما قدموه للمشركين ما كانت المعركة لتنشب، فهم يريدون أن يقنعوا المشركين بأنهم هم الذين دفعوا إليها ويسروا لهم أمرها وتولوا منع المسلمين من النكاية بهم. وبهذا يترجح عندي أن ما يرغب المنافقون فيه ليس التحصيل على حظ من المغنم، كما خرج الآية عليه معظم المفسرين وإنما الذي يبغون ترويجه، أن يثق بهم المشركون وأن يطمئن إليهم المسلمون. وما كشفه القرآن من مكر المنافقين مع اندساسهم في صفوف المسلمين، وعدم تميزهم، أتبعه القرآن بأنهم وإن استطاعوا أن ينفلتوا من تسلط المؤمنين عليهم في الحياة الدنيا فإنهم سينالون الجزاء العادل يوم القيامة وسيفضحهم في ذلك اليوم بإحضارهم للمحاكمة بين يديه. ثم طمأن القرآن المؤمنين بأن الله قدّر أن لا يكون للكافرين عليهم السلطان الذي يظهرون به على الإسلام، وتكون لهم الغلبة عليهم.

وهنا يثور سؤال حاصله: أن الكافرين قد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم في الأندلس، وأجبروا من بقي منهم على التنصر، وسجل التاريخ التنكيل المخزي بأوامر رجال الكنيسة، وكذلك الأمر في صقلية، ثم إن الاستعمار قد اكتسح بلاد العالم الإسلامي واستولى الكافرون على أموالهم وأراضيهم، وتحكموا في رقابهم، وسخروهم لنصرتهم في حروبهم. والله لا يخلف وعده.

والجواب عن ذلك: هو أن المؤمنين الذين وعدهم بالحماية والتأييد ليسوا الذين ينتسبون إلى الإسلام بأقوالهم أو بأمانيهم، ولكن المسلمين الذي كتب الله لهم العزة ووعدهم أن لا يجعل للكافرين عليه سبيلا، هم المسلمون الذين يطبقون ما جاء عن الله في الأسس التي أمروا بمراعاتها في السلم والحرب. ففي الحرب أمروا بالاستعداد والجهاد. الاستعداد الذي يحتم عليهم أن يكون مستواهم العلمي في صناعة الأسلحة ومستواهم في فنون الحرب يتطور مع الزمن، يثبتون دائما على

---

[1] ج تاج العروس ج9 ص 340/399

أن يكونوا في مقدمة الأمم في هذا الميدان يرهبهم أعداؤهم، وتصغر أي دولة عن أن تحدثها نفسها بالاعتداء عليهم. وبالجهاد بما يقتضيه من التدريب العالي وتربية النفوس على العزة وبذل النفس في سبيلها.

وفي السلم بأن يكونوا صفا واحدا متعاونين لا يفرق وحدتهم أطماع دنيوية حقيرة، وأن يكونوا في ميدان العلوم أئمة بما يبذل في سبيله من عزم قوي وبذل سخي. وأن تكون راية العدل ناصرة للحق مؤكدة للعزة لا ينكسها أي سلطان، مصونة من العبث ومن تسخيرها للأغراض السافلة، وأن يكون الالتزام بالقيم الخلقية يمثل عقدا بين المؤمنين جميعا على مختلف مستوياتهم. وأن يكون الالتزام بالعبادة الحارس لهذا البناء، يمليه الشعور بلذة الطاعة. فهل المسلمون عندما غلبوا على أمرهم كانوا على هذه الحال؟ التاريخ يشهد أنهم ما انهزموا إلا بعد انفلات العقد الرقيع الذي نظمه الإسلام فتناثرت حباته، وتمزق النسيج المتميز فتناثرت لحمته وسداه، ولم يبق من الإسلام إلا أشباح بدون روح .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

**بيان معنى الألفاظ:**

**يخادعون:** يظهرون خلاف ما يبطنون تمويها وتضليلا.

**كسالى:** جمع كسلان وهو من كان فاترا متثاقلا في القيام بعمله،

**المذبذب:** المتردد بين أمرين

**الدركة:** المنزلة في الهبوط

## بيان المعنى الإجمالي:

فضح القرآن المنافقين بأن صورة أعمالهم كصورة من يسعى لخداع الله، إنهم يجتمعون مع المسلمين في بعض المجالس الصالحة فقد يحضرون الصلاة مع الجماعة، وقد يتقدمون لرسول الله ﷺ بالسؤال أو طلب فصل قضية نزاع ونحو ذلك، وهم يظنون أن الله لما لم يعجل بعقوبتهم ولم يوقف كيدهم، أنهم أمنوا جانبه وخدعوه. ويثبت القرآن أن الله لما لم يعجل عقابهم ولم يستأصل شوكتهم هو قد أملى لهم، فهم في الحقيقة مخدوعون لا خادعون، لأن جزاءهم مؤجل و ثابت لا شك فيه.

وللمنافقين سمات ينقشع بها ما أخفوه من حقيقة أمرهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متثاقلين همهم أن يظهروا للناس بمظهر العُبّاد رياء، ووهَنت صلتهم بالله فلا يذكرون إلا في حالات قليلة مما جرى على الألسنة أو في الظروف التي يظنون أن هناك من يرقبهم. وهم أيضا فقدوا الطمأنينة في العقيدة والحياة فهم مرة مع المشركين يتوددون إليهم ويبذلون لهم ما يُمكّنُهُمْ من مناوأة الإسلام والمسلمين، ومرة مع المسلمين يظهرون لهم أنهم معهم حتى بالعون بالمال إخفاء لمكرهم، وهم بذلك كانوا ممزقين بين الكفر والإيمان، فلاهم مؤمنون حقا ولا هم معلنون بكفرهم فيُتّقَوْن. وقد كتب الله عليهم الضلالة بسوء أعمالهم وفساد طويتهم فلا تنتظرْ أن يهتدوا لسبيل الحق.

ولما كان وضع الكفر الظاهر والخفي ما بينه القران، نبه الله المؤمنين إلى خطرهم فحتم عليهم أن لا يعتمدوا عليهم ولا يعاملوهم معاملة الأولياء، حذرهم سوء العاقبة بأن من يتولى الكافرين لا يجد يوم القيامة جوابا ولا عذرا ينجيه. فلا بد أن يتحقق في الكون صفاء التركيب الاجتماعي الإسلامي. وشدد التحذير من المنافقين بأن مصيرهم هو في أحط المنازل وأسوئها في النار ومع العذاب المهين اليأس من المستقبل فلا يجدون نصيرا يخفف عنهم يوما من العذاب.

وكشأن القران يعمل دائما على جلب الناس لطريق الهدى لا للانتقام منهم فيبشر المنافقين، على عظم جرمهم، بأنهم إذا تابوا، وأصلحوا عقيدتهم وعملهم ووثقوا بفضل ربهم وأخلصوا فطردوا كل شبهة من شبه الشرك وكل دخيلة من رياء، فإن مصيرهم هو مصاحبة المؤمنين الذين لم يخالط النفاق قلوبهم، المؤمنين الذين أعد الله لهم أجرا عظيما لا يحد مقداره. ويؤكد هذا المعنى بأن الله لا يريد التنكيل بعباده الذي عرفوا حق نعمه عليهم وآمنوا. فإن الله يشكر لعباده بحسن الجزاء للصالحين. والله من صفاته أنه شاكر وهو العليم الذي لا يلتبس عليه أمرهم ومقاصدهم.

بيان المعنى العام:

## 142 - إن المنافقين يخادعون...ولا يذكرون الله إلا قليلا.

واصل القرآن كشف حقيقة المنــافقين وفضــح دخيلــتهم. إن أهــم ســمة للمنــافقين هــي قدرتهم على التخفي، والظهور بمظاهر تجعل الناظر إلــيهم يظــن بهــم الخيــر والكمــال، وفي الحقيقة هم يبطنون خلاف ذلك. يحضرون الصلاة مــع النــاس، وقــد يبــذلون مــن المال ما يبعــد تصــور عــدائهم للإســلام، يعملــون علــى هــذا النسـق ليتمكنــوا مــن الاندساس في صفوف المسلمين ويطلعوا علــى أســرارهم، ويمكــروا بهــم كلمــا وجــدوا الفرصة سانحة، وهمهم أن يســهموا فــي القضــاء علــى الإســلام. فأعمــالهم الظــاهرة تعتمد على غفلة الآخرين. ومــن غبــائهم وفســادهم أنهــم يظنــون أن الله غيــر مطلــع على ما ينسجونه من مكر وما يبيتونه من بغض لدينــه ومــا يخططونــه للإجهــاز عليــه، وأنه لما أمهلهم ولم يسلط عليهم عاجل عقوبته، أنهم بــذلك قــد حققــوا مــا يريــدون دون أن يمسهم أذى. ويعلن القرآن أن ما يترصدهم من جزاء يــوم القيامــة يكشــف لهــم أنهــم هم المخدوعون، والله أجل مــن أن يخفــى عليــه مــا تنطــوي عليــه صــدورهم ومــا يعدونه في الخفاء. وحتى يعرفهم المؤمنــون كشــف القــرآن عــن بعــض ســماتهم التــي تميزهم.

أول سمة: أنهم إذا حضروا وقــت أداء الصــلاة مــع المــؤمنين يظهــر علــيهم التثاقــل والوناء، على عكس المؤمنين الصادقين الذين ينشطون لأداء الصلاة.

وثانيتها: أن صلاتهم صلاة الرياء والإظهار للنــاس، تنفصــل ظــواهرهم عــن بــواطنهم. إنه إذا خشع القلب سكنت الجوارح وبــدا علــى العابــد ملامــح الإقبــال علــى الله، أمــا المنافق المرائي فــإن وضــعه الفاقــد لشــعور الاتصــال بــالله لا يكــاد يخفــى علــى المحققين.

وثالثتها: أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا.

هذه السمة لا تكاد تخفى، فإن المؤمن ينطلق لســانه بــذكر الله مقارنــا لمعظــم أوضــاعه، بالتسمية والتكبير وقراءة القرآن ومختلف أنواع الذكر التي تطمئن القلب.

## 143-مذبذبين بين ذلك...فلن تجد له سبيلا.

ورابعتها: أنهــم لكثــرة تلــونهم وبعــدهم عــن الاختيــارت البينــة والمــنهج الواضــح، صاحبهم في حياتهم اضطراب في كــل شــؤونهم ومــن أهمهــا عقيــدتهم، فهــم ليســوا مؤمنين يعيشون مع المســلمين عيشــة المســلم وجهــه لله، ولا مــن الكفــار الرافضــين للدعوة المحمدية، فهم يظهرون انتسابهم للإســلام ويــأتون مــن الأعمــال ويتخــذون مــن

المواقــف مــا لا يرضـــى عنــه إلاّ الكــافرون، ويتأيــدون بالكفــار ويســرون إلــيهم بالإخلاص لهم.

إن الله قد حرمهم هدايته ومنع عنهم ألطافه، فلا يجـدون مــع ذلـك ســبيلا إلــى الهـدى ورياض الإيمان.

## 144-يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا...سلطانا مبينا.

وإذ قد فضح القرآن المنافقين وما يتآمرون بــه مــع الكفــار للانقضــاض علــى الإســلام وسحقه من الوجود، وأن عداءهم له عداء قـد تأصــل فــي قلــوبهم وأعمــالهم. فالواجــب على المســلمين أن يحــذروا مــوالاتهم، والاقتــراب مــنهم اقتــراب المــودة، والتعــاون معهم، وتقديمهم على المؤمنين. إذ التعــاون مــع الغيــر ضــرورة لا معــدل عنهــا فــي الحياة فإذا والوا المشــركين، فمعنـــى ذلــك أنهــم قـدموهم علــى المــؤمنين، وضــعفت الرّابطة الإيمانية عن التأثير في الحياة الجماعيــة تــأثير القــوة وتمكــين الــود. ويبلــغ التحذير من القوة أن من يربط صلاته بالكافرين يفقـد كـل حجـة وكـل عـذر يمكـن أن يخفف من جزاء فساد سلوكه وما تنبئ عنه موالاتــه مــن دخــل فــي عقيدتــه، ويفقـد كل جواب عندما يتعرض للسؤال يوم القيامة عن هذه الموالاة.

## 145-إن المنافقين في الدرك...ولن تجد لهم نصيرا.

أكد القرآن النهي عن تــولي المشــركين الــذي هــو شــأن المنــافقين، بــإعلان مصــير المنافقين، وأن موعدهم الدركات النازلة فــي نــار جهـنم، فحتــى فــي العــذاب يكونــون أحط أهل النار. والتصريح بأنهم لا يجدون نصــيرا يشــفع لهــم أو يؤيــدهم هــو تعبيــر عن اليأس الذي يصحب عذابهم البدني.

## 146-إلا الذين تابوا وأصلحوا...أجرا عظيما.

واستثنى القرآن من المنافقين الذين استيقظ ضــميرهم وانفــتح لهــم بــاب الرّشــد فــأقلعوا عن النفاق، وتابوا منه عائــدين إلــى ربهــم، وأتبعــوا التوبــة بصــلاح العمــل، ووثقــوا بفضــل الله وأن هدايتــه هـــي الطريــق المنجــي، وتمكــن الإخــلاص لله مــن قلــوبهم وأرواحهم فكان تدينهم لا تشوبه شائبة شرك ولا دخيلــة ريــاء، فهــؤلاء مــع المــؤمنين، لا يضرهم ما سبق منهم. وهذا التوكيد جــرى عليــه القــرآن، ومفــاده أن التوبــة إذا لــم يقرنها لوازمها من التحول عن المسيرة التي كان يسير عليهــا الآثــم، إلــى مــا يضــادها من التزام واستقامة وتطبيق عملي لشرع الله، هــي توبــة فارغــة مــن محتواهــا مُعطّلــةً عن آثارها. وحث المنافقين على التوبة، بــأنهم بمــا يتفضــل الله بــه علــيهم مــن قبــول

توبتهم وحشرهم في زمرة المؤمنين، بأن ما وُعد به المؤمنون، الذين سيصحبونهم، من تكريم، هو أجر يفوق في عظمته التصور ولا يحد مداه.

لقد تتابع الوعيد بعذاب المنافقين والمشركين في الآيات السابقة وعقبت هذه الآية بنفي وهم: أن تسليط عذاب الله عليهم هو تشف منهم.

## 147-ما يفعل الله بعذابكم...شاكرا عليما.

أعلن القرآن للناس جميعا أن الجزاء هو من ينابيع الحكمة الإلهية، وهو من الارتباط بين الأسباب والمسببات فمن آمن واتقى يكون قد هيأ لنفسه موجبات الكرامة والطمأنينة في الحياة الدنيا ونعيم الجنة والفوز يوم القيامة. وأما من كفر مصرا وأعرض معاندا فقد أعد لنفسه الخسارة في الدارين. وأن الله لا ينتفع بعذابهم. فمن شكر بصرف النعمة فيما خلقت له وانبعثت أعماله عن عقيدة مصدقة بأركان الإيمان مطبقة لمقتضياتها، فإن الله يشكر للصالحين أعمالهم ويثيبهم ويُثَبّتَهُمْ، وهو العليم بحقائق الأمور وبواعث الأعمال.

# الفهـــــرس